الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

تأليف

أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني (٥٤٢)

تحقيق

الدكتور إحسان عباس

دار الثقافة
بيروت - لبنان

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

تأليف

أبي الحسن عليّ بن بسّام الشنتريني (٥٤٢)

القسم الثاني - المجلد الأول

تحقيق

الدكتور إحسان عبّاس

دار الثقافة
بيروت - لبنان

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

٢

١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م

مقدمة التحقيق

هذا هو القسم الثاني من الذخيرة وهو يشمل تراجم أدباء الجانب الغربي من الأندلس ، أي أهل حضرة إشبيلية وما اتصل بها من بلاد ساحل المحيط الرومي ، وقد اعتمدت في تحقيقه على أربع مخطوطات [1] يمكن أن تمثل فئتين ــ تضم الفئة الأولى :

(١) مخطوطة الخزانة العامة بالرباط (رقم : D 1324) وقد رمزت لها بالحرف (ط) ومجموع ورقاتها ١٥٧ ورقة ، وهي مكتوبة بخط أندلسي جميل محلى بشكل جزئي ، وعدد السطور في الصفحة الواحدة ثلاثون سطراً ، ومعدل الكلمات في السطر الواحد اثنتا عشرة كلمة ، ومسطرتها ٢٧ × ١٩,٥ وعلى هوامشها قراءات من نسخة أخرى ، وتعليقات بعضها بخط الناسخ نفسه ، وبعضها بخط متأخر في الزمن مختلف عن خط الناسخ ، وقد أثبت من القراءات المقارنة ما رمز إليه الناسخ بالحرف (خ) ، وحذفت ما صرّح الناسخ بأنّه ليس من أصل الذخيرة ، كما حذفت التعليقات والإضافات المتأخرة .

وقد فرغ الناسخ من كتابة هذا القسم من الذخيرة في زوال يوم الأربعاء ٢٤ ذي القعدة عام ١٠٠٥ ، وهو الذي قام بنسخ القسم الأول والثالث من هذا الكتاب أيضاً ، واسمه أحمد بن الحاج علي بن الحاج أبي القاسم بن محمد بن سودة الأندلسي . ولما كانت هذه النسخة هي خير النسخ التي حصلت عليها ضبطاً ودقة فقد أثبت أرقام أوراقها في سياق هذه الطبعة . ومع أنها

[1] هناك نسخة مغربية خامسة إلا أني استبعدتها لأنها غير واضحة .

ــ نسبياً ــ متأخرة في الزمن ، فإنها تعدّ من أقدم النسخ المتيسرة من الذخيرة وهذه مشكلة لم أستطع التغلب عليها ، فأنا ــ حتّى اليوم ــ لم أستطع العثور على نسخ تتمتع بقدم واضح ، أو حتّى على الأصل الذي أخذت عنه (ط) أيّاً كان تاريخه .

(٢) مخطوطة بغداد ، وقد رمزت لها بالحرف (د) وتحتوي ٣٣١ صفحة ، مكتوبة بخط نسخي مشرقي حديث وعدد السطور في الصفحة الواحدة ٢٩ سطراً ومعدل الكلمات في السطر الواحد إحدى عشرة كلمة ، ومسطرتها ٢٥ × ١٤,٥ ، وقد كتب على الصفحة الأخيرة منها : « تمّ نجز ولله الحمد تسويد هذا الجزء من الذخيرة لابن بسام عليه الرحمة على نسخة قديمة بخط مغربي مغلط ، وقد اجتهدت بتصحيحها حسب الإمكان ، والله المستعان . وقد وافق ذلك اليوم الحادي والعشرين من شهر المحرم سنة أربع وعشرين وثلثمائة وألف هجرية ، على يد أفقر الورى للطف ربّه المنّان : عبد اللطيف ثنيان ، في بغداد المحمية ، صانها الله عن كل بلية ، آمين » .

إذن فهذه النسخة حديثة جداً ، وقد صرّح ناسخها بأنّه نقلها عن أصل مغربي ، ولا ندري حتّى اليوم من أمر هذا الأصل شيئاً ، ولكني أستطيع أن أقول إنّ (د) منقولة عن أصل يشبه (ط) للتماثل الدقيق بين القراءات حتّى في الخطأ ، وللتطابق التام في طول كل ترجمة ، وفيما نقص من تراجم كاملة أو أجزاء من ترجمات ، كما سيأتي بيانه بعد قليل ، وكل الفرق بين النسختين أنّ ناسخ (د) حاول أن يجتهد في بعض القراءات ، التي عدّها خطأ في الأصل ، ولم يسلم من إضافة أخطاء جديدة ، مما قد يلحق الناسخ عن طريق السهو .

وتضم الفئة الثانية من المخطوطات :

(٣) مخطوطة الخزانة الملكية بالرباط (رقم : ٩١٤٤) وقد رمزت لها بالحرف (م١) وتقع في ٢٤٥ ورقة ، وهي مكتوبة بخط أندلسي ، ومسطرتها

١٩,٥ × ٢٣ ، وعدد السطور في الصفحة الكاملة ٢٢ سطراً ، ولكن هذا لا يطرد لأن الناسخ يراوح كثيراً بين الكتابة بخط ذي حجم عادي والكتابة بخط كبير جداً حتّى ان عدد الأسطر في الصفحة الواحدة لا يزيد عن أحد عشر سطراً . وهذه الكتابة بالخط الكبير لا تقتصر على عنوانات الفصول بل تشمل كل ما ظنه الناسخ بداية فقرة جديدة . وتظهر في هذه النسخة آثار الأرضة بكثرة ، وفيها خروم ضاعت بسببها أوراق كثيرة كما تنبهم الفوارق فيها بين عدد من الحروف المتقاربة في صورها ، وهي لا تشمل كلّ القسم الثاني ، وإنّما تنتهي عند أوائل ترجمة ابن عبدون ثم تجيء في خاتمتها صورة تملك على هذا النحو : « الحمد لله : تملك هذا الكتاب عبده تعالى أبي [كذا] بكر بن أحمد بن علي أعانه الله على طاعته » . إلاّ أنها لا تحمل تاريخاً .

ورغم ما في هذه المخطوطة من عيوب فقد كانت ذات دور هام في ما قدمته من عون أثناء تحقيق هذا القسم ، لانفرادها عن (ط) واعتمادها على أصل آخر ، وهذا ما جعلها تحفل بزيادات غير موجودة في (ط) وقرينتها (د) ومنها زيادة في ترجمة عبد الجليل بن وهبون وأخرى في ترجمة أبي بكر ابن عبد العزيز كما أنها تنفرد إذا قورنت بالنسختين السابقتين بإيراد ترجمة ابن مرزقان .

(٤) نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم : ٣٣٢٢ (ورمزها : س) ، وهي منسوخة عن نسخة عدد أوراقها ٢٢٢ ورقة مثبتة أرقامها على هوامش الصفحات ، وتقع (س) في ٢٦٥ ورقة ، وعدد السطور في كل صفحة عشرون سطراً ، ومعدل الكلمات في السطر الواحد ١٢ كلمة ، وخطها نسخي حديث ، ويبدو أن كاتبها أجنبي ، يدلّ على ذلك نوع الخط ، ومحاولة رسم الكلمات دون إدراك لمعناها ، وكثرة الأخطاء في الصفحة الواحدة ، وقد تمّ نسخها في ١١ أكتوبر سنة ١٨٨٤ .

ولا ريب في أنّ الأصل الذي نقلت عنه (س) قريب الشبه بالنسخة (م) وقد احتفظت النسخة الباريسية أيضاً بالزيادات التي جاءت في نسخة الخزانة الملكية بالرباط ؛ وكان لا بدّ من الاعتماد على (س) لأنّ قرينتها (م) غير كاملة ، فاستطاعت نسخة باريس أن تمدنا بترجمة لم ترد في مخطوطات الفئة الأولى وأعني بذلك ترجمة الأعمى التطيلي . أما فيما عدا ذلك فانّه ليس في مقدور أيّ محقق أن يثبت جميع الفروق التي تتمتع بها (س) لأنّ أكثرها قائم على الخطأ المحض ، وإنّما كان أكثر الاعتماد عليها استئناساً بطبيعة السياق ، وترجيحاً إن أمكن الترجيح .

وبعد : فقد كان هذا القسم من الذخيرة معدّاً للنشر في النصف الأول من سنة ١٩٧٥ ، بعد الانتهاء من طبع القسم الثالث ولكن كان يمنعني من دفعه إلى المطبعة إحساسي بأنّ هناك شيئاً ينقصه ويتمثل هذا في مواطن :

١ — ترجمة أبي الوليد الباجي ، فقد كتب في هامش ط أنّ الترجمة لا يزال ينقصها ورقة ونصف الورقة ، وهو شيء لم أستطع العثور عليه في (م) أو (س) رغم انتمائهما إلى فئة مختلفة .

٢ — إن ترجمة الوزير أبي عبيد البكري لا يمكن أنْ تكون كاملة ، فإنّ ابن بسام لم يورد شيئاً من نثره أو شعره .

٣ — إنّ فهرست الذخيرة (في صدر القسم الأول) ينصّ على وجود ترجمة لمن اسمه « الوزير الخطيب الأديب أبو عمر ابن حجاج » تقع بعد ترجمة أبي عبيد البكري ولا وجود لها في المخطوطات الأربع ، أليس من المعقول أن تكون موجودة في مخطوطة أو مخطوطات أخرى ؟ وفي هامش (ط) ما ينبيء بأنّها ناقصة ، وكاتب هذا التعليق بخط متأخر ، ربما فعل ذلك لأنّه رآها في مخطوطة أخرى .

٤ — إن الزيادات التي وردت في نسختي (م) و (س) قد تشير

إلى أن استكشاف مخطوطات أخرى قد يتيح العثور على زيادات جديدة .

لهذا كله آثرت التريث ؛ وغادرت بيروت في سبتمبر (أيلول) ١٩٧٥ إلى جامعة برنستون ، واشتدت وطأة الأحداث المؤسفة في أثناء ذلك على لبنان ، وكان أن سعى بعض أصدقائي — جزاهم الله خيراً — إلى تصوير مسوّدة القسم الثاني ، كما تركتها محققة ، وإرسالها لتودع عند صديقي العلاّمة يوسف فان اس ، بجامعة توبنجن بألمانيا ، ولم أستطع رؤية هذا القسم من الذخيرة إلا بعد عودتي إلى بيروت في حزيران (يونيه) ١٩٧٧ ؛ وفي أثناء هذه الغيبة صدر من هذا القسم قطعة تستغرق حتى آخر ترجمة أبي العلاء بن زهر ، قام بتحقيقها الدكتور لطفي عبد البديع [١] ، ولما قارنتها بما كنت حققته وجدت مصداق بعض ما قدرته فقد احتوت تلك القطعة (اعتماداً على النسخة الكتانية) ما تفتقده النسخ من ترجمة أبي الوليد الباجي ، ولعلّ هذه النسخة الفريدة (أعني الكتانية) أن تكون قد احتفظت أيضاً بكل ما قدّرته من نقص في النسخ التي تيسرت لي ، أو بمعظمه .

إنني أكتب هذه المقدمة ، وقد قطع هذا القسم شوطاً غير قليل في المطبعة ، ولهذا رأيت أن أضيف إليه ما جاء من زيادة في ترجمة الباجي مستمداً من القطعة التي حققها الدكتور عبد البديع ، وأن أصنع لترجمة البكري تحشية مما ورد في المصادر من شعره ونثره ، أميزها عما عداها لأنها ليست من أصل الذخيرة ، راجياً إذا أتيح لي الاطلاع على النسخة الكتانية — وهو شيء لا أظنه سهلاً — أو غيرها من النسخ ، أن أثبت الزيادات وفروق القراءات في نهاية هذا الجزء .

لقد كنت أظن أنّ الصعوبات ستصبح مذللة لإخراج هذا القسم على نحو أكثر تحقيقاً للرضى . ولكني حين أعتبر هذه الفترة الطويلة التي مضت على

---

١ الهيئة المصريه العامة للكتاب : ١٩٧٥ .

الذخيرة ــ ولعلها أن تكون أهم مصدر من مصادر الأدب الأندلسي ــ دون أن تيسر للقراء والدارسين ، أحس أن إخراجها على هذا النحو خير من التمادي في تأخير احتجابها حتى تكتمل جميع الوسائل .

ولقد كان العبء في هذا القسم ــ كما كان في القسمين السابقين : الأول والثالث ــ يستنزف موفر الطاقة ، ومذخور الجهد ، فالذخيرة لا يمثل نصاً سهلاً ، يتفق كل الناس على قراءته ــ وبخاصة للتباعد بين المخطوطات ــ ولا يمكن الاسراف فيه في ناحية على حساب ناحية أخرى ؛ بل لا بد من الموازنة بين الشرح والتعليق والتخريج وترجيح القراءات ، والاقتصار على الضروري ، مع مراعاة الربط بين الذخيرة والمصادر الأندلسية (وأحياناً غير الأندلسية) الأخرى . وقد تلقيت العون في تحقيق هذا القسم من اثنين يستحقان كل شكري وتقديري وهما الدكتورة وداد القاضي التي لم تأل جهداً في تدقيق الملازم الطباعية ، وتوجيه بعض القراءات التي أعياني أمرها ، والإشراف على الفهارس المفصلة الدقيقة ، والدكتور ألبير مطلق ، الذي بذل جهداً طيباً في معاونتي على مقارنة النسخ ، والتضحية بوقته في تقديم كل ما يعين على إنجاز هذا القسم .

فإليهما مرة أخرى ، تقدير عارف بمدى ما بذلاه من جهد مخلص ، والله يوفقنا جميعاً إلى ما فيه الخير .

بيروت في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٧ — احسان عباس

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله

فصل[1] في ذكر الأعيان المشاهير، من أرباب صناعة المنظوم والمنثور، بحضرة إشبيلية ونواحيها، وما يصاقبها ويدانيها، من بلاد ساحل البحر المحيط الرومي، وهو الجانب الغربي من جزيرة الأندلس، وإيراد ما بلغني من غرر أشعارهم، ومستطرف أخبارهم، مع ما يتعلق بها، ويذكر بسببها

قال ابن بسام: وحضرة إشبيلية على قِدَمِ الدهرِ كانت قاعدةَ هذا الجانب الغربيّ من الجزيرة، وقَرارةَ الرياسة ومركزَ الدولِ المتداولة، ومنها مُهِّدَتِ البلادُ، وانبَثّتِ الجياد، عليها الفرسان، كأنّها العقبان، وبهذا الأفقِ نزل جندُ حمص من المشرق فَسُمّيَتْ حمص، ولمّا كانت دارَ الأعزّةِ والأكابر، ثابتٌ فيها الخواطر، وصارت مجمعاً لِصَوْبِ العقول وذوبِ العلوم، وميدانَيْ فرسانِ المنثور والمنظوم، لا سيّما من أوّل المائةِ الخامسة من الهجرة حين فرِحَ كل حِزْب بما لديه، وغلبَ كلَّ رئيسٍ

....

[1] نشر دوزي هذا الفصل من الذخيرة الخاص ببني عباد، في المجموع الذي ضم ما جاء عن هذه الأسرة في المصادر العربية، وذلك في الجزء الأول ص ٢٠١ – ٢٢٣.

على ما في يديه ، بعد الدولة العامرية ، فأضْحَتْ أقطارُ الجزيرةِ يومئذٍ كبني الأعيان ، وأهلها كما قال أخو بني عدْوان [1] :

عذيرَ الحيّ من عدوا نَ كانوا حيّة الأرضِ
بغى [2] بعضهُمُ بعضاً فلم يُبْقوا على بعض

فاشتمل هذا القطرُ الغربيُّ لأول تلك المدَّةِ على بَيْتَي حسب ، وجمهوري أدب ، مملكتان من لخمٍ وتُجيب، مَصَّرتا بلادَه ، وأكثَرتَا رُوَّادَه ، فأتاه العلمُ من كلّ فجٍّ عميق ، وتَبادَرَهُ العلماءُ من بين سابق ومسبوق ، وكلّما نشأ من هذين البيتين أميرٌ كان إلى العلم أطلبَ ، وفي أهله أرغب ، والسلطانُ سوقٌ يُجْلَبُ إليه ، ما يَنْفُقُ لديه ، حتى اجتمع في الجانب الغربيّ على ضيقِ أكنافِه ، وتَحَيّف العدوّ قصمه الله لأطرافِه ، ما باهى الأقاليمَ العراقية ، وأنْسَى بلغاءَ الدولةِ الديلمية ، فقلّما رأيتَ فيه ناثراً غير ماهر ، ولا شاعراً غير قاهر ، دَعَوْا حُرَّ الكلام فلَبّى ، وأرادوه فما تأبّى ، وطريقتُهُمْ في الشعرِ الطريقةُ المثلى التي [3] هي طريقة البحتري في السلاسةِ والمتانةِ ، والعذوبةِ والرصانةِ .

وأنا أورد في هذا القسم بعضَ ما انتهى إليَّ من حُرّ كلامهم ، في نثرهم ونظامهم ، مَشُوباً ذلك كلّهُ بفنونِ فوائدَ ومعارفَ من أخبارٍ يحسُنُ الوقوفُ عليها . على أنّ الذي بلغني من شعر كلّ قُطْرٍ ، ثمادٌ مِنْ بحر ، ونقطةٌ من قَطْر ، ولقد فاتني كثير من الكتّاب والوزراء ،

١ هو ذو الإصبع العدواني ، انظر الأغاني ٣ . ٨٥
٢ ط س . بكى .
٣ ط س الذي .

وجملةٌ من أعيان الشعراء ، ممن كان في ذلك التاريخ ، منهم مَنْ لم أسمع بذكره ، ومنهم من لم يَسْمَحْ نَقْدي [1] بإثبات ما بلغني من شعره ، وربّما أجريتُ ذِكْرَ أحدهم غير مُبوّب عليه ، ولا مشيرٍ إليه ، إما لشيء أجادَ فيه ، وإما أن يتعلقَ ذكره بذكرِ من أجريه ، وقد أبدأ بذكر الرجل لمكانه من الإحسان ، لا لتقدُّمه منَ الزمان ، أو لبعض ما يدعو إليه القولُ من نَسَقِ خبر ، أو موجبِ نظر . فأول ما ابتدأتُ به من أهل حمص آل عبّاد لنباهةِ ذكرهم ، مع جَوْدَةِ شعرهم .

فصل في ذكر القاضي أبي القاسم محمد بن عبّاد وإيراد جملة من أخباره ، واجتلاب قطعة من أشعاره [2]

قال ابن بسام : كان ذو الوزارتين القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل ابن عبّاد المتغلّب على إشبيلية ممّن له في العلم والأدب باع ، ولذوي المعارف عنده بها سوق وارتفاع ، وكان يشارك الشعراء والبلغاء في صنعة الشعر وحَوْك البلاغةِ ، بسطاً لهم ، وإقامةً لهممهم ، ولما كان في طبعه من ذلك أيضاً . وقد ذكر الوزير أبو رافع الفضل بن علي بن أحمد بن حزم الفارسي [3] .. ..

١ س : يسمع نفسي .

٢ لا مجال لحصر المصادر المعتمدة في أخبار بني عباد ، فقد جمع منها دوزي في كتابه : **Historia Abbadidorum (Leiden, 1846).** قسطاً وافراً ، وانما نذكر هنا بأهم المصادر مثل البيان المغرب والقلائد والصلة والمغرب والمعجب والمطرب والاحاطة والروض المعطار ونفح الطيب وبدائع البدائه وتاريخ ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير والخريدة وابن خلكان والنويري ، وتعد مقارنة هذا النص بما ورد في الحلة السيراء والبيان المغرب أمراً ضرورياً ، لاعتماد المصدرين على كتاب ابن بسام .

٣ هو ولد الحافظ الفقيه أبي محمد ابن حزم ، روى عن أبيه وأبي عمر ابن عبدالبر وغيرهما ، وكتب بخطه علماً كثيراً ، وكان عنده أدب ونباهة وذكاء ، وتوفي بالزلاقة سنة ٤٧٩ (الصلة : ٤٤٠) .

في كتابه الموسوم : « الهادي إلى معرفة النسب العبّادي » كيف طلع نجمه ، وثبت في ديوان الملوك اسمه ، وقد أثبتّ من ذلك ما امتدّ بي إليه سبب ، واتصل بينه وبين ما أنا بسبيله نسب ، ووَصَلْتُ به ما لم أجد لأبي رافع زيادةً على ما بيّن ، وتماماً على الذي أحسن .

قال أبو رافع[1] : القاضي ابن عباد هو أبو القاسم محمد بن ذي الوزارتين أبي الوليد اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عِطّاف[2] بن نعيم ، وعِطّافٌ هو الداخلُ منهم بالأندلس في طالعة[3] بلج بن بشر القشيري ، وكان عطاف من أهلِ حمص من صُقْعِ الشام لخميّ النسب صريحاً ، وموضعه من حمص[4] العريش ، والعريش في آخر الجفار بين مصر والشام ؛ ونزل بالأندلس بقرية يُومينَ من إقليم طُشّانَةَ[5] من أرض إشبيلية .

قال ابن حيان[6] : واسماعيل بن عباد قاضيهم القديم[7] الولاية ، ورَجُلُ الغَرْبِ قاطبةً ، المتصل الرئاسة في الجماعة والفتنة ، وكان أيْسَرَ مُكَوّرٍ[8] بالأندلس وقتَه ، ينفق من ماله وغَلاّتِهِ ، لم يجمع درهماً قطّ من مالِ

---

١ انظر الحلة ٢ : ٣٤ والبيان المغرب ٣ : ١٩٤ .
٢ بكسر العين وتخفيف الطاء (الحلة) .
٣ ط د م س ودوزي : طاعة .
٤ صوابه « الشام » .
٥ طشانة (Tocina) تقع في كورة اشبيلية .
٦ الحلة ٢ : ٣٥
٧ ط د س : قديم .
٨ المكور : المعمم .

السلطان ولا خَدَمَه[1] ، وكان واسعَ اليد بالمشاركة ، آوى صنوفَ الجالية من قرطبةَ عند احتدام الفتنة ، وكان معلوماً بوفور العقل وسبوغ العلم والركانة[2] ، مع الدّهاء وبُعْدِ النظر وإصابة القرطسة .

فأما ذو الوزارتين أبو القاسم ابنه فأدرك متمهّلاً ، وسما بَعْدُ إلى بلوغ الغاية فخلّطَ ما شاء وركبَ الجراثم[3] الصَّعْبَة ، وكان القاسمُ بن حمّود قد اصطنعه بعد مهلك أبيه اسماعيل ، وردّ عليه ميراثَهُ من قضاء بلده بَعْدَ بُعْدِهِ عنه مدّة ، [٢ ب] وحصل منه بمنزلة الثقة ، فخانه تَخَوُّنَ[4] الأيّامِ عند إدبارها عنه ، إيثاراً للحزم وطلباً للعافية ، فصدّه عن إشبيلية بلدِهِ لما قصده من قرطبة مفلولاً ؛ وكان الذي وطّد له ذلك نفرٌ من أكابرها المرتسمين بالوزارة ، مناغين في ذلك لوزراء قرطبة ، على تَحْميلهم لابن عبّادٍ كِبْرَ ذلك ، لإنافته عليهم في الحال وسعة النّعمَةِ ، وإحصائهم عليه مِلْكَ ثلثِ إشبيلية ضيعةً وغلّةً ، يخادعونه بذلك عن نَشَبِهِ ، إبقاءً منهم على نعمهم ، وهو يشتّري بذلك أنْفُسَهُمْ ولا يشعرون ، إلى أن وقعوا في الهوّة ، وكانوا جماعةً منهم بنو أبي بكر الزبيدي النحوي وبنو يريم[5] صنائع ابن عباد وغيرهم ، راضَ بهم الأمورَ واستمالَ العامة ، فلمّا تَوَطّأَتْ[6] له قَبَضَ أيدي أصحابه هؤلاء ، وسما بنفسه فأسقط جماعتهم ،

---

١ واضح من هذا القول أنه لم يعد توليه القضاء من الخدم السلطانية .

٢ د والحلة : والزكانة .

٣ هذه هي قراءة م ؛ والجرثومة : أصل الشجرة ، وقد يفهم من ذلك أنه تجشم صعاب الأمور وفي ط د والحلة : الجرائم ؛ س : الجرائيم .

٤ ط د م س : بخون .

٥ ط س : بريم ؛ م : ابريم ؛ د : ابرم ، البيان : مريم .

٦ ط م د : توطدت (وهي قراءة جيدة أيضاً) ؛ س : اتواطأت .

وجرت له في تدبيرهم أمور يشقّ إحصاؤها ، ركبَ فيها أحزَمَ طُرُقِ طُلاّبِ الدول ، حتّى انفرد بسابقته ومهّد لدولته ، واجتمع [1] أهلُ عمله على طاعته ، فدانوا له ، وسلك سيرةَ أصحاب الممالك بالأندلس [2] لأولِ وقته ، وقام بأصحّ عزمٍ وأيقظِ جِدّ ، واخترع في الرياسة وجوهاً تقدّم فيها كثيراً منهم ، وامتثل رَسْمَ ابنِ يعيشَ [3] صاحب طليطلة من بينهم في تَمَسّكِهِ بخطّةِ القضاء وارتسامه باسمه ، وأفعالُهُ على ذلك أفعالُ الجبابرة ، وأقبلَ لأوّلِ وقتِهِ يضمُّ الرجالَ الأحرارَ من كلّ صنف ، ويشتري العبيدَ ، والجَدُّ يساعده والأمور تنقادُ له ، إلى أن ساوى ملوكَ الطوائفِ وزاد على أكثرهم بكثافةِ سلطانه ، وكثرة غلمانه ، فنَفَعَ الله به كافةَ رعيّته ونجّاهم من ملك البرابرة ؛ وتَدَرَّج في تدبير ذلك أوّلاً أوّلاً ، ومارسه شأناً شأناً ، إلى أن استولى على أمده ، ومهّد قواعد سلطانه ، وشدَّ أواخيّه . وأخبارُهُ مأثورة مشهورة .

قال ابن حيان [4]: ومن أشهر أخباره أنه نظر في شأن من بقي من فتيان بني مروان يومئذ فسقط إليه خبر الدعيّ المُشَبَّهِ بهشام بن الحكم ، وكان قد تُحُدِّثَ أنّه أفلت من يدي سليمان قاهرِهِ ، وانه غاب ببلاد المشرق

....

١ ط د م س : واجمع .

٢ الحلة ودوزي : الذين بالأندلس .

٣ هو يعيش بن محمد بن يعيش أحد رؤساء طليطلة عند نشوب الفتنة ، وقد استطاع أول الأمر إبعاد منافسيه من رؤساء المدينة ولكن مدته في الحكم لم تطل ، فأخرجه أهلها ، وخاطبوا اسماعيل بن ذي النون لتسلم البلد ، وقد ترجم له ابن بشكوال (الصلة : ٦٥٠) وقال إنه بعد خروجه من بلده صار إلى قلعة أيوب وتوفي بها سنة ٤١٨ أو أوائل ٤١٩ (انظر الحلة ٢ : ٣٧ - ٣٨ التعليق رقم : ٥)

٤ البيان المغرب ٣ : ١٩٧ .

مدّته الطويلة ثم عاد إلى الأندلس ، فقدح ذلك في قلوب الناس لمقدّمات سلفت في ذكر هذا الرجل والشكّ في موته ، إذ كان سليمان قاتلُه قد تركَ إبداءَه للناس ،حسبما فعلته خَدَمَةُ[1] الملوكِ قَبْلُ فيمن خلعوه، إمّا استخفافاً من سليمان يومئذ بمن مَلَكَ نواصيهم بالقهر ، أو ما شاء الله من غلط أصاب المقدار قَصْدَهُ ، لقضاءٍ سبق في علم أمّ الكتاب ، فلم تزل طائفة من شيعته تنفي موته ، وتَرْوي في ذلك روايات تَبْعُدُ عن الحقيقة ، وتصدرُ عن نسوان وخصيان من أهل القصر بقرطبة ، إلى أن علق ذلك بمن فوقهم من شيَعِ المروانية ، فشدّوا أواخيَّ خلاصِهِ ، وقطعوا على حياتِهِ ، ووصفوا أنّه اضطرب بقرطبة في دولة البرابر ممتهناً نَفْسَهُ في طَلَبِ المعيشة ، ثم زعموا بعد حين أنّه عبر إلى أرضِ المشرق ، وانساح[2] في ذلك الأفق ، وقضى[3] كلّ المناسكِ هنالكَ ، ووطىء كلّ بقعة ، ثم كرَّ راجعاً إلى ديارِهِ لأمدٍ محدود ولكرّة الدولة المروانية ، لتحدُثَ على يديه[4] الأنباءُ البديعة ، فدانوا — كما تَسْمَعُ — بالرجعة دَيْنُونَةَ الشيعةِ ، وتاهوا في ذلك تيه، تضليل[5]، سخر منهم أهل التحصيل، إلى أن ظهر على زعمهم بالمريّة سنة ستّ وعشرين في أيام زهير الصقلبي .

ولم تزل قصّة هذا المشبّه بهشام تدبّ في قلوب الناس دبيب النار في الفحم . فدبر ابن عبّاد خَبَرَه ، واهتبل الغرّةَ في ذلك ، وأنّه أقلّ ما يجيء له

١ البيان : حزمة .
٢ قد تقرأ في ط : وارتاح ؛ البيان : وساح .
٣ ط د س والبيان : وقصر .
٤ ط : على يده .
٥ ط : بطل ؛ دوزي : تقليد ؛ البيان : بتضليل ؛ س : تغليل .

منه دفعُ مكروهِ ابن حمود ، ونظْمُ الناسِ على حَرْبه ، [٣ أ] فأخبرَ أنّه حصلَ هشامٌ عنده ، وجمع من بقي بإشبيلية من نساء القصر والحرم ، فاعترف به أكثرهم ووقفوا على عينه ، وأومأ إلى ثقاتهم عنده بما يريد فيه ، فاجتنبوا خلافَه وابْتَغوا موافقَتَه ، فوجد ابنُ عبّاد بذلك السبيل إلى ما دبّره من حرب ابن حمود[١] ، وحجبه عن أعينِ الناسِ . وبثّ كتبه بذلك إلى جميع الرؤساء ، واستنهضهم إلى الاجتماع على هذا الخليفة المخبوء لفكّ الرقاب وكرّة الأيام ، والجهاد دونه ، فكثُر الخوضُ بالأندلس في ذلك ، ومالت نفوسُ أهلِ قرطبة في نَصْبه إماماً للجماعة ، وأشخصوا الرسلَ للوقوف على عينِ هشام ، وتثبيت[٢] الشهادةِ فيه، وزوّر ابنُ جهورٍ وغيره في ذلك شهادات ، على علمٍ منهم ، ابتغاءَ عَرَضِ الدنيا وإذعاناً من ابن جهور أيضاً لما رآه من دفع ابنِ حمّودٍ الفاغرِ فاه على حضرةِ قرطبة . فرجع منه سريعاً إلى الاعتراف بالخطأ بقيّة عمره بعد عظيمِ ما[٣] انبعثَتْ في ذلك من الفتن ، وجرَتْ من المحن ، وصُرِعَ من الجبابرة ، ونُقِلَ من الدول ؛ انتهى كلامُ ابن حيان .

قال ابن بسّام : وكان القاضي ابن عباد — كما وصف — زاخرَ العُبَابِ متألّقَ الشهاب ، أذْكى مَنْ قاسَ وقلّد ، وأدْهَى مَنْ أتْهَمَ وأنجد ، يأخذُ وكأنّه يَدَعُ ، ويطيرُ فيُحْسَبُ أنّه وَقَع ، فتغلّبَ على إشبيلية وليس له أوانَ ذلك مَعْقلٌ إلا وله شرٌّ راتبٌ ، وعليه أميرٌ غالبٌ ، فدار الأمْرُ بها عليه لتميُّزه بخطّةِ القضاء التي لم يجاذَبْ رداءَها ، ولا سلّم لأحدٍ

١ ط م : ابن عباد ، وبياض في د .

٢ ط س ودوزي : وثبتت .

٣ س م : مما .

بعدُ لواءَها ، إلى أن استوثقَ الأمرُ ليحيى بن علي الحموديّ — حسبما تقدم — فاضطرّ أهلُ إشبيلية إلى الإذعان لطاعته ، والدخولِ فيما دخل فيه الناسُ من جماعته ، وأدارهم لأمورٍ جرَتْ على رهونٍ تكون بيده ، فَضَنَّ كلٌ بولده ، وبادرَ القاضي فراهَنَهُ ابنَهُ عبّاداً ، فانفرد بالتدبير ، واستولى على الأمور ، واستظهر على ذلك بهدمِ البيوتات ، وتشتيت ذوي الهيئات ، وأول ما بدأ به من ذلك نكبةُ شَيْخَيِ المصر يومئذ الزبيدي وابن يريم ، طواهما طيَّ السجلّ ، وقبضهما قَبْضَ الظلّ ، فأيّدَ القاضي يومئذ بحبيب وزيره[1] ، ودارت عليه رحى تدبيره ، رجلٍ من أهْلِ باديةِ إشبيلية لم تكن له نباهة مذكورة ، ولا سابقةٌ مشهورة ، أوسعَ أهلِ زمانه شرّاً ، وأوسعَهُمْ خديعةً ومكراً ، وأيّدَ أيضاً بابنه اسماعيل طود أصالةٍ ، وجنّيّ[2] بسالة ، مِحَشّ تلك النّار ، وسابقُ ذلك المضمار ، فبين هذين استوسقت له الأمور ، وتدفّقَتْ تلك البحور ؛ وله أخبار مشهورة ، وقصص مأثورة ، فيها بعض الطول ، وهي عادلة عن تلك السبيل ، لكنّي ألْمعُ منها بلُمْعةٍ .

قال ابن حيّان[3] : تعطلت قصبة باجةَ في ذلك الأوان بسبب فتنةِ البرابرة وخربتْ ، على قِدَمِ بنائها في الجاهلية ، واتصال عمرانها في الإسلام ، ومكانها من طيب الميرة واتّساع الخطّة ، وكانت آفاتُها من اختلافِ أهلها قديماً ، وبقاء شؤمِ العصبيّة بين العرب منهم والمولدين إلى آخر الأيام ،

---

١ هو محمد بن أحمد بن عامر الحميري الملقب بحبيب والد اسماعيل مؤلف كتاب « البديع في وصف الربيع » (وسيترجم ابن بسام لابنه في ما يلي من هذا القسم) .

٢ دوزي : وجبير ؛ س : وجنبي .

٣ زاد هنا في م : وكان القاضي ابن عباد زاخر العباب متألق الشهاب ، وقد مرت آنفاً .

فسما لها ابنُ عباد وابن مسلمة المعروف بابن الافطس ، وذهبا يومئذ إلى عمارتها[1] ؛ فاستظهر القاضي ابن عباد في ذلك بحليفه محمد بن عبد الله البرزيلي[2] صاحب قرمونة ، وجرّدَ ابنَهُ اسماعيلَ لبنائها، فسبقه ولدُ ابنِ مسلمةَ إليها الملقب بالمظفر . وجاء مدداً لابن طيفور صاحب ميرتلة[3] من أمراء الساحل ؛ فنزل ابن عباد عليه بباجة ؛ وضربت خيله إلى ناحية يابرة والغرب فهتكت أستاراً ، وخربت دياراً . واتّصلَ الحصار بابن الافطس بباجة ، وانصدع الجمع عن أسْرِهِ وَقَتْلِ كبارِ رجاله ، وبعث بالأسرى إلى أبيه ، وكان في جملتهم أخٌ لابن طيفور صُلِبَ بإشبيلية . وحُبِسَ ولدُ ابن الأفطس عند [٣ ب] صاحب قرمونة ابن عبد الله ، وبلغت هذه الغارة من ابن الأفطس الغاية ، وتجاوَزَ البلاءُ في جهته النهاية ، وهِيضَ جناحُهُ بأسر ابنه ، ووهن ابن طيفور بقتل أخيه ، وكان ابنُ عبدِ الله بقرمونة ، قطبُ رحى الفتنة ، كثيراً ما يُحَرّض القاضي ابنَ عبادٍ على الخروج إلى بلد ابن الأفطس، وإلى قرطبة ، فيعمّا[4] الجهات كلّها تدويخاً ، كلما آبا من جهةٍ صارا إلى سواها ، حتى أثّرا آثاراً قبيحة ، فارتفع طَمَعُ وزراء قرطبة المدبّرين لها منه ، لأنّه كان لا يوافقهم على دعوة أمويّ لِفَرْطِ

---

١ عمارتها . موضعها بياض في د س وعند دوزي ، ويكثر البياض في هذه القطعة ، إلا أنه في م ط محشى بخط مختلف عن خط الأصل .

٢ تكتب أيضاً : البرزلي والبرزالي . وقد بويع البرزالي هذا بقرمونة سنة ٤٠٤ فعمرت ،وكان فارساً مهيباً ثم بايعته استجه والمدور وأشونة ولم يزل يتولى أمورها حتى سنة ٤٣٤ (البيان ٣ : ٢١١ – ٣١٢)

٣ ميرتلة : مدينة تقع إلى الشرق من باجة (الروض المعطار : ١٩٣) .

٤ ورد النص على الافراد في م س : فيعم . . . كلما آب . . . الخ .

شروده[1] عن الجماعة ، وإنما كان مذهبه طَمْسَ رَسْمِ الخلافة من معانها[2] بقرطبة ، وتَصَيُّرها أسوةَ إشبيلية في إسنادها إلى رئيسٍ من أهلها ، وطَرْدَ قريش عن سلطانها ، إبْطالاً للإمامة ورسوخاً في الخارجية ودفعاً لأمر الله. فقطع سبل قرطبة وشدّ حصرها . فتمسك الوزراء بحبل بعض البرابر من بني برزيل بجهة شذونة ، وكانوا على قديم[3] الأيام جمرةَ زَناتَة بأساً وصَرامةً ، واعتضدوا بهم مدّة ، واعتضد أيضاً ابنُ الأفطسِ بطائفةٍ أخرى منهم ، فكان في كلّ بلدٍ جملةٌ منها سالَتْ عن أهلِ البلاد سُيُولٌ بها ، وخلطوا الشرَّ بين رؤسائها ، واستخرجوا بذلك ما اطَّمَرُوه[4] من دنانيرهم وخِلعهم ، وجاحوا ذاتَ أيديهم ، وعلّموهم كيف تُؤكل الكتف ، فطال العجبُ عندنا بقرطبة وغيرها من صعاليك قليلِ عددُهُمْ ، منقطعٍ مَدَدُهُمْ ، اقتسموا قواعدَ الأرض في وقت معاً ، مُضَرّبين بين ملوكها ، راتعين في كلأها ، باقرين عن فلْذَتها ، حلّوا محلَّ الملح في الطّعام ببأسهم الشديد، وقاموا مقام الفولاذ في الحديد ، فلا يُقْتَلُ الأعداءُ إلاّ بهم ، ولا تعمرُ الأرض إلاّ في جوارهم ، فطائفةٌ عند ابن الأفطس تقاوم أصحابها[5] قِبَلَ ابن عبّاد ، وطائفة عندنا بقرطبة تَحَيَّز أهلها عن الاضداد ، فسبحان الذي أظهرهم ، ومَكّن في الأرض لهم ، إلى وقت وميَعاد .

وكان[6] انطلاق المظفر من يد ابن عبد الله في ربيع الأول من سنة إحدى

١ س و دوزي : شذوده .

٢ المعان : المنزل ؛ ط : مغانها ؛ م س : مغانيها ؛ د : مكانها .

٣ ط : قدم .

٤ من طمر بمعنى أخفى تحت الأرض ؛ س : اظهروه .

٥ تقاوم أصحابها : سقطت من ط .

٦ انظر البيان المغرب ٣ : ٢٠٣ .

وعشرين في خبر طويل ، وعرض عليه ابنُ عبدِ الله يومَ أطلقه أنْ يجتازَ على القاضي ابن عبّاد [ليشركه] [1] في المنّ عليه بفكّه . فأبى من ذلك وقال : مقامي في أسرك أشرفُ عندي من تَحَمّلِ مِنّتَه ، فامّا انفردتَ باليدِ عندي وإلا أبْقَيْتَني على حالي . فأعجبَ ابنُ عبد الله بمقاله ، ونافَسَ في إسداءِ اليدِ عنده لكمال خصاله . وأكْرَمَ تشييعَهُ . فنَفَذَ إلى أبيه يومئذ ببطليوس وقد هَذَّبَتْهُ محنتُه . وتمّت أدَواتُه وقويت حنكته ، وكان مُرَجّلاً معقّلاً أديباً عالماً . فرجع إلى مقاومة ابن عبّاد .

فلما كان في سنة خمس وعشرين وجّه ابنُ عبّاد بابنه اسماعيل مع عسكرٍ إلى أرضِ العدو تحت معاقدة بينه وبين ابن الأفطس ،فلمّا أوغل اسماعيل ببلده يريد أرض غليسية ، وابنُ الأفطس مضمرٌ [2] الغَدْرَ به ، بادر بجميع رجال ثغره [3] . ورصده في شِعْبٍ ضيّقٍ في طريق قُفوله . ولم يعلم ابن عبّادٍ بشيءٍ من تدبيره حتى حصل في الأنشوطة ، فبادر اسماعيلُ بالنجاةِ لنفسه ، وأسلمَ جميعَ عسكره له . وجرت عليه في مَهْرَبِهِ مع جُمْلَةٍ من أصحابه شدّةٌ لَجأ فيها إلى ذبح خيله والاغتذاء بلحومها . ونجا بِذَمَائِهِ إلى مدينة أشبونة آخر عمله من ساحل البحر المحيط . فاصطلم ابنُ الأفطسِ عسكره اصطلاماً لم يُسْمَعْ بمثله ، ووقَع سَرَعانُ العدوّ من النصارى على كثير منهم فاقتنصوهم اقتناصاً ، وقتلوا منهم أمّة ، وكانت حادثةً شنيعةً بقيت بها عداوتهما إلى آخر وقتهما .

---

[1] زيادة من البيان .

[2] ط د م س : مصر .

[3] ط د م س : تمده .

قال ابن بسام : ومن شعر ذي الوزارتين قوله [1] :

يا حبّذا الياسمينُ إذْ يَزْهَرْ فوق غصونٍ رطيبةٍ نُضَرْ
قد امتطى للجبالِ ذروتَها فوق بساطٍ من سندس أخضَرْ
كأنّه والعيونُ ترمقُهُ زمرّدٌ في خلالهِ جَوْهَرْ

وقال :

وياسمينٍ حَسَنِ المنظرِ يفوقُ في المرأى وفي المخْبَرِ
كأنّه من فوقِ أغصانهِ دراهمٌ في مُطْرَفٍ أخضر

وقال :

ترى ناضرَ الظيّانِ فوقَ غصونه إذا هو من ماء السحائب يغتذي
وَحَفّتْ به أوراقُهُ في رياضه وقد قُدَّ بعضٌ مثلَ بعض وقد حُذي
كصفرٍ من الياقوت يُلْبَسْنَ [2] بالضحى منضدةٌ من فوق قُضْبِ الزمرّذ

فصل في ذكر المعتضد بالله عبّاد ابن ذي الوزارتين القاضي أبي القاسم محمد بن عباد وسياقةِ مقطوعاتِ من أشعاره ، مع جملة من عجائب أخباره

قال ابن بسام [3] : ثم أفضى الأمر إلى عبّاد ابنه سنة ثلاث وثلاثين ،

---

١ وردت هذه المقطعات في الحلة ٢ : ٣٨ — ٣٩ ، والأولى منها في النفح ٤ : ٢٤٢ .
٢ الحلة ودوزي : يلمعن .
٣ انظر الحلة ٢ : ٣٩

وتسمّى أولاً بفخر الدولة ثم بالمعتضد ، قطبُ رحى الفتنة ، ومنتهى غايةِ المحنة ، مِنْ رجلٍ لم يثبتْ له قائمٌ ولا حصيدٌ ، ولا سَلِمَ عليه قريبٌ ولا بعيدٌ ، جبّارٌ أبْرَمَ الأمور وهو متناقض ، وأسَدٌ فَرَسَ الطلى وهو رابض ، متهوّر تتحاماه الدهاة ، وجبّارٌ[1] لا تأمَنُه الكماة ، متعسف اهتدى ، وَمُنْبَتّ قطع فما أبقى ، ثار والناسُ حربٌ ، وكلُّ شيءٍ عليه إلب ، فكفى أقرانَهُ وهم غيرُ واحد ، وضبط شانه بين قائم وقاعد ، حتّى طالت يده ، واتّسع بلده ، وكثر عديدُهُ وَعُدَدُه ؛ افتتح أمره بقتل وزير أبيه حبيب المذكور ، طعنةٌ في ثغرِ الأيام ، مَلَكَ بها كَفَّه ، وجبّاراً من جبابرة الأنام ، شَرَّدَ به مَنْ خلفَهُ ، فاستمرَّ يَفْري وَيَخْلُق ، وأخذ يجمعُ ويفرق، له في كل ناحية ميدان ، وعلى كلّ رابية خِوان، حَرْبُهُ سمٌ لا يبطىء ، وسهم لا يُخطىء ، وسلمُهُ شرّ غيرُ مأمون ، ومتاعٌ إلى أدنى حين .

وذكره ابن حيان فقال[2] : وعشيّ يوم الأربعاء[3] لست خلت لجمادى الآخرة سنة إحدى وستين ، طَرَقَ قرطبةَ نَعْيُ المعتضد عباد زعيم جماعة أمراء الأندلس في وقته ، أسد الملوك ، وشهاب الفتنة ، وراحض[4] العار ، ومُدْرك الأوتار ، وذو الأنباء البديعة ، والحوادثِ[5] الشنيعة ، والوقائعِ المُبيرة ، والهمَم العليّة ، والسطوة الأبيّة ، فرماه الله بسهمٍ من مراميه

١ ط د م ودوزي : وجبان .

٢ البيان المغرب ٣ : ٢٠٤ والحلة ٢ : ٤٠

٣ الحلة : الأحد ؛ والسبب في هذا الخلاف أنه توفي السبت ودفن يوم الأحد (كما سيبين في ما يلي) ولكن الخبر لم يطرق قرطبة إلا يوم الأربعاء .

٤ ط د م س : وداحض .

٥ الحلة : والجرائر .

المُصميَّة ، أجلَّ[1] ما كان في اعتلائه ، وأرقى ما كان إلى سمائه ، وأطمَعَ ما كان في الاحتواء على الجزيرة ، مُحْتفزاً لها عند تشميره الذيلَ بفتنةٍ لا كِفاء لها ، فتوفّاه الله على فراشه من علّة ذبحة قصيرة الأمد[2] ، وَحيّة الاجْهاز ، اتفقت الحكايات أنها كانت شِبْهَ البَغْتِ . وكانت ولايته بعد موت أبيه القاضي يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين ، وقضى نَحْبَهُ يوم السبت الثاني من جمادى الآخرة سنة [٤ ب] إحدى وستين ، ودُفِنَ عشيٌّ يوم الأحد بعده ، تغمّدَ الله خطاياه ، فلقد حُمِلَ عليه على مرّ الأيام ، في باب فَرْطِ القسوة وتجاوز الحدود ، والإبلاغ في المُثْلَةِ ، والأخذ بالظِّنّة ، والإخفار للذمّة ، حكاياتٌ شنيعة لم يبدُ في أكثرها للعالم بصدقها دليلٌ يقومُ عليها ، فالقول ينساغ في ذكرها ؛ ومهما بَرِيء من مغبّتها[3] فلم يَبْرأ من فظاعة السطوة وشدّة القسوة[4] ، وسوء الاتّهام على الطاعة ، سجايا من جبلّة[5] لم يحاشِ فيها[6] ذوي رحم واشجة .

وقد كان تَقَيَّلَ سيرة أحمد بن أبي أحمد بن المتوكّل[7] أحد أشدّاء خلفاء[8] العبّاسيين الذي ضمَّ نَشْرَ المملكة بالمشرق ، وسطا بالمنتزين عليها ، وبفقده انهدمت الدولة ، فحمل عبّاد سمتَهُ المعتضدية ، وطالع بفضل

....

١ س ط د والبيان : أجد ، الحلة : أمد .
٢ م : المتل (دون اعجام التاء) ؛ س : الأمل .
٣ ط د س ودوزي : مغيبها .
٥ ط د م س : فلم يبرأ من شدة القسوة .
٦ الحلة : جبلته .
٧ دوزي والحلة : فيهن .
٨ هو الملقب بالمعتضد (٢٧٩ – ٢٨٩) .
٩ دوزي والحلة : خلائف .

نظره أخباره السياسيّة التي أضحتْ عند أهلِ النظر أمثلةً هاديةً إلى الاحتواء على أمَدِ الرياسة، في صلابة العصا وشناعة السّطا[1]، فجاء منها بمَهُولات يذعر مَنْ سمع بها فضلاً عن من عايَنَها، نسبوا إلى هذا الأمير الشهم عباد امتثالها من غير دلالة ، وقد انطوى علم الله فيها وتقرر إرصاده للمكافأة بها ؛ ولم يقصّر عباد في دولته التي مهّدها فوق أطراف الأسنّة وصيّر أكثر شغله فيها شبَّ الحروب ، وكيادَ الملوك ، وإهراج البلاد ، وإحراز التلاد ، من توفّر حظّه الأوفى من الأمور الملوكية ، والعدد السلطانية ، والآلات الرياسية، فابتنى القصورَ السامية ، واعتمر العماراتِ المُغلّة ، واكتَسَبَ الملابس الفاخرة ، وغالى الأعلاقَ السنيّة ، وارتبط الخيول السابحة ، واقتنى الغلمان الرُّوقَة ، واتّخذ الرجال الذادَةَ ، تنقّاهم من كلّ فرقة ، فساس طبقاتهم ما بين إدْرار الاعطية وضمان الزيادة على صدق الصيالِ ، والوفاء بالوعيد على النكول عن العدّو ، سياسة أعيتْ على أندادِهِ من أملاك الأندلس ، فَتخرَّجَ منهم رجالاً مساعيرَ حروب ، أباد بهم أقتالَهُ .

ومن نادر أخباره المتناهية في الغرابة أن نال بُغْيته وأهلك تلك الأمم العاتية ، وإنه لغائب عن مشاهدتها ، مُتَرَفّهٌ عن مكابدتها ، مدبّر فوق أريكته ، منفّذ لحيلها من جوف قصره ، ما إن مشى إلى عدو أومغلوب من أقتاله غيرَ مرّة أو اثنتين[2]، ثم لزم عِرِيسَتَهُ[3] يدبّر داخلها أموره، جرّدَ نهاره لإبرام التدبير ، وأخلصَ ليله لتملّي السرور ، فلا يزال تدار عليه كؤوس الراح ، ويُحيّا عليها بقبض الأرواح، التي لأناسيّها من

. . . .

[1] ط د م س : الشظا .

[2] دوزي : مرتين .

[3] ط د : عريشته ؛ س : عن بيته .

أعدائه بباب قصره حديقةٌ تُطلِعُ كلَّ وقتٍ ثمراً من رؤوسهم المهداة إليه ، مقرَّطةَ الآذان برقاع الأسماء المنوَّهة بخاملها ، ترتاح نفسه لمعاينتها ، والخلق يذعرون من التماحها ، وهو واصلٌ نعيمَ ليله بإجالةِ كيده ، ومستدعٍ[1] نشاطَ لهوهِ بقوّةِ أيدهِ . له في كل شأن شُؤيْن ، وعلى كل قلب سمعٌ وعين ، ما إن ستَبَرَ أحدٌ من دهاة رجاله غورَه ، ولا أدركَ قَعْرهُ ، ولا أمِنَ مكره ، لم يزل ذلك دأبهُ منذ ابتدائه إلى انتهائه .

وكان محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي . مفرق الجماعة بقرطبة ، ومبتعث تلك الفتنة المبيرة ، سبق عباداً إلى اتخاذ مثل هذه الحديقة المطلعة لرؤوس أعدائه ، أيامَ أكثرَ له واضحٌ الخصي العامريّ من إرسالِ برؤوس الخارجين عليه ، لأول وقته[2] ، وأصلح بهم باب مدينته سالم ، فغرس منها فوق الخشب المعلية لها بشطّ النهر حذاءَ قصره حديقةَ هولٍ عريضةً طويلة الخطّة ، جمّة عددِ الصفوف المسطورة، فأضحت شُغلاً للنظارة ، وذكرتها شعراؤه مثل قول صاعد بن الحسين ، من قصيدة أولها :

جِلاءُ العينِ مُبْهِجَةُ النفوس	حدائقُ أطْلَعَتْ ثَمَرَ الرؤوسِ
هناك اللهُ مَهْدِيَّ المساعي	جَنَى الهامات من تلك الغروس
فلم أرَ قبلها وحشاً جميلاً	كَريهُ روائِهِ أُنْسُ الأنيس
فماذا يَمْلأُ الأسماعَ منها	إذا مُلِئَتْ مِن أنباء الطروس

وقد كانتْ لعبّاد وراء هذه الحديقة الهائلة قلوبَ البشر ذعراً ، مباهاةٌ بخزانةٍ بَلْوى ، أكرمَ لديه من خزانةِ جوهره ، مكنونة جَوْفَ قَصْرِهِ ،

....

[1] ط د م س : ومبتدع ، والتصويب عن البيان .
[2] ط د س : وقعه .

أودعها هامَ الملوك الذين أبادهم بسيفه ، منها رأس محمد بن عبد الله البرزيلي شهاب الفتنة ، ورؤوس الحُجّاب ابن خزرون وابن نوح وغيرهم الذين قرن رؤوسهم برأس إمامهم الخليفة يحيى بن علي بن حمود ، سابقِهم إلى تلك الرفعة[1] ، فخصّ رؤوسهم بالصون بعد إذالة جسومهم الممزّقة ، وبالغ في تطييبها[2] وتنظيفها للثواءِ لا للكرامة ، وأودعها المصاون الحافظة لها ، فبقيت عنده ثاوية تجيب سائلها اعتباراً ؛ انتهى كلام ابن حيان .

قال ابن بسّام: فلما افتتحت إشبيلية وخُلِعَ المعتمد ، حُدّثْتُ أنّه وجد جُوالقٌ مطبوعٌ عليه ، وظُنّ أنّه مال أو ذخيرة ، فإذا هو مملوء رؤوساً ، فأعْظِمَ ذلك وهال أمرُهُ ، فدُفِعَ كلُّ رأس منها لمن كان بقي من عقبهم بالحضرة ؛ أخبرني من رأى رأس يحيى بن علي بن حمود يومئذ ثابتَ الرسم متغيّر الشكل ، فدُفع إلى بعض ولده فدفنه .

قال ابن حيان[3] : وكان عباد أوتي أيضاً من جمال الصورة ، وتمام الخِلْقَة ، وفخامةِ الهيئة ، وسَبَاطَةِ البَنَانِ ، وثقوبِ الذهن ، وحضور الخاطر ، وصدقِ الحسّ ، ما فاق أيضاً به على نظرائه . ونظر مع ذلك في الأدب ، قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان ؛ أدنى نظر بأذكى طبع ، حصل منه لثقوبِ ذهنه على قطعةٍ وافرة علقها من غير تعهّد لها . ولا إمعانٍ في غمارها ، ولا إكثار من مطالعتها ، ولا منافسةٍ في اقتناء صحائفها ، أعطته نتيجتها على ذلك ما شاء من تحبير الكلام ؛ وقرض قِطَعٍ من الشعر ذات طلاوة ، في معان أمدّتْهُ فيها الطبيعة ، وبلغ فيها الإرادة ؛ واكتتبتها

. . . .

[1] البيان : الوقعة ؛ وقد تقرأ في ط كذلك .
[2] س : تطبيقها .
[3] نقل لسان الدين بعض هذا النص في أعمال الأعلام : ١٥٥ .

الأدباء للبراعة – جمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة إلى جود كف بارى بها السحاب . وأخبار عباد في جميع أفعاله وضروب أنحائه – عالناته وخافياته – غريبة بعيدة ، وكان على تجرده في إحكام التدبير لسلطانه ذا كَلَف بالنساء . فاستوسع في اتّخاذهن ، وخلّط في أجناسهن ، فانتهى في ذلك إلى مدًى لم يبلغه أحدٌ من نظرائه . قيل إنه خلف من صنوفهن السّريريّات خاصّة نَحْوًا من سبعين جارية ، إلى حُرّتِه الحظيّة لديه الفذّة من حلائله بنتِ مجاهد العامري أختِ علي بن مجاهد أميرِ دانية . ففشا نسلُ عباد لتوسّعه في النكاح وقوّته عليه . فذكر أنه كان له من ذكور الولد نحو من عشرين ومن الإناث مثلهم ؛ انتهى كلامه .

قال ابن بسّام : وكان المعتضد – كما وُصِفَ – ينفث بأبيات من الشعر فيما يعنّ[1] له من أمر . ورأيت ابن أخيه اسماعيل قد جمع شعر عمّه هذا في ديوان ، وسأجري هاهنا طرفاً منه .

جملة من أشعاره

مع ما ينخرط في سلكها من عجائب أخباره

قال[2] :

كأنما ياسميننا الغضّ   كواكب في السماء تبيضُّ
والطّرُقُ الحُمْرُ في جوانبه   كخدّ عذراء مسّها[3] عضّ

.. ... .

[1] قد تقرأ في م : يعنّ .
[2] انظر البديع في وصف الربيع : ٩١ والحلة ٢ : ٤٩ واعمال الاعلام : ١٥٧ .
[3] البديع : ناله ؛ الحلة : مسه .

وقال[1] :

إشربْ على وجه الصباحِ ... وانظر إلى نَوْرِ الأقاحِ
واعلم بأنّكَ جاهلٌ ... ما .لم تقل بالإصطباح
فالدهر شيءٌ باردٌ ... إن لم تسخّنْهُ براح

وقال[2] :

أتتكَ أمُّ الحُسْنِ ... تشدو بصوتٍ حسنِ
تمدّ في ألحانها ... مدّ الغناء المدني
تقود مني سلسلاً[3] ... كأنني في رسن
أوراقها أستارها ... إذا شدَتْ في فنن

[٥ ب] ومعنى هذا البيت كقول ابن المعتز :

ذُرى شجرٍ للطير فيه تشاجرُ ... كأنّ سقيطَ الطّلّ فيها جواهرُ
كأنّ القماري والبلابل حولنا ... قيانٌ وأوراق الغصونِ ستائر

وقال بعض أهل عصرنا وهو الوزير أبو محمد بن عبدون[1]:

يا نفحةَ الزّهْرِ من مَسْراكِ[4] وافاني ... خلوصُ ريّاكِ في أنفاسِ آذار
والأرضُ في حُللٍ قد كادَ يُحْرِقُها ... توقُّدُ النور لولا ماؤها الجاري
والطيرُ في وَرَقِ الأشجارِ شاديةٌ ... كأنهنّ قيانٌ خلفَ أستار

---

١ نفح الطيب ٤ : ٢٤٣

٢ نفح الطيب ٤ : ٢٤٢

٣ النفح : ساكناً .

٤ ط د م س : شوال .

ومعنى بيت ابن عبدون الثاني من متداولات المعاني ، منها قول الآخر ونقله إلى الدموع :

لولا الدموع وفيضهن لأحرقت   أرضَ الوداع حرارةُ الأكبادِ

وأشبه منه قول ابن رباح :

نارٌ يُغَذّيها السحابُ بمائه   فلذاك لم تكُ ترمي بشرارِ

ومن أحسن شعر المعتضد قوله [1] :

شربنا وجفنُ الليل يغسلُ كحله   بماء صباحٍ [2] والنسيم رقيقُ
معتقةً كالتبر أما نجارها   فضخمٌ وأما جسمها فدقيق

وقال يخاطب مجاهداً [3] :

خلّي أبا الجيش هل يُقضى اللقاءُ لنا   فيشتفي منكَ طرف أنت ناظرُهُ
شطَّ المزارُ بنا والدارُ دانية [4]   يا حبّذا الفال لو صحّتْ زواجره

وقال من جملة قصيدة يخاطب بها أباه القاضي [5] :

أطَعْتُكَ في سرّي وجهريَ جاهداً   فلم يكُ لي إلا الملامَ ثوابُ
ولما كبا جَدّي إليك ولم يَسُغْ   لنفسي على سوء المقام شراب

....

١ الحلة ٢ : ٤٩ والنفح ٤ : ٢٤٢ واعمال الاعلام : ١٥٧ والبيان ٣ : ٢٠٨ وقد وردا في الذخيرة ١ : ٥١٨ منسوبين لابن برد الأصغر .

٢ ط : الصباح .

٣ الحلة ٢ : ٤٧ والبيان ٣ : ٢٠٨ .

٤ دانية بمعنى قريبة كما انها اسم البلد حيث مجاهد العامريُ أبو الجيش .

٥ الحلة ٢ : ٤٦ .

فررتُ بنفسي أبتغي فرجةً لها   على أنّ حلوَ العيش بعدك صاب
وما هزّني إلاّ رسولُك داعياً   فقلتُ أميرُ المؤمنين مجاب
فجئتُ أغذّ السيرَ حتّى كأنّما   تطيرُ بسرجي في الفلاةِ عُقاب
وما كنتُ بعدَ البينِ إلاّ موطّناً   بعزمي على أنْ لا يكونَ إياب
« ولكنّك الدنيا إليّ حبيبةٌ   فما عنك لي إلا إليك ذهاب »[1]
أصِبْ بالرضى عني مسرّةَ مهجتي   وإنْ لم يكنْ في ما أتيتُ صواب

وكان المعتضد كثيراً ما يرتاح في شعره إلى ذكر الطائفة التي كانت يومئذ تحاربه ، فمن ذلك قوله[2] :

لقد حُصّلْتِ يا رُنْدَهْ[3]   فصرْتِ لملكنا عِقْدَهْ
أفادتْناكِ أرْمَاحٌ   وأسْيافٌ لها حدّهْ
وأجْنادٌ أشدّاءٌ   إليهم تنتهي الشّدّه
غدوتُ يرونني مولىً   لهم وأراهُمُ عُدّه
سأفْني مُدّةَ الأعْدا   ء ان طالَتْ بي المُدّه
وتبلى بي ضلالتُهُمْ   ليزدادَ الهوى جدّهْ
[٦ أ] فكم من عدّةٍ قتّلْـ   ـتُ منهم بعدها عدّه
نظمتُ رؤوسهم عقْداً   فحلّتْ لَبّةَ السُّدّة

وأعجب المعتضد يومئذ بهذه القطعة الرندية ، عُجْبَ حسان بن ثابت بقصيدته الميمية[4] ، وأخذ الناسَ بحفظها ، وحملهم على ضبط معانيها ولفظها .

١ بيت مضمن وهو للمتنبي ، انظر ديوانه : ٤٨٢
٢ البيان ٣ : ٢٠٨ والنفح ٤ : ٢٤٣ والحلة ٢ : ٤٩ .
٣ رندة : (Ronda) مدينة قديمة من مدن تاكرنا (الروض : ٧٩) .
٤ لعله يعني قصيدته التي يقول فيها :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى   وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وعلى ذكرها وذكرهم ، فلنُلْمع بشيء من أمرهم . بدأ بغرب إشبيلية وبها عدّة رؤساء ، وجماعة خلفاء ، فكانوا دخان ناره ، وزبد[1] تيّاره ، إلا ما كان من ثبوتِ قدم قَريعهِ المظفّر بن الأفطس ، فانه نازعه لبوسها ، وعاطاه إلى آخرِ أيامه كؤوسها ، ولهما في ذلك غير مجال وميدان ، وقد سرد قصصهما أبو مروان ابن حيان ، وسألْمعُ بعيونها ، وأقلّب ظهورها لبطونها .

جملة من حروبه مع المظفر وغيره من أمراء الغرب

قال ابن حيان[2] : وأول ما ظهر من تفاسد عباد والمظفر ان ابن يحيى صاحبَ لَبلَةَ عند هجوم عبّادٍ عليه استجار بالمظفّر بن الأفطس ، فأجاره وانزعج له ، ووصل يدَه وعطّل ثغره ، وجمع جيشه وأقبل إلى لبلةَ ناصراً لابن يحيى ، مضيعاً لمن خلّفَه يوقدُ نارَ فتنةٍ كان في غنىً عنها ، حتى نزل بنفسه على ابن يحيى ودافع ابنَ عبّاد عنه ، وحرّك في ذلك من حلفائه البرابرة جماعةً ، فسارعوا إليه غيرَ ناظرين في عاقبة أمرهم ، وتقدّموا في تحريك يَعْسُوبهم محمدِ بن القاسم فانتظم به أمرهم ، وتقدّم بهم إلى إشبيلية ورحاهم تدور على قريعهم باديس بن حبّوس ، مِدْرَههم في الجُلّى وَمَفْزَعهم في النائبة ، يُسَلّمون لرأيه ويزحمون بركنه ، فأشفق الوزير ابن جهور من حركتهم تلك ، على عادته في التقلقل لأمثالها ، وجهد جَهْدَه في صرفهم ، وأرسلَ ثقاتِ رُسُلهِ إلى عامّتهم ، إلاّ ما كان من الداثلين منهم عبّاد داعية المروانية ومحمد بن إدريس صاحب مالقة دائل الحمودية ، فإنّه تَنَكّبها

---

[1] البيان : وجرية .

[2] البيان ٣ : ٢٠٩ .

بعاداً من الفطنّة ، إذ كان هو وجماعة قرطبة متوقفين[1] على كلّ دعوة ، فلما وصلت رسله إليهم ما زادهم إلا لجاجاً . ولم يزَل ابنُ جهورٍ يضربُ لهم الأمثال ، ويخوّفهم من سوء العاقبة والمآلِ ، حتى صار فيهم كمؤمن آل فرعون وَعْظاً وتَذْكرَةً ، يتجدُ[2] منهم الأطوادَ الراسية ، ويرَقي الحيّات المتصامّة . واستنّ القوم في ميدان الغيّ ؛ فلما صحّ عند ابن عباد خروجهُ للبلة بجيشه دفعاً عن ابن يحيى منتظراً لخلطائه ، جرّد خيلاً ضربَتْ على بلدِ ابن الأفطس ، وغارت وأنجدت ، وفعلت فَعَلاتٍ نَكَأَتِ القلوبَ ، وقرفت الندوب[3] ، ثم نهض ابنُ عبّاد بنفسه إلى لبلة للقائه ، فجرَتْ بينهما على بابها وقعةٌ عظيمةٌ[4] صعبة ، استَهَمّا فيهما النصرَ في مقام واحد شقّ الأبْلُمة، وكانت < الدائرة >[5] أولاً على ابن الأفطس، فولّى الدبر وخاضَ واديها دونَ مَخاضَةٍ ، وقيل قُتِلَ من رجاله عددٌ كثير، ثم رجعتْ له على ابن عبّاد كرّةٌ فكشفَ رجالَه وأصابَ منهم نفراً، ثمّ افترقوا ولحق بعدُ باديسُ بجمعه وخاض وادي قرطبة وجاز إلى الشرف، وتجمّعَ بحلفائه ، وعاثوا في نظر إشبيلية ، وانقطعت السبل جملة ، وكثر القتل والهرج والسلب ، وأمسى الناسُ في مثل عصرِ الجاهليّة ، ثمّ والى ابنُ يحيى بعد ذلك كلّه المعتضدَ لضرورةٍ دفعته إلى ذلك ، فكاشفه[6] المظفّر وخانه فيما كان ائتمنه عليه من ماله وأودعه عنده ، [٦ ب] أيام تورّطه في حرب المعتضد ، فانبتّت

١ ط : متوقمين ؛ البيان : مترفعين ؛ س : متوفقين .
٢ ط : يحدو ؛ د : يحذر ؛ س : يحدوا .
٣ ط د م س : الذنوب ؛ وقرفت الندوب : قشرت الجروح .
٤ عظيمة : سقطت من ط د والبيان .
٥ زيادة من دوزي .
٦ ط : فكشفه .

بينهم العصمة ، وضربت خيلُ المظفّر على صاحب لبلة ، فاستغاث المعتضدَ فلحق به خيلُه واقتتلتْ مع خيلِ المظفّر ، وكان ابن جهور كثيراً ما يوالي رسله إلى الاصطلاح بينهما ، فتصدر عنهما وتخبر أنّ ابنَ الأفطسِ أقربُ إلى الملام ، بامتطاء قَعُود اللجاج في القطيعة .

ومن النوادر المحفوظةِ بينهما أنّ المعتضدَ والى حربه في شهور سنة اثنتين وأربعين فعبرّ[1] بلده، وفتح عدّةَ حصونٍ ضمّها إلى عمله، وشدّها برجاله، ودمّر عماراتٍ[2] واسعة أفسد غلاّتها ، وأوقع رعيّته في المجاعةِ الطويلة ، وعجز المظفر عن دفاعهِ شبراً واحداً فما دونه ، استكانةً للحادثة التي هَدّتْ ركنَه ، وأفنَتْ حُمَاةَ رجاله ، فاعتصم بحصنه بَطَلْيَوْسَ ، ولم يُخْرِجْ من خيله فارساً . وجعل يشكو به إلى حلفائه ، فلا يجد ظهيراً ولا نصيراً .

فلما قضى المعتضد من تدويخ بلاده وطَرَهُ ، وكرّ راجعاً إلى إشبيلية في شوّال من العام ، وردتْ علينا بقرطبةَ يومئذٍ غريبةٌ ، وذلك أنّ رسولَ المظفّر في أثر هذه الوقائع عليه < ورد قرطبة >[3] يلتمسُ شراء وصائفَ مُلْهِياتٍ يأنسُ بهنّ ، نافياً بذلك الشماتة عن نفسه ، ولم يكن له عادة بمثله ، فنَقّبَ له رسوله عن ذلك ، وكُنّ قد عُدِمْنَ بقرطبة يومئذ ، فوجد له صبيتين مُلْهِيَتَيْنِ عند بعضِ التجار لا طائلَ فيهما ، فاشتراهما له ، وأقام رسوله يلتمس الخروجَ بهما فلم يستطع ، لقطع خَيْلِ المعتضد جميعَ الطرق ، فأقام مدةً بقرطبة إلى أن شُيِّعَ بخيلٍ كثيفةٍ ومضى بهما ، وأولُو

....

١ في النسخ : بغير .
٢ ط م : عمرات ؛ س : غمرات .
٣ زيادة من البيان المغرب .

النُّهى يَتَعجبُون ويُعَجّبون[1] ممّا شَهَرَ به نفسَهُ من البطالة ، أيامَ الحروب المُحَرَّمة لأطهارِ النساء على فحولِ الرجالِ العاقدةِ للأزْرَةِ . وعلى ما كان يَدَّعيه لنفسه من الأدب والمعرفة ، وبحثتُ على هذه الأعجوبة وما الذي حمله على هذا الأفَنِ فإذا به ناغَى كاشحَهُ المعتضدَ المرتاحَ بعدَ الظفر لاجتلابِ قينة عبد الرحيم[2] الوزير من قرطبة ، إثر وفاته يومئذ ، وقد استدعاها لمّا وُصِفَت له بالحذقِ في صَنْعَتِها ، فوُجّهَتْ نحوه ، فتقَبّلَهُ المظفرُ في إظهارِ الفراغِ وطَلَبِ الملهيات ، وقد علم العالمُ أنّه لفي شُغُلٍ عنهنّ . فامتد شأو هذين الأميرين يومئذ في الغيّ وتباريا في القطيعة حتّى أفنيا العالمين ، إلى أن سنّى الله بينهما الصلحَ ، في ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين ، بسعي ابن جهورٍ أمير قرطبة ، كعادته بينهما[3] ، بعد كتب ورسل في ذلك ، والمظفر يمتطي اللجاجة هنالك .

فلما سكنتِ الحالُ بينهما فرغ المعتضد إلى حرب الأمراء الأصاغر بالغرب ، كابن يحيى وابن هارون وابن مزين والبكري[4] ، وأتيح له من الظفر عليهم ما حاز به أملاكهم وضمّها جملةً إلى عمله ، ثم مدّ يدَهُ بعدُ إلى القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء، فرضةِ المجاز من الأندلس

.. ..

١ ويعجبون : من م وحدها .

٢ البيان : قينة ابن الرميمي .

٣ ط د م س: بينهم .

٤ ابن يحيى صاحب لبلة ، وقد مر من خبره ما يكفي، وابن هارون هو سعيد بن هارون صاحب اكشونبة ، توفي سنة ٤٣٤ وخلفه ابنه ومن يده أخذ المعتضد اكشونبة سنة ٤٤٩ ؛ وابن مزين هو عيسى بن محمد بن مزين صاحب شلب ، حكم فيها سنة ٤٤٠ ووالى عباد الحروب ضده وقتله سنة ٤٤٥ وانتزع مدينة شلب منه ، وأما البكري صاحب شلطيش وأونبة فسيورد ابن بسام خبره مع بني عباد في ما يلي .

إلى أرض العدوة التي كان منها فتحها ومن قبلها ما أتاها على قدم الدهر ، وذلك أنه لما وجد هذا الفتى ، على نباهته وجلالة عمله ، أضعفَ أمراء البرابرة شوكةً وأقلّهم رجالاً ، صمدَ له وحصره ، فاستغاث القاسم حلفاءه بالأندلس وصاحب سبتة سقوت البرغواطي[1] مولى ابن حمود ، فأبطأ عليه حتى سقط في يده ، ونزل على أمان ، وآل أمره إلى أن لحق بقرطبة وأسكنتها تحتَ كنفِ ابن جهور مع نظرائه من المخلوعين .

فلما كانت سنة إحدى وخمسين ، وقد أتيحَ له من الظفر ما أتيحَ ، اتّصلت الأنباء عندنا بقرطبة بصموت منابره في جميع أعماله عن ذكر إمامه هشام بن الحكم ، صاحب الرَّجْعَةِ ، الذي اتّصل الدعاءُ له على منابره من عهدِ قيام والده إلى آخر هذه السنة ، يومىء إليه بالحياة في غياهب الحُجُبْ من غير ظهورٍ لخاصّةٍ ولا عامّةٍ ، ودعوتُهُ على ذلك كلّه [٧ أ] مرفوعةٌ عند من ائتسى بالمعتضد من أمراءِ شرق الأندلسْ ، إلى أن قطعها قاطعُ الأعناق عليها ابنُ عبّاد ، فذُكِرَ أنّه دعا وجوهَ حضرتِهِ فنَعَى لهم إمامَهم هشاماً ، وكشفَ إليهم تَقَدُّمَ وفاته من عِلَّةٍ زمانية ، ووصف أنَّ الحالَ التي كان بسببها من اشتداد الفتنة بينه وبين من تظاهرَ عليه من أمراءِ الأندلسِ الدَّانين منه عاقه يومئذٍ عن البَوْحِ بوفاة هذا الإمام والشهرة لدفنه ، إعطاءً للحزْمِ بِقِسْطِهِ ، فلمَّا سكنتِ الحالُ وجب التصريحُ بالحقّ ، وعطف — زعموا — بكلامه على شَحْذِ بصائرهم في التمسّك بحبل الإمامة ، والفرارِ عن الميتة الجاهلية . وذُكِرَ أنّه خاطبَ مَنْ كان تحتَ دعوة هذا المنعيّ هشام من أمراء الأندلس ناعياً له ، داعياً إلى التعوُّض منه ، فارتفعت الدعوةُ منذ ذلك الوقت ، وصارت هذه الميتةُ لحاملِ

١ سيأتي خبر سقوت في هذا القسم من الذخيرة .

هذا الاسم الميتة الثالثةَ ، وعساها تكونُ إنْ شاء الله الصادقة ، فكم قُتِلَ وكم مات ، ثمّ انتفض من التراب ، ومزّق الكفن قبل نفخة الصورِ ووقعةِ الواقعة ، فقد كان مات في يد أول خالعيه محمّد بن هشام بن عبد الجبار ودُفِنَ علانيةً ، ثمّ نُشِرَ بيد واضح الصقلبي فى بني أبي عامر ودال مُدَيْدَةً ، ثمّ قتله خالعُهُ الثاني سليمان المستعين ودفنه خفْيَةً ، ثمّ أبرز صداه عليّ ابن حمّود الحَسَنِي المنتزي ، يُذكي الطّلب بثأره على الدولة ، ودفَنَهُ الدّفْنَةَ التي خلناها حقيقةً ، فلم يلبثْ أنْ نَجَمَ حيّاً بإشبيلية بعد حِقَبٍ ، فبقي هنالك ملكاً ودال قَرْناً إلى أن وقعت عليه هذه الميتةُ الثالثة ، فما نقول ونعتقد في الفرق بين هذه الميتات المتواليات ، إذ كان مائتها واحداً ، وليس إلاّ السيوف عليها أدلّة ، غيرَ إخلاصِ الدّعاء لكلمة المسلمين في الائتلاف لما فيه الصلاحْ ؛ انتهى ما لخّصته من كلامه .

قال ابن بسام[1] : ثم غمس المعتضد يده بَعْدُ في من كان يليه من أقتالِهِ البرازلة فصدم[2] شرّهم بشرّهم ، وضرب زيدهم بعَمْرِهِمْ ؛ وقد كان عندما تسعّرت نار الحرب ، بينه وبين رؤساء الغرب ، هادَنَهُمْ على دَخَنٍ ، ومنَحَ لهم حتى ضربوا حوله بِعَطَنٍ ، ليقتلَهُمْ بسيوفهم ، ويستدرجَهُمْ إلى حتوفهم ، فلمّا استقرّت قدمُهُ بشِلْبَ ، قاصيةِ قواعدِ الغرب ، كان أول ما بدأ به من حربهم هجومُهُ على الحاجب ابن نوح[3]

١ البيان المغرب ٣ : ٢١٤ .

٢ س ودوزي : فضرب .

٣ هو محمد بن نوح الدمري الملقب بعز الدولة ثار بمورور سنة ٤٣٣ إلى أن أنهى المعتضد حكمه سنة ٤٤٥ ، وسجنه وتوفي في سجنه ٤٤٩ .

المنتزي منهم – كان – بكورة موررور [1] في غير كتيبةٍ نظمها ، ولا مقدّمة إليه قدّمها ، إلاّ فتَيَان ينبهان عليه ، ويحملان الأموالَ بين يديه ، تجاسراً على ركوب الخطر الذي تحاماه اللبيب ، واستنامةً لصرف القدر وهو لا يدري أيُخطىء أم يُصيب ، فخلص إلى ابن نوحٍ هذا : من رجلٍ لا يُبالي دمَ مَنْ تَجَرَّع ، ولا يحفلُ بأيّ شيء يصنع ، فبالغ ابن نوح في برّه ، وتضاءل لأمره ، وحمل ذلك من فعله على آكدِ أسباب السلامة ، وأتمّ وجوه الاستنامة [2] ، وفضّ المعتضد يومها [3] من صميم ماله ، في وجوه حماةِ ابن نوح ورؤوسِ رجالِه ، ما استمالَ به قلوبهم ، واستنصحَ به جيوبهم .

ثم صار إلى ابن أبي قرّة [4] برندة فسامه مثلها ، وحذا له نَعلَها ، فتلك اعتدّ عليهم يداً ، وجعلها لما أراد من مكروههم أمداً . وقد كان أحد أجنادهم أشار بالرأي في أمره ، وأراد أن يَطّلعَ عليه من ثنيّة مكره ، فواطأهم [5] يومئذٍ بغدره ، ورمز لهم بالاستراحةِ من شرّه ، ففهمها المعتضدُ وجعل تلك الكلمةَ دَبْرَ أذُنهِ ، وأثبتها في ديوان إحَنه ، حتى حليَ بطائلها ، واستقاد بعد مُدّيدةٍ من قائلها . وجأجأ بالحاجبَيْنِ المذكورَيْنِ لأوّل تمكّنه من الغرّة ، وساعةَ صدَرِهِ من مركزه من الحضرة ، فتهافتا تهافُتَ الفَراشِ على الجمرة . وجاءا مجيء الحائن إلى الشفرة ، وتطفّل عليهما الحائن ابن خزرون المنتزي – كان – وقته بأركُش ، فللّه أبوه والداً

١ موررور (Moron) : مدينة صغيرة إلى الجنوب الغربي من قرمونة ، بولاية اشبيلية (الروض المعطار رقم : ١٨١) .

٢ م س والبيان ودوزي ر: الاستقامة .

٣ في النسخ : يوماً .

٤ هو أبو النور هلال بن أبي قرة اليفرني .

٥ س ط : فواطنهم (لعلها : فراطنهم ؛ وهي قراءة توافق قوله «ورمز») .

لم تُجزِهِ الوفادة ، ورواهاً له قتيلاً لم يَحْلَ بطائل الشهادة ، فجرّع الكلَّ [٧ ب] الحتوفَ ، وحكّم في عامّتهم السيوف ، واستمرّ بعد ذلك على حرب بقاياهم ، وتتبّع أخراهم ، حتى تغلّب على بلادهم ، وألوى بطارفهم وتلادهم ، في أخبار طويلة استوفاها ابن حيان ، هي خارجةٌ عن غرض هذا الديوان ؛ وقد ألمعتُ منها بما فيه كفاية ، إذ لا يتّسع هذا المجموع لاستقصاء الغاية .

والسببُ [1] الذي كان يُغرِيْه بطلبهم ، ويبعثه على التمرّس بهم ، أنّ بعض مَنْ نَظَرَ بمولده كان أخبره أنّ انقضاء دولتهِ يكونُ على أيدي قومٍ يطرؤون على الجزيرة من غير سكّانها ، فكان لا يشكُّ أنهم تلك البرازلة الطارئون عليها في عهد ابن أبي عامر ، فأعمل في نكالهم وجوهَ سياسته ، وشغل بقتالهم أيامَ رياسته؛ واتّفق أن دخل عليه يوماً بعضُ وزرائه وبين يديه كتابٌ قد أطال فيه النظر ، فإذا كتابُ سقوتَ المنتزي يومئذ بسبتة ، يذكر أنّ القومَ الملثمين [2] المدعوّين بالمرابطين قد وصلتْ مقدّمتهم رَحْبَةَ مراكش ، فقال له ذلك الوزير المذكور كلاماً معناه : وأين رحبة مراكش ؟ دخلوها [3] فكان ماذا ؟ وماتَ الحجاج فَمَهْ ؟ ! ودونهم اللجج الخضر ، والمهامهُ الغُبْرُ، والليالي والأيّام ، والجماهير العظام ، فقال له المعتضد: هو واللهِ الذي أتوقّعهُ وأخشاه ، وإن طالتْ بك حياةٌ فستراه، اكتبْ الى فلان – يعني عامله على الجزيرة – باحتراس جبل طارق حتى يأتيهُ أمري ،

---

١ انظر الحلة ٢ : ٥٠ .

٢ ط د س : المتلثمين .

٣ ط م س : وجلوها (اقرأ : وحلوها) .

وأخذ يريشُ في تحصينه ، ووضع أرصاده هنالك وعيونه ، ويبري[1]، ولله عزائم لا تقيها الحصونُ ، ولا يهتدي إليها الأرصادُ والعيون، ولكلّ شيءٍ أمَدٌ مكتوب ، وميقاتٌ مضروب ، ويبلغ الكتابُ أجَلَهُ .

فصل في ذكر المعتمد على الله محمد بن عباد
واجتلاب جملة من شعره ، مع ما يتعلق من الأخبار السلطانية بذكره

قال ابن بسام : ثم استوسق الأمرُ بعد المعتضد لابنه المعتمد ، وكان مع اشتغاله بالحرب ، وسعةِ مجاله بين الطعن والضرب ، وعلى أنّ أباه عباداً ما انفكّ يديرُ عليه الرحى ، ويَقْرَعُ إليه[2] كلّما قَرَعَتْ عصاً عصاً ، حتى صار أسوةً لنجومِ ليلها ، وحِلْساً لمتونِ خيلها :

لا يشرب الماءَ إلاّ من قليبِ دمٍ ... ولا يبيتُ له جارٌ على وجلِ[3]

فقد كان متمسكاً من الأدب بسبب، وضارباً في العلم بسهم ، وله شعر كما انشقّ الكمامُ عن الزّهر ، لو صدَرَ مثلُهُ عمّن جعلَ الشعرَ صناعة ، واتّخذه بضاعة ، لكان رائعاً معجباً . ونادراً مستغرباً ، فما ظنّكَ برجلٍ

١ ويبري معطوفة على « يريش » .

٢ يقرع (من الثلاثي) فيه معنى المشاورة ، وإذا كان مضارعاً للرباعي (أقرع) : ففيه معنى الرجوع تقول : أقرع إلى الحق أي رجع ؛ ولولا شخصية المعتضد وما تنطوي عليه من الاعتداد لصح أن تكون القراءة « ويفزع إليه » .

٣ البيت لأبي سعد المخزومي واسمه عند المرزباني (معجم الشعراء: ٩٨) عيسى بن خالد بن الوليد وقيل إنه دعي في مخزوم (طبقات ابن المعتز : ٢٩٥ - ٢٩٨) وكان يهاجي دعبل بن علي الخزاعي ؛ وقد ورد بيته هذا في معجم المرزباني وديوانه : ٥٣ .

لا يجدُ إلا رائياً ، ولا يُجيدُ إلا عابثاً ، وهو مع ذلك يرمي فيصيب ، ويهمي فيَتَصوب ، وشعره يوضحُ ما شرح ويعبر عما ذكر . مع أنّه قد رُويَتْ أشعارُ أولي النباهة والأعيان ، على قديم الزمان ، لشرف قائلها ، مع قلّة طائلها . وقد رأيت أبا بكر الصوليّ أثبتَ لملوكِ بني أميةَ وخلفاء بني العباس . ما لو صدر مثله لصغار الناس لاستُهجنَ ، أو طرأ لضعفاء السوق لاستُصْغر . فلنا في الصوليّ أسوةٌ في إثبات هذا النوع من الشعر إن وقع في كتابنا هذا . [٨ أ] والعجب من المعتمد أنه مَرّى سحابه في كلتا حاليه فصاب . ودعا خاطره فأجاب . ولا تراجَعَ له من طبع . ولا بعد الخلع . بل يومُهُ في هذا الشأن دهر ، وحسنته في هذا الديوان عشر . فان أجاد فما أولى . وإن قصَّر فعذْرُهُ أوضحُ وأجلى .

والبيت المتقدِّم[1] من جملة قصيد . للمخزومي أبي سعد[2] ، وإنما أشار في معناه إلى قول بشار[3] :

فتىً لا يبيتُ على دمنةٍ[4] ولا يشرب الماء إلاّ بدمْ

وقال أبو الطيب[5] :

ولا تردُ الغدرانَ إلاّ وماؤها من الدم كالرَّيْحانِ تحت الشقائقِ

وقال محمد بن هانىء[6] :

لا يُورِدونَ الماءَ سنبكَ سابحٍ أو يكتسي بدم الفوارس طُحْلبا

---

١ ط : المقدم .

٢ ط دم س : أبي سعيد .

٣ ديوان بشار : ٢١٧ (جمع العلوي) .

٤ دوزي . هدنة .

٥ ديوان المتنبي : ٣٩٠ .

٦ ديوان ابن هانىء : ١٨٩ .

جملة من شعر المعتمد في النسيب وما يناسبه[1]

قال[2] :

داري الغرامَ ورامَ أنْ يتكتَّما　　وأبى لسانُ دموعهِ فتكلّما
رحلوا وأخفى وَجْدَهُ فأذاعَهُ　　ماءُ الشؤون مصرِّحاً ومجمجما
سايَرْتُهُمْ والليلُ غُفْلٌ ثوبُه　　حتى تراءى للنواظر مُعْلَما
فوقفْتُ ثمَّ محيّراً وتَسَلَّبَتْ　　مني يدُ الإصباح تلك الأنجما

وكأنَّ معنى هذا البيت الأخير ، إلى قول المجنون يشير[3] :

فأصْبَحْتُ من ليلى الغداةَ كناظرٍ　　مع الصبح في أعقاب نَجْمٍ مُغَرِّبِ

وله[4] في أم الربيع وقد مرضت فلم يعدها :

مرضتِ فأمسكتُ الزيارة عامداً　　وما عن قلىً أمسكتها لا ولا هجرِ
ولكنني أشفقتُ من أن أزوركم　　وأبصرَ آثارَ الخسوف على البدر

---

١ تتردد أشعار المعتمد في كثير من المصادر التي ترجمت له ، وقد جمع ديوانه الأستاذان : أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد (القاهرة ١٩٥١) وأرى أن أكتفي بمراجعة ما جاء في الذخيرة على هذا الديوان ، إلا استثناءات قليلة .

٢ الديوان : ٢٦ .

٣ ديوان المجنون : ٧٩ .

٤ هذه العبارة والبيتان التاليان من هامش ط ، وهما مكتوبان بخط الأصل . وأمام العبارة لفظة : « طرة » ؛ وهما ومعهما بيت ثالث في المقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد الورقة : ٤٤ ، ولم ترد هذه الأبيات في الديوان أو في النسخ الأخرى .

وقال المعتمد [1] :

أكثَرتَ هجري غير أنّك ربّما عطفتْك أحياناً عليّ أمورُ
فكأنّما زمنُ التهاجرِ بيننا ليلٌ وساعاتُ الوصالِ بدور

وهو ينظر إلى قول الأسعد بن بليطة [2] :

تتنفّسُ الصهباءُ في لهواته كتنفّس الريحان في الآصالِ
وكأنّما الخيلان في لبّاته ساعاتُ هجرٍ في زمان وصال

وقال [3] :

تَظنُّ بنا أمُّ الرّبيع سآمَةً ألا غفر الرحمنُ ذنباً تواقعهُ
أأهْجُر ظبياً في فؤادي كناسُهُ وبدرَ تمامٍ في ضلوعي [4] مطالعه
وروضةَ حُسْنٍ أجتنيها وبارداً من الظّلمِ لم تُحظَرْ عليّ شرائعه
إذن عدمتْ كفّي نوالاً تُفيضُهُ على معتفيها أو عدوّاً تقارعه

وناوله بعض نسائه كأس بلور مترعاً خمراً ولمع البرق فارتاعت فقال [5] :

ريعَتْ من البرقِ وفي كفّها برقٌ من القهوة لمّاعُ
يا ليتَ شعري وهيَ شمسُ الضحى كيفَ من الأنوار ترتاع

وقال [6] :

---

١ ديوان المعتمد . ١٣ ومختارات الصيرفي : ١١١ .
٢ ترجمته في القسم الأول من الذخيرة ص : ٧٩٠ .
٣ ديوان المعتمد : ٢٠ ومختارات الصيرفي . ١١١ .
٤ الديوان : جفوني (عن المطرب والخريدة) .
٥ الديوان : ٢١ ومعاهد التنصيص ٢ : ١١٤ والمعجب : ١٦١ ومختارات الصيرفي . ١١١ .
٦ الديوان : ١٥ ورايات المبرزين : ٣٧ (١٠ غرسيه عومس = ع) والمعجب : ١٦١ .

قامتْ لتحجبَ قُرْصَ[1] الشمسِ قامتها
عن ناظري حجبتْ عن ناظرِ الغيرِ
[٨ ب] علماً لعمرك منها أنها قمرٌ
هل تحجبُ الشمسَ إلا غرّة[2] القمر

وقال[3] :

عفا اللهُ عن سِحْرٍ على كلّ حالةٍ ولا حُوسِبَتْ عني بما أنا واجِدُ
أسحرُ ظلمتِ النفسَ واخترْتِ فرْقتي فجمّعْتِ أحزاني وهُنَّ شَوارِدُ
وكانت شُجُوني باقترابك نُزَّحاً فها هنَّ لمّا أن نأيْتِ شَواهِدُ

وقال[4] :

فإن تَستلذّي بَرْدَ مائِكِ بَعدَنا فبعدَكِ ما ندري متى الماء بارد

وقال[5] :

يا غرّةَ الشّمسِ التي قلبي لَها أحَدُ البرُوجِ
لَوْلاكِ لم أكُ مُؤْثِراً فُرُشَ الحَريرِ على السُّرُوجِ

وقال[6] :

...

١ الديوان : ضوء الشمس .
٢ الديوان : صفحة .
٣ الديوان : ٨ .
٤ عد هذا البيت في الديوان لاحقاً بالأبيات السابقة .
٥ الديوان : ٥ .
٦ الديوان : ١٧ .

تَمَّ لهُ الحُسنُ بالعِذارِ واقترَنَ اللّيلُ بالنّهارِ
أخضَرُ في أبيَضٍ تَبَدّى ذلك آسي وذا بَهاري
فقد حوَى مجلسي تَماماً إنْ يَكُ من رِيقِهِ عقاري

هذا كقول ابن وكيع [1] :

شادِنٌ خَــدّهُ وعيْـ ـنَاهُ وردي ونَرجسي
إنْ يَجُدْ لي بخَمرَةٍ فلَقَدْ تَمَّ مَجلسي

ما أخرجته من مقطوعاته السلطانية التي أجراها مُجْرَى الاخوانيات

بات الوزير أبو الأصبغ بن أرقم [2] على قربٍ من إشبيلية ، وأعلمه أنّه وافدٌ عليه صبيحة غدٍ ، فكتب إليه المعتمد [3] :

أهلاً بكم صَحبتكمْ نحويَ الدِّيَمُ إن كان لم يتَجنَّحْ [4] لي بكم حُلُمُ
حُثّوا المطيَّ ولو لَيلاً بمَجْهَلَةٍ فلن تضلّوا ومن بِشْري لكم علمُ
سأكتُمُ اللّيلَ ما ألقاهُ من بُعُدٍ وأسألُ الصبحَ عنكُم حين يبتسمُ

وأدخلت إليه يوماً باكورة نرجس ، فكتب إلى ابن عمار يستدعيه [5] :

---

١ لم يردا في ديوانه المجموع .
٢ انظر ترجمته في الذخيرة ٣ : ٣٦٠ .
٣ الديوان : ٦٠ .
٤ هذه هي قراءة م ، وفي ط د : يتنحنح ؛ الديوان : يتبجح ؛ س : يتحتح .
٥ الديوان : ٦٤ وقد أثبت هنالك جواب ابن عمار أيضاً ؛ ومختارات الصيرفي : ١١٠ .

قد زارَنا النرجسُ الذّكيُّ   وآنَ من يومنا العَشيُّ
ونحنُ في مجلسٍ أنيقٍ   وقد ظَمِئْنا وثمّ ريّ
ولي نَديمٌ غدا سَمِيّي   يا لَيتَهُ ساعدَ السّميّ

فأجابه ابن عمّار :

لَبّيْكَ لَبّيكَ من مُنادٍ   له النّدى الرّحبُ والنّديُّ
ها أنا في البابِ عبدُ قِنٍّ   قَبِلْتَهُ وجهكَ السَّنِيُّ
شَرَّفَهُ والداهُ باسْمٍ   شَرَّفْتَهُ أنتَ والنّبيُّ

وسأله الوزير أبو عمرو بن غَطَمَّش [1] أن يشرّفَهُ بالسير معه إلى منزله ، فاجتمع الندماء بالقصر . [٩ أ] بعد صلاة العصر . انتقلوا ليلاً بانتقالها إلى دار الوزير المذكور ، فبدت من ابن عمار حينئذ هنة أوجبتْ أن رماه المعتمدُ ببعض الآنية . فافترقوا بعد نومه ووقوع اليأس من سيره ، ومضت الجماعة إلى دار الوزير المذكور . فلما استيقظ المعتمد من السكر ، أُخْبِرَ بما وقع من الأمر . فكتب إليهم بهذين البيتين [2] :

لولا عيونٌ من الواشين ترمقني   وما أحاذِرُه من قول حُرَّاسِ
لزرتكم لأكافيكم بجفوتكم   مشياً على الوجه أو حبواً على الراسِ

وله يستعطف أباه المعتضد إذ دخل مالقةَ وأخرج منها ، في قصيدٍ أوّله [3] :

١ كنيته في ط د : أبو عمر ؛ وقد مر ذكره عند المقري (النفح ٤ : ٧٧) في رسالة كتبها المعتمد نفسه إلى الأعلم الشنتمري يقول له فيها « سألك الوزير الكاتب أبو عمرو ابن غطمش سلمه الله عن المسهب وزعم أنك تقول بالفتح والكسر . . . الخ » .

٢ الديوان : ٥٨٧ و المسالك : ٣٩٧ وابن خلكان ٥ : ٢٦ .

٣ الديوان : ٣٦ وابن خلكان ٥ : ٢٤ والحلة ٢ : ٥٦ والقلائد : ١٩ ومنها بيت واحد في رايات المبرزين : ١٠ (غ) .

سكّنْ فؤادَكَ لا تذهبْ بكَ الفكرُ ... ماذا يُعيدُ عليك البثُّ والحَذَرُ
وإن يكنْ قدرٌ قد عاقَ عن وَطَرٍ ... فلا مرَدٌّ لما يأتي به القَــدَرُ
وإن تكنْ خيبةٌ في الدهرِ واحدَةٌ ... فكم غزوتَ ومن أشياعكَ الظفر
إنْ كنتَ في حَيرَةٍ عن جُرْمِ مجترم ... فإن عُذْرَكَ في ظلمائها قَمَر

ومنها :

يا ضيغماً يقتلُ الفرسانَ مفترساً ... لا توهنَنّي فإنّي النّابُ والظفرُ
قد أخْلَقَتْني[1] صروفٌ أنتَ تعلمها ... وعادَ موردُ آمالي به كَدَرُ
وحلتُ لوناً وما بالجسمِ من سَقَمٍ ... وشبتُ رأساً ولم يبلغنيَ الكبرُ
لم يأتِ عبدُكَ ذَنباً يَستحقُّ بهِ ... عَتْباً وها هو قد ناداك يَعتذر
ما الذنبُ إلاّ على قومٍ ذوي دَغَلٍ ... وَفَى لهم عهدُكَ المعهودُ إذ غدروا

ومنها :

لم أوتَ من زمني شَيئاً ألَذُّ بهِ ... فلستُ أعرفُ ما كأسٌ ولا وترُ
ولا تملكني دلٌّ ولا خَفَرٌ ... ولا سبَى خَلَدي[2] غنجٌ ولا حور
رضاك راحة نفسي لا فجعتُ بهِ ... فهو العتادُ الذي للدهر يُدّخر
وهو المدام التي[3] أسلو بها فاذا ... عدمتها عَبَثَتْ في قلبيَ الفكر

---

[1] ط والديوان : أخلقتني .
[2] الحلة : ولا تمرس بي (ولم تثبت هذه القراءة في الديوان) .
[3] ط م س : الذي .

ذكر الخبر عن حديثه يومئذ بمالقة ودخوله إياها ، وانصرافه مفلولا دون ما تخيل من التخييم في ذراها ، وأمل من الاستباحة لحماها

قال ابن بسام : لما سما باديس بن حبوس إلى قصبة مالقة بعد تقلّص الظلالِ الحمودية عن أرجائها ، وأفولِ النجوم العلويّة في سمائها، في خبر خلا منه هذا المجموع حين لم يتعلّق بذيله مما وقعَ إليّ نظمٌ ولا نثر ، ولا أشرقَ في ليله مما حصل في يديّ للأدبِ كوكبٌ ولا بدر ، فلذلك أضربت [٩ ب] عنه ، وأخليتُ كتابي منه ، وأتيتُ بخبر المعتمد فيها حين أنبأ به شعر ، وجرى له على لسان الأدبِ ذكر ، وفاءً بالشرط ، وتوفيةً بالقسط :

كان[1] أهل مالقة إذا جرى ذكرُ عبّاد ارتاحوا إليه ارتياح الغصون تحت النسيم ، ورفعوا أصواتهم بالصلاة عليه والتسليم ، هذا على ما كان يُقذي عيونَهم من قبح آثاره ، ويصكُّ أسماعهم من هولِ أخباره ، ويلفحُ وجوهَهُمْ من وَهَجِ ناره، تشيُّعاً لم يكنْ له أصل إلا شؤم الحميَّة ، ولؤم العصبية، فاهتبلوا غرّةً من باديس أميرهم، وناجَوْا عبّاداً بذات صدورهم، وألقَوْا إليه بأيدي تأميلهم وتأميرهم ، فجأجأوا لظَمْآنَ[2] لا يَرْوى على طولِ الشّربِ ، وهزُّوا سيفاً يكادُ يهتكُ الضريبةَ قبلَ الضرب ، فجدَّ فيها وشمّر ، ونادى أهلَها وحَشَر ، وكان المعتضدُ إذا طولَ اختصر ،

١ انظر البيان المغرب ٣ : ٢٧٣ .

٢ ط د م س : تحاجوا الظمآن .

وإذا تُحُدِّثَ عنه على البعد حضر ، ولبّى دعاةَ أهلِ مالقةَ بالخيلِ بين الجلالِ واللّبود ، وبالأبطال أثناءَ الحرير والحديد ، وأنفذ إليهم شوكَتَهُ الوحيَّ سمُّها ، وأطلع عليهم كتيبته البعيدَ همُّها ، القاسطَ[1] حكمها ، معصَّبةً بابنيه جابرٍ ومحمد ، فلأولِ إطلالِ عسكره عليها هبَّتْ له ريحُ فتحها ، وضحك في وجهه بِشْرُ[2] صُبْحها ، فحلَّ لأول وقته بحريمها ، وتحكّم في ظالمها ومظلومها ، إلاّ فرقةً من السودان المغاربة لاذوا بذروةِ قَصَبَتها وهي بحيث ينشأ تحتَها الدَّجْنُ ، ويعجزُ دونَ مرامها الظنّ ، إنافةَ مكانٍ[3] ، وإطالةَ بنيان ؛ وقد كان أهلُ مالقةَ أشاروا على ابني المعتضد ، حين خلّوا بينهما وبين البلد ، بإذكاء العيونِ ، وإساءة الظنون ، وضَبْطِ ما حولها من المعاقل والحصون ، فغفلا ، واستصرخ السودانُ المغاربةُ أميرَهُم باديسَ فلبَّاهُم بزخرةٍ من تيَّاره ، وأقْبَسَهُمْ شرارةً من ناره ، فلم يَرُعْ ابني عبّاد ، إلاّ صهيلُ الجياد ، وتداعي الأجناد ، بشعارِ الجلاد ، فلم ترَ إلاّ أسيراً أو قتيلاً ، أو فازعاً إلى الفرار ما وجد إليه سبيلاً ، وامتلأت أيدي الباديسيين من السلاح والكراع ، ورفلوا بين خيار البزّ وفاخر المتاع ، ولجأ ابنا عبّاد إلى رُنْدَةَ وقد انغمسا في عارها ، وصليا بنارها ، ورأيا وجْهَ الموتِ في لمعان أسنّتها وشفارها ، ومن ثَمَّ خاطب المعتمدُ أباه بالشعر المتقدم الذكر ، وقد أخفر ذِمَمَهُ ، ونذر دَمَهُ ، ولولا أنّه استجار – زعموا – يومئذ برجلٍ من العبّاد كان هنالك لتبَّتْ يداه ، ولحق إسماعيل أخاه .

[1] س ودوزي : الغائظ .
[2] ط د : وجه .
[3] دوزي : اتقان .

ورُفِعَ إلى المعتمد صَدْرَ دولته شعر ، عُزِيَ إلى بعض الأصحاب ، من الوزراء الكتاب ، يعرِّضُ بأبي الوليد بن زيدون فيه ، أوله [1] :

يا أيّها الملك العليّ الأعظم	اقطعْ وريدَيْ كلّ باغٍ ينئمُ
[واحسم بسيفك داءَ كلّ منافقٍ	يُبْدي الجميلَ وضدّ ذلك يكتم][2]
لا تتركنْ للناس موضعَ شبهةٍ	واحزمْ فمثلك في العظائم يحزم
قد قال شاعرُ كندةٍ فيما مضى	بيتاً على مرّ الليالي يُعْلَمُ
« لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى	حتّى يراقَ على جوانبه الدم »[3]

فلما سمعها المعتمد ، عرف الغرض الذي إليه قصد ، ووَقّعَ على ظهر الرقعة ، بهذه القطعة ، وهي من جيد نظامه ، وحرّ كلامه [4] :

كذبتْ مُناكم صَرِّحوا أو جَمْجِموا	الدّينُ أمْتَنُ والمروةُ أكرمُ
خُنْتُمْ ورمتمْ أن أخونَ وإنّما	حاولتمُ أن يُسْتَخَفَّ يلملم
وأردتمُ تضييقَ صدرٍ لم يَضِقْ	والسُّمْرُ في ثُغَرِ الصدورِ[5] تحطّم
وزحفتمُ بمحالكُمْ[6] لمُجرِّب	ما زال يثبتُ في المحالِ فيهزم
أنّى رجَوتُمْ غَدْرَ مَنْ جرَّبتُمُ	منه الوفاءَ وجورَ[7] مَنْ لا يَظْلم

... ...

١ انظر ديوان ابن زيدون : ٣٠٦ والقلائد : ١٤ والإعلام ٢ : ٣١٥ .

٢ زيادة من دوزي .

٣ ديوان المتنبي : ٢١٨ .

٤ ديوان المعتمد : ٦٧ والقلائد : ١٥ والاعلام ٢ : ٣١٦ .

٥ الديوان : النحور (عن القلائد) .

٦ ط د م س : ورجعتم لمحالكم ، وبهامش ط « وزحفتم » .

٧ دوزي والقلائد : وظلم .

أنا ذاكُمُ لا البغيُ يُثْمِرُ غَرْسُهُ عندي ولا مبنى الصنيعة يُثْلَم[1]
كُفّوا وإلاّ فارقبوا ليَ بَطشَةً يُلْقى السفيهُ بمثلها فيُحَلَّم

ولأبي الوليد على ذلك جوابُ شكرٍ من جملة قصيد ؛ قال فيه[2] :

قلْ للبُغاة المُنبضين قِسِيَّهُمْ سَتَرَوْنَ مَنْ تُصميه تلك الأسْهم
أسررتُمُ فرأى نجيَّ غيوبكم شَيْحانُ مدلولٌ عليه مُلْهَم
ما كان حِلْمُ محمّدٍ ليُحيلَهُ عن عهده دَغِلُ الضمير مُذَمَّم
فبِرَق عوَتْ[3] فزأرْتَ زأرَةَ زاجرٍ راعَ الكليبَ بها السَّبَنْتَى الضيغم
لي منك فليذبِ الحسودُ تلظّياً لُطْفُ المكانةِ والمَحَلُّ الأكرم
لم تُلْفَ صاغيتَي لديكَ مُضَاعَةً كلاّ ولا ضاع اصطناعي الأقدم
بل أوسعتْ حفظاً وصدقَ رعايةٍ ذِممٌ موَثّقَةُ العرى لا تُفْصَم
فليخرقنّ الأرضَ شُكرٌ مُنجِدٌ منّي تَناقَلُهُ المحافل مُتْهِم

ومن كلام المعتمد الجزل ، قوله يوم كُبِّلَ يخاطب الكبل[4] :

إليك فلو كانت قيونُك أشْعِرتْ تصرّم منها كلُّ كفٍ ومعصمِ
مهابَةَ مَنْ كانَ الرجالُ بسيبه ومن سيفه في جنة أو جهنم

ومما قاله بعد زوال سلطانه وتضعضع بنيانه ، لما دُخِلَ عليه البلد يوم الثلاثاء منتصف رجب سنة أربع وثمانين ، خرج مدافعاً عن ذاته ، وذابّاً عن حرماته ، وظهر يومئذ من بأسه . ومن تراميه — زعموا — على الموت

. . .. .

١ د والديوان ودوزي : تهدم (عن القلائد) .
٢ ديوان ابن زيدون : ٣١٤ والقلائد : ١٦ .
٣ ط م : غوت .
٤ ديوان المعتمد : ١١٢ .

بنفسه ، ما لا مزيدَ لبشرٍ عليه ، ولا تناهي لِخَلْقٍ اليه ، وفي ذلك يقول[1]

لمَّا تماسكتِ الدموعُ وتَنَبَّهَ القلبُ الصديعُ
قالوا الخضوعُ سياسةٌ فليبدُ منكَ لهمْ خضوعُ
وألذُّ مِنْ طعْمِ الخضوع على فمي السمّ النقيع
إن تستلبْ عني الدُّنا[2] مُلْكي وتُسْلمْني الجموع
فالقلبُ بين ضلوعِهِ لم تُسْلِمِ القلبَ الضلوع
لم أَسْتَلَبْ شَرَفَ الطبا ع أيُسْلَبُ الشرفُ الرفيع
قد رُمْتُ يومَ نزالهم الا تحصِّنني الدروع
وبرزْتُ ليس سوى القميـ ص على الحشا شيء دَفوع
وبذَلْتُ نفسي كي تسيـ لَ إذا يسيلُ بها النجيع
أجَلي تأخَّرَ لم يَكُنْ بِهَوايَ ذُليَّ والخضوع
ما سرتُ قَطّ إلى القتا ل وكان من أمَلي الرجوع
شِيَمُ الأولى أنا مِنْهُمُ والأصلُ تتبعه الفروع [١٠ب]

قوله : « ما سرت قط إلى القتال » . . . البيت ، كقول قيس بن الخَطيم[3] :

وإنّيَ في الحرب الضروس موكلٌ بتقديم[4] نفسٍ لا أريد بقاءَها

١ ديوانه : ٨٨ وبعضها في القلائد : ٢٢ والمعجب : ٢٠٢ والاعلام ٢ : ٣١٤ ومختارات الصيرفي : ١٢٠ .
٢ الديوان والقلائد : إن يسلب القوم العدا .
٣ ديوان قيس بن الخطيم : ١٠ .
٤ ديوان قيس : باقدام .

وروى ابن قتيبة قال[1]، قال أبو دلامة : كنتُ في عسكر مروان بن محمد أيّامَ زَحَفَ إلى شيبان[2] ، فلما التقى الزحفان خرج رجلٌ منهم ينادي إلى البراز ، فلم يخرج إليه أحدٌ إلاّ أعْجَلَهُ ولم يُنَهْنِهْهُ ، فغاظَ ذلك مروان ، فجعل يندب الناسَ على خمسمائة، فقَتَلَ أصحابَ الخمسمائة، فندبهم على الألف، ولم يزل يزيد حتى نادى بخمسة آلاف. قال أبو دلامة: وكان تحتي فرس لا أخافُ خَوْنَهُ ، فلما سمعتُ بخمسة آلاف اقتحمت الصفّ ، فلما نظر إليّ الخارجي علم أنّي خرجتُ للطمع ، فبرز إليّ وهو يقول[3] :

وخارج أخْرَجَهُ حُبُّ الطَمَعْ
فَرَّ من الموت وفي الموت وقَعْ
من كان ينوي [4] أهله فلا رجع

فلما وقرتْ في أذني انصرفتُ عنه هارباً ، فجعل مروان يقول : من هذا الفاضح ؟ إيتوني به ، ودخلتُ في غمار الناس .

وقيل[5] كان أبو دلامة مع أبي مسلم في بعض حروبه مع بني أمية ، فدعا رجلٌ إلى البراز فقال له أبو مسلم : اخرج إليه ، فأنشأ يقول :

1 انظر الشعر والشعراء : ٦٦١ والأغاني ١٠ : ٢٥٦ – ٢٥٧ .
2 ثار في زمن مروان اثنان كل منهما يعرف بشيبان وهما شيبان بن عبد العزيز اليشكري وشيبان بن سلمة (المعروف بشيبان الأصغر) ، وفي م س والأغاني : سنان ؛ د : سنار ، ط : سناس .
3 انظر شعر الخوارج : ٢٢١ (الطبعة الثانية) .
4 ط د م س : يهوى .
5 الأغاني ١٠ : ٢٨٠ .

ألا لا تلمني إن هربتُ[1] فانّني أخاف على فخّارتي أن تَحَطّما
فلو أنّني أبتاعُ في السوق مثلها وجدّك ما باليتُ أن أتقدّما

وحدث أيضاً أبو دلامة قال[2] : أُتِيَ بي المنصورُ وأنا سكران ، فحلف أنْ يخرجني في بَعْثِ حربٍ ، فأخرجني مع رَوْحِ بن حاتم المهلّبي لقتال الشّراة ، فلما التقى الجمعان قلتُ لروح : لو أنّ تحتي فرسَكَ ومعي سلاحَكَ لأثّرتُ اليوم في عدوّك أثراً ترتضيه ، فنزل عن فرسه ونزع سلاحه ، فلما حصل ذلك في يدي وزالت حلاوة الطمع أنشدتُه :

إنّي استجرتُك أن أقدّمَ في الوغى لتطاعنٍ وتنازلٍ وضرابِ
فهبِ السيوفَ رأيتُها مشهورة فتركتُها ومضيتُ في الهرّاب
ماذا تقول لما يجيء ولا تُرَى من بادرات[3] الموت بالنشّاب

قال : دع عنك هذا ؛ وبرز رجلٌ من الخوارج فقال : اخرج إليه ، قلتُ : أنشُدُكَ اللهَ في دمي أيها الأمير ، ان هذا أوّلُ يومٍ من أيام الآخرة وآخرُ يومٍ من أيام الدنيا ، وأنا والله جائعٌ ما تنبعثُ مني جارحةٌ من الجوع ، فأمر برغيفين ودجاجة ، فأخذتُ ذلك وبرزتُ إلى الصف ، فلما رآني الخارجي أقبلَ نحوي وتحدثنا ، وقلتُ : إنّ معي زاداً أحببتُ أن تأكلَهُ معي وما أريدُ قتالك ، فجعلنا نأكُلُ على ظهورِ دوابّنا والناسُ يضحكون ، فلما استوفيناه ودّعني ، فلما انصرفتُ قلتُ لروح : قد كفيتُكَ قِرْني فقل لغيري يكفيك قِرْنَهُ . ثم خرج آخر يدعو إلى المبارزة فقال : اخرج إليه فقلتُ :

---

١ الأغاني : فررت .
٢ الأغاني ١٠ : ٢٥٥ .
٣ الأغاني : واردات ؛ ط م س : باردات .

إنّي أعوذُ بِرَوْحٍ أن يقدّمني إلى القتال فتخزى بي بنو أسدِ
إن البرازَ إلى الأقران أعلمُهُ مما يفرّقُ بين الروح والجسد[١١أ]
إنّ المهلّبَ حبَّ الموتِ أورثكمْ وما ورثتُ اختيارَ الموتِ من أحد
لو أن لي مهجةً أخرى لجدت بها لكنّها خُلِقَتْ فرداً فلم أجُدِ

فضحك وأعفاني .

رجع : ثم التوت بالمعتمد الحال أياماً يسيرةً ، والناس بحضرة اشبيلية قد استولى عليهم الفزع ، وخامرهم الجزع ، يقطعون سُبُلَها سياحةً ، ويخوضون نهرَها سباحةً ، ويترامون من شُرُفات الأسوار ، ويتوبلحون مجابي الأقذار، حرصاً على الحياة ، وحذراً من الوفاة، فلما كان يومُ الأحد الموفي عشرين من رجب المؤرخ ، دُخل البلد على المعتمد بعد أن جدّ الفريقان في القتال ، واجتهدت الفئتان في النزال ، وفي أثناء تلك الحال ، وما كان يناجي باله من البلبال ، خاطب أبا بكر المنجم الخولاني بهذه الابيات [١] :

أرَميدْتَ أمْ بِنُجومكَ الرّمَدُ قد عاد ضداً كلُّ ما تَعِدُ
هل في حسابك ما نؤمّله أم قد تصرّمَ عندك الأمد
قد كنتَ تهمسُ إذ تخاطبني وتخطُّ كَرْهاً إن عصتك يد
فالآن لا عينٌ ولا أثرٌ أتَراكَ غيّبَ شَخْصَكَ البلد
وتراكَ بالعذراء في عُرُسٍ أم إذ كذبْتَ سطا بكَ الأسدُ
الملك لا يبقى على أحدٍ والموتُ لا يبقى له أحد

ثم أخرج المعتمد في ذلك اليوم إلى أن أطلقت إليه جميعُ أمّهاتِ أولادِه وبنيه ، وكلّ ما يختص به من أقاربه وذويه ، وعُميرَ بهم مركبٌ فركبوا

[١] ديوان المعتمد : ٨٧ .

البحر ورُزِقوا السلامة فيه ، إلى أن وصلوا إلى أمير المسلمين وناصر الدين ، أبي يعقوبَ يوسف بن تاشفين ، رحمه الله ، فبقوا هنالك في كَنَفِه وذَرَى فضله ، تحتَ إحسانٍ عميم ، وبذلِ نائلٍ جسيم ، حتى انقرضتْ هنالك أيامه ، ووافاه حِمامُهُ ، بعد مرضٍ شديدٍ أصابه ، وكانت وفاته في ربيع الأول سنة ثمان وثمانين . وكان مولده في ربيع الأول سنةَ إحدى وثلاثين .

ومن النادر الغريب أنه نودي في جنازته بالصلاة على الغريب ، بعد عظيم سُلطانِه ، وجلالة شانه ، فتبارك من له البقاء ، والعزّة والكبرياء . وبلغني أنه لما أحسَّ بالوفاة ، رثى نفسه بهذه الأبيات [1] :

قبرَ الغريبِ سقاكَ الرائحُ الغادي ... حقاً ظَفِرْتَ بأشلاءِ ابن عبّادِ
بالطاعنِ الضارب الرامي إذا اقتتلوا ... بالخِصْبِ إنْ أجدبوا بالرّيِّ للصادي
نعم هو الحقّ وافاني به قَدَرٌ ... من السماءِ فوافاني لميعاد [١١ب]
ولم أكنْ قبلَ ذاك النعشِ أعلمُهُ ... أنَّ الجبالَ تهادَى فوق أعواد
فلا تزلْ صلواتُ الله نازلةً ... على دفينك لا تُحْصَى بتعداد

ثم وصّى بأن تثبتَ على قبره .

وتنازعت يومئذٍ لمّة من أهلِ الأدب بأغمات ، ورثوه بقصائد مطوّلات ، منهم أبو بحر بن عبد الصمد [2] ، رثاه بقصيد أوله [3] :

. . . .

١ ديوانه : ٩٦ والمعجب : ٢٢٢ والاعلام ٢ : ٣٢٠ – ٣٢١ .
٢ ترجمته في القسم الثالث : ٨٠٩ .
٣ أبياته في القلائد : ٣١ والنفح ٤ : ٢٢٤ ، ٢٥٩ والاعلام ٢ : ٣٢١ .

ملكَ الملوكِ أساميعٌ فأنادي ... أم قد عدَتْكَ عن السماع عوادِ
لما نُقِلْتَ من القصور فلم تكن ... فيها كما قد كنتَ في الأعياد
قبَّلْتُ في هذا الثرى لك خاضعاً ... وجعلتُ قبرك موضعَ الإنشاد

وأنشد على قبره وفعل ما ذكر : قبل الترب ومرّغ جبينه وعفّر ، فأبكى من حضر[1] .

وبلغني أيضاً عن بعض بني عباد أنه أنْشد في النوم قبل حلول الفاقرة بهم هذه الأبيات[2] :

ما يعلم المرءُ والدنيا تمرُّ به ... بأنّ صرفَ ليالي الدهرِ محذورُ
بينا الفتى مترِدٌ في مسرّتهِ ... وافى عليه من الأيام تغيير
وفرّ من حوله تلك الجيوشُ كما ... تفرّ إنْ عاينَتْ صَقْراً عصافيرُ
وخرّ خُسْراً فلا الأيامُ دُمْنَ له ... ولا بما وُعِدَ الأحرار محبورُ
من بعد سبعٍ كأحلامٍ تمرّ وما ... يرقى إلى الله تهليلٌ وتكبير
يحلّ سوءٌ بقومٍ لا مَرَدّ له ... وما تُرَدّ من الله المقادير

وكذلك حُكي عن رجل أنه رأى في منامه إثْرَ الكائنةِ عليهم كأنّ رجلاً صعد منبرَ جامع قرطبة واستقبل الناسَ ينشدهم[3] :

ربَّ ركبٍ قد أناخوا عيسَهم ... في ذرى مجدهمُ حين بَسَقْ
سكت الدهر زماناً عنهمُ ... ثم أبكاهُمْ دماً حين نَطَقْ

١ قارن بقوله في القلائد : « . . . وقال بعد أن طاف بقبره والتزمه ، وخر على تربه ولثمه ، فانحشر الناس إليه وانجفلوا ، وبكوا لبكائه وأعولوا » .
٢ الحلة ٢ : ٦٣ .
٣ الحلة ٢ : ٦٤ والمعجب : ٢١٧ .

فلما سمع المعتمد ذلك أيقنَ أنه نَعيٌ لملكه ، وإعلامٌ بما انتثر مِنْ سِلْكِهِ ، فقال [1] :

من عزا المجدَ إلينا قد صَدَقْ ‏ ‏ ‏ لم يُلَمْ من قال مهما قال حقْ

مجدنا الشمسُ سناءً وسناً ‏ ‏ ‏ من يَرُمْ سترَ سناها لم يطق

أيها الناعي إلينا مجدَنا ‏ ‏ ‏ هل يضيرُ المجدَ إن خطبٌ طرق

لا تُرَعْ للدمع في آماقنا ‏ ‏ ‏ مزجَتْهُ بدمٍ أيدي الخَرَق

حنق الدهر علينا فسطا ‏ ‏ ‏ وكذا الدهرُ على الحرّ حنق

وقديماً كَلِفَ الملكُ بنا ‏ ‏ ‏ ورأى منا شموساً فعشق

قد مضى منا ملوكٌ شهروا ‏ ‏ ‏ شهرة الشمس تجلّت في الأفق

نحن أبناءُ بني ماءِ السما ‏ ‏ ‏ نحونا تطمحُ ألحاظُ الحدق

وإذا ما اجتمع الدينُ لنا ‏ ‏ ‏ فحقيرٌ ما من الدنيا افترق

قال ابن بسام: والبيتان اللذان [2] أنشدا في المنام رواهما الرواة [١٢ أ] في خبر النعمان بن المنذر ، وهو أنه نزل تحت شجرة ، ومعه عدي [3] بن زيد فقال له : أتدري ما تقول هذه الشجرة أيها الملك ؟ قال : وما تقول ؟ قال تقول :

ربَّ ركبٍ قد أناخوا حولنا ‏ ‏ ‏ يشربون الخمر بالماء الزلالِ

ثم أضحوا لعبَ الدهرُ بهم ‏ ‏ ‏ وكذاك الدهر حال بعد حال

فتكدّر على النعمان نعيمُ يومه الذي كان فيه .

---

١ المصدر نفسه .

٢ ط م س : الذي .

٣ ط م د س : علي .

ويتعلق بذيل هذا الخبر قول الآخر [1] : سلِ الأرضَ من غرَسَ أشجارك وشقَّ أنهارك . وجنى ثمارك . فان لم تجبْكَ حواراً، أجابتك اعتباراً . وقال بعض الحكماء [2] : أشهد أن في السموات والأرض آياتٍ ودلالات ، وشواهد قائمات ، كلّ تؤدي عنه الحجّة ، وتشهد له بالربوبيّة .

وجلس أبو العتاهية بحانوت وراقٍ فأخذ كتاباً وكتب على ظهره [3] :

أيا عجباً كيف يُعْصى الالهُ | أم كيف يجحدُهُ جاحدُ
وفي كلّ شيء له آيةٌ | تدلُّ على أنهُ واحد

فلما انصرف اجتاز بالموضع أبو نواس فقال : لمن هذه ؟ لوددتها لي بجميع شعري . قيل له : لأبي العتاهية . فكتب تحتها [4] :

سبحان مَنْ خَلَقَ الخلْ | قَ من ضعيفٍ مهينِ
فصاغه [5] في قرارٍ | إلى قرارٍ مكين
يجولُ [6] شيئاً فشيئاً | في الحجب دون العيون
حتى بدت حركاتٌ | مخلوقةٌ من سكون

وإلى هذا المعنى ذهب أبو الطيب بقوله [7] :

....

١ عيون الأخبار ٢ : ١٨٢ وكتاب الصناعتين : ١٤ وزهر الآداب : ٣٣٣ .
٢ زهر الآداب : ٣٣٢ .
٣ ديوانه : ١٠٤ وزهر الآداب : ٣٣٢ .
٤ زهر الآداب : ٣٣٢ – ٣٣٣ .
٥ ط م د س : فصاغها .
٦ ط د س : تجول .
٧ ديوان المتنبي : ٢٣٩ .

تُنْشِدُ أثوابُنا مدائِحَهُ بألْسُنٍ ما لهنّ أفواهُ
إذا مررنا على الأصمّ بها أغْنَتْهُ عَنْ مِسْمَعَيْهِ عيناهُ

ومنها قول نصيب [1] :

فعاجوا فأثْنَوا بالذي أنت أهْلُهُ ولو سكتوا أثْنَتْ عليك الحقائبُ

وقال أبو تمام ، وله بهذا المعنى بعض الإلمام [2] :

من القلاص اللواتي في حقائِبِها بضاعةٌ غيرُ مُزْجاةٍ مِنَ الكَلِمِ

وأخذه بعضُ أهل عصرنا ، وهو الوزير أبو محمد بن عبدون . فقال للمتوكّل [3] :

فجاءته لم تبصر سوى البشر هاديا وسله ولم يَسْمَعْ سوى الشكر حاديا
هوادٍ على أعجازها قيم الندى فأربِحْ بها مشريّ حمدٍ وشاريا [4]

وهذا المعنى الذي افتنُّوا فيه نظماً ونثراً [5] هي النصبة [6] الدالّة بذاتها التي وصفها الجاحظ في أقسام البيان .

رجع : وكان أبو بكر الداني مائلاً لبني عبّاد بطبعه ، إذ كان المعتمدُ

١ ديوان نصيب : ٥٩ .
٢ ديوان أبي تمام ٣ : ١٨٦ .
٣ ترد ترجمته في ما يلي من هذا القسم وفيها البيتان .
٤ في النسخ : هاديا ، وصوبناه بحسب ما سيجيء في ترجمة ابن عبدون .
٥ ط د : نثراً ونظماً .
٦ النصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام الدلالات الأخرى من لفظ وإشارة وعقد وخط (البيان ١ : ٧٦) ، وفي ط د س م : النسبة .

الذي جذب بضبعه . وله في البكاء على أيامهم ، وانتثار نظامهم ، عدةُ مقطوعات ، وقصائد مطولات ، يشتملُ عليها جزءٌ لطيف ، صدر عنه في صيغة تأليف . وهيئة تصنيف ، ضلَّ فيه وأضلَّ « والدرُّ يُعْذَرُ في القدر الذي حَمَل » سمّاه بـ « **نظم السلوك ، في وعظ الملوك** » ترجمة رائقة بلا معنى . . ليستْ من الغرض الذي نحاه ولا المغْزَى ، على أنه كان شاعراً يتصرّف ، وقادراً لا يتكلّف ، فوفد هنالك على المعتمد وفادة وفاء ، ولا وفادةَ استجداء . وانقطع إليه انقطاعَ وداد . لا انقطاع استرفاد . وله أشعارٌ سائرة ، ومعه أخبارٌ نادرة . تدلُّ على كرم طُعْمَتِهِ . وَبُعْدِ همّتِهِ ، وأنا أورد هاهنا منها ما يليقُ بالديوان . ويروق في السماع والعيان .

حدث الداني عن نفسه قال : لما أردت الانفصال عنه هنالك بعثَ إليَّ بعشرين مثقالاً وشقّة رازي بغدادي ، وكتب مع ذلك [1] :

إليكَ النزر من كف الأسير	فان تَقْبَلْ تَكُنْ عينَ الشّكورِ
تَقَبَّلْ ما يذوبُ له حياءً	وان عَذَرَتْهُ حالاتُ الفقير
ولا تعجَبْ لخطبٍ غَضَّ [2] منه	أليسَ الخسفُ ملتزمَ البدور
ورجِّ بجبره عقبى نداه [3]	فكم جَبَرَتْ يداهُ من كسير
وكم أعلَتْ عُلاه من حضيض	وكم حَطَّتْ ظُباه من أمير
وكم مِنْ مِنبر حَنَّتْ إليه	أعالي مرتقاه ومن سرير
زمانَ تراجعتْ [4] عن جانبيه	جيادُ الخيل بالموت المبير

---

١ ديوان المعتمد . ١٠٢ والمعجب ٠ ٢١٩ والاعلام ٢ : ٣٢٢ .

٢ ط د م س : عض .

٣ ط د م س ٠ يداه .

٤ دوزي : تراجفت .

فقد نظرتْ إليه عيونُ نَحْسٍ مضتْ منه بمعدوم النظير
نحوسٌ كُنّ في عقبي سعودٍ كذاكِ تدورُ أقدارُ القدير

قال الداني : فرددتُ عليه صلته وكتبتُ إليه مع ذلك[1] :

سقطتَ من الوفاءِ على خبيرٍ فذَرْني والذي لك في ضميري
تركْتُ هواك وهو شقيقُ ديني لئن شُقّتْ برودي عن غَدُور
ولا كنتُ الطليقَ من الرزايا لئن أصبحْتُ أجْحِفُ بالأسير
أسيرُ ولا أصيرُ إلى اغتنامٍ معاذَ الله من سوء المصير
أنا أدرى بفضلك منك إني لبستُ الظلّ منه في الحرور
غنيٌّ النفس أنت وإن ألحّتْ على كفّيكَ حالاتُ الفقير
تُصَرّفُ في الندى حيَل المعالي فتسمحُ من قليل بالكثير
أحَدّثُ منك عن نَبْعٍ غريبٍ تَفَتّحَ عن جنى زَهْرٍ نضير
جذيمة أنت والزّباء خانت وما أنا من يقصّر عن قصير
وأعجبُ منك أنّك في ظلامٍ وتَرْفَع للعُفاة منار نور
[رويدك سوف توسعني سروراً إذا عاد ارتقاؤك للسرير
وسوف تحلّني رُتَبَ المعالي غداةَ تحلُّ في تلك القصور
تزيدُ على ابن مروانٍ عطاءً بها وأزيدُ ثَمَّ على جرير[2]
تأهّبْ أن تعودَ إلى طلوعٍ فليس الخسف ملتزمَ البدور][3]

---

١ انظر ديوان المعتمد : ١٠٣ والمعجب ٢٢٠ والخريدة ٢ : ٤١ والنفح ٤ : ٩٦ – ٩٧ والاعلام ٢ : ٣٢٢ ومختارات الصيرفي : ١٢٠ – ١٢١ .

٢ يشير إلى ان جريراً مدح الأمويين بأنهم أعطوا « هنيدة » وهي مائة من الابل .

٣ هذه الأبيات زيادة من دوزي .

قال الداني : فراجعني المعتمد بهذه الأبيات [1] :

ردَّ برّي بغياً عليَّ وبرّاً وجفا فاستحقّ لوماً وشكرا
حاط[2] نزري إذ خاف تأكيد ضرّي فاستحق الجفاءَ إذ حاط نزرا
فإذا ما طويتُ في الحمدِ بعضاً عاد لومي في البعض سرّاً وجهرا
يا أبا بكرٍ الغريبَ وفاءً لا عدمناك في المغارب ذخْرا
أيّ نفعٍ يجدي احتياطُ شفيقٍ متَّ[3] ضرّاً فكيف أرهبُ ضرّا

[١٣ أ]وهذا المصراع الأخير ، كأنه إلى بيت أبي الطيب يشير [4] :

* أنا الغريق فما خوفي من البلل *

قال الداني : فراجعتُه [5] :

أيّها الماجدُ السَّميدعُ قدرا صرفيَ البرَّ إنما كان بِرّا
حاشَ لله أنْ أجيحَ كريماً يتشكّى فقراً وكم سدَّ فقرا
ليتَ لي قوّةً أوَ آوي لركنٍ فترى للوفاء منيَ سرّا
أنت علَّمتني السيادة حتى صرت أرقى على[6] الكواكبِ قدرا
ربحت صفقةٌ أزيل بُروداً عن أديمي بها وألبس فخرا
وكفاني كلامك الرطب نيلاً كيف أُلفي درّاً وأطلب تبرا
لم تَمُتْ إنّما المكارم ماتت لا سقى الله بعدك الارض قطرا

١ ديوان المعتمد : ١٠٤ والمعجب : ٢٢١ .
٢ م والديوان : عاف ؛ س : خاف .
٣ م ط د س : بت .
٤ ديوانه : ٣٢٨ ، وصدر البيت : « والهجر أقتل لي مما أراقبه » .
٥ ديوان المعتمد : ١٠٤ والمعجب : ٢٢١ وبعضها في النفح ٤ : ٩٧ .
٦ الديوان ودوزي : ناهضت همّي .

قال الداني : وبلغت حالي عنده من التقريب والترحيب أن أفرطت في الإدلال ، وانبسطت في الاسترسال ، وخاطبتُه في أن يكون زادي من نعمائه ، وأن يحاولَ صنْعَه بعض إمائه ، حرصاً مني على التشريف ، وسعياً إلى الاستزادة من شكر المعروف . فكان ذلك على أحسن وجه ، وشكر غايةَ الشكرِ انبساطي ، وتحقّق به صحّة ارتباطي . وكنت خاطبته في ذلك بهذه القطعة :

وداعٌ ولكني أقول سلام ... ولِلنفس في ذكر الوداع حِمامُ
أخادع نفساً إنْ تحقّقت النّوى ... فليس لها بين الضلوع مقام
قد ائتلفتْ أهواؤها بكَ جملةً ... كما ائتلفت في وكرهنّ حمام
وشقّت عن النصح المبينِ جيوبها ... كما شقّقت عن زهرهنّ كمام
أكرّر لحظي في محيّاك إنّهُ ... لنور الهدى فيه عليك قَسَام[1]
وأحمل من تقبيل كفّك سؤدداً[2] ... على عاتق الجوزاء منه حسام
أمُلْبِسِيَ النُّعمى قديماً ومثلَها ... حديثاً وأحداثُ الزمانِ عظام
لأجلَسْتَني حتى اتّكأتُ ولم يزلْ ... يُدلُّ على المولى الكريم غلام
عسى عند حملِ العيس رحليَ في غدٍ ... يُهَيّأ من زادي لديك طعام
وميلي إلى الطاهي وطيب إرادة ... ليثبت لي في وصف ذاك كلام
وكيف أزيدُ المجد صحف محاسنٍ ... سهرتُ لها والعالمون نيام

قال : فأجابني بقوله[3] :

كلامك حرٌّ والكلام غلام ... وسحرٌ ولكنْ ليس فيه حرامُ
ودرّ ولكنْ بين جنبيك بَحْرُهُ ... وزهرٌ ولكنّ الفؤاد كمام

---

١ هامش ط : في أخرى : محيا لنور الهدي فيه قسام .

٢ خ بهامش ط : من كفيك مجداً وسؤدداً .

٣ ديوان المعتمد : ١١٣ .

وبعدُ فإن ودَّعتني بخداعةٍ	فحقّيَ ان[1] يجني عليك ملام
أعنّي[2] على نفسي بتزويد نفسها	بلى قول[3] لا شيءٌ عليَّ حرام
فدونكَهُ إذْ لم أجِدْ ليَ حيلةً	وقلبيَ فاعلمْ في الطعام طعام
فهنّتَهُ زاداً وفي الصدر وقدةٌ	وللصبر من دون الفؤاد مرام
لقد كان فألٌ من سمائك مؤنسٌ	وقد عاد ضداً فالعزاءُ رمام
تحلّيتَ بالداني وأنت مُبَاعِدٌ	فيا طيب بدءٍ لو تلاه تمام
ويا عجباً حتى السِّماتُ تخونني	وحتى انتباهي للصديق منام
أضاء لنا أغماتَ قربُك برهةً	وعاودها حين ارتحلت ظلام
تسيرُ إلى أرضٍ بها كنت مضغةً	وفيها اكتستْ باللحم منك عظام
وأبقى أسامُ الذلَّ في أرض غربة	وما كنتُ لولا الغدرُ ذاك أسامُ
فبَلّغْتَها في ظلِّ أمنٍ وغبطةٍ	وسُنّيَ لي مما يعوقُ سلامُ

قال ابن بسام : وكان الحُصْريّ المكفوف القروي قد طرأ على الأندلس في مدّة ملوك طوائفها ، فتهادته تهاديَ الرياض للنسيم ، وتنافسوا فيه تنافُس الديار في الأنَسِ المقيم ، ولما خُلعوا وأخْوَتْ تلك النجوم ، وطُمِسَتْ للشعر تلك الرسوم ، اشتملتْ عليه مدينةُ طنجة وقد ضاق ذرْعُهُ ، وتراجع طبعُهُ ، فتصدّى إلى المعتمد في طريقه ، وهو في تلك الحال ، من الاعتقال ، بأشعار له قديمة صدرها في الرباب وفرتنى ، وعجزها في الاستجداء وطلب اللهى ، خارجةٍ عن الغرض والمغزى ، مما كان فيه المعتمد يومئذ ، وألحّ عليه بالوصول بتلك الأشعار إليه ، فندبه كرمُ جبلّته إلى مقارضته ،

...

١ ط م : أن يجنى عليه .

٢ ط : أعين .

٣ ط م د س : وقول .

عند مفاوضته ، فطبع على ثلاثين مثقالاً لم يمكنْهُ سواها، وأدرج قطعة شعر طيَّها معتذراً من نزرها ، راغباً في قبول أمرها ، فلم يجاوبه الحصريّ عما حصل حينئذ من قِبَلِه لديه ، فكتب المعتمد بهذه الأبيات إثر ذلك إليه [1] :

قُلْ لمن قد جمع العلـ ـم ومن أحصى صوابَه
كان في الصرَّة شعرٌ فتَنَظَّرْنَا جوابه
قد أثبْنَاك فهلاَّ جلب الشعرُ ثوابه

واتّصل فعلُ المعتمدِ بالحصري إلى جماعة من زعانف الشعراء ، وكلٌّ طالب حِباء ، من مَشْحُوذِ المديةِ ، في الكُدْيَةِ ، فتعرَّضوا له بكلّ قارعة طريق ، وجاءوه من كلّ فجّ عميق ، يحسبون الدفلى من حاله نَوْر اجتناء ، ويعتقدون السراب في أمره غدير ماء ، وطيّ الحال ، كان ما لا مزيد عليه من الاختلال ، وعند ذلك قال [2] :

شعراء طنجة كلّهم والمغربِ ذهبوا من الاغْراب أبْعَد مَذْهَبِ
سألوا العسير من الأسير وانّه بسؤالهم لأحقّ فاعْجبْ واعجبِ
لولا الحياء وعزَّةٌ لخميّةٌ طيَّ الحشا ناغاهُمُ [3] في المطلبِ
قد كان أنسُئِل الندى [4] يُجْزِلْ وان نادى الصريخُ ببابه ارْكبْ يركبِ

. .. .

[1] ديوان المعتمد . ٩١ والمعجب : ٢٠٦ والاعلام ٢ : ٣١٥ .

[2] ديوان المعتمد : ٩١ والمعجب : ٢٠٦ والحلة ٢ : ٦٧ ومختارات الصيرفي : ١١٩ .

[3] الديوان : لحكاهم .

[4] ط د م س : الغنى .

وعند ذلك قال [1] :

قل لمن يطمع في نائليه ... قد أزال اليأسُ ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعوةً ... رحم [2] الله العفاة الضيّعا

وسأله رجل يعرف بابن الزنجاري أن يزوّده من شعره فكتب إليه [3] [١٤أ]

لو أستطيع على التزويد بالذهبِ ... فعلتُ لكنْ عداني طارقُ النُّوبِ
يا سائل الشعر يَجتابُ الفلاةَ به ... تزويدُك الشعر لا يغني عن السغب
زادٌ من الريح لا ريّ ولا شِبَعٌ ... غدا له مؤثراً ذو اللبّ والأدب
أصبَحتُ صِفراً يدي مما تجودُ به ... ما أعجب القَدر المقدور في رجب
ذلٌّ وفقرٌ أدالا عزّةً وغِنىً ... نُعْمَى الليالي من البلوى على كثب
قد كان يستلبُ الجبارَ مهجته ... بطشي ويَحيا قتيلُ الفقرِ في طلبي
والملكُ يحرسه في ظلّ واهبِهِ ... غُلْبٌ من العجم أو شمٌّ من العرب
فحين شاءَ الذي آتاه ينتزعه ... لم يُجْدِ شيئاً قراعُ السمر والقضب
فهاكها قطعةً تطوى لها حسداً ... «السيفُ أصدقُ إنباءً من الكتبِ»

ومما قاله في ابنيه ، وتعجّب من حالَيْهِ ، قال [4] :

بكت أن رأت إلفين ضمهما وكر ... مساءً وقد أخنى على إلفها الدهرُ
بكت لم تُرِقْ دمعاً وأسبلْتُ عبرةً ... يقصّر عنها القَطْرُ مهما همى القطر
وناحتْ وباحتْ واستراحتْ بسرّها ... وما نطقت حرفاً يبوح به سرّ

---

١ من أبيات في ديوانه : ١٠٨ .
٢ الديوان : جبر .
٣ ديوانه : ٩٢ .
٤ ديوانه : ٦٨ والقلائد : ٢١ .

فماليَ لا أبكي أمِ القلبُ صَخْرةٌ وكم صخرةٍ في الأرض يجري بها نهر

بكتْ واحداً لم يُشْجِها غيرُ فقْدِه وأبكي لآلافٍ عديدهم كثْر

بنيّ صغيرٌ أو خليلٌ موافِقٌ يمزّق ذا قفرٌ ويغرقُ ذا بحر

ونجمان زينٌ للزمان احتواهما بقرطبةَ النكداءِ أو رندّةَ القبر

غدرتُ إذن إنْ ضَنّ جفني بقطرةٍ وإن لؤمتْ نفسي فصاحَبَها الصبر

فقلْ للنجومِ الزُّهْرِ تبكيهما معي لمثلهما فلتحزنِ الأنْجُمُ الزهر

قال ابن بسام : وهذه القطعة يشبه أولها قطعةَ عوفِ بن محلم ، وما أراه إلا بها ألمّ ، وعلى منوالها سدّى وألحم ، وهي [1] :

وأرّقني بالريّ نوحُ حمامةٍ فنُحتُ وذو الشجو الغريبُ ينوحُ

على أنّها ناحت ولم تُذْرِ عَبرةً ونُحْتُ وأسرابُ الدموعِ سفوح

وناحت وفرخاها بحيثُ تراهما ومن دون أفراخي مهامهُ فيح

وقال المعتمد أيضاً يبكيهما بما يفتت الكبد ، ويفتّ العضد [2] :

يقولون صبراً لا سبيلَ إلى الصبرِ سأبكي وأبكي ما تطاولَ بي عمري

هوى الكوكبان الفتحُ ثم شقيقُهُ يزيدُ فهل عندَ الكواكب من خبر [3]

ترى زُهْرَها في مأتمٍ كلّ ليلةٍ تخمّش لهفاً وَسْطه صفحةَ البدر

ينُحْنَ على نجمين . أثكلتُ دا وذا وأصبرُ ما للقلبِ في الصبر من عذر

[١٤ب] أفتحُ لقد فتحتَ لي بابَ رحمة كما بيزيدَ اللهُ قد زاد في أجري

توليتما والسنُّ بعدُ صغيرة ولم تلبث الأيام أن صغرت قدري

١ طبقات ابن المعتز : ١٨٧ وابن خلكان ٣ : ٨٦ .

٢ ديوان المعتمد : ١٠٥ ومختارات الصيرفي : ١٢٠ .

٣ ط م د : صبر ؛ س : صهر .

تَوليتُما حين انتهت بكما العلا إلى غايةٍ ، كلٌّ إلى غايةٍ يجري
فلو عدتما لاخترتما العَوْدَ في الثرى إذا أنتما أبصرتماني في الأسر
يعيدُ على سَمعي الحديدُ نشيدَهُ ثقيلاً فتبكي العين بالحسِّ والنقر
مع الأخواتِ الهالكاتِ عليكما وأمّكما الثكلى المضرَّمة الصدر
فتبكي بدمعٍ ليسَ للقطرِ مثله وتزجرها التقوى فتصغي إلى الزجر
أبا خالدٍ أورثتني الحزنَ خالداً أبا النّصر مذ وَدَّعتَ ودّعني نصري
وقبلكما قد أودع القلبَ حسرةً تَجَدَّدُ طولَ الدهر ثكلُ أبي عمرو [1]

قوله : « فلو عدتما لاخترتما العود في الثرى... » البيت ، كأنّه من أشعار النساء ، وأراه ينظر إلى قول الخنساء في صيغة المبنى ، وإن خالفه في المعنى ، وهو[2] :

فلولا كثرةُ الباكينَ حولي على إخوانهم لقتلْتُ نفسي

وأبو عمرو الذي ذكره هو ابنه المقتول بقرطبة على يدي ابن عكاشة ، حسبما يأتي شرحه في موضعه من هذا المجموع إن شاء الله .

قال أيضاً فيهما يندبهما بما يوقد الضلوع ، ويُسكب الدموع [3] :

يا عَيْنُ[4] عينيَ أقوَى منكَ تَهتانا أبكي لحزنٍ وما حُمّلْتَ أحزانا
ونار برقك تَخبو إثر وَقْدَتها ونارُ قلبيَ تُلْفَى[5] الدهرَ بركانا
نارٌ وماءٌ صميمُ القلبِ أصلهما متى حوى القلبُ نيراناً وطوفانا

١ أبو عمرو ابنه الملقب سراج الدولة . وسيأتي الحديث عنه في ما يلي .
٢ انظر السمط : ١٤٥ .
٣ ديوان المعتمد : ٦٩ ومختارات الصيرفي : ١٢٠ .
٤ العين : مطر أيام لا يقلع .
٥ ط م د س : يلقى .

ضدّان ألّفَ صَرْفُ الدهرِ بينهما لقد تلوّنَ فيَّ الدهرُ ألوانا
بكيتُ فتحاً فإذ ناديتُ[1] سلوتَهُ ثوى يزيد فزاد القلبَ نيرانا
يا فلذَتَيْ كبدي يأبَى تقطُّعها عن وجدها بكما ما عشتُ سلوانا
لقد هوى بكما نجمان ما رَميا إلاّ من العلوِ بالألحاظِ كيوانا
مخفّفٌ عن فؤادي أنّ ثُكْلَكُمَا مثقّلٌ ليَ يومَ الحشر ميزانا
يا فتحُ قد فتحَتْ تلك الشهادةُ لي بابَ الطماعةِ في لقياك جذلانا
ويا يزيدُ لقد زاد الرجا بكما أنْ يشفعَ الله بالإحسان إحسانا
كما شفعْتَ أخاكَ الفتحَ تتبعه لقّا كما الله غفراناً ورضوانا
مني السلامُ ومن أمّ مُفَجَّعَةٍ عليكما أبداً مَثْنى ووحدانا
أبكي وتبكي ونُبْكي غيْرَنا أسفاً لدى التذكُّرِ نسواناً وولدانا

واجتاز يوماً عليه بموضع ثِقافِهِ سِرْبُ القطا فهاج وجدَه ، وأثارَ من لاعجِ الشوق ما عنده ، فقال[2] :

بكيتُ إلى سربِ القطا إذ مرّرنَ بي سوارحَ لا سِجْنٌ يَعوقُ ولا كبْلُ
[١٥ أ] ولم تكُ واللهُ العليمُ حسادةً ولكن حنيناً أنّ شكلي لها شكل
فأسرَحَ لا شملي صَديعٌ ولا الحشا وجيعٌ ولا عيناي يُبكيهما ثكل
هنيئاً لها أن لم يُفَرَّقْ جميعُها ولا ذاقَ منها البعدَ من أهلها أهل[3]
وأنْ لم تَبِتْ لَيلاً تَطيرُ قُلوبُها إذا اهتَزَّ بابُ السجنِ أو صَلصَلَ القفل
وما ذاكَ مِمّا يَعتَريني وإنّما وصَفت الذي في جبلة الخلق من قبل

١ الديوان : فإذ ما رمت .

٢ ديوان المعتمد : ١١٠ والقلائد : ٢٨ .

٣ ط م د س . الأهل .

لنفسي إلى لقيا الحمام[1] تشوّقٌ   سواي يحبُّ العيشَ في ساقه كبل
ألا عَصَمَ اللهُ القَطا في فِراخِها   فإنّ فراخي خانَها الماء والظلّ

ومعنى البيت الخامس منها يشبه قول أبي عامر بن شهيد القرطبي [2] :

وما اهتزّ باب السّجن إلاّ تفطّرَتْ   قلوبٌ لنا خوفَ الرَّدى وكبودُ
ولستُ بذي قيدٍ يرنُّ وإنّمـــا   على اللحظِ من سُخْطِ الامام قيود

وقال السمهري العكلي [3] من شعراء الدولة الأموية بالعراق [4] :

لقد جمَعَ الحدّاد بيْنَ عصابةٍ   تَساءَلُ في الأقيادِ ماذا ذنوبُها
بمَنْزِلةٍ أمّا اللّئيمُ فسامنٌ[5]   بها وكرامُ الناسِ بادٍ شُحوبُها
إذا حَرَسِيّ قَعقَعَ البابَ أرْعِدَتْ   فرائِصُ أقوامٍ وطارتْ قُلوبُها
نَرَى البابَ لا نَستطيعُ شَيْئاً وراءه   كأنّا قَنَاً[6] <قد> أسلمتها كعوبها

وتجوّز المعتمد في قوله : « وما ذاكَ ممّا يَعتَريني » . . . البيت ، وأجاد فيه ما أراد .

وقال من جملة قصيد ، وقد دخل عليه بناته للسلام يوم عيد [7] :

---

١ م س الحبيب .
٢ ديوان ابن شهيد : ١٠٠ – ١٠١ .
٣ هو السمهري بن بشر بن أويس العكلي ويكنى أبا الديلم (الأغاني ٢١ : ٢٥٧) .
٤ الأبيات في الأغاني ٢١ : ٢٦٤ .
٥ الأغاني : فشامت ، وهو خطأ : والسامن : الذي يكتسب سمنة .
٦ ط م د س . قسي أسلمتها ؛ وقد غيرته اعتماداً على الأغاني
٧ ديوان المعتمد : ١٠٠ والقلائد . ٢٥ ومختارات الصيرفي : ١١٩

في ما مضى كنتَ بالأعيادِ مسرورا ... فساءكَ العيدُ في أغماتَ مأسورا
ترَى بناتِكَ في الأطمارِ جائعةً ... يغزلنَ للنّاسِ ما يملكنَ قِطْميرا
برَزْنَ نحوكَ للتّسليمِ خاشعة ... أبصارُهنَّ حَسيراتٍ مكاسيرا
يطأنَ في الطّينِ والأقدامُ حافيةٌ ... كأنّها لم تطأ مسكاً وكافورا
أفطَرْتَ في العيدِ لا عادَتْ إساءتُهُ ... فكانَ فِطْرُكَ للأعيادِ تَفطيرا
لا خَدٌّ إلاّ تشكّى الجدبَ ظاهرُهُ ... وليس إلاّ معَ الأنفاسِ مَمطورا
قد كانَ دهرُكَ إنْ تأمُرْهُ مُمتثلاً ... فردَّكَ الدّهرُ مَنْهِيّاً ومأمورا
من باتَ بَعدكَ في مُلكٍ يُسَرُّ به ... فإنّما باتَ بالأحْلامِ مَغرورا

ودخل عليه ابنه أبو هاشم وهو يرسف في قيوده ، ويتقلّب في حديده ، فخنقت الطفلَ العبرة ، وكان أحبّهم إليه ، وأحظاهم على صِغَرِه لديه ، وفيه يقول يوم الجمعة المشهور ، إذ أبلى في قتال النصارى[1] :

أبا هاشمٍ هشّمتني الشّفارْ ... فلِلّهِ صَبري لذاكَ الأوارْ
ذكرتُ شُخَيْصَكَ ما بينها ... فلم يثني حبُّهُ للفرارْ

وعند بكائه قال[2] :

[١٥ب] قيدي أمَا تَعلَمني مسلما ... أبَيتَ أن تُشفِقَ أوْ تَرحما
دمي شرابٌ لكَ واللّحمُ قد ... أكَلْتَهُ لا تَهشِمِ الأعظما
يُبصرني فيكَ أبو هاشمٍ ... فينثني والقلبُ قد هشما
ارحَمْ طُفَيْلاً طائِشاً لبّهُ ... لم يخشَ أنْ يأتيك مُسترحما

١ ديوان المعتمد : ٤٨ .

٢ ديوانه : ١١٢ وانظر الإعلام ٢ : ٣٢٤ .

وارحمْ أخيّاتٍ له مثلَهُ جرّعتَهُنّ السمَّ والعلقما
منهنَّ مَن يفهمُ شيئاً فقد خفنا عليهِ للبكاء العمى
والغيرُ لا يَفهمُ شيئاً فما يَفتحُ إلاَّ لرَضاعٍ فما

وذكرت بقوله : « ذكرت شخيصك » . . . البيت ، بيتين أنشدنيهما الوزير أبو بكر — هما لأخيه أبي الحسن البطليوسي [1] — لنفسه :

ذكرتُ سُليمى وحرَّ الوَغى كقلبيَ ساعةَ فارَقْتُها
وأبصرْتُ بينَ القَنا قَدَّها وقد ملنْ نحوي فَعانَقْتُها

ومن شعره في الندبة على نفسه قال [2] :

غَنّتْكَ أغماتيّةُ الألحانِ ثَقُلَتْ على الأرواحِ والأبدانِ
قد كان كالثعبانِ رُمحُكَ في الوَغى فغدا عليك القيدُ كالثعبانِ
مُتمدّداً يحميكَ كلَّ تمدُّدٍ متعطّفاً لا رحمةً للعاني
قلبي إلى الرّحمنِ يشكو بثّهُ لا خابَ مَن يشكو إلى الرّحمن
يا سائلاً عن شأنِهِ ومكانِهِ ما كان أغنى شأنَهُ عن شاني
هاتيكَ قَيْنَتُهُ وذلك قَصْرُهُ من بعدِ أيِّ مقاصرٍ وقيان
من بعد كلّ غريرةٍ [3] روميّة تُخزي الحمائمَ في ذرى الأغصان

[1] ترد ترجمتهما في ما يلي من هذا القسم ، وكذلك البيتان وانظر النفح ٢ : ١٩ .

[2] هذه القطع الثلاث المتوالية ترد في الديوان : ١١٥ ، ٩٤ ، ٩٨ وانظر الإعلام ٢ : ٣٢٤ .

[3] ط س : عزيزة

وقال من قصيدة :

تبدَّلْتُ من عزِّ ظلِّ البنودِ ... بذلِ الحديدِ وثِقْلِ القيودِ
وكان حَديدي سناناً ذَليقاً ... وعضباً رقيقاً صقيلَ الحديد
فقد صارَ ذاك وذا أدهماً ... يَعَضُ بساقيَّ عَضَّ الأسود[1]

وقال :

غريبٌ بأرضِ المغربين أسيرُ ... سيبكي عليه مِنبرٌ وسريرُ
وتندبُهُ البيضُ الصوارمُ والقنا ... وينهلُّ دمعٌ بينهنَّ غزيرُ
إذا قيل في أغماتَ قد مات جودُهُ ... فما يُرْتَجى للجودِ بعدُ نشور
مضى زمنٌ والملك مستأنِسٌ به ... وأصبحَ عنه اليومَ وهو نفور
برأيٍ من الدهرِ المضلّلِ فاسدِ ... متى صَلُحَتْ للصالحين دهور
أذلَّ بني ماءِ السماء زمَانُهُمْ ... وذلُّ بني ماءِ السماءِ كثير
فيا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً ... أمامي وخلفي روضةٌ وغدير
بمنبتةِ الزيتونِ مورثةِ العـلا ... تغنّي قيانٌ أو ترنُّ طيور
[١٦أ]بزاهرها السامي الذرى جاده الحيا ... تشيرُ الثريّا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهي وسعدُ سعودِهِ ... غيورين والصب المحبُّ غيور
تراه عسيراً أم يَسيراً مَنَالُهُ ... ألا كلُّ ما شاءَ الإله يسير
قضى الله في حمصَ الحمامَ وبُعْثِرَتْ ... هنالك عَنّا للنشور قبور

---

[1] في هامش ط أبيات مطلعها ر

مؤمل للنفس الشجية فرجة ... وتأبى الخطوب السود إلا تماديا

وبعدها قطعة قافية ، وهي بخط الناسخ نفسه ، ولكنه كتب عليها : « من غير الأصل » فلذا لم أثبتها .

والثريا وسعد السعود والزاهي الذي ذكر في هذا الشعر أسماء قباب ومصانع سلطانية كان تأنق في بنيانها من قصور إشبيلية . وعلى هذا الشعر أجابه أبو محمد الصقلي المعروف بابن حمديس بأبيات قال فيها [1] :

تجيء خلافاً للأمورِ أمورُ ... ويَعْدِلُ دهرٌ في الورى ويجورُ
أتيأسُ من يومٍ يناقضُ أمسَهُ ... وَزُهْرُ الدراري في البروج تدور
وقد تنتخي الساداتُ بعد خمولها ... وتخرجُ من بعدِ الكسوف بدور

وفي هذا الجواب يقول :

ولما رحلتمْ بالنَّدى في أكفّكُمْ ... وَقُلْقِلَ رَضْوى منكم وثبير
رفعتُ لساني بالقيامةِ قد دنت ... فهذي الجبالُ الراسيات تسير

ونَعَبَتْ غربان بجدار المكان الذي كان فيه ، ثم ورد إثر ذلك النبأ بقدوم بعض نسائه عليه فقال [2] :

غربانُ أغماتَ لا تَعْدَمْنَ طيّبةً ... من الليالي وأفناناً من الشجرِ
تُظِلَ زُغبَ فراخٍ تستكنُّ بها ... من الحرور وتكفيها أذى المطر
كما نعبتُنَّ لي بالفالِ يعجبني ... مخبّراتٍ به عن أطيبِ الخبر
أنَّ النجوم التي غابتْ قد اقتربت ... منّا مطالعُها تَسْري إلى القمر
عليَّ إن صدّقَ الرحمنُ ما زعمت ... ألا يُرَوَّعْنَ من قوسي ولا وتري
والله ِ والله ِ لا نَفَّرْتُ واقعَها ... ولا تطيَّرْتُ للغربان بالعور
ويا عقاربها لا تعدمي أبداً ... شدخاً وعقراً ولا نوعاً من الضرر

[1] ديوان ابن حمديس ٢٦٨ .
[2] ديوان المعتمد : ١٠٠

كما ملأن قلبي مُذْ حللْتُ بها مخافةً أسلمتْ عيني إلى السهر
ماذا رمتك به الأيامُ يا كبدي من نبْلهن ولا رامٍ سوى القدر
أسرٌ وعُسْرٌ ولا يُسر أؤمّلُهُ أستغفرُ الله كم لله من نظر

وقال أيضاً وهو بتلك الحال ، من الاعتقال [1] :

لك الحمد من بعد السيوف كبول بساقيّ منها في السجونِ حجولُ
وكنّا إذا حانتْ لِنحرٍ فريضةٌ ونادت بأوقاتِ الصلاة طبول
شهدنا فكبّرنا فظلّتْ سيوفُنا تُصلّي بهاماتِ العدا فتُطيل
سجودٌ[2] على إثر الركوع متابَعٌ هناك بأرواح الكُماةِ تسيل [3]

ومما قيل فيه بعد خلعه من ملكه وانتثار سلكه

من ذلك قصيد لأبي بكر الداني أنشده [١٦ ب] إياه حين فُكّتْ عنه القيود ، أوله [4] :

تنشّق رياحين السلام فإنما أفضْ بها مسكاً عليكَ مختّما
وقل لي مَجازاً إن عدمْتَ حقيقةً لعلّك في نعمى فكم كنتَ منعما
أفكّر في عصرٍ مضى لك مشرقٍ فيرجعُ ضوءُ الصبح عنديَ مظلما
وأعجبُ من أفقِ المجرّة إذ رأى كسوفَكَ شمساً كيف أطلع أنجما
لئن عظمتْ فيكَ الرزيّةُ إنّنا وجدناك منها في البريّة أعظما

....

١ ديوان المعتمد : ١١١ .
٢ ط م س : وفود .
٣ في هامش ط قطعتان بخط الناسخ ولكنهما من غير الأصل .
٤ انظر نفح الطيب ٤ : ٢٥٧ ومختارات الصيرفي : ١٢١ .

قناةٌ سَعَتْ للطعن حتى تقصَّدت ... وسيفٌ أطالَ الضربَ حتى تثلّما

بكى آلَ عباد ولا كمحمدٍ ... وأبنائه صوبُ السحائبِ إذْ همى

حبيبٌ إلى قلْبي حبيبٌ لقوله ... « عسى طَلَلٌ يدنو بهم ولعلّما »[1]

وكنّا رعينا العزَّ حول حِماهُمُ ... فقد أجدبَ المرعى وقد أقفَرَ الحمى

كأن لم يكن فيه أنيسٌ ولا التقى ... به الوفدُ جمعاً والخميسُ عرَمْرما

ولا حَلّتِ الآمالُ فيكَ ثُباً ثُباً ... فقامت إليها المكرمات لُماً لُما

ولا اخْضَرَّ روضٌ في رباها فخلتُه ... توشّحَ منهم لا من النور أنعما

ولا انعطفتْ فيه الغصونُ فعانقتْ ... وشيجاً بأيدي الدارعين مقوّما

ولم تَخفقِ الراياتُ فيها فأشبهتْ ... قوادمَ طيرٍ في ذرى الجوّ حُوّما

ولا جرَّ فيها صعدةَ الرمح خلفه ... فتاها فقُلْتُ الصِلُّ أتبعَ ضيغما

وفيها يقول :

مؤيّدَ لحمٍ هل تؤمّلُ رجعةً ... فكم أمَلٍ أضحى إلى النُجْح سُلّما

حكيتَ وقد فارقتَ ملكك مالكاً ... ومنْ وَلَهٍ أحكي عليك متمما

ندبتُك حتى لم يخلّ ليَ الأسى ... دموعاً بها أبكي عليك ولا دما

وإني على رسمي مقيمٌ فإن أمُتْ ... سأتْرُكُ للباكين رسميَ مرسما

بكاك الحيا والريحُ شقّتْ جيوبَها ... عليك وباحَ الرعدُ باسمك معلما

ومزّقَ ثوبُ البرقِ واكتست الدجى ... حداداً وقامتْ أنجُمُ الليلِ مأتما

يُنَجيكَ من نَجّى من الجبِّ يوسفاً ... ويؤويك من آوى المسيحَ بن مريما

---

[1] مضمن من قول حبيب أبي تمام (ديوانه ٣ : ٢٣٢) :

عسى وطن يدنو بهم ولعلما ... وأن تعتب الأيام فيهم فربما

قوله : « ندبتك » . . . البيت ، أغار فيه على ابراهيم الشاشي [1] وقصر باعه ، وضاقت فيه ذراعه ، وخلّى السبيل له حيث يقول :

لا ترحلنّ فما أبقيتَ من جلدي ... ما أستطيعُ به توديعَ مُرْتَحِلِ
ولا من الغمض ما أقري الخيال به ... ولا منَ الدمعِ ما أبكي على طلل

ومن هذه القصيدة :

لله جسمي فما أبقى حُشاشَتَهُ ... على الحوادث والأسقام والعلل
يغدو سقامي على مثل الخيال ضنى ... ويقرع الخطبُ مني صفحة الجبل
[١٧أ]ولا يرى في فراشي عائدي شبحاً ... وأملك السرجَ في وجه القنا الذبل
ولا يُقِلّ ردائي عاتقي دنفاً ... ويحملُ الدرعَ مسلوباً عن البطل

ورأى أبو بكر الداني حفيدَ المعتمد ، وهو غلام وسيم ، قد اتخذ الصياغة صناعة ، وكان لقّبَ في دولتهم من الألقاب السلطانية بفخر الدولة ، فنظر إليه وهو ينفخ النار بقصبة الصائغ ، فقال من جملة قصيدة [2] :

شكاتُنا فيك يا فخرَ العلا عَظُمتْ ... والرزءُ يعظمُ في من قدره عظما
طُوِّقْتَ من نائباتِ الدهرِ مخْنقةً ... ضاقتْ عليكَ وكم طوَّقتنا نعما
وعاد كونُكَ في دكانِ قارعةٍ ... من بعد ما كنتَ في قصرٍ حكى إرما
صرِّفْتَ في آلة الصوّاغ أنمُلَةً ... لم تدرِ إلا النّدَى والسيفَ والقلما
يدٌ عهدتُكَ للتقبيل تبسطها ... فتستقلُ الثريا أنْ تكونَ فما
يا صائغاً كانت العليا تصاغُ له ... حَلْياً وكان عليه الحَلْيُ منتظما

. . . .

١ ط س : الشامي .
٢ المعجب : ٢٢٣ والنفح ٤ : ٩٧ – ٩٨ والإعلام ٢ : ٣٢٢ ومنها أبيات في معاهد التنصيص ٣ : ٢٠ ومختارات الصيرفي ، ١٢٤ .

للنفخ في الصُّورِ هولٌ ما حكاهُ سوى هولٍ رأيتُكَ فيه تنفخ [1] الفَحما
وددتُ إذ نظرتْ عيني إليكَ به لو أنّ عينيَ تشكو [2] قبل ذاك عمى
ما حطّكَ الدهرُ لمّا حطّ من شرَفٍ ولا تحيَّفَ من أخلاقك الكرما
لُحْ في العُلا كَوكباً إن لم تلحْ قمراً وقمْ بها ربوةً إن لم تقمْ علما
[واصبرْ فرُبَّتَما أحمدتَ عاقبةً من يلزم الصبرَ يحمدْ غبَّ ما لزما] [3]
والله لو أنصفتك الشهبُ لانكسفتْ ولو وفى لك دمعُ الغيثِ لانسجما
بكى حديثك حتى الدّر حين غدا يحكيك رهطاً وألفاظاً ومبتَسَما

وله فيهم أيضاً من قصيدة يرثيهم أولها [4] :

تبكي السماء بدمعٍ رائحٍ غادي على البهاليل من أبناء عبّادِ
على الجبال التي هُدَّتْ قواعدها وكانتِ الأرضُ منهم ذاتَ أوتاد
عرِّيسةٌ دخلتها النائباتُ على أساودٍ لهمُ [6] فيها وآساد
وكعبةٌ كانت الآمالُ تعمرها [7] فاليومَ لا عاكفٌ فيها ولا باد
أن يُخْلَعُوا فبنو العباس قد خلعوا وقد خلتْ قبلَ حمصٍ أرضُ بغداد
نسيت إلا غداةَ النهرِ كونَهُم في المنشآتِ كأمواتٍ بألحاد
والناسُ قد ملأوا العبرين واعتبروا من لؤلؤ طافياتٍ فوق أزباد

---

١ في أصل ط : توقد ، وخ بهامشها : تنفخ .
٢ خ بهامش ط : شكت [من] .
٣ زيادة من دوزي .
٤ القلائد : ٢٣ والنفح ٤ : ٢١٤ والمعجب : ٢٠٩ ومختارات الصيرفي : ١٢٢ .
٥ القلائد والنفح : بمزن .
٦ فوقها في ط : منهم
٧ القلائد والنفح : تخدمها .

حُطّ القناعُ فلم تُستَرْ مخدّرة ... ومُزّقتْ أوجهٌ تمزيقَ أبراد
حان الوداع فضجت كلُّ صارخةٍ ... وصارخٍ من مُفَدّاةٍ ومن فاد
سارت سفائنهم والنَّوْح يصحبها ... كأنها إبل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت ... تلك القطائع من قطعات أكباد

ومحاسن الداني كثيرة ، وفي القسم الثالث[1] من شعره جملة موفورة ، ومحاسن المعتمد أيضاً أكثر من أن تعدّ فقد استوفيتها في كتابي المترجم بـ « الاعتماد على ما صحّ من شعر المعتمد بن عباد » .

[١٧ ب] باب يشتمل على طائفة من الوزراء والأعيان ، ممّن كان بدولة المعتمد من أرباب هذا الشان ، واجتلاب ملح وطرف لشعراء كانوا بذلك الأوان ، مع ما يتعلّقُ بها ، ويذكر بسببها

فصل في ذكر الوزير الفقيه أبي حفص عمر بن الحسن الهوزني[2] وإثبات فصول من نثره ، مع ما ينخرط في سلكها من شعره ، وإيراد جملة من أخباره ، وحميد آثاره

هو أبو حفص عمر بن الحسن بن عبد الرحمن بن عمر بن عبد الله أبي

. . . . .

١ انظر الذخيرة ٣ : ٦٦٦ وما بعدها .
٢ أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني (٣٩٢ — ٤٦٠) طلب العلم على شيوخ الأندلس ثم ارتحل سنة ٤٤٤ (وابن بسام يقول سنة ٤٤٠) وأخذ عن علماء المشرق ، وأصبح متفنناً في العلوم ؛ ولما قتله عباد بيده أمر بدفنه بثيابه وقلنسوته وهيل عليه التراب داخل القصر من غير غسل ولا صلاة (انظر الصلة : ٣٨١ والنفح ٢ : ٩٣ ومسالك الأبصار ١١ : ٤١٦ والمغرب ١ : ٢٣٤ وفيه نقل عن الذخيرة ، وترتيب المدارك ٤ : ٨٢٥) .

سعيد الداخل بجزيرة الأندلس ، وهو كان صاحبَ صلاةِ الجماعة بقرطبة على عهد عبد الرحمن بن معاوية وهشام الرضيّ ابنه . وهوزن الذي نُسِبَ إليه ، وغلب اسمه عليه ، بطن من ذي الكلاع الأصغر .

وأفضى أمرُ إشبيلية إلى عبّاد ، حسبما تقدّم به الايراد ، وأبو حفص يومئذ ذاتُ نفسها ، وإياة شمسها ، وناجِذُها الذي عنه تبتسم ، وواحدها الذي بيده يَنْقُضُ وَيُبْرِم . وكان بينه وبين عبّاد قبل إفضاء الأمر إليه ، ومَدار الرّياسة عليه ، إئتلافُ الفرقدين ، وتضافر [1] اليدين ، واتّصال الأذن بالعين . ولما ثبتَتْ قدمُ المعتضد في الرياسة ، ودَفِعَ إلى التدبير والسياسة ، أوْجَس منه ذعراً ، وضاق بمكانه من الحضرةِ صدراً ، وأحسّ بها أبو حفصٍ وكان ألمعيّاً ، وذكيّاً لوذعيّاً ، لو أخطأ الحازمَ أجَلُه ، ونفعتِ المحتالَ حِيَلُهُ . فاستأذن المعتضدَ في الرحلة سنة أربعين وأربعمائة [2] ، فصادف غرّتَهُ ، وكفي إلى حينِ مَعَرَّتَهُ ، واحتلّ صقليّةَ تضيقُ عن فخره الآفاق ، وتهادى عجائبَ ذكرِهِ الشامُ والعراق ، ثم رحل إلى مصرَ وله هنالك صوتٌ بعيدٌ . ومقام محمود ، ووصل إلى مكّة ، وروى في طريقه كتابَ التّرمذي في الحديث وعنه أخذه أهل المغرب ، ثم رجع إلى الأندلس واستأذن المعتضدَ في سكنى مُرْسِيَةَ : رأياً رآه ، وبلداً اختاره وتوخّاه ، وأميرها يومئذٍ ابنُ طاهر ؛ فلما غلب الرومُ على مدينة بَرْبُشْترُ [3] سنة ست وخمسين ؛ وقرف الندب ، وتفاقم الخَطْب ، وضاق عن ساكنه

. . . .

١ المغرب : وتناصر .

٢ انظر التعليق رقم : ٢ على الصفحة السابقة .

٣ م : مدينة ابن بشتر ، وانظر الكائنة على مدينة بربشتر في الذخيرة ٣ : ١٧٩ .

الشرق والغرب ، خاطب المعتضد برقعة يحضُّهُ فيها على الجهاد ، ويستشيره إلى أين ينتقل من البلاد ، فراجعه برسالة من إنشاء الوزير الكاتب أبي الوليد ابن المعلّم ، وهي ثابتة في أخباره من هذا القسم ، يشير عليه فيها بالرجوع إلى بلده ، لا بل استدرجه إلى مَلْحَدِهِ ، فأذهله عما كان استشعر ، وأنساه ما كان حذر ، أجَلٌ قريب ، وحِمامٌ مكتوبٌ ، ومَصْرع ، لم يكنْ عنه مدفع ؛ فاستقرَّ بإشبيلية سنة ثمان وخمسين ، ولقيه المعتضد فأعلى المحلّ ، وفوَّض إليه في الكُثْرِ والقُلّ ، وعوّل عليه في العَقْدِ والحلّ . فلما كان يوم الجمعة لإحدى عشرةَ ليلةً لربيع الأول[1] سنة ستين أحضره القصر ، وقد غلب [١٨أ] - زعموا - عليه السكر ، وأمر خادمين من فتيانه بقتله ، فكلاهما أشفقَ من سوءِ فعله ، وفرَّ . لا يبالي سيءَ عبّادٌ أو سُرّ ، فقام إليه هو بنفسه وباشر قتله بيده ، فلم ينلْ عبّادٌ بعده سولاً ، ولا مُتّعَ بدنياه إلا قليلاً ، وإلى الله الإياب ، وعليه الحساب .

فصل من رقعة كان خاطب بها المعتضد من مرسية واستفتحها بهذه الأبيات[2] :

أعبّادُ جلّ الرزءُ والقومُ هُجّعُ ... على حالةٍ من مثلها يُتَوَقّعُ[3]

فلقّ كتابي من فراغِكَ ساعةً ... وإن طال فالموصوفُ للطول موضع

إذا لم أبثّ الداءَ ربّ دوائه[4] ... أضَعْتُ وأهلٌ للملامِ المضيّع

١ في الصلة : لأربع عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر .

٢ الأبيات في المغرب وترتيب المدارك وهي وبعض الرسالة في النفح ٢ : ٩٣ .

٣ ترتيب المدارك : يتقنع .

٤ المغرب : نجادة ؛ النفح : شكاية .

وفي فصل منها : وكتابي عن حالة يشيبُ لشهودها مَفْرِقُ الوليد ، كما يغبرُّ لورودها وجهُ الصعيد ، بَدْؤها ينسفُ الطريفَ والتالد ، ويستأصل الوليدَ والوالدَ [١] ، تَذَرُ النساءَ أيامى ، والأطفالَ يتامى ، فلا أيِّمَةَ إذا لم تبق أنثى ، ولا يتيم والأطفالُ في قيد الأسرى ، بل تعم الجميع جمّاً جمّاً ، فلا تخصّ ، وتزدلف إليهم قُدُماً قُدُماً ، فلا تنكص ، طَمَّتْ حتى خيفَ على عُرْوَةِ الايمانِ الانفصاض ، وَطَمَتْ حتى خُشِيَ على عمودِ الإسلام منها الانقضاض ، وَسَمَتْ حتى تُوُقِّعَ على جناحِ الدينِ الانهياض .

وفي فصل منها : كأنَّ الجميعَ في رَقْدَةِ أهلِ الكهف ، أو على وعدٍ صادقٍ من الصّرفِ والكشف ، وأنّى لمثلها بالدفاع عن الحريم ، ولمّا نمتثلْ أدبَ العزيز الحكيم في قوله : ﴿ ولولا دَفْعُ اللهِ النّاسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ (البقرة: ٢٥١) وقوله تعالى : ﴿ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسمُ الله كثيراً . ولينصرنّ الله من ينصره ﴾ (الحج : ٤٠) ومن أين لنا دفعهم [٢] بالكفاية أو كيف . ولم نمتطِ إليهم الخوفَ ، ونساجِلْهُم السيفَ ، بل لمّا يُرْأبْ من صدوعهم ثلم ، ولا دُووِيَ من جراحهم كَلْمٌ . ولا رُدَّ في نحورهم سهم . ان حاربوا موضعاً أرسلناه ، أو انتسفوا قُطراً سَوَّغناه ، وان هذا لأمرٌ [٣] له ما بعده ، إلا أن يُسَنّي اللهُ على يَديكَ دَفْعَه وصَدَّه :

... . . .

١ د : والتليد . . . الوالد والوليد .
٢ دفعهم : سقطت من ط س .
٣ م د س : الأمر .

فكم مثلها جأواءَ[1] نَهْنَهْتَ فانثنت ... وناظُرها من شدّةِ النَّقْعِ أرْمَدُ
فمرَّت تنادي الويل للقادح الصفا ... لَبَعْضُ القلوبِ الصخرُ أو هي أجلد
وألقَتْ ثناءً كاللطائمِ نَشْرُهُ ... تَبِيْدُ الليالي وهو غضٌّ يجدّد[2]

وفي فصل منها: والحربُ في اجتلائها حسناءُ عروسٌ تطّبي الأغمارَ بزّتُها ، وفي بنائها شمطاءُ عَبوسٌ تختلي الأعمارَ غرتها ، فالأقلّ للهبها وارد ، والأكثر عن شُهُبها حائد ، فأخلقْ بمحيدٍ عن مكانها ، وعزلةٍ في ميدانها ، فوقودها شِكّةُ السلاح، وفرندها مساقطُ الأشباح ، وقُتارها متصاعدُ الأرواح ، فان عَسْعَسَ ليلُها مدةً من الانصرام ، أو انبجس وَبْلُها ساعةً لانسجام ، فيومها غَسَقٌ يردُّ الطّرفَ كليلاً ، وَنَبْلُها صيّبٌ يزيدُ الجوف غليلاً :

أعبّادُ ضاقَ الذّرعُ واتّسع الخَرْق ... ولا غَرْبَ للدنيا إذا لم يكنْ شرْقُ
ودونك قولاً[3] طال وهو مقصّر ... فللعين معنىً لا يُعَبّرُهُ[4] النطقُ
[١٨ب] إليك انتهتْ آمالنا فارمِ ما دهى ... بعزمك ، يدمغْ هامةَ الباطلِ الحق

وما أخطأ السبيلَ من أتى البيوتَ من أبوابها ، ولا أرجى الدليلَ من ناط الأمورَ بأربابها، ولربَّ أملٍ بين أثناء المحاذير مُدْمَجٍ، ومحبوبٍ في طيّ المكارِه مُدْرَجٍ ، فانتهزْ فرصتها فقد بان من غيرك العجز ، وطبّقْ مضاربها[5] فكأنْ

---

١ الجأواء : الكتيبة التي يعلوها لون السواد لكثرة الدروع . ط س : شهواء .
٢ م : مجدد .
٣ ط : قول .
٤ س م : يمترها .
٥ بهامش ط بخط مغاير : مفاصلها ، وكذلك هي في بعض أصول النفح .

قد أمكنَتك الحزّ ، ولا غرو أن يُستَمطَرَ الغمامُ في الجدب، ويُستَصحَب الحسامُ في الحرب ، فالسهامُ تطيش فتختلف ، والرماحُ تلينُ وتنقصف ، فان جَعجَعتَ أيها الساعي المخبّ في بُغاءِ الفرج ، وتحققت بالحثّ على جَلاء تلك اللجج ، ووجدت في فتح ذلك الباب المرتج :

فنادِ : أعبّادُ ذا عائذٌ	وَقَدْكَ ،على حينها تنصرمْ
تُجيبكَ أسودُ على ضُمّرٍ	معوّدةٌ ما بَغَتْ أن يتم
كأنّ المقاديرَ حزبٌ له	فيمضي على رأيه ما حكم
سقته الحميّةُ جريالَها	وصحّتْ مناقبُهُ في الكرم
فصابٌ لأعدائه مُمقِرٌ	وغيثٌ لراجيه حُلْوُ الدّيَم
كنوه بما مُدّ في عمره	وكان نحورَ العدا يخترم[1]
تقيّدنا حُرّ أفعاله	وكنيته تقتصي ما رسم
فمن ذين تفريع أوصافه	وبالرمز نعني الذكيّ الفهم

وفي فصل منها : وما زلت أعتدُّكَ لمثل هذه الجولة وَزَراً ، وأدّخرك في مُلِمّها ملجأً وَعَصَراً ،لدلائلَ أوضحتْ فيك الغيبَ . وشواهدَ رفعتْ من أمرِكَ الرَّيبَ ، فالنهار من الصباح ، والنّور من المصباح ، ولئن كان ليلُ الفساد مما دهم قد أغدفَ جلبابه ، وصباحُ الصلاحِ بما ألمّ قد قُدّ إهابه ، فقد كان ظَهَرَ قديما من اختلال الأحوالِ ما أيأس ، وتبيّنَ من فسادِ التدبير ما أبْلَسَ[2]، حتى تدارك فَتَقَ ذلك سَلَفُكَ ، فرتقه جميلُ نظرهم ورَأْبُهُ ، وصرفه مشكورُ أثرهم وشعبه :

.. ..

١ م س : تخترم ؛ أصل ط : تتخرم .
٢ س م : ألبس .

فعاد الشملُ منتظماً هنيا وآضَ الصَّدعُ ملتئماً سويا

ثم تَوَلَّيْتَ فكَفَيْتَ، وَخَلَفْتَ فأرْبَيْتَ، وبزعتَ فأوريت ، فالناس مذ بوأتَهُمْ رحبَ جنابك في عَطَنٍ يُرْبي على لين الدَّمقس ، وتحتَ مِنَنٍ تعلو على مُنَى النفس ، في زمانٍ كالربيع اعتدلَ هواؤُه ، وتشاكهت أرضُهُ وسماؤه ، واخضرَّ بالنبتِ أديمها فكأنها الرَّقيع ، وتعمم بالنَّوْرِ [1] جميمها فتقول هو الترصيع ، ففضلكم في الأعناقِ أطواق ، ومجدكم للآفاق إشراق ، وحيثما حللتَ: الأرضُ عراق ، فأنا أوّلُ من هو [2] إلى تلك الحضرة مشتاق، فلا تَحْرِمْني وصلاً كنتُ جاهداً في إنباطه ، ولا تصدّني [3] عن منهلٍ كنت صدراً في فُرَّاطه ، فأحقُّ الورى بجزيل تلك الآلاء ، وأخلقهم بمنزّلِ تلك السماء ، أنصحُهُمْ له جيباً ، وأصحّهُم فيه غيباً :

أعبّادُ كلاً قد علَوْتَ فضائلاً تقاصرَ عنها كلُّ أروعَ ماجدِ
فأولها جودٌ أرانا أكُفَّهُمْ جموداً ككفٍّ لم تؤيَّدْ بساعد
وسعيٌ لما تبغي يخيِّلُ سَعْيَهُمْ تَلاعُبَ ولدانٍ أطاقَتْ بوالد
ونصر لمنْ والَيْتَ يردي علوَّهُ ردى أهلِ جَوٍ في وقيعة خالد [4]
[١٩أ]منعتَ بني جالوتَ ماقدأباحهم سواكَ بحربٍ قيَّدَتْ كلَّ شارد
فمن شاءَ فلينظرْ أسوداً بروضة تراعي عصا راعٍ وتعنو لرائد
عجائبُ مجدٍ أعجزتْ مَنْ سواكمُ ومن سرّها المشهورِ صِدْقُ المواعد [5]

---

[1] م : بالروض .
[2] د : من هوى ؛ وسقط من م س ، وموضعه في ط كلمة غير واضحة .
[3] د : تصرفني .
[4] جو : اليمامة ، ووقيعة خالد فيهم في حروب الردة مشهورة .
[5] بعد هذا البيت في م س : ومنها

فان راثَ أمري فادّركني برحلةٍ إلى مأمنٍ فالخوفُ أعجلُ طارد
وَحُدْ مكاناً آته فرضاكُمُ هواي وإنْ أغشى كريهَ الموارد
فقَدْ جدّ أمرٌ هدّ شَرْعَ محمّدٍ وما مُخْبِرٌ عن حالةٍ مثلُ شاهد
لكلٍ يبينُ الرأيُ عند وفاته وهل من دواءٍ بعد نَهْشِ الأساود
أضاعوا وجوهَ الحزم يوماً فعزّهم [1] على أمرهم من ليس عنه بهاجد

وفي فصل منها : فالثمرةُ من ساقها ، والجيادُ على أعراقها ، ولئن لذّتْ تلك الثمرةُ لذائق ، وشَدَخَتْ غُرَّةُ تلك القرحةِ لرامق ، لما يبين [2] كُنْهَ المجتنى قبل تفطُّرِ أكمامِه ، ومما يصحح عِتْقَ الجنين [3] قبل أوان فطامه ، فلذوي الأبصار أدلّةٌ على العتق لائحة ، ولأولي الألباب شواهدُ على الكرم واضحة ، وبحقٍ أدركتَ ، فعلى السّوابق سلكتَ ، وبمشاعرِ [4] المعالي نَسَكْتَ فتنسكت :

« وما يكُ من خيرٍ أتوهُ فإنّما توارَثَهُ آباءُ آبائهم قبلُ » [5]
« وهل يُنْبِتُ الخطيَّ إلا وشيجُهُ وتُغْرَسُ إلاّ في منابتها النخل »
وقولُ رسولِ الله أعدلُ شاهدٍ فحكمته شرعٌ ومنطقُهُ فَصلُ
يقول : بنو الدنيا معادنُ ، خَيْرُهَا إذا ما زكَوْا من كان قِدماً له الفضل

---

[1] في النسخ : فغرهم .
[2] ط م : لما تبين ؛ س : لما يبين ؛ وسقطت من د ، وأثبتنا ما في هامش ط .
[3] م س وهامش ط : المجتنى .
[4] م ط س : وبمعاشر .
[5] البيتان الأولان لزهير بن أبي سلمى ، ديوانه : ١١٥ .

وصلّى الله على رسوله فقد نبَّهَ بتصحيح ، ودلَّ دلالة نصيح ، فان المعادنَ لا تؤتي غيرَ معهودِ فِلِزّها ، كما لا تصحُّ الدّوائر إلا على نقطةِ مركزها ، فمن طلب النبلَ في غير معادنه ، واستثار[1] الخير من غير مكامنه ، أعجزه من مَطْلَبِهِ مَرامُهُ ، وطاشت في سُهْمَتِهِ أقلامُهُ ، بل قد ضَلَّ قَصْدَ السبيل ، واعتسف الفلاةَ بغير دليل . فسقط العشاءُ به على سِرْحان[2] ، وأفضى القضاءُ به إلى الطّوفان ، وإنّما هو الفجرُ أو البحر[3] .

ومن شعره أيضاً يحض على الجهاد ، ويستنفر كواف البلاد[4]

قوله :

بيّتِ الشّر فلا يستنزلَ ... طرق النوّامَ سيمْعٌ أزَلُ

فَتَنَبَّهوا واخشوشنوا واحزئِلّوا ... كلُّ ما رزءٍ سوى الدين قُلُ

صَرّحَ الشّرُّ فلا يُسْتَقَلُّ ... إن نهلتمْ جاءكم بعدُ عَلُ

بدء صعق الأرض نشءٌ[5] وطَلُ ... ورياحٌ ثم غيمٌ أبَلَ

..

١ ط م د س : واستشار .

٢ المثل في فصل المقال : ٣٦٢ والميداني ١ : ٢٢١ والعسكري ١ : ٤١٥ (تحقيق أبو الفضل) والمستقصى : ٢٢٦ واللسان (سرح) وجمهرة ابن دريد ٢ · ١٣٢ .

٣ من كلام أبي بكر الصديق ، يقول : إن انتظرت حتّى تضيء لك الفجر أبصرت قصدك وإن خبطت الظلماء وركبت العشواء هجما بك على المكروه ، يضرب الفجر والبحر مثلا لغمرات الدنيا (اللسان – فجر) وانظر الذخيرة ١ : ٣٩٤ .

٤ ط م : آل البلاد ؛ س د · إلى البلاد .

٥ النفح : رش : ط م د س : نشو .

قد رَجَتْ عادٌ سحاباً يُهِلُ   فإذا ريحٌ دَبُورٌ مِحَلُ
نَقِّبوا فالداءُ رزءٌ يَحُلُ[1]   واغمدوا سيفاً عليكم يُسلّ

ومنها :

يَدُنا العليا وهمْ وَيْكَ[2] شُلُّ   فَلِمَ استرعى[3] الأعزَّ الأذلّ
عجبٌ[4] الأيام ليثٌ صمل   ذعرته نعجةٌ إذ تصل
« خبرٌ ما جاءنا مصمئلُّ   جلَّ حتى دقَّ فيه الأجلّ »[5]

قوله : « فثبوا[6] واخشوشنوا . . . » من قول عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه : « اخشوشنوا واخشوشنوا وعليكم باللبسة المعدّية » ؛ وقوله : « بدءُ صَعْقِ الأرض نَشءٌ[7] وطل » . . . معنىً مبتذل ، ومنه المثل « السَّقْطُ يحرقُ الحرَجَةَ » ؛ وقال الأول :

والشيء تحقره وقد ينمي[8]

وقال الفرزدق[9] :

١ النفح خفضوا فالداء رزء أحل .
٢ م ط : بك .
٣ في النسخ : استوى .
٤ ط د : عجبوا .
٥ مضمن من الحماسية رقم : ٢٧٣ في شرح المرزوقي .
٦ فثبوا : سقطت من م ط .
٧ ط د : نشو ؛ م : نشى .
٨ صدره : ان يأبروا نخلا لغيرهم ، الحماسية رقم : ٤٥ للحارث بن وعلة الجرمي .
٩ حماسة البحتري : ١٣٦ والمختار : ١٧٢ .

قوارص تأتيني وتحتقرونها وقد يملأُ القطرُ الاناءَ فيَفعَمُ

[١٩ ب] وقال نصر بن سيار من أبياتٍ كتب بها لمروان : [١]

فان النارَ بالعودين تُذْكَى وان الحربَ مبدأها الكلامُ

وقال أبو تمام ، وعليه عولَ الفقيه ، ولكنه استحقّه بما زاد فيه . وهو [٢] :

كم من قليلٍ حدا كثيراً كم مطرٍ بَدْؤُهُ مُطَيِّرُ

وأخذه أبو عبادة فقال :

وأوّل الغيث طلٌ ثم ينسكب [٣]

وقال ابن الرومي [٤] :

لا تحقرنَّ سُبَيْباً قد قاد خَيْراً سُبَيْبُ

وقال أبو العلاء ، وحرفه إلى بعض الأنحاء ، ولكنه إليه أشار . وحواليه دار [٥] .

فأوّلُ ما يكون الليثُ شبلٌ ومبدأ طلعةِ البدرِ الهلالُ

وكان له فيه إلمام ، بقول أبي تمام [٦] :

---

١ مروج الذهب ٦ : ٦٢ وفصل المقال : ٦٩ ، ٢٢٣ .
٢ المختار : ١٧٢ وزهر الآداب : ٥٧٣ .
٣ صدره : وأزرق الفجر يبدو قبل أشهبه ، ديوان البحتري : ١٧١ والمختار : ١٧٢ .
٤ ديوان ابن الرومي : ١٤٥٦ وزهر الآداب : ٥٧٣ وروايته : كم جر (كم قاد) .
٥ شروح السقط : ١٧١٨ .
٦ ديوان أبي تمام ٤ : ١١٥ .

إن الهلالَ إذا رأيتَ نموَّهُ　　أيقنتَ أنْ سيكونُ بدراً كاملا

وقال العباس بن الأحنف وقصد به قصده ، وكان ينفق مما عنده[1]

الحبُّ أوّلُ ما يكونُ لجاجةً　　تأتي به وتسوقُهُ الأقدارُ
حتى إذا اقتحم الفتى لججَ الهوى　　جاءتْ أمورٌ لا تُطاقُ كبار

وقال الآخر ، وكأنه نحا به نحواً غريباً ، ولكنه نظر إلى المعنى نظراً مُريباً :

فلا تحقرنّ عدوّاً رماكَ　　وإن كان في ساعديه قِصَرْ[2]
فان السيوفَ تحزُّ الرقابَ　　وتعجزُ عما تنال الإبر

ومن كلام المحدثين ما أجروه مجرى الأمثال : « ربّ عشق جُنِيَ بلفظة ، وصبابةٍ غُرِسَتْ من لحظة »[3] . إلى غير ذلك مما لا يُحَدُّ شهرةً ، ولا يحصى كثرةً .

وقال الوزير أبو حفص من جملة قصيدة :

أيا أسفا للدين إذ ظلّ نُهْبَةً　　بأعيننا والمسلمونُ شهودُ
أفي حرمِ الرحمن يُلْحَدُ جَهْرَةً　　ويجعل أشراكَ الإله يهودُ[4]
وَيُسْلَبُ بيتُ اللهِ بين بيوتكم　　وقادِرُهُ عن ردّ ذاك قعيد
ويوضَعُ للدجّالِ بيتٌ بمكّة　　ويخفى عليكم مَنْزِعٌ وقصود

---

١ ديوان العباس : ١١٦ .
٢ النفح ٣ : ٢٣١ ، وردا غير منسوبين ، وهما في التمثيل والمحاضرة : ١١٥ لابن نباتة السعدي وانظر نهاية الأرب ٣ : ١٠٤ واليتيمة ٢ . ٣٩٦ .
٣ في الميداني (١ : ٢١٤) رب صبابة غرست من لحظة . رب حرب شبت من لفظة .
٤ في النسخ : شهود .

أعيذكمُ أن تُدْهِنُوا فيمسَّكُمْ عقابٌ كما ذاقَ العذابَ ثمود
وأقْبِحْ بذكرٍ يستطير لأرضكم يؤمُّ به أقْصَى البلادِ وفود
ولاعَجَبٌ أنْ جانسَ الحوض ضفدَعٌ وقدماً تساوي مَطْلَبٌ وشهود
يقودُ امرءاً طبعٌ إلى علم شكله كما انمازتِ الأرواحُ وهي جنود

وهذا المصراع الأخير ، إلى معنى الحديث[1] يشير : « قلوب المؤمنين أجناد مجنّدة ، ما تعارفَ منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »[2] ، وأخذه الحسن فقال[3] :

إنّ القلوبَ لأجنادٌ مجنّدَةٌ لله في الأرض بالأهواءِ تعترفُ[4]
فما تعارفَ منها فهو مُؤْتَلِفٌ وما تناكرَ منها فهو مختلف

[٢٠ أ] وقال الوزير أبو حفص من أخرى :

تباركَ من تفرَّد بالبقاءِ وأسلكَ خلْقَهُ سُبُلَ الفناءِ
وشتّتَ شملهم بعدَ انتظامٍ وكدَّرَ وِرْدَهُمْ إثرَ الصفاء
ولم يُجْرِ الأمورَ على قياسٍ فليست دارنا دارَ الجزاء
فتُبْصِرُ محسناً يجزى بقُبْحٍ وذا ضَمَةٍ يقاد إلى السّناء
وقد كنتُ اعتلقتُ[5] أجلّ مَلْكٍ وأعلمهم بنَقْبٍ أو هِناءِ[6]

١ م : البيت .
٢ في صحيح مسلم ٢ : ٢٩٥ – ٢٩٦ الأرواح جنود مجندة ما تعارف . الح الحديث .
٣ ديوان أبي نواس : ٤٢٨ .
٤ في النسخ : تختلف .
٥ في النسخ : اعتقلت ، وما أثبته من هامش ط .
٦ يشير إلى المثل : « يضع الهناء مواضع النقب » والهناء : القطران ، والنقب . الجرب ، يضرب مثلا للحاذق البصير في الأمور ، وهو من شعر دريد بن الصمة في الخنساء ، وصدر البيت « متبذلا تبدو محاسنه » .

ومن يجهد لدنياه حريصاً ‏ فليس بحائزٍ غيرَ العناء
ومن يثق الزمانَ يجده خبّاً ‏ ويَصْرَعْهُ على[1] حين الرجاء
إذا كان الدواءُ به اعتلالي ‏ فأي الخلق أرجو للشّفاء

وهذا كبيت عدي بن زيد[2] :

لو بغير الماءِ حلقي شَرِقٌ ‏ كنتُ كالغَصّانِ بالماء اعتصاري

وأرى الوزير أبا حفص إنما عوّل فيه على قول أبي بكر رضي الله عنه وقد قيل له : لو سألنا لك الطبيب ، فقال : « الطبيبُ أعَلّني » .

فصل في ذكر الفقيه القاضي أبي الوليد الباجي[3]، من باجة الأندلس[4]، والاتيان بلمعةٍ من أخباره التي زاحمت في بيوت شرفها الكواكب، وقطعةٍ من أشعاره التي ملأت بفوائدها وطُرَفِها المشارقَ والمغارب

قال ابن بسّام : نشأ أبو الوليد هذا وهمته في العلم تأخذ بأعنان السّماء،

---

١ في النسخ ، لدى ، وما أثبته من هامش ط .

٢ ديوان عدي : ٩٣ .

٣ أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد (أو سعدون) بن أيوب التجيبي ، أحد أقطاب المذهب المالكي، وصاحب المؤلفات الفقهية القيمة، منها المنتقى وإحكام الفصول في أحكام الأصول وغيرهما، توفي بالمرية سنة ٤٧٤ (انظر ترتيب المدارك ٤ : ٨٠٢ والديباج المذهب : ١٢٠ والمرقبة العليا : ٩٥ وبغية الملتمس رقم : ٧٧٧ والصلة : ١٩٧ والقلائد : ١٨٨ والمغرب ١ : ٤٠٤ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ٢٤٨ ومعجم الأدباء ١١ : ٢٤٦ والإكمال ١ : ٤٨٦ وتذكرة الحفاظ : ١١٧٨ وابن خلكان ٢ : ٤٠٨ والشذرات ٣ : ٣٢٤ ونفح الطيب ٢ : ٦٧ ومرآة الجنان ٣ : ١٠٨ وفوات الوفيات ٢ : ٦٤ وعبر الذهبي ٣ : ٢٨٠ والروض المعطار : ٧٥ .

٤ باجة الأندلس (Beja) : تقع في البرتغال على بعد ١٤٠ كم إلى الجنوب الشرقي من لشبونة .

ومكانه من النثر والنظم يسامي مناط الجوزاء ، وبدأ في الأدب فبرز في ميادينه ، واستظهر أكثر دواوينه . وحمل لواء منثوره وموزونه ، وجعل الشعر بضاعته فوصل له الأسبابَ بالأساب ،ونالَ به مأكل القُحَم الرغاب ؛ حتى جُنَّ الإحسان بذكره ، وغنَّى الزمانُ بعرائب شعره . واستغنتْ مصرُ والقيروان بخَبَرِهِ عن خُبْرِهِ ؛ ولم تزل أقطار تلك الآفاق تواصله . وعجائب الشام والعراق تغازله . حتى أجابَ ، وشدَّ الركاب ، وودَّعَ الأوطانَ والأحباب ، فرحل سنةَ ستَّ وعشرين ، فما حلَّ بلداً إلا وجده ملآنَ بذكره ، نشوانَ من قهوتَيْ نظمه ونثره، ومال إلى علم الديانة ، وقد كان قبلَ رحلته تَولَّى إلى ظله ، ودخل في جملة أهله . فمشي بمقياس . وبنى على أساس . فلم يبعد أن أصبح نسيجَ وحدِهِ ، في حلّهِ وعقده . حتى صار كثيرٌ من العلماء يسمعون منه . ويرتاحون إلى الأخذ عنه ، وحتى علم العلمُ أنَّ له أشكالاً . وتيقن أهلُ العراق أن بالأندلس رجالاً ، ثم كرَّ ، وقد نفع وضرَّ ، وأحلى وأمرَّ ، واستُقْضِيَ بطريقِهِ بحلب . فأقام بها نحواً من عام . ثم نازعه [٢٠ ب] هوى نفسه ، إلى مسقط رأسه . ومنبت غرسه . من أرض الأندلس ، فورد وعشبُ بلادها نابٌ وظفر . وصوبُ عهادِها دمٌ هَدَر ، ومالها[1] لا عينَ ولا أثر ، وملوكها أضداد ، وأهواءُ أهلِها ضغائنُ وأحقاد ، وعزائمهم في الأرض فساد وإفساد . فأسف على ما صبَّعه . وندم لو أجدى عليه ذلك أو نفعه ، على أنه لأوّل قدومه رفع صوته بالاحتساب ؛ ومشى بين ملوك أهلِ الجزيرة بصِلَةِ ما انبتَّ من تلك الأسباب ، فقام مقام مؤمنِ آلِ فرعونَ لو صادف أسماعاً واعية . بل نفخ في عظامٍ ناخرة ،

[1] م ط س : ومال .

وعكَفَ على أطلالٍ دائرة ، بيد أنّه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب ، وأجزل حظّه بالتأنّسِ والتقريب ، وهو في الباطنِ يَسْتَجْهِلُ نَزْعَتَهُ ، ويستثقِلُ طَلْعَته ، وما كان أفْطَنَ الفقيه ، رحمه الله ، بأمورهم ، وأعلمه بتدبيرهم ، لكنه كان يرجو حالاً تثوب ، ومذنباً يتوب ، ولم يَخْلُ مع ذلك من تأليفِ الدواوين وتدريسها ، وتشييد المكارم و تأسيسها .

بلغني عن الفقيه أبي محمد بن حزم أنه كان يقول : لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب[1] مثل أبي الوليد الباجي . وقد ناظره بميورقة ففلّ من غَرْبِهِ ، وسبّبَ إحراقَ كتبه ، ولكنّ أبا محمد وإن كان اعتقد خِلافَهُ ، فلم يطّرِحْ إنصافه ، أو حاول الردّ عليه ، فلم ينسب التقصير إليه .

وتوفي أبو الوليد الباجي ، رحمه الله ، سنة أربع وسبعين ، وهو بسبيله من تصنيف الدواوين ، في علوم الدين ؛ وقد أخرجتُ ما وجدت من كلامه في هذا الفنّ الذي أنا في إقامة أوده .

ووجدت للوزير الكاتب أبي محمد بن عبد البر رقعةً كتبها عن مجاهد أمير دانية ، وَقْتَهُ ، إلى المظفّر ببطليوس في صفته ، يقول في فصلٍ منها : الآفاق — أيّدكَ الله — وان وارت الأنوار والشهب ، والأبعادُ وان كشّفت[2] ...

١ هو أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر القاضي (– ٤٢٢) (انظر في ترجمته ترتيب المدارك ٤ : ٦٩١ وطبقات الشيرازي : ١٦٨ وتبيين كذب المفتري : ٢٤٩ وتاريخ بغداد ١١ : ٣١ والديباج المذهب : ١٥٩ وابن خلكان ٣ . ٢١٩ والمرقبة العليا ٠ ٤٠ والفوات ٢ : ٤١٩ وستأتي ترجمته في القسم الرابع من الذخيرة ؛ وانظر كذلك مصادر أخرى ذكرت في حاشيتي الوفيات والفوات) .

٢ في النسخ : كشفت .

الأستارَ والحجب ، فلن تحجبَ أنوارَ الفضلِ والكرم ، ولن تسدَّ مطالعَ المآثر والهمم ، ولن تقطع تعمال التواصل والوداد، وتدآب التضافر[1] والإنجاد، وتلك حالنا فإننا على بعد الدار ، وشَحط المزار ، ننطوي على أنفسٍ متجاورةٍ متلاصقةٍ ، ونأوي[2] إلى مذاهبَ متوافقة. والفقيه الحافظُ أبو الوليد الباجي غَذِيُّ نعمتِكَ ، ونشأةُ[3] دولتك ، هو من آحاد عصره في علمه ، وأفرادِ دهرِهِ في فهمه ، وما حصل أحدٌ من علماء الأندلس متفقهاً على مثل حَظِّهِ وقسمه ، وقد تقدَّم له بالمشرق صيتٌ وَذِكْرٌ ، وحصَّلَ بجزيرتنا[4] ولكَ فيه جمالٌ وفخر ، فإنه إليك تنعطفُ أسبابه ، وعليك تلتقي وتلتفُّ آرابه ، لكن شددتُ عليه يدي ، وجعلته عَلَمَ بلدي، يشاوَرُ في الأحكام ، ويهتدى إليه في الحلالِ والحرام ، فقد ساهمتك به ، وشاركتك فيه ، كما تساهمنا وتشاركنا في الأحوالِ السلطانية ، والأمور الدنياوية .

---

١ د : التظافر .
٢ في النسخ : فانك . . . تنطوي . . . وتأوي .
٣ د : وغرس .
٤ د : بحوزتنا .

ما أخرجه من أشعاره في أوصاف شتى

فمن ذلك قوله[1] :

إذا كنتُ أعلمُ علماً يقيناً ... بأن جميع حياتي كساعه[2]

فلِمْ لا أكون ضنيناً بها ... وأجعلها في صلاح وطاعه

وقوله في صفة قلم :

وأسمر ينطق في مشيه ... ويسكتُ مهما امرؤ القدَمْ

على ساحة ليلُها مشرقٌ ... مُنيرٌ وأبيضُها مدْلَهِمّ

وشبَّهْتُها ببياض المشيب ... يخالِط نور سوادِ اللِّممْ

[ودخلَ بغداد والحِرْمان قد كساه سرابيل، ورماه بطير أبابيل، وقاضي

..

١ بهامش ط : جملة من شعر أبي الوليد ، وليس في النسخ شعر أو نثر له ؛ وقد جاء في هامش ط المقطوعتان الأوليان الثابتتان هنا، وهنالك ما يفيد أنهما نقلتا من نسخة عتيقة؛ ثم كتب بهامش النسخة نفسها بخط مغاير كثيراً لخط الأصل : « بل بقي نحو الورقة ونصف » وكتب عندنهاية الترجمة، «بقيت خمسة أبيات»، وهذا الذي أثبته هنا إنما جاء في الطبعة المصرية (١٩٧٥) اعتماداً على النسخة الكتانية؛ وقوله« ما أخرجه » – بضمير الغائب – دليل على أنه ملحق بجهد رجل آخر عدا ابن بسام ،لعله وجده في مسودات ابن بسام نفسه ، أو لعله أضافه مشاكهاً عمل ابن بسام في المقدمات المسجوعة ، وما جاء به مسجوعاً هنا يقارب طريقة ابن بسام، ولكنه لا يطابقها تماماً . هذا وقد خالفت قراءة الطبعة المصرية في عدة مواضع ، دون أن أشير إلى ذلك .

٢ وردت القطعة في ابن عساكر والقلائد والمغرب والفوات وبغية الملتمس والصلة والمرقبة العليا وابن خلكان ومعجم الأدباء والنفح وترتيب المدارك والديباج المذهب والروض المعطار .

قضاتها السمناني ناصح الدين تاج الإسلام[1] يباري القطر ، ويحلي ديباج الفقر ، فقلّده معهودَ تحفيه ، وسقاه ماء أمانيه ، وأهبّه من نوم فاقته ، وطبّه بجودٍ أسرع في إفاقته ، واشتمل عليه اشتمالاً مع صون ماء وجهه عن إراقته ، أناله ما أحسبَه والله وأكسبَه ، فاقتصر على نداه ، واهتصر أفنان جناه .

وقال يمدحه[2] :

يا بعد صبرك أتْهموا أم أنْجدوا	هيهات منك تصبرٌ وتجلّدُ
يأبى سُلوّكَ بارقٌ متألّقٌ	وشميمُ عَرف عرارةٍ ومغرّد
في كل أفْقٍ لي علاقةُ خولةٍ	تهدي الهوى وبكلّ أرضٍ تهمد[3]
ما طال عهدي بالديار وإنما	أنسى معاهدها أسىً وتبلُّد
ولقد مررتُ على المعاهد بعد ما	لبس البداوةَ رسْمها المتأبِّد
فاستنجَدتْ ماء الدموع لبيْنهم	فتتابعَتْ حتى توارى المُنْجد
طفِقَتْ تسابقُني إلى أمد الصبا	تلك الرُبى ومنالُ شأوي يبعدُ
لو كنتُ أنبأتُ الديارَ صبابتي	نحلَ[4] الصفا بفنائها والجَلْمَدُ
لله أيامُ الشبابِ وَحُسْنُها	وغصونُهنّ المائساتُ الميُّد
أيامَ أنفضُ للمراح ذؤابتي	بين اللذاتِ ودرع بردي مُجْسَد
أتقنّصُ الظّبيَات في سُبُل الصّبا	فيصيدهن ليَ العذار الأسود

....

[1] هو القاضي أبو جعفر محمد بن أحمد بن محمد السمناني – سمنان العراق – كان فقيهاً متكلماً على مذهب الأشعري وقد أخذ عنه الباجي علم الكلام بالموصل لا ببغداد ، وتوفي السمناني سنة ٤٤٤ (اللباب والمنتظم ٨ : ١٥٦) .

[2] منها بيتان في معجم الأدباء ١١ : ٢٤٩ والنفح ٢ : ٧٦ .

[3] في البيت إشارة إلى مطلع معلقة طرفة .

[4] النفح ومعجم الأدباء : رق .

حتّى علاني الشيبُ قبل تحلُّمٍ   وأبرّ ما سبق المشيبَ المولِدُ
وحَجيتُ[1] سنّ الحلم في زمنِ الصبا   وبصرتُ فالتاح السبيلُ الأقصد
وسقتْنيَ الدنيا زُعاقَ خُمارها   وسعى إليّ من الخطوب مُعَرْبد
ما هالني صعبُ المرام ولا الذي   تَستَبْعِدُ الأيامُ عنديَ يبعدُ
أستقربُ الهدفَ البعيدَ بهمةٍ   أدنى منازلها السُّها والفرقد
أسْري إذا اعتكر الظلامُ وقادني   أملٌ مطالبه العُلا والسؤددُ

ومن مديحه :

حيثُ التقتْ طُيبةَ السَّماحة والعلا   ورسَتْ قواعدُه وحُلّ المِقْوَدُ[2]
فجنَابُهُ لا يُستَباحُ وجارُهُ   لا يستضام ونبعُهُ لا يُقصد
حرَمُ المكارمِ لا [ينال] فِناءَه   ذامٌ ولا للفضلِ عنه مَبْعَدُ
عالي محلّ النارِ في كَلَبِ الشتا   إذ بالحضيض لغيره مستوقَد
هذا الشهابُ المستضاءُ بنوره   عَلَمُ الهدى هذا الإمامُ الأوحد
هذا الذي قمع الضلالةَ بعد ما   كانت شياطين [الضلال] تمرَّد

وله في المعتضد بالله[3] :

عبادٌ استعبد البرايا   بأنعُمٍ تبلغ النعائمْ[4]
مديحُه خيمُ[5] كلّ نفسٍ   حتّى تغنَّتْ به الحمائمْ

. ...

١ حجيت : لزمت وتمسكت به .
٢ هذا البيت قلق القراءة .
٣ معجم الأدباء ١١ : ٢٥٩ والنفح ٢ : ٧٦ .
٤ النعائم : منزلة من منازل القمر .
٥ معجم الأدباء والنفح : ضمن ؛ والخيم : الخليقة والطبع

وله يرثي ابنيه [1] :

رعى الله قلبين استكانا ببلدةٍ ... هما أسكناها في السوادِ من القلبِ
لئن غُيِّبا عن ناظري وتبوءا ... فؤادي لقد زاد التباعدُ في القُرب
وأبكي وأبكي ساكنيها لعلّني ... سأنجدُ من صحبٍ وأسعَدُ[2] من سحب
فما ساعدَتْ ورق الحمام أخا أسىً ... ولا روّحَتْ ريحُ الصّبا عن أخي كرب
ولا استعذَبَتْ عيناي بعدهما كرىً ... ولا ظمئت نفسي إلى البارد العذب
أحنُّ ويثْني اليأسُ نفسي على الأسى ... كما اضطُرَّ محمولٌ على المركبِ الصّعب

وله يرثي ابنَه محمداً [3] :

أمحمدٌ إن كنتُ بعدَك صابراً ... صبْرَ السّليم لما به لا يسلمُ
ورُزِئْتُ قبلَك بالنّبيّ محمّدٍ ... ولَرزؤه أدهى لديّ وأعظمُ
فلقد علمتُ بأنني بك لاحِقٌ ... من بعد ظني أنني متقدّمُ
لله ذِكْرٌ لا يزال بخاطري ... متصرِّفٌ في صفوِهِ متحكّمُ
فإذا نظرتُ فشخصُهُ متخيَّلٌ ... وإذا أصخْتُ فصوتُهُ متوهَّمُ
وبكلّ أرض لي من آجلك روعةٌ ... وبكلّ قبرٍ عبْرةٌ وترنُّمُ [4]
فإذا دعوتُ سواك حاد عن اسْمِهِ ... ودعاه باسْمك مِقْوَلٌ بك مُغْرمُ

١ المغرب ١ : ٤٠٥ والقلائد . ١٨٩ ومعجم الأدباء ١١ : ٢٥٠ – ٢٥١ وترتيب المدارك ٤ : ٨٠٧ ومنها بيتان في ابن خلكان ٢ : ٤٠٨ .

٢ ترتيب المدارك : وأمطر .

٣ القلائد : ١٨٩ والنفح ٢ : ٧٥ .

٤ القلائد والنفح ، لوعة . . وقفة وتلوم

حكَمَ الردى ومناهجٌ قد سنَّها ... لأولي النُّهى والحِذْقِ[1] قبلُ مُتَمِّمُ
فلئن جزعْتُ فإن ربيَ عاذِرٌ ... ولئن صبَرْتُ فإنَّ صَبْرِيَ أكرمُ

وله يمدح الأمير معز الدولة أبا علوان ابن أسد الدولة[2] :

محلُّ الهوى من سرّ حبّك آهِلُ ... وَصرْفُ النوى عن شملِ شوقيَ غافِلُ
ولله ِ طيْفٌ لا يُلمُّ كأنّما ... له من سهادي في الزيارة عاذلُ
غدا نافراً لا أستطيعُ اقتناصَهُ ... ولو أنَّ لي يوم الكثيبِ حبائل
تبيتُ جفوني صاديات ٍ من الكرى ... ولكنّها من ماءِ دمعي نواهِل
لئن أمطرَتْ روض الخدود سحابُها ... لقد صديتْ منا قلوبٌ مواجل
خليليّ ها فاستعرضا الركْبَ منهما ... فقد درجتْ في الريح منها رسائل
أسرَّوا إلى الليل البَهيمِ سُراهُمُ ... فنَمَّتْ عليه في الشَّمال شمائل
متى نزلوا ثاوين في الخيْف[3] من منى ... بدَتْ للهوى بالمأزمينْ ِ مخايل
فللّه ما ضمَّتْ منىً وشعابُها ... وما ضمَّنتْ تلك الربى والمنازل
ولما التقينا للجمار وأبرزَتْ ... أكفٌّ لتقليب[4] الحصىَ ، أنامل
أسرَّتْ[5] إلينا بالغرام محاجرٌ ... وباحت به منّا جسومٌ نواحل
سقى أثلاتِ الجزع من أم مالك ... عشارُ سحابٍ مُتْرعات حوافِل

---

١ القلائد والنفح : والحزن .
٢ منها أبيات في نفح الطيب ٢ ٨٤ ، وممدوح الباجي هذا هو ثمال بن صالح المرداسي صاحب حلب ؛ فهذه القصيدة مما قاله بالمشرق .
٣ النفح : بالخيف .
٤ النفح . لتقبيل (وما هنا أصوب) .
٥ النفح : أشارت (وما هنا أصوب) .

وله يمدحه :

لرِيّاهمُ في عَرْفِ رَبْعكَ عُنوان ... ومن حُسْنهم في حُسْنِ مغناك تبيانُ
وفيك من الحيّ الذين تحمّلوا ... مخايلُ أغْصانٍ تميسُ وكُثبان
وكم ليلةٍ فيها تعَسّفْتُ حولها ... وكاليِثها مني مشيحٌ ويقْظانُ
سرَيْنا كما يسري الخيالُ وغُضّضَتْ ... على ركْبنا من ناظر الليل أجْفان
لبِسْنا برودَ الليل حتى تشقّقَتْ ... جيوبٌ تضيء بالصباح وأردان
حويتَ معزّ الدولة المُلْكَ فاعتزى ... بذِكرِكَ في الآفاق مُلْكٌ وسُلطان
فلِلمجْدِ سِلْكٌ قد أجيدَ نِظامُه ... وأنتَ لذاك السلكِ دُرٌّ ومرْجان

وله :

تجنّبْ بجهدك ما صوّروا ... وإن كان في سِتْرٍ او [ميثره][1]
فإن الرسولَ عليه السلامُ ... أحقّ العذاب لمن صوّره

وله :

تبلّغْ إلى الدنيا بأيْسرِ زادِ ... فإنّكَ عنها راحلٌ لمعادِ
وغُضّ عن الدنيا وزخرفِ أهلها ... جفونَك واكحلْها بطولِ سهاد
وجاهد عن اللذاتِ نفسَك جاهداً ... فإنّ جهادَ النفس خير جهاد
فما هذه الدنيا بدارِ إقامةٍ ... فيُعْتَدّ من أغراضها بعتاد
وما هي إلاّ دارُ لهوٍ وفتْنَةٍ ... وإن قصارى أهلها لنفاد

وله :

[1] انظر النهي عن التصاوير في الستر في سنن النسائي ٨ : ٢١٢ . والميثرة كهيئة المرفقة أو الثوب تجلل به الثياب ، وهذه القراءة تقديرية .

يا قلبُ إمّا تُلْهِني كاذباً أو صادفاً عن الهدى جائرا
تشغلني عن عملٍ نافعٍ في موقف ألقاك لي ضائرا
أحْرِ بأن تُسْلمني نادماً إن لم ألقَ الله لي عاذرا
وحاق بي ما جاء عن ربّنا (ووجَدوا ما عملوا حاضرا)

وله في معنى السفر :

إذا كنتَ ربي في طريقيَ صاحبا وتخلفُني في الأهل ما دمْتُ غائبا
فسهِّل سبيلي وازْوِ عنّيَ شرَّها وشرَّ الذي ألقاه في الأهل آيبا

وله في معنى الحمد والشكر :

الحمدُ لله ذي الآلاءِ والنِّعَم ومُبْدِع السَّمع والأبصار والكلمِ
مَنْ يحمدِ الله يأتيه المزيدُ ومن يكفُرْ فكم نعمٍ آلتْ إلى نِقَمِ

وله :

الحمدُ للهِ حَمْدَ مُعْتَرِفٍ بأنّ نُعماه ليس نُحصيها
وأنّ ما بالعباد مِنْ نِعَمٍ فإنّ مَوْلى الأنام مُوليها
وانّ شكري لبعضِ أنعمهُ من خير ما نعمةٍ يواليها

وله في قيام الليل[1] :

قد أفلح القانتُ في جُنْحِ الدُّجى يتلو الكتابَ العربيَّ النيِّرا
فقائماً وراكعـاً وساجداً مُبْتَهِلاً مستَعْبِراً مستَغْفِرا
له حنينٌ وشهيقٌ وبُكـا يبلُّ من أدمعه تُربَ الثرى

[1] الأبيات في ابن عساكر ٦ : ٢٥٠ (ما عدا الثاني) .

إنّا لسَفْرٌ نبتغي نيْلَ المدى ففي السُّرى بُغْيَتُنا لا في الكرى
مَنْ ينصَبِ الليْلَ ينَلْ راحتَه عندالصباح يحْمدُ القومُ السُّرى[1]

وله :

وتيقّنْ بأنّكَ الدهرَ تُملي في كتاب المستحفظين الكرامِ
ثم تُؤْتى يومَ الكتابِ كتاباً ناطِقاً بالفجور والآثامِ
وأرى عَثْرةَ اللسان ، وإن لم تَبْدُ ،أنكى من عَثْرة الأقدامِ
وأرى القولَ كالسّهام فإن كا ن قبيحاً عادت عليَّ سهامي
ومن الغيِّ أن أصابَ بِسَهْمِ وأنا مالكٌ يمينَ الرّامي]

الوزير أبو عامر بن مسلمة[2]

طائلُ الدهر ، وعَلَمُ بُرْدةِ ذلك العصر ، وأحد جهابذة الكلام ، وجماهيرِ النثّار والنظام ، من قوم ٍ طالما ملكوا أزمّةَ الأيام ، وخصّصوا بألسنةِ السيوف والأقلام ، لم يزالوا أقماراً في آفاق الكتائب ، وصدوراً في صدور المراتب ، وكان أبو عامر هذا من شرفهم بمنزلة الفصّ من الخاتم ، وبمكان السرّ من صدر الحازم . ولمّا ثُلَّت تلك العروش الأموية ، واختلت تلك الدولة القرطبية ، تحيّز إلى المعتضد ، لأملاكٍ قديمة كانت له في البلد ، فعاش بفضل وفره ، وتصوّنَ عن الدخول في شيء من أمره ، إلا عن زيارة

. .. .

١ انظر المثل في فصل المقال : ٢٥٤ ، ٣٣٤ والميداني ١ : ٣٠٣ والفاخر : ١٥٨ والعسكري (بهامش الميداني) ٢ : ٦٤ .
٢ ترجمته في الجذوة : ٦١ (والبغية رقم ١٠٧) والمطمح : ٢٣ والمغرب ١ : ٩٦ .

لمام ، ومنادمة في بعض الأيام ، جذبته إليها ، وغلبه مضطراً عليها ، ولم يزل يتخادع له عن ذلك استدفاعاً لشرّه ، ومداراةً على بقيّة عمره، حتى مات مستوراً بماله ، مبقى على أشكاله ، وله منظومٌ مطبوع ، ونثر بديع ، وقد وقع إليّ من إملاءاته ، وغرائب أدواته ، تأليفٌ جمعه للمعتضد سمّاه على ما اقتضاه مطابقة الزمان . ومذهب الأوان « **حديقة الارتياح في صفة حقيقة الراح** » دلّ على كثرة روايته [١٢١] وجودة عنايته ، إلى غير ذلك من نظمه ونثره ، وأوردت منه طرفاً شاهداً على ما أجريتُ[١] من ذكره .

جملة من شعره

نقلت من خطه قال : كتبت يوماً بهذه الأبيات إلى الأديبين أبي عليّ إدريس وأبي جعفر بن الأبار[٢] مستدعياً لهما :

أيا شقيقي إخاءٍ ويا قسيميّ صفاءِ
ومن هما في ذوي الفهـ ـم جوهرُ الأدباء
تفضّلا وأجيبا إلى نديٍّ نداء
لتأنسا بحديثٍ وقهوةٍ وغناء

١ م س : على ما أخرجت .
٢ أبو علي إدريس بن اليماني ترد ترجمته في الذخيرة ٣ : ٣٣٦ وابن الأبار ستّرد ترجمته في هذا القسم ١٣٥ .

قال ، فأجابني إدريس :

يا صِنْوَ ماءِ السماء   في رقةٍ وصفاء
ويا سراجَ ضياءٍ   يجلو دجى الظلماء
بهرتَ سيما ذُكاءٍ   في بهجةٍ وذكاء
وحزتَ في العلياء   قوادمَ الجوزاء
يا حاتم الكرماءِ   وأحمدَ الشعراءِ
بادهتنا بلآلٍ   سواطعٍ اللألاء
قريضُ حُسْنٍ كدُرٍّ   على طلى الحسناء
يقود في كلّ معنى   معنى الغنى والغناء
وقد أجبنا إلى ما   دعوت من آلاء
[لازال]نجمك[1] أسمى   من نجم كل سماء

قال الوزير أبو عامر : وبعث إليّ أبو الأصبغ بن عبد العزيز[2] باكورَ بهارٍ وكتب معها :

وبهارٍ ألمّ قَبْلَ الأوانِ   في بهاءٍ يروقُ رأيَ العيانِ
أمكن القَطْفَ في مدى شهرِتشريـ   ـنَ على غيرِ عادةِ الإمكانِ
سبق الزّهرَ[3] في المضائلِ طرّاً   وكسا بالجمالِ فَضْلَ الزمان

قال ، فأجبته :

. .

١ م ط س . حـــث

٢ سيأتي طرف من خبره ، هذا القسم . ٢٠٦

٣ م ط د س : الدهر

يا إماماً في السبق يومَ الرهان كلّ حينٍ يؤمُّني بالأمانِ
وصلِ النرجسُ المبكّر يحكي سبْقَ عبادِ المليكِ اليماني
يا بهارَ الرياضِ أنت بهارٌ باهر الأنوار[1] والريحان

قال الوزير أبو عامر : وأعلمتُ ابنَ الأبّار بخبر البهارة ، وكان عليلاً ، وقلت له : إني نادمتها ليلتي ، وجعلتها مؤنستي على قهوتي ، فكتبَ إليّ :

بالله كيف النديمه يا ذا السجايا الكريمه
عذراءُ تعبقُ شمّاً وأنت تعبقُ شيمه
أخْبِبْ بها بكرَ نَوْرٍ من البهار يتيمه
فتلك عنديَ والعو دَ لا نديما جَذيمه
فاصببْ غُذيتَ عليها من المدامةِ ديمه
والدهرُ يمضي فبادرْ من الزمانِ غنيمه
وانعمْ بدولة مَلْكٍ ثنَى الغيوثَ لشيمه
عبّادٍ المُنْصِفِ المجـ دَ باللّهى المظلومه

وله في وصف مشروب زبيب :

مُزّةٌ ماتتْ زماناً بحجابٍ يحتويها
لَبِثَتْ في بطنِ أمّ غَيَّبَتْها عن بنيها
ألْحَدَتْها الشمسَ دهراً ثم عاد الروحُ فيها
كان ماءُ المزن عيسى[2] إذ وضعناه بفيها

١ كذا في م ط د س ، وهو مختل ، ولعل صوابه « باهري الأنوار » .
٢ م ط س : فيها .

فانبرى منها سراجٌ رائقٌ مَنْ يجتليها
وبَدَتْ منها شموسٌ غَرَبَتْ في مُطْلِعيها
عَزَبَتْ ألبابُنا إذ غَرَبَتْ في شاربيها

والمصحفي [1] قبلَهُ القائل :

[٢١ب]ولما تولّى بابنة الكرم جائرٌ عليها فأصلاها بزعمكم الشّمسا
ولم يبقَ من جُثمانِها غيرُ جلدها غَدَتْ للّذي تحويه من روحها رَمْسا
وصلتُ بها الماءَ القراحَ محافظاً فراحَ لها جسماً وراحتْ له نفسا

وذكر الوزير أبو عامر أنّه ما رآه ، ولا نظر إليه . ولا اعتمد عليه ، ولا قصده ، ولو سمعه لما أورده .

وقال :

ومهفهفٍ غضٍّ الشباب منعّمٍ فيه أطَرْتُ إلى الجماحِ جَناحي
قد جاء يسعى [2] بالمدام فقلت لا إني هجرتُ تعاطيَ الأقداح
لا تسقني راحَ الكؤوسِ وسقّني سحرَ العيون يقُمْ مقامَ الراح
فأقامَ لي من لحظهِ ورضابه راحاً وقام الخدُّ بالتفاح
وضللتُ في ليلي فأبدى غُرَّةً أغنتْ عن المصباحِ والإصباح

قال : وبلغني أنّ ابنَ الأبّار صدّ عنه يوماً من يهواه ؛ وواصل سواه ، فكتبتُ إليه :

---

١ هو الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، منافس المنصور بن أبي عامر ، وقد قضى عليه المنصور سنة ٣٦٧ (وأخباره في المصادر التاريخية المتعلقة بتلك الحقبة، وانظر المطمح : ٤ – ٨) .
٢ يسعى : سقطت من ط م س .

قد هَجَرَ الأنسُ والسرورُ إذ هجرَ الشّادنُ النّفُورُ
وغُيِّضَتْ غَيْضَةُ التَّمَنّي فطرفُ نوّارها حسيرُ[1]
وأقفرَ الرَّبْعُ بعدَ أنسٍ فعمرُ هوِ الفتى قصيرُ

قال : فراجعني بهذه الأبيات :

يا مَنْ بهِ تَزدهي الدهورُ ومَنْ له تَخضَعُ البُدورُ
ومَنْ إذا احتَلَّ في عُلاهُ فكلُّ جفنٍ بهِ قرير
قد عُوتبَ الشادِنُ الغريرُ فعادَ من وَصلهِ اليَسيرُ
ومَنَّ لي بالجوابِ تيهاً وهو بما قلتَهُ خَبير
فافترَّ عن واضحٍ شنيبٍ فيهِ لميتِ الهوى نشور
ثمَّ تَلاقَتْ لَنا عُيونٌ تخالَفَتْ تَحتَها الصدور
تَرْجَمَ بالثّغرِ عن مَعانٍ ضَنَّ بإعلانِها الضّميرُ
ولم نَزَلْ نُعْمِلُ الحميّا واللّحظُ ما بَينَنا سَفير
مدامَةُ أفنَتِ اللّيَالي وأرْضِعَتْ ثَديَها الدهور
تخالُها في الكؤوسِ سِرّاً وهي لشرّابها سرور
حتّى إذا ما الصُّدودُ[2] أوْدَى تَناوَلَتْ مَزْجَها الثّغور
فاهنأ بما قد هَنّا مُحِبّ خَطْرُكَ في نَفْسِهِ خَطيرُ
كانَ لكَ اللهُ مِنْ وَفيٍّ وَفَى بهِ دَهْرُنَا الغَرُور
إنَّ الوَرَى أصبحوا أجاجاً وإنَّكَ السّائغُ النّميرُ

[1] موضع هذا الشطر بياض في ط د س وقد جاء في م بخط مختلف عن خط الأصل .
[2] س م : السرور .

لَطُفْتَ ظَرْفاً وَطِبْتَ حتى تَرْجَمَ عن خُلْقِكَ العَبير
لا زلتَ بالفضلِ لي مَلِيّاً فإنّني بالثّنا فقير

[٢٢ أ] وقال الوزير أبو عامر [١] :

أهلاً وسهلاً بوفودِ الربيعْ وثَغْرِهِ البَسّامِ عندَ الطّلوعْ
كأنّمَا أنوارُهُ [٢] حُلَّةٌ مِنْ وَشْيِ صنعاءَ السريّ الرفيع
أحْبِبْ بهِ من زائرٍ زاهرٍ دعا إلى اللهو فكنتُ السميع
بَثَّ على الأرضِ دَرَانيكَهُ [٣] فكلُّ ما تُبصِرُ فيها بَديع

قال الوزير أبو عامر : وكتبتُ إلى ابن الأبار يوماً بهذه الأبيات :

قل لأبي جعفرٍ المنتقَى من سرِّ قحطانٍ وخولانِ
انظرْ إلى الظبي الأنيقِ الذي يختالُ في أبرادِ إحْسان
كأنّما مقلتُهُ بابلٌ حُفَّتْ بسحرِ الإنْسِ والجان
كأنّما شاربُهُ بَهجَةً زمرّدٌ من فوقِ مَرجان
كأنّما أردافُهُ عالِجٌ وقَدُّهُ غُصْنٌ من البانِ

قال ، فأجابني بأبيات منها قوله :

وابأبي ذاكَ الغزالْ الذي يجولُ في سرٍّ وإعلانِ
مُقَرْطَقٌ يَبسمُ عن لُؤلُؤٍ رَصَّعَهُ الحسنُ بمرجان
أفديهِ من أحورَ أجفانُهُ نامَتْ لكيْ تَسهرَ أجفاني

---

١ منها ثلاثة أبيات في المغرب ١ : ٩٧ .
٢ المغرب : أزهاره .
٣ الدرانيك : البسط .

لما بدا لي جيدُهُ مُتْلَعاً   قلتُ لمن قد ظلَّ يلحاني
لا فزتُ منه بجميعِ المنى   إن كانَ هذا عند رضوان
من أينَ للظبي كأجفانيهِ   أو مثلِ ذاك الخوطِ للبان
ما هو إلاَّ [. . .] برهانِ   وحجَّةُ اللّوطي على الزاني

قال : وكتب إليّ ابن الأبّار أيضاً بهذه الأبيات :

يا مُفْصِحَ الكفِّ واللسانِ   بالطَّولِ طوراً وبالبيانِ
عنديَ مَنْ عندَه فؤادي   ومن تجنّيه قد براني
أظنها نومَةً لِقردي   أو غفلةَ الغِرّ من زماني
وليس سرٌّ السّرور إلاَّ   ضَرَّةَ أخلاقِكَ الحسان

قال فأجبته :

يا مالكَ السحرِ والبيانِ   وناظم الدّرِّ والجُمانِ
أكرمْ بمولىً أجاب عبداً   فأقبل الدهر بالأمان
وانتزحتْ دولةُ التنائي   واقتربتْ دولةُ التداني
وكلُّ شيءٍ يكونُ عندي   ملكُكَ يا ناظرَ الزمان
وقد بعثتُ المدام تحكي   جزءاً من آخلاقِكَ الحسان

الوزير أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم[1] :

بديع ذلك الزمان ، أحد وزراءِ المعتضد الكتّابِ الأعيان ، وممَّن

١ ذكره صاحب الجذوة مرتين ٦٥ ، ٢٨٣ (البغية رقم : ٣٨٣ ، ١٥٧٢) فقال في الموضع الأول إنه أديب شاعر يروي عنه ابنه عبد العزيز ، وأن ابن حزم ذكره ، وأورد له في الموضع الثاني أبياتاً من قصيدة طويلة قالها في القاضي أبي الفرج ابن العطار .

شُهِرَ بالإحسان ، في صناعة النظم والنثر ، ولم أقنعْ له عند نقلي هذه النسخة إلاّ على التافه النَّزرْ ، وعلى ذلك فقد كتبتُ له منهما ما يشهد أنّه كان من أهلِ الرواية والعلم ، وذوي الدِّراية والفهم .

فصول له من مقامة

قال في أوّلها : سقى عَهْدَكِ أيتها الدمنةُ الزهراءُ كلُّ عهد ، وجاد قُطْرَكِ أيتها الروضةُ الغنّاءُ كلُّ قَطْر ، وسال عليك من أدمعي كلُّ مُلِثّ هَطّال ، وتناوحتْ عليكِ من أضلعي كلُّ جنوب وشمال ، منشَّرةً أنوارك ، لا مُعَفّيَةً آثارك ، ومهديةً أرَجَكِ ونسيمك ، لا مُغَيّرةً أطلالَكِ ورسومَكِ ، فكم لنا في واديك من بُلَهْنِيَةِ زمانٍ أنيق ، وفي مغانيك من رفاهية عيشٍ رقيق ، نُعَلُّ بكأسَيْ عتابٍ وإعتاب ، ونرتعُ في جَنْبَتَيْ[1] صباً وتصابٍ ، غُدُوُّنا من عشيقٍ إلى صديق، ورواحنا من صَبُوحٍ إلى غَبُوق، وخليلنا مساعد، وعدوُّنا مباعد، ورقيبنا أعمى، وزماننا أعشى ؛ حتّى إذا استيقظ الدهرُ من هجعته ، وهبَّ من غطيط رقدته وسكرته ، ضرب فوقنا بجرانِهِ ، وصرفَ إلينا لَهْذَمَ سِنانِهِ ، ولبس لنا جِلْدَةَ النَّمِرِ ، وقَلَبَ لنا ظهرَ المِجَنّ ، وألقى علينا بَعاعَهُ ، وطمس ذوننا[2] شعاعَهُ ، مستردّاً ما وهب وأعطى ، ومكدّراً ما منح وأصفى :

أبداً تستردُّ ما تهبُ الدنـ ... يا فيا ليت جودها كان بخلا[3]

[1] م س : جنبي .
[2] ط د : لنا .
[3] البيت للمتنبي ، ديوانه : ٤٠٠ .

فما لبثَ أن صَدَعَ مَرْوَتَنا ، وفَصَمَ عُرْوَتَنا ، وحلَّ عَقْدَنا ، ونثر عِقْدَنا .

وفي فصل منها : وكان لي أليف ، وعقيد شريف ، من صرحاء الاخوان ، وَصُيَّابَةِ الفتيان ، ومُصاصِ أعيانِ الزمان ، وحين سَوَّلَتْ لي همتي ما سَوَّلَتْ ، وخيَّلَتْ لي أمنيتي ما خيَّلَتْ ، أجلْنَا قِداحَ الرأي ، وأسهمنا بينَ القُرْبِ والنأي ، شاورَ في أمري قريحتَهُ ، ونخَلَ لي نصيحته ، وقال : أرى أن لا تريم بَيْضَتَكَ[1] وأرومَتَكَ ، وأنْ تُوطِنَ أرضك ولا تفارق عشيرتك ، وأربأ بك عن مُضِلاّتِ المنى ، وأعيذُكَ من تُرَّهاتِ لعلَّ وعسى . فتحسبُ كل بيضاء شحمة ، وتظنُّ كلَّ سوداء تمرة[2] ، وربما سَقَطَ العشاءُ بكَ على سِرْحان[3] . وكلُّ الناسِ بكر ، وفي كلِّ وادٍ بنو سعدٍ[4] :

والرفق يمنٌ والأناةُ سعادةٌ فاستأنِ في رفقٍ تلاقِ نجاحا[5]

وان أبيتَ إلا التحوُّلَ ، فعليك من الرؤساء ، بأحلمِ الحلماء ، ومن القرباء بأشرفِ الشرفاء ، ولا تَغُرَّنَّكَ المناصبُ ، دونَ المناسب ، ولا المَقولُ

[1] ط د س : ببيضتك .
[2] انظر المثل « ما كل بيضاء شحمة » و « ما كل سوداء تمرة » في العسكري ٢ : ٢٨٧ (تحقيق أبو الفضل) والميداني ٢ : ١٦٩ .
[3] انظر فصل المقال : ٣٦٢ والميداني ١ : ٢٢٣ والعسكري ١ : ٥١٤ (أبو الفضل) والفاخر : ٢٠٦ وقد مر تخريجه ص : ٨٣
[4] انظر العسكري ١ : ٦١ والميداني ١ : ٣٦ .
[5] بيت شعر للنابغة الذبياني (انظر اللسان والأساس : أنى ، وفصل المقال : ٣٢٨) .

دون المعقول ، ولا الدراهمُ دون المكارمِ ، وازهدْ في أكثر كلّ عين ، واذكرْ قول [ابن] الحسين [1] :

وما رغبتي في عَسْجَدٍ أستفيده ولكنَّها في مَفْخَرٍ أستجدُّهُ

فلما سمعتُ ووعيتُ ، ارتكنتُ [2] وتوليت ، ثم أبيت قبولاً ، ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً ، وناقضتُ نصحَهُ بقولِ حبيب [3] :

وإنَّ صريحَ العزمِ والرأي لامرىءٍ إذا بلغته الشمسُ أن يتحولا

ومغتراً بقول الثاني [4] :

تلقى بكلِّ بلادٍ أنتَ نازلها أهلاً بأهْلٍ وجيراناً بجيرانِ

وفي فصل منها : وصرَّحَ ليَ الدهرُ عن أهله ، ووجدت الناسَ اخبُرْ تَقْلِه [5] . من أميرٍ لا أسمّيه ، ووزير أقْحِمَتِ الواوُ فيه ، وكاتبٍ أمّي ، وقاضٍ جَبُّلِيّ [6] ، وأمة مبورة ، في قرية مصورة ؛ وإذا اختلفوا أنشدوا :

ومن تكنِ الحضارةُ أعْجَبَتْهُ فأيَّ رجالِ باديةٍ ترانا [7]

. ...

١ ديوان المتنبي : ٤٥٤ .

٢ م ط س : ارتكبت .

٣ ديوان أبي تمام ٣ : ١٠٦ .

٤ م ط س : ومعنى القول الثالث .

٥ هذا من الحديث ، والهاء في « تقله » هاء السكت : ولفظ الحديث لفظ الأمر ، ومعناه الخبر ، أي من خبرهم أبغضهم (التاج : قلى) .

٦ حبلي : نسبة الى جبل وقاضيها يضرب به المثل في الجهل (ثمار القلوب : ٢٣٦) . وفي النسخ : حبي .

٧ البيت للقطامي ، ديوانه : ٧٦ .

[٢٣ أ] فبينا[1] أقرع السِّنَّيْنِ ، وأعضُّ الكفَّين ، وأخضبُ بلا حناء ، وأنشد[2] في الأمراء :

وإذا نظرتُ إلى أميري زادني   كَلَفاً به نَظَري إلى الأمراء[3]

إذ قرع البشيرُ بابي ، وطَرَقَ المستأذِنُ حجابي ، قائلاً : رسولُ مولاك ، وكتابُهُ وافاك ، فقمتُ أتساقَطُ من الجذل ، وأعثر في دعائرِ العَجَل ، مقبِّلاً فاه ، وصائحاً : زاه .

وفي فصل منها : وأفضنا في وصفِ معاليه ، واستنشدني فأنشدته ما قلته فيه ، فقال : بزاعة الفصحاء ، وبراعة الشعراء ، دعني من زُخْرُفِ شعرك ، وَصِفْهُ لي بمُنْصِفِ نثرك ، فللمنظوم رونق ، وأنت فيه ذو طَوْلَق[4] ، فقلتُ: على الخبير سقطت ، وأنا الكفيلُ بما سألت وشرطت ، وأسمعته سجعاً لا نظماً ، ونثراً لا شعراً ، فقلت : هو الإمام الطاهر ، والكوكب الزاهر ، والأسَدُ الخادِرُ ، والبحر الزاخر ، أوهبُ الملوكِ للذخائر ، وأعفاهم عن الجرائر ، وأرفعهم قدراً ، وأوسعهم صدراً[5] ، وأطيبهم ذكراً ، أعطر[6] من العنبر ، في كلّ منبر ، وأفوحُ من المسكِ الذكيّ ،
.. ..

١ ط : فيها .

٢ م ط : وأنشدوا .

٣ البيت لعدي بن الرقاع العاملي ، انظر الشعر والشعراء : ٥١٧ وتمام المتون . ٣٣٩ – ٣٤٠ .

٤ طولق: انظر في شرح هذه اللفظة ٢٦٨٠١ ، ٣ : ٦٥٣ من الذخيرة ، وهو هناك شرح استنتاجي ، وقد جاء في شرح القصيدة الساسانية لصفي الدين الحلي أن الطولق درج فيه تصاوير وتماثيل ، انظر : C. E. Bosworth: The Mediaeval Islamic Underworld part II p. 73 (Arabic Part), p. 329 (Eng. Trans).

٥ ط : قدراً .

٦ د : أطيب .

في كلّ نَدِيٍّ ، الحليمُ فما يغضب ، والجوادُ وما يرغب ، والشجاعُ وما يرهب ، والقويّ وما يعنف ، واللَّيِّنُ وما يضعف ، والرفيقُ[1] إذا ساس ، والمصيبُ إذا قاس ، ينبوع كلّ جَدَل ، ودافعُ كلّ وَجَل ، وحسبك بي عنده[2] من جليسٍ رئيس ، أُكلّمُ منه سحبان ، وآخذ عن لقمان ، وأستنزلُ كيوان :

له كبرياء المشتري وسعوده وسطوةُ بَهْرامٍ وظَرْفُ عطاردِ[3]

وقمر إلا أنه بشر ، وجبلٌ إلا أنه رجل ، بحرُ علمٍ . وطَوْدُ حلم ، وعالم في عالم ، الأصمعيُّ عنه ناقل ، والجاحظ عنده باقل . إذا ركب ضاق عنه الأفق ، وإذا تبدّى وسع الدهر ندى ، وان نطقَ بيَّنَ وصدق ، وإن كتب أبدعَ وأغرب ، نداه سحائب ، وكتبه كتائب ، مَشْرَفيّاتُهُ من لسانه وبيانه ، وَخَطّياتُهُ من أقلامه وبنانه . تمشق فيها جيادُ فهمه ، ويَمْري دِرَرَ أشوالها من آدابه وعلمه ، ويسحبُ لها من فكره مضماراً . ويثير من مداده قَسْطَلاً وغباراً ، ويرتّب فيها الحروفَ . ترتيبَ الصفوف . ويمشق بها في المهارق ، مَشْقَهُ في الطّلى والمفارق ، هذا إلى روحانية مَلَك ، في تَجِلّة مَلِك . فاستُطيرَ فرحاً ، وازدهي مرحاً . وخفَّ[4] فقام إليَّ ، ورفَّ يقبّلُ بين عينيّ ، وكأنه إنما نُشِرَ من قبر ، أو صحا من سكر ، وقال: أصَبْتَ واللهِ القرطاس ، وبنيتَ على أساس . وفُزتَ بالقدح المعلّى ، وتحلَّيْتَ من الحلى ، والحديثُ ذو شجون : متى الحركة ؟ وفيمَ التلوُّمُ

١ س ط د م : والرقيق .
٢ م ط س : عندهم .
٣ ديوان أبي تمام ٢ : ٧١ .
٤ م ط س : وخاف .

والمقام ؟ وكنت شاكياً فقلت : رويدَ الإبلالِ ، وبُعَيْد الإقلال [1] ، قال : فَسِرْ في كنف السّلامة ، إلى وطن الكرامة .

وله من رقعة كتبها عن المعتضد إلى الوزير الفقيه أبي حفص الهوزني ، قال فيها : وردني كتابك الأثير المقابل بين النثْر البليغ والنظم البديع ، تَصرَّفْتَ فيهما تصرُّفَ من إذا حاكَ الكلامَ طَرَّزَ ، وإذا غَشِيَ ميدانَ البيان برَّز ، وأخذ بآفاق العلوم ، وأشرقتْ خواطِرُهُ فيها كإشراقِ النجوم ، وإنها لفضيلةٌ بَعُدَ فيها شأوك ، وفات جَهْدَ المجارينَ لكَ عَفْوكَ ؛ فأمّا ما صدَّرْتَهُ به من بالغ إطراء ، وسابغ ثناء ، فأمرٌ أعلمُ أنّه صَدَرَ عن عهدٍ كريم ، ومعتقَدٍ سليم ، أنا معتقدٌ عليهما بجميل القرض ، والمجازاة الحسنة بهما في وكيد الفرض . واقتضيت ما تلا ذلك من وعظلك المبرور ، واحتسابك [2] المشكور ، في الحال التي أشرتَ إليها فأقنعتَ ، ورَمَزْتَ [3] بها فأسمعت ، بصحّةِ دينك ، وبَرْدِ يقينك ، حتى نظرت إلى ما دَهَمَ المسلمين من كَلَبِ العدوّ عليهم : يجوسون [4] البسيط من ديارهم، ويستبيحون [5] المحوطَ من ذمارهم ، ليس إلى الانقيادِ عن أحكامهم دِفَاعٌ ، ولا سوى الانحياز من أمامهم امتناع ، قد تبيّن لهم أنّ تخاذُلَنا لهم علينا ناصرٌ ، وتَواكُلَنا مظاهِرٌ [6] مؤازِرٌ ، فلا يَعْدَمُونَ من يتخلى لهم

---

١ رويد الابلال ، الاقلال : بياض في م د س ، وثبت في ط بخط مغاير لخط الأصل .

٢ في النسخ : واحسانك ، واثبت ما في هامش ط .

٣ ط د: وزمرت .

٤ م ط د س : ويحرمون .

٥ د : ويستحيون ؛ م ط س : ويستحبون .

٦ غ بهامش ط : مضافر .

عن بلد ، أو يعطيهم الجزيةَ عن يدٍ ﴿ ولو شاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلوَ بعضكم ببعض ﴾ (محمد : ٤٧) .

ولقد شرحت من تلك [٢٣ ب] النُّصَبِ ما يُسْهِرُ النّواظرَ ، ويبلِّد الخواطر ، ولا يدع ركنَ عزٍ إلا أوهاه ، ولا بناء جلد إلا أرداه ، ولا عِدٍّ[1] صَبْرٍ إلا أغاضه ، ولاثمدَ دمعٍ إلا أفاضه ، وان الحذرَ أن تَغْشَى[2] التي لا شَوَى لها ، وتفجأ التي لا لعاً منها ، فَيُرامُ من ذلك استكفافُ سَيْلٍ من التلفِ قد انحدر ، ويُنْظَرُ في أعقابِ نجمٍ من التلافي قد انكدر ، إلا أن يعودَ الله علينا برحمته ، ويهيء لنا أسباب عِصْمته .

وأما ما ندبتَ إليه ، وحضضتَ عليه ، من إحفاد[3] السعي فيما يَقْمعُ المشركين — بدّدهم الله — ويجمعُ عليه كلمةَ المسلمين ، فيعلمُ الله أني قد ناجيتُ بذلك وناديت ، وراوحتُ فيه وغاديت ، وبثثتُ رسلي إلى ذلك داعين ، يَصِلُوْنَ التذكرةَ ، ويوكّدونَ التبصرة ، ويتلون المواعظَ ، ويستثيرون الحفائظ ، فَصَمّتِ المسامعُ ، واتفقت في التثاقُلِ المنازع ، وَخُلِجَ[4] بالخذلان ، وتُجوّزتِ الجمجمةُ في ذلك إلى الإعلان ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى .

وفي فصل منها : واما إزماعك للتنقل ، وأن أرسمَ لك مكانَ التحوّل ، فأيّ مكان يكون ذلك سوى وطنِكَ الذي تعرَّفْتَ فيه سابغَ الأمْنِ ،

---

١ د : بحر .
٢ م : تمشي .
٣ في النسخ : إجهاد والاحفاد : الاسراع .
٤ م : وجلح ؛ س : وحلج .

وتلقّيْتَ فيه طائرَ اليُمْنِ ، ولم تَعْدَمِ المحلَّ الرفيع ، والجانبَ المنيع ، والسكونَ منيَّ إلى مَنْ لم يزلْ يعتمدك بإيثاره ، ويشاركك في خاصِّ أسراره ، ويرفعُ قَدْرَكَ فوق أقدارِ الأكفاء ، ويحطُّ عن منزلتك منازلَ النظراء ، وان كان قد جرى قَدَرٌ بمفارقةٍ فكانت سليمة لم يتبعها إلا حالٌ لك محوطة محفوظة ، وساقة[1] بعينِ الصّيانةِ مكلوءَةٌ ملحوظة .

وهذه أيضاً جملة من شعره

له في المعتضد من قصيد أوله :

دونَ الأحبّةِ بالوعساءِ أعداءُ وَسَلْمُ كلٌّ بعيد الهمّ هَيْجاءُ
والحبّ كالمجدِ لا ينفكُّ من كَبَدٍ فيه يلذُّ لنا بؤسٌ ونعماءُ
حفيظةٌ منك عينُ اللهِ تكلؤها وشيمةٌ شيمَ منها العينُ والطاءُ
وهيبةٌ لم تزلْ تَعْنُو إليكَ بها والدينُ يخبطُ منه الليلَ عشواءُ
مَدُّوا إليكَ أكفَّ البغي فانجذمت وقد خَلَتْ منهمُ بالسيف أقفاء
وقادةٍ في وجوهِ القوم أخجلها من حدِّ سيفك توبيخٌ وإدماءُ
أبناءُ دأيَةَ من مقطوف[2] هامهمُ على الجذوع لها وقعٌ وإقعاءُ
قومٌ همُ نبذوا الإسلامَ قاطبةً عنهم كما نبذ الأموات أحياءُ

ومعنى البيت الثاني منها كقول حبيب[3] :

. . . . .

[1] هذا يعني ان الهوزني قد خلف له أقرباء في اشبيلية حين ارتحل عنها .
[2] ط س : معطوف .
[3] ديوان أبي تمام ٢ : ١٨ .

كأنهُ كانَ تِربَ الحبِّ مُذْ زمنٍ   فليس يُعْجِزهُ قلب ولا كَبِدُ

وأخذه أبو الطيب فقال[1] :

وقد صُغْتَ الأسنّةَ من همومٍ   فما يخطرنَ إلا في فؤادِ

وقال من أخرى[2] :

سَحَبَتْ على أثرِ الخيالِ ذيولا   وسَرَتْ تعودُ من الصدودِ عليلا
عُلِّلْتُ منكِ بكلِّ وعدٍ كاذبٍ   وسرى خيالكِ بالرِّضى تخييلا
لو كنتِ صادقةً رحلت إلى الصبا   وخضبت شيبي بالشباب محيلا
سقياً لعهدكِ والشَّبابُ مُلاءَةٌ   تثني عيون الحورِ عنيَ حُولا [٢٤ أ]
أيامَ أمْرَحُ في الصبابةِ خالعاً   رَسَني وأسحبُ في المجونِ ذيولا
وأصيدُ بين حمائلي وحبائلي   صيداً وغيداً ما يَدِينَ قتيلا

ومنها :

يا هذه عنّي إليكِ فانَّ لي   أملاً بأعنانِ السماء كفيلا
من لم يبتْ عندَ ابن عبّادٍ فقد   ضلَّ السَّبيل وأخطأ التأميلا

ومنها في وصف حربه مع صاحب سبتة :

فأرِحْ جيادَكَ فهي أطلاحُ السّرى   وَقُدِ الجيوشَ إلى العدا أسطولا
أنشأتَهنَّ سفائناً ومدائناً   وجَنَبْتَهُنَّ كتائباً ورعيلا
دهُمٌ تَخالُ البيض في أوساطها   بَلَقاً وفي أطرافها تحجيلا
قُرِعَتْ بأسواطِ الرياح فأسرعَتْ   في الماء تُعْمِل كَلْكَلاً وتليلا

...

١ ديوان المتنبي : ٧٩ .
٢ وقع هنا خرم في م .

قوله : « لو كنت صادقة » . . . البيت ، نقل لفظه من قول أبي الطيب[1] :

خُلِقْتُ ألوفاً لو رُدِدْتُ إلى الصِّبا   لفارقت شيبي مُوجَعَ القلبِ باكيا

وقال محمد بن هانىء[2] :

لخططت شيباً من عِذاريَ كاذباً   ومحوت مَحْوَ النقس عنه شبابا
وخضبت مبيضّ[3] الحدادِ عليكمُ   لو أنني أجِدُ البياضَ خضابا

وله من أخرى في المعتمد[4] :

أشِمْتَ البرقَ بات له ائتلاق   تضيء به الأماعز والبُرَاقُ
وبين جوانحي قلبٌ مُطارٌ   جناحاه ادّكارٌ واشتياقُ

ومنها :

ولم أنسَ الكثيبَ ولَيْلَتَيْه   كأنهما اختلاسٌ واستراق
نجوم الراح في أفلاك راحٍ   مشارقها المطرَّفَة الرقاق
وشدوٌ تطرب الألفاظ عنه   كما نُفِضَتْ من الدرِّ الحقاق
وأفصح من أبان النصحْ عنه   يدٌ نيطت بها قَدَمٌ وساق
تَذَكَّرْتُ الصبابَةَ والتَّصابي   هنالك إذ تروق ولا تراق
ونحن كأنَّنا غُصْنَا أراكٍ   قد اشتبكا وضمَّهما اعتناق
ذراعاه على عُنُقي نجادٌ   وساقاه على كَشْحِي نطاق

---

١ ديوان المتنبي : ٤٤٠ .
٢ ديوان ابن هانىء : ١٩٩ .
٣ الديوان : مسود .
٤ في المعتمد : لم ترد في ط س .
٥ س ط : السحر .

إذا ما الشمس ورّستها أصيلٌ أدالَ الإصطباحَ لها اغتباق
ومن نِعَمِ ابنِ عبّادٍ كؤوسٌ نُعَلُّ بها وأقداحٌ تُتَاق[1]
ومن كفِّ الربيعِ لنا ربيعٌ يصوب حياً ومن حمصٍ عراق

وله فيه وقت انصراف قرطبة إليه ، وقتلِ ابن عكاشةَ على يديه :

صفا لك الشِّربُ كانت فيه أقذاءُ وعاد بُرْءٌ على ما أفسدَ الداءُ
ولن يُعَجَّل مقدورٌ له أجَلٌ وللأمور مواقيتٌ وآناء [٢٤ ب]
وقد تباطأ وحي اللهِ آونَةً عن النبيِّ وغابتَ عنه أنباء
فليهنِك الصنعُ قد راقت عواقبُه وشُفِّعَتْ عنه بالآلاء آلاء
فتحٌ كما وضحَ الإصباحُ منه على آفاقِ مُلْكك إشراقٌ ولألاء

ومنها في رثاء ابنه :

الظافر الدفر الذكرى معطرةٌ منه المنابرَ ألقابٌ وأسماءُ
رزئتَه فاحتسبْهُ عند خالقِه زُلْفَى بذلك تقريبٌ وإدناء
ولو أفادَ عليك الحزنُ فائدةً لكان صخراً وكلُّ الناسِ خنساء
تشرفت بك دولاتٌ وأزمنةٌ وفاخرتْ بكَ أمواتٌ وأحياء

ومن مرثية له في المعتضد :

عليك أبا عمروٍ سلامُ مُوَدِّعٍ له كَبَدٌ بين الضلوعِ دخيلُ
عممتَ الورى بالثكل فيكَ رزيّةً وقبّحتَ وَجْهَ الصبرِ وهو جميل
فمن شاء فلينظرْ بعينِ حقيقةٍ ففيك لنا وعظٌ مداهُ طويل
يرى الأرض فيها الأرض كيف تزلزلت بنا ويرى الأطوادَ كيف تزول
أفَلْتَ فعادت حمصُ بعدك دُجنةً كأنك شمسٌ والزمانُ أصيل

---

١ س ط : وأحداق نشاق ؛ وتتاق : مخففة من تتأق أي تملأ .

وكتب إلى الوزير أبي عامر بن مسلمة من جملة أبيات :

يا ابنَ الكرام السادةِ الخُلُصِ قولاً بلا إفك ولا خَرَصِ
ماذا ترى في القصفِ متكئاً مَعَ رنَّةِ الطُّنْبورِ والرقص
فلَعَلّني أشْفي بريقَتِها من عارضٍ في الصدر كالغصص
وألذُّ عند سماعِ مُبْهجِها منْ طيِّب الأخبارِ والقصص
أهل العراق على مذاهبها لا تلقَ منهم غَيْرَ مرتخص

فأجابه أبو عامر بأبيات منها :

يا جهبذاً قد قال بالرُّخَص القصفُ عندي غايةُ الفُرَصِ
مع ماجدٍ حلوٍ شمائلُهُ ذي حُنْكَةٍ للهو[1] والقنص
فإذا مضتْ للفطرِ ثانيةٌ أرسلتُ خيلَ اللهو للقنص
فجرت لدى الميدان جامحةً وجريتُ في لَبَبٍ من الرخص
في مجلسٍ قد طاب مجلسُهُ خالٍ من التكدير والنَّغص

الأديب أبو الوليد اسماعيل بن محمد الملقب بحبيب[2] :

كان سديدَ سهمِ المقال ، بعيدَ شأو الرويّة والارتجال ، والأديب

---

١ م : باللهو .

٢ أبو الوليد اسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب . الملقب بحبيب ، وقال ابن الابار إن أباه كان يلقب بذلك . توفي في حدود ٤٤٠ وهو ابن اثنتين وعشرين سنة (وقال ابن سعيد : ابن تسع وعشرين سنة) ؛ وذهب ابن سعيد إلى أن المعتضد هو الذي قتله ، وكانَ له أخ اسمه محمد بن محمد بن عامر وهو شيخ أبي بكر ابن العربي ؛ وكانت لأبيه قدم في الرياسة عند المعتضد كما أشار ابن بسام في هذا الجزء . (انظر الجذوة . ١٥٢ والبغية رقم : ٥٣٤ والتكملة : ١٨٠ والمغرب ١ : ٢٤٥ والنفح : ٣ : ٤٢٧ والمسالك ١١ : ٢١٥) ؛ وكتابه « البديع في فصل الربيع » نشر بتحقيق هنري بيريس ، الرباط : ١٩٤٠ .

أبو جعفر بن الأبار هو الذي أقام قناتَهُ ، وصقل – زعموا – مرآتَهُ ، فأطلعه شهاباً ثاقباً ، وسلك به إلى فنون الآداب طريقاً لاحبا ، ولو تحاماه صَرْفُ الدهر ، وامتد به قليلاً طَلَقُ العمر ، لسدّ طريق الصباح ، وغبّر في وجوه الرياح . توفي ابن اثنتين وعشرين [٢٥ أ] سنة ، فذهب بأكثر ما كان في ذلك الوقت من حسَنة ، وقد أعرب عن ذلك من أمره بأبيات شعر قرأتُها على قبره . وله كتاب سمّاه بـ « **البديع في فصل الربيع** » جمع فيه أشعارَ أهل الأندلس خاصة ، أعرب فيه عن أدبٍ غزير ، وحظٍ من الحفظ موفور ، وقد أخرجتُ من نثره ونظمه ، ما يشهد بغزارة علمه وفهمه .

فصل من نثره

قال في صدر التأليف الموصوف [١] : فصل الربيع آرجُ وأبهج ، وآنس وأنفسُ ، وأبدعُ وأرفعُ ، من أن أحُدَّ حُسْنَ ذاته ، وأعُدَّ بديعَ صفاتِه ، وهو مع سماته الرائقة ، وآلائه الفائقة ، لم يعن بتأليفها أحد ، وما انفرد بتصنيفها [٢] منفرد .

وله فصل من أخرى إلى أبيه [٣] : لما خُلِقَ الربيعُ من أخلاقك الغُرّ ، وسَرَقَ زَهْرَهُ من شيمك الزُّهر ، حَسُنَ في كلّ [٤] عين منظره ، وطاب في كلّ سمع خَبَرُه ، وتاقت النفوسُ إلى الراحة فيه ، ومالت إلى الإشراف

١ البديع ١٠ .
٢ البديع : بتأليفه . . . بتصنيفه .
٣ البديع : ٢٨ – ٢٩ والنفح ٣ . ٤٢٧ والعطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل ص . ٤ .
٤ البديع والعطاء : لكل .

على بعض ما يحتويه . من النور الذي كسا الأرضَ حُللاً ، لا يرى الناظرُ في أثنائها خَللاً . فكأنها نجومٌ نُثِرَتْ على الثرى ، وقد مُلِئَتْ مسكاً وعنبراً ، إن تَنَسَّمْتَها فأرِجَةٌ ، أو توسَّمْتَها فبهجة ، تروقُ العيونَ أجناسها ، وتُحيي النفوسَ أنفاسها :

فالأرضُ في بردةٍ من يانعِ الزَّهَرِ تُزْري إذا قِسْتَها بالوشي والحبرِ[1]
قد أحكمتها أكفُّ المزنِ واكفةً وطرَّزتها بما تَهمي من الدرر
تبرَّجَتْ فَسَبَتْ منَّا العيونَ هوىً وفتنةً بعد طولِ السِّترِ والخفر

فأوجدني سبيلاً إلى إعمال بصري فيها ، لأجلوَ بصيرتي بمحاسنِ نواحيها ، والفصلُ على أن يكملَ أوانُه ، وينصرمَ وقتُهُ وزمانه ، فلا تُخْلِني من من بعضِ التشفّي منه ، لأصْدِرَ نفسي متيقّظَة عنه ، فالنفوس تصدأ كما يصدأ الحديد ، ومن أجمَّها فهو السَّديدُ الرشيد .

وله من أخرى إلى بعض إخوانه[2] : قد علم سيدي أن بمرآه يكملُ جذلي ، ويدنو أملي . وقد نحللتُ محلاً عُنِيَ الجوُّ بتحسينه ، وانفردَ الربيعُ بتحصينه ، فكساهُ حُللاً من الأنوار ، بها ينجلي صدأ البصائر والأبصار ، فمن مكتومٍ[3] يعبقُ مِسْكُه ، ولا يمنعه مَسْكه ، ومن بادٍ يروق مجتلاه ، ويفوق مجتناه ، في مرآه وريّاه ، فتفضّلْ بالخفوفِ نحوي ، وتعجيلِ اللحاقِ بي ، لنجدّدَ من الأنس مغانيَ دَرَسَتْ ، ونفكَّ من السرورِ معانيَ قد أشكلت وألبست[4] ،

---

١ البديع : ٢٩ .
٢ البديع . ٣٠ والعطاء الجزيل : ٤ .
٣ البديع : مكموم .
٤ في النسخ : وأبلست .

ونشكر للربيع[1] ، ما أرانا من البديع .

قال ابن بسام : ووجدت لأبي الوليد هذا رسالةً عارض بها أبا حفص ابن برد في رسالته في تقديم الورد على سائر الأزهار . فخرج فيها أبو الوليد – خروجَ أبي حفص بن برد – على الورد، ودعا إلى البهار، وأسمع سائر الأنوار، فنصبه إماماً، ولولا اشتهار فَضل الورد لكانت لزاماً، وقد اقتضبتُ من الرسالتين قبض فصولٍ، تخفيفاً للتثقيلِ ، وجمعاً للشمل، ومقابلة للشكل، وقدَّمتُ رسالة ابن برد ، على حُكْمِ الإحسان ومقتضى النقد . وهي رقعة خاطب بها ابن جهور[2] ، قال فيها[3] :

أما بعد ، يا سيِّدي ومَنْ أنا أفديه . فانه ذكر بعضُ أهلِ الأدب المتقدمين فيه، وذوي الظرف المعتنين بمُلَحِ معانيه، أنَّ صنوفاً من الرياحين، وأجناساً من أنوار البساتين ، جمعها في بعضِ الأزمنة خاطرٌ خطَرَ بنفوسها . وهاجسٌ هجَسَ في ضمائرها . لم يكن لها بدٌّ من التفاوض فيه والتحاور ، والتحاكم من أجله والتناصف . وأجمعتْ على أن ما ثبت في ذلك من العهد ، ونفَذَ من الحِلْفِ ، ماضٍ على من غاب شخصه . ولم يَنْ منها وقته ، فقام منها قائمها فقال: يا معشرَ الشجر، وعامَّةَ الزَّهَر. إن الله تعالى اللطيف الخبير[4] [٢٥ ب] الذي خلق المخلوقات ، وذرأ البريّاتِ، بايَنَ بين أشكالها وصفاتِها . وباعد بين مِنَحها وأعطياتها . فجعل عبداً وملكاً . وخلق قبيحاً

---

١ ط م د س : الربيع .
٢ هو أبو الوليد ابن جهور ، وفي العطاء الجزيل : ابن جمهور .
٣ البديع : ٥٢ (وابن بسام يوجز في النقل) وانظر أيضاً العطاء الجزيل ١٢٦ – ١٢٧ ونهاية الأرب ١١ : ١٩٦ .
٤ العطاء : إن اللطيف الخبير .

وحسناً . فضّلَ بعضاً على بعض [1] حتى اعتدل بِعَدْلِهِ الكلُّ ، واتّسَقَ على لطف قدرته الجميع . فجعل لكلٍّ واحد منها [2] جمالاً في صورته . ورقّةً في محاسنه. واعتدالاً في قَدِّه ، وعبقاً في نسيمه، ومائيّةً في ديباجته، وقد عطفتْ علينا الأعين. وثنتْ إلينا الأنفس ، وزهتْ بمحضرنا المجالس، حتى سَفَرْنَا بين الأحبّةِ ، ووصلنا أسبابَ القلوب ، وتحمّلنا لطائف الرسائل ، وصيغ فينا القريض ، وركّبَتْ على محاسننا الأعاريض ، فطمح بنا العُجْب . وازدهانا الكبر . وَحَمّلنا تفضيل مَنْ فضلنا ،وإيثارُ مَن آثرنا ، على أن نَسِيْنَا الفِكْرَ في أمرنا ، والتمهيدَ لعواقِبِنا ، والتطييبَ لأخبارنا ، وادعينا الفضلَ بأسره ، والكمالَ بأجمعه ، ولم نعلمْ أنَّ فينا من له المزيّةُ علينا ، ومن هو أولى بالرئاسة منّا ، وهو الورد الذي إنْ بذلنا الإنصافَ من أنفسنا ولم نَسْبَحْ [3] في بَحرِ عمانا ، ولم نَمِلْ مع هوانا ، دِنَّا له ، ودعونا إليه ، فمن لقيه منا حيّاه بالمُلْكِ ، ومن لم يُدْرِكْ زَمَنَ سُلْطانِهِ . ودولة أوانِهِ ، اعتقد ما عُقِدَ عليه ، ولبّى ما دُعِيَ إليه ، فهو الأكرمُ حَسَباً . والأشرفُ زمناً ، إنْ فُقِدَ عَيْنُهُ لم يُفْقَدْ أثره . أو غاب شخصه لم يَغِبْ عَرْفُهُ . وهو أحمر والحمرةُ لون الدم ، والدم صديقُ الروح . وهو كالياقوت المنضّدِ ، في أطباقِ الزبرجد. وعليها [4] فرائد العسجد ، وأما الأشعار فبمحاسنه حَسُنَتْ ، وباعتدال جماله وزِنَتْ .

---

١ البديع والعطاء : فضل على بعض بعضاً

٢ البديع والعطاء : منا .

٣ البديع : نرتكض

٤ العطاء : عليها .

وفي فصل منها : وكان ممن حضر هذا المجلس من رؤساء الأنوار والأزهار ، النرجس الأصفر والبهار . والبنفسجُ والخيريّ النمام[1] . فقال النرجسُ الأصفر : والذي مهّد لي حِجْرَ الثرى ، وأرضعني ثَدْيَ الحيا ، لقد جئت بها أوضحَ من لَبّةِ الصباح ، وأسطعَ من لسان المصباح ، ولقد كنتُ أسيرَ من التعبّد له والشغف به ، والأسفِ على تعاقُبِ الموت دون لقائه ، ما أنحل جسمي ، ومكّن سُقْمي ، وإذ قد أمكن البوحُ بالشكوى ، فقد خفَّ ثِقْلُ البلوى .

ثم قام البنفسج فقال : على الخبير سقطت ، أنا والله المتعبّد له ، والداعي إليه ، المشغوف به ، وكفى ما بوجهي من ندوب ، ولكن في التأسي بك أنس .

ثم قام البهار فقال: لا تنظُرنَّ إلى غضارة منبتي ،ونضارة ورقي[2] ورقّتي ، وانظروا إليّ وقد صرتُ حدقةً باهتةً تشير إليه ، وعيناً شاخصة تندى بكاءً عليه :

ولولا كثرةُ الباكين حولي على إخوانهم لقتلتُ نفسي[3]

ثم قام الخيري[4] فقال : والذي أعطاه الفضلَ دوني ، ومدَّ له بالبيعة يميني ، ما اجترأت قطّ إجلالاً له، واستحياءً منه، على أن أتنفس نهاراً، أو أساعدَ في لذّةٍ صديقاً أو جاراً . فلذلك جعلتُ الليلَ ستراً ، واتخذت جوانحه كِنّاً .

. . . .

١ العطاء : وهو النمام .
٢ د : رونقي .
٣ للخنساء ، ديوانها : ١٥٢
٤ العطاء : الخيري النمام .

فلما استوت آراؤها قالت : إنّ لنا أصحاباً ، وأشكالاً وأتراباً ، لا نلتقي بها في زمن[1] ، ولا نجاورها في وطن ، فهلمّ فلنكتب بذلك عقْداً ينفذُ على الأقاصي والأداني ، فكتبوا رقعةً نُسْختُها : هذا ما تحالفتْ عليه أصنافُ الشجر ، وضروبُ الزهر ، وسميّها وشتويّها ، وربيعيّها وقيظيّها ، حيث ما نَجَمَتْ من وهادٍ[2] أو ربوة ، وتفتّحتْ من قرارةٍ أو حديقة ، عندما راجعت من بصائرها ، وألهمت من مراشدها ، [واعترفتْ بما سلفَ][3] من هفواتها ، وأعطتْ للورد قيادَها ، وملّكتْه أمرَها ، وعرفتْ أنه أميرها المقدَّم لخصاله[4] فيها ، والمؤمّر لسوابقه[5] عليها ، واعتقدت له السّمع والطاعة ، والتزمت له الرقّ والعبوديّة ، وبرئت من كل زهرٍ نازعته نفسه المباهاة[6] له ، والانتزاءَ عليه ، في كلّ وطن ، ومع كلّ زمن ، فانه زهرة قضى عليها لسان الأيام هذا الحلف ، فلتعرف أن إرشادها فيه ، وقيام أمرها به .

وأما رسالة أبي الوليد فخاطب [٢٦ أ] بها المعتضد يومئذ [قال] فيها[7] : فأوّل من رأى ذلك الكتابَ ، وعاينَ الخطاب ، نواوير فصل الربيع التي هي جيرةُ الورد في الوطن ، وصحابتُهُ في الزمن ، ولما قرأته أنكرتْ[8]

---

١ ط م : زمناً في زمن .
٢ العطاء : تلعة .
٣ زيادة من البديع والعطاء الجزيل .
٤ العطاء : بخالصه .
٥ العطاء : بسوابقه .
٦ ط م د س : نازعه المباهاة .
٧ البديع : ٥٨ والعطاء الجزيل : ١٢٧ .
٨ البديع : أكبرت .

ما فيه ؛ وبنت على هدم مبانيه ، ونقض معانيه ؛ وعرّفتِ الوردَ بما عليه ، فيما نسب إليه . من استحقاقه ما لا يستحقه ، واستئهاله ما لا يستأهله . ورأتْ أنّ مخاطبةَ من أخطأ تلك الخطيّة ، وأدنى من نفسه تلك الدنية . تدبيرٌ دَبَريٌ ، ورأيٌ غيرُ مرضي ، فكتبت إلى الأقحوان والخيريّ الأصفر كتاباً قالت فيه : لو استحق الوردُ إمامةً ، واستوجب خلافةً . لبادرَتْها آباؤنا ، ولعقدها أوائلنا . التي لم تزل تجاوره في مكانه . وتجيء معه في أوانه ؛ ولا ندري لأيّ شيءٍ أوْجَبَتْ تقديمه ، ورأت تأهيلَه ، بما غيرُهُ أشكلُ له وأحق به ، وهو نَوْرُ البهار ، البادي فضلَه بُدُوّ النهار ، والذي لم يزل عند علماء الشعراء ، وحكماء البلغاء ، مشبَّهاً بالعيون التي لا يحول نظرها ، ولا يحورُ[1] حَوَرُهَا ، وأفضلُ تشبيهِ الورد بنضرة الخد عند من تشيّعَ فيه ؛ وأشرفُ الحواس العين ، إذ هي على كل مُتَوَلٌّ عينٌ[2] ، وليس الخدُّ حاسةً ، فكيف تبلغه رئاسة ؟ :

أينَ الخدودُ من العيونِ نفاسةً ورئاسةً لولا القياسُ الفاسدُ[3]

وأصح تشبيه الورد وأقربه من الحق قول ابنِ الرومي في الشعرِ الطائي[4] ولقد وافق ووفق . وشبَّه فحقَّق .

.. . .

١ العطاء : لا يجول . . . ولا يحول .

٢ البديع : منول ؛ وفي النسخ : مثول عون ، وآثرت قراءة العطاء الجزيل .

٣ البيت لابن الرومي ، انظر ديوانه ٢ : ٦٤٤ وتشبيهات ابن أبي عون : ١٩٣ وديوان المعاني ٢ : ٢١ وحلبة الكميت : ٢٠٢ ؛ وعند هذا البيت ينتهي ما جاء من هذه الرسالة في العطاء الجزيل .

٤ يشير إلى قول ابن الرومي في هجاء الورد (حلبة الكميت : ٢١١) :

وقائل لم هجوت الورد معتمداً فقلت من قبحه عندي ومن سخطه

كأنه سرم بغل حين يخرجه عند البراز وباقي الروث في وسطه

وطوّل أبو الوليد في رسالته هذه ، وختمها بمبايعة الأزهار للبهار .
فرجعتْ عن تقديم الورد في خبرٍ طويل .

ومن شعر أبي الوليد في أوصاف شتى

قال يصف ورداً بعث به إلى أبيه [1] :

يا من تأزّرَ بالمكارم وارتدى ... بالمجد والفضل الرفيع الفائقِ
انظر إلى خدّ الربيع مركّباً ... في وجه هذا المهرجان الرائق
وردٌ تقدّم إذ تأخّر واغتدى ... في الحُسْنِ والإحسانِ أول سابق
وافاك مشتملاً بثوب حيائه ... خجلاً لأنْ حيّاكَ آخر لاحق

وقال فيه [2] :

إنما الوردُ في ذُرَى شَجَراتِهْ ... كأجلّ الملوك في هيئاتِهْ
نفحة المسكِ من شذا نَفَحاته ... خَجَلُ الخدّ من سنا خَجَلاته
مُزِجَتْ حمرةُ اليواقيت بالدرّ ... فجاءَت به على حَسْبِ ذاته
مثل ما جاءَ من سماحٍ وبأس ... خُلُقُ الحميريّ سُمُّ عداته
إن يَعِدْ فالوفاءُ حَتْمٌ عليه ... فَرْضُهُ في صِلاتِهِ كَصَلاته

وقال [3] :

. ...

١ البديع : ١٢٨ ونفح الطيب ٣ : ٤٢٨ .
٢ البديع : ١٢٩ .
٣ البديع : ١٥٥ والمسالك ١١ : ٢١٥ والنفح ٣ : ٤٢٨ .

أتى[1] الباقلاءُ الباقلُ اللونِ لابساً   لبردِ[2] سماءٍ من سحائبها غذي
ترى نَوْرَهُ يلتاحُ في وَرَقاتِهِ   كَبُلْقٍ جيادٍ في جِلالِ زمرّذِ

وقال[3] :

كأن نَوْرَ الكَتّانِ حين بدا   وقد جلا حُسْنُهُ صدا الأنفُسْ
أكفُّ فيروزجٍ معاصِمُهَا   قدستَرَتْهُنَّ خُضْرَةُ الملبس[٢٦ب]
أو لا فَزُرْقُ الياقوتِ قد وُضِعَتْ   على بساطٍ يروقُ من سُنْدُسْ

وقال[4] :

وقهوة لا يحدّها مُبْصِرْ   رقّتْ وراقتْ في أعين النّظَّرْ
إذا دنت فالسرورُ مبتسمٌ . وان نأتْ فالسرورُ مستعبر
كأنها والحبابُ يحجبها   بحرٌ من التبر يقذفُ الجوهر
غنيتُ عنها فلستُ أقربها   بناظرٍ منه يَسْكَرُ المسكر

وبيته الثالث في هذه من التشبيه الذي ما له من شبيه ، وأما بيته الأخير منها فمن قول ذي الرمّة[5] :

وعينان قال الله كونا فكانتا   فَعولانِ بالألباب ما تفعلُ الخمرُ

وزاد أبو الوليد زيادة حسنةً : لم يقنع أن يفعل ناظره فعلَ الخمر حتى أسكرها منه . وقال :

. . . .

١ البديع : أرى .
٢ البديع : برود .
٣ البديع : ١٥٧ والمسالك نفسه .
٤ منها بيتان في المسالك .
٥ ديوان ذي الرمة : ٤٧٨ .

وكأسٍ لها كَيْسٌ على اللبِّ والعقلِ شمولٍ تريكَ الأنسَ مجتمعَ الشَّملِ
كأنَّ حَبابَ الماءِ في جَنَبَاتها دروعُ لُجيْنٍ قد جلَتْها يدُ الصقل
تزيدُ ذوي الألبابِ فضلاً ولم تزل تُديلُ بطبع الجودِ من طَبَعِ البخل
غنيتُ بمن أهواه عن نشواتها فمن طَرْفِهِ خمري ومن ريقه نُقلي

وقال :

حِمامٌ بلحظلك قد حُمَّ لي فما زال يهدي إلى مقتلي
وان لم تُغثْني بمعنى الحياة من ريق مبسمك السلسل
فها أنا قاضٍ بداءِ الهوى وقاضي جمالِكَ لم يَعْدِلِ
فيا ليْتَ قبريَ حيثُ الهوى فأكرمْ بذلك من منزل
عسى مَنْ تَلِفْتُ بحبي له يرقُّ على ذي بلاءٍ بُلِي
فان جاد بالوصل بعد الوفاةِ رجعتُ إلى عيشيَ الأوَّل
فيا صاحبيَّ هناك احفرا ولا تحفرا لي بقطربُّل
إذا ما أدرت[1] كؤوسَ الهوى ففي شربها لست بالمؤتلي[2]
مُدامٌ تُعتَّقُ بالناظرين وتلك تعتَّقُ بالأرْجُلِ

وهذا البيت مما أغربَ به على الألباب ، وأعرب فيه عن موضعه من الصواب ، وبينه وبين قول أبي الطيب شبه بعيد ، ولكن لأبي الوليد فضلُ التوليد ، وَحُسْنٌ من النقل ليس عليه مزيد ، وهو قوله[3] :

١ د : أردت ؛ ط س : رأيت .
٢ هذا البيت والذي يليه في المغرب ١ : ٢٤٥ ورايات المبرزين ٣٩ (١١ غ) والنفح والمسالك
٣ ديوان المتنبي : ٣٣٠ .

انظر إذا اختلفَ السيفانِ في رَهَج إلى اختلافهما في الخلقِ والعملِ
هذا أعِدّ[1] لريب الدهر منصلتاً وَعُدَّ ذاك[2] لرأس الفارس البطل

وقال الآخر وإن لم يكن به :

بالهند تُطْبَعُ أسيافُ الحديد وفي بغداد تُطْبَعُ أسيافٌ من الحدقِ

الأديب أبو جعفر أحمد بن الأبار[3]

أحد شعراء المعتضد المحسنين المتقنين [٢٧ أ] انتحل الشعر فافتنَّ وتصرف، وعُنِيَ بالعلم فجمع وصنَّف، وله في صناعة النظم فضلٌ لا يُرَدّ، وإحسانٌ لا يعدّ، وقد كتبتُ طرَفاً مما أبدع، ليكونَ أعدلَ شاهدٍ على أنه تقدَّمَ وبرعَ .

ما أخرجته من شعره في أوصاف شتى

قال[4] :

لم تدرِ ما خلَّدَتْ عيناك في خلدي من الغرامِ ولا ما كابدتْ كبدي

---

١ الديوان : هذا المعد .
٢ الديوان : أعد هذا .
٣ هو أحمد بن محمد الخولاني الاشبيلي (- ٤٣٣) ، كان كثير الشعر (انظر ترجمته في ابن خلكان ١ : ١٤١ والجذوة : ١٠٧ وبغية الملتمس رقم : ٣٦٤ والمغرب ١ : ٢٤٣ والمسالك ١١ : ٤١٨ والوافي ٨ : ١٣٧ وله أشعار في النفح والبديع في فصل الربيع) .
٤ انظر الوافي ٨ : ١٣٧ ومنها بيتان في المسالك .

أفديك[1] من زائرٍ رام الدنوَّ فلم يَسْطِعْهُ من غرق في الدَّمعِ متّقد
خاف العيونَ فوافاني على عَجَلٍ معطَّلاً جيدُهُ إلاّ مِنَ الغَيَدِ[2]
عاطيته الكأسَ فاستحيتْ مُدامتها من ذلك الشَّنَبِ المعسولِ بالبردِ[3]
حتّى إذا غازلتْ أجفانَهُ سِنَةٌ وصيّرتْهُ يدُ الصبهاءِ طَوْعَ يدي
أردت توسيدهُ خدّي وقلَّ له فقال كفُّكَ عندي أفضلُ الوُسُدِ
فبات في حَرَمٍ لا غَدْرَ يذعَرُهُ وبتُّ ظمآنَ لم أصدُرْ ولم أرِدِ
بدرٌ ألمَّ وبدرُ التّمّ ممتحقٌ والأفقُ محلولِكُ الأرجاءِ من حسد
تحيرَّ الليلُ فيه أين مطلعه أما درى الليلُ أنّ البدرَ في عضدي

قال ابن بسام : وقد رأيت من يروي هذه القطعة لادريس بن اليماني[4] ، وهو الأشبه بما له من الألفاظ والمعاني ، وهي لمن كانت له متهما رائقة ، ومتأخرة سابقة ، في التزام العفاف مع السلاف ؛ وما سمعت بأبدع منها لأحدٍ من أهل هذا الأفق . وإنما أثبت هنا بعضَ مقطوعاتٍ في معناها لأهل المشرق ثم أعودُ لإيراد مُلَحِ أهل أفقنا ، وأرتجع إليها وأكرُّ بعدُ عليها ، وأقدّمُ أولاً الحديث : « من أحبَّ فعفَّ ومات فهو شهيد » ؛ والعفافُ مع البذل كالاستطاعةِ مع الفعل ، ولله درُّ صريعِ الغواني ، فهو صاحب بديع في أكثر المعاني ، كقوله :

ألا ربّ يوم : صادق العيش نلتُهُ بها ونداماي العفافة والبذلُ[5]

---

١ الوافي : أفديه .
٢ الوافي : الجيد .
٣ الوافي : والبرد .
٤ روى ابن بسام منها بيتين لادريس في الذخيرة ١ : ٨٧ .
٥ زهر الآداب : ٧٢٧ وديوان صريع الغواني : ٩١ .

وقال الآخر[1] :

وبتنا فويقَ الحيِّ لا نحن منهمُ ولا نحن بالأعداءِ مختلطانِ
وباتَ يقينا ساقطَ الطلِّ والندى من الليل بُرْدا يمنةٍ[2] عطران
نعدّي بذكرِ الله في ذاتِ بيننا إذا كان قلبانا بنا يردان
ونصدر عن ريِّ العفاف وربما نقعنا غليلَ النفسِ بالرشفان

وقال الصمة القشيري[3] :

بنفسيَ من لو مرَّ بَرْدُ بنانه على كبدي كانت شفاءً أناملُهْ
ومن هابني في كلِّ شيء وَهِبْتُهُ فلا هو يبداني ولا أنا سائله

وقال القَسُّ المكي[4] :

أهابكِ أن أقولَ بذَلْتُ[5] نفسي ولو أني أطعتُ القلبَ قالا [٢٧ ب]
حياءً منك حتى سُلَّ جسمي وشَقَّ عليَّ كتماني وطالا

وقال العباس بن الأحنف[6] :

أتأذنون لصبٍ في زيارتِكُم فعندكم شهواتُ السَّمعِ والبصرِ
لا يضمرُ السوءَ إن طالتْ إقامته عفُّ الضميرِ ولكنْ فاسقُ النظر

---

١ انظر الزهرة : ٦٦ .
٢ ط د : ديمة .
٣ هما ليزيد به الطثرية في ابن خلكان ٦ : ٣٦٩ والأغاني ٨ : ١٦٤ .
٤ الأغاني ٨ : ٣٣٧ .
٥ ط د م س : بذات .
٦ زهر الآداب : ٧٢٧ والزهرة : ٦٧ وديوانه : ١٤٧ .

ولبعض الطالبيين [1] :

رَمَوْني وإياها بشنعاءَ هم بها أحقُّ أدالَ الله منهمْ وعجّلا
بأمرٍ تركناه وربِّ محمدٍ جميعاً فإما عفّةً أو تجمّلا

وقال سعيد بن حميد [2] :

زائرٌ زارنا على غير وَعْدٍ مُخْطَفُ الكَشْحِ مُثْقِلُ الأردافِ
غالَبَ الخوفَ حين غالبه الشو قُ وأخفى الهوى وليس بخاف
غضّ طرفي عنه تقى الله واخترْ تُ على بذله بقاءَ التصافي
ثم ولّى والخوفُ قد هزّ عطفيه ولم نخلُ من لباسِ العفاف

وأنشد الصولي لأبي حاتم السجستاني في أبي العباس المبرّد ، وكان يلزم حلقته ، وهو غلام وسيم [3] :

ماذا لقيتُ اليومَ من متمجّنٍ خَنِثِ الكلامِ
وَقَفَ الجمالُ بوجهه فَسَمَتْ له حَدَقُ الأنام
حركاتُهُ وسكُوُنُهُ تُجْنَى بها ثَمَرُ الأثام
وإذا خلوتُ بمثْلِهِ وعزمتُ فيه على اعتزام
لم أعْدُ أفعالَ العفا ف وذاك أكرمُ للغرام
نفسي فداؤك يا أبا ال عباس حلّ بك اعتصامي
فارحم أخاك فإنّهُ نَزْرُ الكرى بادي السّقام
وأنِلْهُ ما دون الحرا م فليس يطمعُ في الحرام

---

١ زهر الآداب : ٧٢٧ والروض المعطار (بيروت ١٩٧٥) : ١٩٤ .
٢ زهر الآداب : ٧٢٧ .
٣ متابع لزهر الآداب ٠ ٧٢٧

وكان أبو حاتم يتصدق كلَّ يوم بدينار ، ويختم القرآن في كل أسبوع .

واجتمع [1] أبو العباس بن سريج الشافعي وأبو بكر بن داود القياسيّ في مجلس الوزير ابن الجراح فتناظرا في الايلاء ، فقال له ابن سريج : أنت بقولك «مَنْ كثُرَتْ لحظاته، دامت حسَرَاته»، أبصر منك بالكلام في الإيلاء؛ فقال أبو بكر : لئن قلتَ ذلك فاني أقول :

أنَزِّهُ في روضِ المحاسنِ مقلتي ... وأمنعُ نفسي أن تنالَ محرَّما
وأحملُ من ثِقْلِ الهوى ما لو انَّه ... يُصَبُّ على الصخرِ الأصمّ تهدَّما
وينظر طرفي عن مترجمِ خاطري ... فلولا اختلاسي ردَّه لتكلما
رأيتُ الهوى دعوى من الناس كلِّهم ... فلستُ أرى حبّاً صحيحاً مسلّما

فقال أبو العباس : لم تفتخر [2] عليّ . ولو شئت أنا أيضاً لقلت : [٢٨ أ]

ومطاعمٍ للشّهدِ من نَفَثاتِهِ ... قد بتُّ أمنعه لذيذَ سِناتِهِ
ضنّاً بحسنِ حديثه وكلامه ... وأكرّرُ اللحظاتِ في وجناته
حتّى إذا ما الصبحُ لاح عمودُهُ ... ولّى بخاتم ربّه وبَرَاته [3]

فقال أبو بكر : يُحفَظُ عليه ما قال ، حتى يقيم عليه شاهدي عدل أنّه ولّى بخاتم ربّه ، قال أبو العباس : يلزمني في ذلك ما يلزمك في قولك :

أنَزِّهُ في روض المحاسن مقلتي . . . البيت .

---

١ متابع لزهر الآداب : ٧٢٨ وانظر ابن خلكان ٤ : ٢٦٠ والوافي ٣ : ٥٨ ومصارع العشاق ٢ : ١٣٧ .

٢ ط : تفخر .

٣ وبراته : مخفف من « وبراءته » .

فضحك الوزير ابن الجراح ، وقال : لقد جمعتما ظرفاً ولطفاً وفهماً وعلماً .

وقال الشريف الرضي [1] :

بتنا ضجيعين في ثَوْبَيْ هوىً وتقىً يلفُّنا الشوقُ من فَرْنٍ إلى قَدَمِ

وبات بارقُ ذاك الثغرِ يوضِحُ لي مواقعَ اللثمِ في داجٍ من الظلَم

وباتت الريحُ كالغَيْرى تجاذبنا على الكثيب فُضولَ الرَّيْطِ واللمم

يُوَلِّعُ الطلُّ بُرْدَينا وقد نَسَمَتْ رُوَيْحَةُ الفجرِ بين الضَّال والسلم

وأكتم الصبحَ عنها وهي غافلةٌ حتى تكلَّم عصفورٌ على علم

فقمتُ أنفض بُرداً ما تَعَلَّقَهُ غيرُ العفاف وراءَ الغيب والكرم

وقال المتنبي [2] :

وأشنبَ معسولِ الثنيّاتِ واضحٍ سترتُ فمي عنه فقبَّل مفرقي

وأجياد غزلان كجيدك زرنني فلم أتبيَّنْ عاطلاً من مطوَّق

وقال :

يردُّ يداً عن ثوبها وهو قادرٌ ويعصي الهوى في طَيْفها وهو راقدُ

وهذا المعنى في شعرهم أكثر من أن يحصى .

وأثبتُ هنا أيضاً مقطوعاتِ أبيات لغير واحد ممَّن تقدم ابن الأبار في

١ ديوان الرضي ٢ : ٢٧٤ .

٢ ديوان المتنبي : ٣٣٥ ، ٣١٠ .

ذكر العفاف ، ثم أعود بعد إلى ما له من الأشعار في سائر الاوصاف :

قال الرمادي [1] :

وليلةٍ راقبتُ فيها الهوى ... على رقيبٍ غيرِ وسنانِ
والراحُ ما تنزل من راحتي ... وقتاً ومن راحة ندماني
وربَّ يومٍ قَيْظُهُ منضجٌ ... كأنَّه أحشاءُ ظمآن
أبرزَ في خدَّيه لي رشحه ... طَلّاً على وردٍ وسوسان
وكان في تحليلِ أزرارِهِ ... أقوَدَ لي من ألفِ شيطان
فُتِّحَتِ الجنّةُ من جيبه ... فبتُّ في دعوةِ رضوان
مروّةٌ في الحبّ تنهى بأنْ ... يجاهرَ اللهُ بعصيان

وقال من أخرى :

ليالِيَ بعتُ العاذلين إمامتي ... بفتكي وولَّيْتُ الوشاة أذاني
وإذ لِيَ ندمانان : ساقٍ وقينةٌ ... رشيقانِ بالأرواحِ يمتزجان
أمدُّ إلى الطاووس في تارةٍ يدي ... وفي تارةٍ آوي إلى الورشان
وكنت أديرُ الكأسَ حتى أراهما ... يميلان من سُكْرٍ ويعتدلان [٢٨ب]
فكانا بما في الجسم من رقّةِ الضنى ... يكادان عند الضمّ يلتقيان
ونفضي إلى نوم فان كنتَ جاهلاً ... مكاني فوسطى العِقْدِ كان مكاني
فلو تبصرُ المضنى وبدراهُ حوله ... لقلتَ السُّها من حولهِ القمران
وما بِيَ فخرٌ بالفجورِ وإنّما ... نصيبُ فجوري الرشفُ والشفتان

وقال الحصري الكفيف :

[1] أبيات الرمادي في المطرب : ٣ — ٤ .

قالت وهبتك مهجتي فتَخُذِ ودعِ الفراشَ ونم على فخذي
وثنتْ إلى مثلِ الكثيب يدي فأجبتها نعم الأريكةُ ذي
وهممتُ لكن قال لي أدبي بالله من شيطانها استعذِ
قالت : عففتَ فَعفتَ ، قلت لها مُذْ شِبْتُ باللذاتِ لم ألُذِ

ولابن فرج الجياني [1] :

وطائعةِ الوصال عَفَفْتُ [2] عنها وما الشيطانُ فيها بالمطاعِ
بدتْ في الليلِ سافرةً فباتت دياجي الليل سافرةَ القناع
وما من لحظةٍ إلاّ وفيها إلى فِتَنِ القلوبِ لها دواعي
فملكْتُ الهوى جَمَحاتِ شوقي لأجريَ في العفافِ على طباعي
وبتُّ بها مبيتَ الطفلِ [3] يظما فيمنعه الفطامُ عنِ الرّضاع
كذاك الروضُ ما فيه لمثلي سوى نظرٍ وشمٍّ من متاع
ولستُ من السّوائم مهملاتٍ فأتّخذَ الرياضَ من المراعي

قال ابن بسام : وابن فرج هذا ممن تقدمني [4] في نشرِ محاسنِ أهلِ هذه الجزيرة، وإظهارِ خبايا فضائلهم المشهورة، فعارض كتاب « الزهرة » للأصبهاني بتصنيف رائق ترجمه بـ « **كتاب الحدائق** » ، فان لا يكن سبق بالزمان . فلقد زاحم بالاحسان . وله شعر مشهور له فيه إحسان كثير كقوله . وهو من مليح الوصف في العفاف عن الطيف [5] :

---

١ هو أبو عمر أحمد بن فرج الجياني صاحب كتاب الحدائق، وأبياته في الجذوة: ٩٧ والمطمح: ٨٠ والشريشي ١ : ٢١١ والمغرب ٢ : ٥٦ والنفح ٣: ١٩١ ، ٤٣٧ واليتيمة ٢: ١٧.
٢ في أصل ط : غدوت .
٣ في أصل ط : السقم ؛ وفي الحاشية : السغب .
٤ م ط : أمتي .
٥ انظر هذه القطعة في المصادر المذكورة سابقاً .

بأيّهما أنا في الحبِّ بادِ | بشكر الطيف أم شكرِ الرقادِ
سرى فازداد بي أملي ولكنْ | عففتُ فلم أنلْ منه مرادي
وما في النّوم من حَرَجٍ ولكنْ | جريتُ من العفاف على اعتيادي

أخذه من قول المتنبي :

« يردُّ يداً عن ثوبها وهو قادر . . . البيت »

كأنه لما عف في اليقظة جرى على عادته في النوم .

ولابن الأبار في هذا عدة أشعار ، منها قوله :

ومعرّضٍ بالغُصْنِ في حركاته | تَسَلُ[1] القلوبُ العفوَ من لحظاتهِ
عاطيتُهُ كأساً كأنَّ سُلافها | من ريقهِ المعسول أو وَجَنَاته
حتّى إذا ما السكرُ مال بِعِطْفِهِ | وعنا بحكم الوصلِ في نَشَوَاته
هصرتْ يدي منه بغصنٍ ناعم | لم أجنِ غيرَ الحِلِّ من ثمراته[٢٩ أ]
وأطعتُ سلطانَ العفافِ تَكَرّماً | والمرءُ مجبولٌ على عاداته

وقال[2] :

ومنعّمٍ غضِّ القطافْ | عذبِ الغروب للارتشافْ
قد صِيْغَ منْ دُرِّ الجما | لِ وَصِيْنَ في صَدَفِ العفاف.
وسقته أنديةُ[3] الشبا | بِ بمائها حتّى أنافْ
فترَوَّضَتْ عنه الريا | ضُ وَسُلِّفَتْ منه السُّلاف

١ تسل : مخفف من « تسأل » .
٢ انظر المسالك ١١ . ٤١٨ – ٤١٩ .
٣ المسالك : أيام .

مهما أردتُ وفاقَهُ يوماً تعرَّضَ للخلاف
لمَّا تصدَّى للصدو دِ ومال نحو الإنحراف
هيَّأتُ من شَرَكي له فِعْلَ اللطافِ من الظِّراف
فَسَقَيْتُهُ ماءً بها وأدرتُ صافيةً بصاف
حتى تَرَنَّحَ مائلاً[1] كالغصنِ مال به انعطاف
فوردتُ جَنَّةَ نحره[2] ونعيمُها داني القطاف
وضممتُ ناعمَ عِطْفِهِ ضمَّ المضاف إلى المضاف
فورعتُ في حين الجنَى[3] وكففتُ عن فوقِ الكفاف
وعصيتُ سلطانَ الهوى وأطعتُ سلطان العفاف

وما أملح هذه الملح ، وما أقبح ما أنشدت في ضدّها لعبد الجليل ، حيث يقول :

تعرَّض لي ليسقطَ في حبالي سقوطَ تعمّدٍ شبهِ اتفاقِ
وبات على المدامة لي نديماً وبين جفونه للغُنْجِ ساقي
إلى أن مال من سِنَةِ الحميّا وقام الليلُ ممدودَ الرّواق
وحلَّ معاقدَ الهميانِ عنه بِسُبْطٍ كان يعقدها رقاق
وصار على كرامتِهِ بساطاً وَلُفَّتْ بيننا ساق بساق

وبعده ما أضربت عنه ، وَصُنْتُ كتابي منه .

. . . .

١ د : قده .
٢ المسالك : خده .
٣ المسالك . حتى في الخنا (اقرأ : الجنى) .

وأنشدني أبو بكر الداني [1] لنفسه :

أتوبُ لله من هوى رشأ غيَّرَهُ بالعطاءِ مَنْ غيَّرْ
ليس معي خاتمٌ ولا فَتَكٌ ولا شرابٌ إناؤه عنبر
وإنما كان شَرْطه قدحاً وكان شرطي عليه أن يسكر

وممَّن رأيته أولع بهذه الأوصاف وشغف، وصرف فيها الكلام فتصرف، الأديب أبو القاسم المعروف بالمنيشي الاشبيلي [2] ، أنشدني لنفسه من جملة قصيدة [3] :

وعجزاءَ حوراءَ [4] وَفْقَ الهوى تحيَّرتُ فيها وفي أمرها
غلاميّةٌ ليْسَ في جِسْمِها مكانٌ دقيقٌ سوى خصرها
إذا أدبَرَتْ أوْ إذا أقْبَلَتْ ففي فَرِّها الموتُ أو كرِّها
ولما خلونا ورقَّ الكلامُ دفعتُ بكفّيَ في صدرها [٢٩ب]
ومن لا أسمّيْه مثلُ القناةِ فألقتْ ذراعاً على عشرها
فما زلتُ أجمعُ طعناً وضرباً على زيدها وعلى عَمْرِها
وصارفتها العينَ هذا بذاك وقد شدّتِ السوقَ من أزرها
فأعطيتها المحضَ من فضّتي وأعطتنيَ المحضَ من تبرها

قوله : « ولما خلونا ورقَّ الكلام » ، من قول امرىء القيس [5] :

١ هو ابن اللبانة ، وترجمته في القسم الثالث : ٦٦٦ .
٢ هو المعروف بعصا الأعمى لأنه كان يقود الأعمى التطيلي (انظر ترجمته في المطمح : ٨٨ والمغرب ١ : ٢٨٩ والرايات : ٢٣ غ) وأبياته قد وردت في المغرب ١ : ٢٩٠ .
٣ عند هذا الحد ينتهي الخرم في النسخة م .
٤ المغرب : لفاء .
٥ ديوان امرىء القيس : ٢٢ .

وصرنا إلى الحسنى ورقَّ كلامنا   ورضتُ فذلَّتْ صعبةً أي إذلالِ

وأخذه الآخر فقال[1] يصف كتاباً :

وفيه الوصلُ يُشْرِقُ جانباه   وقد رقَّ التشكّي والخطابُ

وقال ابن الرومي :

كادتْ لعرفانِ النّوى ألفاظُها   من رقّةِ الشكوى تكونُ دموعا

وقوله : « غلامية » . . . البيت ، معنىً كثُر ترداده ، وطال منهم تعمّده واعتماده ، وأرى أيضاً أن أوّلَ من أشار إليه ونبّه عليه الملكُ الضليل، حيث يقول :

متى ما تَرَقَّ العينُ فيه تَسَهَّلِ . . . البيت

غير أنه أورده مُقَلَّصَ الذيل ، بهيم الليل ، وقد بيّنه بقوله :

* له أيطلا ظبي وساقا نعامةٍ *

ثم نقله الشعراء بعدُ كلٌّ على مقدار ما أوتي من البيان ، ووهب من الإحسان ، فقال الاعرابي[2] :

عُقَيْلِيَّةٌ ، أمّا مَلاثُ إزارِها   فَدِعْصٌ وأمّا خَصْرُها فَبَتيلُ

وقال الآخر[3] :

---

١ فقال : سقطت من م .

٢ البيت من قصيدة لابن الطثرية في وفيات الأعيان ٦ : ٣٦٨ والحماسية رقم : ٥٤١٠ وزهر الآداب: ٨٥٤ وقيل لأبي كبير الهذلي، وأدرجت في ديوان ابن الدمينة : ١٨٦ وخرجها محقق الديوان ص : ٢٥٦ .

٣ هو الحكم الخضري ، انظر الأغاني ٢ : ٢٥٠ .

تساهمَ ثوباها ففي الدرعِ رادَةٌ وفي المرطِ لفّاوانِ رِدْفُهُما عَبْل

وقال ابن أبي ربيعة[1] :

خَوْدٌ وقيرٌ نصفها ونصفها مهفهفُ

ونسخه أبو تمام فقال[2] :

تشكّى الأينَ من نصفٍ سريعٍ إذا قامت ومن نصفٍ بطيّ

وقال الأخطل[3] :

أسيلهُ مجرى الدمعِ أمّا وشاحها فيجري وأما القُلْبُ[4] منها فلا يجري

وهذا كقول خالد بن يزيد[5] :

تجولُ خلاخيلُ النساءِ ولا أرى لرملةَ خلخالاً يجولُ ولا قُلْبا

ومدحهم بضمور الكَشْحِ، وجولان الوُشُحِ، وصموتِ القُلْبِ والخلخال، وامتناع الخدام من الحجال، كثير، ومنه قول النابغة[6] :

على أن حِجْلَيْها وان قلتُ أوسعا صموتان من ملءٍ وقلّةِ منطقِ

وقال الطائي[7] :

١ ديوان ابن أبي ربيعة : ٢٥٢ .

٢ ديوان أبي تمام ٣ : ٣٥٢ .

٣ ديوان الأخطل : ١٢٩ .

٤ الديوان : الحجل .

٥ زهر الآداب : ٣٩٣ ووفيات الأعيان ٢ . ٢٢٤ .

٦ زهر الآداب : ٣٩٣ وديوان النابغة : ١٨٤ .

٧ زهر الآداب : ٣٩٣ وديوان أبي تمام ٣ : ١١٥ .

من الهيف لو أنّ الخلاخيلَ صُيِّرَت   لها وُشُحاً جالَتْ عليها الخلاخلُ

وقال ابن أبي زرعة[1] : [٣٠أ]

استَكْتَمَتْ خلخالَها وَمَشَتْ   تحتَ الظلام به فما نَطَقَا
حتى إذا ريح الصبا نسمت   ملأ العبيرُ بِنَشْرِهَا الطرقا

وقال المتنبي[2] :

وخصرٍ تثبتُ الأبصارُ فيه   كأنّ عليه من حَدَقٍ نطاقا

وقلبه الناجمُ فقال[3] :

مسلولة الكلّ غيرَ بطنٍ   مثقّلٍ فهي عنكبوتُ
حجولها الدهرَ في اصطخابٍ   وَوُشْحُها كُظَّمٌ صمُوتُ

وما أحسنَ قولَ القائل فانه تركَ اللفظ المطروق ، واختصر على كافة الشعراء الطريق[4] :

أبت الروادفُ والثديُّ لِقُمْصِهَا   مَسَّ البطونِ وأن تَمسَّ ظهورا
وإذا الرياحُ مع العشيِّ تناوحتْ   نَبَّهْنَ حاسدةً وَهِجْنَ غَيورا

وَحَسَّنه بعضُ أهل أفقنا فقال[5] :

إن العزيزَ عليَّ خَصْرُكِ إنه   بالردفِ حُمِّلَ منكِ ما لا يُحْمَلُ

١ زهر الآداب : ٣٩٣ والمختار : ٩٨ .
٢ زهر الآداب : ٣٩٤ وديوان المتنبي : ٢٧٩ .
٣ زهر الآداب : ٣٩٤ .
٤ أمالي القالي ١ : ٢٣ .
٥ هو النحلي ، الذخيرة ١ : ٣٨٤ .

وإنما أخذه من قول المتنبي [1] :

أعارني سُقْمَ عينيه وحمّلني ... من الهوى ثِقْلَ ما تحوي مآزرُهُ

قال ابن بسّام : وهذا الباب واسع الميدان ، ملتفُّ الأغصان ، وإنما ألمع من كلّ معنى بيسير ، وأثيرُ حصاةً من ثبير .

وقول أبي القاسم المذكور : « على زيدها وعلى عمرها » من الكنايات المختارة ، والسامع يفهم الاشارة ، وإنما نَبّهتُهُ على هذا التعريض، وأرتْه كيف يأخذُ في هذه العَروضِ ، إحدى من جَاهَرتْ بالصّبْوةِ ، وتجاوزت طَلَقَ الجَمُوحِ في ميدان الشهوة فقالت : إنْ ضَمّ قَضْقَض ، وإن دَسَر أغمض ، وإن أخلّ أحمض .

وقال أبو القاسم من أخرى [2] :

وخشفيّةِ الألحاظِ والجيدِ والحشا ... ولكن لها فضلُ القبولِ على الخشفِ
تثنّى على مثل العنان إذا التوى [3] ... وقد عقدوها للفسوقِ على النصف
وليس كما قال الجهول تقَسّمَتْ ... فبعضٌ إلى غُصْنٍ وبعضٌ إلى حِقْفِ

ومنها :

سعت في سبيلِ الفتكِ [4] والفتكُ بيننا ... إشارةُ لحظٍ تنسخُ [5] النُكْرَ بالعُرفِ

---

١ ديوان المتنبي : ٣٦ .
٢ انظر المغرب ١ : ٢٩٠ .
٣ المغرب : إذا انثنى .
٤ المغرب : المتك .
٥ المغرب : تخلط .

ومنها :

وما شئتَ من عضّ الحليّ ورضّهِ وماشئتَ من صكّ الخلاخل والشنف

قوله : « خشفية الألحاظ » معنى مشهور ، ومنه قول مجنون بني عامر [1] :

أيا شبهَ ليلى لا تراعي فانني لكِ اليومَ من وحشيّةٍ لصديقُ

وقوله : « وما شئت من عض الحلي » . . . البيت ، كقول الآخر :

باعتناقٍ يذوبُ منه حَصَى اليا قوتِ ضمّاً وتطمئنُّ النهودُ

وقال أبو بكر الداني :

ضممتها ضمَّ مشتاقٍ إلى كبدي حتى توهّمتُ أنّ الحَلْيَ ينكسِرُ

[٣٠ ب] وقال ابن عمار :

ضمّاً ولثماً يغني الحليُ بينهما كما تَجاوَبُ أطيارٌ بأطيارِ

وقوله : « وما شئت من صكّ الخلاخل بالشنف » فانه صكٌّ به وَجْهَ بعضِ أهل عصرنا [2] حيث يقول :

* وجمعت بين القرط والخلخالِ *

ومن مجون ابن الأبار قوله مما يضارع ما تقدّم [3] :

زارني خيفةَ الرقيب مُريبا يتشكّى القضيبُ منه الكثيبا

---

١ ديوان المجنون : ٢٠٦ .

٢ هو صالح الشنتمري ، كما سيجيء في ترجمته .

٣ انظر المسالك : ٤١٩ والفوات ٣ : ٤٠٦ والنفح ٣ : ٤٧ ومعاهد التنصيص ١ : ٩٥-٩٦.

رشأٌ راش لي سهامَ المنايا من جفون يُصْمي بهنّ القلوبا
قال لي : ما ترى الرقيبَ مُطِلاً قلتُ ذَرْه أتى الجَنابَ[1] الرحيبا
عاطِه أكؤسَ المدام دراكاً وأدِرْهَا عليه كوباً فكوبا
واسقنيها بخمرِ[2] عَيْنَيْكِ صِرْفاً واجعلِ الكأسَ منك ثغراً شنيبا
ثم لمَّا أنْ نامَ مَنْ نتَّقيهِ[3] وتلقَّى الكرى سميعاً مجيبا
قال لا بدَّ أن تدبَّ إليه قلتُ أبغي رشاً وآخذ[4] ذيبا؟!
قال فابدأ بنا وثِنِّ عليه قلتُ كلاً لقد دَفَعْتَ قريبا
فوثَبْنا على الغزالِ ركوبا ودبينا إلى الرقيب دبيبا
فهل ابصرتَ أو سمعتَ بصبٍّ ناك محبوبَهُ ونَاك الرقيبا

قال ابن بسام : ولقد ظَرُفَ ابن الأبار واستهتر[5] ما شاء وندر ، وأظنّه لو قدر على إبليس الذي تولى له نَظْمَ هذا السِّلْكِ ،وأوطأ له ثَبَجَ هذا الملك ، لَدَبّ إليه ، ووثب أيضاً عليه ، وأبو نواس ، سهّلَ هذا السبيل للناس ، حيث يقول[6] :

نكنا رسولَ عنانِ والرأي فيما فعلنا
فكان خبزاً بملحٍ قبلَ الشّواء أكلنا

....

١ الفوات : المكان .
٢ النفح : من خمر .
٣ المسالك : ثم لما نام الرقيب سريعاً ، الفوات : نام من بعد نعس .
٤ ط : وأحذر ؛ م : وأخاف ؛ س : وأخشى .
٥ م : واستشر ؛ ط د س : واشتهر ، والتصويب عن المسالك .
٦ المسالك ١١ : ٤٢٠ وديوان أبي نواس ١ : ٨٤ (تحقيق فاجنر) .

ومن أناشيد الثعالبي[1] :

لِيَ أيرٌ أراحني الله منه ... صار همّي به عريضاً طويلا
نامَ إذ زارني الحبيبُ عناداً ... ولعهدي به ينيكُ الرسولا
حُسِبَتْ زورةٌ لشقوةِ جَدّي ... فافترقنا وما شفينا غليلا

وقرأت[2] في بعض الملح خبراً له بهذا الموضع ، بعضُ موقع ؛ قال بعضهم : مشيتُ فإذا أنا بصديقٍ من أهل اليسارِ خارجاً من دار بغيّ ، فقلت له : أيكونُ عندك أربعُ حرائر ، وأكثرُ من ستينَ سريّة ، وتأتي مثلَ هذه الدنيّة ؟ ! فقال : اسكت . مَثَلُ أيري مَثَلُ الكلب ينابح مَنْ طرأ عليه ولا يتعرَّضُ لمن اختَلَطَ به .

وقد قلت إن الحسن بن هاني ، أكثرَ من هذه المعاني ، حتى منعه الأمين محمد بن هارون عن ذلك ؛ وله في وصف الشرابِ ، وما يتعلق بهذه الأسباب ، شعر كثير ، كقوله[3] :

قد هجرتُ المدامَ والنَّدمانا ... وتمتّعْتُ[4] ما كفاني زمانا
ونهاني[5] خليفةُ الله أنْ لا ... أقربَ الخندريسَ والغلمانا [٣١أ]
وخشيتُ الهلاكَ إن لم أطِعْهُ ... ودعتني نفسي إليهم عيانا

---

١ الأبيات للمفجع البصري ، انظر اليتيمة ٢ : ٣٦٣ ومعجم الأدباء ١٧ : ١٨٢ والمسالك ١١ : ٤٢٠ .
٢ نقل العمري هذه الحكاية ١١ : ٤٢٠ .
٣ م : من ذلك قوله ؛ وانظر ديوانه : ٣٥٤ ، وما هنا أتم .
٤ الديوان : وتفتيت .
٥ م ط س : ونهانا .

وغزال سقيته الراح[1] حتى أضعفت[2] منه مقلةً ولسانا
قال : لا تسكرنّني بحياتي قلت : لا بدّ أن تُرَى سكرانا
إنّ لي حاجةً إليك إذا نمـ ـتَ فان شئتَ فاقضها يقظانا
فتلكّا تلكّؤاً بالخناثِ ثم أصغى لما أردتُ فكانا

واشتهار شعره ، يمنعني من ذكره .

وممن سلك أيضاً هذه السبيل من الشعراء المجاهرين بالمجون ، الناطقين بألسن الشياطين ، الفرزدقُ ، بقوله[3] :

هما دلّتاني من ثمانين قامةً كما انقضّ باز أفتخُ الريش كاسرُهْ

وهو قصيدٌ مشهورٌ ، وقد عيّره به جرير فقال[4] :

تدلّى ليزني من ثمانين قامةً وقصّرْ[5] عن باع العلا والمكارم

ومن محاورات امرىء القيس التي تقدّمَ الناسَ فيها قوله[6] :

تقولُ وقد جرّدتّها من ثيابها كما رُعْتَ مكحولَ المدامعِ أتلعا
وعيشِكَ لو شيءٌ أتانا رسولُهُ سواك ولكنْ لم نجدْ لكَ مدفعا

وزاد فيه ابن أبي ربيعة فقال[7] :

---

١ الديوان : عاطيته الكأس .
٢ الديوان : فترت .
٣ ديوان الفرزدق : ٢١٢ .
٤ ديوان جرير : ١٠٠١ .
٥ الديوان : تدليت تزني . . . وقصرت .
٦ ديوان امرىء القيس : ٢٤١ وقراضة الذهب : ٤٢ .
٧ ديوان ابن أبي ربيعة : ١١٣ وقراضة الذهب : ٤٢ .

وناهدةِ الثديين قلتُ لها اتكي   على الأرضِ في ديمومةٍ لم توسَّدِ
فقالتْ على اسمِ اللهِ أمرُكَ طائعٌ   وان كنتُ قد عُوِّدْتُ ما لم أعَوَّدِ

وذكرت بقوله : « على اسم الله » ما أنشده ثابت في كتابه « في خلق الانسان »[1] مما له بهذا بعضُ تعلّق :

تقول إذ أعجبها عُتُوْرُهْ[2]   وغابَ في كَعثَبها[3] جُذْمورُهْ
أستقدرُ الله وأستخيرُهْ

وقال أبو نواس أيضاً[4] :

فبتنا يرانا الله شرَّ عصابةٍ[5]   نجرِّرُ أذيالَ الفسوقِ ولا فَخْرُ

وهو القائل[6] :

عصابة شرٍ لم تر الدهرَ مِثْلَهُمْ   وان كنتُ منهم لا بريّاً ولا صفرا
إذا ما أتى وقتُ الصلاةِ رأيتهم   يَحُثُّونَها حتى تفوتهمُ سكرا

وقال والبة بن الحباب[7] :

---

١ انظر كتاب ثابت : ٢٨٧ واللسان (عتر) .
٢ عتر الذكر : اذااشتدإنعاظه واهتز .
٣ ثابت : فقرتها .
٤ ديوانه : ٢٧٣ .
٥ الديوان : فقمنا إليه واحداً بعد واحد .
٦ ديوانه : ٢٧٤ .
٧ انظر ترجمة والبة في الأغاني ١٨ : ٤٣ وتاريخ بغداد ١٣ : ٥١٨ وطبقات ابن المعتز ٨٧ والفوات ٤ : ٢٤٧ وقد ورد بيتاه في معظم المصادر المذكورة .

قلت لِنَدماني على خَلْوَةٍ أدْنِ كذا رأسك من راسي
ونمْ على جَنْبِكَ لي ساعةً إني امرؤ أنكح جُلاّسي

وقال سُحَيْم[1] :

وبتنا وسادانا إلى عَلَجَانَةٍ وَحِقْفٍ تَهاداه الرياحُ تَهاديا
تُوَسّدني كفاً وتَثْني بمعصم عليَّ وتلوي[2] رجْلها من ورائيا [٣١ب]

وممن كنى ولم يصرِّح ابنُ المعتز بقوله[3] :

وكان ما كان ممّا لستُ أذكُرُهُ فظنَّ خيراً ولا تسألْ عن الخبرِ

قال ابن بسّام : والباب طويلٌ والاكثار مملول . وتتبع كلِّ معنىً يعترض ، يخرج بي عن الغرض ؛ فان سكتُّ فترفيهاً ؛ وان ألمعتُ بشيءٍ فدلالةً على الأدب وتنبيهاً .

سائر أشعار ابن الأبار في أوصاف شتى

غُنّيَ يوماً بشعر ابن الرومي حيث يقول[4] :

وحديثها السِّحْرُ الحلالُ لو آنه لم يجنِ قَتْلَ المسلم المتحرِّزِ

فسأله الوزير الشيخ أبو الوليد ابن المعلم الزيادةَ فيها ، فقال :

١ ديوان سحيم : ١٩ — ٢٠ .
٢ الديوان : وتحوي .
٣ ديوان ابن المعتز ٣ : ٥٠ .
٤ المختار : ٤١ وزهر الآداب : ٩ .

راق الرياض بزهره وبزهوه فتحيَّرتْ في معجبٍ بل معوز
عاقرتُ من طَرَبٍ عليه عقارةً صفراءَ تُعْزَى للنحول وأعتزي
لكن تميَّزُ في الكؤوس بنورها وبهائها ، وبقيتُ غيرَ مميّز

وقال :

نطق العودُ فعاتبْ من نَطَقْ واصطبحها مُزّةً أو فاغتبقْ
لا تدعها قهوةً كَرْخيّةً لم يدعها نوحُ إذ خافَ الغرقْ
خِلتُها في كأسها إذ شُعْشِعَتْ شفقاً تلبسُ أثواب الفلق
قهوة رقّتْ وراقت كأبي عمروٍ الرائقِ خَلْقاً وَخُلُق
حاجبٌ ما إنْ ثني أنملَهُ بالعطايا والمنايا تندفق
هو والإفضالُ روضٌ وَصَبا هُوَ والعلياء عِقْدٌ وَعُنُقْ
هو والأملاكُ إن قيسوا به مَهْيَعٌ بين بُنَيَّاتِ الطرق

قوله : « لم يدعها نوح » أشار إلى ما روي في بعض الأحاديث : ان الشجرة التي أكل آدم عليه السلام منها في الجنّة المنهيّ عنها شجرة العنب . وروي أيضاً أنّ نوحاً عليه السلام لما نزل عن السفينة نازعه إبليسُ أصْلَ العنب ، فاصطلحا على أنّ لنوحٍ الثلثَ ، ولابليس الثلثان ،وإلى هذا أشار يوسف بن هارون الرمادي [1] بقوله ، وهي من ملحه :

أفي الخمر لامتْ خلّتي مستهامَهَا كفرتُ بكأسي ان أطَعْتُ مَلامَها
لمحمولةٍ في الفلك من جنّةِ المنى قد أوصي [2] نوحٌ غَرْسَهَا وضِمامها
فخادَعَهُ إبليسُ عنها لعلمه بها فرأى كتمانها واغتنامها

---

١ انظر الشريشي ٢ : ٢١ — ٢٢ .
٢ م : فأوصي ؛ الشريشي : قد اوصى لنوح .

ففاز بثلثيها ونوحٌ بثلثها ولولا مغيبي عنه لم يك رامها
له حظٌ أنثى وهو حظّ مذكر قليلٌ لعيني أن تُطيلَ انسجامها
وإنّا لورّاثُ ، وقد مات جدُّنا غبيناً ، وإنا لا نجيز اقتسامها

ومن قصائد ابن الأبار الطويلة في المدح

له من قصيدة في اسماعيل [٣٢ أ] بن عباد قال فيها[١] :

حُيّيتَ من برق يُجِنُّ جنانُه[٢] وجداً إلى أهل الدّخول دخيلا
كالأتُه سَهَراً وباتَ مكالئي حتى رأيتُ اللحظَ منه كليلا
والصبحُ يُشْهِرُ من سَنَاهُ صوارماً والليلُ يَرْفَعُ من دُجاهُ سُدُولا
وكأن جُنْحَ الليلِ طِرْفٌ أدهَمٌ متضمنٌ من صبحه تحجيلا
وكأنّ غائرةَ النجوم بأفقها عن وجهه تُغْضي عيوناً حولا
وكأنما الجوزاءُ إذ بَصُرَتْ به ألْقَتْ إليه نِطاقها محلولا
عذلوا ولو عدلوا أو اسطاع الهوى نُطقاً لكان العاذلُ المعذولا
لا تكثروا فالحبُّ في حَوبَائِهِ كالحمدِ في أسماعِ اسماعيلا
مَلِكٌ إذا الهَبَواتُ أظلمَ جنحها في مَعْرَكٍ جعل الحسامَ[٣] دليلا
راعتْ وقائعُ بأسِهِ حتى لقد تركَ الحمامَ بنفسه مشغولا
إن كانَتْ الأسْدُ الضواري لا تخا فُ صيالَهُ[٤] فلِمَ اتخذنَ الغيلا

---

١ المسالك : ٤١٩ وفي المغرب منها أبيات .
٢ المسالك : تسهد ليله .
٣ المغرب : جعل الحسام إلى الحمام .
٤ المغرب : لم تخف من بأسه .

إنْ كانت البيضُ الصوارم لم تَهِم ... في حُبّه فلم اكتسَيْنَ نحولا
لم يبتسمْ ثَغْرُ الحجابةِ زاهياً ... حتى غدا لجبينها إكليلا
لو تحفزُ العشّاقَ بيضُ سيوفه[1] ... لم يتركوا عند العيونِ ذُحُولا

وما أحسنَ قولَ < أبي الفضل ابنِ شرف >[2] :

لم يبقَ للظّلْمِ في أيامهم أثَرٌ ... إلا الذي في عيونِ الغيدِ منْ حورِ

وقال المتوكل بن الأفطس في صفة سيفٍ وأخبر عنه :

لولا الفتورُ بألحاظِ الظباء إذن ... لقلتُ إنيَ أمضى من ظُبَا الحَدَقِ

ومن قصيدة ابن الأبار :

غُضُّوا الملاحظَ إنَّ نورَ جبينه ... يُعْشي العيونَ ويبهرُ المعقولا
ولقد خشيتُ على الثرى وعلى الورى ... لما دَنَوْا منْ كفِّه تقبيلا
هل كان يعصِمُ منه إلا عَفْوُهُ ... لو أنَّ أنمُلَهُ جرَيْنَ سيولا

الأديب أبو الحسن علي بن حصن الاشبيلي[3]

من مشاهير شعراء المعتضد أيضاً ، أحد من راش سهامَ الألفاظ بالسحر

. ...

١ م : سيوفهم .
٢ انظر المغرب ٢ : ٢٣٢ والنفح ٤ : ٦٧ .
٣ له ترجمة في الجذوة · ٢٩٦ ، ٣٧١ (البغية رقم : ١٢٣٢ ، ١٥٢٣) والمغرب ١ : ٢٤٥ ، وذكره في رايات المبرزين ١١ (غ) ؛ ونقل ابن سعيد عن الحجاري قوله ان ابن حصن نشأ مع المعتضد فاستوزره إلا أنه كان فيه طيش أداه إلى حتفه ؛ وانظر أيضاً النفح ٣ : ٢٦٦ ، ٤٢٩ وبدائع البدائه : ٣٦٧ والمسالك ١١ : ٢١٧ .

الحلال ، وشقّ كمائم المعاني عن أبينَ[1] من محاسنِ ربّات الحجال ، بين طبع أرقّ من الهواء ، وأعذبَ من الماء ، وعلمٍ أغزرَ من القطر ، وأوسعَ من الدهر ، إذا ذكر شعراً ظُنّ أنه صانعه ، أو ديواناً تُوُهّم أنه مؤلفه وجامعه ، واني لأعجبُ من قومٍ من أهل أفقنا لم يعرفوه ولم ينصفوه ، فأضربوا عن ذكره ، وزهدوا في أعلاق شعره ، ولعلهم حاسبوه بخزعبلاتٍ كان يتعبّثُ بها بين مجونه وسكره ، وهيهات فضله أشهر ، وإحسانه أكثر ، ولو تأملوا قوله من قصيدة في اسماعيل بن عباد : [٣٢ ب]

بَكَرَتْ سُحْرَةً قُبَيْلَ الذهاب تنفضُ المسكَ عن جناح الغرابِ[2]

وقوله على أنها من عبثاته[3] :

عليّ أنْ أتذلّلْ له وأن يتدلّلْ
خدٌّ كأنّ الثريا عليه قُرْطٌ مسلسل

لعلموا أنه رأس الصناعة ، وإمام الجماعة .

ولما هيّتَ المعتضدُ بأبي الوليد بن زيدون فانحطّ في حبله ، وتولى إلى ظلّه — حسبما قدمت ذكره في أخباره من القسم الأول — أفرجَ له عن صَدْرِ النادي ، وخلّى بينه وبين بحبوحة الوادي ، وهو يظنّ أنْ سيُجري بالخلاء[4]، ويستولي على حَمْلِ اللواء. فانتحاه من ابن حصن هذا شيطانٌ مريد ، وطلّعَ عليه منه رقيبٌ عتيد ، وطفق ينازعُهُ الراية ، ويسابقه إلى

---

١ المسالك : أفتن .
٢ المغرب : تنفض الماء ، د . غراب ، والبيت في المسالك .
٣ انظر النفح ٣ : ٤٢٩ .
٤ فيه إشارة إلى المثل : كذا يجري في خلاه يسر .

الغاية، وإن كان أبو الوليد ربما غمره بمكانه، وتمكّنِه من سلطانه . وكان المعتضد ، لشذوذ مناحيه ، وفضلِ عربدة كانت فيه ، ربما أغْرَى بينهما إذا اجتمعا في مجلسه، فيتمكن لابن حصن التقدُّمُ عليه ، بسعة ذرعه ، ورضاه بالعفوِ من طبعه ، وكان ابن زيدون قد جرى من الكلام إلى غايةٍ لا يتعدّاها، ولا يرضى من نفسه إلا بلوغ أقصاها ، ولا يمكنه ذلك منها إلا في مُهْلَةٍ طويلة ، وعلى كُلْفَةٍ ثقيلة ، فربّما كبا جواده ، وتأخّرَ مُرادُه ، ولم يزل أبو الوليد يُطْرِقُ ويحلم ، ويسدّي في أمره ويُلْحِم ، وابن حصنٍ يغترُّ ويَتَقْدِم ، ففاز ابن زيدون بحلمه وتوقّره، وهوى نجمُ ابنِ حصنٍ بين اغتراره وتهوّره ، فزلّتْ قدمه ، وطاح دمه ، في خبر مشهورٍ مذكور ، « وعند الله تجتمع الخصوم »[1] وإليه ينتهي الظالم والمظلوم .

جملة من أشعاره في صفات مختلفة

قال :

ألا قلْ لبدرِ الدجى ما عداهُ ... مما بدا من نوالٍ نوى لي[2]

وهاتِ اشْفِيَنْ غُلّتي بالمدام ... فان بناتِ الدوالي الدوا لي

وقال[3] :

....

١ عجز بيت من الشعر ، وصدره « إلى ديان يوم الدين نمضي» والبيت لأبي العتاهية في ديوانه: ٣٥٣ والأغاني ٤ : ٥٣ وهو دون نسبة في ابن خلكان ٦ : ٢٢٩ .

٢ س م : نوال .

٣ المسالك ١١ : ٢١٧ .

وربَّ شعلةِ نارٍ شفيتُ منها أواري
أليس ذاك عجيباً[1] يُطفى الغليلُ بنار؟!
كأنما عصرت من شقائق الجلنّار
إذا بدت لك في قطـ ـعةٍ من البلاّر
حَسِبْتَها شَفقاً صُـ ـبَّ في زجاجِ نهار

وقال[2] :

قمْ يا غلام فسقنيها واطرب واشربْ عتبتُ عليكَ إنْ لم تشربِ
من قهوةٍ صفراءَ ذاتِ أسرَّةٍ في الكأس تأتلقُ ائتلاقَ الكوكب
خَضَبَتْ بنانَ مديرها بشعاعها فِعْلَ العرارةِ في شفاهِ الربرب

وقال :

مالي وللراحِ وأخلاقها ولائمي فيها لإخلاقها
هات اسقنيها الآن تبريّةً تحكي[3] سنا الشمس بإشراقها
راحٌ متى راحتْ بكفّي فقد قامتْ ليَ الدنيا على ساقها

وقال :

ولي نديمٌ راقدٌ ليلَهُ أعدى من الحَيْنِ على الأنفسِ
نادَى به مازحُنا في الدّجَى والوردُ مقرون مع النرجس
قلت له : دعه فلا بدَّ من نيلوفرٍ في وَسَطِ المجلس

---

١ ط : أليس ذا عجباً أن .
٢ وردت في المغرب ١ : ٢٤٦ والمسالك ، والأخير منها في رايات المبرزين: ٤٠ (١١ غ).
٣ ط : تحوي .

وقال :

قد شُغِلَ الناسُ بذكري وما شُغْلِيَ إلا الكأسُ والآسُ
ماذا على الناسِ من الناس ما أحمقَ بعضَ الناسِ يا ناسُ[1]

[٣٣ أ] ومن مستظرف مجونه قوله[2] :

بأبي ظبيٌ صغير السّـ نٌ حازت[3] ثُلْثَ سنّي
سرّني أنْ ليس يدري مذهبي فيه وفنّي
فهو يدعونيَ عمّاً وأنا أدعوه يا ابني
ذاك عندي وأبي أطر فُ ما مَرَّ بأذني
قلتُ لما أنْ بدا لي وجهه< من >تحت بطني
قال ماذا قلتَه لي ؟ قلتُ خيراً فيك أعني
أنا صبٌّ فيك ميت فاتّقِ الله وصِلْني
لستُ أخشى الموت إلا خوف أن تبعد[4] عني
فاكتستْ وَجْنَتُهُ رَوْ ضَةَ ورد فتنتني
لو ترى مجلس لهوي قلتَ ذا جَنّةُ عَدْنِ
ومدامي خندريسٌ لم يَشُبْهَا ماءُ مُزْنِ
لو تراني قلتَ هذا مَلِكٌ[5] ما ذا ابنُ حصن

... ...

١ سقط هذا البيت من م .
٢ وردت أبيات منها في المغرب ١ : ٢٤٦ وتحفة العروس : ١٦٨ .
٣ كذا في النسخ ، على التأنيث ، ولعله « حازني » .
٤ ط م د س : تنأ .
٥ ط : مالك .

ومعي مُسْمِعَةٌ تش ربُ كأساً وتغني
وإذا ما شربتْ كأ سآً من الراح سقتني
قَهوَتَيْ خمرٍ وَعَيْنٍ بهما قد أسكرتني
قلت للمازج خُذ صا فيةً مِنْهَا ومني
فاسقنيها بكبيرٍ فإن آعيا فبدنّ
فلقد شاقَ فؤادي رنّةُ العودِ المرنّ
فتَسَاقَيْنا إلى أن جازَ جَوْزُ الليلِ عني
قمت نشوانَ وقامت في تهادٍ[1] وتثني
ونضتْ عنها قميصاً ثم لما ضاجعتني[2]
قَلَبَتْ بطناً لبطنٍ[3] قلتُ لا ظهراً لبطن
فانثنتْ في خَجَلٍ قا ئلةً عند التثنّي
أنا حانوتٌ بوجهين[4] فَلُطْ إن شئتَ وازن
لم أنلْ من كلّ ما فُهْ تُ به غيرَ التمنّي
إنما الشعر فكاها تٌ وحسبي حُسْنُ ظني[5]

قوله : « قلت لما أن بدا لي وجهه »[6] . . . البيت ، مما أراد أن يصهل

---

١ المغرب : يتهاد .
٢ م : ضجعتني .
٣ المغرب : لظهر .
٤ أصبح هذا مثلا عند الاندلسيين ، انظر المثل رقم : ٨٣٦ من أمثال الزجالي (٢ : ١٩٠).
٥ م س : ظن .
٦ أورد البيت كاملا في النسخ ، وذلك لا يلتئم مع اثباته لفظة : « البيت » التي تشير الى حذف .

فيه فنهق ، وأن يتغزّل فزلق ، وإنما أراد قول عمر فقصّر ، وما أورد ولا أصدر ، حيث يقول[1] :

قلت يوماً لها وحركتِ العو — دَ بمضرابها فغنّتْ وغنّى
ليتني كنت ظهرَ عودِكِ يوماً — فإذا ما احتضنته[2] كنتُ بطنا
فبكتْ ثم أعرضتْ ثم قالت — من بهذا أتاك في اليوم[3] عنّا
قلتُ لما رأيتُ ذلك منها — بأبي ما عليكِ أنْ أتمنّى

وقال ابن حصن[4] :

أمتُّ إليه فما يُسْعِفُ — وأشكو جفاهُ فما يُنْصِفُ
غزالٌ كحيلٌ له ريقةٌ — يُشَابُ بها المسكُ والقرْقَفُ
كأنّ العذارَ على خدِّهِ — نجادٌ ومقلتُهُ مُرْهَفُ

وهذا كقول ابن رشيق القيرواني[5] ، وهو من متداولات المعاني :

وهل على عارضيه إلاّ — قلائدٌ[6] قُلِّدَتْ حساما

وقال في الشَّقِر[7] :

وبستانٍ أعجَبْتُ الطَّرفَ عنه — على شقر كمثل لحى الديوكِ
كأن حباب ثاوي الطلّ فيه — جُمانٌ فوق تيجانِ الملوك

١ ديوان عمر : ٤٣٩ .
٢ الديوان : احتضنتني .
٣ ط د : النوم .
٤ منها بيتان في المسالك ومعاهد التنصيص ٣ : ٨٢ .
٥ ديوانه : ١٦٩ ووفيات الأعيان ٢ : ٣٦٦ – ٣٦٧ .
٦ الوفيات : وهل ترى ... حمائلا .
٧ الشقر : شقائق النعمان .

وقال[1] :

شربناها كميْتَ اللونِ حتى رأيتُ الفجرقد وضعَ النقابا[٣٣ب]
عجوزٌ عُتِّقَتْ حِجَجاً ولكنْ تروقك كلَّما شابتْ شبابا
وأحسب أنها كانت عقيقاً جرَتْ أنفاسنا فيه فذابا

وقال[2] :

يُجْحِف[3] عنها الدّنُّ فاستعبرتْ جرياً كما قوّس إكليلُ
كأنها في الكأسِ مبيضةٌ[4] خيطٌ من الفضّةِ مفتول

وقال :

طَلَّ على خدّهِ العِذارُ فافتضح الآسُ والبهارُ
وابيضَّ هذا واسودَّ هذا واجتمع الليلُ والنهار
وقد جرى[5] للنعيم فيه ماء بأحْشَايَ منه نار
أقام من فوقهِ حبابٌ يطيرُ من تحته شرار
أغضُّ جفني عنه لأني[6] عليه من مقلتي أغار
رشا أعارَ الغزالَ لحظاً فَحُسْنُهُ منه مستعار
شربتُ من خمرِ مقلتيه كأسين لي منهما خُمار
متى أرُمْ سَلْوةً نهاني غُنْجٌ بعينيه واحورار

---

١ وردت في المسالك ١١ : ٢١٨ .
٢ وردا في المسالك .
٣ ط م د س : يحجب ؛ المسالك ، حجب ؛ ويجحف : يقشر .
٤ المغرب : من صبها ؛ المسالك : منصبة (وهي قراءة جيدة) .
٥ وقد جرى : سقطت من م س ط .
٦ عنه لأني : موضعها بياض في م ط س .

عِذارُهُ قائمٌ بعُذْري   فليس لي في الهوى اعتذار
حكى غزالَ الفلا نِفاراً   فشأنه التِّيْهُ والنِّفار

وكان يوماً على وادي قرطبة في مجلس أنس فتذكر اشبيلية ، فقال :

ذكرتُكِ يا حمصُ ذكرى هوىً   أماتَ الحسودَ وتَعنيتَهْ
كأنكِ والشمسُ عند الغروب   عروسٌ من الحسنِ منحوتَهْ
غدا النهرُ عقدَكِ والطَّوْدُ تاجَكِ   والشمس < في > أعلاه ياقوته

وقال[1] :

اشربْ على طيْبِ نسيمِ السَّحَرْ   وانظر إلى غُرَّةِ ذاك القَمَرْ
كأنهُ ماءُ غديرٍ صفا   والمحقُ فيه مثلُ ظلِّ الزَّهَر

ومنها :

أنْشدكُمْ شعري كنْ قد قَرا   سورةَ ياسين على من كَفَرْ
في نفَرٍ أستَغْفرُ اللهَ بل   في بَقَرٍ لولا اختلافُ الصُّوَر

ما أخرجته من قصائده المطولة في المدح وما يتشبث به

قال من قصيدة[2] :

وما راعني[3] إلا ابن ورقاء هاتفاً   على فَنَنٍ بين الجزيرةِ والنهرِ
......

١ البيتان في المغرب ١ : ٢٤٦ والمسالك .
٢ انظر المغرب ١ : ٢٤٧ والمسالك ١١ : ٢١٩ وسرور النفس: ١٠٢ وعنوان المرقصات: ٢٦ ونهاية الأرب ١٠ : ٢٦٧ وحلبة الكميت ٢٨٦ ورايات المبرزين. ٣٩ (١١ ع).
٣ خ بهامش ط : هاجني ، وكذلك هو في سرور النفس .

مُفَسْتَقُ طوقٍ لازورديٌّ كلكل ... موشّى الطلى أحوى القوادم والظهر
أدار على الياقوت أجفانَ لؤلؤٍ ... وصاغ من العقيان طَوْقاً على الشعر [1]
حديدُ شبَا المنقارِ داجٍ كأنّه ... شبا قلمٍ من فضة مُدّ في حبر
توسّد من عُوْدِ [2] الأراكِ أريكةً ... ومال على طيٍّ الجناح معَ النحر
ولما رأى دمعي مُراقاً [3] أرابه ... بكائيَ فاستولى على الغُصُنِ النضر
فحثّ جناحيه فصفّقَ طائراً ... فطار فؤادي حيث طار ولا أدري

ومنها في المدح :

جوادٌ يرى أنّ العلا خيرُ ما اقتنى ... وأنّ ادّخارَ الحمدِ منأفضلِ الذكر
يرى أنه عريانُ منْ كلّ مَلْبَسٍ ... إذا لم يكن يختال في حلَلِ الشكر
طموحٌ إلى العلياءِ كاسٍ من التقى ... غضيضٌ عن الفحشاء عارٍ من الوزر
يروقك منه خِلْقَةٌ وخليقةٌ ... متى شئتَ إطراءً أرَتْكَ بما تطري

وهذا مما ذهب به مَذهبَ أبي الطيب وقصر عنه [4] :

وأخلاقُ كافورٍ إذا شئتُ مدحه ... وإن لم أشأ تُملي عليّ وأكتبُ

وقال من أخرى :

أقامَ قناةَ الدين واقتعد العلا ... وشدّ عرى الاسلام واخترم [5] الشركا

. . . . .

١ ط : التبر .
٢ خ بهامش ط : فرع ، وكذلك هو في سرور النفس .
٣ سرور النفس : تؤاماً .
٤ ديوان المتنبي : ٤٦٥ .
٥ م ط س : واعترم .

يضيق الفضا عن أن يكونَ لبانه — وتدنو[1] الثريّا أن تكونَ له سمكا
أدرتَ وقد دارتْ رحى الحرب عزمةً — أبادتْ ذوي الشحناء صَوْلَتُها هُلْكا
فآبوا وسُمْرُ الخطّ سائلةٌ دماً — وأجسامهم ينضحنَ من صَدأ سهكا
قبائلُ ما انفكّتْ تغادرُ في العدا — وقيعةَ غسّانٍ غداةَ غَزَتْ عكّا[2]

ومنها في الحرباء :

تظل ترى الحرباءَ فيها مرفّعا — يَدَيْ كاتبٍ ما زال يدعو وما انفكا

قال ابن بسّام : وقد أكثر الناس في وصف الحرباء وانتصابها ،وكنوا بكلّ شيء عن تلوّنها وانقلابها ، فممّن أحسن في التشبيه ، وذهب بهذا المعنى مذهباً من الحسن لا شكّ فيه ، ابنُ الرومي بقوله[3] :

ما بالها قد حُسّنَتْ ورقيبها — أبداً قبيحٌ ، قُبِّحَ الرقباءُ
ما ذاكَ إلاّ أنها شمسُ الضحى — أبداً يكون رقيبَها الحرباء

وقال ابن بابك في غير هذا المعنى ، ولكنه في ذكرها معه التقى[4] :

بغرةٍ كشعاع الشمس لو برزت — في ظلمةِ[5] الليلِ للحرباء لانتصبا

ونقله بعض أهل عصرنا فقال في صفة بيداء :

---

١ ط د : ويدنو .
٢ يريد قبيلة عك .
٣ ديوان ابن الرومي ١ : ٦٣ والتشبيهات لابن أبي عون : ٢١ والشريشي ٢ : ١٨٠ .
٤ اليتيمة ٣ : ٣٧٩ .
٥ اليتيمة : ذو غرة . . . لو برقت . . . في صفحة .

يبيت حرباؤها ضحيانَ منتصباً وإنْ أظَلّ[1] فلم ينظرْ إلى نُورِ

وقال :

بحيث ترى الحرباءَ بالشمس كافراً ولو أنه جاءته من جنَّتي عَدْنِ

ولو يستطيع التفَّ في ظلّ عوده على وَشْكِ ما يعني وقلَّة ما يغني

وقال أبو العلاء[2] :

أوفى بها الحرباءُ عُودَيْ منبرٍ للظّهْرِ إلا أنه لم يَخْطُبِ

فكأنه رام الكلام ومسَّهُ عيٌّ فأسْعَدَهُ لسانُ الجندب

وقال أيضاً[3] :

وساحرَةِ[4] الأقطارِ يجني سرابُها فتصلبُ حرْباءَ بَرِيّاً على جِذْعِ

وقال عبد الجليل المرسي :

بقلبٍ كحرباء الظهيرة لا ينِي مع الشمس من ذاك الشُّعاعِ يدورُ

وأرى أوّلَ من ذكرها ذو الرمّة في قوله[5] :

غدا أكْهبَ الأعلى وراحَ كأنه من الضِحّ واستقبالِهِ الشمسَ أغبرُ[6]

....

١ م : أطل .

٢ شروح السقط : ١١٣٣ .

٣ شروح السقط : ١٣٥١ .

٤ ط م د س : وساجرة .

٥ ديوان ذي الرمة ٢ : ٦٣٣ .

٦ الديوان : أخضر .

وقال ابن حصن من قصيدة أوّلها [1] :

أعاجوا المهارى بالعقيقِ فمنعجِ ... وأوضحَ منهم توضحٌ كلَّ منهجِ [٣٤ب]
على نؤي دارِ الركبِ عرِّجْ فانه ... حرامٌ علينا السَّيْرُ إن لم نُعَرِّجِ
على نؤي دارٍ قد تبقّى كأنه ... وقد مَحَّ منه شَطْرُهُ نصفُ دُمْلُجِ

ومنها :

بعيدةُ مهوى القرطِ مُصْمَتَةُ البرى ... لطيفةُ طيٍّ الكشحِ ريّا المدملجِ
تعضّ على العنّاب بالبَرَدِ الشهي ... وتمسح ماء الطلّ فوق البنفسجِ
جلت بعقيقٍ جوهراً فتبسمت ... وذبَّتْ عن الوردِ النديّ بصولجِ

ومنها :

فقلتُ صِلي قد ضقتُ ذرعاً بهجركم ... فقالتْ صهٍ قد ضقتُ ذرعاً بدملجي

وهذا المعنى مشهور ، هو في شعرهم كثير ، إلا أنه غوّره وأبعده ، وأوعر لفظه وعقّده ؛ والذي إليه أشار ، وعليه دار ، قول أبي تمام [2] :

يعيّرني [3] أنْ ضِقْتُ ذرعاً بِبَيْنِهِ ... ويجزعُ أنْ ضاقتْ عليه خلاخِلُهْ

ومن مدح هذه القصيدة :

جزيلُ التقى يمشي الهوينا تواضعاً ... ويَهتزُّ إعظاماً له كل خُنْبُج [4]

١ منها أربعة أبيات في المسالك .
٢ ديوان أبي تمام ٣ : ٢٤ .
٣ الديوان : يعنفني
٤ الخنبج : الضخم ؛ وفي ط : خنج .

وهذا المعنى مما ركب فيه ابن حصن رأسه وحكّم هواه، والمعنى مشهور في من وصف بالنسك ومُدِح بالانسلاخ عن أبّهة الملك ، ومن ذلك ما قال أبو تمام[1] :

يقول فَيُسْمِعُ ويمشي فَيُسْرِع ويضربُ في ذاتِ الإله فيوجعُ

ورأت عائشة[2] رضي الله تعالى عنها رجلاً ناسكاً يداني الخطى ويخفض الصوت فقالت : ما بال هذا ؟ قيل : هو ناسك ، قالت : عمر والله كان أنسك منه ، ولكنه كان إذا مشى أسْرع ، وإذا تكلم أسمع ، وإذا ضرب في ذات الله أوجع . وأبو تمام بهذا الكلام ألمّ ، وبه ترنّم . وفي الحديث[3] أنه كان صلى الله عليه وسلم إذا مشى تكفّأ كأنه ينحدر من صبب .

وقال من أخرى[4] :

خليليّ من يضحي إلى البدر شافعي فما لي على وجدي به من تصبُّرِ
يعزُّ على واديهمُ أن أزورهُم[5] فلا يردون الماء غير مكدر
وما شفّني وادٍ تضوّع عنبراً سواهُ ولا ماءٌ يشابُ بسكّر
تُدرِّجُ عطفيه الرياحُ فينثني تثنّيَ أعطافِ النزيف المخصّرِ[6]

ومنها :

. ..

١ ديوان أبي تمام : ٣٢٦ .
٢ ورد في طبقات ابن سعد ٣ : ٢٩ منسوباً للشفاء ابنة عبد الله .
٣ انظر مسند أحمد ١ : ٨٩ ، ٩٦ ، ١٠١ ؛ ٣ : ٢٢٨ ، ٢٧٠ .
٤ منها ستة أبيات في المسالك .
٥ المسالك : أزوره .
٦ د . الغزال المخصر ، م : المحصر .

وإلاّ فلي منهم بِمُنْعَرَجِ اللوى ... علائمُ لا تخفى على المتبصّرِ
مُعَرَّسُ صيدان وأعطانُ بُزَّلٍ ... ومَسْرحُ غزلانٍ وآريٌّ ضمّر
معاهدُ لم أعهدْ بها عَلَلَ الصّبا ... ثماداً وفينان الهوى غير مثمر
وصلتُ بها عيشاً كأني قطعته ... على ظهر خوّار الجديلين مُجْفَر
فكم غمرةٍ جلّى شكرتُ لها الدجى ... وعنّفْتُ أوضاح الصباح المشهّر
وما استيقظتْ إلا لقرع حجالها ... وجرسِ جُرُبّانِ[1] الحسامِ المفقّر
وقالت : هو الهيمانُ ما باله انتهى ... ومن دوننا أهوالُ بيدٍ ومعشر
إلى كم أناجي كلَّ أبيض صارمٍ ... هوى كلّ أحوى بالصريمة[2] أحور
وحتّام أستدعي الظُّبا سُلّماً إلى ... لقا كلّ ظبيٍ بالسماوة أعفر

[٣٥أ] ومنها :

تحامى هداجاً بالظّبا كلّ هودجٍ ... له واشتجاراً بالقنا كلّ مشجر
وقائع تغتالُ[3] النفوس كأنها ... وقائعُ عبّادٍ لدى كل عسكر
فتىً كفرند السيف أرْهِف حَدُّهُ ... يهولك في مرأىً نبيلٍ ومخبر
أخو الحرب مَشّاءٌ إليها ترهْوُكاً[4] ... إذا سَهِك الأبطالُ تحت السّنَوّر
إذا شهد الهيجا فأوّلُ مُوْرِدٍ ... حرائبَها عَلاًّ وآخرُ مُصْدِرِ
يفاجيكَ عفواً منه جودُ بنانهِ ... بأغدقَ من صَوْبِ الغمام وأغزر
ويغشاك دون السّتْرِ نورُ جبينه ... بأشرقَ من ضوء الصباح وأنور

١ د ط س : جريان ؛ وجرمان السيف : غمده أو هو قراب ضخم يضع المرء فيه السيف وأدوات أخرى ، والمفقر : السيف الذي فيه حزوز مطمئنة عن متنه .
٢ د : بالصرائم .
٣ المسالك : تختار .
٤ م ط س : تركوها ؛ الترهوك . مشي الذي كأنه يموج في مشيته .

تكفكفتِ الأبصارُ عنه بمؤدَمٍ   أغرَّ طليقِ الوجهِ أروعَ مُبْشَرِ[1]
مُقابَلِ أطرافِ العمومةِ مُخْولٍ   مقدَّسِ أعراقِ الأرومِ مطهر
أمستخبري عنه ، عن الدهر لاتَسَلْ   فقبلي قد أعيا على كلّ مخبر
ألرقى إلى السَّبع الشّداد تخرصاً   وأنَّى[2] بما في قعرِ سبعةِ أبحر

ومنها في وصف قصيدته[3] :

تذكرتُ ليلى للقوافي فلم تزلْ   تساعدني عفواً ولم تتعذّر
فدونكَ عذراء المعاني[4] ابتدعتها   عَوانَ القوافي خيْرَةَ المتخيّر
إذا ما الرواةُ استنشدَتْها تبرقعتْ   لها أوجهٌ من حشمةٍ وتغيّر

ومنها في التعريض بابن زيدون :

وينكلُ عنها شاعرُ المصرِ كلّه   ألافاضحكنْ من شاعرِ المصرواسخرِ
ودونكَ فاحكم بين نظمي ونظمه   بذهنٍ ذكيٍّ ثم قدّم وأخّر
ولست بكاسيها مدى الدهرِ حُلَّةً   بنغمةِ إنشادٍ ولا بمكرّر
وما أنت ممّن يُحْمَدُ السيفُ عنده   بجودةِ صَقْلٍ وهو غير مذكّر

وله من أخرى :

....

١ هو مؤدم مبشر : وصف للرجل الكامل أي جمع لين الأدمة ونعومتها وهي باطن الجلد وشدة البشرة وخشونتها وهي ظاهر الجلد ؛ ويقولون امرأة مؤدمة مبشرة إذا حسن منظرها وصح مخبرها .

٢ ط : وانما ؛ س د : وأنا .

٣ ومنها . . . قصيدته : وقع في د قبل قوله « ألرقى إلى السبع . . . » .

٤ د : خوداً للمعاني .

أبى أبداً إلا اصطحابَ ثلاثةٍ — أبى كَرَمُ الأخلاقِ إلا اصطحابَها
حسامٌ ويعبوبٌ وسمراءُ لدنَةٌ — أعارتْ قلوبَ العاشقين اضطرابها
أجالَ على الصحراءِ أجردَ سابحاً — فباهى به أعرابها وَعِرابَها
طليعةُ عيني منه أذْنٌ حديدةٌ — أعارته آذانُ الظباءِ انتصابها
شَكَتْ ظُلْمَهُ ظُلْمانُ كلّ مفازةٍ — وعاقب فيها ذيبَها وعُقَابَها
وصاغَ من الاكليل حَلْياً لنحره — وأمّا الثريّا فازدهاها وعابَها
أصَرَّفُ منه في الأعِنّةِ بارقاً — وتحتسبُ الجوزاءُ رجلي ركابها

ومنها :

أحنُّ إلى البرق اليماني إذا انتحى — لأنّ إلى البرق اليماني انتسابها
متى حُسبَ الأملاكُ من كلّ أمّة — عدَدنا بعبّادَ الحسيبِحسابها[٣٥ ب]
به نَسَخَتْ أيدي الليالي ملوكَها — وكانوا خطاياها فأضحى صوابَها

وقال من أخرى :

جفا الأبردين الماءَ والظلّ وارفا — وَهَجّرَ يجتابُ البلاد تنائفا
معنّى بأحبابٍ يسائلُ عنهمُ — مرابعَ أقْوَتْ بعدهم ومصايفا
ثَنَى ذكرُه المثنى مخايلَ دمعة — هواتنَ تَمْرِيها الحمامُ هواتفا
أسىً بالتي من أجلها اقتحم القنا — لفائفَ واجتابَ البلاد نفانفا
محَشٌ وغيٍّ ورّادُ ما حَمّتِ القنا — وُرُودَ كَميٍّ لا يهابُ المتالفا
تبوّأ أفياءَ القنا وكفى بها — طِرافاً وَمَسْرُودَ الحديدِ مَطارِفا

ومنها :

وأبيضَ مَهْوٍ[١] لم تجدْهُ إذا انتمى — إلى الشّرفِ العاديّ يعدو المشارفا

١ المهو من السيوف : الرقيق ، وقيل هو الكثير الفرند .

أعارَتْهُ أنفاسي التهاباً وَرَقْرَقَتْ عليه جفوني مَوْجَ دمعيَ ذارفا
وراق العذارى حُسْنُهُ فأعرنه دماجَ خصورٍ وائتلاقَ سوالفا
تخالُ مُذابَ التبرِ فوق لُجَيْنِهِ سواكاً بأفواه الكواعب لاصفا[1]

ومنها :

يذكّرني البرقُ اليماني إذا انتحى لدى المزّ برقاً من حفافيه خاطفا
على عاتِقَيْ ثهلانَ منه غمامَةٌ إذا أسْدَفَ الليلُ استهلّتْ سدائفا

ومنها :

سقى عَهدَهَا بالخيف غادٍ ورائحٌ وأيامَنا بالجزع منه السّوالفا
فكم ليلةٍ نازعت كفَّ المنى بها جنىَ الوصلِ حلوَ الطعمِ والعيشِ غاضفا[2]
معاهدُ أستسقي لها أنجعَ الحيا وفاءً وأستصحي الدّموع الذوارفا
تحمّلني ما لا أطيقُ وطالما عُرِفْتُ صبوراً في الملمّات عارفا
بما بيننا ما بال قلبكِ لا يُرى على عِطْفِكِ المضنى بردْفِكِ عاطفا
رويدك بالغصن الخضيدِ فانها روادفُ يتركن الجبالَ رواجفا
وفكّي أسيراً من ثقافيكِ إنها مضاربُ ألحاظ بَهَرْنَ المثاقفا
إذا جَنَّ ليلٌ أو ترنّمَ طائرٌ حسبتُ به طيفاً من الجنّ طائفا
طوى نحوكِ الأجزاعَ يرعى خلالها صفائفَ[3] والأجزاعُ تندى صفاصفا
تبدّل من ريح القرنفُلِ بالضحى ذواريَ من أرواحها وذوارفا
ومن فَدَن غَنّتْهُ شدواً قيانُهُ ثقائلَ من ألحانها وخفائفا

---

١ لصف : برق وتلألأ .
٢ الغاضف : الناعم البال .
٣ د : صفاصف ؛ وأرجح أن تكون القراءة « فصافص » .

وبالرَّمْلِ مرتجاً وبالبانِ مائساً روادفَ يملأن الملا ومعاطفا
وبالنَّفَسِ النفّاحِ من نحو أرضهم غواليَ يلقَيْنَ الرياحَ غوالفا[1]
وبالأملِ[2] [الملقي] بأطرافِهِ على أبي عمروٍ الأعلى تليداً وطارفا
فتىً تَرِدُ الأملاكُ سُدّةَ بابه كما تردُ الماءَ الحمامُ عواكفا
تخالهمُ من كلِّ شرقٍ ومغرب طوائفَ بالبيت العتيق طوائفا
يؤمّون بحراً يترك البحرَ جودُهُ غريقاً، وبدراً يترك البدرَ خاسفا [٢٦أ]
مكارم تُنْبِي[3] حَدّ ذهني وتغتدي مصابيحُ فكري في دجاها توالفا
نماهُ إلى العلياءِ كلّ مُدَجَّجٍ يَرَاحُ إلى المعروفِ جذلانَ عارفا
وآسادُ آجامٍ تَهبُّ رياحُهُمْ غداةَ الوغى في الناكثين حراجفا[4]
إذا ما انتضَوا بيضَ السيوف حسبتهم شموسَ ضحىً تُبْدي بروقاً خواطفا
يهزّونَ بالسُّمْرِ اللدانِ أشاجعاً عواريَ بالطعنِ التؤام عوارفا
ترى البِشْرَ منهم في صحائفِ أوجهٍ قَرأنا[5] عليها للنجاح صحائفا
يصونون أحسابا كراماً وأوجهاً حساناً وأحلاماً حصاناً حصائفاً[6]
تلافى هضيمَ المجد فاخضرَّ عودُهُ ولولا تلافيه لأصبحَ تالفا
إذا جمدت كفُّ الكرام عن الندى وخلَّفها مَرُّ السنين جلائفا[7]
وجدتَ أبا عمرو على كلِّ حالةٍ جواداً بما يحويه سمحاً مُلاطفا

---

١ ط م س : عوالفا .
٢ د : وبالأمن .
٣ تنبي : تسبب فيه نبوة .
٤ الحرجف : الريح الباردة .
٥ ط د س : قرانا .
٦ م : حصافاً ؛ م ط : حضائفاً .
٧ جلائف : مقطوعة مستأصلة .

وأصبحْتَ للدنيا وللدين كالئاً ... وللمجدِ والعليا وللمُلْكِ كانفا
رمتني صروفُ الدهر خيفاً عيونُها ... فأمّنْتَنِي منهن ما كنتُ خائفا
وأصلحتَ أحوالي وكنّ فواسداً ... وأحييتَ آمالي وكنّ توالفا
وأوردتني صداء[1] ودّك سلسلاً ... وأرعيتني سَعْدانَ برّك وارفا[2]
وأرّضْتَ أطماعي وكنّ خشاشياً ... وجددتَ آمالي وكنّ خشائفا[3]
وإني وانْ أحكمتُ نظم جواهرٍ ... وألقاك منها بالنّفيس مُتَاحفا
لملقٍ سبيكَ العسجدِ المحض منك في ... يَدَيْ صَيْرَفيٍّ يسْترِكُ الصيارفا
وأنْشِدُكَ السّحرَ الحلالَ مخاطراً ... كمن قلّد الليثَ المهيجَ مُواقفا
وأجنيك من شكري بوردٍ مضاعف ... وودّي فتعطيني العطاء مضاعفا
وتمنحني بدهَ الكريم وتارة ... تجازي بإطرائي فتعطي مجازفا

وله من أخرى أيضاً :

على الظنّ أني عنك سالٍ ولم أكن ... سَلَوْتُ ولكن عن صبوحٍ أرَقّقُ[4]
ومن فَرَقي لا تعجبي وتعلّمي ... بأنيَ ملدوغٌ من الحبل أفرق
وإني وإن عاقتْ عوائقُ دوننا : ... رقيبٌ عتيدٌ أو فراقٌ مفرق
ليُذْكِرُنيك المسيُ والصبحُ والدجى ... وَجَوْزُ الضحى ، كلٌّ إليكِ مشوقُ
مشَمٌّ ذكيٌّ عَرْفُهُ ، ومقبّل ... شهيٌّ ، وصدرٌ ناهدٌ ، ومُعنّق

....

١ من ط : سراد .

٢ فيه إشارة إلى المثل : « ماء ولا كصداء ومرعى ولا كالسعدان » .

٣ ط : أبرضت ؛ وأرضت : جعلتها أريضة مرعة ، والخشاشي: الأرض الصلبة ذات الحصى، والخشائف : اليابسة .

٤ من المثل : « أعن صبوح ترقق » يضرب لمن يعرض بشيء وهو يريد غيره . انظر فصل المقال: ٧٥ والضبي : ٥٣ .

وخدٌّ غدا يستغفر الله كلّما | تخلّلَهُ لحظي يعيث ويفسقُ
يخادعه مكراً فيحسبُ أنّه | يناجيه سرّاً وهو يزني ويسرق
وليل زمان الوصل منك لحقته | بيوم به كلُّ الأمانيِّ تلحق
نرقرق من نظمِ الكلام ونثره | سُلافاً تُسقّاها الحرشّى[1] وتُغْبَق[2]
حديثاً كعرف العنبرِ الورد بيننا | مع المسك مفتوقاً يُذَرُّ ويسحق [٣٦ب]
جلَتْ وهي عبْرَى عن محيّا نقابَها | كما انحلَّ خيطُ المزنِ والشمسُ تشرق
تكاد بلحظ الوهم تَنْدى غضارةً | وتُعْقَدُ ليناً بالبَنانِ وتُطْلَقُ
ومما يغيظُ الخيزرانةَ أنها | بعقدتها فوق الحشا[3] تتمنطق
إذا طفقت[4] تمشي الهوينا تهادياً | كما انساب مشحوناً على الماء زورق
أرتكَ الهوى رُشْداً ولم تَعْدُ أنها | أراكٌ على وعساءَ بالحلْي تورق
وإن سفَرَتْ تفترُّ عما بجيدها | وعن مثل ما تفترّ من ذاك تنطق
سمعتَ قلوبَ العاشقين كأنها | بنودُ أبي عمرو معَ الريح تخفق
مليكٌ له مرأىً جميلٌ ومخبرٌ | نبيلٌ وفعلٌ مُستطابٌ ومنطق
تلوذُ بحقويه الملوكُ كأنها | كواكبُ بالشمسِ المنيرة تُحدق
إذا صال كاد النجمُ من شدِّ صولهِ | يخرّقُ جلبابَ الدجى ويمزّقُ
وإن لقي الأعداء ولّتْ كأنها | بُغاثٌ رأت في الجوّ صقراً يحلّق
له من نبيلِ الرأي سيفٌ وذابلٌ | ومن حزْمهِ درعٌ حصينٌ ويَلْمَقُ
ذكيٌّ إذا حاك الكلامَ رأيتَهُ | يصمّمُ في أوصالهِ ويطبّق

١ في النسخ ، حرشى ، ولا وجه لاسقاط « ال » التعريف فيه .
٢ م ط د : ترقرق . . . ونعبق ، والبيت متصل بما بعده .
٣ ط د م س : الحيا .
٤ ط م : اطفقت .

يشقّقُ أبكارَ المعاني كأنّها ... جيوبٌ بأيدي الثاكلاتِ تُشَقّقُ

يطيبُ نسيم الشّعرِ من طيب ذكره ... وتعذبُ أفواهُ الرواةِ وتعبق

متى حكْتُ فيه الشعرَ بيتٌ وليلتي ... من الروضة الغنّا أنمّ وأعبق

به دمّر الرحمن دمّر وانطوى ... بنو يَفْرَنٍ أعدى الأعادي وأمرق [1]

ومن آلِ يرنيّان [2] أنكثُ أمّةٍ ... لعهدٍ وميثاقٍ وأغوى وأفسق

ثلاثةُ رهطٍ بدّدَ اللهُ شَمْلَهُمْ ... أثافي كانوا للفسادِ ففرّقوا

وصيّرهم قبل انقضاءِ حديثهم ... حديثاً به ظهرُ الجدالةِ [3] يُخْرَقُ

وكلٌّ غدا رهناً بما كان عاملاً ... وكلٌّ على ما خيّلتْ سوف يَغْلَقُ

فأشكلُ ملبوسٍ تخيّرتَهُ لهم ... جوامعُ أغلالٍ بها يُتَأنّقُ

وأفضلُ مركوبٍ عليه حملتهم ... أداهمُ إلاّ يعنقوا ليس تُعْنِق

همُ وردوا الحوضَ الذي عنه ذدتهم ... وواردُ ذاك الماءِ لا بدَّ يعلق

همُ نقضوا ميثاقَ عهدك عَنْوَةً ... فأوثقهم في رِبْقَةِ الأسرِ موثق

همُ أنضجوا ذاك الشواءَ فرمّدوا ... وهم طبخوا ذاك القديد فأزعقوا

ومنها :

بمعتضد بالله أشرقتِ الدُّنا ... وأطلقها من ربقة الجورِ مُطْلِقُ

ورقّتْ حواشي الدهرِ حتى كأنه ... رداءُ عروسٍ بالعبير مرقرق

١ بنو يفرن من زناتة ، استولوا بعد الفتنة على تاكرنا وكانت قلعتهم رندة ،وكان زعيمهم أبو نور بن أبي قرة حليفاً لعباد ، ثم غدر بهم عباد في حديث طويل ، (انظر البيان المغرب ٣ : ٢٧٠ وما بعدها) وقوله : « دمر » هي أحد فروع اليفرنيين، وفي النسخ : تدمر .

٢ وردت في النسخ: يرقيان ، وعند ابن عذاري (٣ : ٢٧١) يرنيان ، وكان أميرهم عبدون بن خزرون صاحب أركش وشذونة،وقد قام عباد بالقضاء عليهم أيضاً وأباد أكثرهم سنة ٤٥٨ .

٣ الجدالة : الأرض .

ومنها :

لأغرقتني من أن أكونَ بشكرها ... أقومُ ، على أني أقومُ فأغرق
ولو كلُّ عضوٍ فيَّ أو كلُّ شعرةٍ ... بجسمي لِما أوليتَ بالشكرِ تنطق[٣٧أ]
أتتني يدٌ بيضاءُ منكَ كأنَّها ... سنا الصبح تجلو الهمَّ والصبح مشرق
ومشتاقة عذراء شُدَّ خناقُها ... ولم أرَ عذْراً مثلها كيف تخنق
عليها من اسم الملك عِقْدٌ منظَّمٌ ... ومن خاتم الملك اليمانيِّ بُخْنُقُ
تلاقيتُها بِشْراً ملاقاةَ شيِّقٍ ... إليها فقلْ إلفٌ تلقَّاهُ شيق
أقبِّلُها طوراً وطوراً أضمُّها ... إلى كبدٍ تَحنو عليها وتشفق
إلى أن تشفَّينا عناقاً وخفتُ أن ... يضرَّ بها ذاك الرباطُ المخنَّق
قطعتُ عليها عقدها فتَنَاثَرَتْ ... دنانيرَ أمثالَ الكواكبِ تشرق
كحلتُ بها حولاءَ عينيَّ فاغتدى ... بها حَوَرٌ يُزْهي العيونَ ويونق

ومنها في ذكر قصيدته :

وأيقظتُ أفراخي لها فتطايروا ... سروراً بآباطٍ عليَّ تصفّق
فيا لك من لهوٍ وطيبٍ وفرحةٍ ... ويومِ سرورٍ حُسْنُهُ متألّق
لو أنَّ جريراً والفرزدق أنْشِدَتْ ... لأدّى جريرٌ حقَّها والفرزدق
وهنّ وإن كانتْ قوافيَ تنتقى ... جبالٌ بإجهاد القرائح تُنْتَقُ

وله فيه من أخرى[١] :

وليلٍ كأكبادِ العُداةِ وصلتُهُ ... بنومٍ كسا الآفاقَ منه وصائلا
ويومٍ عماسيٍّ بليلٍ ذَعَرْتُهُ ... كما فاجأ الرعديدُ في الحرب باسلا

....

١ موضع هذه العبارة بياض في م ط س .

وجرية ماءٍ كالمجرّة جلّلَتْ من البِركِ الملأى بدوراً كواملا
تشادي به وُرْقُ الحمائمِ بالضحى بلابلَ يبعثْنَ الأسى والبلابلا

ومنها :

أحمِّج شريَ الخطب جرْواً ومخْطِباً[1] وألمجُ بنتَ الدهر جدّاءَ[2] حافلا
وألقى بأمثالِ الخطوبِ خطوبها من الهمّة الطولى تليلا وكاهلا
ومن يشكُ ما أشكو إلى نَصَبِ السُّرى من الراحة استمرى السُّمومَ القواتلا
ومن يرجُ عبّادَ بنَ عبّادٍ الرّضا رجائيَ لم يلقَ اللياليَ خاملا
فتى تدّري[3] الهيجاءُ أرواقَها به على نِكْلِ حَرْبٍ[4] لايرى الدهرناكلا
وتسفرُ منهُ المشْكِلاتُ نقابَها إلى فيصلٍ يستشعرُ القولَ فاصلا
وما أصعبَ الأشياء حتى يرومَها برأيٍ يُريه آجلَ الأمر عاجلا
يذلّ له الأمرُ العسيرُ فكاد أن يكلّفَهُ أنْ يُرْجِعَ العامَ قابلا

ومنها :

وطوّقني دون السؤالِ اهتباله[5] أياديَ جلّتْني وقد كنتُ عاطلا
فأينع لي ما جفّ من عُودِ مطلبي وعاد أجاجي منه عذباً سلاسلا
تراسل في الحلّى أسِرّةُ وجهِهِ نجيعاً وطوراً سؤدداً وطوائلا

....

١ في د ط : جدواً ؛ ويحمج : يحدق النظر ، (وفي السخ : يجمح) والشري: الحنظل، والجرو : الحنظل حين يكون صغيراً ، والمخطب : الحنظل حين يصفر .
٢ في النسخ : ألمح ؛ وألمج : أرضع ؛ الجداء : القليلة اللبن ، والحافل : الضرع الممتلىء باللبن .
٣ في النسخ : تزدري ؛ ولا معنى له .
٤ نكل حرب : قوي عليها ، وفي النسخ : حزب .
٥ م ط : ابتهاله ؛ س : اهتبالها .

يدٌ تَسَعُ الدنيا بما وَسِعَتْ ولا   أحاشي بهابرّاً وبحراً وساحلا [٣٧ ب]
يَقِلُّ أبانٌ[١] أن يرى فصَّ خاتَمٍ   لها والبحورُ الزاخرات أناملا
أمُسْتوصفي عنه ابنَ بجدتّها أجَلْ   لقد جَلَّ عن وصفي عُلاً وفواضلا
مساعٍ إذا ما الوصفُ حاول بعضَها   ذهبن به في كلِّ وادٍ محاولا
خلعن على سحبان حُلّةَ باقلٍ   فساوى بها سحبانُ في العيِّ باقلا
سوى العجز لا يجدي تناول وصفها   عليَّ وقولي عَزّتِ المتناقلا
وإنَّ زماناً جادَ فينا بمثلِهِ   جديرٌ بأن يُدْعى الجوادَ المناولا
فهذا مكانُ الوصفِ إن كنتَ واصفاً   وهذا مكان القولِ إن كنت قائلا
فما يهبُ الآمالَ إلاَّ حوالياً   إذا وهب الناسُ العطايا عواطلا
وإن خاتلت أعداؤه أُفَتّا[٢] لهم   بمأقِطِ[٣] حَرْبٍ لم تجده مخاتلا
فما ينظمُ الآراءَ إلاَّ دآدياً   ولا يبعثُ الراياتِ إلاَّ قوائلا

ومنها :

همُ القوم طابوا أبْطُنا وعمائراً   وطابوا شعوباً قوبلتْ وقبائلا
ضراغمُ آجامٍ تَهبُّ لدى الوغى   شمائلهم في المأزقين شمائلا
فما حملوا إلاَّ بنصرٍ حمائلاً   ولا أعملُوا إلاَّ بِنُجْحٍ عواملا
ولا ادّرعوا غيرَ القلوبِ سوابغاً   ولا سكنوا غيرَ السّروج معاقلا

ومنها :

ودونكها مصبوحةً رِسْلَ مِقْوَلٍ   أزفّ بها . بكراً عواناً مُراسلا

١ أبان : اسم جبل .
٢ س م : أفة .
٣ المأقط : المعترك .

قوافيَ أمثالَ الصخورِ بعثتُها قديماً على أسماعِ قومٍ معاولا
حواملَ للآمالِ أجمل[1] من غدت مطافيل بالمعنى النفيس حواملا
إذا أنْشِدَتْ في محفلِ القومِ أعربتْ من الغيظِ في أضلاع قوم محافلا
بيانٌ هو السِّحرُ الحلالُ تَجَوَّدَتْ به فكرةٌ أضْحَتْ لبابلَ بابلا

وله من أخرى في اسماعيل بن عباد :

هَوى بي هوى الغيدِ الحسانِ فللجوى بكلٍّ فؤادٍ من فؤادي[2] تمكُّن
وزيَّن عندي حُلَّةَ السُّقْمِ أنَّها نحورٌ بها زُهْرُ الحلى تتزيَّن
أما وعيونِ العينِ يومَ النوى لقد سبى قلبيَ الغصَّانَ منهنَّ أغصن
أمرضعَها كأسَ الملامةِ مُدْمناً أقِلَّ عليَّ اللوم كم أنت تُدْمِنُ
نفضتُ يدي عن كلِّ وَرْدٍ وَسَوْسن لخدَّ به وردٌ أنيقٌ وسوسن
وأغضيتُ إلاَّ أن يلوحَ لناظري محيًّا به أيقنتُ أني مُحَيَّن
وألعسَ معسولِ الثنايا من المنى ألذُّ ومن شمسِ الظهيرة أحسن
حبيبٌ رقيبُ الحسنِ فوق جبينه يتيه ، ومعشوقُ الملاحة يَمْجُن
حَشَا كَحَلاً عينيه مسكُ عذاره فلاح به وَجْهٌ من العذر بيِّن
سأهواه ما اهتزَّ الأراكُ وأصبحتْ أناملُ إسماعيلَ بالجود تَهْتِنُ [٣٨أ]
صقيلٌ فرندِ السيفِ يبيضُّ ليلَهُ إذا اربدَّ من ليلِ الكريهة مَوْهِنُ
تنبَّلَ منه كلُّ مرأىً ومخبرٍ فقد فُتِنَتْ فيه قلوبٌ وأعين
تلينُ له الأيَّام وهيَ شَدائِدٌ وتعنو وجوهُ الحادثاتِ وتذْعِنُ

....

١ م : أحمل .

٢ ساقط في ط م س ؛ وفي د : بكل فؤاد من فؤادي ؛ ولا أراه دقيقاً ، ولعل الصواب « بكل قسيم من فؤادي » أو « بكل فؤادي علقة وتمكن » أو ما أشبه من قراءة .

فلا تيأسَنْ منه بلينٍ عريكةٍ — فقد يقطع الصمصامُ والمتنُ ليّن
نماهُ إلى العليَاءِ آباءُ عزَّةٍ — رأى حُسْنَ مسعاهم فما زال يحسن
ميامينُ أمجادٌ مآمينُ لم تَكُنْ — وقائعهم في كلّ هيجاء تؤْمَن
ترقرقُ منهم بالسماحةِ أوجهٌ — وتنثالُ منهم بالفصاحةِ ألسن
كفاهم باسماعيل مجداً مؤثّلاً — وعزّاً مكيناً لا يني يتمكّن
تَظُنُّ به في المُشْكِلاتِ كهانةً — وليس كذا لكنّهُ يتظنَّن
توقُّدَ ذهنٍ في خمودِ سكينةٍ — ذكيٌّ[1] كمثلِ النارِ في الزّنْدِ تكمن

وله من أخرى :

ما بيّن البينَ يومَ الخوفُ مذمومُ — إلاّ إشارةُ عنّابٍ وتسليمُ
وآيةُ الحبِّ في الأجفانِ واضحةٌ — والستر منهتكٌ والصبرُ معدوم
هي الغزالةُ لولا ضيقُ دملجها — حَمَّلتها ضعفَ ما يلقى بها الريم

ومنها :

ساروا وقلبي أسيرٌ في القباب وقد — حداهمُ[2] كلّ رَهْوِ السير مخطومُ
وفي الغبيطِ الموشّى شادنٌ خَرِقٌ — أحوى المحاجر طاوي الكشح مهضوم
مخدّد الخدّ بالأوهامِ ناعمه — كأنّه سوسنٌ بالورد ملطوم
بدرٌ بديباجتيه عُجْمَتا سَبَجٍ[3] — تحفّه طُرَّتا ليلٍ وتعميم
غُصْنٌ من الوَرِقِ الماذيّ يجذبه — للّينِ حِقْفٌ من الكافور مركوم
يُهْدي لك الدرَّ من لفظٍ ومبتَسَمٍ — ضربان مُنْتَثِرٌ منه ومنظوم

.. ..

١ لعل الصواب : « ذكاه » .
٢ س ط : حدا بهم .
٣ العجمة : النقطة ؛ السبج : الخرز الأسود .

يجني الذنوبَ وأحنو أن أواخِذَهُ | من أجلِ ذلك قيلَ الحسنُ مرحوم
ما هاج برحَ الهوى إلاّ مطوّقةٌ | كأنّها من نحولٍ شفّها جيم
ترنّمَتْ ودموعُ الصبّ آيَةَ أنْ[1] | يُهِلَّ ساجِمَها بينٌ وترنيم
أيا حمامةَ ذا الوادي أثرتِ جوًى | تنقضُ منقدّةً منها الحيازيم
إلاّ يكنْ وادياً حلّتْ ركابُهُمُ | به وإلاّ فما واديك مأموم
همُ أناخوا بِجِزْعَيْهِ جمالَهُمُ | وأنهلوها وهنَّ الطُلَّحُ الهيم
[هلمّ][2] نسري اعتسافاً حيث عنَّ لنا | منهن وهناً سنا نارٍ وتخييم
نُغْشي بهنَّ بنات الوخدِ سابحةً | تَخْدي وقد همَّ بالسَّمّار تهويم
يُنْضِي[3] سرى الليل تأويب النهار ولا | هجير من لهب الرمضاء تضريم
والآلُ عند هيام القيظِ مضطربٌ | كأنّه في بَساطِ القاعِ محموم[٣٨ب]
يزاحم الليلَ والخرقاء موضعةٌ | والقفرُ مثل طراد السَّيف ديموم
مَزِّقْتُهُ وثريّاه تلوحُ كما | لاحت بأنملِ زنجيٍّ خواتيم
وقد محا سُنّةَ البدرِ الخسوفُ كما | محا سنا رونقِ المرآة تسهيم

ومن المدح :

حوى من الفخرِ ما لم يَحْوِهِ مَلِكٌ | وحاز ما لم يَحُزْهُ العُرْبُ والرومُ
أغرُّ مبتهجٌ فاح الزمان به | كأنّما دهرنا بالمسكِ مرثوم[4]
هو الجواد الذي أضحى السّماح له | رَيْطاً كأنَّ العطايا فيه تعليم[5]

....

١ س م ط : أفة أن .

٢ بياض في م د س ؛ وفي ط كلمة لعلها مزيدة بخط غير خط الأصل .

٣ ط م س : يضني ؛ د : يقي .

٤ مرثوم : مخلق ملطخ بالطيب .

٥ التعليم : جعله معلماً أي مخططاً .

قد كفل الخلقَ جدواهم فعمّهمُ — كأنّما الرزقُ من كفّيْهِ مقسومُ
إذا نبا حادثٌ للدهر عنٌّ لهُ — عزمٌ ثنى المَتْنَ منه وهو مَقْصوم
يا ها أميّة لا تقرب لحمصَ حمى — محمدٍ ما[1] تحامى فهو ترخيم
كذاك آباؤه الماضون هم أكَما — تُ العزّ ما ظُلِموا يوماً ولا ضيموا
إذا نظرتَ فأشكالُ البدورِ وإن — خَبَّرْتَهُمْ فهمُ الأسْدُ الضراغيم
نماك للمجد عبّادٌ فأنت له — نجلٌ سَمَتْ بكما الصِّيدُ اللهاميم
هذي الليالي على حُكْمِ وإن رغمت — زمامها بكلا كفّيكَ مزموم

ومنهم الوزير الكاتب أبو عمر بن الباجي[2]

قال ابن بسّام : وكان أبو عمر يوسف بن جعفر المعروف بابن الباجي من بلغاء الكتاب . وأغرب شأوُ جَدّهِ الباجيّ في الولادةِ كلَّ الإغراب ، في صلةِ حَبْلِ البلاغة على جميع كتاب الإسلام ، لأنّه أنسلَ أربعةً من حَمَلَةِ الأقلام وفرسانِ الكلام ، أولهم جدُّهُ يوسف ، وابنه جعفر بن يوسف ، وعبد الله ويوسف ابنا ابنه جعفر ، ويوسف هذا هو المكني بأبي عمر . فأما أبوه جعفر فكتب صدر الفتنة المؤرخة أوّلَ هذا الكتاب لعدّة

.....

١ ط د م : وما .

٢ ذكر ابن سعيد (المغرب ١ : ٤٠٥) أن يوسف بن جعفر الباجي كان فقيهاً جليلالقدر رحل إلى المشرق وحج وولي قضاء حلب ، وعاد إلى الأندلس فجل قدره عند المقتدر بن هود ملك سرقسطة . وقد ذكره ابن بشرون الصقلي وعنه ينقل العماد (الخريدة ٢ : ٣١٣) وذكر أن له مؤلفات وتصانيف شرعية ؛ وعاد العماد فذكره (٢ : ٣٨٠) نقلا عن القلائد : ١٠٢ وفيها أن كنيته « أبو عمرو » ، وانظر المسالك ١١ : ٤٢٠ .

من كبار أملاكها آخرهم يحيى بن اسماعيل بن ذي النون ، ولديه توفي بمدينة سالم سنة خمس وثلاثين . وكان أبو عمر هذا إنما تصرف كاتباً ، وطلع شهاباً ثاقباً ، بأفق المشرق ، وإنما ذكرته هنا لأنّ بلده وبلدَ سلفه باجة ، إحدى مدن الجانب الغربي من الأندلس ، وقاعدةُ بلادِ ساحلِ البحر المحيط الروميّ .

ونقلتُ ما أثبتُّ في هذا المجموع من رسائل بني الباجي من قراطيس تعاليق ، وبطائق وقعت إليّ تفاريقَ ، منسوبةً لهم في الجملة ، وربما اختلطت رسائلُ الابن والأب لهذا السبب ، وهذا الذي أصِفُ وأشرح ، ممّا لا يضرُّ ولا يقدح[1] ، لا سيّما في رواية حكايةٍ لا يُخِلُّ بها نِسبَتُها إلى من < لم > يَحكيها ؛ وفي نَشْرِ نسيجةٍ لا يَغُضُّ منْ بهجتها إضافتها إلى مَنْ لم يَحُكْها ، وإنما هي مُلَحُ منثور أو منظوم ، وليست بحقائق علوم ، فنتكلّفَ في صحةِ الأسانيد ، والفرقِ بين سُعَيد وسَعيد ، والفَصْلِ ما بين عُبَيْد وعَبيد . وعلى أيّ حال ورد هذا المجموع ، من مجهولٍ أو معلوم ، في منثور أو منظوم ، فبديعٌ رائقٌ ، ومتأخّرٌ إن شاء الله سابق .

جملة من رسائله في أوصاف مختلفة

له من رقعة عن ابن هود إلى المعتضد :

كثرت — أيّدك الله — محامدُكَ فصارت زادَ الرفاق ، وأشرقت

---

[1] هكذا يقول ابن بسام ، ولكن هذا من التجوز الذي يلحق ضرراً بالدراسة الدقيقة . والمؤلف إنما ينتحل لنفسه عذراً ، وقد علق العمري على هذا بقوله : « وهبهم أهل بيت واحد ، أليس يفرق بينهم التفاوت ؟ ! » .

محاسنُكَ فتَرَمَتْ بساطع نورها إلى الآفاق ، ففي كلّ سبيلٍ طليعةٌ من ثنائكَ مرحل[1] ، وفي كل أفق بريدٌ من أنبائك يُتَعَلّل ، [٣٩ أ] ولفضائلك المأثورةِ حَمَلَةٌ يتباينون في القدر ، ويتفاضلون في النَّشْرِ ، وكلّهم موجزٌ وإن حاولَ أن يُطْنب ، ومقتصدٌ وإن حاولَ أن يُسْهِبَ ، والله يصونُ ما ألبَسَكَ من المكرمات ، ويزيدُ فيما خَوَّلَكَ من الصالحات ، بمنّه .

وأنا لا أزال بفضلِ خُلُوصي إليك ، وصدقِ انجذابي لك ، وشدّةِ اغتباطي بموهبةِ الله السَّنيَّةِ فيك ، مصيخاً إلى كلّ داعٍ بشعارك ، وحاملٍ لآثارك ، مستهدياً لطيبِ أحاديثك ومبهج أخبارك ؛ فإذا ظفرتُ بمحدثٍ عنك فقد نلتُ جَذَلي ، وإذا وقفتُ على خَبَرٍ من لدنك فذلك من أملي .

وفلان لحق بجهتي ، طاعتك ؛ وعنده أوفى بضاعةٍ من رفيع ثنائك ، وأحْسَنُ إشاعةٍ بجميل أنبائك ، وهو الناطقُ القؤول ، والصادقُ المقبول ، فَعَرَضَ تلك البضاعةَ الزكيّةَ في معرض نَفَاقها ، وقصد بها أقْوَمَ أسواقها ، وأهدى ذلك العِلْقَ السنيَّ إلى مستهديه ، وأدّاهُ إلى يدٍ[2] مقتنيه ؛ ولما أنْ صَدَرَ عنْها ، بعد انقضاء وطره منها ، وقد ضمّخها بذكرك ، وقام فيها بشكرك ، تُقْتُ إلى مواصلتك معه ، وتجديد العهد الكريم على يده ، فأصحبْته كتابي هذا مُخْبراً عن مقامه في بثّ مناقبك ، وواصفاً لحاله في نشر محامدك ، ومحيلاً عليه في وصف ودّي ، والإخبارِ عمّا عندي .

وله من تعزية إلى ابن أبي عامر في ابنه المعتز[3] : بأيّ لسان — أيّدك الله —

١ كذا في النسخ .
٢ يد : سقطت من ط .
٣ وردت هذه الرسالة في العطاء الجزيل : ٦٢ .

أخاطبك مذكّراً ، أو بأيّ مقالٍ ألاطِفُكَ مصبّراً ، وقد أذْهَلَتْني فَجأةُ الخطْبِ ، وتركتني طائرَ القلبِ واللبّ ، وقد رماني ساعدُ الزمانِ حين رماك ، وأصماني سَهْمُهُ كما أصماك ، وثارتْ إليّ فجائعُهُ من حيثُ ثارتْ إليك ، ودارتْ عليّ وقائعُهُ من حيثُ دارت عليك . ولو كان ما طالعني خَطْرَةَ حُلُمٍ ، لكفى به داعية بثٍّ وألم ، فكيف إذا كان يقيناً يقطع أمَلَ المؤمّل ، ويُبْطِلُ رجاءَ المرتجي المتعلّل ؟ !

وورد كتابُكَ الجليلُ ناطقاً بلسانِ الرزيّة ، مقصداً سهمَ الفجيعة في المعتز بالله ، ابنك ، ومعتمدي — كان — فانّا لله ! ! أيّ رزء ما أفظعه في القلوب ، وأيُّ خطبٍ ما أشْنَعَهُ في الخطوب ، وأيّ مصابٍ ما أحقَه بالأسى[1] ونَبْذِ الأُسَى ، لولا أمر الله تعالى . ولا أجِدُ — أيّدك الله — لهذه الفادحةِ قدراً ، ولا أقيسُ بها أمراً ، ولا أكاد أقولُ في مثلها صبراً . فانها سالبةُ الأذهانِ ، وجامعةُ الأحزان ، وخبيثة الحدثان . وكبيرة[2] نوائبْ الزمان .

وفي فصل منها : ونحن مأمور فينا ، ومحكومٌ علينا ، يملكنا خيرُ المالكين ، ويحكمُ فينا أعْدَلُ الحاكمين ، ولو شاء الله لم يَخْلُقْنا ، فضلاً عمّن خَلَقَ منّا ولنا ، وقد أنعم الله عليكَ بنعمى متّعَكَ[3] بها ما شاء ، ثم صنع في بعضِ ما شاء ، فان تقابلْ بالاحتساب قَدَرَهُ النّازلَ ، وبالتفويض

١ العطاء الجزيل : بطول الأسى .
٢ في النسخ : وكثيرة .
٣ في النسخ : منحك ، والتصويب عن العطاء الجزيل وزاد فيه بعد اللفظة « الله » .

قضاءَهُ العادلَ ، فأحْرِ بحزنِكَ أن يعودَ سروراً ، وبِصَدْعِكَ أن يكون بثواب الله مجبوراً .

وله من أخرى في مثله[1] : كتابي عن نَفْسٍ مستطارةٍ بِلَوْعَتِها ، وكبدٍ مُذابةٍ بروعتها ، وعن قلبٍ شعارُهُ بَرْحُ الجوى ، وأعشاره نَهْبُ الأسى ، تفجُّعاً لما فجعك ، واشتراكاً في عظيم المصاب معك ، وأسَفاً على من فقدناه فقْدانَ السّمْعِ والبصر ، ورُمينا فيه بأفظعِ الحوادثِ والغِيَر ، فانّا لله وإنّا إليه راجعون، بها يعتصمُ العارفون، وإلى حقيقتها يرجعُ المسلمون.

وانَّ كتابك ورد منبئاً عن صورة حالك ، وتوفيةِ[2] رزئِكَ حقّه من الأسف ، وإعطاءِ مصابك بقدره من اللّهَفِ ، فَسَدَّ[3] على نفسي — فَادِيَتِكَ — ثنايا الصّبْرِ ، ووقع منها موقع المشيم من الجمر[4] ، ولعمرُ الله إنه الرزء، [فليس كمثله الأرزاء، التي] يحسن فيها العزاء[5]، وإنك بالبث[6] والحزن لحقيق ، ثم إنك بالصبر والاحتساب[7] لخليق ، ولولا أنّي أثقُ برجوعك إليه ، وتأييد الله تعالى لك في الاحتمال عليه ، لسلكت في الذكرى طريق المحتشد [٣٩ ب] ، وأنْفَدْتُ فيها وُسْعَ المجتهد، على أني باستهدائها[8]

---

١ وردت في العطاء الجزيل : ٦٣

٢ العطاء الجزيل : في ثوفية .

٣ ط م س : فشد .

٤ في النسخ : الجبر .

٥ ط م د س : لرزء يسهل لا يحسن فيها ، وأثبت ما في العطاء الجزيل .

٦ ط م د س : للبث .

٧ ط م د س : في الاحتساب .

٨ م س : باستدائها ، ط : باستمدانها .

جدير ، وإلى سماعها فقير . وما اقتباسي إلا منك ، ولااقتدائي إلا بك ، جعلك الله في تلقّي هذا الرزء ، وتحمُّلِ هذا العبء ، قدوةَ رشدٍ للجازعين ، وأسْوَةَ هدىً للغافلين[1] .

وله من أخرى إلى ابن هود بعد خروجه عنه : كتب مملوكُهُ المتحفُ في نعمائه ، المتقلِّبُ في آلائه ، من فُلانَةَ ، وما قطعَ مرحلةً ، ولا احتل منزلة ، إلا ودأبُهُ وَصْفُ معاليه ، ونَشرُ أياديه ، وأمّا مفارقةُ ذَراه فيكاد الإشفاق يُصْمي الجنانَ . ويُدْمي الأجفانَ ؛ وينفي بالجملة السلوانَ ، وهو أمرٌ حُمَّ واقترَبَ ، وقضاءٌ سبق وغلَبَ ، وأنا معَ انفصالي عن ذلك الكنَفِ الجليلِ المأمول . والفِناءِ العزيز الموصول ، الذي عَمَرْتُهُ في ظلّ الإكرام والتوجيه ، ومِهادِ الإنعام والترفيه ، غيرُ خارج من عداد من يتقلَّبُ فيه ، وجملةِ من يُرَاوِحُهُ ويغاديه ، لأن فَضْلَه بي حيث كنتُ محيط ، وأمَلي به منوط ، وتشيُّعي له مشهور ، واعترافي بعوارفه لديَّ مأثور ، وسيعلمُ مولايَ أني صَحِبْتُ فاعتدلت ، ثم فارقتُ وما اختَلَلْتُ ، بل أعْظَمْتُ وأجْلَلْتُ ، وأثنيتُ فاحتفلت . والله الحسيبُ بالنيَّاتِ والأعمالِ . الشهيدُ على الأقوالِ والأفعال .

ومن أخرى له : سيِّدي ، ومن أبقاه الله للكرم يتبوأ سِطَتَهُ ، والشرفِ يدَّرِعُ بُرْدَتَهُ ، والعزّ يلبسُ سِرْبالَهُ ، والفخرِ يَسْحَبُ أذياله ، بأيّ لسانٍ — أعزَّك الله — أناجيك على بُعْدِ الدار ، وقد أخْرَسْتَ عن واجبِ الشكر لساني ، وطمستَ على وجوه بياني ، بما أضفيتَ من حُلَلِ بِرِّكَ التي

[1] في النسخ · هاد للعاقلين ، والتصويب عن المطاء الحريل

أخجلتني ، وطوّقتني من مننك التي ألجمتني[1] ، بالهديّة السّنيّة التي لا يزال الدهرُ ينثرها ، وأيدي الثناء تنشرها ، فكم من عِلْقٍ نفيسٍ شافهني منها بلسان بغدادَ وعدَن ، ولاحظني بمقلة مصرَ واليمن ، وأيمُ الله : لقد ابتسمتْ إليَّ نجومُ السّماء ، ودان لها تفويفُ كلِّ روضة غنّاء ، وتحدَّثَ بها الكرَمُ المحضُ ، وأشاد بذكرها الثّناءُ الغضُّ ، وحُقَّ لهدية أهدَتْها أناملُكَ المستهلّة السحائب ، وجادت بها راحتُكَ الثَّرّةُ المواهب ، أن يَعْنُوَ لها القمَران ، ويحاسِنَ بها زمانُنا كلَّ زمان ، فلو أنَّ البحر عاينها طامياً لما ساجلك ، والغمامَ شاهدها هامياً لما طاولك .

وله من جوابٍ على كتاب عتاب : المودَّات – أعزَّك الله – إنما تثبت دلائلها ، وتصحُّ مَخايلها ، بمضمرات الفؤاد ، لا بمزوَّرات المداد ، وبمعتقدات الحقائق ، لا بمعهودات البطائق ، وفي علمه تعالى أنّي من الاعتداد بمجدِكَ ، والاعتلاقِ بحبل وُدِّك ، والاسناد إلى كرم عهدك ، بمنزلةٍ لا يتَعاطى إدراكَهَا أحدٌ ، ولا تطولُ يدَ صفائي فيها يدٌ ، وفي نفسك النفيسة من ذلك أعدَلُ شاهد . وأصْدَقُ رائد .

وقد ورد كتابُك ففضضْتُهُ[2] عن مثلِ عقاربَ لاسبةٍ ، وسهامٍ نافذة صائبةٍ ، من عتابٍ صَدَعَ قلبي ، وفتَّ في عَضُدي ، وتقريعٍ لم أقِفْ ببابه ، ولا جَذَبْتُ بأسبابه ، ومعاني العتاب[3] – أعزَّكَ الله – إذا وردتْ على سليمٍ منها . نزيهٍ عنها . مُتَحفِّظٍ من وقوعها ، متحرّزٍ من جميعها ، أساءَتْ

---

١ م ط : أفحمتني ، س : أفجعتني .
٢ م ط س : وفضضته .
٣ ط : الكتاب .

ظنّه ، وأطالتْ فِكْرَهُ ، وأشغلتْ سِرَّهُ ، ولا سيما على بعيد الدّار ، نائي المحلّ ، مشتاقٍ إلى الإخوان ، متأسّفٍ على فَقْدِ الخلصان ، مستشعرٍ حرماناً لزم ، وزماناً جارَ وظلم . وأما الهناتُ التي أطلقتَ عنانَ العتْبِ عنها في ميدانٍ فسيح ، وَجَرَيْتَ في إيرادِها جَرْيَ الشفيقِ النصيح ، فليست بهناتٍ مُخْتَلِقَةٍ لِعِرْضٍ ، ولا قاطعةٍ عن فَرْضٍ ، وربما غيَّرتْ عندك صفتي فتنكرتْ عليك ، ومثلك من حكّم الخُبْرَ على الخَبَر ، وقنعَ بالعَيْنِ دون الأثر .

وله من أخرى عن ابن هود إلى ابن ذي النون [٤٠ أ] يشكره باطلاق ابن غصن [1] من السجن : كتابي – أيدك الله – كتابٌ أعْرَيْتُهُ من ذكرِ الودادِ ، وعدلتُ فيه عن وَصْفِ الاعتقاد، خَرْقاً لعادةِ المتوددين، وصفحاً عن طريقِ المتصنّعين ، على أني – علم الله – في الصدرِ المقدّمِ ممّنْ يواليك، والرعيلِ الأول ممّن يتشيّعُ فيك، وأفردْتُهُ بشكرِ يَدِكَ البيضاء ، وحميدِ صنيعتك الغرّاء ، التي طَوَّقْتَ بها جِيدَ الأدب ، طوقاً يبقى على الحِقَب ، ووضعتَ على نار الذكاء ، وقوداً يسطعُ بطيب الثناء ، مزاحماً بفضل همّتِكَ كلكلَ الزمان ، وقد أناخ على الفهمِ بجران ، ومحافظاً على حُرْمَةِ الكرم وقد أعرض عن ثِقْلها الثّقلانِ ، أنَفَةً من أن يضيعَ حذاءَ نظرك حقُّ أديبٍ ، وتَتَقَطّعَ بمرأى عينك نفسُ لبيب ، وأنت عينُ الآداب ، وعمدةُ ذوي الألباب ، فيعودَ عليكَ من أهلها ملام ، ويقولَ قائلها ضاعَ عند أوفى البريّةِ ذمام . فلله هِمّتُكَ التي أبَتْ إلاّ الحفاظَ السليم ، وشيمتُكَ التي لم تَرْضَ إلا المقامَ الكريم ، وَيَدُكَ التي انتعَشْتَ

...

[1] كان المأمون بن ذي النون قد سجن أبا مروان ابن غصن الحجاري ، انظر أخباره في القسم الثالث : ٣٣١ وما بعدها .

بها الأديبَ أبا مروانَ بن غصنٍ من هُوَّةِ العثار ، وفككتَهُ من قبضةِ الإسار ، فأحييتَهُ وهو مُشْفٍ على البوار ، فإنها يدُ مسيحِ[1] الكرام ، ومبدعةُ حسنةِ الأيام ، فلو كانتْ للمكارم صورةٌ لكانت هذه الصنيعةُ كُحْلَ طرْفِها ، أو كانت للجدّ روضةٌ لكنتَ المستبدَّ بطيب عرْفِها ، أو لو نطقتْ ألسُنُ الآدابِ لفدَّتْكَ ،أو أرْسلتْ نخبةَالثناء لما تعدَّتْكَ ، وإن كثيرَ الشكر ليَقِلُّ في جنْبِ ما أسديتَ ، وبالغَهُ ليقصُرُ عن الغاية التي لها تصدَّيْتَ ، لأنَّكَ ضمِنْتَ حياةَ نفس، ونشرتَ دفينَ رَمْسٍ ، فكأنك أحييتَ جميعَ الورى ، ونشرتَ كلَّ مستودَعٍ في الثرى ، وأنّى يقاوِمُ هذا الصنيعُ ، ولو تظاهر على فرضه الجميع . وعند الله كفاءُ ما أوليت من جميل الفعل . وجزاءُ ما أتيتَ في سبيل الفضْلِ .

وله من أخرى على لسان البهارِ إلى ابن هود[2] : أطال الله بقاءَ المقتدر بالله ، مولاي وسيدي ، ومُعْلي حالي ومقيمِ أوَدي ، وأعاذني من خيبة العناء، وعصَمني معه من إخفاقِ الرجاء، ولا أشْمَتَ بي عدوّاً من الرياضِ يناصبني ، وحاسداً من النواوير يراقبني . وقد علم الوردُ موقعَ إمارتي، وغنيَ بلطيفِ إيمائي عن عبارتي ، وإنها تحيّةُ الزهرِ حيَّاكَ بها ،وخبيئةٌ ذَخَرَها لك وأهَّلَكَ لها ، وقد أتيتُ في أواني ، وحضرتُ وغاب أقراني ، ولم أخْلِ من خِدْمتِكَ رتبتي ومكاني ؛ ولم أعْرِ من الحضورِ بين يديك نوبتي وزماني ، وأنا عبدٌ مطيعٌ مسخَّر ، ومملوكٌ يتصرَّفُ مدبَّر ، حقيقٌ بأن يُحْسَنَ إليَّ فأُدنى ، وجديرٌ بأن يُهْتَبَلَ بي ولا أُجفى ، لأني سابقُ حَلْبَةِ النوار ، وأوّل

---

١ ط د : صبيح .

٢ تقع هذه الرسالة في سلسلة الرسائل « الزهرية » التي مرت منها نماذج في ترجمة أبي الوليد اسماعيل الملقب بحبيب : ١٢٧

طلائع الأزهار ، وأنا ناظرُ الفضل وعَيْنُهُ ، ونُضارُ الروضِ ولُجَيْنُهُ ، وقائدُ الظَّرفِ وفارِسُهُ ؛ وعاقدُ مجلسِ الأنسِ وحارسه .

وفي فصل منها : فهل لمولاي أن يحسنَ إليّ صنيعاً ، ويكرم النَّوْرَ جميعاً ، ويدنيني فأرقى إلى أختي الثريّا سريعاً ، في مجلسٍ قد أخلَصَتْهُ سحائبه ؛ وأفرغت الحسنَ عليه والطيبَ ضرائبه ، وَجْهُكَ بَدْرُهُ ، وغرَّتُكَ فجره ، وأخلاقك زَهْرُهُ ، وثناؤك دُرُّه وعطره ، وتُعْمِل في أمرِ الدنيا رأيَك ، وتترك الهمومَ حيث تُركها الناسُ قبلك ، ولو صَلَحَ الكَمَدُ لأحد لكنتُ أنا أحقَّ مَنْ لَزِمَهُ ، وأثْبَتَ عليه قَدَمَهُ . لأني سريعُ الذُّبول ، وشيكُ الأفول ، لا يصحبني الظهورُ إلا قليلاً ، ولا أُمْنَحُ من مَتَاع السُّرورِ إلا تعليلاً . غيرَ أني مُغْتَنِمٌ لساعاتي ، آخِذٌ من الأُنْسِ بقدر استطاعاتي ، وقديماً أكرمني مولاي فلا يهنِّي ، ووصلني فلا يصرمني ، ومنحني فلا يحرمني :

لا تُهِنّي بعدما أكْرَمْتَني فشديدٌ عادةٌ مُنْتَزَعَهْ

[٤٠ ب] ولابن الحناط[1] رقعة في وصف هذه الرسالة ، منها فصل قال فيه : بعثت إليكَ برسالة الوزير الكاتب أبي عمر الباجي في البهار ، منقولةً بخطّي على اختلاله ، واختلافِ أشكاله ؛ إلا أنَّ حُسْنَ الرسالة ، وموضعَها من البلاغة والجزالة ، يغطّي على قَماءَةِ خطّي ، ودناءَةِ ضبطي . فاجتلها ــ أعزّك الله ــ عروسَ فكر . لحظها حِبْر ، ولفظُها سِحْر ، ومعناها بديع ، ومنتهاها رفيع ، ومرماها سديد ، ركبَ اللفظَ الغريب فاعتنَّ له[2] المرادُ البعيد ، يُطْمِع وَيُؤْيِس ، ويوحش ويؤنس ، فأما إطْماعُها فبما تُحْرِزُ من لدونة

١ هو محمد بن سليمان الرعيني أبو عبد الله . راجع ترجمته في القسم الأول : ٤٣٧ .
٢ ط د م س : فاعتز له .

ألفاظها وسهولة أغراضها ، وأما اياسها فبما يُعْجز من امتثالها ، ويُبْعِدُه من مَنَالها ، والله يُمْتِعُكَ برياضِ الآداب تجتني أزهارَها ، وتنتقي خيارَها .

ولأبي عمرفي نزول الغيث بعد القحط[1] : إنَّ لله تعالى قضايا واقعةً بالعدلِ ، وعطايا جامعةً للفضل ، ومنحاً يبسطها إذا شاء إنعاماً وترفيهاً ، ويقبضها إذا أراد إلهاماً وتنبيهاً[2] ، ويجعلها لقوم صلاحاً وخيراً ، ولآخرين[3] فساداً وضيْراً ، ﴿ وهو الذي ينزّلُ الغيثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وينشرُ رَحْمَتَهُ ، وهو الوليُّ الحميد ﴾ (الشورى : ٢٨) .

وإنه كان من امتساك السّقيا ، وتوقّفِ الحيا ، ما رِيعَ به الآمِنُ ، واستُطِيرَ به[4] السّاكنُ ، ورجفت الأكبادُ فزعاً ، وذُهِلَتِ الألبابُ جزَعاً ، وأذكتْ ذُكاءُ حرَّها ، ومَنَعتِ السماءُ دَرَّها . واكتست الرياض غُبْرَةً بعد خُضْرَةٍ ، ولبست شحوباً بعد نَضْرةٍ ، وكادت برودُ الرّياض تُطْوى ، ومدودُ نعمِ[5] الله تُزْوَى ، ثم نشر تعالى رحمته ، وبَسَطَ نعمتَهُ ، وأتاح مِنّتَهُ ، وأزاح مِحْنَتَهُ ، فبعث الرياحَ لواقحَ ، وأرسل الغمامَ سوافحَ ، بماءٍ دَفَقٍ ، ورِواءٍ غَدَقٍ ، من سماءٍ طَبَقٍ ، استهلَّ جَفْنُها فَدَمَعَ ، وسمحَ دَمْعُها فهمع ، وصابَ وَبْلُها فنقع[6] ، فاستوفتِ الأرض ريّاً ،

١ قارن بالقلائد : ١٠٣ والخريدة ٢ : ٣٨٢ ، ووردت أيضاً في العطاء الجزيل : ١٢٩

٢ القلائد والخريدة : ترفيهاً وانعاماً . . . تنبيهاً والهاماً .

٣ القلائد والخريدة : وعلى آخرين .

٤ العطاء الجزيل : له .

٥ م : أنعم .

٦ م د س ط : فقنع .

واستكملت من نباتها أثاثاً ورئياً، فزينةُ الأرضِ مشهورة، وحُلّةُ الزهرِ منشورة ، ومِنّةُ الرب موفورة ، والقلوبُ ناعمةٌ بعد بوسها ، والوجوهُ ضاحكةٌ بعد[1] عبوسها ، وآثار الجزَعِ ممحوّة ، وسُوَرُ الشكر[2] متلوّة ، ونحن نستزيد الواهبَ نعمة التوفيق ، ونستهديه في قضاءِ الحقوق ، إلى سواء الطريق ، ونستعيذُ به من المنّةِ أن تعودَ فتنةً ، ومن المنحة أنْ تعودَ مِحْنَة .

وإحسانُ بني الباجيّ كثير ، وترسيلهم مشهور ، اندرج لهم فيه بديع ، ولا يتّسع لاستيفائه هذا المجموع .

وهذه أيضاً جملة من شعر أبي عمر

قال من قصيدة في المعتمد ، وقد طاعت له غافق والمدوّر[3] أولها :

أنارتْ لك الدنيا ووجهك أنْوَرُ　　وجلّتْ عطاياها وقدرُكَ أكبرُ
ودار كما شئتَ القضاءُ مساعداً　　فجاءتْ وِلاءً غافقٌ والمدوّر
أزَرْتَهُما بحرَ الكتائبِ مُزْبِداً　　فألقتْ عنانَ الطَّوْعِ رَضْوَى وصنبر[4]

ومنها :

... ...

[1] العطاء الجزيل : إثر .
[2] القلائد والجريدة : الحمد .
[3] غافق : حصن حصين كائن بقرب حصن بطروش (الروض : ١٣٩) والمدور حصن آخر (Almodovar del Ria) قريب من قرطبة . وانظر الحديث عن المدور في المغرب ١ : ٢٢٢ .
[4] صنبر . اسم جبل ، ذكره البحتري « اعلام رضوى أو شواهق صنبر » . وفي المسالك : وألقت عنان الطوع وهي تحسر .

يقولُ مُثَارُو الجن إذ ذعروا به | هيَ الأرض تَسْعى[1] أم هو البحرُ يزخر
سرى فاستُطيروا خيفةً من نذيرهِ | ولم تكُ ليلاً قبله الجنُ تُذْعَر
فتوحٌ يموتُ الحاسدون شجىً بها | فليت حليفَ الغيّ يحيا فيُخْبَرُ

ومنها :

لئن جهدَ المدّاحُ فيكَ فأطنبوا | فانّك أعلى في النفوسِ وأخطَرُ [١٤١أ]
فدتكَ مُسُوكٌ لا ملوكٌ كما ادّعَوْا | إذا ظفروا يوماً زَهَوْا وتجبّروا
ولله منكَ القولُ والعَقْدُ صحّةً | إذا سُدَّ مسموعٌ وخالفَ مضمر
وعصر تحلّى منك بالأحَدِ الذي | له في يد السّبْقِ اللواءُ المشهّر
وأيامُ سَعْدٍ في ظلالك أوطنَتْ | تُراحُ بها الآمالُ دأباً وتُمْطَر
نفى حسنُها عن ناظري طائفَ الكرى | فأنعمُ ساعاتي بها حينَ أسهر
وأمتَعَني جوٌّ نضيرٌ وسلسلٌ | نميرٌ وممتدٌ المطارفِ أخضر
وكم مَوْرِدٍ في الأرض يُشفى به الصدى | ولكنْ نداك الغمرُ أحلى وأنضر
أهنّيك أم هذا الأنامَ بأنعمٍ | جميعهمُ في حَلْيها يتبختر
وهل تلتقي الأجفانُ إلاّ على الرضى | وأنت على الدنيا الإمامُ[2] المؤمّر

وله فيه من أخرى أولها[3] :

لا زال عزّكَ يُخْضِعُ الأطْوادا | ويُذِلُّ في آجامها الآسادا
لله أيامٌ بقربكَ أنْعَمَتْ | ما ضرّها أنْ لم تكنْ أعيادا

---

١ المسالك : تطوى .
٢ المسالك : الأمير
٣ منها أربعة أبيات في المسالك .

راقتْ محاسِنُها وطابَ نَعيمُها فأتى الزمانُ حدائقاً وَعِهادا
أسفي على زَمَنٍ مضى في غيرها يا ليتَ ذاهِبَهُ استُعِيْدَ فعادا

وهذا كقول أبي العلاء[1] :

وأطربني الشبابُ غداةُ ولّى فليت سِنِيهِ صوتٌ[2] يُسْتعادُ

وفيها يقول ابن الباجي :

مَنْ مبلغٌ عنّي الأحبّةَ إذ نأتْ أوطانُهُمْ والمعشرَ الحسّادا
أنّي وجدتُ الجوَّ طلقاً بعدهم والماءَ مصقولَ الأديمِ بُرادا
فليكبتِ الأعداءَ أنّكَ واحد رَجّحَ الجموعَ وقلّلَ الأعدادا
لله معتمدٌ عليه مُؤيّدٌ بالنصرِ منه عفا وجاد وذادا
لا يصرفُ النصحاءُ عزمَ سماحِهِ سبحانَ مَنْ طَبَعَ الجوادَ جوادا
جودٌ يفيضُ البحرُ منه ومنّةٌ في البأسِ يُدْهِشُ ذِكْرُهَا الأنجادا
وأناةُ حلمٍ في إباءِ حفيظةٍ كالأرضِ تُطْلِعُ سوسناً وَقَتادا

وله من قصيدة في تأبين المقتدر بن هود . أولها[3] :

كأنك ما اتخذت القصرَ دارا ولا أوْقَدْتَ بالعلياءِ نارا
ولا غَدَتِ الجموعُ عليكَ خرسا يهابونَ السكينةَ والوقارا
سكينةُ ألمعيٍّ في حُباهَا شمائلُ تكسبُ الأنسَ النّوارا
خلائقُ يستنيرُ الفضلُ منها رياضُ الحزْنِ سامَرَتِ القِطارا [١٤١ب]

١ شروح السقط : ٢٨٤ .
٢ م د ط س : صوب .
٣ منها أربعة أبيات في المسالك .

تعالى الله كيفَ هوى ثبيرٌ ووافى البحرُ مَسْقَطَهُ مغارا
أسرَّ الدهرُ مُقْتَدِرَ المعالي فَلِمْ يا بدرُ فارقتَ السرارا؟ !
أباحَ لهاجمِ الحدثان منه زعيماً لم يزل يحمي الذِّمارا
وطال به الزمان وكان قدماً يجيرُ على الزمانِ منِ استجارا
ربيبُ وقائعٍ بَلِيَتْ عليه حمائلُهُ وما حمل[1] العذارا
لتَبْكِ الخيلُ مُرْسِلَها رياحاً تلوثُ بمفرق الشمس الغبارا
وبيضُ الطبع مُصْلِتَها بروقاً وَصُفْرُ النبع مُقْدِحَها شَرارا

في ذكر الأديب الأريب أبي الحسن ابن الاستجي[2]

وكان شاعراً مُجيداً ، وإماماً في سائر التعاليم محموداً ، وله سَبْقٌ لا يُنْكَرُ ، وحقٌ لا يؤخَّرُ ، وإحسانٌ لا يزالُ يُذْكَرُ ،أنشد له أبو الوليد ابن عامر في كتابه المسمّى بـ « البديع في فصل الربيع » قال، أنشدني أبو الحسن ابن الاستجي لنفسه[3] :

قد قلتُ للرّوضِ ونوّارُهُ نوعانِ تبريٌ وفضّيٌ
وَعَرْفُهُ مختلفٌ طيبُهُ صنفانِ خمريٌ ومسكيٌ
ووجهُ عبد اللهِ قد لاح لي وهو من البهجة دُرّيّ

. . . .

١ ط م س د : حام .
٢ هو علي بن عبد الله بن علي المعروف بابن الاستجي ؛ ذكره الحميدي مرتين (الجذوة : ٢٩٥ ، ٣٧٠) وتصحف اسمه في الموضع الثاني إلى « الأشجعي » وكان فقيهاً نحوياً من أهل قرطبة ، سكن اشبيلية (انظر البغية رقم : ١٢٢١ ، ١٥٢٢ والمسالك ١١ : ٤٢) .
٣ انظر البديع : ١٨ والجذوة : ٣٧١ والمسالك والبغية .

شِمْ غَرْسَكَ الأرضيَّ إن الذي أبْصَرْتُهُ غرسٌ سماويّ
حُسْنُكَ نَوْريٌّ بلا مِرْيَةٍ وحسنُ عبد الله نُوريّ

ومعنى البيت الرابع من هذه ناظر إلى قول الآخر :

لا تَقِسْ غَرْسَ ربنا بالذي يَغْرِسُ البَشَرْ

وقال يمدح المعتضد[1] ويصف الشقائق[2] :

إن الشقائقَ من حُمرِ الخدودِ قد اشْـ ـتُقَّت ومسودُّها من حالك اللممِ
كأنها في المروجِ الخُضْرِ آنيةٌ حمرٌ قد اضطربت[3] من قانىء الأدم
يا ابنَ الذي قد حماها في منابتها فلم تزلْ في حمىً منه وفي حَرَمِ
معروفةٌ باسمه في كلِّ مُطَّلَعٍ محفوظةَ المنتمى مرعيَّةَ الذمم
جَدَّدْ[4] لها من وكيد العهد حُرْمَتها وَصِلْ لها مُحْدَثَ الإكرام بالكرم

أشار إلى أن جدَّهُ كان النعمانَ الذي نسب إليه الشقائق ، وروي أنه مشى يوماً في بعض شأنه ، فأفضى إلى موضع فيه من هذه الشقائق كثير فقال : احموها ، فحميت ، فسميت بذلك شقائق النعمان ، حكى ذلك أبو حنيفة[5] ورفعه إلى الأعشى ، وذكر أنه كان حاضِرَ النعمانِ يومئذ .

وأذكر ها هنا قطعاً من الشعر ، ما ضَرَّها أنْ لم تكنْ قِطَعاً من الزَّهرِ ،

---

١ البديع : ١٥١ .
٢ م : الشعر .
٣ البديع : أبنية . . اصطلمت .
٤ س د م ط : جرد ، والتصويب عن البديع .
٥ يعني أبا حنيفة الدينوري صاحب كتاب النبات .

تعلّقَتْ بذكر ابن الاستجي هذا ، بارى بالمعارضة فيها صدورَ الرتب ، وأفرادَ أهلِ الأدبِ ممّن كان بأشبيلية في ذلك الزمان ، أخرجتُها من كتاب « البديع في فصل الربيع » لأبي الوليد بن حبيب المذكور .

قال أبو الوليد[1] : أنشدني أبو الحسن ابن الاستجي لنفسه يمدح القاضي ابن عباد من جملة قصيدة : [٤٢ أ]

كأنما الوردُ[2] لمّا وَشّتْ يدُ المزنِ أرضَهْ
كواكبٌ في سماءٍ من الزّبرجدِ غَضّهْ[3]
كأنّ طلّ الأقاحي مدامعٌ من فضّه[4]
أو لؤلؤٌ فوقَ أرضٍ من المها مبيضّه
كأنما الوردُ صدرٌ أبقى به اللّثْمُ عضّه
كأنما النهرُ نَصْلٌ جلا الصياقلُ عُرْضَه
كأنما الشمسُ في الجوّ حين تقطعُ عَرْضه[5]
وجهُ ابنِ عبّادِ الندبِ حين تأملُ قرضه[6]
حوى بِطوْلِ يديهِ طَوْلَ الثناءِ وعرضه

ومن شعر أبي الوليد ابن عامر في معارضته من جملة قصيدة[7] :

---

١ البديع . ٤٠ — ٤١ .
٢ البديع الروض .
٣ البديع • محصه .
٤ البديع • مروضه
٥ سقط البيت من م .
٦ م ط د يأمل • ط د • فرضه
٧ البديع ٤١ — ٤٢

انظر إلى النهر واعجبْ ... بحسن مرآه وارضه
قد حلَّ بين رياضٍ ... من النواوير غَضّه
من نرجسٍ مثلِ لونِ الـ ... ـمهجور فارقَ غمضَه
وأقحوانٍ أنيقٍ ... بُرودُهُ مُبْيَضّة
كأنما النهرُ أفْقُ الـ ... سّماءِ عانَقَ أرضه
وقد كسا عُدْوَتَيْهِ ... بحومة الزهر مخضه[1]
كما ابنُ عبّادٍ النَّدْ ... بُ قد كسا الصَّونَ عرضه

وقال ابن القوطية في ذلك[2] :

بشاطىءِ النهرِ نَوْرٌ ... كسا[3] الدَّرانك أرضَه
نمارِقٌ ورُبابٍ ... من النواوير غضّه
فالوردُ وجنةُ خَوْدٍ ... غرّاءُ بيضاءُ[4] بضّه
كما البنفسج خَدٌّ ... أبقى به اللثم[5] عَضّه
والياسمينُ نجومٌ ... حازتْ من الحسنِ مَحْضَه[6]
حكى سجايا ابنِ عبا ... دٍ الكريمِ وَعِرْضَه

وقال ابن الأبّار من جملة أبيات[7] :

١ ط د م س . ُعضه ؛ خ بهامش ط . مخضه ؛ البديع : من الأزاهر مخضه .
٢ البديع : ٤٣ .
٣ م ط س : كما (كى) .
٤ البديع . بيضاء غراء
٥ البديع المشم
٦ بعد هذا حدث سقط في م .
٧ البديع ٤٣ .

شقائقٌ شقّ قلبي رواؤها وافتضّه[1]
كأنما الأرضُ منها خريدةٌ مفتضّه
ونرجسٌ متغاضٍ كأنما الحزن[2] مضّه
يرنو بطرفٍ كليلٍ كمن يحاولُ غمضه
وسوسنٌ إن تشمه[3] فكالوذائلِ بضّه
أو ألسنِ الدّر صيغتْ أو الطّلي المبيضّه[4]
والأقحوانُ نجومٌ ليست تُرَى مُنْقَضّه

ثم خرج إلى المدح بأبيات حذفتها لطولها .

وقال أبو الاصبغ بن عبد العزيز[5] :

يا من تأمّلَ نَوْراً فيه النواويرُ غضّه
وعاينَ الحسنَ منها قد زيّنَ البعضُ بعضه
فالنرجسُ الغضُّ تبرٌ في صُفْرةٍ منه مَحْضَه
والأقحوانُ بياضاً كأنّهُ سِمْطُ فضه
والوردُ ماءٌ ونارٌ سالا[6] على وَجه بضّه
ضدّان في صحن خدٍّ قد ألّفا بعدَ[7] بِغْضَه

---

١ البديع : واقتضه .
٢ ط د س : الحسن .
٣ في النسخ : يشمه .
٤ هنا ينتهي السقط في م .
٥ البديع : ٤٦ .
٦ ط د م س : سلا.
٧ س ط : بعض .

والمدح حذفته .

وعارضهم القاضي ابن عبّاد بسطاً لأمانيهم . وعجباً بما أوردوا من ألفاظهم ومعانيهم ، وكأنه نقد على ابن عبد العزيز هذا شيئاً في التشبيه ، فقال يعرِّض به ويعاتبه فيه[1] :

أبْلِغْ شقيقيَ عنّي مقالةً لتمضّهْ
بأنْ وَصَفْتَ الأقاحِي الذي وصفتَ لم أرضَهْ[2]
هلاَّ وصفت الأقاحي بأكؤسٍ من فضه
أو النجومِ تساقَطْ نَ في المها المبيضَّهْ

في أبيات غير هذه .

وقال ابن حصن في ذلك[3] :

نَبِّهْ جفونَكَ للرو ض واهجرنْ كلَّ غمضَهْ
قد نبّهُ الطلّ منهُ الـ جفنَ الذي كانَ غَضَّه
من بين وردٍ كخدّ الـ حبيب حاولتُ عضَّه
وسوسنٍ قد حكى لي سوالف الغيدِ بضَّه[4]
ومن بهارٍ تدلّى جماجمٌ منه غضَّه

---

١ البديع : ٤٧ .
٢ ورد البيت في م :
بأن وصف الأقاحي باكؤس من فضه
وهو سهو .
٣ البديع : ٤٨
٤ هذا البيت والذي يليه سقطا من م .

كأنه مُعْرِضٌ عن محدِّثٍ لم يَرْضَهْ [٤٢ ب]
ومن أقاحٍ يباهي مصفرُّهُ مبيضه
كأنه نُقَرُ[1] التِّبْـ ـرِ في مداهنِ فضه

ولم أسلك في هذه الأشعار طريق الاختيار ، إذ ليس فيها حظ لمختار ، وإنما أثبتّها لما تعلّق بها ، وذكرت بسببها ، ولا أعطِّل جيد التأليف من مخشلبها .

فصل يشتمل على مقطوعات أبيات لجماعة من الأدباء كانوا بعصر المعتضد عباد، ولم أجد لهم أشعاراً تفسح لي في طريق الاختيار، إلاّ ما أثبت لهم الوزير أبو عامر ابن مَسْلَمة في عرض كتابه المترجم بـ « الحديقة » فكل ما أثبت لهم في هذا الفصل فمن كتابه نسخت ، ومن خط يده نقلت

فمنهم الوزير أبو الأصبغ بن عبدالعزيز[2] أنشد له في قفول الخيريّ ورحلة البهار :

رحل الربيعُ عليه بندُ موال وأقيم للخيريّ رايةُ والِ
في شهر كانونٍ أذيلَ وقوِّضَتْ أيامُ بهجته فهن خوالي

---

[1] س ط م د : نقد .
[2] ذكره الحميدي (الجذوة : ٣٦٧ والبغية رقم : ١٥١٣) في من ذكروا بالكنية ولم يتحقق من أسمائهم ، والحميدي يعتمد أيضاً كتاب الحديقة لأبي عامر ابن مسلمة .

فاشكر أوائله فهن نوافج واحمدْ أواخرَهُ فهنّ غوالي
وإذا سررت بخلّ صدقٍ وافدٍ ورضيته فانظرْ إلى التّرحال

وأنشد له :

هام قلبي بغزالٍ أتمنّى منه عطْفَهْ
شَرِبَ الكأسَ وأبقى عامداً في الكأسِ نُطْفَهْ
فعلمنا أنّه يرْ غبُ أن يَمْنَحَ رشفه
قال لي لولا الحميّا ما خصصناكَ بتُحْفَهْ
كشفتْ من سِرّه ما لم تكن تأملُ كشفه
وبدا في الخدّ منه خَجَلٌ خالطَ طَرْفَهْ
فجنيْ الوردِ فيه وأنا أمْنَعُ قَطْفَهْ

قال أبو عامر : وكتب إليّ وإلى ابنِ الأبار وقد رأى معنا غلاماً فيما سلف وسيماً . ثم عذّر وأدْبَرَ ، بأبيات أوّلها :

أمُفْتَرِسَيْ ظبيٍ أغرّ غريرِ ومقتنِصَيْ بدرٍ أنار منيرِ
لئن نلتما بالسّحرِ من كلّ غرّة ففي مُقَلِ الغزلانِ كلُّ غرور
وقد يُحْرَمُ الرامي المصيبُ فريسة[1] ويُرْزَقُها بالسّحر كلُّ سَحور
أتَرْتُ من الصّيْدِ الذي قد عقرتما وكم عاقرٍ للصّيدِ غيرُ مثير
وتَسْعَدُ الفتى في عمره جالبُ المنى إليه وفي الحرمانِ كلُّ عسير
فطيبا جميعاً واطربا وتمكّنا فليس الذي أدركتما بيسير
هل الراحُ إلا وجهه ورضابُهُ فان جُمِعَتْ حلّتْ بغير نكير

[1] د : فريضة .

فأجابه ابن الأبار :

لعمرك إن الظبيَ غيرُ غريرِ وإنّ محيّا البدر غير منيرِ
بدتْ لحيةٌ في وجهه هي لحنةٌ أتاحَتْ له موتاً بغير نشور [٤٣ أ]

ومنها :

إذا لم أقُلْ إلاّ براحٍ وراحةٍ فما قَدْرُ ذنبي في اغتفارٍ قدير
سأقعد[١] عن ناهي النُّهى في اجتنابها وإن قام في فوديَّ شاهدُ زور
هل العيشُ إلاّ أن أقبّلَ ثغرَها وأصغي إلى بمٍّ أجَشَّ وزير
خبَرْتُ بني الأيام شرْقاً ومغرباً فآثرتها إذ لم أفزْ بأثير

وأنشد له أيضاً بما خاطب به ابنَ الأبار :

أما وخدٍّ له مُعَذَّرْ ومبسمِ الخاتمِ المجوهرْ
وخَصْرِهِ المتْعَبِ المعنّى بثقلِ ما ضاق عنه مئزر
ولمّةٍ أسْبلَت أثيثاً كأنّه وابلٌ معطّر
وورد خدّيه بعدَ سُكْرٍ والغُنْجِ من لحظه المحيّر
إنّ لعينيه في فؤادي أشدّ من وقعِ كلِّ خنجر
إنْ خلتَهُ ضيغماً قطوباً أو أسَداً عابساً غضنفر
فهو من الحسنِ كلُّ بدر وهو من الطيبِ كلُّ عنبر
ريقتُهُ خمرةٌ ولكنْ شيبَ شذاها بطعم سُكَّر
لو كان في الخلد مثلُ هذا تاه على الحُوْرِ أو تكبّر
في شبهه قال متلَ هذا مَن أحسنَ الوصفَ ثم نَدَّر
«مظفّرْ كاسمه مظفّر أخلاقُ ليثٍ وخَلْقُ جؤذَر»

فأجابه ابن الابار بهذه الأبيات :

لستُ بصابٍ إلى معذّر   بل أنا في حُبّه معذّر
لا أعشقُ الظبيَ ذا لجامٍ   لأنّه في الظباءِ منكر
أهواهُ والخدُّ منه صُبْحٌ   حتّى إذا ما دجا تغيّر
أحسَنُ ما فيه أن تراه   بين مهاةٍ وبين جؤذر
متوّجاً لمّةً تبدّى   بتاج كسرى ومُلْكِ قيصر
إن ماس فالمرطُ منه مُثْرٍ   بما حوى والوشاحُ مُعْسر
يرفقُ بالخلقِ حين يُغضي   وينظرُ الموتُ حين ينظر
متى يَلُمْ عاذلٌ عليه   يبدو له وجهه فيَعْذَر
كم علّني الراحَ ثم حيّا   أحوى مريضُ الجفونِ أحور
كأنّما سحر وجنتيه   نَوّمَ أجفانه لتسهر
ما زلتُ أشتفّها ونُقلي   طلاه والمبسم المجوهر
أمكن من طُرّةٍ وثغرٍ   فصرتُ في جنّةٍ وكوثر

وأنشد للوزير أبي الاصبغ بن سعيد [1] :

وما أنسَ لا أنسَ المدامةَ بيننا   يناولنيها وهو بالسحرِ نافثُ
ويجعلُ نقلي ريقهُ [2] بعد رشفها   فيا لك من طيبٍ على السُكرِ باعث
فسُكرانِ من خمرٍ ومن رشفِ ريقه   وبينهما من سحرِ عينيه ثالثُ

١ انظر الجذوة : ٣٦٧ (البغية رقم : ١٥١٢) ووصفه بأنه رئيس أديب شاعر ؛ وانظر النفح ٣ : ٤٨٥ ، وذكر الحميدي ١٦٤ الأصبغ بن سيد وكناه أبا الحسن، وقال انه ، شاعر اشبيلي رآه قبل ٤٥٠ ، ولعل الشخصين شخص واحد ، وانما الخطأ واقع بين الاسم والكنية .

٢ م ط س : ريقها .

وأنشد له :

يا أيّها الساقي الذي بعثَتْ لـنـا ... يُمْناهُ من مُزْنِ الغمام رذاذا
لا تسقنيها دونَ ملءِ كؤوسها ... وإذا سجدتُ بها إليك فماذا
إني اتّخذتُ الغيَّ رشداً والهوى ... ديناً ولذتُ عن الرشاد لواذا
فامزج بريقك لي الكؤوس وقلْ لنا ... خُذْ ، تلقني لكبارها أخّاذا

وأنشد له :

بالغتَ في عذْلي وفي تأنيبي ... في الراحِ حينَ وَعَظْتَني بمشيبي
هيهاتَ لستُ بتائبٍ عن شُرْبها ... ما دامَ شُرْبِيها أقلَّ ذنوبي
إن كان أكربني المشيب فانها ... راحٌ تروحُ بِكُرْبَةِ المكروب
فلأشربنَّ لكي أدافعَ كَرْبَها ... عني وأطربَ فوق كلِّ طروب

وأنشد لأبي إسحاق بن خيرة الصباغ [1] [٤٣ب]

يومٌ كأنَّ سحابَهُ ... لبستْ غماميَّ المصامتْ
حَجَبَتْ به شمسَ الضحى ... كمثالِ [2] أجنحةِ الفواختْ
فالغيثُ يبكي فقدها ... والبرقُ يضحكُ مثلَ شامت
والرعدُ يخطبُ مُفصِحاً ... والجوُّ كالمحزونِ ساكت
والروضُ يسقيه الحيا ... والنّوْرُ ينظرُ مثلَ باهت
فاطربْ ولذَّ بحُسْنِه ... واشربْ فإنَّ العمرَ فائت

---

١ هو ابراهيم بن خيرة أبو اسحاق يعرف بابن الصباغ ، من شعراء اشبيلية (الجذوة ١٤٥ والبغية رقم ٥٠١ والمغرب ١ ٢٦٠ والنفح ٣ ٤٨٥) وفي المصادر بعض أبياته التائية ؛ وقد نسبت الأبيات في المطمح ٢٣ لأبي عامر ابن مسلمة نفسه .

٢ س والجذوة . بمثال .

صرفاً كأنَّ حَبَابَها	درٌّ على العقيانِ نابت
تحكي خلالَ الحاجبِ الزَّ	اكي المغارِسِ والمنابت
عبّادِ السامي الذّرى	والمجدِ حيثُ النجم ثابت
ملكٌ إذا نَطَقَتْ عُلا	هُ بمعركٍ فالخطبُ صامت
أو طاش[1] عقلُ مَعَاشِرٍ	في ضَنْكِ حَرْبٍ فهو ثابت

وأنشد له أيضاً :

انبذْ مقالَ النصيحِ	وَدِنْ بِشُرْبِ الصَّبُوحِ
ورحْ وباكرْ مُداماً	كالشمسِ وقتَ الجنوح
خرقاءَ يلثغُ منها	لسانُ كلّ فصيح
إذا تناولتَ منهـا	حَسَّنْتَ كلّ قبيح
رقّت على ظهر كسرى	وعهدِ عادٍ ونوح
فليس توجدُ إلاّ	بنورِ لونٍ وريح

وأنشد له :

ربَّ ليلٍ طال لا صُبْحَ له	ذي نجوم أقسمتْ أنْ لا تَغورْ
في دجى ليلٍ بهيمٍ حالكٍ	يستوي الأكْمَهُ فيه والبصيرْ
فتراها حائراتٍ في الدجى	زاهراتٍ كمصابيحَ تُنير
قد هتكنا جُنْحَهُ عن فَلَقٍ	من خمورٍ ووجوهٍ من بدور
إذ بدتْ شَبَّهْتُها في كأسها	نارَ ابراهيم في بردٍ ونور
وامتطينا للملاهي مَرَحاً	خيلَ راحٍ بمنايانا تدور
صَرَعَتْنا إذ عَلَوْنا ظهرها	في ميادين التصابي والسُّرور

---

[1] س . طال .

فنعانا العُودُ في ميتتنا بأبحٍّ البمّ إسعافاً وزير
فرفعنا من كؤوسٍ نُكّسٍ وفتحنا من عيونٍ بفتور
فكأنا حين قُمْنا مَعْشَرٌ نُشِرُوا بعد مماتٍ من قبور

وأنشد لأبي بكر بن نصر الإشبيلي[1] :

أهدتْ إلى روحي براحٍ يمينها راحاً أرقَّ من الهواءِ وأعتقا
فكأنَّ حبَّ حَبَابها في وجهها درّ على أرضِ النّضار تَفَرّقا
وكأنَّ شخصَ الكأسِ شمسٌ وُشّحتْ قمراً فغاضَ شعاعها وتمزّقا
للهِ درُّكَ من زمانٍ لم يَزَلْ حُلْوَ الحُلى رحبَ الجَنَابِ معتّقا
زمنٌ هَصَرْنا عَيْشَهُ فكأنَّهُ من جُودِ إسماعيلَ كان منمّقا
الحاجبِ الملكِ الذي حجب الورى عن كلٍّ مكروهٍ يُخافُ ويُتّقى
وكأنّهُ بيديهِ صَوَّرَ نَفْسَهُ فأجادها كيف اشتهى وتأنّقا

وأنشد لمحمد بن ديسم الإشبيلي[2] :

امزجْ حُميّا الكؤوسِ واشربْ بنفثةٍ من رُضاب ألْعَسْ
راحاً تَمطّى بطونَ راح لها خلالَ الضلوع مِكْنَسْ
يدير منها البنانُ خمراً صبغةَ ماء اللجين ملبس
مَلْكٌ زها رفعةً ومجداً كما زكا مَحْتِداً ومَغْرِسْ [٤٤أ]

. . .

١ أبو بكر ابن نصر الاشبيلي ، ذكره الحميدي في الكنى اعتماداً على ابن مسلمة (الجذوة : ٣٦٩ والبغية رقم : ١٥١٩) .
٢ ذكره ابن سعيد نقلا عن الحجاري وانه من شعراء الدولة المعتضدية ، معتمداً على أبي عامر ابن مسلمة (المغرب ١ : ٢٥٩) .

تطّلع أنوارُه شهاباً ... إنْ عارضٌ للخطوبِ عسْعَسْ
ويُذْعِنُ الموتُ حين يسطو ... ويبسم الموتُ حينَ يَعْبِسُ

وأنشد له في ترك الشراب [1] :

تجافيتُ عن شُربي لها لا لِعِفّةٍ ... ولم يكُ إقصائي لها عن تَحَرُّجِ
وإن [2] أكُ قد عرَّجْتُ عن حقِّ حبِّها ... فما أنا عن تفضيلها بمعرِّجِ

وأنشد له في مثله :

ولم أجتنبْ شُرْبَ المدام لعفّةٍ ... ولم ألحقِ الصهباءَ ذمّاً ولا عَذْلا
تُنافِرُني أنْ صِرْتُ ضدّاً لشكلها ... فليستْ لنا أهلاً ولسنا لها أهلا

وأنشد لأحمد بن محمد البلمي الإشبيلي [3] :

ولقد رشفتُ مُدامَةً ... أشهى من الثغرِ البَرُودْ
بكراً ولكنْ عَهْدُها ... من عهدِ عادٍ أو ثمودْ
لانَتْ لنا لكنْ لها ... بعقولنا بطشٌ شديدْ
تبدو وقد نَظَمَ المزا ... جُ من الحبابِ لها عقود
وإذا توارتْ بالحلو ... قِ بدا سناها في الخدود
وكأنني مولى الورى ... والنّاسُ كلُّهمُ عبيد

وأنشد له :

... . . .

١ وردا في المغرب ١ : ٢٥٩ .
٢ م ط د س : ولم .
٣ انظر ترجمته في المغرب ١ : ٢٥٩ والنفح ٣ : ٤٨٤ .

وَمُدامةٍ ورسيَّةٍ أعمَلْتُها عُرِضَتْ عليَّ بشربها أعمالي
فكؤوسُها بصفائها كلآلىءٍ وشرابها في جَوْفها كالآلِ

وأنشد له صاحب كتاب « البديع »[1] :

انظرْ ونزِّه ناظريك بروضةٍ غناءَ ما زالت تُراحُ وتُمطَرُ
لتريك من صنعاءَ صنعةَ وشيها بمطارفٍ من تُستَرٍ لا تُستَرُ
ألوانها مثنى وطيبُ نسيمها يُقصِي العبيرُ[2] بها ويُنْسى العنبر

وقال[3] :

أما ترى النرجسَ الغضَّ الذكيَّ بدا كأنَّه عاشقٌ ذابتْ ذوائبُهُ
أو المحبُّ اشتكى لمّا أضرَّ به فَرْطُ السقامِ فعَادَتْهُ حبائبه

وقال[4] :

ربَّ نيلوفر غدا يخجل الرا ئي إليه نفاسةً وغرابَهْ
كمليكٍ للزنج[5] في قبّةٍ بيضا ءَ يدنو الدجى فيُغْلِقُ بابه

١ البديع : ٢٩ .

٢ م ط س : يقضي العمور .

٣ هما في المغرب والنفح ، وقال ابن سعيد ان صاحب البديع انشدهما له ، ولكنهما لم يردا في المصدر المذكور .

٤ البديع : ١٤٦ والمغرب والنفح .

٥ البديع : الأحبوش .

وأنشد للوزير أبي بكر بن القوطية[1] في تجنيس القوافي، عارض بها طريقة أبي الفتح البستي :

سقاني كأسَهُ ولها دبيبٌ . زادني ولها
غزالٌ إن رأى ولهي زَهَا عن قصتي ولها

وقال :

ومنادمٍ لم أرضَ من أشري به فندمتُ إذ أصبحتُ غيرَ شَريبِه
يا ليت ما ألقاهُ مِنْ أرَقي به وسهاديَ انفردا بعَيْنِ رقيبه

وقال :

ومُدِلٌّ بِسَقْيِه يتلقَّى نُدَماه بِسَطْوَةٍ واقتدارِ
فمتى أسأل الرجوعَ لداري قال لي: اشربْ فلستَ في وقتِ دار

وقال في المردقوش[2] :

عنبريٌّ اللونِ في الخلقةِ قد فاق طيباً كلَّ مشموم وبذّ
ذو جلابيبَ له قَلَّصَهـا فأتت خلقاً كآذان الجُرَذْ [٤٤ ب]

---

١ المشهور بهذا الاسم أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية صاحب كتاب الأفعال وكتاب افتتاح الأندلس ،أصله من اشبيلية وسكن قرطبة، وكان عالماً بالنحو حافظاً للغة وأخبار الأندلس وأحوال فقهائها وشعرائها ،وطال عمره ، وكانت وفاته سنة ٣٦٧ ،ولا يمكن أن يكون هو المذكور هنا ، فلعل هذا حفيد له ، ولهذا وضعه الحميدي في باب الكنى (الجذوة : ٣٦٩ والبغية رقم : ١٥١٨) ، وقد كان أبو بكر هذا هو صاحب الشرطة وذكر أنه شاعر متأخر (بالنسبة لزمان الحميدي) ، وقد أكثر له صاحب البديع من المختارات الشعرية .

٢ يسمى أيضاً المرزنجوش والمرزجوش ، وهو نبات كثير الأغصان ينبسط على الأرض ، وله ورق مستدير عليه زغب ، وهو طيب الرائحة جداً .

ولذا سَمَّوْهُ إذ أشبهها مردقوشاً باشتقاق يومئذْ

أشار إلى ما حكاه بعضهم أن المرد بالفارسية : الأذن ، والقوش : الفأر .

وقال في الترنجان :

وأخضرَ فُستُقِيّ اللونِ غضّ يروقُ بِحُسْنِ منظره العيونا
ذكيّ العَرْفِ مشكورِ الأيادي كريمٍ عرْفُهُ يُسْلي الحزينا
أغار على التُرُنْج وقد حكاهُ فزاد على اسمه ألِفاً ونونا

وأراه سمع قول صاعد اللغوي فيه ، حيث يقول[1] :

من طيبه سَرَقَ الأتْرُجَّ نَكْهتَهُ يا قومُ حتى من الأشجار سُرَّاقُ

ولكنه عكسه ، إذ اقتبسه ، وترك الرائحة ومال إلى الاسم .

وقال في التفاح :

وجُلّنارِيّةٍ مسكيّةِ النَّفَسِ كأنّها جلوةٌ في كفّ مُقْتَبِس
قد أُشْرِبَتْ من صباغ الله حمرتَها كأنها غُرّةٌ أوفَتْ على لَعَسِ
كريمةٌ من بنات الفَرْعِ ما حَضَرَتْ إلاّ وحضتْ على اللذّاتِ والأُنُس
حافت فنكّسْتُها لما كلفتُ بها فان دعوتُ أجابت باسم منتكس

قوله : « حافت » هو « تفاح » مقلوب .

وقال في السفرجل :

. . . .

[1] البيت في الذخيرة ٤ ، الورقة : ٣٤ .

وزعفرانيةٍ في ثَوْبٍ مخزون تروقُ طعماً وشمّاً في البساتينِ
مصفّرةٍ من بناتِ الحُسْنِ تحسبها في زغبها ميتّاً في ثوبِ تكفينِ
قد رُنّحتْ فوقَ أغصانٍ ترجّحها وفلّكتْ كثُديٍّ الرَّبْربِ العينْ

وقال في الأترجّ :

جسمٌ من النُّورِ في ثوبٍ من النّارِ كأنَّه ذهبٌ من فوق بُلاَّرِ
فابيضّ باطنها واصفرّ ظاهرها كأنّها درهمٌ من تحت دينار
محفوفة برماحٍ من منابتها مشحونة بين أرواح وأمطار
عطريّة لم تطيّب للّقاء ولا مدّتْ يميناً إلى حانوتِ عطّار

وقال في الخوخ :

وطيّبِ الريقِ عذب آبَ في آبِ وزار مُشْتَمِلاً في زيٍّ أعرابِ
مُخَمّلِ الثوبِ لم تَخمُلْ رئاسته بين الفواكه من نَقْصٍ ولا عابِ
خالَسْتُهُ نظري فاحمرّ من خجلٍ خدّاهُ ثم انثنى عني كمرتابِ
من اسمه فيه مَقلوباً ومُبْتدئاً أربى على اللوز في تطريز جلباب

يريد أن الخوخ يقرأ من طرفيه . وفيه يقول :

لم أرَ كالفِرْسِكِ جلبابا كأنَّه قد سكن الزابا
من طرفيه يتأتى اسْمُهُ فإن تفطنت له ثابا

وقال في الفستق : [٤٥ أ] .

صَدَفٌ أبيضُ نَقِي ذو بهاءٍ ورَوْنَقِ
مُثْمِرٌ عن جوهر أخضرٍ فيه مُطْبَقِ
كلُّ صبغٍ يعزى إلى لونه قيل فُسْتقي

وقال في العُنّاب :

أما ترى ثَمَرَ العنّابِ مُوْقَرةٌ بكلٌ أحمرَ لمّاعٍ من الحرزِ
وقد تدلّتْ به الأغصانُ مائلةً مثلَ العثاكيل من صَدْرٍ إلى عجز
وقد حمتها عن الأيدي أسنّتُها حذارَ مفترسٍ أو خَوْفَ منتهز

وقال :

ما طَلَعَتْ في قوسها إلاّ بدا قوسُ قُزَحْ
نَفْسٌ وما مِنْ نَفَسٍ رُوحٌ ولكنْ لا شبح
شرارةٌ تلمحها قرارةٌ لمنْ لمح
ولستُ من شُرّابها ولا لها بمقترح
ولا أنا مغتَبِقٌ بها ولا بمصطبح
لكنّني أمدحُها تَظَرُّفاً في من مدح

الوزير أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر الايادي

أحدُ الأفرادِ الأمجاد من إياد ، وهو وإن كان في وقتنا البحرَ الذي لم يُبْلَغْ بالتحصيل ، والصبحَ الذي لا يُفْتَقَرُ معه إلى دليل ، فإني أجريتُ ذكره في نَفَسِ هذا الديوان نَفَساً ، واجتلبتُ قطعةً من شعره أقمتها للآداب عُرُساً، وجعلتها لألباب الشعراء والكتاب مَدْرَسا[1] ، مع أنه أعلى قدراً ، وأبهرُ ذكراً ، من أن يعبّرَ الدهر عن علاه ، أو يدّعي الشعرُ أنّه من حلاه ؛ ولم أظفرْ عند تحريري هذه النسخة بشيء من نثره ، فلذلك اقتصرتُ على جملةٍ من شعره ، جعلتها ذريعةً إلى إجراء ذكره ، ولولا ترتيبٌ اقتضاه

١ في النسخ : مدرسا .

هذا التأليفُ ، وقضى به التصنيف ، لحلّ ذكرُهُ من هذا الديوانِ مَحَلّ زُحَل من الفلكِ ، والتاجِ من مَفْرِقِ الملكِ .

وقد قَدَّمْتُ في أخبارِ القاضي ابنِ عبّاد من إظلامِ أفقه — كان — على الأشكال ، واجتماعِ فَرَقِـهِ من < غيرِ > الأغفال ، بما أغنى عن إعادة المقال. وكان الفقيه جدُّه **محمد بن مروان بن زهر** [1] . مَنْشأ تلك الدولة العبادية أوّلَ مَنْ تُثْنَى عليه الخناصر . وتشيرُ إليه القلوبُ والنّواظر ، وتفتقرُ إلى ما لديه الألبابُ والبصائر . فضاقتْ دولته عن مكانه . ضيقَ صَدْرِ العاشقِ عن كَتْمِ أشْجانِـه ، واسْترابتْ بجلالة شانِـهِ ، اسْترابَةَ المنافقِ بتلجلج لسانه ، وأهمّهُ أمْرُهُ حتى أخرجه عن بلده ، واستصفى ذاتَ يده : فلحق بشرق الأندلس . وأقام بها بقيّة عمره ، بين جاهه ووفره ، وفي حصنٍ حصينٍ من سلامة سِرّه وجهره .

ونشأ ابنه **الوزير أبو مروان عبد الملك بن محمد** [2] فما بَلَغَ أشُدَّهُ ، حتى سدَّ مسدَّه . بل ما خلع تمائمه . حتى استوفى مناقبه ومكارمه ، وورث مباديَـهُ وخواتمه . ومال إلى التفنُّنِ في أنواع التعاليم من الطبّ وغيره من العلوم ، فجمع شَعَاعها ، واستوفى أجناسَها وأنواعَها ، وجذب بضبعها ، وفرَّقَ بين غَرَبِـها ونَبْعِها . ورحل إلى المشرقِ لأداءِ حجّ الفريضة فملأ البلاد جلالةً ، ورَجَحَ الأطوادَ أصالةً ، ولم يلقَ أحداً من زعماء تلك الأقطار إلاّ عوَّلَ على ما عنده ، وتجاوز في الأخْذِ عنه عَفْوَهُ وَجَهْدَهُ .

١ توفي الفقيه محمد بن مروان بن زهر سنة ٤٢٢ (انظر المطرب . ٢٩٣ والصلة . ٤٨٧ والبغية ص . ١٢٠ والوافي ٥ . ١٦ وعبر الذهبي ٣ . ١٥٠) .

٢ راجع ترجمة أبي مروان عبد الملك في الذيل والتكملة ٥ : ٣٧ والتكملة رقم : ١٦٩١ وطبقات صاعد : ٨٤ وابن أبي أصيبعة : ٦٤ والمغرب ١ : ٢٦٥ .

ونشأ أبو العلاء زهر بن عبد الملك[1] فاخترع فضلاً لم يكن في الحساب، وشرع نبلاً قصرت عنه نتائج الألباب ، وكنا نتوقع الحمام حتى سطا، ونتنجع الغمام إلى أن أعطى ، لو ساجل البحر لفضحه ، أو وازن الدهر لرجحه ، نشأ بشرق الأندلس والآفاق تتهادى عجائبه ، والشام والعراق تتدارس بدائعه وغرائبه، ومال إلى علم الأبدان ، فلولا جلالة قدره ، لقلنا جاذب هاروت طرفاً من سحره ، ولولا أن الغلو آفة المديح ، لتجاوزت طلق الجموح ، ولكن اكتفيت بالكناية عن التصريح ، وصلوات الله على المسيح . [٤٥ ب]ولم يزل مقيماً بشرق الأندلس إلى أن كان من غزوة أمير المسلمين وناصر الدين ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، في من انضم إليه من ملوك الطوائف إلى حصن لييط ما كان ؛ فشخص الوزير أبو العلاء معهم ، فلقيه المعتمد واستماله واستهواه . وكاد يغلب على سره ونجواه ، وصرف عليه بعض أملاكه ، فحن إلى وطنه ، حنين النجيب إلى عطنه ، والكريم إلى سننه ، ونزع إلى مقر سلفه ، نزوع الكوكب إلى بيت شرفه ، إلا أنه لم يستقر بإشبيلية إلا بعد خلع المعتمد ، ودعا به أمير المسلمين ، رحمه الله ، فلباه ، وحل من نفسه محلاً لم يحله الماء من الظمآن ، ولا الروح من جسد الجبان . وقد أخرجت من ملح أشعاره ما يعطل شذا الزهر ، ويخجل سنا الأنجم الزهر .

[1] انظر في أخبار زهر بن عبد الملك كتاب التكملة : ٣٢٤ والمطرب : ٢٠٣ والنفح ٣ : ٢٤٦، ٤٣٢ (نقلا عن الذخيرة) . وبدائع البدائه : ٣١٠ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٦٤ - ٦٦. وكانت وفاته سنة ٥٢٥ ودفن باشبيلية خارج باب الفتح .

جملة من مقطوعاته الاخوانيات

كتب إليه حسام الدولة ابن رزين بهذه الأبيات [1] :

عَادِ اللئيمَ فأنتَ من أعدائِهِ   وَدَعِ الحسودَ بغِلِّهِ وبدائِهِ
لا كان إلاّ من غَدَتْ أعداؤُهُ   مشغولةً أفواههم بجفائه
أأبا العلاءِ لئن حُسِدْتَ لطالما   حُسِدَ الكريمُ بجوده ووفائه
فَخَرَ العلاءُ فكنتَ من آبائه   ونأى السناء فكنتَ من أبنائه
كنْ كيفَ شئتَ مُشاهداً أو غائباً   لا كان قلبٌ لستَ في سَوْدائِهِ
وإليكَ كأساً من وَدُودٍ مُمحِضٍ   مملوءةً من وُدِّهِ وصفائه

فأجابه الوزير أبو العلاء بقوله :

يا صارماً حَسَمَ العلا بمضائه   وتعبَّد الأحرارَ حُرُّ [2] وفائِهِ
ما أثَّرَ العضبُ الحسامُ بذاته   إلاّ بأنْ سُمِّيتَ من أسمائه
ولقد غدا رأيُ الزمانِ بمعزلٍ   حتى استمدَّ الرشدَ من آرائه
عَنَتِ الملوكُ لفضلِهِ وعلائه   وتَبَرْقَعَتْ شَمْسُ الضُّحى لسنائه
شرَّفتَ ذا أملٍ بكأسٍ لو غَدَتْ   سمّاً لما قابلتها بدوائه
كيما أكونَ الدهرَ مكلوءاً به   وأرى رهينَ الرَّمْسِ من شهدائه

قال ابن بسام : قول ابن رزين : « فخر العلاء فكنت من آبائه » . . .

. . . . . .

[1] انظر النفح ٣ : ٤٣٢ — ٤٣٣ .

[2] النفح : حسن .

البيت ، للشعراء تصرُّفٌ في اشتقاق المدائح من أسماء الممدوحين ، ومنه قولُ ابن الرومي [1] :

كأنَّ أباه حين سمَّاه صاعداً رأى كيف يرقى في المعالي ويَصْعَدُ

ولما سمع البحتريُّ هذا البيت قال : مني أخذه في العلاء بن صاعد [2] :

سمَّاهُ أسْرَتُهُ العَلاء وإنّما قصدوا بذلك أنْ تمّ عُلاهُ

وقال ابن البين البطليوسي [3] في الوزير أبي الأصبغ بن المنخر :

شُمُّ الأنوفِ لذاك ما سُمّوا بها ومن المسمَّى تُؤخَذُ الأسْمَاءُ

وقال أبو بكر بن سوار [4] في القاضي ابن حمدين : [٤٦ أ] .

من مَعْشَرٍ حُمِدوا فأحْمِدَ سَعْيُهُمْ فلذاك ما سُمُّوا بني حمدينِ

وقال الصاحبُ بن عباد [5] : وقد فَتَلَ المتنبي من هذا حبلاً اختنق به ، فقال [6] :

في رتبةٍ حجبَ الورى عن نَيْلها وعلا فَسَمَّوْهُ عليَّ الحاجبا

وقال أبو الوليد بن حزم [7] في الوزير أبي العلاء المذكور :

---

١ ديوان ابن الرومي ٢ · ٥٩١ ورسالة الصاحب : ٢٤٢ .

٢ ديوان البحتري · ٢٤٠٥

٣ ستجيء ترجمته في هذا القسم : ٧٩٩

٤ » » » » : ٨١١

٥ رسالة الصاحب ٢٤٢ .

٦ ديوان المتنبي : ١٠١ .

٧ ترجمه في ما يلي من هذا القسم

أما العَلاء فلن تزاحِمَكَ العدا فيه وَحَسْبُكَ أنْ دُعِيْتَ له أبا

ومن جواب الوزير أبي العلاء له :

أجريتَ طِرْفَكَ في العتابِ وربَّما — وقيتَ — مَنْ أجْرى بلاقَصْدٍ كبا
عُتْبي ولا عَتْبٌ لديَّ ، وإن بنا استبدلتَ برقاً شام لحظُكَ خلَّبا
لحبا وضمَّنَ من سجايا ذاته نفحاتِ غَدْرٍ ضِمْنَ هبَّاتِ الصَّبا
ولطالما فيه انخدعتُ إخالُهُ نَصْلاً فلما أن ضربتُ به نبا
ما كلُّ ناضرِ دوحةٍ روضاً ولا كلُّ ضياءٍ راق حسناً كوكبا

وقول الوزير أبي العلاء : « وربما وقيت » ، من مليح الالتفات ، وهو عند بعض أهل النقد تتميم ، والالتفات أولى به وأشكل بمعناه . ومنه قول كثير[1] :

لو آن الباخلين وأنتِ منهم رأوكِ تعلَّموا منكِ المطالا

وقوله : « وأنت منهم » التفات . وقد سمَّاه ابن المعتز[2] : « اعتراضاً » وجعله باباً على حدته بعد الالتفات ، وغيرُهُ جَمَعَ بينهما[3] . وقال النابغة[4] :

ألا زعمتْ بنو عبسٍ بأني ، ألا كذبوا ، كبيرُ السنِّ فانِ

١ ديوان كثير ٠ ٥٠٧ ومعه مصادر تخريجه ، يضاف إليها ٠ بديع أسامة : ١٣٠ وبديع ابن المعتز : ٦٠ واعجاز الباقلاني . ١٥٠ ومعاهد التنصيص ١ : ١٢٥ وشرح النهج ٢ : ٤٠٧ .

٢ بديع ابن المعتز : ٥٩

٣ يريد ابن رشيق في العمدة ٢ ٠ ٥٤ ، وهو يتابعه في أمثلته .

٤ لم يرد في ديوان النابغة الذبياني وقال صاحب العمدة . ورواه آخرون للجعدي ، وهو في ديوانه : ١٦٢ وروايته ، ألا زعمت بنو كعب

فقوله : « ألا كذبوا » اعتراض ؛ وقال بعض العرب[1] :

فظلّوا بيومٍ دعْ أخاك بمثله   على مَشْرَعٍ يروي[2] ولما يُصَرَّدِ

فقوله : « دع أخاك بمثله » التفاتٌ مليح ؛ وقال عَوْفُ بن محلّم [3] :

إن الثمانين ، وَبُلِّغْتَها   قد أحْوَجَتْ سمعي إلى ترجمانْ

وقال اسحاق الموصلي : سألني الأصمعي وقال : أتعرف التفاتاتِ جرير؟ قلت : وما هي ؟ فأنشدني[4] :

أتنسى إذ تودِّعُنا سليمى   بفرعِ بَشَامَةٍ سُقِيَ البشامُ

وقال لي : أما تراه مقبلاً على شعره ثم التفت إلى البشام فدعا له ؟ وأنشد له ابن المعتز[5] :

متى كان الخيامُ بذي طلوحٍ   سُقيتِ الغيثَ أيتها الخيامُ

وأحسن[6] ابنُ المعتزّ في العبارة عن الالتفات ، حيث قال: هو انصراف المتكلّم عن الإخبار الى المخاطبة، وعن المخاطبة الى الإخبار وتلا قوله تعالى: ﴿ حتى اذا كنتم في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بهم بريحٍ طَيِّبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصفٌ ﴾ (يونس : ٢٢) وأنشد لأبي عطاء السندي يرثي عمر بن هبيرة :

١ العمدة ٢ : ٤٥ ، وكذلك سائر هذا الفصل عن الالتفات .
٢ س م ط د : يوفي .
٣ طبقات ابن المعتز : ١٨٨ .
٤ ديوان جرير : ٢٧٩ ، ٢٧٨ .
٥ بديع ابن المعتز : ٥٩ .
٦ هذا كلام ابن رشيق ، وانظر ابن المعتز : ٥٨ .

وإنك لم تبعد على متعمِّد بل كلُّ مَنْ تحتَ التراب بعيدُ

وهو عندهم استدراك ؛ وأنشد ابن المعتز في هذا النوع لبشار[1] : [٤٦ب]

نبّئتُ فاضحَ أمِّه يغتابني عند الأمير ، وهل عليَّ أميرُ ؟

وما أملحَ قولَ نصيب[2] :

وكدتُ ولم أُخْلَقْ من الطير إن بدا سنا بارقٍ نحو الحجاز أطيرُ

فقوله : « ولم أخلق من الطير » عجب . ولما سَمِعَتْ[3] التي قيل فيها هذا البيت تنفَّسَتْ تنفّساً شديداً ، فصاح ابنُ أبي عتيق : أواه ، زاه ! ! قد والله أجابَتْهُ بأحسنَ من شعره ، والله لو سمعكِ لنَعَقَ وطار ، فجعله ابنُ أبي عتيقٍ غراباً لسواده . وأنشدوا للعباسِ بن الأحنف[4] :

إنْ تَمَّ ذا الهجرُ[5] يا ظلومُ ، ولا تمَّ ، فما لي في العيشِ من أرَبِ

وقال عديّ بن زيد ، وهو في حبس النعمان[6] :

فلو كنتَ الأسيرَ ، ولا تَكُنْهُ ، إذاً علمت معدٌّ ما أقولُ[7]

واستقصاء ذكر هذا الباب ، ممّا يضخم حجم الكتاب .

---

١ ديوان بشار : ١١١ (جمع العلوي) .
٢ ديوان نصيب : ٩١ .
٣ أنظر الأغاني ١ : ٢١٣ .
٤ ديوان العباس : ٣٣ .
٥ م د : السحر .
٦ لم يرد في ديوانه .
٧ هنا آخر النقل عن العمدة لابن رشيق .

وقول الوزير أبي العلاء : « ١٠ أثّر العضبُ الحسامُ بذاته » ... البيت ، من مليح المدح في حسن التعرف بجنس السيفيّة ؛ وأبو الطيب ممّن اتّخذ سبباً إلى سمائها وعرّج ، وقرَعَ بابها حتى دخل كيف شاءَ وخرج، كقوله [1] :

لقد رفع اللهُ من دولةٍ　　لها منكَ يا سَيْفَها مُنْصُلُ

وكقوله :

لولا سميّ سيوفِهِ ومضاؤه　　لمّا سُلِلْنَ لكنَّ كالأجفانِ

وكقوله :

تُسْمى الحسامَ وليستْ من مشابهةٍ　　وكيف يَشْتَبِهُ المخدومُ والخدمُ

وقال :

قلّد الله دولةً سيفُها أنـ　　ـت حُساماً بالمكرماتِ مُحلّى
فإذا اهتزَّ للندى كان بحراً　　وإذا اهتزَّ للوغى كان نصلا

وقال :

وإن الذي سمّى عليّاً لمنصفٌ　　وانّ الذي سمّاهُ سيفاً لظالِمُهْ
وما كلُّ سيفٍ يقطعُ الهامَ حَدُّهُ　　وتقطعُ لَزْباتِ الزّمانِ مكارمه

وقال :

إنّ الخليفةَ لم يُسَمِّكَ سَيْفَهَ　　حتى بلاك فكُنتَ عَيْنَ الصارمِ
وإذا تتوَّج كنتَ دُرَّةَ تاجِهِ　　وإذا تختَّمَ كنتَ فصَّ الخاتمِ

[1] انظر في هذه الأبيات ديوان المتنبي : ٢٩٧ ، ٤١٣ ، ٣٥٥ ، ٤٠١ ، ٢٤٩ ، ٢٧٨ ، ٣٤٤ على التوالي .

وقال :

مَنْ للسيوفِ بأن يكون سَميَّها في أصلِهِ وفرندِه ومضائِهِ
طُبِعَ الحديدُ فكان من أجناسه وعليٌّ المطبوعُ من آبائِهِ

ولما أفضت الحال ، بالمعتمد إلى الاعتقال ، وحُبس بأغمات ، اعتلّتْ بعضُ كرائمه في أثناء ذلك ، والوزير أبو العلاء هنالك ، فبادر إلى مرغوبه ، وسارع إلى تأتّي مطلوبه ، ولم يلتفتْ إلى ما كان سلف بين سلفيهما من معانٍ ، قصتها صروفُ الزمان ؛ واقتضتها حمايةُ السلطان ، فلاطف علاجَها ورفع قدر المعتمد بالتبجيل ، ودعا له بالبقاءِ الطويل ؛ وكتب إليه المعتمد إثْرَ ذلك بهذه الأبيات ، وذكر قصّةً غريبة وهي : أنّ أكرم بناته ألجأها الحينُ إلى استدعاء غَزْلٍ بأجرةٍ تَسُدُّ بعضَ خَلَّتها ؛ فأدخل إليها في جملةِ ما أخرج غزلٌ لبنت عريف شرطته[1] المنتقل إليه من دولة غرناطة ، وعلم الأمرَ بعد ذلك فتعجب من تقلّب الدهر ؛ وفي ذلك يقول للوزير المذكور[2] : [٤٧ أ]

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى أسيرٌ أنْ يطولَ به البقاءُ
أليسَ الموتُ أرْوَحَ من حياةٍ يطول على الشقيِّ بها الشقاء
[أأرغب أن أعيش أرى بناتي عواريَ قد أضرَّ بها الحفاء][3]
خوادمَ بنتِ مَنْ قد كان أعلى مراتبه — إذا أبْدُو — النداء
وطَرْدُ الناسِ بين يدَيْ مروري وكَفُّهُمُ إذا غصَّ الفِناء

---

١ م ط س : شرطه .
٢ ديوان المعتمد : ٩٠ والمعجب : ٢١٨ .
٣ زيادة من الديوان لاستيفاء المعنى .

وركضٌ عن يمينٍ أو شمالٍ إذا اختلَّ الأمام أو الوراء[1]
ولكنَّ الدعاءَ إذا دعاه ضميرٌ خالصٌ نَفَعَ الدعاء
جُزِيتَ أبا العلاءِ جزاء بَرٍّ نوى بِرّاً وصاحبَكَ العَلاء
سيسلي[2] الكلَّ عمّا فات علمي بأنَّ الكلَّ يُدْرِكُهُ الفَناء

فأجابه الوزير أبو العلاء بأبيات ، قال فيها :

تنافستِ المراتبُ فيك حتّى حللتَ العُشْرَ إذ تحبَ الشقاء
عزيزٌ أن ينالَ البحرَ نِهيٌ وتسقي الكوثَرَ العَذْبَ الرِّشاء
ويُلْفَى في متونِ الرملِ ماءٌ وتشكو غايةَ المحلِ السَّماء
ولكنَّ الزمان بلؤمِ طبعٍ على الحُرِّ الشريف له اعتداء
ومَجْدِكَ إنه قَسَمٌ عظيمٌ به وُجِدَ السَّنا وله السَّناء
لكنتَ الغيثَ إنْ مَحْلٌ تبدَّى وكنتَ الليثَ إنْ عنَّ اللقاء
ومثلُكَ، عزَّ قَدْرُكَ عن مثيلٍ، يؤمَّلُ أن يطولَ له البقاء
لأنّكَ في سماءِ المجدِ نجمٌ به لنواظرِ الدُّنْيا جلاء
وغايةُ كلِّ شيءٍ لانتهاءٍ وأنت لغايةِ المجد انتهاء

وخاطبه الوزير أبو محمد بن عبدون برقعةٍ خطب فيها ودّه ، فتخلَّفَ عن جوابه لشغلٍ عَرَضَ ، فأعاد عليه ثانية بهذه الأبيات :

نصيبي من الدنيا مَوَدَّةُ ماجدٍ أهيمُ به سراً وأخدمُهُ جهرا

...

١ في المعجب :

وركض عن يمين أو شمال لنظم الجيش ان رفع اللواء
يعنيه أمام أو وراء إذا اختل الامام أو الوراء

٢ م ط د : سيبلي ؛ س : سنبلي ؛ المعجب : سيبلي النفس .

له الخيرُ إنْ يأذنْ أقُلْ غيرَ عاذلٍ وإن يأبَ اسكتْ عنه لا طالباً عذرا
خطبتُ إليه من هواه عقيلةً وأعطَيْتُ من شكري وأغْلِ به مهرا
فأطرقَ لم ينبسْ بحرفٍ ولم يُعِدْ إليَّ جواباً منه نظماً ولا نثرا
وما الصمتُ في هذا المكانِ لِسُنَّةٍ فإنيَ لم أخْطُبْ مودَّتَه بكرا
فان زفَّها دوني إلى كل خاطبٍ فلم يرَ مثلي لا وفاءً ولا برّا
وإن حَدَّثَتْ منه إليَّ إجابةٌ عذرتُ عن الأولى ولم أكفرِ الأخرى

فأجابه الوزير أبو العلاء :

وفاؤك ما أسْنى وفضلُكَ ما أسرى وبجدُكَ ما أسمى وزندُكَ ما أورى
إذا رمتَ نثراً جئتَ بالسِّحرِ ناثراً وانْ حكْتَ شعراً جئتَ بالآيةِ الكبرى
بسطت بعفوِ القول يمنى ولمتَ أنْ قبضتُ ولم أمددْ إليها يداً يسرى
ولو نهضتْ بي نحو سؤليَ قدرةٌ إذنْ لم أدعْ في الشكر نظماً ولا نثرا
عقيلةُ نظمٍ عن يسارٍ زففتَها لكفؤٍ ودادٍ لم تجد كفؤه مهرا
فما بجميلِ الظنّ يحسبُ أنني صمتُّ لكبرٍ حين عدت به سرّا
أنزّه ذاك الفضلَ عن كشفِ سوءة بلجأت إليها حين أرهقني[1] عسرا

ما وجدته من شعر أبي العلاء في النسيب

كلفه حسام الدولة وصف غلام قائم على رأسه . فقال[2] :

١ د . أعقبني .
٢ بدائع البدائه : ٣١٠ – ٣١١ .

تضاعفَ وجدي إذ تبدّى عذارُهُ ... وتمّ فخانَ القلبَ مني اصطبارُه [٤٧ ب]
وقد كان ظنّي أنْ سيَمْحَقُ ليلُه ... بدائعَ حسنٍ هام فيها نهارُه
فأظهر ضدٌّ ضدَّهُ فيه إذ وَشَتْ ... بعنبرِ صُدغَيْهِ على الخدِّ نارُه

وقال فيه :

مُحِيَتْ آيةُ النهارِ فأضحى ... بدرَ تمٍّ وكان شمسَ نهارِ
كان يُعْشي[1] العيونَ نوراً إلى أن ... شغَلَ اللهُ خدَّهُ بالعذارِ

كأنه ألمّ في هذا بقول الآخر :

حلقوا رأسه ليزدادَ قبحاً ... حذراً منهمُ عليه وشحّا
كان قبل الحلاقِ ليلاً وصبحاً ... فمحوا ليله وأبقَوْهُ صبحا

وقال فيه :

عذارٌ ألمَّ فأبدى لنا ... بدائعَ كنّا لها في عمى
ولو لم يجنّ النهارَ الظلامُ ... لم يستبن[2] كوكبٌ في سما

وقال فيه :

تَمَّتْ محاسنُ وجهِهِ وتكاملتْ ... لما استدار عليه صبحٌ مونقُ[3]
وكذلك البدرُ المنيرُ[4] جماله ... في أن تكنَّفَهُ جمالٌ أزرق

١ م ط د س . يغشى .
٢ ط م د س . يستبق ، والتصويب عن بدائع البداثه .
٣ بدائع البداثه . لما استدار به عذار مونق .
٤ بدائع البداثه : استنار .

وهذا كقول ابن برد وقد تقدم[1] :

يا ثوبه الأزرق الذي قد فاق العراقي[2] في السناءِ
كأنه فيه بدرُ تمٌّ يشقُّ في زُرْقَةِ السماء

وإنما أخذه من قول ابن المعتز :

الآنَ صرتَ البدرَ حيـ نَ لبستَ ثوبَ سمائِهِ

وله وهو مما طبَّق المفصل في الغرض واستوفى معنىً لم أر أحداً يستوفيه ، وجمعه من ألفاظ أدبية ، ومعانٍ فلسفية ، وأبرزه في صورة من الحسن يوسفية :

يا راشقي بسهامٍ ما لها غرضٌ إلا فؤادي وما منها له غرضُ
وممرضي بجفونٍ لحظها غَنَجٌ صَحَّتْ وفي صنعها التمريض والمرض
امننْ ولو بخيالٍ منكَ يؤنسني فقد يَسُدُّ مَسَدَّ الجوهرِ العَرَض

١ أورد ابن بسام هذين البيتين في القسم الأول : ٥٠٦ وهما هنالك منسوبان لابن الرومي ، وانظر ديوانه : ١٣٧ .

٢ م : الأزرق .

ومنهم الوزير الفقيه[1] أبو عبيد البكري[2]

وكان بأفقنا[3] آخرَ علماءِ الجزيرةِ بالزمان، وأوّلَهم بالبراعة والإحسان، وأبعَدَهُم[4] في العلوم طَلَقاً، وأنصعهم في المنثور والمنظوم أفُقاً، كأنّ العرب استخلفته على لسانها، أو الأيام ولّتْهُ زِمامَ حدثانها، ولولا تأخّرُ ولادته، وعهدةٌ في زيادته، لأنسى ذكرَ كنيّه[5] المتقدّم الأوان، ذَرَبَ لسان، وبراعةَ إتقان، لا يجمع الزمانُ حبّه، إلا كما يؤلف كتبه، ولا يهزُّ البرقُ حسامَه، إلا كما يصرّفُ أقلامه، ولا يتدفّقُ البحرُ إلا كما يجيشُ صدره، ولايكونُ السّحرُ إلا كما يروقُ نظمه ونثره[6]، وله تقدّمُ سَبْقٍ. وَسَلَفُ صِدْقٍ. وقد كان لسلفه بغربيِّ جزيرة الأندلس إمْرَةٌ[7] قعدوا منها مقعدَ أكابر الأمراءِ من الخروج عن الطاعة، والاستبداد عن الجماعة، ولهم في ذلك، وللمعتضد قريع أقرانهم، الذي طمَّ واديه على

١ الفقيه : زيادة من ط .

٢ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري (-٤٨٧) صاحب المؤلفات اللغوية البارعة مثل شرح الأمالي وفصل المقال، والكتب الجغرافية مثل: المسالك والممالك ومعجم ما استعجم؛ انظر مقدمة السمط التي جمع فيها الأستاذ الميمني ما ورد عنه في الصلة والقلائد وبغية الملتمس والحلة والوافي وعد مؤلفاته؛ وانظر دراسة عنه في الجغرافية والجغرافيين في الأندلس: ١٠٧ - ١٤٨؛ وقد نقل الأستاذ الميمني نص الذخيرة هذا أيضاً في مقدمة السمط .

٣ بأفقنا : سقطت من م ط س

٤ ط م س : وأبدعهم ؛ الميمني : وأبرعهم .

٥ يعني أبا عبيد القاسم بن سلام .

٦ ونثره : سقطت من م س .

٧ م ط : أميرة .

قُرْيَانِهِمْ ، أخبار ذكرها ابن حيّان ، وقد ألمعتُ منها بلمع ليتصل الكلام ، ويستقيمَ النّظام .

فصل في أخبار البكريين من أمراء الغرب[1]

[٤٨ أ] قال ابن حيّان : لما تولّى الوزيرُ أبو الوليد بن جهور الاصلاحَ بين ابن الأفطس والمعتضد ، بعد امتدادِ شأوهما في الفتنة ، وسنّى الله السلمَ بينهما في ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين ، اعتدى بعد ذلك المعتضدُ على جارَيْه ِ ابنِ يحيى أمير لبلة ، وأبي زيدِ البكريّ أميرِ شَلْطيشَ وأونَبَة[2] فأخرجهما عن سلطانهما الموروث ، وحصل له عملهما بلا كبير مؤنة ، وضمّهُ إلى سائر عمله العريض ، وازداد بذلك المعتضد سلطاناً وقوّة ، وذلك أنه لمّا خلا وَجْهُهُ من المظفّرِ بن الأفطس فرغ لابن يحيى بلبلة[3] وصمّم في قَصْدِهِ بنفسه، فنزل ابنُ يحيى له عن لبلةَ وخرج عن البلد، وانزعج إلى قرطبة: وردّها[4] مسلوبَ الامارة ، لائذاً بكنف ابن جهور سادّ الخلّةِ

١ نقل دوزي هذا الفصل عن الذخيرة في مجموعه عن بني عباد ١ : ٢٥٢ وانظر البيان المغرب ٣ : ٢٤٠ والحلة السيراء ٢ : ١٨٠ – ١٨٢ .

٢ أونبة اسم آخر لمدينة ولبة (Huelva) وهي وشلطيش (Saltes) في كورة اكشونبة في الركن الجنوبي الغربي من شبه جزيرة ايبرية ،وتسمى المديرية اليوم مديرية ولبة.وفي ساحلها جزر صغيرة أكبرها جزيرة شلطيش (انظر الروض المعطار ،الترجمة الفرنسية : ٤٤ ، ١٣٥

٣ لبلة (Niebla) تقع شمال اقليم اكشونبة وتبعد عن اشبيلية إلى الغرب مسافة خمسين كيلومتراً (الروض : ٢٠٣) .

٤ م س : وردها .

ومأوى الطريد . وكان من الغريب النادر أن شاركه المعتضدُ بقطعةٍ من خيله أوصلته إلى مأمنه بقرطبة .

ثم سقط إلينا النبأ بعدُ بامتداد يدِهِ إلى البكري بولبة وشلطيش ؛ وكان هذا الفتى أبو زيد البكري أوارث ذلك العمل لأبيه ، وكان أبوه من بيتِ الشّرفِ والحسَبِ والجاه والنعمة ، والاتصال القديم بسلطان الجماعة ، وكان له ولسلفه قِبَلَ إسماعيلَ بن عباد جدِّ المعتضد وسائلُ وأذِمّةٌ خلّفاها في الأعقاب اغترَّ بها عبد العزيز البكري ، فبادر البعثةَ إلى المعتضد ساعةَ دَخَلَ لبلة يهنّئه بما تَهيأ له منها ، وذكّره بالذِمام الموصول بينهما . واعترف بطاعته ، وعرض عليه التخلّي عن ولبة ، وإقرارَه بشلطيشَ ان شاء ، فوَقَعَ له ذلك من المعتضد موقعَ إرادة ، وردَّ الأمر إليه فيما يعزم عليه ، وأظهر الرغبة في لقائه ، وخرج نحوه يبغي ذلك ، فلم يطمئنَّ عبدُ العزيزِ إلى لقائه ، وتحمّلَ بسفنه بجميع ماله إلى جزيرة شلطيش ، وتخلّى للمعتضد عن ولبة . فحازها حَوْزَهُ لِلَبْلَةَ ، وبَسَطَ الأمانَ لأهلها ، واستعمل عليها ثقةً من رجاله . ورسم له القطعَ بالبكريّ ، ومَنْعَ الناس طُرّاً من الدخول إليه : فتركه محصوراً وسطَ الماء إلى أن ألقى بيده من قُرْبٍ ولم يَعْزُبْ عنه الحزم . فسأل المعتضدَ أن ينطلقَ انطلاقَ صاحبه ، فأمّنَهُ ، ولحق بقرطبة ، وبوشر منه رجلاً سرّياً عاقلاً عفيفاً أديباً يفوتُ صاحبَهُ ابنَ يحيى خِلالاً وخصالاً[1] إلى زيادة، عليه ببيت السَّرْوِ والشرف ، وبابن له من الفتيانِ بزَّ الأقرانَ جمالاً وبهاءً وَسَرْواً وأدباً ومعرفة، يكنى أبا عبيد . وتحدّثَ الناسُ من حزم عبد العزيز يومئذ أنه لما احتلَّ بشلطيش علم أنه لا

---

[1] دوري : جلالا وحلالا .

يقارعُ عبّاداً ، فأخذ بالحزم أولاً ، وتخلّى له عنها بشروط وفّى له بها ، فباع منه سفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال ، واحتلّ قرطبة في كنفِ ابن جهور المأمونِ على الأموال والأنفس ، وَصَفَتْ لعبّادٍ تلك البلادُ ، لو أنَّ شيئاً يدوم صفاؤه ، والملك لله وحده[1] .

[فصل من نثره[2]

له من كتاب يهنىء فيه المعتمد بالفتح الذي كان سنة تسع وسبعين وأربعمائة : أطال الله بقاء سيدي ومولاي الجليل القدر ، الجميل الذكر ، ذي الأيادي الغرّ ، والنّعم الزهر ، وهنأ ما منحه من فتح ونصر ، واعتلاء وقهر ؛ بطالع السعد يا مولاي أبتَ ، وبسانح اليُمْنِ عدتَ ، وبكنف الحرز عذت ، وفي سبيل الظفر سرت ، وبقدم البّر سعيت ، وبجنّةِ العصمة أتيت ، وبسهم السداد رميت فأصميت ، صَدَرٌ عن أكرم المقاصد ، واشرف المشاهد ، وعودٌ بأجلّ ما ناله عائد ؛ وآب به وارد ، فتوحٌ أضحكت مبسمَ الدهر ، وسفرت عن صفحة البشر ، وردّت ماضي العمر ، وأكبَتْ واري الكفر ، وهزّت أعطافَ الأيام طربا ؛ وسقت أقداح السرور نخبا . وثنتْ آمال الشرك

---

١ بهامش ط الأيسر بخط غير خط الأصل : « بقي منها نحو نصف ورقه » وعلى الهامش الأيمن «هنا ترجمة للوزير الفقيه أبي عمر أحمد بن محمد بن حجاج». ولكن مما يلفت النظر أن النسخ المعتمدة لم تورد ترجمة ابن حجاج كما أنها لم تورد للبكري شعراً أو نثراً . وهي في الأرجح ناقصة عما رسمه ابن بسام نفسه، لهذا أثبت هنا بعض نثر البكري وشعره ليكون ذلك في نسق مع طبيعة كتاب الذخيرة .

٢ نهاية الأرب ٥ : ١٤٥ ونقله الميمني في مقدمة السمط .

كذبا ، وطوت أحشاء الطاغية رهبا ، فذكرها زاد الراكب ، وراحة اللاغب ، ومتعة الحاضر ونقلة المسافر :

بها تُنْفَضُ الأحلاس في كل منزلٍ وتعقد أطراف الحبال وتطلقُ[1]

شملت النعمة ، وجبرت الأمة ، وجلت الغمة ، وشفت الملة ، وبردت الغلة ، وكشفت العلة .

كان داء الاشراك سيفك واشتد دت شكاة الهدى وكان طبيبا

فغدا الدين جديداً ، والإسلام سعيداً ، والزمان حميداً ، وعمود الدين قائماً ، وكتاب الله حاكماً ، ودعوةُ الإيمان منصورة ، وعينُ الملك قريرة ، فهنأ الله مولانا وهنأناهذه المنحَ البهيةَ مطالعُها ، الشهية مواقعها ، المشهورة آثارها ، المأثورة أخبارها ، ونصر الله أعلامه ففي البرّ تُحَلّ وتعقد ، وعضد حسامه فبالقسط يُسَلّ ويغمد ، وأيدّ مذاهبه فبالتحزّم تُسْدى وتُلْحم ، وأمدّ كتائبه ففي الله تسرج وتُلْجَم . فكم فادح خطب كفاه ، وظلامِ كربٍ جلاه ، وميت حق أحياه ، وحيّ باطل أرداه . وكم جاحم ضلالة أطفأ ناره ، وناجم فتنة قلم أظفاره ، ومغلول أسنة أرهف شفاره ، ومستباح حرمة حمى ذماره .

فلله هذه المساعي الكريمة ، والمنازع القويمة. المتبلجة عن ميمون النقيبة ومحمود العزيمة ، فقد تمثل بها العهدَ الأول والقرن الأفضل الذي أخرج للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، والذي سطع هذا السراج ، وانتهج هذا المنهاج ، فلا زالت الفتوحُ تتوالى عليه ، وصنائع الله تتصل لديه ، إدالةً من مشاقّيه ، وإذالةً لمحاربيه ، وإبادة لمناوئيه . وإن أجلّ هذه النعم في الصدور ، وأحقها بالشكر الموفور ، ما منّ الله به من سلامة مولاي التي هي

١ للأعشى ، ديوانه : ١٤٩ والذخيرة ١ : ٨٣٥ .

جامعة لعزّ الدين، وصلاح كافّة المسلمين، بعد أن صلي من الحرب نيرانها، فكان أثبت أركانها ، وأصبر أقرانها :

وقفتَ وما في الموت شك لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائمُ
تمرّ بك الأبطالُ كلمى هزيمةً ووجهك وضاح وثغرك باسم

فلله الحمد والابداع والالهام ، وله المنة وعلينا متابعة الشكر والدوام ، وفازت الكفّ الكليم ، بأعلى قداح المكلوم لدى المقام الكريم ، وانها لهي التالية للاصبع الدامية ، في المنزلة العالية :

بصُرْتَ بالراحةِ العُليا فلم ترها تُنالُ إلا على جسرٍ من التعب[1]

جملة من شعر أبي عبيد البكري[2]

قال يخاطب أبا الحسن ابراهيم بن محمد المعروف بابن السقاء وزير ابن جهور ، وقد خرج رسولاً إلى باديس بن حبوس بغرناطة :

كذا في بروج السعد ينتقل البدرُ ويحسن حيث احتل آثاره القطرُ
وتقتسم الأرض الحطوظ فبقعةٌ لها وافر منها وأخرى لها نزر
لذلّ مكانٌ غاب عنه مملكي وعزّ مكانٌ حلّه ذلك البدر
فلو نقلت أرض خطاها لأقبلت تهنيه بغدادٌ بقربك أو مصر

وله في المعتمد عندما أجاز البحر مستجيراً بأمير المسلمين وناصر الدين :

---

١ ديوان أبي تمام ١ : ٧٨ .
٢ انظر الحلة السيراء ٢ : ١٨٦ وما بعدها ، ومقدمة السمط .

يهون علينا مركب الفلك أن يرى محيّا العلا لما نبا مركب الجُرْدِ
فجزنا أجاج البحر نبغي زلاله وذقنا جنى الشريان نبغي جنى الشهد
يذكرنا ذاك العبابُ إذا طمى ندى كفّك الهامي على القرب والبعد

ومنها :

محمد يا ابن الأكرمين أرومةً ليهنك تشييدُ المكارم والمجدِ
فلو خلّد الانسانُ بالمجد والتقى وآلائه الحسنى لهنئت بالخلد

وله :

أجدً هوى لم يأل شوقاً تجددا ووجداً إذا ما أتهم الحبُّ أنجدا
وما زال هذا الدهر يلحن في الورى فيرفع مجروراً ويخفض مبتدا
ومن لم يحط بالناس علماً فانني بلوتهمُ شتّى مَسُوداً وسيدا

وله ، وكان مولعاً بالخمر :

خليليَّ إني قد طربت إلى الكاس وتقتُ إلى شمِّ البنفسج والآسِ
فقوما بنا نلهو ونستمع الغنا ونسرق هذا اليوم سراً من الناس
فليس علينا ، في التعلل ساعة وإن وقعتْ في عقب شعبان من باس][1]

. . .

١ هنا تقع ترجمة أبي عمر أحمد بن محمد بن حجاج ، وقد نقل ابن سعيد شيئاً منها عن الذخيرة (المغرب ١ : ٢٥١) وفيها يقول : « كان بحر علوم ، وسابق ميدان منثور ومنظوم » وأورد له ابن سعيد رسالة أو قطعة من رسالة، أثبتها البلوي أيضاً على نحو أتم في العطاء الجزيل (ص : ٥ ؛ وأرجو أن أوفق الى العثور على الترجمة كاملة وإلحاقها بهذا القسم من الذخيرة .

في ذكر ذي الوزارتين الفقيه الكاتب أبي بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة [1]

وهو في وقتنا جمهورُ البراعة ، وبقيّةُ أئمة الصناعة ، وعذبة اللسان العربيّ ، وسويداءُ قلبِ هذا الإقليم الغربيّ ، بحرُ علمٍ لا ينزح ، وجبلُ حلمٍ لا يُزَحْزَح ، من بعضِ كور إشبيلية ، نشأ في دولة المعتضد ، شهر [2] بالعفاف فلزمه ، ويُسِّرَ للعلم فتعلّمه [3] وعلّمه ، وكانت له نفسٌ تأبى إلا مزاحمة الأعلام ، والخروج على الأيام ، وهو دائباً يغضُّ عِنانَها فتجمح ، ويطأطىء من غُلوائها فتتطاول وتطمح ، ممتنعاً من خدمةِ السلطان ، قاعداً بنفسه عن مرتبة نُظرائه من الأعيان ، بين عفّةٍ تزهّده ، وهيبةٍ من المعتضد تُقْعِدُهُ ، حتى فطن له ذو الوزارتين ابن زيدون ، فلم يزل يَضْرَحُ قذى العُطْلَة عن مائه ، ويُعلي رمادَ تلك الهيبة عن نارِ ذكائه ، إلى أن نبه عليه المعتضد [٤٨ب] آخر دولته ، فتصرف فيها قليلاً على تقيّة من تلك البقية ،

١ أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي الاشبيلي (– ٥٠٨) كان من أهل التفنن في العلوم كاتباً بارع الخط ، ويسافر رسولا عن المعتمد بن عباد إلى الملوك غير مرة ، وقبيل وفاته أدركه الخرف ؛ انظر ترجمته في الصلة : ١٠٤ والمغرب ١ : ٣٥٠ والمطرب : ٨١ واعتاب الكتاب : ٢٢٢ والمعجب : ٢٢٧ والوافي ٣ : ١٢٨ والمحمدون من الشعراء : ٣٥٨ والخريدة ٣ : ٣٨٣ والذيل والتكملة ٦ : ٢٢٧ والنفح ٤ : ٣٦١ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ والاحاطة ٢ : ٥١٦ .

٢ من هنا نقل ابن الأبار نص ابن بسام في ترجمة ابن القصيرة (اعتاب الكتاب ٠ ٢٢٢) حتى قوله : تقعده ؛ ثم لخص بعد ذلك حتى آخر الترجمة .

٣ الاعتاب : فعلمه .

وتقشّف من ذلك التعفّف ، إلى أن أفضى الأمرُ إلى المعتمد ، وأحسبه قد كان في أيامِ أبيه، من بعضِ مَن يداخله ويصافيه، فحباه من علاه بنصيب، وسقاه من نداه ببحرٍ لا بِذَنوب، وأنهضه إلى مثنّى الوزارة، وأكثرُ ما عوّلَ عليه في السفارة ، فسفر غيرَ ما مرةٍ بينه وبين حلفائه من ملوك الطوائف بأفقنا ، حتّى انصرفتْ وجوهُ آمالهم إلى أمير المسلمين وناصر الدين ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، رحمه الله ، فسفر ذو الوزارتين بينهما مراراً فكثر صوابه ، واشتهر في ذاتِ الله مجيئه وذهابه ، واضطر المعتمد إليه قريباً من آخر دولته ، فعظمتْ حاله ، واتّسعَ مجاله ، واستولى على الدولة استيلاءً قصّرَ عنه أشكاله ، إلى أن كان من خلعه ما كان ، فكان ذو الوزارتين أحدَ مَنْ حُرِبَ، وفي جملةِ مَنْ نُكِبَ . وأقام على تلك الحال، نحواً من ثلاثة أحوال ، حتّى تذكّرَهُ أمير المسلمين بما كان عهد من حسن خليقته، وسداد طريقته ، وقد حُدِّثْتُ أنّ سَبَبَ ذلك الذكر ، كتابٌ كان ورد من صاحب مصر ، لم يكن بدّ من الجواب عليه والانصاف منه ، وتفقّدَ يومئذٍ أعلامَ المشاهير ،فكان ذو الوزارتين أقربَ مذكور ، فاستدعاه لحينه ، وولاّه كَتَبَةَ دواوينه ، ورفع شأنه ، حتّى أنساهُ زمانَه ، وقد أثبتُّ من كلامه مما أنشأه في الدولتين ، ما يملأ ذكره الخافقين [1] .

---

[1] ذكر مؤلف المعجب : ٢٢٨ أن ابن القصيرة كان على طريقة قدماء الكتاب من ايثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب ، اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء .

جملة من إنشاءاته السلطانيات مع ما يتعلق بها ويذكر بسببها

له من رقعة وردت على الجناح بهزيمة الطاغية اذفونش، قصمه الله ، يوم الجمعة المشهور ، الذي أباد الله فيه عَبَدة الطواغيتِ على يَدَيْ أميرِ المسلمين وناصر الدين ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، رحمه الله ، قال فيها :

كتبتُ[١] صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب ، وقد أعزّ الله الدين، وأظهر المسلمين ، وفتح لهم بفضله على يدي مسعانا الفتح المبين ، بما يسّر الله في أمسه وسنّاه، وقدّره سبحانَهُ وقضاه[٢]، من هزيمة أذفونش بن فرذلند، أصلاه الله — إنْ كان طاح — الجحيم، ولا أعدمه — ان كان أمْهِل[٣] — العيشَ الذميم، كما قنّعه الخزي العظيم ، وإتيانِ القتلِ على أكابر رجاله وحُماتهِ ، وأخذِ النهب في سائر اليوم والليلة المتصلة به إلى جميع مَحَلاّته ، وحضور العدد الوافر بين يديّ من رؤوسهم ، ولم يحتزّ منها إلا ما قرب ، وامتلاء الأيدي ممّا قُبض ونُهب ، واتخذ الناسُ هاماتِهم صوامع يؤذنون عليها ، ويشكرون الله تعالى على ما صنع فيها ، والتتبع بعد في آثارهم ، وتمادي الطلب من وراء فرارهم ؛ والذي لا مرية فيه أنّ الناجي منهم قليل ،والمفلت

. ...

١ فيه مشابه مما أورده صاحب الروض المعطار (مادة : الزلاقة) ونقله المقري في النفح ٤ : ٣٦٩ ، وانظر أيضاً القسم الثالث من كتاب أعمال الاعلام : ٢٤٥ .

٢ م : وقدره ممتناً وقضاه ، س : وسناه ممتناً وقضاه .

٣ أعلام : ان كان قد أمهله

من سيوف الهند بسيوف الجوع والبعد مقتول ، ولم يصبني بحمد الله إلاّ جرحٌ أشوى[1]، وعنتٌ رغّب حُسْن المآلِ عندي[2] وزكّى، فلا يَشْتَغل ْلك بذلك بالٌ، ولا تتوهم فيه غير ما أشرتُ إليه ، والحمد لله على ما صَنَع حقّ حمده ، وهو أهلُ المزيدِ الذي لا يرجى إلاّ من عنده .

قال ابن بسام : وشهر رجب الذي ذكره كان سنة تسع وسبعين .

ثم ورد بعدُ كتابٌ من إنشائه يشرحُ جُمَل هذا الفتح وتفصيلهُ ، قال في بعض فصوله : وقد علم ما كنّا قبلُ مع عدوّ الله اذفونش بن فرذلند، قصمه الله، من تطأطؤنا واستعلائه ، وتقامئنا وانتخائه ، وأنا لم نجد لدائه دواء ، ولا لبلائه انقضاءً ، ولا لمدةِ الامتحان به فَناءً ، إلى أن سنّى الله تعالى من استصراخ أمير المسلمين وناصر الدين، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، معقلي الأحْمَى — أيّده الله — ما سنّى، وأدنى من نأي ديارِهِ وشَحْطِ مزاره ما أدنى، فلم أزل أصلُ بيني وبينه الأسباب،وأستفتحُ إلى ما كنتُ أتخيَّلُ من نصره الأبواب،إلى أن ارتفعتِ الموانعُ قبلَهُ،وانتُهِجَتْ السّبُلُ القصية[3] له؛ ثم أجاز — على بركة الله وعونه — يريشُ ويَبْري ، وصار بعدُ قُدُماً يَخْلُقُ ويفري، ويتتبعُ وجوه الحزامةِ [٤٩ أ] كيفما اتجهت ويستقري ، وأنا أنجده بوسعي، وأسْعدُه على حَسَب ما يُطيقه ذَرْعي ، إلى أن صرنا معشر الحلفاء[4]

---

١ أشوى . أصاب الشوى أي الأطراف ولم يكن قاتلا

٢ هذه العبارة قلقة هنا . وكذلك هي في الروض والنفح واعمال الاعلام .

٣ ط د س : القيمة (ولعل الصواب : العصية) .

٤ م س : الخلفاء .

ببَطَلْيَوْس — حرسها الله — واتفق رأينا بعد تشاورٍ على قصد قورية[1] — حرسها الله — وسمع العدوّ — لعنه الله — بذلك ، فصمد من مُحْتَشَدِه إليها في جيوشٍ تملأ الفضاء ، وتسدّ الهواء ، وتمنعُ أن تقع على ما تحت راياته ذُكاء ، قد تحصّنوا بالحديد من قرونهم إلى أقدامهم . واتخذوا من السلاح ما يزيدُ في جرأتهم وإقدامهم ، ولما أشرف على جَنَابها ، ولسنا بها ، ودنا من أعلامها . ولم يتّجه لنا بعدُ ما أردنا من إلمامها ؛ دعاهُ تعاظمه[2] إلى مواجهة سبيلنا ، وحمله تَقَحُّمُهُ وتهوُّرُهُ على السلوكِ في مَدْرَجِ سيولنا .

وفي فصل منها : فدنونا إليه بمحلاّتنا — نصرها الله — ثم اضطربناها[3] بازائه ، وأطللنا عليه براياتنا[4] حتى كدنا نركزها بفِنائه[5] ، ورأى — لعنه الله — ما اعتمدناه من إصغاره وإخزائه ، فأجمع مضطراً على اللقاء ، وقدّمَ بعضَ أخبيته دَهِشاً في الرقعة التي كانت بيننا على صغرها من بساطِ الفضاء ، وقد تيقّنَ أنّه إن أخذ المسلمون مصافّهم ، ورتبوا في مواقعهم كوافّهم ، اصْطُلِمَ عن آخرِهِ جَمْعُهُ ، واجتثَّ أصْلُهُ وفرعُه ، فاهتبلَ فيما قَدَّرَ غِرَّةً . وحمل ولم يكن — بحمدِ الله — ما استشعره مَرَّةً ، فتنادى المسلمون بشعارهم المنصور ، وأقبلوا عليه وعلى من معه في حالٍ مؤذنةٍ بالظهور والوفور ، فتواقف قليلاً الجمعان ، وتجاول مليّاً الفريقان ، وللسيوف حكمها ، ومن الحتوف حدُّها المفهوم ورسمها ، ثم صدق أميرُ المسلمين وناصر

---

١ قورية (Coria) قريبة من ماردة (الروض المعطار رقم : ١٥٣) وفي س م : مورية .

٢ م ط . تعاطيه .

٣ م د . أحطرناها .

٤ م : برايتنا .

٥ بفنائه : سقطت من م .

الدين – أيده الله – الحملة ، وصدم في جمعٍ لم يكثر عدد الحملة ، فلم يلبثْ أعداءُ الله أن ولّوا الأدبار ، واستصرخوا الفرار ، واتبعهم خيل المسلمين – نصرهم الله – بقية اليوم والليلة ، تقتلهم في كل غَوْرٍ ونجد ، وتقتضي أرواحهم على حالين من كالىءٍ ونقد[1] ، ولم يخلص منهم على أيدي المتّبعين – آجرهم الله – إلا من سيلتهمه البُعْد ، ويأتي على حُشاشتهِ الجهد ، وأمّا محلّتهم فانْتُهِبَتْ في أوّلِ وهْلَة ، وشُرِبَتْ بأسرها في نَهْلَة .

وفي فصل منها :

ولم يُصَبْ بحمد الله من المسلمين – وفرهم الله – على هول المقام ، وشدّةِ الاقتحام ، كثيرٌ ، ولا مات من أعلامهم[2] تحت تلك الجولةِ إلا عدد يسير ، فإن كان اذفونش – لعنه الله – لم يمتْ تحت السيوفِ بدداً ، فسيموت لا محالة أسفاً وكمداً ، ونحمد الله على ما يسّره من هذا الفتح الجليل وسنّاه ، ومنحه من هذا الصنع الجميل وأوْلاه .

قول أبي بكر فيما كتب به عن المعتمد يومئذ : « ولم يصبني إلا جرح أشوى » تواتر النبأ أنه جرحت يده في ضَنْكِ ذلك المأزقِ .

وقيل في يومِ الجمعةِ أشعارٌ سارت بالمغارب والمشارق ؛

أخبرني أبو بكر الخولاني المنجم قال : كتب إليّ أبو عبد الله بن عبادة[3]

. . .

١ الكالئ : النسيئة والسلفة ، والنقد : الدفع المعجّل .
٢ م : أعاليهم .
٣ يعني ابا عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز .

من المرية بقصيدته في صفة يوم الجمعة ، فارتفعتْ إلى المعتمد على يدي ، وهي التي يقول فيها[1] :

وقالوا كفُّهُ جُرِحَتْ فقلنا أعاديه تواقعها[2] الجراحُ
وما أثرُ الجراحة ما رأيتم فترهبها المناصلُ والرماحُ
ولكن فاض سيلُ البأسِ منها ففيها من مجاريهِ انسياح
وقد صحَّتْ وسحَّت بالأماني وفاض الجودُ منها والسماح
رأى منه أبو يعقوب فيها عُقَاباً لا يُهاضُ لها جناح
فقال له لك القِدْحُ المعلَّى إذا ضُرِبَتْ بمشهدك القِداحُ

[٤٩ ب]وفي ذلك اليوم يقول عبد الجليل ، ويمدح أمير المسلمين وناصر الدين ، رحمه الله تعالى[3] :

فثار إلى الطعانِ حليفُ صدقٍ تثورُ به الحفيظةُ والذِّمامُ
نُمي في حميرٍ ونَمَتْكَ لخمٌ وتلك وشائجٌ فيها التحام
فيوسفُ يوسفٌ إذ أنت منهِ كيامن[4] . لا وهي لكما نظام
نهجتَ لسيله نهجاً فوافى وفي آذيّهِ الطامي عرامُ

---

١ انظر أبياتاً منها في القسم الثالث من أعمال الاعلام : ٢٤٩ وفي القلائد : ١٣ والمغرب والخريدة وهي من قصيدة وردت في ترجمة ابن عبادة القزاز في القسم الأول من الذخيرة : ٣٠٨

٢ م س : تواقعه .

٣ منها أبيات في المسالك ١١ : ٢٢١ والخريدة ٢ : الورقة ٩٩ (في ترجمة عبد الجليل ابن وهبون) والمطرب : ١٢٠ — ١٢١ والقسم الثالث من أعمال الاعلام : ٢٤٧ — ٢٤٨ والقلائد : ١٣ .

٤ كيامن : مثل يامن (يعني بنيامين أخا يوسف الصديق) وفي أعمال الأعلام : كما بزلا وما لكما نظام (وهو غريب) .

فَهِيلَ به كثيبُ الكفر هيلاً وكلُّ رُفَيْغَةٍ[1] منه ركام
وصاروا فوق ظهر الأرضِ أرضاً كأنَّ وِهَادَهَا منهم اكام
عديدٌ لا يشارفُهُ حسابٌ ولا يحوي جماعَتَهُ زمام
تألفتِ الوحوشُ عليه شتَّى فما نقصَ الشَّرابُ ولا الطعام
فان ينجُ اللعينُ فلا كَحُرٍّ ولكنْ مثلما ينجو اللئام

وكان اذفونش قد اضطره الخَوَرُ يومئذٍ للفرار ، فتسنَّمَ قُنَنَ الجبالِ الشاهقة والأوعار ، إلى أنْ جَنَّهُ ثَوْبُ الظلام . فنجا مَنْجَى الحارِثِ بن هشام . برأسِ طِمِرَّةٍ ولجام[2] . ودخل طليطلة — أعادها الله — مع شِرْذِمَةٍ من أتباعِهِ قليلة . وبقيَّةٍ من طائفةٍ له مخذولةٍ مغلولة . فوصف ذلك كلَّه عبدُ الجليل في هذه القصيدة ، فقال :

فأين العجب يا أذفونش هلاً تَجَنَّبْتَ المشيخةَ يا غلامُ
ستسألك النِّساءُ ولا رجالٌ فتخبرُ ما وراءكَ يا عصام[3]

وهذا لفظ أبي فراس في سيف الدولة . وننشد ما قبله لاتصال المعنى به[4] :

سلي عنِّي سَرَاةَ بني كلابٍ ببالسَ عند مشتجرِ العوالي
.. ..

١ ط : رفيقة ؛ م : رقيقة ؛ والرفيغة : التراب اللين .
٢ فيه اشارة إلى قول حسان بن ثابت يعير الحارث بن هشام بالفرار .
إن كنت كاذبة الذي حدثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام
٣ هو مثل ، انظر جمهرة العسكري ٢ : ٢٥٥ (تحقيق أبو الفضل) والميداني ٢ : ١٤٣ واللسان (عصم) .
٤ ديوان أبي فراس : ٣٠٦ .

لقيناهم بأسياف قصارٍ كَفَيْنَ مؤونة الأَسَل الطّوال
تدورُ به نساءُ بني قُرَيْظٍ[1] وتسألُهُ النّساءُ عن الرجال

وفي هذه القصيدة يقول كأنه يخاطب أذفونش :

أقمتَ لدى الوغى سوقاً فخذها مناجزَةً ، وَهُوْنٌ ما تُسام
فان شئتَ اللجينَ فثمّ سامٌ وإن شئتَ النضارَ فثمّ حام
رأيت الضربَ تصليباً فَصَلِّبْ فأنت على صليبك لا تلام
أنامَ رجالك الأشقون ؟ كَلّا وهل يحلو بلا رأسٍ منام
رفعنا هامَهُمْ في كلّ جِذْعٍ كما ارتفعتْ على الأيْكِ الحمام
سيعبدُ بعدها الظلماءَ لمّا أتيحَ له بجانبها اكتتام
ولا ينفكُّ كالخفّاشِ يُغْضي إذا ما لم يباشِرْهُ الظّلام
نَضا أدراعَهُ واجتابَ ليلاً يودُّ لو أنّ طولَ الليل عام
وليس أوانَ للأيمِ[2] انسلاخٌ ولكنْ في ضمائره احتدام

وقوله : « سيعبد بعدها الظلماء » ... البيت ، كقول المتنبي[3] :
[٥٠ أ] .

وكم لظلامِ الليلِ عندك من يدٍ تخبّر أنّ المانويّةَ تكذبُ

وكقول أبي تمام[4] :

. . .

١ الديوان : إماء من قريظ .
٢ م س : لليل .
٣ ديوان المتنبي : ٤٦٤ والخريدة ٢ : ١٠٠ .
٤ ديوان أبي تمام ١ : ١٩٩ .

جفا الشرقَ حتّى ظنَّ مَنْ كان جاهلاً
بدين النّصارى أنَّ قِبْلَتَهُ الغربُ

وقوله : « يود لو أن طول الليلِ عامُ » ، من قول المعري ، وقصَّر عنه :
يودّ أنَّ ظلام الليل دام له . . . البيت[1] ، ونقله التهامي نقلاً مليحاً
فقال[2] :

وتودُّ لو جَعَلَتْ سواد قلوبها وسواد عَيْنَيْها سواد عذارِ

وكانت طوائف الروم ، مدة ملوك الطّوائف بأفقنا قد كلب داؤهم
بكلِ إقليم ، فلاطفوهم بالاحتيال ، واستنزلوهم بالأموال ، فلم يزل
دأبهم الإذعان والانقياد ، ودأب النصارى التسلّط[3] والعناد ، حتّى
استصْفوا الطريف والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النّفاد ، بما كانوا
ضربوا على أنفسهم من الضريبة ، إلى ما يتبعها من هديّاتٍ ونفقات ، وشعرُ
العصرِ . شاهدٌ بالأمر ، كقول حسَّان بن المصّيصي[4] يمدحُ المعتمد ويهوّن عليه
تلك الاتاوات ، من جملة أبيات :

ولم تَطْوِ دون المسلمين ذخيرةً تُهينُ كرام المُنْفسات لتكرما
تَحيَّلُ في فكّ الأسارى وإنّما تعاقدُ كفّاراً لتطلق مسلما
وما كنت ممّن شحَّ بالمال والقنا فتكنز ديناراً وتركز لَهْذَما
فترسله للصُّفْرِ أصفر عسجداً وإنخالفوا أرسَلتأبيضمخْذما

. . .

١ تمامه : وزيد فيه سواد القلب والبصر (شروح السقط : ١١٩) .
٢ ديوان التهامي : ٥٥ .
٣ م : التصليط .
٤ ستأتي ترجمته في هذا القسم : ٤٣٣

وفي ذلك يقول أبو بكر الداني من جملة قصيدة :

في نصرة الدين لا أعدمتَ نصرتَهُ ... تلقى النصارى بما تلقى فتنخدعُ
تنيلهم نعماً في طيّها نقمٌ ... سيستضرّ بها من كان ينتفع
وقلّ ما تسلم [1] الأجسامُ من عرضٍ ... إذا توالى عليها الريُّ والشبَعُ
لا يخبطُ الناسُ عشوا عند مشكلةٍ ... فأنت أدرى بما تأتي وما تدع

وهذا مدح غرور ، وشاهد زور ، وملَقُ مُعْتَفٍ سائل ، وخديعةُ طالبٍ نائل ،وهيهات ! ! بل حلّتِ الفاقرةُ بعدُ بجماعتهم «حين أيقن النصارى بضعف المُنَنِ [2] ، وقويتْ أطماعهم بافتتاح المدن ، واضطرمتْ في كلّ جهةٍ نارهم ، و رويَتْ من دماء المسلمين أسنّتهم وشفارهم ، ومن أخطأه القتلُ منهم فإنما هو بأيديهم سبايا ، يمتحنونهم بأنواع المحَنِ والبلايا ، حتى دنَوْا مما أرادوه من التوثّب ، وأشرفوا على ما أمّلوه من التغلّب [3] » . وحصلت مدينة قُورِيَة وسُرْتَة أوّلاً في يد العدوّ ، إلى عدّة حصونٍ وقلاع ، كلّها في غايةٍ من الحصانة والامتناع ، ثم لم يزل التخاذل يتزايدُ ، والتدابُرُ يتسانَدُ ، حتى حلّت الفاقرةُ ، وقُضيَتِ القضيّةُ ، وتُعُجّلَتِ البلية ، بحصول مدينةِ طُلَيْطلَة في أيدي النصارى ، وذلك في سنة ثمان وسبعين ، وهي من الجزيرة كنقطةِ الدائرة ، وواسطة القلادة ، تدركها من جميع نواحيها ، ويستوي في الاضرار بها قاصيها ودانيها . وفي ذلك يقول ...

١ ط م س : تسام .
٢ ط د : المتن .
٣ وضعنا هذا النص بين أقواس ، لأنه سيرد من بعد في رسالة لمحمد بن أيمن ، فهو ليس من كلام ابن بسام ، وإنما أورده مقتبساً .

بعض الشعراء[1] :

حثّوا مطاياكمُ عن أرضِ أندلسٍ فما المقامُ بها إلا من الغَلطِ [٥٠ ب]
فالثوبُ ينسلُ من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

ولعمري لو[2] قضى بالسّماع على العيان ، واستغنى بالإقناع عن البرهان ، واطمأنّ قلبُهُ إلى التمويه ، وقد رآه محضاً لا شكّ فيه ، لكان كلامُ الداني أبي بكر ، في ذلك المعنى المتقدِّم الذكر ، برتبةِ ذلك أليق ، وفي حَلْبَتهِ أجمح وأسبق ، حتى لو سمعه الحارث بن هشام ، لَعَلم أنّه قد تَرك في حَمْدِ المذموم ، ومعارضة الصحيح بالسقيم ، طَلَقاً شاسعاً ، ومجالاً واسعاً .

وأوّلُ من حسَّن الفرار ، فما وقع ولا طار[3] ، الملكُ الضّليلُ حيثُ يقول[4] :

وما جَبُنَتْ خيلي ولكنْ تذكّرتْ مرابطَها من بربعيص وميسرا[5]

ثم تتابع الشعراء في خَدْعِ العقولِ ، بالتمويه المستحيل ، فمن مُحْسِّنٍ بَرَّز ، ومن مقصّر عَجَز ، ومن أحسن ما ورد في ذلك قول حسان[6] :

١ هو ابن العسال الزاهد عبد الله بن فرج اليحصبي ، انظر النفح ٤ : ٣٥٢ .
٢ في النسخ : لقد .
٣ م : عار .
٤ ديوان امرىء القيس : ٧٠ .
٥ قيل إن بربعيص بنواحي حلب ؛ وفيها وفي ميسر كانت وقعة فيما يبدو .
٦ ديوان حسان ١ : ١٧ .

نولّيها الملامة إن ألمْنَا   إذا ما كان مغثٌ أو لحاءُ[1]
ونشربها فتتركنا ملوكاً   وأسْداً ما يُنَهْنِهُنا اللقاء

الأبيات ، حتى قال الحارثُ بن هشام قطعتهُ في حُسْنِ الفرار، التي التي صارتْ نهايةً في العجب ، وشهادةً في تحسين نتائج الهرب ، وهي قوله[2] :

الله يعلمُ ما تركتُ قتالهم   حتى عَلَوْا فرسي بأشقرَ مُزْبِدِ
ونشيتُ ريحَ الموتِ من تلقائهم   في مأزقٍ والخيلُ لم تتبدَّدِ
وعلمتُ أني إنْ أقاتِلْ واحداً   أقْتَلْ ،ولايضررْ عدوّي مشهدي
فصددتُ عنهمْ والأحبةُ فيهمُ   طمعاً لهم بعقابِ يومٍ سَرْمَدِ

وسمعها بعض العجم فقال : قاتلكم الله معشرَ العرب ، حَسَّنْتُم كلَّ شيءٍ حتى الفرار .

ومن أسحرِ[3] ما وَرَدَ في ذلك للألباب ، وأخدَعِهِ عن الصواب ، قولُ ابنِ الرومي في سوداء ، وقد تقدم في ما مرَّ من الكتاب[4] :

أكسبها الحبَّ أنها صُبِغَتْ   صبغةَ حَبِّ القلوبِ والحدقِ

إلى ما لا يُحْصى عدده ، ولا يُستَقْصى أمَدُه .

.. ..

١ المغث : القتال ؛ اللحاء : السباب ؛ ألمنا : فعلنا ما نلام عليه .

٢ حماسة البحتري : ٥٠ ونسب قريش : ٣٠٢ والسيرة ٢ : ١٨ والعقد ١ : ٤٠ .

٣ م : أبهر .

٤ انظر زهر الآداب : ٢٣٠ وتشبيهات ابن أبي عون: ٢٣٦ والقسم الأول من الذخيرة ١٥٠٠ والغيث ٢ : ١٦٠ .

ومن الشاهد أيضاً على ما تقدم من الأوصاف رقاعٌ رأيتها تكتب يومئذ بأحد بيوت الأشراف ، خوطب بها العمّال ، في استعجال قَبْضِ تلك الأموال ، منها رقعة عن المعتمد قيل فيها :

الحال معَ العدوّ — قصمه الله — بيّنةٌ لا تخفى ، ومداراته — ما لم تمكنْ[1] مضاهاته — أولى وأحْرى[2] ، والتُزِمَ له في الصلح المتَّفقِ عليه جملةُ مالٍ رُسِمَ عليك منه — بعد النظرِ لحالك ، والتحاشي من الإجحاف بمالك — كذا ؛ فعجّلِ النظرَ فيه ، وابعثهُ بكتابٍ تجاوَبُ على ظَهْرِهِ بوصوله ، وبحسب تعجيلك أو تأخيرك يكونُ الاستدلال على طيب نفسك ، وصدق ضميرك ، فتَدارَكْ بالمشاركةِ في هذا الخَطْبِ الملمّ المهمّ الذي لا محيدَ عنه ، ولا بدَّ منه .

وأخرى خوطب عنه بها قوّادُ البلادِ في هذا المعنى : الحالُ مع العدوّ — قصمه الله — بيّنةٌ لا تحتاجُ إلى جلاءٍ ولا كشفٍ ، معروفةٌ لا تفتقرُ إلى نعتٍ ولا وَصْفٍ ، ومن لا يمكن مُقاواتُهُ ومخاشنته . فليس إلا مداراته وملاينته . وكان — فلّ الله حدَّه ، وفضّ جنده — قد اعتقد الخروجَ في هذا العام إلى بلادنا — عصمها الله — بأكثفَ من جموعهِ في العامِ الفارطِ وأحفل ، وأبلغَ في استعداده وأكمل ، إلاّ أنّ الله تعالى يسَّرَ من إنابتهِ إلى السّلْمِ ما يسَّر ، ونظر لنا من حيثُ لا نستطيعُ أن ننظر ، ووقعَ [٥١ أ] الاتفاقُ معه على جملةٍ من المال تُقدَّمُ إليه ، ونستكفُّ بها الشرَّ

---

[1] ط م د : تكن .

[2] م : وأجدى .

المرهوبَ[1] لديه ، فكم حالٍ كانت بخروجه تَتَلَّف ، ونعمةٍ بأيدي طاغيته تُنْتَسف ؛ والرعيةُ — حاطها الله — في هذا العام على ما يقتضيه ما عمَّ البلادَ من الفساد ، وشَمِلَها من جائحة القحطِ والجراد ، وتكليفها أداءَ شيءٍ من المال الذي التزم مرتفعٌ ، وأخْذُها بالمعونة على ما نابَ مُمْتَنِعٌ ، فلم يبقَ إلاّ أن نميل بهذه الكُلْفَةِ على الخَدَمَةِ مَيْلَ العموم ، ونجريهم فيها على أحْسَنِ مجاري التحرير والتقويم . وهي حالٌ تقتضي مِنْ كلِّ مَنْ أحْسَنَ التأملَ المعونةَ فيها ، والمبادرةَ بحسب طاقته إليها ، وقد أدرجتُ طيَّ رُقْعَتي هذه قِنْداقاً[2] تُسَمَّى الخَدَمَةُ قِبَلَكَ فيه ، ورُسِمَ على كل واحد منهم ما توجبه حاله وتقتضيه، فتقدمْ في ما نصصته من الحالَ إليهم، وكلِّمْهُمْ بما يخفّفُ الحالَ عندهم ويُسَهِّلُها لديهم ، ولتقبضْ ذلك كلَّه في أعجلِ ما يمكن ، فالحاجةُ إليه وكيدة ، والضرورةُ حافزةٌ شديدة .

قال[3] : ولمَّا كلب[4] العدو — قصمه الله — في ذلك التاريخ ، وأعضل داؤه، وجعل يطأ بلاد المسلمين ، آمناً لا يخافُ ، وآنساً لا يستوحش ، مُقْدِماً لا يكعّ ، ومجترئاً[5] لا يرتدع ، ينزل بساحاتِ القواعد الرفيعة ، والقلاع المنيعة ، فيعفّي الآثار ، ويستبيح الدَّمار[6] ، ويهتك مَصُونَ الأستار ، ورَمَتْ

---

١ ط : الموهوب .

٢ ط : متداماً ؛ م س : قنداماً ؛ وبياض في د ، والقنداق لفظة يونانية تعني « بيان » أو « براءة » مدرجة ضمن رسالة أو رقعة ، كما يفهم من النص أعلاه .

٣ قال : سقطت من م د س .

٤ في النسخ : كمل .

٥ ط : ومجرماً .

٦ كذا ولعلها « الديار » ، وهي غير واضحة في م .

لها الأنوف ، واستُعْذِبَتْ معها الحتوف ، وحميتْ منها النفوسُ الأبيّة ، والعدوّ في كل ذلك ثَلِجُ الفؤاد ، رابطُ الجأشِ . لا يرقبُ سنانَ دافعٍ ، ولا يبدو له وَضَحُ سيفِ مدافع . لأنّ أكثرَ ملوكِ هذا الإقليم ، كانوا يداخلون طوائفَ الروم ، ويكتري كلُّ واحدٍ منهم عسكراً بجملةٍ من المال ، يُخْرِجُهُ إلى بلدِ كاشِحِهِ . ويسلّطُهُ على معانده ممن يجاورُهُ من البلاد ، حسداً له وطمعاً في بلده أنْ يصيرَ طَوْعَ يده ، فكانت نيرانُ الفتنةِ بينهم مشتعلة ، والرعيّة مهملةٌ ، لأن جُمْلَةَ غَلاّتِهم ، وجميعَ اعتمالاتِهم ، كانت تتلفُ بأيدي تلك الطواغيت ، الخارجة إليهم في أكثر المواقيت ؛ وما كان يفلتُ من الخراب يَغْرمونه في المغارمِ ، وما يُجَشّمونَهُ من المجاشم . فقطعوا أيّامَهم بقرع الظنابيب [1] ، وشرعِ الأنابيب ، نكاياتِ قَعَدَةٍ ، لا نكاياتِ مَرَدَةٍ ؛ إذ كان كلُّ واحدٍ منهم يختفي عن قِرْنِهِ بقصره ، ويطيلُ الهزَّ لسيفِ غيره . ويسلّه على جاره ، حتى غدا ذلك السيفُ مسلولاً عليه ؛ كما قال أبو تمام [2] :

عَبّأَ الكمينَ له فظلَّ لَحِينِهِ ... وكمينُهُ الملقى [3] عليه كَمِينُ

لأنّ النصارى لما اطّلعوا على عوراتهم : زحفوا بطوائفهم إليهم ، ولما لم يبق إلا نَفَسٌ خافت وَرَمَقٌ زاهق [4] ، ورأى المسلمون أنّهم بالجزيرة على طرف . وفي سبيل [5] تمام وتلف . استصرخوا أميرَ المسلمين وناصر

---

١ قرع للأمر ظنبوبه (وهو عظم الساق) : استعد له وتهيأ .
٢ ديوان أبي تمام ٣ : ٣٢٠ .
٣ الديوان : المخفي .
٤ ط : نافق ؛ س م : راهق .
٥ م د : سيل .

الدين ، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، رحمه الله ، فأجاز إلى جزيرة الأندلس في صدر سنة تسع وسبعين . وبادر بنفسه وجماعته عجالاً ، وتداركوها ركباناً ورجالاً . ونفروا نحوها خفافاً وثقالاً ، والنُّجْحُ يَقْدُمُهُم ، والفَلَجُ يصحبهم . فكان من الفتح يومَ الجمعة المؤرخ ما كان : صرع الله فيه عَبَدَةَ الطَّواغيتِ، ووفد عليه عوضاً من آلاف دنانيرِ الأموال، ضِعْفُهُمْ من الفرسانِ الأبطالِ ، ففي ذلك يقول عبد الجليل من جملة قصيدة :

أتُنْكِرُ العُجْمُ أنَّ العُرْبَ سادتها وتشهدُ البيضُ والخطيَّةُ السُّمُرُ
لما تعارض[1] دونَ الشكرِ كفرهُمُ عادتْ بوادرَ فيهم تلكمُ البِدَرُ
وهبَّ عن كلِّ دينارٍ لهم بَطَلٌ كخالصِ التِّبْرِ مسبوكٌ ومختبر
فليقبلوها ألوفاً من أسُودٍ وغيٍّ تزكو على السَّبْكِ لا جُبْنٌ ولا خَوَر
ولْيَرْقُبوا من أميرِ المسلمينَ ومن مؤيّدِ الدين ليلاً ما له سَحَر [٥١ب]
لم يهشموا الثغرَ إذ عاشتْ أكفُّهُمُ لو يعقلون ولكنْ تلكمُ الثغر
وليس ما غيَّروا إلاَّ لأنْفُسِهِمْ كأنَّما نبهوا إذ نامتِ الغِيَرُ

قوله : « وهبَّ عن كلّ دينارٍ لهمْ بطلٌ » . . . البيت ، بنّهه على هذا المعنى المتنبي بقوله[2] :

ولو كنتُ في أسْرِ غيرِ[3] الهوى ضمنتُ ضمانَ أبي وائلِ
فدى نَفْسَهُ بضمانِ النُّضَارِ وأعطى صدورَ القنا الذابل
ومنَّاهُمُ الخيلَ مجنوبةً فجئْنَ بكلِّ فتىً باسل

١ د : تعرض .
٢ ديوان المتنبي : ٢٥٩ .
٣ م ط : غير أسر ، وهي رواية أخرى .

وفي يوم الجمعة يقولُ أيضاً ابنُ جمهور [1] من جملة قصيدة :

لم تَعرفِ العُجْمُ إذ جاءَتْ مُصَمِّمةً ... يومَ العرُوبَةِ أنّ اليومَ للعربِ

وهذا ينظر إلى قول أبي تمام [2] :

لئن كان نصرانياً النهرُ آلسٌ ... لقدوجدوا واديعَقَرْقَسَ مُسْلما [3]

وفي ملوك الأندلس يقول أبو الحسن ابنُ الجدّ [4] يمدحُ أميرَ المسلمين وناصر الدين ، رحمه الله :

في كلّ يوم غريبٌ فيه مُعْتَبَرُ ... نلقاهُ أو يتلقّانا به خَبَرُ
أرى الملوكَ أصابَتْهُمْ بأندلسٍ ... دوائرُ السَّوْء لا تُبقي ولا تَذَرُ
قد كنتُ أنظرها والشمسُ طالعةٌ ... لو صحّ للقوم في أمثالها النظر
ناموا وأسرى لهم تحت الدّجى قَدَرٌ ... هوى بأنجمهم خَسْفاً وما شعروا
وكيف يشعرُ من في كفّه قَدَحٌ ... تحدو به مُذْهلاتُ الناي والوتر

١ في النسخ ابن جهور ، والتصويب عن الحلة ٢ : ١٠١ حيث ذكر أنه أحد أدباء اشبيلية . وابن جهور ليس من اشبيلية ، وقد عرف محقق الحلة بمن اسمه عبد الله بن أحمد بن جمهور ومن المستبعد أن يكون هو الشاعر المقصود هنا ، لأن عبد الله ولد سنة ٥١٦ ه أي بعد الزلاقة بثماني وثلاثين سنة .

٢ ديوان أبي تمام ٣ : ٢٤٢ .

٣ نهر آلس ووادي عقرقس ببلاد الروم ، وكان عند الأول نصر للروم وعند الثاني نصر للمسلمين .

٤ ترجم ابن سعيد (المغرب ١ : ٣٤٠ ٦) لأبي الحسن بن محمد بن الجد ، الذي سيترجم له ابن ابن بسام في هذا الجزء ويكنيه بأبي الحسين (والكنيتان تتبادلان في المخطوطات) فلعله هو المعني هنا .

صمّتْ مسامعُهُ عن غيرِ نغمتهِ فما تمرُّ به الآيات والسُّوَر
تلقاه كالعجْلِ معبوداً بمجلسهِ له خُوارٌ ولكنْ حَشْوه خَوَر
وحوله كلُّ مغترٍ وما علموا أنَّ الذي زَخْرَفَتْ دنياهمُ غَرَرُ
فقلْ لمن نام أصبحتَ. انتبه، فلقد مضى للكَ الليلُ بحتاًو انقضى السحر
وانظر إلى الصبْحِ سيفاً في يدي مَلكٍ في الله من جُنْدِهِ التأييد والظفر
يرعى الرعايا بطرفٍ ساهرٍ يقظٍ كما رعاها بطَرْفٍ ساهرٍ عمر
ردوا موارد قد أوردتم حنقاً بها الأنامَ ولكن ما لكم صدر
كأني بكمُ قد صرْتم سَمَراً وما لكمْ في الورى عَيْنٌ ولا أثر[1]
أماتكم قبل موتٍ[2] سوء فعلكمُ وكيف بالذكر إذ لم تَحْسُنِ السِّير

رجعت إلى إيراد فصول من ترسيل ذي الوزارتين المذكور

فصول من رقعةٍ كتبها عنه إلى صاحب القلعة ؛ قال فيها[3] :

ورد كتابُك الذي أنْفَذْتَه من وادي منى مُنْصَرَفَكَ من الوجهة التي استظهرتَ عليها [٥٢ أ] بأضدادِك، وأجْحَفْتَ فيها بطارفك وتلادِكَ، واخفقت من مَطْلَبك ومرادك ، فوقفنا على معانيه ، وعرفنا المصرَّح به والمشار إليه فيه ، ووجدناك تتجنى وتَتَشَرَّب على مَنْ لم يستوجبِ التثريبَ ،

---

١ سقط البيت من م
٢ م ط . صوت .
٣ هذه الرسالة موجهة إلى صاحب قلعة بني حماد على لسان يوسف بن تاشفين . كذا قال في القلائد ١٠٥ والخريدة ٣ : ٢٨٥ .

وتجعل سيئَتَكَ حَسَناً ، ومُنْكَرَكَ[1] معروفاً ، وخطأكَ[2] صواباً بيِّناً ، وتقضي لنفسك بفَلَج[3] الخصام ، وتوليها الحجّةَ البالغةَ في جميع الأحكام. ولم تتأوّلْ أنّ وراءَ كلّ حُجّةٍ أدْلَيْتَها ما يَدْحَضها . وإزاءَ كلّ دعوى أبْرَمْتَها ما يَنْقُضها ، وتلقاءَ كلّ شكوى صَحَّحْتَها ما يُمَرِّضها ، ولولا استنكاف الجدالِ ، واجتناب تردُّدِ القيلِ والقال ، لَنَصَصْنا[4] فصولَ كتابك أوّلاً فأوّلاً ، وتقرّيناها تفاصيلَ وجُمَلاً ، وأضفنا إلى كلّ فصلٍ ما يُبْطله ، ويُخْجِل من ينتحله[5] ، حتى لا يدفعَ لصحّتهِ[6] دافع ، ولا ينبو عن قَبُولِ أدلّتِهِ راءٍ ولا سامع ، ولا يختلف اعترافاً به دانٍ ولا شاسع .

وفي فصل منها : وننشُدكَ الله الذي ما[7] تقوم السّماء والأرض إلاّ بأمرهِ ، ألم نكنْ عندما نزغ الشيطان بينك وبين أبي عبد الله محمد بن يوسف ، رحمه الله ، وتفاقم الشنآن ، قد توفّرنا على ما كان بالحال من إقلاق ،وتأخّرنا عمّا كانتْ النصبة[8] تستقدم إليه من بدارٍ أو سباق . ولم نَمُدّ الجهةَ حتّى إمدادها[9] ، ولا كثّرنا فوق ما كان يلزم من جماهيرِ أعدادِها . ولا عَدَلْنا

١ القلائد والخريدة : ونكرك .
٢ القلائد والخريدة : وخلافك .
٣ م ط س : بصلح .
٤ القلائد : لقصصنا ؛ الخريدة : لفضضنا .
٥ ط : ويخجل من حجته .
٦ القلائد والخريدة : حجته .
٧ د والقلائد : لا .
٨ د : القصة .
٩ م ط : امتدادها .

عن[1] جهادِ المشركين ، ولا أقبَلْنا إلاّ على ما يحوط حريمَ المسلمين ، رجاءَ أن يثوب استبصار ، أو يقعَ إقصار ، وأنت خلالَ ذلك تحتفل وتَحْشِد ، وتقوم بحميّةٍ وتقعد ، وتبرق غضباً[2] وترعد ، وتستدعي ذؤبانَ العرب وصعاليكهم من مُبْتَعِدٍ ومقترب ، فتعطيهم ما في خزائنك جزافاً ، وتنفق عليهم ما كَنَزَه أوائلك إسرافاً ، وتمنح أهلَ العشرات مئين وأهلَ المئين آلافاً ؛ كلّ ذلك تعتضد بهم ، وتعتمد على تعصّبهم لكَ وتألُّبِهم ؛ وتعتقد أنهم جُنّتكَ من المحاذير ، وحماك[3] دون المقادير ، وتذهلُ عمّا في الغيب من أحكام العزيز القدير[4] .

ونحن أثناءَ ما فعلتَ ، وخلال ما عقدت وحللت ؛ نؤمُّ العدوَّ – قصمه الله – فنجبهه ونكافحه ، فنقدعه[5] ونناطحه ، ونتحيّفُهُ من أقطاره ، ونغزوه بدءاً وتعقيباً في عُقْرداره ، إلى أن استجمعْتَ أخيراً واستجشْتَ . وترجّعْت إلى عرفانك وأجهشت ، ولولا ماؤكَ[6] الذي تَمُدّوه ، وشارفوا[7] إلى أن يستنفدوه ، ما أوَوْا لشكواك ، ولزادوك ضغثاً على إبّالة بلواك ، وإنك لمتداوٍ منهم بسمٍ ، ومستريح إلى غمّ ، فبلغت معهم ما بلغتَ ، وأرغْتَ بهم ما أرغت ، واستقبلتنا بما أثبت عن العدو واقد أخذناه بمخنّقه ، وأضفنا

---

١ القلائد . ولا عنانا غير .

٢ القلائد والخريدة : : غيظاً .

٣ القلائد والخريدة : وحماتك .

٤ م ط س : القادر .

٥ س د : فننده (اقرأ : فنبدهه) .

٦ م س د وخ بهامش ط : مالك

٧ ط : وشاربوا .

أنشوطةَ وَهتَكِ الخزْيِ على عنقه . وأشفى على انقطاع ذَماته ورَمَقه ، ففرَّجتَ عنه كربة لم يظنَّها تنفرج ،ونهجتَ له منها وَجْهَ مَخلَص لم يحسَبْهُ يُنْتَهج ، وأخليتَ[1] وجهه لأذى المسلمين يُبْدِئُهُ وَيُعيده ، وبَسَطْتَ فيهم يده وكانت في جامعة تَقْصُرُهُ عمّا يريده ، ولو أنَّ صاحبَ رومةَ[2] المشتملَ معه بعباءة الكفر والشرك ، المنتحلَ ما يَنْتَحِلُهُ من كلمةِ الزورِ والإفْك ، يكونُ مكانك من جوارنا ، ويصاقبُ كما صاقَبْتَ قاصيةَ دارنا ، ما أتى من نَصْره فوق ما أتيتَ ، ولا تولّى من انتشاله ، والسعي في استقلاله ، إلاّ بعضَ ما تولّيت ، ولا أنحى على المسلمين من مضارّه إلا بدونِ ما أنحيتَ ، ولا بَغَاهُمْ خَبَالاً بأكثرَ مما بَغَيْتَ .

وما في تلك الجزيرة — عصمها الله — من صالحٍ ولا طالح إلا ما يَعْرِضُكَ على الله تعالى ، ويرفعُ إليه فيك عقيرتَهُ بالشكوى ، وكلُّ ما سُفِكَ من دم ، وانتُهِكَ من مَحْرَمٍ ، واستهلك من ذمم ، فإليكَ منسوب ، وعليكَ محسوب ، وفي صحيفتكَ مكتوب ، وموعدُ الجزاءِ غداً وإنّه لقريب ، فانظر ما أنجح أثرَكَ ، وأربحَ متجرك . وأصلحَ موردك ومصدرك .

وله من أخرى عنه إلى الفقيه قاضي الجماعة [٥٢ ب] بقرطبة أبي عبد الله بن حمدين[3] : وصل كتابك فوقفنا على معانيه ، وأحصينا المجملَ والمفصّلَ

.... ..

١ ط م : وأجليت .

٢ س م ط : ولولا صاحب رومة .

٣ هو محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي ، أبو عبد الله ، كان من أهل التفنن في العلوم ، حافظاً ذكياً تولى القضاء بقرطبة سنة ٤٩٠ وبقي في منصبه إلى أن توفي سنة ٥٠٨ (الصلة ٠ ٤٣٩ — ٥٤٠) وانظر القسم الأول: ٨٣٩ (الحاشية ٠ ٤) وفي ما جاء هنا تصحيح لما ورد هنالك حول أبي عبد الله قاضي الجماعة .

ممّا ذكرتهُ فيه ، والذي أومأتَ إليه من أنَّ الأمر الذي وليته ذو شغوبٍ مُشْغبَةٍ ، وأشغالٍ على مُحاولِها صَعْبةٍ ، حقّ لا امتراء فيه . ولا غطاءَ عليه من مُحَصّليه. ولذلك ما اختير له. على وجه الزمان ، أهلُ المنَنِ من أولي الديانة والصيانة ، الذين نرجو أن تكون منهم محسوباً ، وفي صَدْرِ ديوانهم مكتوباً، فاستهدِ الله يهدِك، واستعنْ بالله يعنك في صَدَرِكَ وَوِرْدِك، وتولَّ[1] القضاء الذي ولاّكَهُ الله بجِدٍّ وحزم . وَجلَدٍ وعزم[2] ، وأمضِ القضايا على ما أمضاها الله تعالى في كتابه وسنّة نبيه ، ولا تبال[3] برغْمِ راغم، ولا تُشْفق من ملامةِ لائم، وآسِ بين الناس في وجهك وعدلك[4] ومجلسك، حتى لا يطمعَ قويّ في حَيْفك ، ولا ييأسَ ضعيف من عدلك ، ولا يكنْ عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحقّ له . ولا أضعفَ من القويّ حتى تأخذَ الحقّ منه ، وانصحْ لله تعالى ولرسوله عليه السّلام ، ولنا ولجماعة المسلمين .

وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلّموا لك في كلّ حقّ تمْضيه . ولا يعترضوا عليكَ في قضاءٍ تقْضيه ، ونحْن أولاً وكلهم آخراً مذ صرت قاضياً ، سامعون منك ، غيرُ معترضين في حقٍ عليك ، والعمالُ والرعيةُ كافةً سواء في الحقّ . فان شكت إليك بعاملٍ وصحَّ عندك[5] ظلمه لها، ولا يتجه في ذلك عمل غير عزله ، فاعزله ، وإن شكا العامل من رعية خلافاً

---

١ س ط د · وتولى .

٢ وحلد وعزم · سقطت من م .

٣ ط د م س : تعالى .

٤ م وعالك .

٥ س · لديك

في الواجبِ فأشْكِه منها وقوّمها له ؛ ومن استحقّ من كلا الفريقين الضربَ والسجنَ فاضربْهُ واسجنْهُ . وان استوجبَ الغُرْمَ في ما استهلك فأغْرِمْهُ ، واسترجع الحقّ شاءَ أو أبى من لدنه . والأمرُ في استكفاء من يكفيك ، ويُغْنِي في بعض الأمور عنك ، إليك ، ولا نشيرُ بشيء عليك . وتصرُّفُكَ أحياناً في إصلاح صَنْعَتكَ وترقيحِ معاشكَ . غيْرُ مُضَيّقٍ عليكَ فيه ، فاعلمه .

وله من أخرى عن المعتمد إلى ابن صمادح : إنما أشاركك[1] — أيّدك الله — في النعمة بأسْوغها ، وأطالعك[2] في الهمّة بأبلغها . لما أعلمُهُ علمَ اليقين . وأتوسّمه توسم الصبحِ المبين[3] . أنك بكريمِ عهدك . وسليم ودِّكَ ، تأخذ من ذلك بالحظّ الأوفى ، وتضرب في الارتياح له بالقدْحِ المعلّى ، وأنفذته من حصن لييّط[4] — سهّلَ الله مرامه . وأعاد إلى يد المسلمين زمامَه — وقد جرى بين فرسان من النصارى وبين سرعانٍ من الجند — نصرهم الله — عند إطلالي عليه تناوش أطمعَ فيهم ، ودلّ بأنه قد سُقِطَ في أيديهم ، ثم صوبحوا يومَ كذا بالحرب ، وكوفحوا إلى أخرةٍ بالغرب[5] . بالطّعْنِ والضرب . وانصرفوا ولاذوا بالانجحارِ ، واحتجزوا بالجدرانِ والأسوارِ ، ولم يكنْ واحد منهم يثور إلا إلى حمام . ولا يبدي جارحةً إلاّ إلى سَهْم

[1] م ط س : إشارتك . خ بهامش ط : أشاركك .
[2] د : وأطلعك .
[3] خ بهامش ط : المستبين .
[4] م ط س : سط ؛ د : لسيط (وهذا الوجه الأخير مكثر وروده) .
[5] ط : بالضرب .

رام ، وفي خلال ذلك ما أمرتُ بِشربهم ْ فَتَغُوّرَتْ[1] منابعُهُ ، وَقُطعَتْ مشارِعُهُ ، وحصلوا منّا ومن العَطَش ِ تحت محاربَيْن : ظاهرٍ وباطن ، وعرضةً لمجاولين : مستترٍ وعالنٍ .

وغيرُ ذاهبٍ على أحد ما تقتضيه هذه الحالُ المبهجةُ بما يخالفها على علو كعب الإسلام ، وينصب على الشركِ وأهله من سوء الانتقام ، بعد البلوغ من الشكر لله تعالى إلى الغاية القصوى ، من اختصاصِ أمير المسلمين وناصر الدين ، أبي يعقوب حليفنا[2] الأعز — أيّده الله — بقسمٍ من الشكْرِ وافرٍ ، وحظٍّ من الثناء والنثر[3] طاهر ، فانه الذي نهجَ بنفسه الكريمة — سنّاها الله — هذه السبيلَ ، وتجشّمَ فيها المجاشمَ حتى أذلّ من المشركين العزيزَ وأعزّ من المسلمين الذليل ، ثم لم يشغله — دام تأييده — عن صلةِ أيدينا بعد ذلك أمر ، ولا ثناهُ عن النظر لنا عُذْر .

وفي فصل منها : وكان نموذي إليها من لورقة[4] بعد أن تملّكتُ قصابَها ، وتولّجتُ على ما اقترحتُ أبوابَها ، وكان تخلّي سعدِ الدولة أبي الأصبغ ابن لبون[5] عنها على أفضل حال وأجمعها ، بما [٥٣ أ] شئت من إلطاف

---

١ م د : معورت .

٢ ط د ، حليفنا .

٣ كذا ورد في م ط د

٤ لورقة (Lorca) من أكبر مدن ولاية مرسية (الروض رقم : ١٦٢) .

٥ ط : ليون ، وأبو الأصبغ سعد الدولة هذا ذكره ابن سعيد في المغرب (٢ ، ٢٧٥) وذكر أنه ولي لورقة بعد أخيه أبي عيسى ابن لبون (الذي ترجم له ابن الأبار في الحلة ٢ ١٦٧) ثم صار ت للمعتمد كما يذكر ابن القصيرة في هذه الرسالة .

وإجمال : ياسرَ وتساهلَ ، وتقاصرَ حيث كان له أن يتطاولَ ، رأياً أدرك منه على صِغَرِهِ ، وقِصَرِ ما قَطَعَهُ من مسافةِ عُمُرِهِ ، ما يعجزُ عنه الكهلُ المجرّبُ ، ويقصرُ دونه الحوَّلُ القُلَّبُ . وتأملتُ ذلك منه — أبقاه الله — حقّ التأمل ، ونظرتُ إليه بعين الملتفتِ المحصّلِ ، فوفّيته الجزاءَ ، وسرتُ معه حسبما سار معي إلى ما شاء ، فحصل لي من الناحيةِ ما لا يضاهي معقلاً وبسيطاً ، وعاد الشملُ محوطاً والأمر[1] مبسوطاً ، والعاجز الكاسل حازماً نشيطاً ، ورجع الضيقُ بها سعةً ، والهَرْجُ[2] بحمدِ الله دعةً .

ومن جواب ابن صمادح ، من إنشاء ابن الوكيل[3] كاتبه : إلى مخاطبتك — أيدّك الله — تسكنُ النفسُ ، وبمطالعتكَ يتمكّنُ الأنْسُ . فما تزال — واللهَ يُعْلي كَعْبَكَ ، ويجعلُ الأيامَ والليالي أنصارَكَ وحزبك — تُطْلِعُ من الاهتبالِ ، في وفق[4] الإجمال ، ما يبدو ويتبيّنُ مع البُكرِ والآصال — لا أعدمك الله مَعْلُوَةً تبديها ، ومنقبةً تنافس هممَ الكرامِ فيها — .

وورد كتابُكَ مفتتحاً بما كان من صنعه تعالى الكفيل، وبلائه الجميل، ومنّه المتتابعِ الموصول، في احتلالك بلبيط[5] — يسرّه الله، وأحلّ الهلاكَ بمن احتواه — وما كان من ذلك التناوُشِ الذي أبدى مخايلَ الاعتلاء ، وأذن بالملكِ والاستيلاء . ولا شكّ أنّ مَنْ سعى لله وحده، ولم يرد الظفرَ والظهور

---

١ د : والأمل .

٢ ط : والحرج (وهي قراءة مقبولة) .

٣ لعل المعني هنا هو أبوبكر عيسى بن الوكيل اليابري الذي عاش إلى أيام دولة المرابطين واستعمل على الكتابة بغرناطة (اعتاب الكتاب : ٢٢٤) .

٤ د : أفق .

٥ د : بلبيط ؛ ط س م : بليط .

إلا بما عنده ، أنَّ حزْبَهُ منصور ، وآمالَهُ موصول بها التسهيلُ والتيسير ، والحمد لله تعالى على ما منح مُتَعَيِّن ، وموضعُ الضراعة إليه في الازدياد ظاهر بيِّن ، على ما أولى من نعم ، أظهرت الإسلامَ بعد خُمول ، والشكرُ له على قسَمٍ ، أعزَّتِ الدينَ وقد كان جِدَّ ذليل .

وتوجّه على ما ذكرتَ شكرُ أميرِ المسلمين وناصرِ الدين أبي يعقوبَ ، حليفنا الأعزّ — أيّده الله — على ما أجرى إليه بدءاً من الحفوف [1] بنفسه النفيسة — نسأها [2] الله — وما اعتمده عوداً من الاهتبال الذي توخّاه ، فهو الذي نهج هذه السبيلَ ، وبرَّدَ اللوعةَ والغليلَ ، وأعاد الحزبَ اللاعينَ بعد عزّته الحقيرَ الذليلَ .

ورأيتُ — أراك الله مُناكَ — أنَّ حركتَكَ الميمونة كانت إلى هناك من لورقة بعد أن تملكتَ قصابها ، وتولّجْتَ على اختيارك أبوابَها ، على الصورة التي وصفتها ، من متابعة [3] أهلها ، وانطياع [4] من فيها ، نعمة يعلمُ الله تعالى أنَّ نصيبي منها النصيبُ الأوْفَرُ ، وذَنوبي منها الذَّنوبُ الأكبرُ ، وكلُّ نعمةٍ أناختْ بجنابك ، وحطّتْ رَحْلَها ببابك ، فاني فيها الخليطُ المساهمُ ، والمشاركُ المقاسم ، على ما يقتضيه الإخاءُ ، ويستدعيه الانتظامُ والصفاء .

---

[1] س ط م د الحتوف .

[2] ط م . ساها .

[3] كذا في النسخ . ولعلها مشايعة .

[4] ط م د س وانطباع .

وله من أخرى عنه : قلّ ما ينفع صلاح الظاهر إذا فسدت الدّخلةُ[1] ، ولا يغني اندمالُ الخارجِ ما كانتِ العلّةُ ، وكتابي هذا يومَ كذا وفي ليلةِ طلعَ عليّ الخبرُ بما تستغربُهُ من غَدْرِ أهلِ فلانةَ لي ، وعقدُ السّلمِ بيننا لم يجفَّ مِدادُهُ ، وعهدُ التواثق لم يكدْ ينفصلُ أشهادُهُ ، فانظرْ فعلهم ما أقبَحَهُ ،وتأمّلْهُ فما أفْضَحَهُ ، واعلمْ أنَّ غائلتهم لا تُطْفأُ أبداً نائرتُها ، ولا يؤْمَنُ على حالٍ ثائرتُها .

وله عنه من أخرى ، إثرَ دخولِ ابنِ عُكاشَةَ قرطبة[2] ، وقتلِه لابنه عباد ، وقد وجدتُ هذه الرقعةَ في بعضِ التعاليقِ منسوبةً لابن الباجي : كتبتُ على أثَرِ النازلِ الشّنيع ، والرُّزْءِ الفظيع ، الذي صَدَعَ كبدي ، وفتَّ في عَضُدي ، وأثكلني من[3] كان القُرَّةَ لعيني ، ما جرى على الفقيدِ الشّهيدِ عبّادٍ ابني مُجِلِّك – كان – رحم الله مَصْرَعَهُ ، وبرَّدَ مَضْجَعَهُ ، وَقَتَلَ قاتليه ، وَوَفَّرَ لي أجرَ المصابِ فيه .

وشرحُ هذه الفاجعةِ ، والقاصمةِ الهاجمة : تسببتْ من مثابرةِ العدوِّ المبينِ المفتون ، جاري الذميم الجوارِ[4] القبيح الآثارِ ، ومجاهرةِ الفاسقِ المعروفِ بابن عكاشة ، دليلهِ في سبيلِ التسلُّطِ والعدوان ، وَسَهْمِهِ إلى أغراضِ

١ ط م د س : الداخلة .
٢ قص الفتح في القلائد. ١٠ – ١٢ كيف استولى المعتمد على قرطبة بمداخلة أهلها وولاها ابنه الملقب بالظافر « ولم يزل فيها آمراً وناهياً ، غافلا عن المكر ساهياً . . .إلى أن ثار فيها ابن عكاشة ليلا وجر إليها حرباً وويلا » وقتل الظافر ؛ وانظر أيضاً النفح ١ : ٦٢٣ – ٦٢٧ واعمال الاعلام . ١٥١ ، ١٥٨ واسم ابن عكاشة « حكم » وانظر ما يلي : ٢٦٨ .
٣ م ط س : تم
٤ يشير بهذا إلى ابن ذي النون ، كما سيذكر ابن بسام في ما يلي .

التمرّدِ والطغيان ، على السّعي الخبيث الذي لا يُصِرُّ على مثله إلا منحرفٌ عن الملّةِ ، منسلخٌ عن[٥٣ أ] الخيرِ بالجملة . طلَبَ الغِرةَ في قرطبة حتى أصابها ، وارتقب الفرصةَ حتى ولجَ بابها . ليلاً في زُمْرةٍ من أخابيثِ أصحابِهِ ، بعد أن هُيِّئَ[1] له فَتْحُهُ ، ودخل المدينةَ . وصادفَ السّربَ آمناً غريراً . والعددَ قليلاً نثيراً ، ويمّمَ موضعَ المطهّرِ بالشهادة ، فنَذِرَ بهم وخرج مُطالعاً للأمر ، فلم يبعدْ أن غشيَتْهُ[2] المَرَدَةُ فثبتَ لها مدافعاً عن نفسه حتى أفيظت[3] — رحم الله موقعه فريداً مُسْلَماً ، وأقرّهُ في جواره العزيز سعيداً مكرّماً .

ثم عاث المذكورُ في البلد. واستثار[4] أشباهَهُ من السّفلَةِ الأراذل . في استباحةِ المنازل . فأجابوه وانضموا إليه ، وصار جمعه منهم وبتوتُ[5] أمْرِهِ بهم[6] ، وأما سائر الأعلام والأسواط فبرءاءُ من هذه القصّة . ناؤون عن المشاركة في هذه الدنيّةِ ، بَغْتَتَهُمْ[7] من الحالِ ما لم يعلموا ، ففوَّضُوا وسلّموا ؛ وبادرتُ إلى عَرْضِ ما وقع على فَصْلِ تأمّلك . لترى جِدَّ هذا العدوِّ المطالبِ . المشاقّ المناصب . وإكبابَهُ[8] على التسلّطِ والتمرّدِ ؛ إلى أن انتهكَ الحرمةَ

---

١ قد تقرأ في م : « سني » .

٢ م : نشيته .

٣ ط : أفيضت .

٤ ط د س . واستشار .

٥ م : ومتون ، س : وتيور .

٦ زاد في د . معهم .

٧ د . إلا أنهم بغتهم .

٨ قد تقرأ في م . والبابه . د . والبائه ؛ وفي ط : واكبابه والبابه .

ووتر في الولد[1] ، غيرَ مُبالٍ ببعيد ولا قريب ، ولا مُمْسِكٍ مخافةَ إنكارٍ ولا تثريب ، والربُّ لِبَغْيِهِ بالمرصاد . والقاطعُ بأمله في الانبساطِ والازدياد .

ذكر الخبر عما دار به نجم قرطبة يومئذ.
من تغلب ابن ذي النون عليها .
وعودة المعتمد بعد إليها[2]

قال ابن بسّام: قد قدّمتُ من عُجْبِ المعتمدِ بذاته. وتوفُّرِهِ — كان — على لذّاته. وتقديره أنه يضبطُ أزمّةَ البلادِ ؛ ويملك رقابَ العباد. وخيلُهُ في الأجلال[3] . وكأسُهُ في يد الساقي المختال . على مكانِهِ من العلم . ووفورِ حظِّهِ من الحِلْمِ . ما فيه كفايةٌ لمن استغنى . وآيةٌ لمن تدبّرَ واجتلى . وعندما أخرجَ قرطبةَ من أيدي بني جهور . في خَبَرٍ قد شُرِحَ في القسم الأول وَفُسِّرَ[4]، ولاّها ابنَهُ عبّاداً، وكان مِحَشَّ حَرْبٍ، ونشأةَ طَعْنٍ وضرب، فتيّ لا يبالي مَنْ لقي ، ولا إلى أيّ شيءٍ دُعِيَ . هاجم ابنَ ذي النون في بعضِ نَهَدَاتِهِ إلى قرطبة ، وجيشُهُ قد ملأ الفضاءَ . وفات الإحصاءَ ، ففلّ أجناده. واستباح طارِفَهُ وتلاده ، ونجا ابن ذي النون مَنْجَى أبي نصر ، بعد ما أعطى على القَسْرِ . وترجّحَ بين القتلِ والأسْرِ ، لا يحفَلُ بما أخّرَ ، ولا يُلْوِي على مَنْ تَعَذَّر .

---

١ د : البلد .

٢ نقل دوزي هذا الفصل في ما جمعه من أخبار بني عباد ١ ٣٢٢ وانظر اعمال الاعلام : ١٤٩ . ١٥٢ .

٣ م ط ودوزي . الآجال .

٤ انظر القسم الأول . ٦١٠ — ٦١٤ .

غير أنّ المعتمد لما تهيّأتْ له على ابنِ ذي النون الجَسْرَةُ ، وأمْكَنَتْهُ منه تلكَ الغرّةُ ، أدار أمرَ قرطبةَ ، وأميرها ابنه ، على أحَدِ عبيده المتجندين ، محمدِ بنِ مَرْتين[1] . وكان شهاباً لا يُصْطَلَى بناره ، وأسَداً لا يُسْتَقَرُّ على زاره ، إلا أنه كان من الإدلالِ ببأسهِ ، والإهمال لنفسه ، والإقبالِ على كيسه وكأسِهِ ، والغفلةِ عن عادةِ الله في جِنْسِهِ ، آيةٌ من آيات الله الذي وَكَلَهُ إلى سُوءِ القَدَرِ ، وقتله بيد أضْعَفِ البشر ، أحد الرجّالةِ المتلصصين ، والدائرةِ المتمردين ، المتصرفين في صغارِ المهن ، النابتين في مدارجِ سيولِ الفِتَنِ ، رجلٍ كان يعرف بابن عُكاشَةَ ، لم تكن له سابقةٌ قديمةٌ ، ولا نباهةٌ معلومة ، فَرَاشَةٌ طارتْ حولَ نار الفتنةِ المبيرةِ ، المهتكةِ لمحارم هذه الجزيرة ، فترقّى من سُكْنَى الشّعابِ ، والسكونِ إلى الذئاب ، وانتهاز الفرصةِ إنْ أمكنته[2] في الطارقِ المنتاب ، إلى تَسَنُّمِ المعاقل ، وتدبير الأمور الجلائل ، وأذكاهُ ابنُ ذي النون عيناً على قرطبة ، في أحد الحصون المصاقبة لها ، وأبْعَدُ آماله كانت إخافةَ سُبُلها ، وتحيّفَ عملها ؛ وكان إحدى[3] الأعاجيب ذكاءَ لُبٍ ، وصرامةَ قلبٍ ، وتقدّماً إلى ضرب ، لا يحلُّ إلاّ ريثما يرحل ، ولا يقولُ إلاّ بعد ما يفعل . وابنُ مرتين في خلالِ ذلك خالٍ بشيطانه ، ساعٍ في شانه ، بين بطالته وطغيانه ، كلّما حُدِّثَ عن ابن عكاشةَ بغرّةٍ اهتبلها ، وأشير عليه في أمره بنصيحةٍ كي

[1] أبو بكر محمد بن مرتين ، ذكره الحجاري وقال إنه كان ينادم ابن افتتاح (المغرب ١ : ٢٤٣) وقد ذكر في النفح ٣ : ٤٠٦ ولقب بالقائد ، وانظر ٣ ٤٧٤ ، وذكره ابن الخطيب في أعمال الأعلام ١٥١ ، ١٥٨ وأشار إلى أنه وزر للظافر أثناء توليه قرطبة ، وهو ما يتحدث عنه ابن بسام في هذا الفصل .

[2] دوزي . أمكنت .

[3] م : أحد .

يقبلها [٥٤ أ] أعرضَ عن الصادقِ الخبير ، ودَفعَ في صدرِ الناصح المشير .

حدثني من أثقُ بخبره ، ممن كان بعضُ أبوابِ قرطبةَ يومئذٍ إلى نظره ، أنَّ ابنَ عكاشةَ كان يَسْري تحتَ الليل إلى أحد حرَّاسها فيخرُجُ إليه بعض مَرَدَتها ، فيطعمهم ويسقيهم ، ويدبِّرُ كيف يفتحُ البلدَ على أيديهم ، ويولّيهم الأعمال ويُقطِعُهم النفوسَ والأموالَ ، فأخبرَ بذلك عبادَ بن المعتمد . فقال له : القَ ذا الوزارتين الأعلى ابن مرتين ، وكان لا يستبدُّ[1] عليه ، ولا يقطع أمراً إلا بين يديه ، فأدَّى ما كان عنده من ذلك إليه . فأظهر السرورَ ، ووعد الجدَّ والتشمير ، وقال له : تقدَّمْ إلى فلان وفلان ، جماعةٍ كانت بالحضرة من الأعيان ، فليكونوا عندك في العدَدِ الوافر ، والسلاح الظاهر . فأمرهم عنه فأتمَروا ، وتقدَّمَ إليهم بالحضور فحضروا :

في ليلةٍ من جمادى[2] ذاتِ أنديةٍ لا يُبْصِرُ الكلبُ في ظلمائها الطنُبا[3]

وأقاموا منتظرين لأمره حتى بدا النور ، وتكلّم العصفور ، وهو مشغولٌ بجرِّ ذيوله ، وعصيانِ عذوليه ، فيئسوا من نصْرِه ، وجعلوا بعدُ يُلْحدون في أمره . وتمَّ لابن عكاشةَ تدبيرُهُ ، واستوسق له عيره ونَفيره . فانتهك حُرْمَةَ قرطبةَ ، سنة سبع وستين ، في شِرْذمةٍ قليلة ، وشباةٍ[4] كليلةٍ ، مُعْلنين بشعارهم ، متلبثينَ بين تغريرهم واغترارهم ، لم تكن لهم هِمَّةٌ

---

١ بعد هذه اللفظة بياض عند دوزي ، لا وجود له في النسخ المعتمدة .

٢ س جمادى سقطت من ط م س .

٣ البيت لمرة بن محكان التميمي ، شاعر مقل اسلامي ، انظر الحماسية رقم : ٦٧٥ .

٤ س م ط د ودوزي : وشناة .

إلا دار عباد ، فثار إليهم عندما أحسَّ بهم ولا أهبةَ إلاَّ إقدامه . ولا صاحب إلا حسامُهُ ، فجادلهم بالسيف صَلْتاً ، حتى أذاقوه الموتَ بحتاً . ثم نهدوا إلى دار ابنِ مرتين وهو في منزل راحته ، غافلاً عمّا نزل بساحته . ذُكِرَ أنه كان ساعتئذٍ يُلْعَبُ بين يديه بالكُرَّج . فعوّلَ على الفرار . واستتر مُدَيْدَةً في بعضِ الأقطار ، حتى انقضتْ أيامه. وَعَثَرَ عليه حِمامُهُ ، أخْرِجَ من قرطبةَ كأنه يُحْمَلُ إلى ابنِ ذي النون . وقد تَقَدَّم إلى حَمَلَتِهِ ، فطَوَوْا خبرَهُ . وَمَحَوْا أثره .

وبات ابنُ عكاشةَ ليلته يطرقُ دورَ الأعيادِ من أهل قرطبة. يتوددُ إليهم ، ويعرض نَفْسَهُ عليهم ، فمن أجابَهُ قبله . وَمَنْ أبى عليه لم يَعْرِض له ، وأصبح قد انضافَ إليه من بني المحن . وطَغَامِ الفتن . مَنْ مَنَعَ منه ، وحسمَ الأطماعَ عنه . ودعا الكافّةَ إلى المسجدِ الجامع فأتوه خِفافاً وثقالاً ، وبايعوه بِطاءً وَعِجالاً ، وانثالت إليه طوائفُ الأمدادِ ، وقوّادُ الأجناد ، فانتظم له الأمرُ ، واستوسق له المِصْرُ . ولحقَ ابنُ ذي النونِ بعد ذلك وهو يرى أنه قد وَطِيء صَلْعَةَ النسر . وأخذ بِمُخَنَّقِ الدهرِ ، أملاً طالما عللته به المطامعُ . وهزته [1] إليه المضاجع ، ولم يزل في يوم دخوله قرطبة يُعْمِلِ الحيلةَ في إقصاءِ ابنِ عكاشةَ من دولته. وإخراجه عن جملته.

بلغني أنه دَخَلَ على ابن ذي النون يوماً . وقد رفل في الشارة . وتقلّدَ مُثَنّى الوزارة ، فرحّب به وأدناه . وهشَّ إليه وناجاه ، فلما خرج تنفّسَ الصُّعَداءَ ، وأتبعه نظرةً شوهاءَ ، وَهَيْنَمَ بكلمةٍ عوراء ،

[1] م ط : وهدته ؛ خ بهامش ط . وهزته .

فكأنّ بعضَ الحاضرين أنكر عليه وجعل يُطْرِي ابنَ عكاشة ، ويذكرُ حُسْنَ بلائه ، وينبّهُ على مكانِه من الدولة وغَنَائِهِ ، فلما أكثرَ قال له ابنُ ذي النون : دَعْ عنك ، مَنِ اجترأ على الملوكِ لم يصلح للملوك .

ثم لم يلبثِ ابنُ ذي النون إلا أشهراً لم تُشْعِبْ كفَّ العاقد ، ولا أطالتْ غمَّ الحاسد ، حتى أُتِيَ من مأمَنِهِ ، أغْبَطَ ما كان بسيِّئِهِ وَحَسَنه[1] ، وسقاه السمَّ الوحيَّ – زعموا – بعضُ ثقاتِهِ ، فاستقلَّ بجسده تابوتُهُ ، وطار به إلى طليطلةَ جِنُّهُ وعفاريتُهُ ، وخلا وَجْهُ قرطبةَ بعد ذلك للمعتمد وعاد إليه مُلْكها . وانتظم في يديه سِلْكُها ، وأخذ بثار ابنه عبّادٍ بقتله لابن عكاشة فلم يكن كما قال دُرَيْدُ بن الصِّمَّةِ[2] :

قتلنا بعبدِ الله خير لداتِهِ ذؤابَ بنَ أسماءَ بنِ زيدِ بنِ قاربِ

وممّا كتب عن المعتمد بعود قرطبةَ إليه ، وقتل ابن عكاشة على يديه رقعةٌ منها : وأنفذته عندما عادتِ الحضرةُ إلى يدي ، وانتظمتْ ببلدي ، على صورةٍ من التيسير ضاعفتْ [٥٤ ب] حُسْنَ مَوَاقع العارفةِ بها . وبشرت بلواحقِ النصر المترادفِ بعقبها ، وذلك أنَّ أهلَها الصادقةَ في محبّتنا أهواؤهُمْ ، المتّفقةَ على طاعتنا آراؤهُمْ ، لم يزالوا على مثلِ الجمرِ تقلُّباً ممّا جرى قبل على غيرِ اختيارِهِمْ . وتوجُّعاً لما كان انقضى علينا في جوارهم ، نابين عمّن وَليَ أمرهم بَعْدَنا ، مُسْتَقْصرين لشانِهِ عندنا ، إلا النفَر اليسير ، والتافه الحقير . من سفهائهم الذين سبّبوا تلك الوهلة ، وظاهروا على تلك الغفلة ،

---

١ م ط د س . وحسنته

٢ البيت من قصيدة في الأصمعيات (رقم ٢٩) : ١١٧ – ١١٩ ، وانظر حماسة ابن الشجري : ١٣ والسمط . ٦٩٠ والخزانة ٣ ١٦٦ .

ولم يكنْ لهم أوّلاً علمٌ بما سدّوْهُ وألحموه ، ولا رَضُوا آخراً بما جنَتَوْهُ وارتكبوه ، فتحركتُ من وقتي ، ولم أكَدْ أطِلُ على أفقهم إلاّ والإشارةُ علينا ، بأثوابهم إلينا : أنْ أقْدِمُوا وَصَمّموا ، فاقتحمتُ من النهر مخاضةً توازي الربضَ الشرقيَّ منها ، وثار أهلُها معي ، داعينَ بشعاري ، معلنين بانتصاري ، وكلمةِ ثاري ، يكسرون بين يَدَيَّ كلَّ غَلَقٍ يعترضني ، ويفتحون [1] كلَّ مُرْتَجٍ ينتصبُ دوني . وأحَسَّ ابنُ عكاشةَ ومن معه من الشّيعةِ المفلولةِ بمكاني ففرّوا بأرواحهم ، وألْقَوْا ما كانَ معهم من سلاحهم . وقد كنتُ أحطْتُ بنواحي الحضرةِ خيلاً ترصدُهُمْ ، وتقطعُ من النجاةِ سبَبَهم ، فوقعوا فيها وأتِيَ على آخرهم ، وسيقَ إليَّ رأسُ ابنِ عكاشة ؛ وكان الحبيبَ إليَّ . أنْ يمثلَ بين يديّ . فأبْسُطَ له من العذابِ ما كان أشْفَى لنفسي . وأثلجَ لصدري .

وفي هذا الفتح أنشده حسّان بن المصيصي قصيدته الّتي يقول فيها ، ووصف إشارةَ الناسِ يومئذٍ من سور المدينة :

وليسوا بغرقَى قد أشاروا لساحلٍ ولكنّهمْ غرقى أشاروا إلى بحرٍ [2]

وله عنه من أخرى إثْرَ فَتْحِ مُرْسِيَةَ على يدي ابنِ عمار ، وإخراجِ بني طاهرٍ منها : لم يغبْ عنك من مجرى الحالِ بمرسية وَجْهٌ أجلوه ، ولا انطوى منْ فحواه أمرٌ أنْشُرُهُ وأبْديه ، وها أنا أعرِضُ عليك من باطنها ما ربّما خفي ، وأنهي إليك من نجواه ما لعلّه لم يَنْمَ على وَجْهِهِ ولا أُنْهِي [3] ، ..

١ م : ويقتحمون .
٢ د : البحر .
٣ ط : نهي .

وذلك أنّ الافرنجَ أيامَ تلوُّمِهِم على صاحبها، وإحداقِهِم بجانبها، أشخصوا إليّ من أعيانهم من قَرَّبَ عليّ وَجْهَ مَرامِيها، فاستجبتُ لندائهم، ولم يَكَدْ يختلجُ ببالي شكٌّ في صِدقِ أنبائهم، وإذا الأمْرُ بخلافِ ما ذكروه، وعلى غير ما سَهّلوه، ووَقَعَ من المطاولةِ ما وقع، وآلتِ الحالُ معهم إلى ما قد فشا وَسُمِعَ، فأعدتُ إليها الخيلَ مع فلانٍ لإطالةِ حَصرِها، والإناخة[1] بِعُقْرِها، وصاحبُها مَعَ ذلك عمٍ عن رُشْدِهِ، يقدّمُ رجلاً ويؤخّرُ أخرى في إعطاءِ صَفْقَةِ يده، ليقضي الله تعالى قَدَرَهُ، ويُبْلِغَ أمْرَه، فلما رأى أهلُها الممتَحنون بسوءِ نظره، المصابون من خَطَلِ تدبّره، أنّ غَمّاءهم[2] لا تُقْرَحُ[3]، وظلماءهم لا تنجلي ولا تليحُ[4]، أبْدَوْا إليه، ما كانوا ينطوون له عليه، فتألّبوا وثاروا وطيّروا بالخبرِ من كان فيها من الأولياءِ إلى فلان، وكان على مقربةٍ منها، غيرَ مَتراخٍ عنها، فانصبّ إليها كالشّؤبوب الماطر، وانقضّ عليها كالعُقابِ الكاسِرِ، ووافاها وقد بولغ في حصاره، وانبسطتْ أيدي النّهبِ في دياره، فكشفهم عن مكانه، ونفّسَ عنه[5] فانتشى[6] ريحَ أمانه. ثم نقله وابنَ أخيه إلى أدنى معقلٍ إليهما، وآمنهِ عليهما،

١ ط م د س : والاباحة .

٢ م : غماتهم .

٣ م س . تنقدح ؛ ط : تتفلح ، وتقرح : تصبح قرحاء أي ذات غرة، والأقرح : الصبح لأنه بياض في سواد .

٤ الياء غير معجمة في النسخ ؛ وهي من ألاح بمعنى أضاء وبدا وتلألأ ؛ ويمكن أن تكون قراءة هذه العبارة على النحو الآتي « أن غماءهم لا تتفرج، وظلماءهم لا تنجلي ولا تتبلج » ، ولكن آثرت ما هو أقرب إلى الأصل .

٥ د : عنهم

٦ هذه القراءة من هامش ط ، وفي النسخ : فانتشى

وأخذ في ضبطِ الحصون ، وما يُغني به الحزم من وجوهِ التحصين ، وأظهر أهلُ البلدِ [من] الاغتباطِ بمآلهم ، والاستبشارِ بمفاتحةِ حالهم، ما يُظْهِرُ مَنْ خَرَجَ من ضيقٍ إلى سعة . وانتقلَ من هَرْجٍ[1] إلى دعةٍ .

ومن أخرى له عنه : ومنْ أحدثِ نعم الله الممنوحةِ عهداً ، وأبعدِها في التمامِ والوفور حَدّاً ، ما أتاحه الله في المُغَالِطِ المُعْجَبِ ، القويِّ المجيء والمَذْهَبِ، فلان — ضاعف الله إذلالَهُ وإخزاءه . ووفّاه على ذميم السّعي جزاءَه — فانَّ حالَهُ جرَتْ على ما أصِفُهُ : سلف من ضلالته في موالاةِ التعريض[2] للحضرة وسائرِ أعمالها ، ما أثاره الحسدُ المُدْوي لصدره ؛ والقلقُ الغالبُ على صبره ، واتّفقَ له من [٥٥ أ] إمهال الله تعالى إياه ، وتنكيب الحوادثِ عن دراه ، مدةً عنه ، اتفاقٌ أجرَّهَ رَسَنَهُ ، وأسلَكَهُ في الغواية سَنَنَهُ ، حتى ظنَّ أنَّ الحوادثَ لا تريبه ، والنوائبَ لا تنوبُهُ ، وحَسِبَ أن الأيدي لا تُمَدُّ إلى مطالبته ، والآمالَ لا تطمحُ إلى معارضته . وقديماً خان هذا المعتقدُ أهلَهُ ؛ وأبان لمن سكن إليه جَهْلَهُ .

وفي فصل منها : ولم يبعد أنْ خرجَ في شهرِ رمضان على عادتِهِ من الاستخفاف بعظيم حُرْمَتِهِ . وتَرْكِ المراقبةِ لأهلِ الاسلام وذمّتِهِ ، بعد أن تأهّبَ ، واستنجد واستمدَّ ، والعُجْبُ قد أطغاه وأبطره ، والشَّرَهُ قد غطّى سَمْعَهُ وبَصَرَه ، والمطامعُ قد تشعّبَتْ عليه ، وبَسَطَتْ في

[1] م حرج (واللفظتان تتبادلان في النسخ) .
[2] د التعرض

انتهازِ الفرصة يديه ، فأخرجتُ ابني الظافرَ[1] مستعيناً بالله معوّلاً[2] عليه ، متبرّئاً من الحولِ والقوة إليه . فلما دنا من المحلّة الذميمة واصطفّوا إزاءَها ، اقتحم سرعانُ رجالِنا نهراً كان بينهم ، مبادرين غيرَ هيّابين ، ونشأتْ بين الفريقين حربٌ أجلَتْ عن أعدادِ صرْعَى من أصحاب المخذول ، ثم تلا ذلك عيونُ كافة العسكر وصدقت الحملةُ على الخائنين . فلم يلبثوا أن وَلَّوْا مُدْبِرين. وألْقَوْا بأيديهم منهزمين. والأسنّةُ تحفزهم، والجلادُ يُزْعجهم ، فانحجزوا بالحصنِ وأسلموا محلّتهم ، فَحِيزَ جميعها . وغنم من كُراعهم وسلاحهم وسائرِ أسلابهم جُمَلٌ تفوتُ الحصرَ ، وتُعْجِزُ الوصفَ ، وبقي المخاذيلُ إلى آخرِ النهار ، ثم خرجوا مع المغيب ، وَشُعِرَ بفعلهم ، فاتبعتهم الخيلُ إلى النهر . فتهافتوا فيه تهافُتَ الفَراشِ في النار ، وفرُّوا على عاجلِ البَوار ، وكان الشاذّ منهم من سَلِمَ . والجمُّ الغفير مَنْ غَرِقَ وتلف ، والله حسيبُ مَنْ أوْرَطَهُمْ وأغراهم ، والمنتقمُ ممن قادهم إلى مناياهم . وأمّا المخذولُ المعهودُ خَوَرُهُ ، والشديدُ تَهَوُّرُهُ ، فإنّه سقط عن مركبه في تلك الصدمة سقوطاً أوْهَنَهُ وكَلَمَهُ ، ولولا من كرَّ عليه حتى أقيلَ واحتُملَ لحصلَ في رِبقَةِ الأسْرِ . ولَغَلِقَ رَهْنُهُ إلى آخرِ الدهر .

وله من أخرى : وقد كانت نشأتْ بيننا وبين فلان ، النّطِيفِ الودّ ، السيّءِ العهدِ — جزاه الله جزاءَ من خاس بذمامه، ونثرَ عِقْدَ الوَفاءِ بعد انتظامه — مُداخَلَةٌ توسّطَها رؤساء ، وتقلّدها ورراء . طالت زمناً لا ينتهجُ فيها

[1] م المظفر .
[2] م : ومعولا .

إلى السلم سبيل ، ولا يبدو من[1] الوفاقِ دليل ، ولا يلوح للنجاح وَجْهٌ مقبول ، بما كان السفراءُ يَلْقَوْنَهُ من تَشَطُّطٍ في غير كُنْهِهِ ، ومقابلتي بما كان يأتي من شبهه ، إلى أن تطأطأ من سموّه ، وتقاصَرَ من علوّه ، ونضا عنه ثوبَ الرياء ، وأبدى وجهَ حاجتِهِ إلى الانقياد والاستبقاء[2] ، فأنبتُ إنابةَ من يؤثر الهدنة على الفتنة ، وتأتيت إرادة من يريد إدالة المودة من الإحنَة[3] ، وأنا أعتقدُ أنّه مصحّح فيما أراه ، صادقٌ في الذي أعطاه ، أقضي على الظاهر ، ولا أتجاوزُ تصفُّحَ الحاضر[4] ، وإذا هو مصرٌّ غدرةً شوهاء[5] ، لو تَهَيّأ مُرادُهُ منها لأغَصَّتْ بالريق ، وللفّتِ السوق بالسوق ، ولكنَّ الله بما عوَّدَنا من فضله نبّه على الغامض ، وأبان عن برق الخُلّبِ الوامض ، فرأيت مكنونَ الضمير ، بعين التفكير ، ونشرتُ مطويَّ الجوانح بيد التدبير ، فإذا كلُّ ما عُقِدَ مُنْحَلٌ ، وما أبرِمَ مُضمَحِلٌ ، فرددتُ عندما خَلَجَ عَقْدَهُ إليه ، وقلبتُ غيرَ مُليمٍ ظَهْرَ المِجَنِّ إليه .

ومن أخرى عنه : كنت قد هادنْت أهل غرناطة ــ لا زالوا في أذيالِ مكرهم عاثرين ، وفي أيدي غوائلهم مستأسرين ــ مهادنةً دعوني إليها فأجبت ، واستدنَوني نحوها فدنوت ، فلما أشرفتْ على التمام ، وآذنَتْ بالانصرام ، راسلوني في تماديها فساعدت . وأرادوني على اتّصالها فانفعلت وأنفَذْت . وانعقد بيننا عقد بُولع في تأكيده . وتُنُوهيَ في إحكام مواثيقِهِ وعقوده.

---

١ م ط س تبدو عن .
٢ د . والاستيهاء
٣ م ط س . الأحنة .
٤ د . الخاطر .
٥ م : شهراء .

ولم تكد صحيفتُه تُطْوى ، ولا شهيده يتولّى ، حتى غدروني في الحصنِ الفلاني باستنامةِ مَنْ كان فيه مِنْ قِبَلي إلى السلم ، وإضاعته استشعار الحزم ، فلم أعْجَلْ بالتنكّر ، ولا سارعت بالتنمّر ، ورأيت الاستيناءَ ، وآثرت الاستبقاء ، رجاءَ أن يفكروا في العواقب ، فيفيئوا [1] إلى الواجب ، ويعطفوا [٥٥ ب] إلى الرأي الصائب ، وأعدت إليهم من أمكنني إعادته من السُّفراء ، فلقوا منهم بدهة [2] وإباءً ، والتواءً وانزواء ، ولما رأيت ذاهبَ رشادهم لا يرجع ، ودواءَ استصلاحهم لا ينجع ، وثأي نَصَفَتَهم [3] لا يُرْأب ، وغائبَ فَيْأتهم لا يُرْتَقَبْ ، عملت على الإيثار ، واستجمعت لذي الانتصار ، وسقيتُهُمْ بمثلِ كاسهم ، ورميتُهُمْ عن نظائرِ قياسهم ، فلم يَطُلْ أمدٌ ، ولا كثر من ماضي الأيام عَدَدٌ ، حتى حَصَل من وجوهِ قوادهم ، ورؤوس أجنادهم ، فلانٌ وفلان ، إلى ستةٍ وعشرين [4] رجلاً أحيط بهم أسْراً [5] ، وتُقُبِّضَ عليهم طُرًّا ، وجعلوا قِراهُم البثَّ واللّهْفَ . وأبا مثواهم الهون [6] والخسف .

وله من أخرى عنه : شرُّ الناسِ لنفسه مَنْ جَهِلَ مقدارها ، ولم يتّهِمِ اختيارها ، وقَفَا إذا شرهتْ وعميتْ آثارَهَا ؛ وطار بجناحِ طَمَعها ، إلى

---

١ ط : فيعسوا .
٢ البدهة : المباغتة والمفاجأة ؛ س ط د : بديهة .
٣ م ط د س : وثاني ؛ ط : نصيفتهم .
٤ خ بهامش ط : تتمة عشرين .
٥ م ط : أسرى .
٦ ط : الجهون وفوقها « كذا » ، وشكلها قريب من ذلك في م س .

ذميم طبَّعها ، واتّبع رائدَ جشعها[1] ، إلى وخيم مرتعها ، وعاد إلى الصالح من خُلَطَائِهِ فاستفسده، وإلى الصفي فأحقده، وإلى المستنيم فأوحشه وشرَّده، ولا سيما في حالٍ تحضُّ على استدناء البعداء ، وتبعث على مصادقة الأعداء ، ومع نصبةٍ قد أنذرت بمآلها ، وحذَّرَتْ من بغتةِ اغتيالها ، بل والله قد نفحتْ رجومُها، ولفحتْ سَمومها ، وصرَّحَ بالبأساء شومها .

وليس يذهب عنك أنّي ، بما أشرْت إليه وَدرْت حواليه ، إلى صاحبِ طليطلةَ ناظر ،وإلى قُبْح ما عاملني بهشاهر ،وذلك أنه منذ زمنٍ يتمرَّس بجانبي ، ويقوم في وجه ما لا يَرِيبُه من مذاهبي ، فمن ذلك ما نعلمه[2] من خُفُوفِهِ إلى بَسْطَةَ[3] للقاءِ فلانٍ ـــ أخذَه الله بما ألْبَسْتُه من حُرْمَةٍ[4] فجرَّدَها ، وأوْلَيْتُهُ من نعمةٍ فَغَمَطَها وَجَحَدَها ـــ وبقائِهِ هنالك يشجّعُهُ على غدري، ويشيعه من مخالفة[5] أمري ،وتوثّقَ له أنه إذا انصرم منّي، وانخزلَ ببعضِ عمله عنّي ، كان له إنْ هممتُ به سنداً ، ووصلَ به إنْ وصلتُ يداً ، فحينئذٍ صنع فلان ما صنع ، وحاول أن يطيرَ فوقع ، من تلك[6] الجهة التي كانت انخرطت في سِلْكِ بلدي وعملي، واطّردتْ في منابرِها الخطبةُ

١ س م ط د : خشعها

٢ د . نعلم .

٣ بسطة (Basa) واسمها في القديم (Basti) ، وهي اليوم أكبر مدينة في ولاية غرناطة وتبعد ١٢٣ كم إلى الشمال الشرقي من غرناطة نفسها (الروض رقم ٤٦) .

٤ من حرمة : سقطت من م .

٥ م : عن مخالفته ؛ س : عن مخالفة .

٦ س م ط : ذلك .

لي ، حتى انصات[1] فيها فُوَاقَ بكيّةٍ حُكْمُهُ . وذُكِرَ على أعوادها اسمه ، « ولكن قليلاً ما بقاءُ التثاؤب »[2] ووسمه . إلى[3] غير ذلك من قوارص[4] القول والفعل ، ستصل إليك على ألسنةِ الرسل . وأنا في كل ذلك أحتمل الأذى ، وأغضي على القذى ، وأقبض يدَ الانتصار . طمعاً في الاقتصار[5] والاستبصار ، وذهاباً مع عادة الأناة والإنظار . وربما ألمحتُ في بعض الأحايين بعتابٍ ، وتكلمتُ بكلماتٍ غضاب ، فظنّ[6] أن ذلك قُصاري في إنكاري، ومنتهى وُسْعي واقتداري، فزاد الاعتداء والاستهداف[6]، وعظم الازدراء والاستخفاف . ولولا تَنظّري من هذه الجزيرة — عصمها الله — إلى ما يُنْظَرُ إليه ، وإشفاقي منها على ما لا[7] يشفق عليه . لأسْكَنْتُ أوّلَ انبعاثِهِ ذلكَ النّزوان ، وردعتُ قبلَ احتفالِهِ ذلك الاستنان .

وفي فصل منها : ثم ختم تلك الهناتِ ، وتلا تلك السيئاتِ . بخبرِ صاحبِ فلانة . كنتُ أوطأتُهُ على علمك رقابَ أهلها . وجعلتُ إليه القبضَ والبَسْطَ فيها ، ولم أشركْ معه أحداً في معنى . فخان بما ائْتُمِنَ . وفرط في ما احْتَجَنَ ، وخاف عاقبةَ ذلك فَتَنَغّلَ واضطغنَ . وأراد أن يفوزَ ببطنته

. .. ..

١ انصات . استقام ، س م : اقضات ، د اتصلت
٢ عجز بيت لأحمد بن أبي فنن . وصدره « تناءت كي لا ينكر الدمع منكر » (زهر الآداب : ١٠١٢ وقد مر تخريجه في القسم الأول ٣٢٣ وورد هنالك برواية مختلفة)
٣ ط م س : التثاوب اسمه استقال ، د . في اسمه
٤ ط م د س : قوارص
٥ د . الاقصار .
٦ م ط د . والاستهراف .
٧ كذا في النسخ .

وما جمع ، وينجو مما حذر عليه وتوقع ، فأزمع على الانحراف والانزواء ، واستجمع للخلاف والانتزاء ، وداخل فلاناً يعرض عليه ما ذهب إليه ، ليؤيده على قبوله بما في يديه . فنأى عنه بجانبِ النزيه الكريم ، وأعرض إعراضَ الحرّ الصميم ، فانصرف إلى المذكور وهو لمناها مستمطرٌ متوكّف ، وإلى مثلها مستوقفٌ مُستَشرِفٌ ، فما دعاه حتى لبّاه ، ولا أومَى إليه حتى تهافت عليه ، لا يتهيّبُ حالاً . ولا يتوقّعُ مآلاً ، وبلغني الخبرُ وكفى به مزْعِجاً ، ولا كمثله مُبْرِماً مُحْرِجاً ، فصبرتُ حتى أعذَرْتُ ، وتأنيتُ حتى أبْلَيْتُ ، ثم اعتزمتُ على الانتصار . وتقدّمْتُ اطلبِ الثار ، مستخيراً وعد الله لمن بُغِيَ عليه ، مقتضياً حُكْمَهُ العَدْلَ فيمن تُسُبِّبَ إليه ، فتقدمتُ في معسكر ألفتَتْهُ يدُ الإعجالِ . [٥٦ أ] وحالتِ البديهةُ بينه وبين الاحتفال . فأنَخْتُ به على بلده أياماً . قطعتُ فيها دونه كلَّ الرفاق ، ولم أبْقِ حوله سقفاً[١] على جدار ولا قائمةً على ساق . ثم مررتُ إلى جهةِ فلانةَ أجوسُ خلالَها ، وأتقرّى بالنهبِ والإحراقِ أعمالها . وأتسنّمُ معاقِلَها ، وأجعل أعاليَها أسافِلَها . إلى أن وقفتُ[٢] بجنابها[٣] مُنازلاً . وزحفتُ إلى بابها مقاتلاً ، وصاحبها يرى الحُوِيَّ ملءَ عينيه ، ويقلّبُ على خسارةِ صَفْقَتِهِ كفّيه ، ولا يعاينُ إلاّ ناراً تضطرمُ عليها . وتصطلمُ حواليها ، فلو أصْغَينا لسمعنا قعقعةَ أضراسِهِ ، واستشعرنا لوجدنا حَرَّ أنفاسِهِ ، وكلُّ كميٍّ عنده — وكانوا عدداً لفيفاً ، وجمعاً كثيفاً — قد نُسِخَ جباناً . ومُسِخَ هِداناً ، لا يكادُ يُقْبِلُ حتى يُدبر ، ولا يبرزُ حتى ينجحر :

---

١ م ط . اسق . . . مقفاً

٢ أجوس . . . وقفت سقط من م س .

٣ م ط : بجانبها .

تلقّى الحسامَ على جراءَةِ حدّه مثلَ الجبانِ بكفّ كلّ جبانِ[1]

ثم انكفأتُ ، على غير الطريق التي كنتُ أنشأتُ ، عائداً بمثل ما بدأت ، واطئاً ما لم أكن قبل وطئت ، فتخيّلْ سبيلي ، في وجهتي وقفولي ، وتمثّلْ أثري ، في وِرْدي وَصَدَري . وكنتُ قد وجهتُ أسطولاً بلغ في ساحلِ بلده أقصىَ المبالغ من الإفسادِ والتدمير ، والتغيير والتأثير ، ثم انصرف بحمد الله كما انصرفتُ على غاية الوفور والظهور .

وله عنه من أخرى: وإنّ فلاناً جارنا — لا أجارَهُ الله من رَيْبِ الزمان، ولا صرّفَ عنه صروفَ الحدثان — يأبى الله أن يراه حائداً عن فسادٍ ، وعائداً إلى رشاد ، ومُقْلِعاً عن قبيح ، ومستمعاً من نصيح ، فهو — والأيامُ قد وعظته لو اتّعظ ، والأحوالُ قد نبهته لو انتبه واستيقظ ، وحجّةُ علوّ السّنّ قد قامت عليه ، ووجوهُ غيرِ الدهرِ قد سَفَرتْ إليه — بمنزلة الغرّ العابث ، في مسلاخ السّفيه[2] العاثث ، ولا يُقْصرُ ولا يبصرُ ، ولا يَرْعَوي ولا يفكر .

واتفق الآن ، بمساعيه الخبيثة، ومحاولاته الذميمة، أن تسبب إلى مداخلة الحصن الفلاني، على يدي خبيث من أهلها، قد دبّر الحيلةَ حتى اتجهت في مثلها، وأنفذ إليه قائداً من وجوه عبيده، واتصل بي الخبر، فطيرتُ[3] مَنْ ناشَبَتهُمْ الحربَ ، فوهب الله لأوليائي الظهور ، ووقى الله المحذورَ ، من مَضرَّةِ

١ البيت للمتنبي ، ديوانه : ٤١٦ .
٢ م س : السيف .
٣ م : فتطيرت .

كان الجاهلُ المطاول قَرَعَ بابها، وأحصدَ[1] في ظنّه أسبابها ، فتأملْ كيف[2] دؤوبُ هذا الموصوف بحقائق صفاته ، المتابع لقبائح[3] هناته ، على إضرام نار الفتن، باستثارة[4] دواعي الإحن، وتعريض المسلمين - عصمهم الله - للحوادث والمحن، وكيف لا يزدادُ على الأيام إلا جماحاً في ميدانه ، وانقياداً لشيطانه ، واستكثاراً من سُوء عمله ، على قريب أجَله ؛ وليشكر الله حقّ شكره من لم يُضِعْهُ هذه الضيعةَ الورْهاء الشوْهاءَ ، ويشعرْهُ هذه البصيرةَ العمياء الصمّاء ، ومنْ طُبِعَ على قلبه ، بمجاهرة عصيان ربّه ، فشرُّهُ أبداً عتيدٌ ، وشيطانُهُ مَريدٌ .

وفي فصل من أخرى : ورد كتابك مبيّناً عن ودٍّ كماء المزن . وعهد كروض الحَزْن ، مع برّ حافلٍ وفَيْنَتَهُ ، وإلطافٍ بالغٍ أحفيْته ، متجلْوَيْن في معرض سيادة لاحظتْ ضميري لها عيونٌ حور، وجاذَبتْهُ منها ألفاظُ أوانسَ نور، أرَتْني البيانَ كيف يدبُّ سحره، والافتتانَ كيف يطمُّ بحره . وزهرَ الآداب كيف يطلعُ من كمامه ، ولؤلؤَ الكلام كيف يتّسقُ من نظامه . كلٌّ ذلك سافرٌ عن وجه طويّةٍ سائلةٍ غُرّة الإمحاض، سليمةٍ جوهر الصفاء . مع علوقٍ مستحيلة الأعراض .

وله عنه من أخرى إلى صاحب المهدية : إنني - أيّدك الله - على ما بيننا من لججٍ خُضرٍ، وفيافٍ غُبْرٍ، لمستكثرٌ من إخائك، مستظهرٌ بوفائك،

١ س د م . وأحصل .
٢ زاد في م : شاء
٣ لقبائح : موضعها بياض في م .
٤ ط م د : باستشارة .

متوفّرٌ على إجمال ذكرك وثنائك، قياماً بما يتعيّنُ من مجدك وسنائك ، ويعلم الله أنه ما أملي الأبعد ، وعملي الأحمد ، إلا أن يؤمَّ أفقك الطلق — صان الله بهاءَهُ ، وحسّنَ أرجاءَهُ — من الخواص النبلاء ، والأعيان الفضلاء ، مَنْ يبلّغك كتابي ، وينوبُ في إنهاء طاعتي إليك منابي .

وكان فلان [٥٦ ب] قد ألمَّ بي زائراً ، وتلوَّم لديَّ مجاوراً ، فأقبَلْتُهُ وَجْهَ البشر ، وألحفته جناحَ البِرِّ ، بخلالٍ رائقة ، وخصالٍ بارعة ، لنفائس المحاسن جامعة ، منها — وهي أحظى وسائله لديّ ، وأدنى فضائله إليَّ — إدمانُهُ نشرَ نَشْرِ[1] معاليك، وإعلانُهُ بثّ أياديك، وكنتُ متى تَشَوَّفَ لمعاودة وطنه ، واستشرف لمطالعة سكنه ، أقومُ في وجه زماعه ، وأغضُّ من طَرْف نزاعه ، استمناحاً بما يثيره من ميامنك ، واستدامةً لما يتلوه من آيات محاسنك ، إلى أن جَدَّ به التَوقُ ، واستولى على مَقَادَتِهِ[2] الشوق ، ولم يكنْ في صدّه عَمَلٌ ، ولا بردّه قِبَلٌ . فأصحبتُهُ كتابي هذا إليك مجدّداً رَسمَ الوداد ، وعامراً سبيلَ حُسْنِ الاعتقاد ، ومعلماً بما بلوتُ من صدق تشيُّعه لمجدك ، وخفّة لسانه بحمدك ، ومشيراً إلى ما عنده من كُنْه إجلالٍ لك ، وحقيقة استكثار منك ، ثقةً بأنه يُحْسِنُ إنهاءَه ، ويوفي أداءَه ، إن شاء الله .

قال ابن بسام : ومحاسن ذي الوزارتين أبي بكر أكثر من أن تحصى ، وآياتُهُ أبين وأبهر من أن تستقصى . وإنما ظفرتُ منها بطرف . وحصلتُ

---

١ النشر الرائحة ، وقد انفردت بها ط ولعلها مكررة إذ المعنى يتم دونها

٢ م : واستولى مقادة

منها على نُتَفٍ ، ولم يقعْ إليَّ من شعره ما أوشّحُ هذا المجموعَ بذكره ، ولا بأس باثباته إن حصل ، وبالله أستعينُ وعليه أتوكّل .

ومنهم الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم
محمد بن عبد الله بن الجدّ [1]

قريع وقتنا ، وواحد عصرنا ، ممن استمرى أخلافَ النظم والنثر ، فدرَّتْ له بالبيان أو بالسحر ، فان تكلم فأبوبحر ، أو نظم فكلثوم بن عمرو ، حتّى إذا أخذ في الجدال ، أو تفقّه في علم الحرام والحلال ، فرويدك حتّى ترى الصبحَ كيف يُسْفر ، وثَبَجَ البحر كيف يَزْخَر ، وهو على نباهة الذكر ، وعلوّ القدر ، وشرف المحلّ من فهر ، قد لزم داره ، وطوى أخباره ، واقتصر على عُفَّةٍ [2] من المعيشة رُزِقها ، فهو يتبرَّضُ جَميمها ، لا بل يتزوَّدُ نسيمها ، والشمسُ ، وان سترها الضبابُ فغيرُ [3] خفيّة السَّناء ، ولا مجهولة الغناء . وكان على عهد المعتمد قد تقلّد وزارة ابنه يزيد [4] ، فلم

١ محمدبن عبدالله بن يحيي بن مرح بن الجد الفهري : شلبي الأصل سكن اشبيلية ، ويعرف بالأحدب ، أخو الحافظ أبي بكر ابن الجد ، كان من أهل النفس في المعارف والآداب والبلاغة ذا حظ جيد من الفقه والتكلم في الحديث ، وكان يفتّي ببلده لبلة وتوفي سنة ٥١٤ (الصلة : ٥٤٤ والذيل والتكملة ٦ : ٣٢٦ والمطرب : ١٩٠ والمعجب : ٢٣٧ والقلائد : ١٠٩ والخريدة ٣ : ٣٩٣ والمغرب ١ : ٣٤١ وإحكام صنعة الكلام : ١٨٥ - ١٨٦) .

٢ العفة : بقية اللبن في الضرع ، ولعلها أن تقرأ « غفة » - بالغين المعجمة - وهي البلغة من العيش .

٣ د : غير .

٤ هو الملقب بالراضي أبي خالد ، ولاه أبوه أولا الجزيرة الخضراء ثم رندة ، ومنها استنزل وقتل سنة ٤٨٤ (انظر الحلة ٢ : ٧٠) .

يزل معه عليَّ الشان ، نابه المكان ، حتى كان من أمره ما كان . وهو اليوم في وقتنا قد اضطرَّ إليه أهلُ قاعدة لبلة فولّوْهُ خطّةَ الشورى ، وألقَوا إليه مقاليد الفتوى ، فمهّد لذلك جانباً من كفايته ، واحتسب فيه جزءاً من عنايته ، على كُرْهٍ منه شديد ، ومَرامٍ في التزايد من العلم بعيد . وعلى ذلك فلم يدعْ مساجلةَ الإخوان ، ومراسلةَ من يرتسم بهذا الديوان ، من بني الأوان ، بما يشهد له أنه بديعُ الزمان ، وفارس الميدان ، وقد أثبتُّ له بهذا الديوان ، ما يقيمُ له أوضحَ برهان .

جملة من رسائله في أوصاف شتى

فصول[1] له من رقعة أنشأها على لسان مَنْ صَدَرَ من بيت الله الحرام وزيارة قبر[2] نبيه عليه السلام : صلوات الله على خاتم الرسل ، وناهج السبل ، وناسخ جميع الملل ، ومجليّ الظُّلْم والظُّلَم ، ومحيي القلوب بنور الهدى والحكم ، ومقلَّد النّذارة والسفارة إلى كوافِّ الأمم ، وعليه من لطائف التسليم ، ما يُرْبي على عَدَد النجوم ، ويَزْري بالمسك المختوم ، ويقتضي باتصاله واحتفاله رضى الحيِّ القيوم .

كتبت يا أكرمَ الأنبياء وسائلَ ، وأعظمَهم فضائلَ ، وأعمَّهم فواضل ، وأتمَّهُمْ فرائضَ ونوافلَ ، وقلبي بحبِّك معمورٌ ومأهول ، وعلى الإيمان بك مفطورٌ ومجبول ، وبتمثل ما عاينتُهُ من عظيم آثارك مَهُولٌ مشغول ،

١ د : فصل .
٢ قبر : سقطت من م ط س .

ومن لي بمِقْوَلٍ [٥٧ أ] لا يتخلّلُهُ خَلَلٌ ، ولا يُدْرِكُهُ في الصلاة عليك والدعاء لك ملل ، ولا يَشْغَلُهُ عن ذكر الله تعالى وذكرك سهوٌ ولا خَطَل ، حتى أقطعَ بذلك آناء ليلي ونهاري ، وآصالي وأسحاري ، وأجعله شعاري ودثاري ، وهجِّيرايَ في إعلاني وإسراري ؛ اللهم ألهمني من تحميدك وتسبيحك ، والصلاة على رسولك الأمين ونصيحك ، ما يَشْغَلُ لساني ، ويثقل ميزاني ، ويبسطُ يومَ الفزَع الأكبر من أماني ؛ اللهم وفِّرْ حظّي من شفاعته ، وأحْسِنْ عوني على طاعتِكَ وطاعته ، واحشرني في عِداد زمرته وجماعته .

ولما صدرتُ يا رسول الله عن زيارتك الكريمة ، وقد ملأتْ هيبتُكَ ومحبّتُكَ أرجاءَ فكري ، وفضاءَ صدري ، وعَشِيَني من نور برهانك ما بهر لبي ، وعمر قلبي ، لحقني من الأسَفِ لبعد مزارِكَ ، والحنين إلى شَرَف جوارك ، ما أودع جوانحي التهاباً ، وأوْسَعَ جوارحي اضطراباً ، وأشعر أملي عَوْداً إلى محلِّكَ المعظَّم وإياباً ، وكيف لا أحِنُّ إلى قربك[1] ، وأتهالكُ في حبِّك ، وأعفِّر خدّي في مقدّسِ تُرْبك ، وبك اقتديت فاهتديت ، ولولاك ما صُمتُ ولا صلّيت ، ولا سعيت ولا طفت[2] ، بل كيف لا يتحرّك نحوك نزاعي ، ويتأكّدُ انقطاعي ، وبك استشفاعي ، وإليك مفزعي يوم الدّاعي . فلا تنسَ لي يا رسول الله عياذي بك ولياذي ، وإسراعي إلى زيارتك وإغذاذي ، واذكرني في اليوم العظيم المشهود ، عند حوضك المورود ، وظلِّكَ الممدود ، ومقامك المحمود .

١ م : قلبك .
٢ ولا طفت : لم ترد في د .

اللهم كما أعنتني على حجِّ بيتك المحرَّم ، وزَوْر نبيك المكرّم ، فاجعله لي شفيعاً ، وتوفّني على ملّتِه مطيعاً . ويسّر لي كرَّةً إلى مواطنِه المقدَّسة ورجوعاً ، إنك على ذلك قدير . وبحقيقة دعائي عليمٌ خبيرٌ . والسلامُ المردَّدُ المؤكد على نبيّ الرضوان . وصفيِّ الرحمن ، ما تعاقب الملَوان ، وتناوب العَصران .

وله من أخرى خاطب بها بعض من قدم من الحجاز : كنت وقد هزّني وافدُ البشرى . واستخفّني رائدُ المسرَّة الكبرى . بما سنَّاه الله من قدومك محوطَ الجوانب والأرجاء ، مَنُوْطَ الفخار بذوائب الجوزاء ، محطوطَ الآثار في مواطن الرسل ومواطىء الأنبياء ، فيا لها حَجَّةً مبرورةً ما أتمّ مناسكها ، وأوضحَ في مناهج البرّ مسالكها . لقد شهد فيه الميقاتُ بخلوصِ إهلالك وإحرامك . واهتزَّ البيتُ العتيقُ لطوافك واستلامك . ورضيت المروة والصَّفا عن كمال أشواطك . وتهلَّلَ بَطْنُ المسيل لسعيك فيه وانحطاطك ، ثم بالموقف الأعظم من عَرَفَة سَطَعَ عَرْفُ تخشُّعِكَ ودعائك . وارتفع حفض تضرُّعِكَ واستخدائك . وفي البيت الأكرم من المزدلفة حظيَ بتقرّبك[1] وتزلّفك . وركا تهجّدك[2] وتنفلك . وعند الإفاضة فاضت الرحمةُ عليك . وكملت النعمة لديك ، وأما منىً ففيها قُضيتْ مُناك وأوطارك ، وقُبِلَتْ هداياك وجمارُكَ . وحُطَّتْ خطاياك وأوزارك . فما صدرت عن تلك المعالم المكرمة . والشعائر المعظمة . وإلا وهي راضيةٌ عن عَجِّكَ وثجِّكَ[3] .

١ في النسخ بقربك

٢ في النسخ [illegible] بتوحدك

٣ [illegible] في الدعاء [illegible] وفي الحديث . تمام الحج العج [illegible]

شاهدةٌ لك بكمال حَجِّك ، مشفقةٌ من فراقك وَبُعْدِكَ ، متعلّقةٌ لو أمكنها بِبُرْدِكَ ، وقبلُ أو بعدُ ما تأنّسَتْ بك يثرب ، وَرُفِعَ لك في جنابها مضرب ، فشافهتَ منازلَ التنزيل ، وطالعتَ معاهدَ الرسول ، وقضيتَ من زيارة القبر الكريم واجباً ، وقمتَ بينه وبين المنبر ضارعاً راغباً ، فما حُجِبَ عنه عليه السلام زَوْرُكَ وإلمامُكَ . وقصدُكَ وائتمامُكَ ، وصلاتك وسلامك ، بل كان لكلّ ذلك راعياً سامعاً ، ويكونُ لكَ بحول الله شاهداً شافعاً ؛ فهنأك الله ما منحك من جزيل الأجر في مواقف الحرمين ، وأطارَ لك من جميل الذكر في الخافقين .

ولما قعد بي عن قصدك ما قَعَدَ ، ولم يمكنّي الوفودُ عليك في جملة من وفَد ، استنبت كتابي منابي [٥٧ ب] .

وله من أخرى في صفة مطر بعد قحط : لله تعالى في عباده أسرارٌ ، لا تُدْرِكها الأفكار ، وأحكامٌ ، لا تنالها الأوهام . تختلفُ والعدل متّفِق ، وتفترق والفضلُ مجتمعٌ متّسق ، ففي مَتْنِحها [1] نفائس المأمول ، وفي منحها مَدَاوسُ العقول ، وفي أثناء فوائدها حدائقُ الإنعام رائقة ، وبين أرجاء شدائِدِ هَا بوارقُ الإنذار والإعذار خافقة ، وربما تفتحتْ كمائمُ النّوائِب ، عن زَهَرات المواهب ، وانسكبت غمائمُ الرزايا ، بنَفَحات العطايا ، وصدع ليلَ اليأس صبحُ الرجاء ، وخلع عاملَ البأس والي الرخاء . ذلك تدبيرُ اللطيف الخبيرُ ، وتقدير العزيز القدير .

ولما ساءت بتثبّط الغيث الظنون ، وانقبض بتبسّط الشكّ اليقين ،

---

١ م : منحها ؛ س : فتحها .

واسترابت حياضُ الوهاد ، بعهود العِهاد ، وتأهبت رياضُ النِّجاد ، لبرود الحداد ، واكتحلتْ أجفانُ الأزهار ، بإثمـــد النقع المثار . وتعطّلَت الأنوار ، من حُليِّ الديمة المدرار ، أرسل الله تعالى بين يدي رحمته ريحاً بليلةَ الجناح ، مخيلة النجاح[1] ، سريعةَ الإلقاح ، فنظمتْ عقودَ السحاب ، نَظْمَ السِّخاب ، وأحكمت برودَ الغمام ، رائقةَ الأعلام ؛ وحين ضربتْ تلك المخيلةُ في الأفق قبابها ، ومدّتْ على الأرض أطنابها ، لم تلبثْ أن انهتك[2] رواقها ، وانبَتَكَ[3] وشيكاً نطاقُها ، وانبرت مدامِعُها تبكي بأجفان المشتاق ، غداة الفراق ، وتحكي بنان الكرام ، عند أرْيَحيّة المُدام ، فاستغربت الرياضُ ضحكاً ببكائها ، واهتزتْ رُفاتُ النبات طَرباً لتغريد مُكّائها ، فكأنَّ صنعاء قد نَشَرتْ على بسيطها بساطاً مُفَوَّفاً ، وأهدتْ إليها من زخارف بَزِّها ومطارف وشيها ألطافاً وتحفاً ، وخيِّل للعيون أنَّ زواهر النجوم ، قد طَلَعَتْ من مواقع التخوم ، ومباسم الحسان ، قد وصلَتْ بافترار الغيطان ، فيا بَرْد مَوْقِعِها على القلوب والأكباد ، ويا خلوص ريِّها إلى غُلَل النفوس الصّواد ؛ كأنما استعارتْ أنفاس الأحباب ، أو ترشفت[4] شنباً من الثنايا العذاب ، أو تحملت ماء الوصال ، إلى نار[5] البلبال ، أو سَرتْ على أنداء الأسحار وريحان الآصال . لقد تبين للصّنْع[6] الجميل

. . ...

١ م : الجناح .
٢ م ط س : انتهك .
٣ انبتك : انقطع .
٤ ط م : تشرفت .
٥ م ط س : ثار .
٦ م ط : للطبع .

من خلال ديَمِيها تنفّسٌ ونصول ، وتمكّن للشكر الجزيل في ظلال نعمها مُعَرّسٌ ومقيل ؛ فالحمد لله على ذلك ما انسكب قَطْرٌ ، وانصدع فجر ، وتوقّد قَبَسٌ ، وتردّد نَفَس ، وهو الكفيلُ تعالى بإتمام النُّعمى ، وصلة أسباب الحياة ، بعزته .

وله من رقعة خاطب بها الوزير الفقيه أبا القاسم الهوزني[1] إثر قدومه من حضرة أمير المسلمين ، رحمه الله تعالى[2] ، غبَّ نبوة خلصت إلى غَرْبِه ، وروعة كادت تطير بسربه :

وكم نعمةٍ لا يُستَقَلُّ بشكرها ... إلى الله في طيِّ المكاره كامِنَهْ

قد يُجْتَنَى[3] — أعزّك الله — من شجر المساءة ثمرُ المسرّة ، ويجتلى وجهُ المحبوب غبَّ المكروه مُشْرِق الأسرَّة ، وربّما تجهَّم القدر وضميرُهُ مبتسم ، وتصلَّب الزمنُ وعقدُهُ منتشم ، وإنّما ينظر إلى مواقع الأقدار في الإصدار ، وتُحْمَدُ مجاري الأعمال عند المآل ؛ وفي هذه المقدّمة دلالةٌ على النَّبْوة التي ما اعتكر جنحها ، إلاّ ريثما وضحَ صُبْحها ، ولا نَعَبَ بالبعد غرابُها ، حتى التفتَ إلى سانح السَّعْد ركابها ، ولا استطار لها في قلب الوليّ صَدْعٌ ، حتى اشتمل منها على أنْف العدوّ جَدْع ؛ وما ذاك

---

١ أبو القاسم واسمه الحسن هو ولد أبي حفص عمر بن الحسن الهوزني الذي ترجم له ابن بسام في هذا القسم من الذخيرة (انظر ص : ٨١ فيما تقدم) وأبو القاسم هو الذي سعى في فساد دولة بني عباد عند أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أخذاً بثار أبيه، وكان فقيهاً مشاوراً ببلده، توفي سنة ٥١٢ (الصلة : ١٣٧ والمغرب ١ : ٢٣٥ وترتيب المدارك ٤ : ٨٢٦) .

٢ تعالى : زيادة من م .

٣ م : يتجنى .

إلاّ لأن سلطانَ الحقّ أنجدك وأيّدك ، وبرهانَ الفضل قام معك وأطال يدك ، وحاشا للعلم أن يُلْبِسَ حاملَهُ خمولاً ، أو يحثَّ له نحو الاذالة حُمْولاً ، فوشكانَ ما استقلَّتْ بك أيدي الآثار ، في صدر العثار ، وخاصمتْ عنكَ ألْسُنُ السّنَن ، عوارضَ المحن ، وما سرتَ إلاّ وظلُّ الكرامة عنك ظليل ، وَصُنْعُ الله لك رَسيلٌ وبكَ كفيل ، فلئن أوحشَ مسيرك ، لقد آنس ظهورك ، ولئن حَسُنَ اقترابُكَ ، لقد سَمُجَ اغترابك ، ولئن سَخِنَتْ العينُ بعدك ، لقد بيَّن البينُ فقدك ؛ فالحمد لله الذي أوشكَ مَقْدَمَكَ ، وأعلى قَدَمك ، ورفعَ في كلّ مكرمة ومأثرةٍ عَلَمك ، [٥٨ أ] وإياه تعالى أسألُ أن يهنيك ويهنيءَ فيك عارفةَ السلامة ، ويُبْقيكَ بعيدَ الصيت رفيعَ القدر في الظَّعْن والإقامة ، ولولا تردُّدي في عقابل رِبْعٍ[1] لَزِمَتْ جسمي شهوراً ، واتخذته رَبعاً معموراً ، لما استنبتُ في التهنئة خطاباً ، ولحثثت نحوك ركاباً ، وأنت بِسَرْوِكَ تُوسِع العذرَ قَبولاً ، وتَتَقَبلُه وجهاً جميلاً .

وله من أخرى يهنيء بمولود : إنّ أحقّ ما انبسطَ فيه للتهنئة لسانٌ ، وتشرّفَ في ميادين معانيه بيانٌ وبنانٌ ، أملٌ رجّيَ فتأبى زماناً ، واسْتُدْعيَ فلوى عِناناً ، وطاردته المنى فأتعبها[2] حيناً ، وغازَلَتْه الهمم فأسْعرها[3] حنيناً ، ثم طلع غيرَ مُرْتَقَبٍ ، وورد من صحبة المباهج في عسكرٍ لجب ، فكان كالمشير إلى ما بَعْدَهُ من مواكب الآمال ، والدليل على ما وراءه

---

١ يريد حمى الربع .

٢ س م ط : فاتبعها .

٣ في النسخ : فأشعرها .

من كواكب الإقبال ، أو كالصبح افترّتْ عن أنوار الشمس مباسِمُه والبرق تتابعتْ إثرَ وميضه غمائمه ، وفي هذه الجملة ما دلّ على المولود[1] المجدود ، المؤذن بترادف الحظوظ وتضاعُف السُّعود . فيا له نجم سعادةٍ ، تطلّعَ في أفق[2] سيادة ، وغصن سناء ، تفرّعَ من دَوْحَة عَلاء ، لقد تهللتْ وجوه المحاسن باستهلاله ، وأقبلتْ وفود الميامن باستقباله ، ونُظِّمَتْ له قلائد التمائم ، من جوهر المكارم ، وخُصّ بالثديّ الحوافِل ، بلبان الفضائل . وما كان منبت الشرف بانفراد تلك الأرومة الكريمة إلاّ مقشعرّ الربى ، مغبرّ الثرى ، متهافتَ أغصان الرضى ، فأمّا وقد اهتزّ في أيكةِ السيادة قضيبٌ ، ونشأ من بيئةِ النَّجابَةِ نجيب ، فأخْلِقْ بذلك المنبت أن تعاوده نَضْرَتُه ، وترفّ عليه حبرته ، ويراجعه رونَقُه وبهاؤه ، وتضاحكه أرضه وسماؤه ، فالحمد لله على ما أتاحهُ من انثناء[3] الأملِ بعد جِماحِهِ ، واختيالِ الجَذَلِ في حِلْيَة غُرَرِهِ وأوضاحه ، وهو المسؤول أن يهنّيك منه صنعاً يَحْسُنُ في مثله الحسد ، ويتمنى لفضله النَّسْلُ والولد .

وله من أخرى خاطب بها ذا الوزارتين الكاتب أبا بكر بن القصيرة وقد قربت بينهما المسافة ، حسبما ذكر ، ولم يتفق التقاؤهما :

لم أزل – أعزّك اللهُ – أستنزلُ قُرْبَكَ براحةِ الوهم ، عن ساحة النجم ، وأنصبُ لك شَرَكَ المنى ، في خُلَسِ الكرى ، وأعلّلُ فيه نَفْسَ الأمل ، بضربِ سايقِ المثل :

١ د : الوليد .
٢ ط : في أوفق .
٣ ط : انثنائه ، م : انشاء .

ما أقدَرَ اللهَ أنْ يدني على شَحَطٍ مَنْ داره الحَزْنُ ممن دارُهُ صُولُ[1]

فما ظنُّكَ بي وقد نزل على مسافة يوم، وطالما نفر عن خياله نوم[2]، ودنا حتى همّ بالسلام، وقد كان من خُدَعِ الأحلام، وناهيك من ظمأي وقد حمتُ حول الوِرْدِ الخصِرِ، وذممتُ الرشاءَ بالقصر، ووقفَ بي ناهضُ القدر، وقفةَ العَيْرِ بين الورد والصدر[3]، فهلاَّ[4] وُصِلَ ذلك الأمل بباع، وسمح الزمانُ باجتماع، وطويت بيننا رقعةُ أميال، كما زُوِيَتْ مراحلُ أيّامٍ وليال، وما كان على الأيام لو غفلت قليلاً، حتى أشفيَ بلقائك غليلاً، وأتنسَّمَ من رَوْحِ مشاهدتك نَفَساً بليلاً؛ ولئن أقعدتني بعوائقها عن لقاءِ حُرٍّ، وقضاءِ برٍّ، وسَفَرٍ قريب، وظفرٍ غريب، فما تحيَّفَتْ ودادي، ولا ارتشفت مدادي[5]، ولا غاضت[6] كلامي، ولا أحْفَتْ[7] أقلامي، وحسبي بلسان النَّبْلِ رسولاً، وكفى بوصوله أملاً[8] وَسولاً، ففي الكتاب بُلْغَةُ الوطر، ويُستَدَلّ على العَيْنِ بالأثر.

. . ..

١ البيت لحندج المري (البلدان: صول)؛ وصول: مدينة في بلاد الخزر من نواحي باب الأبواب.

٢ س ط م: عن حباله؛ و سقطت «نوم» من م ط س.

٣ من قول أبي العلاء المعري (شروح السقط: ١٥٣)

همّوا فأمّوا فلما شارفوا وقفوا كوقفة العير بين الورد والصدر

٤ فهلا: سقطت من م ط س.

٥ م س: مرادي.

٦ م س: حاصت.

٧ س: أجفت.

٨ د: أمداً.

على أني إنّما وَحَيتُ وَحْيَ المشيرِ باليسير ، وأحلْتُ فَهْمَكَ على المسطورِ في الضمير ، وإنْ فرغتَ للمراجعة ولو بحرف ، أو لمحةِ طرف ، وصلتَ صديقاً ، وبللتَ ريقاً ، وأسديتَ يداً ، وشفيتَ صدىً ، لا زالت أياديك بيضاً ، وجاهُكَ عريضاً ، ولياليك أسحاراً ، ومساعيك أنواراً .

ثم ختم رقعته بهذه الأبيات :

هو الدهر لا يَفْتَا[1] يمرُّ وَيَحْلَولي ... وسيّان عندي ما يُجِدُّ وما يبلي [٥٨ب]
إذا أشكلت يوماً عليه مُلِمَّةٌ ... فمن ظهر قلبي يستمدُّ ويستملي
سألقى بحدّ الصبر صُمَّ خطابه[2] ... وإن صيغ فيها الشيبُ من حَدَقِ النبل
وأعرضُ عن شكواه إلا شكيّةً ... بها من هوى مرآك ضَرْبٌ من الخبْل
روى لي أحاديثَ المنى فيه غضّة[3] ... ولكنها لم تخلُ من غَلَطِ النقل
وجاد[4] بقرب الدار غيرَ متمّمٍ ... ويا ربَّ جودٍ قُدَّ من شيم البخل
تراءَى ليَ العذبُ النمير فليتني ... بَرَدْتُ لهاتي منه في نُغْبَةِ النّهل
أتحجبُ شمسَ العلم بردةُ ليلةٍ ... ولو وصلتْ أردانَها ظلمةُ الجهل
ويخشُنُ مسراها لموطىء أخمصي ... ولو نبتَتْ في جنحها إبَرُ النَّحل
أجلْ قَيْدُ هذا الدهر أضيقُ حلقة ... وأقصرُ للخطو الوَسّاع من الكبل
سأبعثُ طيفي كلَّ حينٍ لعلّه ... يصادفُ من نجوى خيالك ما يُسْلي
ودونَك من روض السلام تحيّةً ... تنسّيكَ غضَّ الورد في راحة الطل[5]

---

١ ط م س د : يبقي .
٢ كذا في النسخ ، ولعلها : خطوبه .
٣ ط م س د : غصة .
٤ ط م د س : وجاء .
٥ د س : الظل .

قوله : « ويا ربّ جود قُدّ من شيم البخل » يشبه قول الآخر :

الدهر ليس له صنيعٌ يُشْكَرُ — شرْبٌ له يصفو وشربٌ يَكْدُرُ
يهبُ القليلَ وقد نوى استرجاعَهُ — هِبَةُ البخيل أقلُّ منه وأنزر

وكأنّ هذا من قول بشار[1] :

أما البخيلُ فلستُ أعْذله — كلُّ امرىءٍ يُعطي على قَدره

فراجعه ذو الوزارتين برقعة نسختها : كتبت ولسانُ القلم يتلعثم ، وقدمُ الكلم يتأخر أكثرَ مما يتقدم ، هيبةً لانتقادك ، وعجزاً عن مواقع إصدارِكَ وإيرادك ، وإنّ متعاطيَ جرائك[2] ، ومناهض إعادتك أو ابدائك[3] ، لجديرٌ بالتقصير ، وخليقٌ بحرمان حظّ البُسُوقِ والظهور ، والله يزيدُك فضلاً ، ويجعلك لكلّ جليلةٍ من الخصالِ ونبيلةٍ من الأحوال أهلاً ، بمنّه .

ووصل إليّ — وصل الله اعتلاءك ، وأثّلَ مَجْدَكَ وسناءَكَ — خطابُكَ الكريم نظماً ونثراً ، فأهدى برّاً ، واقتضى ما لا يُسْتَطاعُ شكراً ، ويعلمُ الله الذي لا ينطوي دونه سرّ ، ولا يفوت إحصاءَه أمر ، أني أجِدُ من الشوق إليك ، مثلَ ما أخبرتَ به لديك ، وأحِسُّ من التشوّقِ إلى لقائك ، بنحو ما أطْلَعْتَهُ من تلقائك ، واللهُ وليُّكَ حيث كنتَ ، وكالئُكَ وكالئي

[1] لم يرد في ديوانه (جمع العلوي) ، وهناك بيت على شاكلته وهو (ص : ١٤٠) :
أعطى البخيل فما انتفعت به — وكذاك من يعطيك من كدره
[2] م ط س : جوابك ؛ والجراء : بمعنى المجاراة والمباراة .
[3] د : وإبدائك .

فيك أقمتَ أو ظعنتَ ، وإيّاهُ أسألُ أن يبلّغَكَ أوطارَكَ ، ويؤتيك من كلّ أملٍ وفي كلّ موردٍ ومصدرٍ اختيارك ، بعزته .

وأنا أعتذر إليك من الاقتضاب ، وأنْ لا ألمّ في النظم بجواب ، بما لا يذهب عليك من الأعذار ولا يستترُ دونك من الأسباب ، وأنت بمعاليك تقبل العذر ، وتتأوّلُ أجملَ تأوّلٍ [1] الأمر .

وله من أخرى : لم أزلْ مذ جَدّ اغترابُكَ ، ونعب غرابك . أتعجّبُ من تحوّلك ، وأتشوّفُ إلى ما يَرِدُ من قِبَلِكَ ، فلم أظفر من خبرك بيقين ، ولا حصلتُ من كيفيّةِ مَقَرِّكَ على ثَلَجٍ مبين ، إلى أنْ وَرَدَ جُهَيْنَةُ أخبارِكَ ، وَعَيْبَةُ أسرارك . فلان . فكشف من صورة أمرك ما التبس ، ووصف من جُمْلَةِ حالك ما سرّ وأنَس . وذكر أنّ ذلك القطر — حرسه الله — رَحُبَتْ بكَ معاهده ، وَعَذُبَتْ لك موارده [٥٩ أ] واشتملتْ عليك أفياؤهُ ، وتهلّلتْ إليكَ أرجاؤهُ ، ولا غروَ من نَفَاقِكَ حيث احتللت ، وقبولك أينما انتقلت ، فمن تحلى بمثلِ حلاكَ ، لم يَضِعْ كيف تصرّفَ ، ولا عدم اللطف أينما انحرف ، والله تعالى يصنعُ لك جميلاً ، ويُنيلكَ حيثما كنت أملاً وَسُولاً .

ووصل خطابك الخطيرُ فجلا وَجْهَ بِرِّكَ وسيماً ، وَشَخّصَ عهدك عميماً ، وأهدى إليّ من رياض ودّك نسيماً ، ومن عرار حمدك شميماً ، فيا حُسْنَ موقعه من الضمير ، ويا نُبْلَ منزعِهِ الجميلِ المشكور .

وله من أخرى : قد يرد من تحف الإخوان ما لم يراقَبْ له مَوْرِد ، ولا

[1] أجمل تأول : سقطت من م ط س .

ضُرِبَ فيه موعد، ولا غازَلَه ضمير، ولا تقدَّم فيه بشير، فيكون بجامعِ الأُنْسِ أجلبَ، ولمجامع النفس أذهب، وعلى صفحات الفؤاد أندى وأبرد، وإلى تَلَعاتِ الودادِ أهدى وأقصد، لا سيَّما إذا ورد وللوحشةِ جُثومٌ، وبين الجوانح كُلوم، كموردِ خطابِكَ، فإنه هجم ولا تأهّبَ له خَلَد، ونجم وفي جَفْنِ الأُنسِ رَمَد، فأذكرني حُسْنُه زمنَ الصِّبا، ونَفَس الصَّبا، وأنساني عهده زَهْرَ الربى، وثمرَ المنى، وجدَّدَ من رسم الصبابة والمقة قديماً، وأحيا من شخص القرابة رفاتاً رميماً، ونشر من واشجها ما دَفَنَتْه الأيام خمولاً، ووصل من مقطوعِ أسبابها ما لم يكنْ قبل موصولاً[1]، فللّه درُّ عهدك ما أجملَ مُحَيَّاه، وأنمَّ في روض الوفاء ريّاه، وسقياً لغرس مجدك فما أذكى ثراه، وأطيبَ جَنَاه، وصل الله ما بيننا يوم تُقَطَّع الأسباب والأنساب، وجعله ميراثاً في الأخلافِ والأعقابِ، وأبقاك أنساً لذوي الألباب، ومعدنا للكرم اللباب، بمنّه.

وتلقيت المنزعَ الجميل في جهة فلان، المُسْنِدِ إلى مجدك بأحسنِ وجوهِ الإجمال، وأتمّ معاني البرِّ المتوال، وأقبلت عليه، إقبال المصغي إليه، المستوفي ما لديه، فنشر من أياديك الجميلة مآثر، وشبَّ بِمَنْدَلِ ذكرك الطيّبِ مجامر، وعمر بأوصاف معاليك مشاهدَ ومحاضر، وجعلت أهتزُّ لسماعها طرباً، وأستعيد من أغانيها نُوَباً، وأستزيده من محاسنها عُجْباً وعَجَباً، فأمتعَ بشهيِّها أذني، وأذكر بلذيذها معسف[2] زمني. ورأيته حَسَنَ الأداء، لمعاني الثناء، متصرفَ اللسانِ، في شكر الاحسان، والله يعمر بوفودِ الأملِ جَنَابَك، ويمدُّ في ساحةِ الكرم أطنابَك، بعزته.

. .

[1] م: وصولا.
[2] كذا في م ط د س؛ ولعل الصواب «متغيف» أي مائل الأغصان (أو مسعف).

وله من أخرى : قد كنت — أدام الله عزّك — بتواتر السماع ، وتظاهُرِ الإجماعِ ، أتقلّد فضلك ، وأشهد بالسبقِ لك ، وأودّ أن يسفرَ بيننا خطاب ، ويتفقَ للمفاتحة أسباب ، رغبةً في الانتظام ، ولو بسفارة الأقلام ، واجتلاءً بالاخاء ، ولو بالرّقْمِ في صَفْحِ الماء ، إلى أن وافاني خطابُكَ ففتح للمداخلةِ باباً ، وأوضحَ في المواصلةِ شِعاباً ، وتضمّنَ من أدلّةِ الودّ ما لا يكذب رائده ، ولا يحرج[1] شاهده ، بل يُقْضى بشهادته ويُحْكَم ، ويُقْطَع على عدالتِهِ ويُخْتَم .

فأمّا ما نحلتنيه من الوصفِ الجميل ، ومنحتنيه من الغُرَرِ والحجول ، فإنما هي حُلاكَ ، أعَرْتَها أخاك ، وأوصافُكَ ، تبرّعَ بها إنصافُكَ ، وسماتُك ، تجافت عنها مكرماتُكَ ، وقد تقلّدتُها حليةَ جَمالٍ ، ورفلت منها في حُلّةِ إجمال ، واعتقدتّها ذخيرةَ أيامٍ وليال . والله تعالى يؤكّد بيننا دواعيَ الوداد ، ويجعلُ خُلّتَنا من عُدَدِ المعاد ، ويُعينُ على شكرِ بِرّكَ المُبْدأ المُعاد.

واجتليتُ منه الاشارة الكريمةَ في جهة فلان ، فمهدتْ له عندي كَنَفاً رحيباً ، وبوّأتُهُ لديَّ محلاً قريباً ، وشغلتْ لحظي برعاية أمره ، وبسطتْ يدي في شدّ أزره ؛ ومما أكّد حقوقَهُ علي تشيّعُهُ في علائك ، وتحدُّثُهُ بآلائك ، وتقلُّبُهُ برهةً من الزمن في ظلّ حَرَمِكَ وَفِنائك ، والله تعالى يبقيك مؤثراً للحسنة ، محموداً بجميع الألسنة ، ولا يخليك من الشيمة الدمثة والكلمة اللينة .

وله من أخرى : إذا عَدَدْتُ [٥٩ب] أعزّك الله — أعيانَ الزمان، وأفاضلَ

[1] د : يموح ، س : يخرج .

الاخوان ، ثنيتُ عليك خنصري ، وطمحتُ إليكَ بصري ، وطرتُ في جوِّكَ ووقعتُ ، وانحططتُ في شعبك[1] وربعت ، لأنك — والله يبقيك — حاملُ آدابٍ ومعارف ، ولابسٌ من خلع الفضلِ مطارفَ ، ومتميزٌ بفضولِ محاسنَ مُنِحْتَ جمالها، ومتفرِّدٌ بخواصَ فضائلَ جَمَعْتَ كمالها، لا أعدمني الله منك جُمْلَةَ فضل ، وَزَهْرَةَ نُبْلٍ ، وَذُخْرَ وفاء ، وَعِلقَ سَنَاء ، بمنّه .

وطلع عليَّ خطابُكَ مع فلانٍ عبدك ، ولسانِ حَمْدِكَ ، فأهبَّ من رَوْحِ الأنْسِ بك نسيماً، وجدَّد عهوداً سلفت ورسوماً، وأجناني من رياض برِّك نَوْراً عَطِراً ، وسقاني من حياضِ ودِّكَ عذباً خصراً .

* فيا شيَعي برونقِهِ وريِّي[2] *

وأنهى إليَّ المذكور ما تنسَّمَهُ من أرَجِ ثنائك ، واجتلاه من تبلُّجِ إخائك، فاتصل البرُّ واتَّسقَ، وتتابع الفضلُ على نَسَق، ثم استطرد إلى شكر ما أوْلَيْتَهُ من غُرِّ أيَادٍ ، وإجمالٍ متمادٍ ، واستنفد في ذلك جَهْدَ لسانه ، وجرى في ميدانه ملءَ عِنَانِهِ ، فأحمدتُ مقطعه ومنزعه ، ووجدت العُرْفَ واقعاً فيه مَوْقِعَهُ ، وأنت بِسَرْوِكَ تؤكِّدُ فضلَكَ عنده ، وتصلُ إجمالَكَ معه ، لا أخلاك الله من بثِّ صنائعَ ، في أصنافِ مواقع ، وأشتاتِ مواضع .

ومن أخرى له : كتبت وأنا في عقابلِ شكوى سَدِكَتْ بي منذ أشهرٍ

---

[1] م ط : سعيك

[2] عجز بيت لأبي تمام ، وصدره (الديوان ٣ : ٣٥٦) :

فيا ثلج الفؤاد وكان رضفاً

سَدَكَ الغريم ، وعركتني بأكفّ آلامها وأيدي سقامها عَرْكَ الأديم ، حتى لقد فَغَرَتْ عليّ فاها المنون ، واستوتْ في اليأس مني الظنون ، إلا أنه تعالى بلطفه مَنّ بالاقالة والإرجاء ، ونقلني عن جهة اليأس إلى جانب الرجاء ، له الحمد[1] متواتراً . والشكرُ أولاً وآخراً ، وهو المسؤولُ ، عزّ وجهه، أن يملّيكَ[2] أطولَ الأعمار ، ويَزْوي عنك مكروهَ الأقدار ، بمنّه ؛

وكان خطابك قد وافى في عنفوانها ،وَصدْرِ نَزَوَانها ، فخففَ من أوصابها ، وخلعَ بعضَ أثوابها ، وكأنما ورد عائداً مُلْطِفاً ، أو وفد زائراً مُتْحفاً ، وَرُمْتُ المراجعةَ فلم تساعدني يدٌ ، ولا نهض بي جَلَدٌ ، ولما نضوتُ بُرْد الاعتلالِ ، وَشِمْتُ بَرْقَ الإبلال[3]، وَجَبَ إنهاءُ العذرِ المعترض ، وتعيّنَ قضاءُ الحقّ المفتَرض . وأما شكري لما تضمّنَهُ الكتابُ الكريم من لطائف البرّ والثناء ، ونتائج الفضلِ والسَّناء، فمسحوبُ الأذيالِ ،في طريق الاحتفال، مأخوذُ الأنفاسِ ، من زَهْرِ الرملةِ الميعاس[4]، ويعلم الله تعالى المطّلعُ على خواطر الضمير ، وهواجس الصدور ، استنامتي إلى كرم نواحيك ، وثقتي بشرف مناحيك ، واغتباطي بما أُحكِمَ بيننا من نظامِ التآلف، وَرُفِعَ لنا من أعلامِ التعارف ؛ واجتليتُ من مختَم الكتاب سلامَ الوزير الكاتب ناثرِ درره ،

. .

١ زاد في د : تعالى .

٢ م : يملكك .

٣ م : الاجلال .

٤ الميعاس : الأرض التي توطأ ، وفي القول اشارة إلى بيت أبي تمام (الديوان ٢: ٢٢٤) :

بكر إذا ابتسمت أراك وميضها نور الأقاح برملة ميعاس

ويروى : نور الأقاحي في ثرى ميعاس .

وراقم حبره ، ولك الفضلُ في إبلاغه من تحيّي ما يُضاهي تنفُّسَ الأزهار ، في وجوه الأسحار .

وكتب معتنياً بأحد الأدباء الشعراء : لئن كانت الأيام – أعزّك الله – قد قلَّصَتْ أذيالَ أحوالك ، وسلَّطَتْ هجيرَها على بَرْدِ ظلالك ، وكدَّرَتْ بأقذاءِ صرُوفها صَفْوَ زُلالك ، فما استلانتْ نَبْعَكَ ، ولا أحالَتْ عن عادةِ الجميل طَبْعَكَ ، ولا عَفَتْ في منازلِ السَّناءِ والثناء رَبْعَكَ ، فقد يجري الجوادُ وهو منكوب ، ويتجمَّلُ[1] الحرُّ وبه ندوب ، والله تعالى يجبرُ الصّدْعَ ، ويُجْمِلُ الصُّنْعَ ، بعزته .

ويتأدَّى من يد فلان ، وفي علمك ما دُهِـي به وطنُهُ من خطوب الزمن ، وضروب المحن ، وتقلّب عُبّاد الوثن ، ودفعته الضرورةُ إلى استرفاد الأحرار ، والتكسُّب بالأشعار ، وهو ممن يتصرَّفُ في الصناعة بلسانِ صنع ، ويأوي فيها إلى طَبْع غير طَبع ، وله في قبول عفو المنيل إجمالٌ ، وعنده في شكر العُرْف المختصر احتفال .

ولما عرف ما بيننا من عهدٍ لا يفارقُ نصابَه كَرَمٌ ، ولا يلحقُ شبابَهُ هَرَمٌ ، اتخذ خطابي هذا عنوانَ شعره ، ولسانَ أمره ، ودليلاً على موضعه ، ومشيراً إلى مقصده ومنزعه ، وأنت بِسَرْوكَ تصدِّقُ أمله ، وتبيِّضُ وَجْهَ [٦٠ أ] الصنيعة قِبَلَهُ .

وله من أخرى في مثله : العهدُ وإنْ قَدُمَتْ أحكامه ، وسلفت[2] أيامه ،

---

١ م : ويحتمل .
٢ م : واسلفت ؛ س : واستلفت .

إذا استجدّ عاد جديداً، ونشأ حميداً ، لاسيما إذا غُرس في تربة وفاء ، وَسُقِيَ بنطفة صفاء ، وتردَّدَ في نِصاب كرم ، وتشبّثَ بأطناب ذمم ؛ وكان بين سلفنا ما لا يُنْسى ماضيه ، وإن خَلَتْ لياليه، ولا يُهْجَرُ حَسَنُهُ ، وإن بَعُدَ زَمَنُهُ ، وإنَّهُ لمسطورٌ في صحيفة تذكّري ، وملحوظٌ بعين تصوُّري ، ولئن لم يجمعنا مكانٌ ، ولا سَلَفَ للمداخلة عنوان ، فإن ذلك غيرُ قادحٍ في الضمير ، ولا مكدِّرٌ من العذب النمير .

وموصلُهُ فلان ،نشأةُ نعمتك ، توسّمَ رعايتك لها فسألها ، وتخيّلَ تحفّيْكَ بنواحيها فرغب فيها ، وما أجَبْتُهُ إليها إلا وقد علمت أنك تُشَفِّعُ شفيعَها ، وتؤثرُ ترفيعها ، وبوروده عليك تجتلي وَجْهَ منزعه ومذهبه، وتقفُ[1] على جليّة أمله ومطلبه ، وأنت بفضلك تصدّقُ مخيلتَهُ ، وتراعي وسيلته ، وتتجمّلُ معه ، وتضعُ العُرْفَ موضعه ، مقتضياً بذلك من شكري أبْرَعَهُ ، ومن ذكري أطيَبَهُ وأضْوَعَهُ .

ومن أخرى في مثله : أمّا وَكَنَفُكَ وَساع ، وشرفُكَ يَفَاع ، والتحدثُ بتدفق أدبك ونشبك إجماع ، فلا غَرْوَ أن تُقْصَدُ بِتُحَف القصيد ، وَتُطْوى نحوك صُحُفُ البيد ، ويجري من يعتمدك في مضمار تأميلك إلى الأمر البعيد ، لا سيّما مَن قد اعتمدك، فأحْمَدَكَ وانتقدك ، كفلان ، فإنه رتع في برك ، واكتحل برهةً بِبِشرِكَ ، واشتمل بضافي عطافك ، وكرعَ في صافي نطافك ، فهو إذا عَدَّ غُرَرَ العصر ولمَعَ الدهر ، بدأ بذكركَ وختَم ، وطار في جوّك وَجثَم ، وله في نشر المحاسن والفضائل لسانٌ ذَرِبٌ ، وعنده في شكر الصنائع والودائع مقام[2] درب، ولما عضّه العُسرُ ،

---

١ في النسخ : يجتلي . . . ويقف .

٢ مقام : سقطت من م .

ومسّهُ الضرّ ، وجب أن ينتجعَ جَنابَكَ ، ويستمطرَ سحابك ، ويؤمّ فِناءَكَ ، ويحبّرَ ثناءَكَ ، وهو بانتحائك مسرورٌ ، وبين يديه من رجائِكَ نُور ، وقد سفرله قناعُ السّفَر ، عن أسرّة الظفر ، وجُليَتْ عليه صورةُ الأمل ، في معارض النصّ والزّمَل ، فما أجْدَرَهُ بأن يجدَ ظلّكَ سجسجاً ، ومحلك منبجاً[1] ، ويجتني رُباكَ غَضّةَ النّوْر والزّهَر ، ويثني عن مشْرَب نداكَ حامدَ الورْد والصّدَر ؛ لا زال مقرُّك معتمدَ الزوّار ، ومنزعَ الأجرار ، ومُحَصّبَ جمار الأشعار .

وله من أخرى في مثل ذلك : كتبتُ عن كلال ذهنٍ ، واتصال وَهْنٍ ، وركود خَلَدٍ ، وفتور جلد ، لتردّدي في أذيال العلّة التي عرفت صفتها ، واجتليتَ من خطابي المتقدّم صورتَها ، ولا مزيدَ على ما عندي من الإجمال لذكرك ، والاحتفال في شكرك ، والتسحب[2] على حواشي مجدك ، والانحطاط في غَوْركَ ونجدك .

ومُوصِلُهُ فلان ، لم يتّفِقْ له في غير الجهة الحالية بك أمَلٌ ، ولا اعتلق به في سواها عَمَلٌ ، فحنّ إلى ما عهده فيها من حُسْن رائك ، وكريم اعتنائك ، ورُحْب جَنَابك وَخِصْب فِنائك ، واستنهض مخاطبتي لتبوّئَهُ تحت ظلك كَنَفاً ، وتؤكّدَ له سبباً مُؤتَنَفاً .

..

١ إشارة إلى قول البحتري (ديوانه ٤٠٥) :

لا أنسين زمناً لديك مهذباً وظلال عيش كان عندك سجسج
في نعمة أوطنتها وأقمت في أفيائها فكأنني في منبج

٢ م ط س : والشحب ؛ د : والشخب .

وله من أخرى : كتبت وريحانُ العهد يَنْدَى بمائه ، ويتأوَّدُ في غُلَوائه ، لم يلمَّ به مع القدم ذبولٌ ، ولا انسحب عليه للزمن ذيول ، وكيف لا يرف ورَقُهُ ، وينم عَبَقُهُ ، وفي روض وفائكَ يرتعُ أسحاراً وأصُلاً ، ومن ثَغَبِ[1] صفائكَ يشربُ عَلَلاً ونَهلاً ، ولذلك ما يقعُ الإعتابُ بالخطاب ، ويُجتَزَى بتناجي القلوب وتصافي الغيوب عن الكتاب ؛ والله يُبْقي ما بيننا معقوداً بذوائب النجوم ، محجوباً عن كُلْفَة العبوس والوجوم ،

وفلان لم يجدْ من ذلك الأفق بَدَلاً ، ولا غرس في سواه أملاً ، ولا ألفى[2] في تربةٍ غيره ثرىً ولا بللاً ، فعاد إليه يحمدُ عهدَهُ ، ويذمّ ما لقيَ بعده ، وسألني مخاطبتك بهذه الحروف ، ليتزيَّدَ بها من رأيك الشريف وفضلك المعروف .

وله في مثله إلى الفقيه أبي القاسم ابن المناصف[3] بقرطبة : أما وأحاديثُ فضلِكَ صحيحةُ الإسناد ، وأدلّةُ سَرْوِكَ مزَلَّةُ العناد ، ومَطالبُ علمك وفهمك ساطعةُ الأنوار [٦٠ أ] ومناهجُ هَدْيِكَ وسعيك واضحة الصّوى والمنار ، فلا عَجَبَ أن تحومَ على شرعةِ مداخلتك حوائمُ الألبابِ ، وتَنْتَهِزَ في التماسِ مواصلتك فُرَصُ الدّواعي والأسباب . ولم أزلْ أولعُ برائقِ صفاتك ، وألتمسُ سببَ معرفتك ، حرصاً على التجمل بخلّتِك ، ورغبةً في التيمُّن بصلتك ، لأنك – والله يبقيك – أحقُّ من احتُذِيَ على

١ الثغب : الغدير .
٢ ط م د : ألقى .
٣ بنو المناصف كثيرون ترجم لبعضهم ابن الأبار في التكملة وابن سعيد في المغرب ، ولم أجد من بينهم من كنيته أبو القاسم .

مثاله، واقْتَدَيَ بصالح أعماله، واستقريتْ آثارُ البرِّ من مواقع خطاه، وانتُسختَ[1] أخبارُ الزهدِ والقَصْدِ من صحائف هداه، وأحْرِ بمن اتَّخذكَ صاحباً، وسلك من سبلك أثراً لاحباً، أن يأمنَ في جَدَدِ مسالكك العثار، ويَعْدَمَ في جوارك[2] نَقْعَ الفِتَن المثار، والله يبقيك لأشتات الفضائل نظاماً، وفي كل صالحة إماماً، ويوسعُ النعمة بك وفيك سُبوغاً وتماماً.

ولما اتفق شخوصُ فلان إلى الحضرة، وعلمتُ أنَّ انجذابه إلى جنباتك، ووعيتُ عنه جملاً حساناً من صفاتك، رأيتُ أن أصْحِبَهُ خطاباً، وأمدَّ في ساحة الانتظام بك أطناباً، حرصاً على أن يتأكد في ذات الله إخاؤنا، وتتفقَ في سُبُلِ مَرْضَاته وطرقِ طاعتِهِ أنحاؤنا؛ وحمَّلتُهُ مع ذلك من لطائمِ الحمد، ونخائلِ الودّ، ما إذا أعرْتَهُ ناظرَيْ تأمُّلكَ، وصادقَ تخيُّلِك، علمتَ به خُلوصَ ضميري، وصفاءَ نميري، وسلامةَ عهودي، ودماثة تهائمي ونجودي.

وهذا الرجلُ يشكرُ إجمالك معه شُكْرَ رَوْضِ الحَزْنِ، لعارفةِ المزنِ، ويودُّ أنْ يستظهرَ على ذلك بكلّ لسان، ويستنجزَ فيه كلَّ ناءٍ ودان[3]، وقد جاريتُهُ في مضمارِ شكرك طَلَقاً، وسعيتُ معه في ميدانِ الثناء عليك خبباً وعَنَقاً، فبيني وبينه من شابك القُربى، ما يقتضي أن آخذَ من مشاركتك له بالقسمِ الأوفى والسَّهْمِ الأعلى؛ وقد عرفتَ ما مُنيَ به من عضّ الزمان، ومَسّ الحرمانِ، ورأى أن يصرفَ وَجْهَ هِمَّتِهِ إلى تلك الحضرة ليدركَ بها أملاً، ويعلقَ من أعمالها عملاً، ومُعَوَّلُهُ في موارده ومصادره عليك،

---

١ د واستنسخت.

٢ خ بهامش ط: جوادك.

٣ م وداں.

ونظرُهُ في مطامح أغراضه وألحاظه إليك، وأنت بمجدك تسدّدُ سَهْمَهُ، وتؤيّدُ عزْمَهُ ؛ متمّماً يَدَكَ البيضاءَ، وَمُتْبِعاً دَلْوَكَ الرِّشاءَ[1] .

وله في مثله إلى الفقيه القاضي بها : إن كانت المداخلةُ بيننا لم يفتح[2] لها بابٌ ، ولا عَلِقَتْ بها أسبابٌ ، ولا رُمِيَ لنا في مُحَصَّبها جمار ، ولا عَطَفَ بنا نحو كعبتها اعتمار ، فقد جمعتنا في مُعَرَّفِ المعرفةِ مواقفُ ، وضمَّتنا من معالم العلم معاهدُ ومآلفُ ، ووشجَتْ بيننا من أواصرِ الأدب أنسابٌ ، وضُرِبَتْ علينا في مدارجِ الطلب قبابٌ ، ولا غرو من تداني القلوبِ على تنائي الديار ، وائتلافِ النفوسِ مع اختلاف النِّجار ، فقد يتعارفُ الأندادُ على البعاد ، ويتناكرُ الأضدادُ مع قُرْبِ السَّوادِ والوساد[3]، وربّما ألِفَ تشاكُلُ الشِّيم والأخلاق ، بين مستوطنِ الشام وساكنِ العراق ، ودأباً حنَّ زهرُ الغَوْرِ إلى نسيم نجد ، وامتزج عنبرُ الشحر بمسكِ الهند . على أني لا أدَّعي رُتْبَتَكَ في فنونِ العلم والآداب ، ولا أتعاطى صحبتك إلا بشرط الانقياد والإصحاب ، ومن يضاهي محلَّ الفرقد ، بمنبت الغرقد ، أو يشبّه رتبةَ التقليد، بدرجة النظر والتوليد ، أو يقرنُ[4] بين الالتباس والبيان، ويعارضُ قوَّةَ القياسِ بضعف الاستحسان ؟! لكنّي وإن لم أعَدَّ في رعيلك، ولا أضيفَ مُبْرَمي إلى سَحيلك ، فعندي من بضائع الكَلِمِ ما يَنْفُقُ في

١ من قول قيس بن الخطيم : (الديوان : ٤) :

إذا ما اصطبحت أربعاً خط مئزري واتبعت دلوي في السماح رشاءها

٢ م ط : يفرج ، س : يبوح .

٣ السواد – بكسر السين – السرار ؛ وقيل لابنة الخس . ما أغراك بعبدك ؟ قالت : طول السواد وقرب الوساد (الحيوان ١ : ١٦٩) .

٤ م ط د س : يفرق .

سُوقِكَ ، ولديَّ من سوامي الهمم ما يَعْبَقُ بسُوقِكَ ، ولعلَّ بعض كلامي يسجدُ في ذراك ، ويحظى برضاك[1] ، ويصادف عندك رأياً جميلاً ، ويستوقفُ لحظك ولو قليلاً ، بقيتَ حليةً للدهرِ فائقةً ، وغرةً في وجه الزهر رائقة .

ولما علم فلان ، أنَّ القيمَ عندك بحسب الإنسان ، وأعلى قدر تصرُّفِ اليد واللسان ، وأنَّ أحظَى ما قُرِعَ به بابُكَ ، ورُفع له حجابُكَ ، رقعةٌ تشيرُ بها إلى علمٍ وأدب ، ولا يُخيلُ بوجهها وشمُ ندب ، استنهضني شفيعاً ، فأجبته سريعاً ، حرصاً على المداخلة أسِمُ غُفْلها ، والمواصلةِ أفتحُ قُفْلَها ، ورغبةً في مشاركةِ الرجل المذكور ولو بشفاعةِ الكلام ، وسفارةِ الأقلام ، فبيني وبينه نسبٌ موصول ، وثرىً مبلول ، وآصرةُ رَحم ، وعاطفةُ سهم .

وكان له بتلك الحضرة النيِّرة بعدلك فيما سلف ظهور ، وتصرُّفٌ [٦١ أ] مشهور ، ثم ألقت عليه العَطْلَةُ ثِقْلَ جرانها ، وجَرَتْ به ملءَ عنانِها ، حتى انتسفتْ ما كان بيده ، وحلّتْ جميعَ عُقَدِه ، وقد دفعته الأيام إلى جميل نظرك ، وطيب مَكْسرك ؛ وهو بكرم الصنيعة خليقٌ ، ولحمل المننِ مطيق ، وغرضُهُ أنْ يُصَرِّفَ في بعضِ وجوهِ العمل ، ويختبر حاله في الشدّ والرَّمَل[2] ، وأنت بمجدك تفرضُ له من شَرَفِ عنايتك نصيباً ، وتوليه من رعايتك وجهاً خصيباً ؛ وما أسديتَ إليه فلي فيه مَفْخَر ، وهو عند الله مُدّخرٌ ، واللهُ يبقيكَ للحسنات تُعْرِس بأبكارها ، والمأثرات تخلّد كَرَمَ آثارها ، بمنه.

وله من أخرى يشفع لبعض[3] الشعراء: لا عرو أن يقصدك — أثّلَ اللهُ

[1] م : بمرضاك .
[2] الرمل : نوع من العدو ، وفي ط الرمل ، وهو أيضاً نوع من العدو
[3] م ط س إلى ببعض

سُؤدَدَكَ ــ مُهْدِي حَمْدٍ ، ومقتضي رِفْدٍ ، ويلمّ بك مستوجبُ معروف ، ومُعاني صروف ، فقديماً غُشِيَتْ منازلُ الكرماء[1] ، وثبّيت[2] فضائل العلماء ، وَهُزّتْ أعطافُ الكبراء ، بنغم الثناء والإطراء ، وقد أصغى إلى الأشعار ، جِلّةُ الأخيار ، وأثابَ على المديح ، مَنْ بَعُدَ عن التجريح . ومثلُكَ سلك تلك السبيلَ ، وآثر الجميل ، وراعى التأميل .

وموصلُه ــ وصل الله اعتلاءك ، وحرس أرجاءك ــ فلان ، وهو ممّن اضطره كَلَبُ الحرمان ، ونُوبُ الزمان ، إلى اعتماد الكرام واسترفاد الأعيان ، وله من صناعة القريض ، وبضاعة التفريض ، حظٌّ موفور ، وعنده لأوْجُهِ الصنائع إذا برقعها الكفور ، ظهورٌ وسفور ، وقد قصد تلك الجهة فيما سلف منتجعاً ، وارتضع من أفاويقِ دِرّها جُرعاً ، وما عدم منك تنويلاً ، ورأياً جميلاً ، لكنّ العود أحمدُ ، وربُّ العُرْفِ أوجب وأوكد ، ولا يَذْهَبُ العرفُ بين الله والناس[3] ، وليس ممّن يسألُ شَططاً ، ويتعسّفُ غلطاً ، وإنّه ليتبلّغُ بالنسيم ، ويستنجزُ الوعدَ بالتسليم ، وَحَسْبُهُ ما يَرْقَعُ[4] جانبَ خَلّته ، وينقعُ بعضَ غُلّتِهِ ، وأنت بفضلك تُشْفِقُ لما مُنِيَ به من الاغتراب والاضطراب ، وتحافظ على ما قِبلَهُ من الوسائل والأسباب .

....

١ من قول بشار (ديوانه : ١٥) :

بسقط الطير حيث ينتثر الحب وتغشى منازل الكرماء

٢ ثبيت : مدحت ونالها الثناء .

٣ من قول الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

٤ ط م د : يرقع .

وله من أخرى إلى الفقيه أبي الحسن ابن الأخضر[1] : إذا كان عهدُ الإخاء ممَّا رقمته[2] يدُ الطلب ، في صفحةِ الأدب ، لم يتَنْسَخ له الدهرُ حُكْماً . ولا أحالَ الزمنُ منه رَسْماً، بل يتجدَّدُ على تقادم الأحقاب ، ويتردَّدُ أبداً في عصر الشباب ، وإنما هو في الحقيقة نَسَبٌ لا يخفى ، ورحمٌ لا يجفُّ له ثرى ، وذمامٌ تُثْنَى عليه الخناصر ، والتحامٌ تشيرُ إليه الأواصر ، فالأديبُ صِنْوُ الأديب ، وكفى بتمازج القلوب . وفي علمك ما سَلَفَ بيننا من العهد ، المزري حُسْنُهُ بزمنِ الورد ، سقاه الله صَوْبَ العهاد ، ولا زال مُخْضَرَّ المَراد ، فما كان إلا غُرَّةً انتَهزَتْ من تهاتف[3] البيض الغرائر ، ولمعةً كأنما اقتبستْ في تضاحكِ الترائب تحت سود الغدائر .

ولما علم فلان . حليفُ شكرِك ، وأليفُ بِرِّكَ ، ما بيننا من المناسبِ الروحانية ، والمذاهب الأدبية ، استنهضني لشكر ما خَصَصْتَهُ له من تقريب محلٍّ ، وتخفيف كَلٍّ ، فنهضتُ في ذلك نهوضَ المبدي المعيد ، واحتبيتُ برداءِ الثناء عليك في المحفلِ المشهود، وسرَّني كونُ هذا الفتى الدميثِ الخليقة ، السديدِ الطريقة، من أنشاء تخريجك وتفهيمك، وأغصانِ تثقيفك وتقويمك ، فإنه ممن يتصوَّرُ مقدارَ ما تُسدي إليه ، ويفي بِصَوْنِ ما تُودِعهُ لديه ، وليس كلُّ من أوليَ جميلاً يشكُر ، ولا كلُّ شجرٍ وإن سُقِيَ يُثْمِر ، وأنت بِسَرْوِكَ توسعُ قريحتَهُ ذكاء ، وصحيفته[4] جلاء ، حتى يخلص خلوصَ

... ...

١ هو علي بن عبد الرحمن بن مهدي التنوخي من أهل اشبيلية (- ٥١٤) ، كان من أهل المعرفة بالآداب واللغة حافظاً لهما (الصلة : ٤٠٤) .

٢ م : رمقته .

٣ م ط : تهايف ؛ س : تهالف ، وهي غير واضحة تماماً في م .

٤ لعل الصواب : وصفحته .

الذهب ، ويتخصّص بحلية الأدب ، مُحرِزاً في ذلك ذكراً يَشيعُ خبره، ويفوحُ عنبرُهُ ، والله يُبقيك لهذا الشان تُذيعُ أسراره ، وترفعُ منارَهُ ، بعزته .

وله من أخرى عنايةً بأحد الأدباء الشعراء : مَنْ دفعَتْه الأيام – أعزّك الله – إلى التقلبِ في الأقطار ، والتكسب بالأشعار ، لم يَخْفَ عليه مواضع الأحرار ، في النجودِ والأغوار . على أنّ رسْم الشعر قد درس أو كاد ، ومرتاد البرّ قد عَدِم المُراد والمَراد[1] ؛ إلاّ أنّ صاحب هذا الشأن لا بد أن يتصرف، أنجح أو أخفق ، ويتسوّق[2] كسد أو نفق .

وممن دخل ذلك الصقع[3] فأحْمَدَه ، وتخيل يُمْنَ معاودته [٦١ ب] فاعتمده ، فلان، وله في صَنْعَةِ القريضِ باعٌ، وبشكرِ ما يوالاه اضطلاع، وبين فكّيه[4] لسانٌ كشقّةِ مبرد ، أو ظُبَةِ حسامٍ فرد، ولما كنتَ – أعزّك الله – مقدّماً في أعلامِ مصرك ، وأعيان عصرك ، وعَلِمَ ما بيننا من سهمِ الودادِ ، وكرمِ الاعتداد، سألني مخاطبتك راغباً في أن تسدّد له هنالك غرضاً، وتسهّلَ من حياضِ أمله فُرَضاً[5]، وترفعَ له في سبيل التزكيةِ مناراً، وتقلّده من صَوْغِ التحليةِ طَوْقاً وَسواراً، فأجبتُه لما يمتّ به إليّ من وكيدِ ذمامٍ ،

---

١ د : المرام .
٢ م س : وتسوق ؛ ط : وسوق .
٣ م ط : الصنع .
٤ د : شدقيه .
٥ فرضاً . سقطت من ط م س .

وحميدِ إلمام ، والثقة بنزول رغبتي لديك على طَرَفِ ثُمام [1] ، وشرفِ اهتمام . وأنت بسَرْوِكَ تُدنيه من كَنَفَيْ قبولك وإقبالك ، ولا تُخْليه من الأُنسِ بتهمّمك واهتبالك ، حتى يصدر وهجيراه شُكْرِ إجمالكَ ، ونشر صنيعة من جاهك أو مالك ، ان شاء الله .

وله من أخرى في مثله : مَنْ عَهِدَ ـ أعزّك الله ـ أُنسَ فِنائك ، وَحُسْنَ اعتنائك ، وألفَ بَرْدَ أفيائكَ ، ولينَ أرجائك ، لم يحبسْه عنكَ سَكَنٌ ولا وطن ، ولا لذّ له في غير حجْركَ وظلّك وَسَنٌ ، فَمُولي الجميلِ محبوبٌ ، ومكان الأُنسِ مطلوب ، والنفوس على علمك تلتمس الرجحان [2] ، وتعتمد الفضلَ حيث كان .

وفلان ، ممّن قيّده إحسانُكَ ، واستعبده امتنانك ، فهو لا يَعْدِل بك أحداً ، ولا يحلُّ عن عصمةِ تأميلك يداً ، فإذا بَعُدَ عن جنابك لم يَسُغْ له قرار ، ولا اطمأنّتْ به دار ، وقد بعثه صدْق الانقطاعِ إليك على حَسْمِ العُلَقِ الموجبة لبعده عن ظلّ جناحك ، وأُنسِ التماحك ، ولم يبقَ له في غير مكانك سَبَبٌ [3] يَجْذِبُه ، ولا أملٌ يصدقه أو يكذبه ، وأنت بمجدك توالي اصطناعَه ، وتراعي انقطاعَه ، وتلحظ بعينِ تهمُّمكَ ضياعه .

. ..

١ العرب تقول للشيء الذي لا يعسر تناوله هو على طرف الثمام ، والثمام نبت لا يطول ولهذا لا يشق تناوله ؛ وفي النسخ : تمام .

٢ م : الرهان .

٣ د : سبب .

وله فصل من جواب خاطب به بعضَ الأدباء الشّعراء : وردتني لك قطعتان من القريض، كقطع الروض ِ الأريض، أو نَغَم ِ مَعْبَد ٍ والغريض، تبسّمتا عن ثغرٍ وفاء، وأهدتا إلي رَوْحَ شفاء، فأشعلت بذكرِ تهممّك جمراً، ووضعتُ عليه من ثنائي ندّاً وعنبراً ، ورأيت ما ذكرتَه من إزماعك على الرحيل ، واستجماعِك َ لركوب ظَهْرِ السبيل ، فاسترجعت بذكرِ البين ، ما وهبت من أنْس ِ السّعْدَين ، والله يردُّ ذلك الصعبَ ذلولاً ، والحزْنَ سُهولاً ، ولا يعدمك ممّن ترجوه ترحيباً وتسهيلاً .

وله أيضاً من جواب على كتاب في مثله : تكلفت المراجعة وحسيُّ القريحة مَثْمودٌ ، وفي جوِّ الذهن ِ ركودٌ وجمود ، وبين أثناء الضمائر خُطوب مُثُولٌ ، وفي صفائح الخواطر ثلومٌ[1] وفلول ، وما قصدتُ معارضةَ التبريزِ بالتقصير ، ولا حاولتُ مناهضةَ الخطوِ الوّساع ِ بالباع القصير ، وإني لمن ينصفُ ويعترف ، ويرى مدى السابق ِ فيقف ، ولستُ ممّنْ يجهلُ فَضْلَ ما بين النَّبْع ِ والغَرَب ِ ، ويذهلُ عن فرق ِ ما بين الشَّبَه ِ والذهب ، على أنّ عذري في الصناعة مقبول ، وذنبي في ساحة القريض محمول ، فانّي لم أقرعْ له باباً ، ولا شددتُ به عِصاباً ، وإنما يُعَدُّ من أهله ، مَنْ سَلَكَ مضايقَ سُبُلِه ، ويُكْتَبُ في فرسانه ، مَنْ تَصرَّفَ في ميدانه .

---

١ ط م : ثلم .

ومن رسائله في التعزيات

نسخة رقعةٍ كتب بها إلى الوزير الفقيه أبي القاسم الهوزني[1] يعزّيه عن أخيه :

لا بدّ من فقدٍ ومن فاقد هيهات ما في الناسِ من خالد[2]
كن المعزّى لا المعزّى به إنْ كان لا بدّ من الواحد

إذا لم يكنْ بدٌّ من تجرُّعِ الحمام ، وتشتُّتِ النظام ، وانصداع شَمْلِ الكرام، فمن الاتفاق السعيد، والقَدَرِ الحميد، أن يرثَ أعمارَ البيتة الكريمة مُشَيِّدُ علاها،وتَسْلَمَ من القلادةِ وسطاها، فمدارُ الكفاية على مَعَلاّها، وفخارُ الحلبةِ بِمُحْرِزِ مداها . وفي هذه النبذة إشارةٌ إلى مَنْ فَرَطَ من الإخوة الفضلاء، وَدرج من السّادةِ النُّجباء، فإنهم وإن كانوا فيرتبةِ الفضلِ صدوراً ، وغَدوا في سماء النبلِ بدوراً، فان شمس علائك أبهرُ أضواء وأزهرُ أنواراً ، وظلّ جنابك على بنيهم ومُخلّفيهم أندى آصالاً وأبردُ أسحاراً [٦٢أ] .

ونعي إليّ — أوشك الله سُلوانَك ، ولا أخلى من شخصك الكريم مكانك — الوزيرأبو فلان — بَرّد الله ثراه وأكرم مثواه — فكأنما طَعَنَ ناعيه في كبدي، وظعن باكيه بذخيرة خَلَدي، لاجرم أني دُفِعْتُ إلى غمرةٍ من

---

١ هو الحسن بن عمر الهوزني الاشبيلي (٤٣٥ — ٥١٢)وقد مر التعريف به فيما تقدم ص: ٢٩١.
٢ البيتان لأبي فراس الحمداني ، ديوانه : ٧١ واليتيمة ١ : ٥٢٣ في تعزية سيف الدولة ، وقد وردا في القسم الثالث : ٢٢٥ ونسبا في محاضرات الأدباء لأبي نواس ، وذلك تصحيف .

التلدُّدِ لو صُدِم بها النجمُ لحار ، أو دُهِم بمثلها الحزمُ لخار . ثم ثابتْ إليَّ نفسي وقد وقذَها الجزَعُ ، وعضَّها الوجَعُ . فأطلْتُ الاسترجاعَ . وجمعتُ الجلَدَ الشَّعاعَ . وها أنا عند الله أحتسبه جماعَ فضائل ، وجمالَ محافل ، وحديقةَ مكارم صَوَّحَتْ ، وصحيفة محاسنَ دَرَسَتْ وامَّحتْ .
وما اقتصرتُ من رسم التعزية المألوفِ ، على القليل المحذوف . إلا لعلمي بأن المعزّي لا يوردُ عليكَ غريباً ، ولا يُسْمِعُكَ من موعظة عجيباً . فبك يَقْتَدي اللبيبُ . وعلى مثالِكَ يحتذي الأديب ، وإلى غرضِكَ في كلِّ موطنٍ يَرْمي المصيب ، وفي تجافي الأقدار عن حَوبائك . وسقوطِها دونَ فِنائك ، ما يدعو إلى حُسْنِ العزاءِ ، ويهوِّنُ جلائلَ الأرزاء . لا صَدَعَ الله جَمْعَكَ ، ولا قَرَعَ بنبأةِ المكروه سمعك ، بعزَّته .

وله من أخرى في مثله : وردني — أعزَّك الله ، وأشعرك الصبرَ لما قضاه — خطابُكَ الخطير ، فاستقبلني أوَّلُهُ بشرٍ وسيم . وبرٍّ جسيم . وتلقاني آخره بوجهٍ شتيم ، ورزءٍ أليم . فيا قُرْبَ ما انصرفتُ عن نهجِ الاستبشار ، إلى سَمْتِ الاعتبار والاستعبار ، وانقلبتُ من مطالعةِ صفحة العَهْدِ الواضحة ، إلى ملاحظةِ صورة الوجد الكالحة ، فما وقع سانحُ البشرى . حتّى أطاره بارحُ المنعى ولا افتر ثَغْرُ النُّعْمى ، حتّى اكفهرَّ وَجْهُ البوسى ؛ بما ختمتَ به الكتاب الكريم ، وكان أحقَّ بالتقديم ، من ذكرِ وفاةِ الحسيب الأديب ، أخيك ، ومحلُّ صِنْوي ، كان — رحمه الله ، وألحقَهُ رضاه — فيا له رزءاً ، حمَّلني عبئاً ، ومصاباً ، جرَّعني صاباً ، وعند الله أحتسبه جُمْلَةَ عفافٍ ، وبقية أشراف .

ومما أوقد لوعتي ، وأكدَ روعتي ، أنْ دَرَجَ وللشباب عليه سرْبال .

وللأمَل في تراخي مُدَّته مَجال . فاغتباطُ النفوس أفجع[1] ، وبَغْتُ المقادير أوجع[2] وأشْنَع ، وهي الآجال : فمعمَّرٌ إلى أقصاها، ومختضرٌ[3] دون مداها، ولا يزال المؤجَّلُ تُتَحيَّفُ نواحيه ، وتختطفُ أدانيه ، ويُفْجَعُ بأحبابه ، ويُرَوَّع بأترابه ، حتى يكونَ هو للغرضَ المصاب ، والمحلَّ المنتاب ، والسوادَ المختَرمَ ، والخيالَ المستقدم . فمن تصوَّرَ الدنيا تصوُّرَكَ ، وأوسعها تَدبُّرَكَ ، لم يَرُعْهُ هاجمُ كرب وإنْ كَلَحَ وجلح ، ولاهزَّهُ واقعُ خطبٍ وإن طمح وجمح . ولعلمي بمضاء جَنانك ، على مصادرة زمانك ، واتِّساعِ صدرك ، لمضايقةِ دهرك ، سَلكتُ في التعزية مَسْلكَ التخفيف ، واقتصرتُ من معاني التسلية على اليسير اللطيف ، ولو شهدتُ لحملتُ عنك بعضَ الأتراح . وشاركتُ في زيارةِ الغدوِّ والرَّواح ، والله يعوضُكَ العزاء الجميلَ ، ويُضْفي على ساقته[4] — جبرها الله — ظلَّكَ الظليلَ ، ويديمَ إمتاعَكَ بمن بقيَ معك من أخٍ كريم ، وقريبٍ حميم ، بعزَّته .

وله من أخرى في مثله : مِحَنُ الدنيا — وَسَّعَ الله لاحتمالها ذَرْعَكَ ، وأنَّسَ في إيحاشها رَبْعَكَ — ضروب ، ولسانُ العِبَرِ بها خطيب ، ونوائبها أطوار وفنون ، ومصائبُها أبكار وَعُونٌ ، والمرءُ غَرَض لأخيافِ سهامها . ومعرضٌ لاختلافِ أحكامها ، فان أخطأه منها صائبُ الحمام ، وتخطَّاه واثبُ الاخترام ، رَشَقَتْهُ بنبلِ أرزائها ، وطرقَتْهُ بِمُعْضلِ أدوائها ،

---

١ م س د ط : أدهج .
٢ د ط : أشنع ، س : أشنع وأوجع .
٣ ط م د س : ومختصر .
٤ الساقة : مؤخرة الجيش ، والمقصود هنا — فيما يبدو — من خلفهم الفقيد بعد موته من أبناء يحتاجون إلى رعاية . وانظر ما تقدم ص ١٢٠ .

وَعَرَقَتْهُ بِعُصَلِ أنيابها ، وأشرَقَتْهُ بِمُرِّ شرابها، وأودعته من صنوف التصاريف آلاماً[1] وأوصاباً ، وجرَّعته من فراقِ الأحبَّة صبراً وصاباً؛ فمن فهِمَ معاني صروفها فَهْمَكَ ، وعجم عُودَ خطوبها[2] عَجْمَكَ ، لم يتضعضع منه لصدمتها[3] جَلَدٌ ، ولا تروَّعَ له عند ظلمتها خَلَدٌ ، ولا شُقَّتْ لِصَبْرِهِ في مآتمها[4] جيوب ، ولا طار بقلبه في ملاحمها وجيب ، بل وجدته مُشَيَّعَ[5] الجنانِ ،ثابتَ الأركانِ ،متهلل الجبين،مُشرقَ اليقين،مُتَّسِعَ الجوانب ، لزحامِ النوائب ، مستقلاً الكاهل ، بأعباءِ النوازل .

فلئن نفذَ القدرُ بوفاةِ من كنتَ تأنسُ[6] بحياتها ، وتتيمَّنُ على القرب والبعد بيمنِ صَلاتها وصِلاتها ، وتضاعفَ الوجدُ بما افترق من فرقة المنون ، وحرقة [٦٢ ب] النَّوى الشَّطون ، وانتظم من شحط المزار ، ونفوذ حتْمِ المقدار ، ففي تجلُّدك لتحامُلِ الخطبين محتمل ، ولتصبُّركَ في سوم الخطَّتين تصرُّفٌ وعمل ، وبجسيم عظيم المصاب ، وكرم الاحتساب ، يكون حُسْنُ الثواب ، ويُمْنُ المآب ، فللرزايا قيمٌ وأثمان ، وللحسنات في موازنتها[7] خفوفٌ ورجحان ، فلا تمكِّنْ من يدِ الجَزَعِ مَقَادَكَ ، ولا تُسْكِنْ زفرةَ الأسَفِ فؤادَكَ ، واعتصمْ عند الصَّدمَةِ الأولى بِعروَةِ الصبر

١ ط س . آمالا .
٢ م : خطبها .
٣ م ط س : لصدمها .
٤ م : لعبرة نمائمها ، س . مأتمها .
٥ المشيع : الشجاع لأن قلبه لا يخذله .
٦ زاد في ط د : به .
٧ ط م س : موازنها .

الوثقى ، وتجنّبْ ما يقدحُ في كَرَمِ النّصابِ ، ويقبح عند ذوي الألباب ، واحتسب فقيدتك – قدّس الله روحها ، وأنّس ضريحها – حديقة أنس ، نُقِلَتْ إلى جنّة قدس ، وذخيرةَ إيمان ، ضُمّنَتْ أكرمَ صِوانٍ ، ولا تذهبْ نَفْسَكَ حسراتٍ ، ولا يتدارك نَفَسُكَ زفراتٍ :

فقد فارق الناسُ الأحبّةَ قبلنا وأعيا دواءُ الموتِ كلَّ طبيب[1]

وإذا كنا أهدافَ المنايا ، وأخلافَ الرزايا ، وأبناءَ الأحلام ، وأنداء الغمام ، فأيُّ معنىً في الجزع على مَنْ فَرَط ، والتوجُّعِ لمن شَحَط ، ونحن عن قريبٍ نقدمُ على من تقدّم ونلحق بمن سبق .

وهذه جملة من شعره

خاطبه بعض الأدباء والشعراء بنظم ونثر ، فراجعه بقوله من جملة أبيات[2] :

لئن راق مرأىً[3] للحسانِ ومسمعُ لَحَسْناؤكَ الغرّاءُ أبهى وأمتعُ
عروسٌ جلاها مطلعُ الفكر فانثنتْ إليها النجوم الزاهرات تَطَلَّعُ
زففتَ بها بكراً تأرَّجَ[4] طيبها وما طيبها إلاَّ الثناء المضوّعُ
... .

١ البيت للمتنبي ، ديوانه ٠ ٣١٥ .
٢ انظر القلائد . ١١١ والخريدة ٣ ٣٩٤ – ٣٩٥ والمطرب . ١٩٠ .
٣ ط م معنى .
٤ القلائد والخريدة تصوع .

لها من طرازِ الحُسْنِ وشي مهلهل [1] ومن صيغة الاحسان تاج مرصَّع
تبغّيت منها متعةَ اللحظ فانزوتْ وقالت أدونَ المهر يُبْغى تمتُّع
لئن لم تجدْ نقداً لمثليَ عاجلاً فما لكمُ عن قيمةِ البُضْعِ منزع
فدونك ذاكَ الحكمَ منها فانَّهُ تضاء لعمري عادل ليس يُدْفَعُ
ولي همّةٌ لو طاوع الدهرُ حُكْمَها لكنتُ بفتوى الجود في ذاك أقطع

وخاطبه أيضاً بعض أدباء العصر بشعر ، فراجعه بقوله [2] :

سلام كَعَرْفِ المسك أوعَبَقِ الندّ على مَنْ غدا بالفضْلِ فذّاً بلا نِدّ
سلام كأنفاسِ الأحبّةِ موهناً سَرَتْ بشذاها العنبريّ صَبَا نجد
سلام كإيماضِ الغزالةِ بالضحى إلى الروضة الغناءِ غبَّ الحيا العِدّ
على من تحدّاني بمعجز شعره فأعجزَ أدنى عفْوِهِ منتهى جهدي [3]
غزانيَ [4] من حوْكِ اللسانِ بلأمةٍ مضاعفةِ التأليفِ مُحْكَمَةِ السَّرْدِ
دلاصٍ من النظم البديعِ حصينةٍ تردُّ سنانَ النقدِ مُنْثَلِمَ الحدّ
عليها من الإحسانِ والحُسْنِ رَوْنَق كما دِيسَ مَتْنُ السيفِ من صَدَأ الغمد
وفيها على الطبع الكريمِ دلالة كما افترَّ ضوءُ السَّقْطِ من كرم الزند
إذا خفَّ منها جانبُ الهزلِ كَفَّهَ ووقَّرَ من أعطافِهِ ثِقَلُ الجدّ
أبا عامرٍ لا زال رَبْعُكَ عامراً بوفدِ الثناء الحرِّ والسؤدد الرغد

---

١ د والقلائد والخريدة والمطرب : مهلل .
٢ انظر القلائد : ١١١ والخريدة ٣ : ٣٩٥ .
٣ د م س وأصل ط : جدي .
٤ الخريدة : حباني .

لقد سُمْتَني في حَوْمَةِ القول خُطَّةً ... «لففتُ لها رأسي حياءً من المجد»[1] [٦٣أ]

زففتَ هديّاً من ثنائكَ حُرَّةً ... يقصِّر ملكُ الأرض عن مَهْرها عندي

عقيلةُ مجدٍ أتلعَ الفخر[2] جيدها ... فأغناه ذاك الحَلْيُ عن حِلْيَةِ العقد

وكلّفتني أن أستقلَّ بحقِّها ... وهيهات من إدراكِ أيْسَرِهِ وحدي

فلم أرَ برّاً أرتضيه لقدرها ... سوى الودِّ محمولاً على كاهلِ الحمد

فعذراً فما عذري بمحتجبِ السنا ... ولا وجهه عند الجلاء بمُسْوَدّ

فان كنتُ قد أحجمتُ عنك مقصّراً ... فلا غروَ في الإحجام عن أسَدٍ ورد

وكتب إليه أيضاً الأديب أبو عامر الذي ذكره بشعر أوله :

أعِدْها علينا أيها النَّدسُ الحِبْرُ ... هَدِيٌّ قوافٍ مِسْكُ صفحتها الحبرُ

فأجابه الوزير أبو القاسم بقوله[3] :

أما ونسيمِ الروضِ طاب به فَجْرُ[4] ... وهبَّ له من كلِّ زاهرةٍ نَشْرُ

تجافى[5] له عن سِرِّهِ زَهَرُ الرُّبى ... ولم يدرِ أنَّ السرَّ في طيّه جهر[6]

ففي كل سَهْبٍ[7] من أحاديث طيبه ... نمائمُ لم يَعْلَقْ بحاملها وِزْرُ

---

١ مضمن من شعر أبي تمام ، وصدر البيت . أتاني مع الركبان ظن ظننته (ديوان أبي تمام ٢ : ١١٥) ، وعند هذا البيت ينتهي ما ورد من القصيدة في القلائد والخريدة .

٢ د . المجد .

٣ القلائد : ١١٢ والخريدة ٣ : ٢٩٦ والمغرب ١ : ٣٤١ والمطرب : ١٩٠ .

٤ المطرب : طاب له نشر .

٥ المغرب والقلائد والخريدة : تحامى ، المطرب : يحامي .

٦ المغرب والقلائد والخريدة والمطرب : نشر .

٧ المطرب : سر .

لقد فغمتني من تناثلك نفحة ... ينافسني في طيبِ أنفاسها العطرُ
تضوَّعَ منها العنبرُ الوردُ [1] فانثنت ... وقد أوهمتني أنَّ منزليَ الشحْر
سرى الكبرُ في نفسي بها ولربَّما ... تجانَفَ عن مسرى ضرائبيَ [2] الكبر
وشيب [3] بها معنىً من الراح مطربٌ ... فخيِّلَ لي أنَّ ارتياحي لها سكر
أبا عامرٍ أنصفْ أخاكَ فإنّهُ ... وإيّاكَ في محضِ الهوى الماءُ والخمر
أمِثْلُكَ يبغي في سمائيَ كوكباً ... وفي جوِّك الشمسُ المنيرةُ والبدر
ويلتمسُ الحصباءَ في ثَغَبٍ [4] الحصى ... ومن بحرك الفيّاضِ يُستَخرَجُ الدرْ
عجبتُ لمن يهوى من الصُّفْرِ تُومةً ... وقد سال في أرحاء معدنه التبر
تطلَّبتها مردودةً اللحظِ برزةً ... تَرَدَّدَ في أسمالِ أثوابها الدهر
هي الثَّيِّبُ استعصتْ عليَّ وإنّما ... تَطُوعُ لمن يحوي ولايتها البكر
فدونَكَها عذراءَ لم يعدُ وجهَهَا ... حجابٌ ولم يُهْتَكْ لحرمتها ستر
بذلْتُ لها نقداً من الدرِّ غالياً ... فلم يَجزِها مهرٌ ولم [6] يُخزِها صهر
وإني لصبٌّ بالتَّلاقي وإنّما ... يصدُّ ركابي عن معاهدك العسر
أذوبُ حياءً من زيارةِ صاحبٍ ... إذا لم يساعدْني على برِّهِ الوفر [5]

قوله : « ففي كل سهب من أحاديث طيبه » كقول أبي المغيرة ابن حزم [7] :

١ المطرب : الند .
٢ المطرب : صرامتي ؛ المغرب : ضرائبها
٣ ط : وشتت ؛ د : وشمت ؛ م والقلائد والخريدة : وشبت . . . مطرباً
٤ الثغب : ما بقي من الماء في بطن الوادي ؛ المطرب والقلائد والخريدة : ثعب .
٥ هذا البيت نهاية القصيدة في المصادر المذكورة .
٦ ط م س : ولا .
٧ القسم الأول : ١٧٩ .

وَرَنَتْ بألحاظٍ تديرُ كؤوسَها فينا فنشربها حلالاً مسكرا

وقوله : « أمثلك يبغي » . . . البيت ، كقول الآخر[1] :

أعندك الشمسُ تسري في مطالعها وأنت مشتغلُ الألحاظ[2] بالقمرِ [٦٣ب]

وأراهُ عَكَسَ قولَ حبيب[3] :

إذا الشمس لم تغرب[4] فلا طَلَعَ البدرُ

وقال أبو الطيب[5] :

خُذْ ما تراه وَدَعْ شيئاً سمعتَ به في طلعةِ الشمسِ ما يُغْنيكَ عن زُحَلِ

انتهى ما أثبته من كلام الوزير أبي القاسم ، وهو أبهى من النجوم وأبهر ، وأسرى من النسيم وأسير ، وكنتُ جديراً باستقصاء أخباره ، وحميد آثاره ، لا سيما ومزاره كَثَبٌ ، وبيني وبينه من ذمام الأدب ، والتزام الطلب ، سبب ونسب ، ولكنَّ النوائب زاحمت ضمائري . وضَرَبَتْ وجوهَ خواطري ، فما دفع إليَّ عَفواً تلقيته وَوَعَيْتُهُ ، وما كانت فيه أدنى كلفة رجوته وأرجيته ، ولا بأس من الزيادة إن انتهجتْ سبيل ، ولله نظرٌ جميل ، وفيه مطمع وتأميل .

١ هو أبو تمام ، ديوانه ٤ : ٤٦٤
٢ الديوان : الاحشاء .
٣ ديوان أبي تمام ٤ : ٥٦٨ وصدر البيت : « وقالت أتنسى البدر قلت تجلداً » .
٤ د . تشرق .
٥ ديوان المتنبي : ٣٣٠ .

فصل في ذكر ذي الوزارتين الكاتب أبي القاسم
محمد بن عبد الغفور [1] صاحب المعتمد [2]

وكانا قبل تمكُّنِ السلطان ، رضيعَيْ لبان ، أمّهما الكأس ، وفرسَيْ رهان ، ميدانهما الأنْسُ ، فلما أفضى الأمر إليه ، وأديرت رحى التدبير عليه ، أرعاهُ تِلاعَهُ ، وعَصَبَ به خِلافتهُ وإجماعه . وتوفي ذو الوزارتين في عنفوان شباب ذلك الملك ، وهو منه بمكان الواسطةِ من السلك ، فقال المعتمد فيه من جملة أبيات يرثيه [3] :

أبا قاسم قد كنتَ دنيا صحبتُها قليلاً ، كذا الدنيا قليلٌ متاعُها

وقد وجدتُ لأبي القاسم شعراً إن لا يكن شديدَ المتن ، أزور الركن ، فإنه مليحُ الاطرادِ ، سَلِسُ القياد ، يقربُ من متناوله ، ويدلُّ على قائله ، ولم يقعْ إليَّ وقتَ تحريري هذه النسخة شيءٌ من نثره ؛ وفيما

---

١ له ترجمة في المطمح ٢٩ والمغرب ١ : ٢٣٦ والخريدة ٣ : ٤٣٧ والنفح ٣ : ٥٥٢ (نقلا عن المطمح) . وهو جد صاحب« إحكام صنعة الكلام » (تحقيق د .رضوان الداية، بيروت) .

٢ قد أشار صاحب إحكام صنعة الكلام الى جانب من هذه العلاقة (ص ١٩٧) وأورد لجده بيتين طيرهما للمعتمد حين كان المعتمد ما يزال يلقب بالظافر ، وهما :

ظفرت بالأعداء يا ظافر ونلت مجداً نوره باهر
فمنك للباغي والمبتغي عضب جراز وندى غامر

ففك المعتمد المعمى .

٣ انظر إحكام صنعة الكلام : ١٩٨ .

أثبت هنا من مقطوعات شعره ، شاهد صادق على ما أجريت من ذكره .

فمن شعره يخاطب أحد أعيان بني الدبّ [1] :

يا وزيراً تعنو له الوزراءُ	ضاق ذَرْعي وبانَ مني العزاءُ
أمنَ الحقّ أن أكونَ سقيماً	لستُ أرجى وفي يديك الشفاء
يا كبيري وسيدي وظهيري	كُنْ نصيري على أناسٍ أساءوا
قد توقفتُ في الشهادةِ حتّى	حرّمَ اليأسُ ما أحلّ الرجاء
ولقد تعلَمَنّ مَحْضَ ودادي	وثنائي ، وقلّ فيك الثناء
ولكم سائلٍ أطالَ سؤالي	هل على الأرض مَنْ لديه وفاء
فجعلتُ الجوابَ منه مقالي	ليس يَخْفَى على العيونِ ذُكاء
إنْ جهلتَ الوفاءَ في أهلِ حمصٍ	فبنو الدبّ سادةٌ زعماء
فيهمُ عفةٌ وفيهم وفاءٌ	ولهم ذمةٌ وفيهم حياء
وزراءٌ أكابرٌ كرماءُ	علماءٌ أفاضلٌ حلماء
أيُّ قومٍ وأيُّ أعلامِ مجدٍ	أنجبتهم إلى العلا آباء
يفخر الدهرُ منهمُ بأناسٍ	ليس إلا لهمْ يدٌ بيضاء [٦٤ أ]
مَنْ يجارِ الوزيرَ أعني أبا مر	وانَ في الفضلِ طال منه العناء
من يجاريْه في متانةِ دينٍ	وعليه من الحياء رداء
أورثَ المجدَ والمكارمَ نجلاً	منه هامَتْ بمثلِهِ العلياء

---

[1] هذا المخاطب هو الوزير أبو مروان ابن الدب كانت له منية بعدوة اشبيلية ،وكان صهره هو الوزير الفقيه أبو أيوب ابن أبي أمية (انظر المطمح : ٢٨ – ٢٩ والنفح ٣ : ٥٥٠) .

فاتَ أهلَ الزمان فضلاً ومجداً ... وذكاءً وأين منه الذكاء
ألمعيّاً مهذّباً لوذعيّاً ... للمروءاتِ في يديه لواء
وإذا ما اعتزى لأكرمِ خالٍ ... وقف . الفضلُ عنده والسّناء
ولعمرُ العلا وسُمْرِ[1] العوالي ... إنه خيرُ من تُظِلّ السّماء
يا عمادي ومَنْ عليه اعتمادي ... عشْ كما شئتَ مُدْرِكاً ما تشاء
ولئن كانتِ النفوسُ فدائي ... إن نفسي لمثلكمْ لفداء

في ذكر الوزير الكاتب أبي محمد عبد الغفور[2] ، ابن ذي الوزارتين أبي القاسم المذكور ، واجتلاب قطع من شعره ، ولمع من نثره

وأبو محمد هذا في وقتنا عارضٌ إذا همع استوشلت البحار ، ونجمٌ إذا طلع تضاءلتِ الشموسُ والأقمار ، وهو أحدُ من آوى من الحسب باشبيلية إلى ثَبَجٍ عظيم[3] ، ومشى من الأدب على مَنْهَجٍ قويم ، سابقٌ

---

١ م : العليل وهن .
٢ قال صاحب المغرب (١ : ٢٣٦) «ذكره الحجاري فقال : قطع الله لسان الفتح صاحب القلائد ، فانه شرع في ذمه، بما ليس هو من أهله ، والله ما أبصرت عيني شخصاً أحق بفضله منه . . . » ومما قاله الفتح فيه (القلائد : ٦٠) : فانه بادي الموج ، وعر المنهج ، له ألفاظ متعقدة ،وأغراض غير متوقدة ... وربما ندرت في نثره ألفاظ سهلة الفرض، مستنبلة الفرض » وهذا الذي يقوله ابن خاقان ذو حظ كبير من الحقيقة ، ويتبين ذلك من قراءة رسائله فان الغموض – بسبب التقعر – يرين على صفحتها ؛ وانظر أيضاً في ترجمته : الخريدة ٣ : ٤٢٩ ونقل عن اليسع قوله إن ابن عبد الغفور كان كاتباً بمراكش سنة ٥٣١ .
٣ ونجم . . .عظيم : سقط من م س .

لا يُمْسَحُ وجهه إلا بهيادبِ الغيوم ، وصارمٌ لا يحلى غمده إلاّ بأفراد النجوم، وكان نشأ بين يدي أبيه من دولة المعتمد، بحيث يفيءُ عليه ظلالُها، ويتشوَّفُ إليه قَبولُها وإقبالُها ، وانشقتْ تلك السماءُ قبل أن ينوبَ مَنابَ سلفهِ في سُرُجها ، ويَحُلَّ بيتَ شرفه من أبْرُجِها ، ولله هو ، فلئن كان نبا به الأوان ، وضاقَ عنه السُّلطان ، فلقد نهض به جَنانٌ يتدفَّقُ بالغرائبِ، ولسانٌ يَفْري شَبَا النوائب ، وإحسانٌ يملأ أقاصيَ المشارقِ والمغارب . وقد أخرجتُ من غرائب نظمه ونثره ما يُخْجِلُ الخدود ، ويعطِّلُ السوالف الغيد .

فصول من كلامه في أوصاف شتى

له من رقعة خاطب بها بعضَ أهلِ عصره ، وافتتحها بهذين البيتين[1] :

لولا عدىً غاظوا الصديـ ـقَ بِنَفيهم عني الكتابَهْ
لم أوذِ سَمْعَكَ بالهُرَا ءِ ولا انحرفتُ عن المهابه

لعمري — وإن كان نفى[2] منفياً ، وتقرَّع[3] صديقاً حفياً — لربَّ أعجمَ ضَجِرَ فأفصحَ ، وأجذمَ عُيِّرَ[4] فقدح ؛ وإن لم يُستألَفا بَعْدَ

١ وردت الرسالة في العطاء الجزيل ٣٢ .
٢ د . وان كان لعمري بقي .
٣ ط م : وتفرع .
٤ د : غير ، ط م س : عمر

الإفصاح . وما شَقّ من كُلْفة[1] التحاملِ في الاقتداح ، لم يُؤمّنّا على ذكرِ ميت ، وإحراقِ بيت ؛ فلله من احتال لتخلصه[2] ، ولم يُعْجَبْ بتخصصه ، ودمع بيد جَلَدِهِ ، في صدر حُسَّده . وفي هذه الجملة بلاغٌ لو ارتضيتُ[3] بها مُتَنَقّصاً . ولم يرني[4] بالاقتصار عليها[5] متخرّصاً ، في الكتابة متلصصاً ، إذ لعلّه ممّن يظنّ الإيجازَ حَصَراً وانقطاعاً ، ولا يعتقدُ الإجادةَ مع الاسهاب شيئاً موجوداً ولا مستطاعاً . لا جرمَ أني بحكْمِ هذه التقيّةِ سأطيل قَصصاً ، وأتطلّبُ فيما لم يَطْرُقْ من القولِ قنَصاً ، ليعلمَ من نافٍ[6] ، ومن جلف حافٍ ، بل من نزرٍ حقيرٍ خافٍ ، أنّني من كتّابِ وقته ، وإنْ رَغِمَ أنْفُ مَقْتِهِ ، والله ما عرفتُهُ إلى اليوم ، ولعلي سأعثر عليه في النوم ، فأعرفه : مِنْ أرعَنَ ناقص الوزن والصرف فأصرفه ، بسمةٍ من الهونِ تشغله بنفسه ، وتخجله[7] في رَمْسِهِ ، والله يفنيه ، [٦٤ ب] ولا يعرّفنيه ، وينزّهُ عن شخصه الوَضِرِ الدّنِسِ عاثرَ سهامي ، ومن عِرْضهِ القذِرِ النجس طاهرَ كلامي .

وكأني بفارس هذه الصناعة ، ومالك أزمّة البلاغة والبراعة ، قد سمع هَذَري ، وضحك من ضَجري ، وعجّب كريمة ودّه ،

.. ... .

١ العطاء الجزيل : كلمة .
٢ د : بتخلصه .
٣ العطاء الجزيل : أرضيت .
٤ م : ترني .
٥ العطاء الجزيل : عليه .
٦ أي الذي نفى عنه القدرة على الكتابة .
٧ م : وتحجبه .

وعقيلةَ عهده ، من خاطبٍ ، يستخفُّ[1] مخاطب ، في ليلٍ من الجهل حاطب ، لم يأت خطبتَها من بابها ، ولا رفق في طِلابها ، وهيهات لمرتقب الشعرى ، من ملابسة الكرى ، ولمثل أملي في ذلك السماء ، من تقصير في الاحتفاء ، ولكنْ صدَّر التحبيرُ ، بما يشتمل على الضمير ، فمتى سمح لغيره بمكانه ، فقد صُرِمَ فجاء قبل أوانه ، وكُلِّفَ نضجاً ولات حين إبّانِه[2] ، وسأمهرها من جميل الثناء مَهراً تشمّه زهراً ، وتختّمه نجوماً زُهراً ، وتَرِدُهُ كوثراً ، وتحمده عيناً وأثراً ، وتحملُ[3] من بهائه تاجاً تعنو الشمس لضيائه ، وتغرقُ في لجة لألائه ، فيكون بدعاً من المهور ، ويفخر دهرُهُ على سائر الدهور ، بمقتضى ما التَزَمْتُ شُروطَ الوفاء فيه ، وحَرَمْتُ من غدر بني الأيام صِحّةَ مبانيه ، ولو اكتفيتُ بما مضى عليه سلَفُنَا الكريم ، وتبعتُ ولم تَرمْ مركزها منه أعظمهم الباليةُ الرميم ، من صفاء ودٍّ يُعدي الجارَ فضلاً عن البنين ، ووفاء عقدٍ يثني النارَ عن أن تحرقَ بالطبع أو بالمماسّة عددَ سنين ، أحرزتُ من الفضل نصاباً تجبُ فيه الزكاة ، وحويتُ من الفصل قصاباً لا تدركها الكُفاةُ ، ولا تبلغها العُفاة ؛ على أنّه لا شيء أغربُ من عقلٍ يمتارُ مما في يديه ، ولا يحتاج إلى صدقة عليه ، ولا من فضل يتجاوز غَلْوَةَ سَهْمٍ ، فضلاً عن غاية شهم .

وكنت قد استغنيت بما أصَّلُوا ، ولم أقطع بهذا الاستئناف ما وصلوا ، إلا أني وجدتُ نَسَبَ أدبِه قد كَلَّ ، ورَسْمَ سببه قد اضمحلَّ ، والكلالةُ

---

١ العطاء الجزيل : من خاطب سخف .
٢ ط م د س : إبايه .
٣ العطاء الجزيل : وتجمل .

في الآداب ، أمَسّ منها في الأنساب ، فاعتمدت بهذه النأمة سدادَ خلل ، وعمارةَ طلل ؛ وشائعُ مجده كان أولى بهذه الرتبة من التهمُّم ، وأهدى إلى سُنَن التفضُّل والتكرُّم ، إذ كان أفسحَ[1] في القول طَلَقاً ، وأحسنَ في درّ كَلِمِه العَذْب سَرْداً ونَسَقاً ، فكيف تزلّ لي عن صهوة الانتداء ، وتوفّرُ عليّ خطة الاقتداء، هذا إذا قدرت، وما أراها إلا كأختها قد تعذّرت[2]، ليس إلا لمكاني[3] من الحرمان والخمول ، وكلُّ عُذْرٍ يُدْفَعُ به في نحر هذا الصدق فغيرُ مقبول .

وقد حطبْتُ وَتَخَطّبْتُ ، وسببتُ بل ضربت ، وتكاتبتُ حتى كتبت . ولو خططتُ في صفحة البدر ، بأنملي العشر ، أو في غرة الشمس ، بالمعهودة الخمس ، وصغتُ لفظاً للرقعتين ، محاسنَ الجديدين ، لقيل رمى الغرضَ فكاد ، ولو نسج على منوال فلان وفلان[4] لأجاد ، وفلانٌ إذا نقلَ الأقاويلَ توسَّطَ ، وإذا رُفِعَ إلى فطرته القطيرة تَوَرّط ، فان رأى أن يراجعَ بالقبول، وبما لديه من الرأي الحسن الجميل ، بشرط العدول عن التفريط المخجل ، واللفظ المشترك المحتمل ، واعتقاد تجريحي في الصناعة بمجرّد التبصير ، وتنزيه خَطوْه الوَسَاع فيها عن معارضة خطوي القصير ، دلّ على موضعي[5] من إيثاره ، وطار اسمي الواقع بيُمْن جواره ، عَمَرَ اللهُ رَبْعَهُ بالتأميل ،

. . . .

١ العطاء الجزيل : أصبح .
٢ م : عدرت .
٣ العطاء الجزيل : بمكاني .
٤ العطاء الجزيل : أو فلان .
٥ العطاء الجزيل : ولى على موضوعين

وَسَتَمْنَعُهُ بالتكريم والتبجيل ، وصدأ[1] هذا الزمان مُعْنَدٍ كلَّ عقلٍ ، وفي ما أتوكّفُ من جوابٍ كريمٍ ميدْوَسُ إمّهاءٍ وصقل ، وأزال[2] جاهلَ شبحي[3] لما عليه من الأقذاء ، حتى أجتلي صورةَ حقيقته في رونق الجلاء ، وحبذا تعجيله قبل استيلاء[4] العُجْب القبيح ، وتكاثف حُجُب الغيِّ على[5] مَتْن الصفيح[6] ، فيعزّ صقالُهُ ، ويُعْجِزُ انتقاله ، فرأيَكَ في ذلك مسدَّداً إن شاء الله .

فتخلّفَ المخاطَبُ[7] عن المجاوبة ، فأعاد عليه ثانيةً بخطابٍ قال فيه :

وكنت أعتقدُ أنه — أعزّه الله — بجوابه لا يبخلُ عليَّ ، وقد بسطتُ لنيلي به الأملَ يديَّ ، ومددتُ لاجتلاء السرور عينيَّ ، وحتى الآن فلم يرتدَّ طرفي الشيّقُ إليَّ ، بل قيَّد بشطور ، تشوُّقاً إلى بهجة تلك السطور ، فما ظنه بصفر اليدين من الأمل، ناظرٍ إلى [٦٥ أ] أحد الشقّين كالمختبل، بل ما ظنّه بقومٍ يُكثرون عنه السؤال ، ويضربون فيه الأمثالَ ، يودون لو قعد تحت الريبة من تأخُّر الجواب ، وأطاعَ داعيَ الظنّة في قَطْع رَحِيم الآداب ، لشدَّ ما قدحوا زَنْدَ الوحشة فصادفوه — والحمد لله — جِلدَ شحاحٍ ، وأوكبوا لنارِ الفُرْقةِ فلم يستضيئوا منها بمصباح ، وظنوا أنه قد

١ العطاء الجزيل : وصار
٢ د ولا زال ، م ط: ولا أزال .
٣ كذا يمكن أن تقرأ في العطاء الجزيل . وفي ط . يستحيي .
٤ ط م د س : الاستيلاء .
٥ ط م د س : عن .
٦ ط س الصفح .
٧ ط م س : المخاطبة .

وَرَدَ من جوابٍ كريمٍ فكتمتُهُ كَتْمَ الأرضِ ، ولم أهشّ لنافلةِ الشكر عليه فضلاً عن الفرض ، وهيهاتَ لوجهِ الصُّبْحِ المتبرّجِ من كَتْمٍ ، ولنسيمِ زهره المتأرّجِ من خَتْمٍ ؛ غيرُ كَلِمِهِ العذبِ ، بل لؤلؤهِ الرطبِ ، يجهل للخمول سُراهُ ، فلا يفضل عن سرّ الراح سناه ، ولا يحمّلُ مثقلاتِ الرياح من طيب شذاه ، فليحيّنا منه بقِيطْفٍ يُجنينا ثَمَرَ السرور ، ويُعْفينا من وَصْمَةِ التقصير بنا والقصور ، فما زلتُ ــ أراه الله ما تمنّاه ــ أكرمَ بني الأيام عهداً ، وأحكَمهُمْ عقداً ، وأبعدَهُمْ من الآفاتِ وداً ، وأحمدهم قرباً حميداً وَبُعْداً ، وأصعبهم على الزّمانِ الغادر مَراماً ، وأشدهم أنفةً وعراماً ، من أن ينقادَ طوعَ زمامه ، ويتصرفَ ــ وقد جئتُ خاطبَ وُدّهِ في تضريج أنفي بدمٍ ــ على أحكامه ، لا هَمَّ إلا أن يكونَ ذلك منه ــ صرف الله صروف الليالي والأيام عنه ــ ستراً على ما عهده من تأخر كلمي ، وتعثّرِ قلمي ، واستعجام بناني ، وقيام ظلّ البلادة دونَ إحساني ؛ فهل شَعَرَ أنّهُ قد نَبُلَ الناسُ ، وظهر النسناسُ ، وكلَّمَ الرَّمَلُ الهنَزَجَ ، وَسيطَ غيرُ ما شيءٍ فامتزج ! ! ولذلك ما أقدمَ بي قَدَمُ الاعجاب ، واستؤذن لي على دولة الكتابة بعد طول حجاب ، فافتتحتُ مطالعةَ حضرته البهية ، أراني بنيل هذه الرتبة العلية للنجم راكباً ، وللسَّعْدِ مواكباً ، وان كنت متكاتباً لا كاتباً[1] ، وقاعداً حين تطارَدَ فُرْسانُ الكتابةِ لا جائياً معهم ولا ذاهباً ؛ ما ضرَّهُ لو قارضني على الجدّ ولو هازلاً ، وسابقني إلى غاية الودّ وأنا الراكب المنبتُّ فيسبقُ مستريحاً نازلاً ، بل ما ضرَّهُ لو فتق لَهَاتي وقد هَمَّتْ ، وسدَّدَ سهامَ كلماتي وقد ألمَّتْ ، بمكنون الدّر ، من ألفاظه الغُرّ ، ومُخْجِلِ الزهرِ ، من حِكَمه الزهر ، فيدني من ذي حرص عليه

١ لا كاتباً . سقط في م س .

أمَلَهُ ، ويبعثَ جَذَلَه ، ويكون جمالُ إصابته له ؛ فلمَ حَرَمني جوابَهُ ، وتغافَل عنّي وقد قرعتُ بيدِ الثقة بابَهُ ، ألا سلّم للأيام ، في إحالتها طباعَ الكرام ، وأنشد :

ومن صَحِبَ الدنيا طويلاً تقلّبَتْ　　على عينه حتى يرى صدقها كِذبا[1]

كلاَّ ، لا أسَلّم لها فيه ، ولا أوجدها[2] السبيلَ إلى شَيْنِ معاليه ، ولو ضاعت هذه الثانيةُ ضَياع سراجٍ في شمس ، ولقيتْ من إعراضه عنها ما لقيتْ أختُها بالأمس ، فليصلْ مَنْ وَصلَه ، وليعذرْ في الاقتضاء مَنْ مَطَلَه ، ولو غيره عاملني مثلَ هذا الانزواء ، وقابلني بأيسر كبرٍ وجفاء لنظرت إلى كلمة أبي الطيب[3] :

لا تحسبوا رَبْعَكُمْ ولا طَلَلَه　　أوّلَ حيٍ فراقُكُمْ قَتَلَهْ

فكنت أقول :

لا تحسبُوا قولكُمْ ولا عَمَمَهْ[4]　　أوّلَ ركنٍ بناصلٍ هَدَمَه

وربَّ كاتبٍ أثقفَ مبانٍ ، وأشرف أبياتِ معانٍ ؛ ولكنه عيني التي بها أبْصِرُ ، وَعَضُدي التي بها أنتصر ، فمن ذا الذي يعتمد بسوء بَصَرَهُ ،

١ البيت للمتنبي . ديوانه . ٢١٨

٢ س . أوحد لها

٣ ديوان المتنبي . ٢٣٤ .

٤ س د ض عمله .

ويقلعُ[1] نابَهُ حين يجني عليه أو ظفره[2] .

وله من رقعة : توفي الصبر فهششتُ لاقامةِ رسم العزاء ، ثم تذكرت فتأخرت ، وأنّ نفسي – فَادِيَتَهُ – عَيَّرتني تَرْكَ المقالِ ، وقالت : أين ما ذخرتَ لهذه الحال ؟ فقلت : أحسنَ الله عزاءَ من بكاه . وأرضى بقبض ذلك الظلّ من اشتكاه ، حتى يُهدي إليه غفراناً ، يُلْحِقُهُ رضواناً ، ويحفُّهُ رَوْحاً شهيّاً وريحاناً ، ليعلم الهالكُ – رحمه الله – حيث تصفو العقول ، وتُنْسى الحسائفُ السالفةُ والذحول ، أنّ الباقيَ بعده قد عطف على الأول <عطفا> ، وإلى ما يقرّبُهُ إلى الله زُلْفى ، فأهدى سَنَا المغفرةِ ، إلى عظامه النخرة ، وكرِهَ الشّمَاتَ ، ولم يحقدْ على مَنْ مات . وإن كانتِ العربُ قد هجت قتلاها ، وشمتت على مرّ الدهور بموت عِداها. قال الحصين يهجو من قتله[3] .

* [٦٥ ب] فلما علمتُ أنني قد قتلته *

وقال غيره يشمت :–

وان بقاءَ المرءِ بعدَ عدوّه ... ولو ساعةً من عمرِه لكثيرُ

[1] م ط : ويقتلع ، والتاء غير معجمة .

[2] ط : نظفر ، وفوقها « كذا » .

[3] الحصين بن الحمام المري ، هو الذي يقول لما اكثر القتل في بني صرمة بن مرة وحلفائهم يوم دارة موضوع :

نعلق هاماً من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

أما قوله « فلما علمت أني قد قتلته » فانه صدر بيت للقتال الكلابي ،وعجزه « ندمت عليه أي ساعة مندم » (ديوان القتال . ٨٩) .

وقال حبيب[1] :

يا أسدَ الموتِ تخلَّصْتَهُ من بين لحيَيْ أسَدِ القاصرَه[2]

وقال أبو الطيب[3] :

قالوا لنا : ماتَ اسحقٌ فقلت لهم : هذا الدواءُ الذي يشفي من الحُمُقِ

والله يعمّر السيد حتى يرثَ أولياءَهُ وأعداءَه ، ويقتضي على الأيام علاءه وسناءه . فليس لهذه المدّة منتهى ، ولا يبلغ منها مدى .

ومن أخرى : وإنما هو دأبٌ فلكيّ ، وَجَرْيٌ سُلَيْكيّ ، يتأكَّدُ ويتّصل ، وتتولَّدُ أسبابُهُ فلا تَفْنَى ولا تنفصل ؛ قال الأول[4] :

فيوماً على سِرْبٍ نقيٍّ جلوده ويوماً على بيدانةٍ أمِّ تولبِ[5]

* وتلك المنى لو أننا نستطيعها[6] *

وأنا أقول : فيوماً في سوق فليق ، ويوماً في طحن دقيق ، ويوماً أقتاتُ فيه بسختِ[7] السويق ، ويوماً أقْطَعُهُ على الريق ، ويوماً في شهيق ، ويوماً

. . . .

١ ديوانه ٤ : ٣٦٢ في هجاء عياش بن لهيعة .

٢ القاصرة : موضع على الطريق بين مكة ومصر .

٣ ديوان المتنبي : ٢٢١ .

٤ هو امرؤ القيس ، انظر ديوانه : ٤٩ .

٥ البيدانة : الاتان التي تعيش في البيد ولا تقرب الناس ، التولب . الولد الصغير .

٦ فيه اشارة إلى قول البحتري : « منى النفس في أسماء لو تستطيعها » (الديوان : ١٢٩٦) .

٧ السخت والسختيت : دقاق السويق : ط د . بسحت ؛ م س . محت .

بالجامدة ويوماً بالسَّليق ، سبعة ألقاب ، لسبعة تأكل شِلْوَ الأحقاب ، تَسَعُ جميع الشهر ، وتجري كالروح في هذا الدهر ، فأنا آلمُ من السليم بوجعه ، وأشْغَلُ بهذا الكدّ منه بأشجعه ، حتى آوي إلى عجوز . لنوبها المترادفة مَنْ يجوز[1] ، آونةً تُطْلَبُ بمبيت[2] سور ، وآونة ببنيان جسور[3] . وما في إناء رزقها المكسور . مِنْ بُلالة سُور[4] ، ولم يبقَ على هذا القياس بعد مَغْرَم الثُّغور والدروب ، إلاّ أن تُشَمِّرُ عن ساق للحروب ، وإنما عليهنّ جرّ الذيول ، وعلينا إجراء الخيول . فان رأى — أعزّه الله — أن يُعْفيها ويكفيها ، فلها أمثال[5] ، في ربّات الحجال ، وفي ذوي اليسار من الرحال . وقد تقدم أمرُ الأمير باعفاء النساء ، بيمن فالقوادم فالحساء[6] ، فما شأن هذه المرأة تُخَصّص بالغرامة ، وتستثنى بهذه الحضرة من الكرامة ؟ أفتَراهَا التي دلّت على ضيف لوط ، فتُسْعَطَ من قاتِل الظلم هذا السَّعوط ؟! كلاّ ولكنها أمّ كاتب هذه الرقعة التي لو فُسِّرتْ لفصحاء يونان ، لعضّوا من حسرة التقصير عنها البنانَ .

وله من أخرى : جُعِلْتُ فداك ، هل ظَفِرَتْ بمطلوب يداك ؟ كلاّ ولكنك رأيتَ سراباً ، فحسبْتَهُ شراباً ، وَغَرَّتْكَ دمانةٌ ، تحتها غثاثةٌ ،

...

١ ط د س . تجوز .

٢ م : مبيت .

٣ ط : بلقيان حبور .

٤ سور : مخففة من سؤر أي بقية .

٥ د . امتثال .

٦ من قول زهير (ديوانه : ٥٦) :

عفت من آل فاطمة الجواء ... فيمن فالقوادم فالحساء

وسكونٌ ، لا يصلح إلى جانبه ركونٌ ، وبحكم الرغبة والحرص ، كانت فراستك في ذلك اللصّ ، وإلا فصموتُ عيّ ، لا يذهبُ على ألمعيّ ، ودمعُ فاجر ، لا تروى منه المحاجر : وإذ قد نبا حدّ عتابك من قَزْعِ[1] ذلك الحجر الصلد ، كما أعيا قبل ذلك على ذي مِرّةٍ جَلْدٍ ، فمن العناء[2] معاناتُه ، ومن الدناءة قُرْبُهُ ومداناتُه ، فاستشعرِ اليأسَ منه ، واصرفْ عِنانَ التثريب والعذلِ عنه ، فانما هو كذئب في ثَلّةٍ ، بأرضٍ مَذَلّة ، في ليلةٍ بعيدة مسافة[3] الصباح ، قعيدةٍ روعاتِ الصراخ والنباح ، يتملأ[4] من دمائها ، ويهزأ هذا الخبيث[5] من ثُغائها[6] ، بل هو أعقُّ من ضبٍّ حَرِبٍ ، في جُحْرٍ خَرِبٍ ، يخاف على حرشاته من الحَرْشِ[7] ، ولا يعتصم من أعدائه كعقرب[8] الحرش[9] ، فهو إلى عقوقه[10] أنزقُ من ذي خَرَقٍ ، وقَعَ في حبالةٍ ثم أبق[11] ، أحْسَنَ الله فيه العزاء حيّاً ، وطوى بيدِ السلوّ لَهَجي بشكايته طيّاً ،

---

١ ط د قراع .
٢ م س . المعنى
٣ في النسخ : لمسافة .
٤ في النسخ : يتملاه .
٥ في النسخ : الحبيب .
٦ م : بكائها ؛ س . بقائها ؛ ط د . بغائها
٧ الحرشاء : النقبة من الجرب ، ولعلها « الحرشاء » أي الجلد ، الحرش . الحك والقشر ، والحرش أيضاً صيد الضب .
٨ د : بعقرب ؛ ط م س : لعقرب .
٩ الحرش : العض والخدش .
١٠ م : عقوبة .
١١ م : حبالة أبق .

حتى أنساه ، ولا أعرفُهُ حين أراه ، وفراستي في سواه أصدق من نار الفُرْسِ في الصدق ، وأبصرُ في ظلمة الاشتباه من طالع الأفق .

وله من أخرى : وصل جوابك فشفى عليلاً ، وبرّدَ غليلاً ، ونسم من رَوْحِ الظَّفَرِ بالأمل نَفَساً بليلاً ، وما كان لِشربِ ودادِكَ العذبِ أن يستحيل صاباً ، ولا لمحلّ مجدك الموفي على الشهب أن ينحطّ نِصاباً ، ولا لوفاء منكَ رسا ثبيراً ، أنْ يذهبَ مع الرياحِ هباءً مستطيراً ؛ عُقْدَةُ ودِّكَ أحْصَفُ ، وحجابُ مجدك أضْفى من أن يُسْتَرَقَ وأكثف ، بقيتَ[1] لغمّاء تجلّيها ، ونعماء توليها ، وعلياءَ تنافس فيها[2] ، وإنْ أتْبَعَ سيدي فَرَسَ البرِّ بي لجامَها ، وقرع عارضُ المسرّة تكاثفها والتئامَها ، فقد أمْكَنَ من الإحضار ، وروَّى ظِماءَ آمالي بِمُنْهَلِّ القِطارِ [٦٦ أ] .

وله من أخرى : من الأمور الشائعة ، والمعاني المتّفقة الواقعة ، ما يُعْدَلُ له في الكتب عن قَصْدِ السبيل ، ويؤخَذُ في أساليب التطويل ، وشعاب التمثيل أو التعليل ، فيقومُ عُذْرُ الكاتب ، ويُرْجَى الفلاحُ للمكاتب ، كالرأي المستحكم مني في جانبك — أعزّك الله — دونَ سببٍ أحْكمهُ ، وأربٍ قضى لمّا عنَّ فأبرمه ، ولكنْ فطرةٌ في الميلاد ، وحكمةٌ من خلاّقِ العباد ، خَفِيَتْ عن أذهانٍ منّا حِدادٍ ، وَضُرِبَ بيننا وبين سرِّها المكتومِ بسدٍّ بل بعدّةِ أسداد ، فمنّا — معشرَ الانسِ — من يحبب المارَّ الأجنبيَّ لسلامِهِ ، ويبغضُ البارَّ الحفيَّ من أخوالِهِ وأعمامه ، وربما زاد سوءُ المقدار ، في

[1] ط : بغيت ؛ د : بقية ، وسقطت اللفظة من م س .
[2] ط : فيه .

ذميم هذا الاختيار ، فهجر أحدَ أبويه أو كليهما ، وقد علم أنَّ طَابَ الجنةِ تحت قدميهما ، فَفَضَلَهُ النوعُ البهيميُّ بقَفْو أثرِ مُرْضعه ، وقد غني عن رضاعها ، وزاد على خطوة باعها ، وتبرأ منه الجنسُ الإنسيُّ بموجبِ عقله ، ومقتضى دليليّْ برهانه عن الله تعالى ونقله ، فلا هو من البشر في شُكْرِ المحسن إليه ، ولا من البقرِ في إلفِ القائمِ ولا من الشجر ، بل هو أقسى من الحجر ، ﴿ وإنَّ منها لما يَشَّقَّقُ فيخرجُ منهُ الماء ﴾ (البقرة : ٧٤) فيكون باذن الله مورداً ، وتَتَلَطَّفُ منه الأجزاءُ فيكحل إثمداً .

وقد لعمري مُنيتُ بهذا النوع من الولد ، وكمدت به أبْرَحَ كمد ، واشتغال نفسي بقَسْوَهِ ، بعد حُنُوِّهِ ، وببعده بعد طول دنوّه ، مزج شكيّتي ، بالبسط لأمنيّتي ، حتى هرفتُ بما لم أعتقِدْ عليه نيّتي ، ولا قصدته في هذا المقام برَوِيّتي : كالهارف : « اصبحوا الركبَ اغبقوا الركب »[1] ، والهارفة : « زوّجوني زوّجوني »[2] .

« إن اللسانَ على الفؤاد دليل »

والله[3] يُحْسِنُ فيه العزاءَ حَيّاً ، ويطوي بيد السلوّ نهجي بهذه الشكاية طيّاً ، حتى أنساه ، ولا أعرفه حين أراه ، وفراستي في سواه ، أصدقُ من نار الفرس في الصدق ، وأبصرُ في ظلمة الاشتباه من طالع الأفق .

١ فيه إشارة إلى النمر بن تولب ، وقد كبر حتى خرف وأهتر فجعل يقول : اصبحوا الراكب (الشعر والشعراء : ٢٢٧ والخزانة ١ : ١٥٦) .

٢ فيه أيضاً إشارة إلى قصة امرأة جعلت تردد هذا القول عندما خرفت وأهترت .

٣ من هنا حتى آخر هذا الفصل مكرر ، انظر ما سبق ص : ٣٣٦ — ٣٣٧ .

وفي فصل منها : وإذا اتفق من المشاكلةِ ما صدّرنا الكتاب به ، ومن المماثلة ماقد ائتلفتْ نفوسنا بسببه ــ وهي كما قال عليه السلام: «أجنادٌ مجنّدة» ــ فمن حقنا أن نأتلفَ ولا نختلف ، ونتعاونَ أعضاءً وآراء ، وأقوالاً وأفعالاً ، ونطيب نفوساً: ونستوي في حُسن العشرة أقداماً ورؤوساً، فنصرفَ على الأيام جمالَ أبنائها ، ونرتسمَ في جريدة وفائها ، ونتسربلَ من الحمدِ لَبُوساً ، ونقمع من استيلاء الذمّ معرّة وَبُوساً .

ومن أخرى : من طال ــ أعزك الله ــ أمَدُ ارتياده ، ودوَّم به جناح جِدّهِ واجتهاده ، في طلبِ كريمِ الأخلاق ، ثم قدَّر له[1] به تلاقٍ ، فما أحراه وقد وجده ، أنْ يشدَّ على عِلْقٍ منه يده، حتى إذا اعتمد اختيارَه ، وأحمدَ في كلّ الضرائب آثاره ، شدَّ عليه بالعَشْرِ ، وسجد له سجدةَ الشكر، وصان منه بعدُ تميمةَ[2] تاج، وفارجَ رتاج، فأسكنه فيجَفْنِ ناظرٍ كريم ، وربأ به عن جَفْنٍ مُتَّخَذٍ من الأديم .

وأنت حقيقةَ ذلك العِلْق الشريف المشدود عليه ، ومجازاً شبه العضبِ المشرَّفي[3] المشار إليه ، مَنْ أحرَزَكَ أغنَيْتَه ، أو هزَّكَ شَفَيْتَه ، أو استكفاك خَطْباً مستليماً كفيتَه ، ولتناهي ودادي فيك ، وتشيُّعي الشائع لمعاليك ، أقتصرُ معك على لقيةٍ في العام ، وأعتمدها في[4] سنيّ الإنعام .

. . .

١ له : لم ترد في ط م .
٢ د · وصان منه بيمينه ؛ ط د : بعد تتمة ؛ س : تتميمه ؛ وفوقها «كذا» في النسخ .
٣ في النسخ : أشبه العضب المشرف .
٤ د : واعتقدها س .

وفي فصل منها: وإنما يثابر على عمارةِ ما غَرَس، ويترجَّح في الإقامةِ على ما أسّس، مَنِ استراب بخبثِ التربة التي احتلّها بِغَرْسِهِ، واختطّها لوقاية نفسه، وأما من أحْمَدَ ثراه، فقد طابت يقظتُه وكراه؛ على أنّ لقاء سيدي ومشافهته، ومحادثتَه ومفاكهتَه، كان أحبّ إليّ، وأمتعَ لمسمعيّ، وأجلب لقرّة عينيّ، ولكنّي مشغولٌ بيومي، مدفوع إلى تقويت[1] قومي:

«أحارب خيلاً من فوارسها الدهر»[2] ولا عدّةٌ إلا التجلُّد والصبرُ

قد عُدْت أعْرَى من نواة، وكنت أكسى من قَطاة؛ فإذا لقيتُ ذا هيئةٍ خجلت خَجَلَ بخراءَ [٦٦ ب] اضطرت إلى سرارٍ، وفوهاءَ هَمَّتْ بافترار، ووزير بل أمير دفِعَ بعد ركوبِ الفارهِ إلى ركوب حمار.

ومن أخرى[3]: ربما كان من الالطاف[4] ما لا سببَ له، إلا تنفيق كتبٍ[5] كاسدة، وتسويق سِلَعٍ[6] فاسدة، لا أنّ المُلْطِفَ أحوجُ بسوء عِشْرَةٍ إلى تقويم، أو غِلَظِ قِشرةٍ إلى ترقيقِ أديم، ولا أنّ الشيء[7] المهدَى يُسْمِن ولا يغني من جوع، فيمنع[8] بالفرح له أو التّرَحِ عليه عيناً[9] من الهجوع،

. . .

١ س م: تقوية.
٢ صدر بيت للمتنبي، وعجزه: «وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر».
٣ وردت في العطاء الجزيل. ٥ وتكرر بعضها فيه ص ٩٧.
٤ م ط س: أهل الالطاف.
٥ س م ط والعطاء الجزيل. كتبة.
٦ م س ط والعطاء الجزيل: شعرة.
٧ الشيء: سقطت من العطاء الجزيل.
٨ العطاء الجزيل: فيمتع.
٩ ط. سبباً.

لاهُمَّ إلا أن يكونَ طلوع ذلك الشيء النَّزْرِ، من وَدودٍ بَرٍّ ، أو مودود رفيعِ القَدْر ، فهو أوفر ما يُقْتَنى[1] . وأبعد ما يُتَمَنَّى .

وفي فصل منها : فالمودات ، ما خَلَتْ من تَهادٍ مُكَرَّرَةٍ[2] ، كطبيخ خلا[3] من اللحم يُدْعَى مزوَّرة[4] ، والمهدَى بين يدي هذه الأحرف عدد[5] كذا من سفرجل ، وتصحيفه عندي سفرجل ، وإذا سفر عن ثغره جلَّ[6] ، فالظفر بطارقِ الهمِّ مجلٌّ[7]. يشبه صُوَرَ العذارى ضمّخت بالعبير[8]، وثديهن بالتقييس[9] والتقدير، كأنما لبستْ من الحرير سَرَقاً ، أو شكت بألوانها وجداً قد برّح بها وأرقاً ، بل كأنما سرقت الثديُّ طوابعَ مسكٍ أحَمَّ . ضمَّت عليه جوانحها إذ[10] خافت الذَّم[11]، أقداح عَرَب[12]، عُلَّتْ بماءِ ذَهَب. طُبِعَ من العبير[13] نواها ، وناب عن شذاها الفائح للشَّرْبِ ساطع شذاها . وربما[14]

١ م ط س : مما ينقى ، د . يعنى ؛ والتصويب عن العطاء الجزيل .
٢ د . مكدرة .
٣ العطاء الجزيل . حلاء .
٤ المزورة نوع من الحساء دون لحم .
٥ العطاء الجزيل عدة .
٦ ط د خل
٧ ط د . مخل .
٨ م ط . بالعنبر .
٩ د : بالتعنيس ؛ ط م س : بالتعيين.
١٠ العطاء الجزيل : ثم .
١١ م ط . الدم .
١٢ ط : أمراح عرب .
١٣ العطاء الجزيل . العبير .
١٤ العطاء الجزيل : ولربما .

فضلت شهيَّ التفّاح ، وفتكت بأدواء المعدِ فتكةَ السفّاح ، وإنَّ فاكهةً تشبه الثديّ ، وتَتَشرّك في بعضِ صفاتها المديَّ، لجديرةٌ بأن يحفظها عِناقاً، ولا يعدلَ بالواحدة منها عَنَاقاً[1]، بل يجعل فديةَ قضمها أن تُشَدَّ وِثاقاً، وتضربَ أعناقاً . وإن محلَّكَ من نفسي لخصيبُ جنابِ الصفاء، نقيُّ جِلبابِ الوفاء، فصيح طيرِ الثناء، نصيح جَيْبِ الصناعة والولاء ، ووداداً لا يَبْلَغ مداه ، ولا تُوبِس ُ هواجر البعدِ ثراه ، والله يُلْحِفُه من التمهيد ظلالاً ، ويزيد يانعَ روضه نَضْرَةً وجمالاً ، حتى لا تكرى عيون أزهارِه ، ولا تعيا ألسنة أطياره، ولا يتعرّى من ورقِ عوده ، ولا تَخْشى من حلٍّ نظامِ عقوده .

وفي فصل : وعذبُ شيَمٍ ، لو أنطقها الله لقالتْ : مَعْشَرَ الأنيس على شفا ، لن تجدوا في غيري مُتَرَشَّفاً ، فردوا نميراً سائغاً ،وتفيأوا ظلاً سابغاً .

وعرضت عليه رسالة أبي عمر الباجي وأبي القاسم بن الجد المتقدمين في صفة المطر بعد القحط ، فعارضهما برقعةٍ قال فيها[2] :

ولله جلّت عظمته أوامر تُحيل المنيرةَ عن طباعها ، وتسلب[3] من حصى المعزاءِ فَضْلَ شُعاعها ، وتردُّ في خِلْفِ تمريه حَلَبَ[4] ارضاعها ، لا

. ...

١ العطاء الجزيل : نحفظها . . . تعدل . . . م ط : عماقاً .
٢ وردت في العطاء الجزيل : ٩٧ ، ١٢٩ ؛ وانظر ما تقدم : ٢٨٩ .
٣ العطاء الجزيل : وتستلب .
٤ في النسخ : من خلف المصرية جلب ؛ م : بجلب .

تُلْحَق بسوابق الرهان ، في ميادين الأذهان ، ولا تُدْرَك بقداح القمار ، من معليات الأبصار ، تُطْلِع المِنَحَ من ثنيَّاتِ المحن ، وتحوِّل العاجزَ الزمن ، مُنْفِساتِ[1] الزَّمَنِ ، وقد تَذْهَب بما تَهب ، وتُغير على ما به تَغير[2] ، حكمةٌ بهرتْ حقيقتُها زواهرَ الأفكار ، وغمرت دقيقتُها[3] زواخرَ بحارِ الاعتبار ، له الخَلْق والأمْر ، وبيده النفع والضرّ ؛ وإنَّ أحقَّ النعمِ بشكرٍ لا تَنْضَب مُدوده ، وحمدٍ تتجاوزُ حدَّ المعهودِ حدوده ، نعمى أحيت بالسُّقيا أرضاً مواتاً ، وأنْشَرَتْ بِدَرِّ الحيا أملاً رفاتاً ؛ وقد غَبَطَ طيرُ الماء ضِبابَ اليهماء ، وحجب كَاسفُ الرجاء[4] نيِّرات العماء ، وشابت مفارقُ الرياضِ ، وغاضَتْ مُفْعَمَاتُ الحياضِ ، واقشعرَّتِ الربى ، وحلّ نبتُ الحاجرِ عَقْدَ الحُبا ، وباتتْ أزهارُ الغيطانِ ، عليلاتِ الأجفان . تستسقي نجومَ السماء ، وتتوسَّل بالشَّبَهِ إلى ذوات الأنواء ، فعندما أمستِ البسيطة على شفا ، وأجْسَلَ[5] المحتفرُ ولم يجدْ مُرْتَشَفا ، أرسل الله تلك النعمةَ ، بين يدي الرحمة ، ريحاً ليِّنةَ هُبُوبِ النسيم ، في الروضِ الهشيم ، شديدةَ حفزِ الغمائم ، لتدارُكِ ما في الكمائم ، فنسجتْ بإذْنِهِ مُلاءَها ، ورمتْ أمْراسَها وَدِلاءَها ، فلما لمَّتْ قَزَعَها[6] ، وَوَصلَتْ بقدرةِ الخلاق قِطَعَها ، سفحتْ عيونُ تلك النجوم ، بمكفهرِّ الغيوم ، رحمةً لعليل النبات ، ورقَّةً لأليلِ المُهَجَاتِ ، فَنُمْنِم وَشْيُ التلاعِ ، بيدِ لطيفةٍ [٦٧ أ] صنَاعٍ ، ورصَّع

---

١ العطاء الجزيل . من منفسات .

٢ في النسخ . تمير ، تمير . تفيد وتمنح .

٣ ط م د : رقيقتها .

٤ العطاء الجزيل : الدجى .

٥ ط م د س . وأخيل .

٦ م ط س . ألمت قرعها ؛ د : فرعها .

تيجانُ الأكام ، بِنُطَفِ الغمائم السّجام ، فاهتزت القطاريّةُ لذلك القطار ، واشتملت على مُحسّنها من الأوطار ، وضحكَ ثَغْرُ الروضِ بعد عبوس ، ونُقِلَ إلى سَعَةِ الرحمة من ضَنْك البؤس ، وسحبتْ فواهقُ الأنهارِ مذانبها ، ونشرتْ عرائسُ الأزهار ذوائبَها ، ناظمةً من لآلىء الطل عقودَها ، مالئة [1] لبَّتَها [2] من جوهره الرائق وجيدَها [3] ، تفوحُ مجامرُ أزهارها ، وتلوحُ خفيّاتُ أسرارِها ، في مرائي أنوارها [4] ، فترمي الداهلَ بريّاها ، وتحيّي النائمَ وما حيّاها ، مؤذنةً بادراكها ، على لسان مِسْكها في ساحةِ مَدَاكها ، وقام من مترنّم [5] الأطيارِ ، على منابر الأشجار ، خطيبٌ يتلو ما حبّرَ من الثناءِ ، على سابغ النعماء ، وسائغِ رحيق الآلاء . فيا لها نعمةً ما أحسنَ موقعَها ، ورحمةً ما ألطف محلّها من النفوسِ وموضِعَها ، لقد بردَتْ حرّ الأكبادِ ، وشفتْ غليلَ القلوب الصَّوَاد ، وفديتْ بنفائس النفوس [6] والأولاد ، نفّستْ خِناقَ الآمالِ ، وحلّتْ عِقال [7] الإقبالِ ، وكادت تُجْري الأرواحَ في الرِّمَم البوالي ، والحمد لله كما حضّ عليه منتهى الحمد ، ومَبْلَغَ الوُسْعِ والجهد ، وما لا يحصره العَدّ ، وما شاء تعالى من شيء [8] بعد .

....

١ ط م : مائلة .
٢ العطاء الجزيل : ليتها .
٣ ط : وتجيدها ، س : وتخيدها .
٤ ط م د س : استارها .
٥ ط م د س : سر .
٦ العطاء الجزيل : وحبيبي .
٧ العطاء الجزيل : عقل .
٨ شيء : سقطت من العطاء الجزيل .

ووصف له أحد إخوانه امرأةً ومدحها وحضّه على أن ينكحها ، وكان لذلك الصديق امرأة سوداء ، فكتب إليه ابن عبد الغفور[1] :

بينما كنتُ ناظراً في المرآة من شعر أحمّ ، ورأسٍ أجمّ ، لا أخافُ معه الذمّ ، إذْ تقدّمَ رسولُكَ إليّ ، يخطبُ بنتَ فلانٍ عليّ ، ويرغّبُ[2] منها في سعة مالٍ ، وبراعةِ جمال ، ويُقْسِمُ أنها لَبَرّةٌ بالزوج بريكةٌ ، لا تُحْوِجُهُ عند النوم إلى أريكة ، ولو يُسِّرَتْ – وعياذاً بالله – لهذا النكاح ، لرزقتُ[3] قبل الولد منها[4] آلةَ النطاح ، ولا حاجةَ لي بعد الدّعةِ والسكون ، إلى حَرْبٍ زَبُونٍ ، وقِراعٍ بالقرون ، ولو حَمَلَتْ إليّ تاجَ كسرى وكنوز قارون . فاطلبْ لهذه السلعة المباركة مشترياً غيري ، ولا تسوّقها[5] ولا في النوم على أيري ، وابتعْها ولو بأرفعِ الأثمانِ لنفسك ، وأضِفْ[6] عاجَها النفيسَ إلى أبنوسِ عِرْسِك ، ولاعُذْرَ لها في النشوزِ والإعراض ، فانما حَسُنَ السوادُ الحالكُ بالبياض ، والله يمدّك بقَرْنَيْن قَبْلَ الحَيْنِ ، ويصنعُ لك صِنْعَيْنِ وبيلين ، فيُسْقِطُكَ بهذا النكاح الثاني كما أسْقَطَكَ بالأوّلِ لليدين[7] .

١ وردت في العطاء الجزيل : ١١٢ .
٢ العطاء : ورغب .
٣ م ط س : ولو رزقت .
٤ العطاء : منها قبل الولد .
٥ ط والعطاء : تشوقها .
٦ م : وأضعف .
٧ في النسخ : باليدين .

ومن أخرى . بلغني من ثناء الوزير الجليل ، النَّقّاب العلاّمة النبيل ، سيدي وسيّد أهل مصره ، بل وَقْتِه وأعصارٍ خالية قبل عصره ، ما فَغَمَ أنوفَ النجوم ، وأرغمَ معطسَ حاسِدِيَّ بمذلّةِ الوحوم ، وإنما يُثْني من رهينٍ[1] شكره ، ومعظِّم شأنه الرفيع وَقَدْرِه ، على سهمٍ ذرَّبه ، أو شهمٍ قد درَّبه ، أو تلميذٍ أدّبه وعلّمه ، فكان له الفضلُ الأكملُ بأن كلّمَه[2] ، فكأنه — أعزّه الله ، بحكم جلاله — أميرٌ شَهِدَ لنفسه فتوقّف بين حدِّ القَبول ، وبين ما في ردِّ شهادته من خوف الحبول[3] ، وهبه مَنْ كَلَّمَ مكلومَ الهاجس ، مكدومَ السيّئاتِ والمعاجِس ، قد صَحَّتْ فيه الدعوى لصاحب ، ومُحِّتِ الشبهة في سَبْقِهِ بأوضح لاحبٍ ، أيُّ خَلَلٍ سدَّ ، وأيُّ سَلَبٍ استردَّ ، لا بل أيَّ خطبٍ درأ ، ووطبٍ مَلأ ؟ ! فإذ قد اعترضَ على ما قد انحلَّ من الإحسان ، مقدور الحرمان ، فإذا في حيرتي به حسرتي ، وفي الفقرة الطالعةِ فاقرتي ، وفي حظّي لها حظّي ، ولا فائدةَ لهذه الأسجاع ، سوى تحريكِ أشجانٍ وتوليدِ أوجاعٍ ، فان رأى — أعزّه الله — أنْ أنبذَها بالعَراء ، وأطلقَ منها داعيةَ الضّراء ، فقد وافق إرادتي ، واختار لي أجْدَى من مكذوبِ إجادتي ، والله يُقْدِرُ الوزيرَ الجليلَ — سيدي وسيد أهل عصره — حتى يُشْكِيَ من شكا ، كما[4] لم يزلْ يرقُّ لمن بكى ، ويُصيخ للمكروب إذا شكا ، بعزته .

---

[1] م : رهون .
[2] ط : اكمله .
[3] م ط : الحبول .
[4] كما : سقطت من ط .

وكان الوزير أبو الحسين بن سراج[1] قد خاطب بعضَ أهل العصر برقعة يشفعُ لرجلٍ يعرف بالزريزير يقول في فصل منها :

كتبتُ أحرُفي هذه ، والودُّ صقيلُ الوذائل ، مطلول الخمائلِ ، جميل البكَرِ [٦٧ ب] والأصائل ، والله تعالى يَزيدُ أرهارَهُ وضوحاً وأطيارَهُ صدوحاً ، وظباءَهُ تيامناً وَسُنُوحاً ، بمنّه .

ويصل به — وَصَلَ الله علوَّكَ ، وكبتَ عدوَّك — شخصٌ من الطيورِ يُعْرَفُ بالزريزير ، أقام لدينا أيامَ التحسير ، وزمانَ التبلُّغِ بالشكير[2] ، فلما وافى ريشُه ، وَتَبَتَتْ بأفراخهِ عُشُوشُه ، أزمع عنّا قطوعاً ، وعلى ذلك الأفقِ اللدن[3] تدليّاً ووقوعاً ، رجاءَ أن يلقى في تلك البساتين معمراً[4] ، وعلى تلك الغصون حَبّاً وثمراً ، وأنت بجميلِ تَأتّيكَ ، وكرم معاليك تصنعُ له هنالك وُكوناً ،وتستمع من نغم شكره على ذلك أغاريدَ ولحوناً ، دون أن يلتقط في فنائك حَبَّةً ، أو يسترطَ من مائك عَبَّةً :

وإذا امرؤٌ أهدى إليكَ صنيعةً من جاهه فكأنَّها من مالهِ[5]

وانتهت هذه الرقعة إلى الوزير أبي القاسم ابن الجد[6] فعارضها برسالة قال فيها :

١ قد مر التعريف به في القسم الأول ص : ٨٢١ .

٢ التحسير : إلقاء الريش العتيق ؛ الشكير : صغار الريش .

٣ ط : اللدين .

٤ المعمر : المنزل ، وقيل هو اسم موضع في قول الراجز « يا لك من قبرة بمعمر » .

٥ البيت لأبي تمام من أبيات كتب بها إلى إسحاق بن أبي ربعي كاتب أبي دلف ، ديوانه ٣ : ٦٠ وتمام المتون ٣٦٤ ، ٣٦٦ .

٦ مرت ترجمته في هذا القسم ، ص ٢٨٥ :

حَسُنَتْ لك يا سيِّدي أبا الحسين ضرائبُ الأيام ، وتشوَّفَتْ نحوكَ غرائبُ الكلام ، واهتزَّتْ لمكاتبتك أعطافُ الأقلام ، وجادت على محلِّكَ ألطافُ الغمام ، وأشادت بفضلك ونبلك أصنافُ الأنام ، فان كان روضُ العهد – أعزّك الله – لم يُصِبْهُ من تعهدنا طَلٌّ ولا وابل ، ولا سَجَعَتْ على أيْكِهِ وُرْقٌ ولا بلابل ، فانَّ أزهارَهُ على شِرْبِ الصفاءِ نابتة ، وأشجارَه في تُرْبِ الوفاء راسخةٌ ثابتة ، وقد آن الآن لِعُقْمِ شَجرِهِ أن تُطْلِعَ من الثمر ألواناً ، ولِعُجْمِ طيرِهِ أن تُسمع من النغم ألحاناً ، بما سَقَطَ إليَّ ، ووقع عليَّ ، من طائرٍ شهيِّ الصفير ، مبنيِّ الاسمِ على التَّصْغير ، فإنه رجّع بذكرك حنيناً ، وابتدع في نَوْبَةِ شكرك تلحيناً ، وحرَّكَ من شوقي إليكَ سكونا ، ودمَّثَ في قلبي لودِّك وُكوناً ، ثم أسمعني أثناءَ ترنّمه كلاماً وصف به نفسه ، لو تغنَّتْ[1] به الورقاء ، لأذنَتْ[2] له العنقاءُ ، أو ناح بمثله الحمامُ ، لبكى لِشَجْوِهِ الغمام ، أو سمعه قيسُ بنُ عاصم في ناديه ، وبين أعاديه ، لحلَّ الزَّمَعُ[3] حُبَاهُ ، واستردَّ الطربُ صباه ، فتلقيتُ فَضْلَ صاحِبِهِ بالتسليم ، واعترفتُ بسبقه اعترافَ الخبير العليم .

وبعدُ فإني أعودُ إلى ذكر ذلك الحيوانِ الفرِّيد ، والشيطانِ المريد فأقول : لئن سمّي بالزريزير ، لقد صُغِّر للتكبير ، كما قيل « حُرَيقيص »[4] ، وَسِقْطُهُ

....

١ م ط س : تيقنت .

٢ ط : لأدانت .

٣ الزمع : القلق .

٤ فيه إشارة إلى قصة أوردها القالي في أماليه (١ : ٦٥) وهي أن الأصمعي وقف على غلام من بني أسد اسمه حريقيص فقال له : أما كفى أهلك أن يسموك حرقوصاً حتى حقروا اسمك؟ فقال : إن السقط ليحرق الحرجة .

يحرقُ الحَرَج، و « دويهية »[1] وهي تلتهمُ الأرواحُ والمهج؛ ومعلومٌ أنَّ هذا الطائر الصافرَ يفوق جميعَ الطيورِ في فَهْمِ التلقين ، وَحُسْنِ اليقين ، فإذا عُلِّم الكلامَ لهج بالتسبيح ، ولم ينطلقْ لسانُهُ بالقبيح ، ثم تراه يقوم كالنصيح ، ويدعو إلى الخير بلسانٍ فصيح ، فمن أحبَّ الاتّعاظَ ، لقيَ منه قُسَّ إيادٍ بعكاظ ، أو مال إلى سماع البسيط والنشيد ، وَجَدَ عنده نُخَبَ الموصليِّ للرشيد ، فطوراً يبكيك بأشجى من مراثي أرْبَد[2] ، وحينا يسلِّيكَ بأحلى من أغاني مَعْبَد ، فسبحانَ مَنْ جَعَلَهُ هادياً خطيباً ، وشادياً مطرباً مطيباً[3] .

ولما طار ببلاد الغرب ووقع ، وزَقَا[4] في أكنافها وَصَقَع ، وعاينَ ما اتَّفقَ فيها هذا العامَ من عَدَمِ الزيتون ، في تلك البطونِ والمتونِ ، أزْمَعَ عنها فِراراً ، ولم يجدْ بها قراراً ، لأن هذا الثمر بهذا الأفقِ هو قَوَامُ مَعَاشِه، وَمِلاكُ انتعاشِهِ ، إليه يقطعُ ، وعليه يقع ، كما يقعُ على العَسَلِ الذباب ، وتقطعُ إلى العرادِ الضِّبابُ[5] ، فاستخفَّهُ هائجُ التذكار ، نحو تلك الأوكارِ ، حيث يكتسي ريشُهُ حريراً ، ويحتشي جَوْفُهُ بريراً ، ويحتسي قَراحاً

---

١ وردت دويهية مصغرة التعظيم في قول لبيد :

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الأنامل

٢ يعني مراثي لبيد في أربد أخيه .

٣ مطيباً : سقطت من م س .

٤ م ط د س : ورقا (ورقى) .

٥ فيه إشارة إلى قول الراجز في الضب :

لا يشتهي أن يردا
إلا عراداً عردا

والعرادة : شجرة صلبة العود .

نميراً ، ويغتدي على رهطه أميراً . فتخذْهُ إليكَ ، نازلاً لديك ، ماثلاً بين يديك ، يترنَّمُ بالثناءِ ، ترَنُّمَ الذبابِ في الرَّوْضَةِ الغَنَّاءِ ، وقد هزَّ قوادمَ الجناح ، لعادة الاستمناح ، وحبّرَ من لُمَعِ الأسْجَاعِ ، ما يصلحُ للانتجاع ، واثقاً بأنَّ ذلك القَطْرَ النّاضرَ ستَتَنْفَحُهُ حدائقُهُ ، ولا تلفحه وَدَائقُهُ ، لا سيما وَفَضْلُكَ دليلُهُ إلى تُرَعِ رياضه ، وَفُرَضِ حياضه ، مع أنه لا يَعْدَمُ في جنابك حَبّاً نثيراً ، وخصباً كثيراً ، وعشّاً وثيراً : [٦٨ أ] .

فإذا ما أراد كنتَ رشاءً وإذا ما أراد كنتَ قليبا

والله تعالى يكفيه ، فيما ينويه ، شرَّ الجوارح ، ويقيه شُؤْمَ الجابِهِ والبارح ، بمنّه .

وبعد هذا الهزلِ العجاب ، جدٌّ كالظَّلامِ المُنْجابِ ، وبروزِ صَفْحةِ الشمسِ من الحجاب ، أخْطُبُ به من رسائلك بِكْراً ، أجعلُ نَقْدَها شُكراً ، وأبذل بها لها من ودّي مَهْراً ، وأمتّعُ بها لحظي دهراً ، فإن فَرَجَتْ لحطّي باباً ، ووصلت[1] في مواصلتي أسباباً ، جدَّدْتَ للعهد شباباً ، واستوجبتَ من الحمد محضاً لُباباً . واقرأ على سيّدي سلاماً أعطرَ من مِسْكِ دارين ، وأكثرَ من رَمْلِ يبرين ، يحيّيه مع العشيّ شروقاً ، ومع النجم طروقاً ، والسلامُ المعاد الموصولُ ، ما عَضَدَتِ الفروعَ الأصول ، وألِفَتِ الجفونَ النُّصُول ، على سيدي ، ورحمة الله .

. . .

١ ط س : وصلت .

وله [١] من أخرى : إنّ عجباً بِرُّ الوزير بالزعانف والزرازير ، وحَظْرُهُ [٢] على قَلْبٍ يكاد من الشوق إليه يطير ، ومن الظمأ يتشكّى قُطْعاً [٣] ويستطير . وإنه مع عَرْضِهِ على نارِ الجفاءِ غُدُوّاً ، ونبوّ مضجعِ الاحتفاءِ به هُدُوّا ، ووصمةِ التقصير في جزائه ، وممارسةِ جَرْعِ أرزائِه واختزائه ، إن لَهِجَ فبذكره ، أو هَزَّجَ فبأفانين شكره ؛ فكيف به لو ضاحَكَ مِنْ خفيٍّ بِرِّهِ فُرَضَ شؤبوبِ شُنان [٤]، غَمَرَ [٥] بذوبِ عزاليه نَوْعَ الانسان ؟ !

ثم نبدأ من شأن الحيوان بزرزور ، لا يَعْرِفُ حقّاً من زور ، مشهورٍ في الطير بالضَّرَعِ ، كثيرِ العاديَةِ قليلِ الوَرَع . كأنما رَهْطُهُ عبيدٌ للبلابل ، ولغْطُهُ وَقْعُ الحصى المتقابل ، وفي غيره من ذواتِ الريشِ ، النازحةِ بكلّ ضراءٍ وعريش ، أنجبُ منه على اللّغْنِ [٦]. وأحسنُ تصريفَ لسانٍ وذقنٍ ، كببّغَا لا تلعثَمْ في عويصِ اللُّغَى . وشَفْنين ، يثير اللوعةَ بالرنين ، كأنما عاسَرَتْهُ عند التلقين الرّاء ، وداخَلَهُ بعد الظَّفَرِ بها امتراء ، فاستظهرها بالنكير ، استظهار قَيْنٍ بِكيرٍ . وَبُهْمَةٍ في المِصَاعِ بِكَرِيرٍ ؛ وَوُرْق كالقيان ، خضبت أرْجُلَها بالعقيانِ ، فوارت لآلىءَ في الأجيادِ ، وزبرجداً أنْعَلَتْ به حوافرَ الأجياد، تستتر بورقِ الغصونِ ، وتشهَّرُ بِحُرَقِ الوجدِ

١ الضمير هنا يعود — على الأرجح — إلى ابن عبد الغفور لا إلى ابن الجد صاحب الرسالة السابقة وعلى ذلك تعد الرسائل التالية حتى آخر الترجمة لا بن عبد الغفور .

٢ د م ط س : وحطره .

٣ القطع : انقطاع ماء البئر في القيظ ، وأقطعت السماء إذا انقطع مطرها .

٤ الشنان : البارد ؛ ط م د س : شان .

٥ ط م د س : عمر .

٦ اللغن : أن يتكلم المرء بكلام خاص .

المصون، ويَصقَعُ مشتاقُها كالخطيب، ويقعُ على قاسٍ من الأيكِ ورطيب، فيلينُ لشجوه ويميد ، ويكاد يذوب[1] له العميد ؛ وربَّ عصفورٍ ، صفَرَ لذاتِ سفور ، فحكتْ نَقْرَ الزير ، وبعثتْ العينَ على الدمع الغزير ، وبلبلٍ حرَّك بلابل واقداتٍ، وشكَّ القلوب بمعابل نافذات[2]، وكائنْ من غَردٍ ، حرَّانِ قلبٍ أو صردٍ ، يفوت مدى العدِّ ، ويملأُ ديار معدّ ، ولو تقصَّيْنَا لما أحصيْنَا ، ونضب[3] عِدُّ الكلام على ثرارته ، وعَصب ريقُ الأقلام على غزارته ، فلتسهبْ بما تشهدُ لفضله رجاحُ الألباب ، ولتغرب[4] من مُدْرك ثمره بلباب اللباب ، حتى تُبيرَّ على الغريض ، بِنَسَقٍ كالاغريض ، وتَدُلَّ بِسرِّ التعريض ، على سرِّ الأضْرب والأعاريض ، على أني قد تُحُوميتُ وما نُوغيتُ ، أي كأني من الحقارة ألفيت ، ولا نعيم لعين الوهم[5] وقد وضحَتْ شاكلة[6] اليقين للمتوهِّم، وسأطَّفِّل[7] على السمع ، وأبذلُ مَذْخورَ الدمع ، فأبثُّ شجوناً ، وأنبذ نَبْذ النَّواة مجوناً ، فلا أرقُّ البهارة ، ولا أخفض الجهارة[8]، ولا أصفُ أزاهر ، ولا أنعتُ القمر الزاهر ، بل أندبُ ربوعاً، وأحرزُ العمر أسبوعاً :

. . . . . .

١ ط: يذب .
٢ نافذات : سقطت في م س .
٣ ونضب : سقطت من ط س .
٤ ط م د س : والمغرب .
٥ نعيم عين : كرامتها وقرتها ؛ س ط : نقيم ؛ م د : نغيم .
٦ م د : شاغلة ؛ ط : شاغلت .
٧ يعني « وسأتطفل » .
٨ البهارة: عظم الجسم ، وأرق البهارة نسبها إلى الرقة (أو إلى الدقة) ، والجهارة: ارتفاع الصوت أو حسن المنظر .

وأبكي على فقد الدراهم إذ لها		أبا قاسم غيري من الناس يُكْرِمُ

وما سَلَفَ للأدب مع الذهب إخاء ، ولا هاله منه انتخاء ، هذا خالد موجود ، لا يلحقُ جوهره بُيُود ، وذلك قد راب منه الشحوب ، وأخلق ذيْلُ عُمْرِه المسحوب ، فيا لمياه أسجاع هذا النَّقّاب تطّردُ لغير حائم ، ولأجناء ثمرٍ منها مع ذوات الثّقاب تَتَهدّلُ على غير طاعم ، ولعرائس نَوْرها تضاحكُ ثغراً عابساً ، وتستدرُّ جلمداً يابساً ، تَبرّجُ وليس من فِعْل النَّوار ، وتأرجُ لأنفٍ لا يعرف فَضْل الصوار[1] ، وتعاظَمُ على أكفائها ، وتسرعُ إلى ما دون الحضيض لانكفائها ، وحسبك من نهودها ليهودها ، وشرود هنّا تعثرُ في أذيال برودها ، فَعَلْتَهُ والله يُنْكِرُهَا الشرف ، ويَنْبُلُ عنها المُنْصَرَفُ ، فلتحدث العلياءُ منها متاباً ، ولتكتَف بِقَرْع هذه العصا[2] عتاباً . فشدّ ما منحت البَرّ عقوقاً ، ومنعت التشيُّع لها حقوقاً .

طالعت — أعزّك الله — بهذه الشكاية مستريحاً ، ومثلتُ لها قلباً قريحاً ، وهو بحكم جلالها يودعها من الكتمان ضريحاً ، ويُرْضِعُها من أخلاف التجاوز محضاً صريحاً ، فَيَسَّرَهُ الله لبرّ حُرّ ، وجعله بنجوةٍ من كلّ ضُرّ .

وله من رقعة شفاعة للزريزير[3] المذكور : لله قُطْرٌ باهى بك على الأقطار ، واستغنى بِخَضِل ظلّك عن صوْب القطار ، أذكَر نعيم الجنان بنَضْرتِه ، وسكّن نافر الجَنَان بلألاء زهرته ، أيّ مُحْسَب أنيسٍ وطير ، ومائحٍ

....

١ في الأصول : السوار ، والصوار : وعاء المسك .

٢ في النسخ : هذا العصى .

٣ م ط : للزريزر .

من النّعَم زخّارٍ من الخير ، وآناً لقاطعٍ ، قُطيعَ به مَع الفجر الساطع ، وبجي[1] خلّص من بحرٍ لُجّيّ ، فاهتاج طَرَبَ الجذل النجيّ، لهفاً[2] يُعْشِرهِ في البيت على الجنيّ، سبّحَ فقبّحَ للشّرب الصُّبَح ، وَصَدَح فقدح لهم من نار الغيّ ما قَدّح ، ولربما نطقَ بالتوحيد ، ويحيدُ عن سَجْدَة الشُّكْر كلّ محيد ، ويهزج ويسنح[3]، وإلى رهطين من الطير يجنح[4]، مَرْهوب الصَقْع في الديار ، ومحبوبُ السَّجْع بأعالي الأشجار ، يُمَتِّعُ بشتّى أفانينَ ، ويُخْجِلُ البلابلَ والشفانين .

وفي فصل منها : حتى اشتد منه الفَقّار ، واسودّ فَرْعُهُ والمنقار ، ولم يكنْ به إلى العَوْلِ افتقار ، فنهضَ وكسب ، وأعربَ عن نجرته وانتسب ، وأخذَ بالطباع في التوليد، وصدحَ غرداً ببيتِ الوليد[5]، إلا ما غيّر[6] منه وأحال، ولا يعرف الممكنَ ولا المحال :

لك الله عُشّاً غصّ ليلاً بأفرخٍ بعلياءِ فرعِ الأثلةِ المتهدّلِ

فيا للعجب العجيب ، ولسانِ هذا الزرزور النجيب ، أنْطَقَهُ فضلُ الوزير بلسانٍ ، نَقَلَهُ من نَوْعِ الزرازير إلى نوعِ الانسان ، فشكر وشعر[7]،

---

١ م : ربجي ؛ ط : ربجا .

٢ م ط د س : لهفي .

٣ ويسنح : بياض في م ط س .

٤ يجنح : بياض في م ط س ، وفي د : ينح .

٥ يعني البحتري ، ولكن البيت التالي لم يرد في ديوانه ، لأن الكاتب ربما غير فيه ، حسب قوله .

٦ ط م د س : غبر .

٧ ط م د س : وسعر .

حتى غلا مِرْجَلُ أشَرِهِ واستعر ، وأخذ عن وكنِهِ في الرحيل ، وباع مُبْرَماً من العيش بسحيل ، فرشقَ السماح من جسمه بسهم ، وسبق الرياحَ عن عزمه بمثل الوهم ، فما احتلّ من الجانب الغربي شرفاً ، حتى اعتقدَ إلى الجناب[1] المرضيّ مُنْصَرَفاً ، وشُغِلَ عن النظر في عطفيه ، بالنظر في أسْرارِ كفّيْهِ ، يا له من عازمٍ ، خوافي عادَتْ باللائمة على القوادم ، يتمنّى لغرغرته بالندم ، أن يُخْضَبَ من أوداجه بدم ، لأنه سَقَطَ من شَجَرِ زيتونه ، بعقم بطونه ، في هذا العام ومنونه ، على خالياتٍ من الميْسِرِ ، موحشاتٍ مثلِ جَوْفِ العَيْرِ . ولما نشر جناحاً للإياب وخفت ، وتنفّسَ الصّعداءَ والتفت ، أشفقتُ منه لغريبٍ غربيب ، وصعّدْتُ فيه وصَوّبْتُ نَظَرَ المستثيب ، فشفعت له بهذا الكتاب ، يقيه[2] من السيّد الأوحد حَرّ العتاب ، وقد تقلّدَهُ تميمةً تكفيه اختطافَ الجوارح في الهواء ، وتثنيه عن إطاعة البوارح في الالتواء ، وهو بمجده الصميم ، وبرّه العميم ، يشفع ويرفع ويسوّغه قراحاً وقرواحاً[3] ، ليمرح في هذه مِراحاً ، وينال من هذه الربى مغدىً[4] ومَراحاً ، ولو اقتصر من مذنبٍ على مُقْتَضَى المتاب ، لَغَنِيَ عند سيده عن شفاعةِ الكتاب .

وفي فصل منها : ولو صَرّفْتُ فيها الأنفاسَ كلاماً ، والأشجارَ أقلاماً ،

. . .

١ ط د : الجانب .

٢ م ط س : لقيه (اقرأ : ليقيه) .

٣ القراح : الأرض المخلصة لزرع أو لغرس ، والقرواح : الفضاء من الأرض التي ليس بها شجرة .

٤ ط : مفراً ؛ م س : صفراً ، د : معزاً (اقرأ : مقراً) ولفظة « الربى » زائدة إذ الاشارة بقوله « هذه . . . وهذه » إلى القراح والقرواح .

والبسيطةَ قرطاساً، والدجنّةَ أنقاساً ، لرأيتني مقصّراً لم أبلغْ ما أريد، وكنت أسألُ عوناً واستزيد ، وبودّي لتناهي المحبة والولاء ، واعترافي بالأيادي الجسيمة والآلاء ، لو أضْحي مكانَ كتابي ، فأسعدَ بالوفود عليه ، وأخترمَ من حَيْفِ الزمن الغَشُوم ِ بالمثول ِ بين يديه، ولكنه قد حيل بين عَبْدِهِ البائس ِ وبين مُراده ، وشُغِلَ بقوتِ يومه لنفسه الشقيّة وأولادِهِ ، فتأخّر عن حضرته السنيّةِ تأخُّرَ الكسيرِ ، ونظر إلى سنا حوزته البهيّة نَظَرَ[1] الأسير .

وله من أخرى : مثلك مَنْ لم يَعْدِلْ [به] شُحُّ التجارة ، عن كَرَم الوزارة ، ولا شَرَه المكسب ، عن شَرَفِ المنتسَبِ ، فرأى الخطيرَ بعين نزاهة نفسه حقيراً، والجليلَ [٦٩ أ] بحكم جلالةِ منتسبه[2] فتيلاً ؛ ولم أوقظْكَ بهذا التنبيه من سِنَةٍ ، ولا نفسي عن إباءِ المنية بالعاجزَةِ الزَّمِنَة ، وقد أوفيتُ رسولَكَ الميزانَ حتى رضي ، وإنه لمحضُ النصيحة فليحظَ عندك فيمن حظي ، بصَّرنا الله الرشد فيمن بَصّره[3] ، وحبّبَ إلينا تَجَنُّبَ ما مَقَتَهُ من الشحّ وَحَظَره .

وفي فصل من أخرى : وردَ لسيّدي أيُّ كتابٍ ، بل أيُّ قِطْفٍ من ثمراتِ الألباب ، حيّا به على البعاد ، وبرَّدَ غُلّةَ قلوبِ صواد ، فهجرنا له الزُّلالَ ، وحسبناه السلسبيلَ الحلال ، ودرُّ درّه من كاتبٍ أقسمَ بالطور ، لقيّدَ عينيَّ بشطور ، تشوقاً إلى بهجة تلك السطور[4]، وفيها من شغفٍ بها أقول :

....

١ م : نظير .
٢ م س : نفسه ؛ ط د : نسبه .
٣ في النسخ : أبصرنا . . . أبصره .
٤ انظر هذه العبارة ص : ٣٣٠ س : ١٠ .

سطورٌ أفادتْ كلَّ خالٍ بوجنةٍ كما خَطَفَتْ منها لماها المباسمُ

سَحَبَتْ ذيلاً على بلاغة سَحْبَانَ ، وسرتْ ليلاً فيا فَوْحَ مابين قرطبة وبغدان، ولولا ودّ يمدُّ بتشوّقي إليه النَّفَس، وَوَجْدٌ يمنعُ ثرى ما بيني وبينه أن يَيْبَس[1] ، لما ناضلتُ فائزَ[2] كَلِمِهِ بمعراض، ولا ضاهيتُ جواهره الخالدةَ بأعراض ، والله يَصِلُهُ في الأحفاد ، ويحرسُهُ في حوادثِ الآباد ، ويعمرُ ببشرهِ بَشَرَةَ الجماد[3] ، وَيُعْلِمُ به مجاهلَ الأجياد .

وفي فصل منها : شفع الله تلك الغزوةَ الميمونةَ بغزَوَاتٍ ، وكتب لنا في ساحات أعدائهِ عدّةَ مواطىءَ وعدوات ، حتى يُحْرِزَ أسيراً ذا التاج ، ويفرج عن شخصه مُغْلَقَ الرتاج ، ونؤوبَ بغير رضى الكنديّ[4] ، بل على وصفِ النابغة سميِّ الجعديّ ، راضين عن كلِّ عقيلةٍ ، نيّرةٍ أسيّرة القسمات[5] صقيلة ، كريمة مثل الديمة ، تذري دمعاً على الأجفان ، وتُخْفي ترائب كترائب الجفان ، صُقِلَتْ بالنعيم ، وصافح عنهنَّ الصفيحَ كلُّ بطريقٍ زعيم ، ان اصْطُفِيَتْ لم تجىءْ بِفَسْلٍ ، وتُنْجِبُ بإذْنِ الله في النَّسْلِ ، كعليِّ بن الحسين وسالمٍ ، والمعتصمِ[6] المشهورِ العين في المكارم ، وغيرهم

١ ييبس الثرى كناية عن العداوة والجفاء ، ومنه قول جرير :

فلا توبسوا بيني وبينكم الثرى فان الذي بيني وبينكم مثري

٢ د : قائد .

٣ م ط س : الحياء .

٤ يشير برضى الكندي إلى قول امرىء القيس :

وقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالاياب

٥ م : أسير القصة ؛ ط د : أسر .

٦ ذكر هؤلاء لأنهم أبناء إماء ، وقد أنجبن بولادتهم .

من أمير وخليفةٍ ، وذي منزلة في الفضلِ مُنيفَةٍ ، وربَّ فخور مختال ، يدفعُ في هذا ببيتِ[1] القتّال[2] :

أما الإماءُ فلا يدعونني وَلَداً   إذا ترامى بنو الإموانِ بالعارِ

وليس كما زعم ، من عارٍ ، لابسٍ ثوبَ الكِبْرِ المستعار :

لا تُزْرِيَنْ بفتىً من أن تكون له   أمٌّ من الروم أو سوداءُ دعجاءُ
فإنما أمَّهاتُ الناسِ أوعيةٌ   مستودَعَاتٌ وللأبناءِ آباء

ما كلُّ الحرائر ، ببريّاتٍ[3] من الجرائر ، ولا كلُّ الإماء بمخلاّتٍ في[4] الانتماء ، وإني مع ذلك لأتوفّرُ على الرَّهْطِ ، ولا أرغبُ في رقيٍّ عنه ولا هبْطٍ ، وأنشِد :

إنّي على شَغَفي بما في خُمْرِها   لأعفُّ عمّا في سراويلاتها[5]

والله يصرفُ المعْتَرِضاتِ دونَ الواجبات ، ويسمعُ عنّا الخيرَ في المحيا والممات .

. . . .

١ م ط : البيت .
٢ ديوان القتال : ٥٣ — ٥٥ وروايته :
أنا ابن أسماء أعمامي لها وأبي   إذا ترامى بنو الاموان بالعار
أما الاماء فما يدعونني ولداً   إذا تحدث عن نقضي وإمراري
والبيت كما ورد في الذخيرة هو رواية سيبويه ٢ : ٩٨ وشرح المفضليات : ٤١٢ واللسان والتاج (أما) .
٣ غ بهامش ط : بسالمات من .
٤ غ بهامش ط : بقاصرات عن .
٥ ديوان المتنبي : ١٧١ .

وفي فصل : وما زلتْ معتزياً إلى أدبه ونسبه ، منفقاً من غَرَبِ[1] كَلِمِهِ الرائقِ وذهبه ، مقرّاً بفضله ، معترفاً بتبريز خَصْلِهِ [2] ، مرتسماً في جريدة من أدَّبَهُ ودرَّبَهُ ، وأرهفه وذرّبه ، ولقّنه وعلّمه ، وكان له الفضلُ الأكملُ بأنْ كلّمه [3] : فليصلْ منّي ولداً ثانياً ، وليجبرْ كسيراً وانياً ، وليأسُ بالكلام العَذْبِ ، بل اللؤلؤ الرَّطْب ، كَلْماً دامياً ، أصابَ والعذارُ مُبْقِلٌ ، وما أجْلَبَ والشيبُ عليَّ مشتمل . وليمنَّ على وليّه ، وغذيّ وَسَمِيِّهِ ، برقعةٍ يضمّنها وَجْهَ الحيلة ، في مُداخَلَةِ تلك الدولةِ الجليلة ، أيّد الله سلطانَها ، ووطّدَ أركانها ، ليبنيَ على ما أسّسَ ، ويجتني من ثمر النجاحِ [4] ما رَشَّحَ وَغَرَسَ .

وله من أخرى : ما ظَنُّهُ بعليلِ ذِلّةٍ [5] وقِلّة ، وهما أشدّ مرض وعلّةٍ ، عُلِمَ داؤهُ ودواؤه ، وتعذَّرَ بُرْؤُهُ وَشِفاؤهُ ، وقد أوجبَ النظرُ الطبيُّ والقياسُ الصناعيُّ إذا عُلِمَ الداءُ ووُجِدَ الدواء ، ولم تعترضْ منيّة أنْ[6] يكون الشفاء ، فهو بحكم وَصَبِهِ ، وتقطّعِ أسبابِ الفرجِ به ، أنزقُ من فحل مخفور[7] ، أو ذئبٍ محصور ، قد ثقل على ذويه ، وأبغضه مُحبِّبه

. . .

١ م ط - عرب ؛ د : عذب ؛ والغرب : الفضة ، وقيل الذهب . والغرب في بيت الأعشى « تراموا به غرباً أو نضاراً » تعني الفضة .
٢ م ط : حصله .
٣ انظر عبارة مشابهة في ما تقدم ص : ٣٤٦ س : ٥ .
٤ م ط : الجناح .
٥ م س : دولة ؛ ط : دلة .
٦ د : من أن .
٧ م ط س . محل محفور .

فضلاً عن مُجتويه ، ولم ألهجْ بذكرِ قلّةٍ على الاطلاق ، ولا خشيتُ مع القُنُوعِ من إملاق ، فانا رأسُ الأغنياء ، وعندي من كيميائه فوْق الكيمياء ، وفي ذلك قلت : [٦٩ ب]

عيَّرتني بفقارٍ عاطلٍ حَليتْ جيداً بدمعٍ سَجَما
بفمي عزّةُ نفسٍ لُكتُها ملأت منّيَ بطناً وفما

وجعلتُ مُدّةً بابَ صلتي بِكُتُبِهِ ، ضَرْباً من النَّظَر لقلبه ، ولقلبي المنقطع القرين في حبّه ، إذ كنتُ لا أخلي أجوبتها من صحيحِ الشكاية ، ولا أقتصرُ على ما عنده من سقيمِ الحكاية ، فأكونَ قد صدعتُ صميمه بتعديدٍ[1] ألقاه ، وَبِتُّ غريمه بما عسى أن يتكلّفه من السعي ويتولاّه .

وله من أخرى : جائز في حُكْمِ الثقةِ بقدرةِ الله أن تُرْجَى الممتنعات ، وتُتَرَقّبَ بطلوعها الساعاتُ ، مع استيلاء اليأسِ على النفس ، كعَقْدِ هذا المبيع ، الذي عقَدَ الصيفَ بالربيع ، فكأنما وقفَ الزمانُ فلا جزؤهُ الواقعُ وقع ، ولا ماضيه انقطع ، ولا منتظرُهُ اطّلع ، وإنما هو جزء دائمٌ ، ونفوسٌ على الوِرْدِ حوائم ، وعهدي بعزة الفقيه مُطْلعُ بشائر ، فلا يذكر المثلَ السائر :

وحتّى يؤوبَ القارظانِ كلاهما وينشرَ في الموتى كليبٌ لوائلِ[2]

. . . .

١ م ط د س : بتعد يدك .

٢ البيت لأبي ذؤيب الهذلي ، ديوان الهذليين ١ : ١٤٧ ، والمثل الذي يشير إليه هو « حتى يؤوب القارظان » ، انظر القسم الأول : ٧١٦ .

وفي فصل من أخرى : سألتُ الفقيه – أعزّه الله – حاجةً منذ عامين ، وأخرى منذ شهرين ، ولم تكونا بكبيرتين ، وفي كليهما نقَضَ من ودّي اليدين ، فليت شعري على أيّ ودٍّ بعد ودّي يشدّهُما ، أو إلى أيّ عقْدٍ مثلِ وثيق عقدي يمدّهُما ، تالله ليُدْفَعَنَّ من بني الأيام ، إلى لئامٍ غيرِ كرام ، أغرَّ من السَّرابِ ، وأغدر من الذّئاب ، وأعقَّ من الضِّبابِ[1] ، وأوهى حبلاً من مضمحلِّ الضّباب ، وسأسأله ثالثةً والثالثةُ الصادقة ، فان قضاها شكَرْتُهُ ما ذرَّتْ شارقة ، وان أباها فخيلُ عتابي إليه ساريةٌ طارقة .

وفي فصل من أخرى : أنا في فرطِ برّي بالوزير الجليل – صنع الله له كلَّ صُنْعٍ جميل – إذا رماني ببهيٍّ شَخْصِهِ الطريقُ ، عَصَبَ من استحيائه بفيَّ الريقُ ، فلم أكدْ في التسليمِ عليه أبينُ ، وَجَعَلَتْ معترضاتُ حاجاتي إليه تَفرّقُ وتَبين ، حتى كأني ما بتُّ لها أرقاً ، ولا طويتُ بها كشحاً مُحْتَرقاً . وكيف لا أستحييه – أعزّه الله – وإنما[2] ألقاه باسطَ راحةٍ ، أوسائلَ إراحة ؟ ولولا بِشْرٌ له يؤنسُ ، ونَهلّلٌ من وصمة الودِّ يَعْصمُ ويؤيس ، لما انبسطتُ عليه في أمر ، ولو مسّني مُهِمُّهُ بألذعَ من جمر ، وكنتُ قد أعددتُ لِسَعَةِ كرمه أربعَ حوائج ، ولعلها عند حرصه على الفضل أربعُ نتائجَ ، سلاهيبَ أو مرابيع[3] ، أشباهها[4] للجري ينابيع ، وتَأمْتُ بعدُ بهذا المنظوم وَجِعاً ، وإن كنتُ متصرِّفاً لا مضطجعاً ، ولو سريتُ من

. ...

١ انظر في هذه الأمثال : الدرة الفاخرة : ٣٢٢ ، ٣٢١ ، ٣٠٦ .
٢ د : وأنا .
٣ السلاهيب : الطوال من الخيل ؛ المرابيع : جمع مرباع وهي الناقة ومعها ولدها وهو ربع .
٤ م ط : أشباعها ، س : لشبا بجمعها ؛ د : أشبالها .

الصحةِ بدليل ، لاهتديتُ إلى ما يليق[1] بقدره السامي الجليل .

ومن أخرى : فما ظنّه[2] بأمد يومٍ[3] يُشيبُ الوليدَ ، ويستخفُّ الحليمَ الجليدَ ، ولعمري لئن جعل الولدانَ من جهةٍ شيباً ، ليردّنّ الشيخَ اليَفَنَ من أخرى قشيباً .

ومن المنظوم الذي ذكر فيها :

يا حبّذا قصدُ الوزيـ	ـر وان تُكلّفَ في المجيرْ
ذكري له ظِل يرفُّ	وَبِشْرُهُ ماء نمير
نفسي الفداءُ لنفسه	من كلِّ دائرةٍ تدور[4]
شَهْم حوى قَصَبَ العلا	دونَ الورى بها[5] وخير
وأقامَها ببراعة	أمضى من السّيف الطرير
يَهْنِي الأميرَ حُصُولُهُ	منه على العِلْق الخطير
فَعَلَيْه واقيةٌ تردُّ	قنا[6] اللهاذم تستطير
يا سامياً وهو الصغيـ	ـر بعزمة الرجل الكبير
مهلاً فَضَحْتَ معاشراً	خانوا الأمانة في الدهور
وبنيت ما هدموا فهلْ	خجلوا للذلك في القبور

---

١ م ط س : مليق .

٢ م ط : نلته .

٣ زاد في م : ليله .

٤ م : تزور

٥ م : بنهى .

٦ هذه قراءة خ بهامش ط ؛ م س : فى .

وعليك من كَلَفٍ بما يسديه رأيك أو ينير
عدد[1] النجوم تحيةً ولربما قلَّ الكثير

وله من أخرى : يا سيّدي الذي به أفاخرُ الشُّرفاء ، وأكاثرُ منهم العددَ الجمَّ واللّفاءَ ، فمن أنوفٍ تُسْعَطُ بالرَّغام ، ومن ألوفٍ تسقُطُ كحروف الإدغام ، بلغني من ثنائك عليَّ ما به أهْرِف ، وبالتقصير في جميعه أعترف ، ما يزيدُ منه [٧٠ أ] النَّشْرُ على مِسْك دارين، ويقلُّ عليه الشكر عَدَدَ رَمْلِ يبرين . لله فَضْلُ نَزَّهَ ذلك المنطقَ الشريف عن[2] القَدْح ، واستعمله فيما استولى عليه الشحُّ ، من التقريظ والمدح ، لقد ألبسني من السُّرور بتكرُّمه أضْفَى جلباب ، وكاد يطفىء المشيب في تضرُّمه بكرّ ماء الشباب ، لم تُنْدُبه الفضائلُ من الحسد ، فشهدنا له فيها بقوَّة المسَد ، ولولا أنْ أكونَ مادحَ نفسه لقلت: شتَّانَ بين مُنْصِفٍ وَمُتَعَسِّف، وطالعٍ من بيْن[3] الكلام وَمنْكَسِف[4] ؛ وقد لعمري كنتُ مضطراً ، وكدتُ أحكُمُ لنفسي على معاصريها طُرًّا ، وذلك بحكم معاشرة قَوْمٍ ، يستعذبونَ في جَنْب الغضّ من كلمي مُرَّ عضّ اللوم ، أيقاظ هم أم رقود ؟ أم ليس بين الشّبه والذّهَب نقود؟ فيا مطلعي بِقُرَّة عَيْنٍ ، لا منصفي[5] لتعيّن دين، دَرَّ درُّ علائك حتّى تصبحَ لك الجوزاءُ داراً ، وتسحبَ بها البدر[6] إزاراً ، وتعقدَ

١ ط م د س : عد .
٢ ط س م : على .
٣ د : نير .
٤ م : ومتأسف .
٥ ط د س : بمصمعي .
٦ م ، وتسحب بهذا البدر .

عليكَ الشمسُ أزراراً[1] ، فتفوقَ محلاً وتهولَ مقداراً .

وأنفذته من كتاب ، غبَّ قصد الحجل المرتاب ، بنفسي فَادِيَتِه ، لينظرَ حين مشافهته ، كيف عَمَلُ آلاتِها[2] ، في شُكْر موالاتها ، فكان من الشقاء ، ما تعذَّر منْ محبوب اللقاء ؛ وَحَمَّلْتُهُ المتطبِّبَ أبا فلان ، كريمةَ رَهْطِه ، النَّابه الذّكر في أعلام سِبْطِه ، زعيمَ يهود ، المسوَّدَ فيهم المَسُود ، بحُكْم التوقُّف عن الملَّة الحنيفية ، والتردُّد في المذاهب الأحبارية ، وطويتُهُ على كَلِم جاشَ به صَدْر مكلوم ، وهاجس بمقارعة أقران[3] الهموم ، مصدوع مثلوم ، وأريدُ تحقُّقَ كيفيَّة حُسْنِه ، بالنظر في مرآة ذهْنه الصقيلة ، وتعلّمَ كميَّة وَزْنه ، بسجيَّة إربه الرّاجحة الثقيلة ، فان كَلِفَتْ بعد هذا به العيونُ ، ولم يُشَلْ منه الجِرْمُ الموزون ، فَتَبيُّمُنٍ[4] الاقتداء به ، والاهتداء بنجم أدبه ، لا زال عَلَماً نهتدي بمناره ، ونعشو إلى ضَوء ناره ، والسلامُ عليه ما تلألأت الفُورُ[5] ، وصرَّ العصفور ، تحيةً تزاحمها في سَمْعِه تحياتُ السُّعُود ، وتملأ رَحْبَ رَبْعِه بإنجاز موعود منها وموعود .

وله من أخرى: أطالَ الله بقاء الفقيه الجليل ما زَخَرَتْ أوديةُ الكلام ، وانتشرت أرديةُ الغمام ، وصَرَّتْ في القراطيس الأقلام ، وَسَرَتْ إلى النائمين الأحلام ، ولو علمتُ مزيداً له في البقاء ، ومحلاً فوقَ أرفع الكواكب ...

١ ط م : ازارا .
٢ ط م س : الاتهاد .
٣ د : أقدار .
٤ في النسخ : فيمن .
٥ الفور : الظباء ، يقال : لا أفعل ذلك ما لألأت الفور ، أي بصبصت بأذنابها ، أي لا أفعله أبداً.

في الارتقاء ، سألته ضارعاً إلى الخالق ، ولو قُرنت الإجابةُ فيه بالتردّي من حالق ، بادرتُ ذلك غيرَ رعْديد ، وأقدمتُ منه على الخطب الشديد ، والله ينيرُ منارَ الأيام ، وينسخُ باثبات[1] عينه آثارَ اللثام . وإن العاقلَ والمتعاقلَ[2] لينضحُ بِصُبابة صَبْرِه، حَرَّ لاعجِ الهمّ المعترضِ في صدره ، فربما أدنى له ذلك نازحَ منى ، وأثمر أحلى من ضرَبِ العَسَلِ جنى ؛ وقد آثرتُ هذا النوعَ من المعاشرة ، وانتبذتُ بحمد الله من كلّ نزَقٍ ومعاسرة[3] ، مشبهاً بهما وان كنت عن توقيهما[4] بمعزل . كما ألفيتَ الجمجمةَ البيضاءَ ثالثة[5] أثافيٍّ المنزل، فَدُعيتْ أثفيّةً، وكم باتت بطارقها المستطعم حَفية[6]، فصبرتُ عن[7] اقتضائه موعودَه ، وَحَمَيْتُ لإرصائه كاذبَ طيفي المشفِق أنْ يعودَه ، مبالغةً في أدَبٍ لا تُنْصِفُهُ الأيام ، ولا تُسْعِفُهُ في أرَبٍ وقد جدَّ به الهيام[8] ؛ وإني إلى لقائه — أعزّه الله — لأشْوَقُ من الساجعة ، وَمَنْ لِذاتِ الأرَقِ براحةِ الهاجعة ؟ ! ولو شاء لأغنى بأيْسَرِ إيماء ، وأدالَ من غِلْظَةِ[9] الحرّةِ برقة الإماءِ ، والآن حين فَعَمَ الماءُ الحوضَ ،

.. . .

١ د : بايات .
٢ ط : والمتعالق ، م : والمتعالي .
٣ ط م : ومعاشرة .
٤ ط د : توقيعهما
٥ ط م س : ثابتة (م : في) .
٦ ط م د س : خفية .
٧ د : على .
٨ م : الحمام ، س ط : الحسام .
٩ ط د م س : غلطة .

وغمر النّرعةَ وشملَ الروضَ ، ومشيتُ على قدميّ الأميالَ ، وَدُسْتُ[1] والله بهما ماءَ المنى السيّالَ ، وليت ببيعي صيدح[2] ، قَفَى عنّي ديناً فدح ، ولكن شَفَعَ خُمولَ العطلة ، بِخَجَلِ الرحلة ، فَقُيِّضَ لي إصران ، وخُصِصْتُ بالشّقْوةِ من بين الأقران ، وقد كان وعد في حالي بجميلِ نَظَرٍ ، ولما طال عليَّ أمَد ذلك الوعدِ المنتظر ، رأيت أن أذكّر :

وإني لأدري[3] كيف أرضى وأقتضي ... ولكنه الحرمانُ يقضي بأن ألْحى [٧٠ب]
وأصْرَفُ عن وِرْدٍ وقد غَمَرَ الندى ... خفيفَ عِذارٍ والمبنّقَةَ الألحى
ومن عَجَبٍ أن يُقْطَعا كلّ نخّةٍ[4] ... وأمْنَعَ للقُرْصِ الذي فاتني الملحا

وليس — أعزّه الله — قُرْصَ بُرٍّ ولا شعير ، فانّه قد يكون مَرْتَعَ بعير ، ومستوقَدَ سعير ، إنّما عنيتُ أُرَيْضَةً ضيقةً الساحة ، تكادُ تُشْتَمَلُ بظلّ الراحة ، وتُلْغَى في كُسُورِ المساحة ، ضَعُفَتْ عن عمارتها ، وطمس الكلأ عَيْنَ أمارتها ، فلولا ضِدُّها من جَنّةِ جارٍ ، خبيثِ الطُّعْمَةِ لئيمِ النّجارِ ، جَرى له بالجرأة قَدَر جارٍ ، فمتى صَدِئَتْ له صَفْحَةُ أرضٍ صَقَلَها ، ولو اشتكت إليه نُبُوَّ المنزلِ لنقلها ، لأصبحتْ هذه اليابسة ضالّةً أنْشُدُها في القرى ، ولو وقع منها اليأْسُ لانقطع مني القَرا[5] .

[1] م ط : وجست .
[2] صيدح : ناقة ذي الرمة ، وبيعها يعني التخلي عن شيء عزيز .
[3] م ط د س : لا أدري .
[4] النخة : البقر العوامل أو الحمير أو الرقيق .
[5] القرا : الظهر .

كتبتُ وإنّما يكتبُ الخليُّ ، ولا يحسُّ غيرَ عويلِهِ الشجيُّ ، ومن لا يملك بجدّه زماماً ، فأحرى بأن تصير يداه الباطشتان أكاماً ، وكأني به — أعزّه الله — قد قال : بل تنفعُ الأكمامُ وتضرُّ ، ويُطرّدُ بها الحرُّ والقرُّ ، وإنّما أردتُ الأهمَّ والأعمَّ ، وما ينفي الغمَّ ، ويحرزُ المعنى الأتمَّ ، لا قرّاً صابَرْتُهُ حتى انصرمَ وتولّى ، ولا حرّاً ما أرِمَ عندي ذبابه ولا تغنّى ، لأنّه إنّما يألفُ منازلَ أهْلِ الترف ، ويحومُ على ما فيها من صنوفِ مآكلَ وضروبِ طُرَف ، وإمّا لائكُ بَسْبَاسٍ وحشيش ، مؤتدم بزيتِ مباركٍ وملحٍ جريش ، فما ضجر منها لغُدَدَة[1] ، ولا جاء نطاسياً شاكياً بَرَدَة ، فمن حيث صحّ اعتراضه ، لم يَحُلْ بإصابةِ الشاكلةِ مِقْراضه ؛ وكنت أجدع[2] هذا المقال لو لم أخَفْ عليه تطويلاً ، وإن تطارد لي ما أملُ منه شيئاً قليلاً ، فسوف أعَدُّ في البلغاء ، وأحسِنُ سَجْعَ ذوات الأطواق بَعْدَ الرُّغاء .

وله من أخرى : بيني وبين الفقيه النبيه[3] — صَنَعَ الله له كلَّ ما يشتهيه — ما لا زيادةَ لتنميقِ البيانِ فيه ، من ودٍّ مَضَى عليه الأسلافُ . ولم يعترض فيه على من تخلّفوا بنوعٍ من أنواع التداني خلاف ، إذ السببُ في فساد أكثر الأشياء دنوٌّ وامتزاجٌ ، ولم يَجْنِ على الصَّعْدَةِ أن تبيتَ طُعْمَةَ للنار إلا الزّجاج ، كبكرِ الراح ، أمِنَتْ حولاً مُجَرَّماً من عاب التخليل ، حتى مُنِيَتْ من الماء القَرَاح بأشأمِ خليل ، فجرى لها مقدورُ التلاقِ ، بكراهةِ

---

١ ط : لغردة ؛ م س : لغرده .

٢ م ط س : أجرع .

٣ النبيه : سقطت من ط م .

مَذَاق ، وشراسةِ أخلاق ، وإنهما بلا مَيْنٍ ، لمن عُنْصُرَيْنِ كريمين ، سلالة غمام، وسلافَةُ مُدام، وأيّ شيءٍ اصطحب إلا انتحب؟! الراحةُ – أعزّك الله – في الانفراد ، ولا بدّ من الإصدار لذوي الإيراد ، فاحمد الله على نوع من الودادِ ، غريبِ الميلاد، كأنما أصبح حبيساً[1] على الأبناء، واستمر من الوفاء به على مثال حالِ البناء ، فما تغيَّرَتْ له حركةٌ قطّ ، وأنَّى ذلك ولا يُرْفَع ولا يُحَطّ ، بل تُجَدِّدُ نَضَارَتُهُ، وتؤكّدُ – وقد أجدَبَ ثرى كلّ ودٍ – غَضَارَتُهُ، فما شئت لِيرَوْحِ ذلك العلاءِ من شذاً ذكيّ ، وعَرْفٍ من زهر[2] الثناء مسكيّ ، تندى بذكره ألذُّ الشفاه ، وتحترم من الخلوف الأفواه[3] .

ومنهم ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمّار[4]

وكان غربيَّ المطلع ، شلبيَّ المقطع ، شنّبوسيّ[5] المصيف والمربع ، إلا أنّ

....

١ ط م : حميساً .

٢ ط م د : زهو ، وسقطت من س .

٣ عند نهاية هذا الفصل في ط بخط مختلف ،ما يفيد سقوط ترجمة الوزير أبي أيوب سليمان ابن أبي مدينة وأبي الحسين القرشي العامري ؛ ولا وجود لهاتين الترجمتين في فهرس الذخيرة .

٤ ترجمته في وفيات الأعيان ٤ : ٤٢٥ والخريدة ٢ : ٧١ وبغية الملتمس رقم : ٢٢٧ والمغرب ١ : ٣٨٩ والقلائد : ٨٣ والحلة السيراء ٢ : ١٣١ والمطرب : ١٦٩ والمعجب : ١٦٩ ورايات المبرزين : ٢٥ وأعمال الأعلام : ١٦٠ والنفح ١ : ٦٥٢ (نقلا عن القلائد) وانظر صفحات أخرى متفرقة ، والوافي ٤ : ٢٢٩ وعبر الذهبي ٣ : ٢٨٨ والشذرات ٣ : ٣٥٦ وللدكتور صلاح خالص مؤلف عنه جمع فيه شعره (بغداد ١٩٥٧) وللأستاذ ثروت أباظه كتيب عنه (في سلسلة اقرأ) .

٥ ط م : شنبوسي .

شعره غرَّب وشرَّق ، وأشأم في نَغَم الحداة وعلى ألسنة الرواة وأعرق ؛ لا جرم فإنه كان شاعراً لا يجارى ، وساحراً لا يبارى ، إذا مدح استنزل العُصْمَ ، وإن هجا أسمع الصمَّ ، وإن تغزَّل ، ولا سيما في المعذَّرين من الغلمان ، أسمع سحراً لا يعرفه البيان ، وكيف لا يُرْغَبُ في شعره ، ويُتَنَافَسُ فيما ينفثُ به من سحره ، وهو يضربُ في أنواعِ الإبداع بأعلى السهام ، ويأخذُ من التوليد والاختراع بأوفر الأقسام ، وقد أثبتُّ منه في هذا الديوان ، ما يشتمل على غرائب الحُسْنِ والإحسان ، وأدرجتُ في أثناء مقطوعاتِ أشعاره ، نكتاً وَلُمَعاً من نوادر أخباره ، وذكرتُ آخر أمره مع المعتمد ومباشرةَ قتله [٧١ أ] له بيده ، وأجريتُ شَرْحَ صفةِ الحال ، من المبدأ إلى المآل .

وكان قد نشأ والشعرُ بأفقنا أنفقُ ما عُهِدَتْ سوقُهُ ، وأعمرُ ما كانت إلى الجاهِ والمالِ طريقه ، فاتخذه مُدَّةً صناعتهُ ، ثم خلعَ بعدُ[1] طاعته ، رغبةً عن نِحْلَةٍ سؤددها سؤال ، وأجودُها كذبٌ ومحال ؛ وكان أبو بكرٍ من نقائذِ البوسِ ، ونوافض الجَدِّ اليبيس ، أحدَ من امترى أخلافَ الحرمان ، وقاسى شدائدَ الزمان ، وبات بين الدكّة والدكان ، واستحلس دهليزَ فلان وأبي فلان ، جرَتْ على رأسه من ذلك أحوال ، دلَّتْ على أنَّ الدنيا إدبارٌ وإقبال ، وأنَّ عَيْشَ المرءِ فيها تهاويلٌ وأهوال .

بلغني عنه أنه لزّته إحدى لياليه النّكِرات ، في أيامه المنكرات ، إلى انتجاع بعضِ أعيانِ شِلْب ، أحدِ مَنْ طَرِفَتْ عنه أعيُنُ النّوَبِ ،

. . . . . .

١ د : بعد ذلك

وَسَعِدَ بما كان ابنُ عمّارٍ شقيَ به من الأدب ، فاعتمده بأبياتٍ عملها على سبيلٍ قد تنكّرَتْ له وتنكّرَ لها ، وبنفسٍ لولا نَفَاسَتُها لقتلها ، واتفق أن قصده بها يومئذٍ حين جَنَحَتْ ذُكاءُ ، وَصَبَغَتْ الغيطانَ لونَها السماءُ ، ولم يبقَ من النهار إلا تعلّةُ عليل ، وبُلغةُ ابنِ سبيل ، أضيقُ من عُذْرِ الجبانِ في الفرار ، وأقصرُ ممّا بين اللحيةِ والعذار ؛ فلما أنشده قطعةَ شعره ، وَهتَكَ له الحجابَ ساعتئذٍ عن وجْهِ عُذْرِه ، أسرَّ إلى غلامه بكلامٍ قصير ، فغاب عنه غيرَ كبير ، ثم خرج عليه وفي يده مِخْلاة شعير[1] ، وقال له : خُذْ ما حَضَرَ ، وأنت أحقُّ مَنْ عذر . فجاشَتْ نَفْسُ ابنِ عمارٍ جَيْشَةً أذْهَلَتْهُ عن اسمه ، وكادتْ تسيلُ عَرَقاً على جِسْمِهِ ، وهمَّ بِصَرْفِ نائلِهِ النَّزْرِ إليه ، ففكّرَ في مُهَيْرٍ كان يركبُ عليه ، فاحتمل الغضاضةَ في قبول ذلك النيل ، راجعاً بالملامةِ على هجومِ الليل ، محتجاً بكلّ بيتٍ كان حَفِظَهُ[2] في إيثارِ الخيل ، وقام يخدُّ الأرضَ برجليه ، ويُدْمي بالعضّ يديه . فلما صار ابنُ عمّارٍ إلى الحال التي وَسْوَسَتْ للعصفور بصيد العُقابِ ، وسوّلَتْ للكبير ارتجاعَ الشباب ، هَجَمَ على منزلِ ذلك الرجل ، وقد صارت إليه أعناقُ الدول ، وغصّتِ الأرض حواليه بالخيل والخَوَل ، فقام يفدّيه بماله ، ويحسبه يومئذ خطرةً بباله ، أو خلوةً بطيفِ خياله ، فذكّره ذلك الزمانَ ، وقرّره على ما كان ، والرجلُ يتلاشى بين الوَجَلِ والحياء ، ويتمنّى لو ابتغى نَفَقَاً في الأرضِ أو سُلّماً في السماء ، ولم يَرِمْه أبو بكر ، حتى أخرج إليه قطعةَ الشّعر ، فبرىء إليه ابنُ عمّار من تلك الدنيّة ، وأعطاه مخلاةً مملوءة بدراهمَ قاسميّةَ ، وقال له : لولا حُرْمَتُك

[1] د : من شعير .

[2] د : يحفظه .

لأوجعتُكَ أدباً ، ولو ملأتَ تلك أمسِ بُرّا ، لملأت لك اليومَ هذه تبراً . فسبحان من لا مُنازِعَ له في خَلْقه ، ولا اعتراضَ عليه في قسمةِ رزقه ، له النعمة السابغة ، والحجّةُ البالغة .

ثم لحظ ابنَ عمّارِ الاقبال ، وحالتْ به الحال ، وقُلّدَ الأعمالَ السلطانية فأتْهَمَ فيها وأنْجَدَ ، وقام بأعبائها وقعد ، ثم لحق آخرَ عمره ، وبين يَدَيْ إدبارِ أمْرِهِ ، بثغر سَرَقُسْطَةَ بعد خروجه من مرسية — في خبر سيأتي ذكره — ولم يزل بذلك الثغرِ يترددُ ، وفسادُ حالِهِ عند المعتمد يتزيّد ، إلى أن كان من خبره ما كانَ ، حسبما يأتي به الشرح والتبيان .

وأوّلُ تعلُّقِهِ بالمعتمد كان حينَ وجّهه لحربِ شِلْبَ أبوه المعتضد ، فنزع ابنُ عمّار إليه ، وبلغ من المنزلة لديه ، أنْ غَلَبَ عليه ،وبعد انتباذه شلب ، وفراغِهِ من تلك الحرب ، صَحِبَــه بحضرة إشبيلية ، وأحضره معه مجالسَ أنْسِهِ ، إلى أن أوْجَسَ خيفةً في نفسه من أبيه المعتضد ، ففرّ عن البلد ، ولحق بشرق الأندلس ، وتمكّنَ بها من المؤتمن يوسف بن أحمد بن هود ، فخاطب المعتمدَ بهذا القصيد الفريد[1] ، وقد أثبتُّ أكثرَهُ لاشتماله على البدائع ، فإنه من كلامه الرائقِ الرائع[2] ، وأوله[3] :

. . . .

١ علق ابن الأبار (الحلة ٢ : ١٤٨) على هذا بقوله : « ومن فاحش الغلط قول ابن بسام ان ابن عمار قال هذه القصيدة لما خاف من المعتضد لغلبته على ابنه المعتمد » ، لأن هذا كان قبل ٤٦٠ أو ٤٥٠ بينما تولى المؤتمن في جمادى الأولى سنة ٤٧٤ .

٢ الرائع : سقطت من ط م س .

٣ انظر ابن خلكان ٤ : ٤٢٦ والخريدة ٢ : ٧٣ والوافي ٤ : ٥٤ والمعجب : ١٧٠ والنفح ١ : ١٩ وصلاح خالص : ٢٠٩ — ٢١٩ ومعاهد التنصيص ٣ : ٧٥ والشريشي ٣ : ١٧٥ .

عليَّ وإلا ما نياحُ الحمائمِ — وفيَّ وإلاّ ما بكاءُ الغمائمِ [1]

وعنّي أثارَ الرعدُ صرْخةَ طالبٍ — لثارٍ وهزَّ البرقُ صفحةَ صارم

وما لَبِسَتْ زهرُ النجومِ حدادَها — لغيري ولا قامتْ له في مآتم [71 ب]

وهل شقّقتْ هُوجُ الرياحِ جيوبها — لغيريَ أو حنّتْ حنين الروائم

خذوا بي إن لم تهدأوا كلَّ سابحٍ — لريح الصّبا في إثْرِهِ أنفُ راغم

من العابساتِ الدُّهْمِ إلا التفاتةً — إلى غُرّةٍ أهدتْ له ثَغْرَ باسم

طوى بيَ عرْضَ البيدِ فوقَ قوائم — توهمتُني [2] منهنَّ فوقَ قوادم

وخاضَ بيَ الظلماءَ حتى حسبتُهُ — له مربطٌ بين النجومِ العواتم

ألا قاتل الله الجيادَ فإنّها — نأتْ بيَ عن أرضِ العلا والمكارم

أشِلْبٌ ولا تنساب عَبْرَة مُشْفِقٍ — وحمصٌ ولا تعتاد زفرةُ نادم

كساها الحيا بُرْدَ الشباب فإنها — « بلادٌ بها عقَّ الشبابُ تمائمي »

ذكرتُ بها عهدَ الصِّبا فكأنما — قدحتُ بنارِ الشوق بين الحيازم

لياليَ لا ألوي على رُشْدِ لائمٍ — عناني ، ولا أثنيهِ عن غيٍّ هائم

أنالُ سُهادي عن جفونٍ [3] نواعس — وأجني عذابي من غصونٍ نواعم

وليلٍ [4] لنا بالسُّدِّ بين معاطفٍ — من النهر ينسابُ انسيابَ الأراقم

---

[1] الوفيات والخريدة والمعاهد :

علي وإلا ما بكاء الغمائم — وفي وإلا فيم نوح الحمائم

[2] الخريدة : توهمته .

[3] الوفيات والخريدة : من عيون .

[4] الخريدة : وقوم (اقرأ : ويوم) .

بحيثُ اتخذنا الروضَ جاراً تزورنا هداياه في أيدي الرياح النواسم

يبلّغُنَا أنفاسَهُ فنردُّهَا بأعطرِ أنفاسٍ وأذكى لناسم[1]

تسير إلينا ثمَّ عنّا كأنّها حواسدُ تمشي بيننا بالنّمائم

سقتنا بها الشمسُ النجومَ ومَنْ بدت له الشمسُ في قِطْعٍ من الليل فاحم

وبتنا بلا واشٍ يُحَسُّ كأنّما حَلَلْنَا مكانَ السرِّ من صدرِ كاتم

هو العيشُ لا ما أشتكيه من السُّرى إلى كلِّ ثغرٍ آهلٍ مثلِ طاسم

وصحبةِ قومٍ لم يُهَذَّبْ طباعَهم لقاءُ أديبٍ أو نوادرُ عالم

صعاليكُ هاموا بالفلا فتدرَّعُوا جلودَ الأفاعي تحت بيضِ النعائم

ندامَى وما غيرُ السيوف أزاهري لديهم وما غير الغمودِ كمائمي

يجري ابنُ عمّار في أكثر ما له من الأشعار جَرْيَ الجموح ، ولا يقنع بالكناية عن مذهبه إلاّ بالتصريح ، لأنه كان — سمح الله له — مع ما مُكِّنَ في[2] دهره من تدبير الاقليم ، او انبسطت بنانُهُ في التأخير والتقديم، واجترأ على الأيام ، واقتاد من الجماهير العظام ، زيرَ قيانٍ وغلمان، وصريع[3] راحٍ وريحان ، أملَهُ — زعموا — كان بين شُرْبِ كاس ، وشمّ آس ، وَجَدَلَهُ في نصب حبالة ، لغزالٍ أو غزالة ، ترى ذلك كثيراً في أشعاره ، وتسمعه أثناءَ أخباره، حتى ثلَّ ذلك عَرْشَهُ ، وأوْهَنَ بطشه، وطأطأ من سموِّه، وساقه صاغراً إلى يد عدوِّه، ألا تراه كلما نظم أو نثر ، <تغنّى> بالنّاي[4]

---

١ خالص : مناسم .

٢ ط م : من .

٣ م ط س : وصريح .

٤ م ط س : بالثاني .

والوتر ، وتحلّى بالحسن والحور[1]، وعاب على أهل سرقسطة وأنكر[2] ، من هيئات الثغور ما عرف[3]، ووصفهم بما وصف ، كأنه لم يسمع قول الأول :

ومن تكن الحضارةُ أعْجَبَتْه فأيّ رجالِ باديةٍ ترانا[4]

ولا قولَ أبي العلاء[5] :

من كلِّ أروعَ لم تَأْشَرْ ضمائرُهُ للثمِ خدٍّ ولاتقبيلِ ذي أشَرِ[٧٢أ]
لكن يقبِّلُ فوه مِسْمَعَيْ فَرَسٍ مقابَلِ الخلقِ بين الشمسِ والقمرِ

إلى غير ذلك مما هو أوضحُ ، من أن يُشْرَح ، في أكثر الأشعار ، وما ينقضي عجبي من ابن عمار أنْ ينكرَ تلك الهيئة ، على أهل ثغرٍ ، أبناءِ قتلى وبقايا أسر ، قلَّما خلَوْا من هَيْعَةٍ من النصارى ، إذ مسافةُ ما بينهم أقصَرُ من إبهام الحبارى ، وبلدهم مَجَرُّ عواليهم ، ومَوْقِدُ صاليهم ، ومَخْفَق أعلامهم ، ودَرِيَّةُ سهامهم .

وفي هذه القصيدة يقول :

وما حالُ مَنْ خلّى بلاد أعاربٍ[6] وألقتْ به الأقدارُ أرضَ أعاجمِ

....

١ م ط س : بالجبن والحور .
٢ ط : وأكثر .
٣ بحاشية ط هنا تعليق بخط مختلف منقول من القلائد .
٤ هو القطامي ، انظر ديوانه : ٧٦ .
٥ شروح السقط : ١٤٤ .
٦ خالص : وما حال من ربته أرض أعارب .

يقبِّحُ لي قومٌ مقاميَ عندهم[1] وقد رَسَفَتْ رِجْلُ السرى في الأداهم

يقولون لي دَعْ أيديَ العيسِ إنها تؤدّي إلى أيدي الملوكِ الخضارم

فديتهمُ لم يبعثوا حِرْصَ عاجزٍ ولا نبهوا إذ نبّهوا طَرْفَ نائم

ولكنّها الأيامُ غيرُ حوافلٍ بإرْبِ أريب أو حَزَامَةِ حازم

واني لأدعو لو دعوتُ لسامعٍ مجيبٍ وأشكو[2] لو شكوتُ لراحم

أريد حياةَ البينِ ، والبينُ قاتلي وأرجو انتصارَ الدهر ، والدهر ظالمي

وَنُبِّئْتُ إخوانَ الصفاء تغيّروا وذمّوا الرضى من عهديَ المتقادم

لقد عتبوا ظلماً على غيرِ عاتبٍ[3] عليهمْ ولاموا ضلّةً غيرَ لائم

ولو أنَّ عَفْواً من هنالك زارني لزرتُ وما عَدْوُ الزمان بدائم

أجرُّ ذيولَ الليل سابغةَ الدجى وأركب ظهرَ العزم صعبَ الشكائم

فأوردُ ودّي صافياً كلّ شامتٍ[4] وألبس حمدي ضافياً كل شائم

وأغضي لمن يلقى بوجهِ مُكارهٍ حياءً فألقاه بوجه مكارم

وما هو إلا لثمُ كفِّ محمدٍ وتمكينُ كفّي من نواصي المظالم

إن اتفقتْ لي فالعلوُّ مُساعدي[5] على كلِّ حالٍ والزمانُ مسالمي

وأيُّ حياءٍ طيَّه أيُّ سَورةٍ كما كَمَنَتْ في الروضِ دُهمُ الأراقم

وفيها يقول :

....

١ خالص : بينهم .

٢ خالص : وإني لأشكو .

٣ خالص : سخطوا . . . ساخط .

٤ خالص : شارب .

٥ خالص : موافقي .

له هزةٌ في الجودِ معتضديّةٌ ... تَهُزُّ إلى التشتيتِ شَمْلَ الدراهم

إذا نَشَرَتْ لخمٌ بذكراه فخرها ... طَوَتْ طيءٌ من خجلةٍ ذِكْرَ حاتم

أبى أن يراهُ اللهُ غيرَ مُقَلَّدٍ ... حِمَالَةَ سيفٍ أو حمالةَ غارم

ومَنْ مثلُ عبّادٍ ومَنْ مثلُ قومه ... ليوثَ حروبٍ أو بدورَ مواسم

أليكَنِيَ بالتسليم منهم[1] إلى فتى ... تَهادَى به جُرْدُ العتاقِ الصلادم

إذا ركبوا فانظره أوّلَ طاعنٍ ... وإن نزلوا فارصُدْهُ آخرَ طاعم[2]

أغرُّ[3] مكينٌ في القلوب محبَّبٌ ... إليها عظيمٌ في نفوس الأعاظم

تبوّأ من لخمٍ وناهيك مقعداً ... مكانَ رسولِ الله من آل هاشم

أبا القاسم اقْبَلْهَا إليكَ فإنما ... ثناؤكَ مسكي والقوافي لطائمي

محمَّلةً عذراً فإنك جُمْلَةٌ ... من الفضل لم أستوفِها بتراجم [٧٢ب]

أنا العبدُ في ثوبِ الخضوعِ لو انّني ... أرى البدرَ تاجي والنجومَ خواتمي

وما عزٌّ في الدنيا مَرادٌ لمجدبٍ[4] ... ولا اعتاصَ في الآفاق[5] وردٌ لحائم

ولكنّ ذاك الظلّ أندى غضارةً ... لضاحٍ وذاك البرقُ أشفى لشائم

وإني إذا أنصفت بَعْدَكَ خادمٌ ... لدهري وكان الدهرُ عندكَ خادمي

لعمري لقد أفحمتُ كل مفاخرٍ ... لما فيك من تلك السجايا الكرائم

أنازعه فيك الثناءَ فينثني ... كأنّيَ نازعت الكؤوس منادمي

تراك تَنَسَّمْتَ الذي قد أذعتُهُ ... فأرضاكَ أم غابتْ عليك مقادمي[6]

---

١ خالص : منهم بالسلام .

٢ ورد في الوافي للرندي : ١٠٢ .

٣ م ط : أعز .

٤ خالص : طلاب لما جد .

٥ م : الأيام .

٦ د : مغارمي .

ولا غروأن حيّتكَ بالطّيب روضةٌ سَمَحْتَ لها بالعارضِ المتراكم

قال ابن بسّام : أما معاني هذه[1] القصيدة فمحجّة مسلوكة ، ومُضْغَةٌ مَلُوكَة ، قد كثر تجاذُبُ الشعراء أهدابَها ، وقرعوا بابها ، حتى صارت كالجمل المذلّل ، والمَهْيَعِ من السُّبل . فممن سلك مِنْ أهلِ أفقنا هذا السَّنَنَ[2] ، أبو الاصبغ عيسى بن الحسن[3] ، من شعرٍ كتب به من سجن ابنِ أبي عامر ، يقول فيه :

وإن سَمِعَتْ أذناكَ للوُرْقِ رنّةً فحزنيَ يبكيها وفرطُ تفجّعي
وإن هَطَلَتْ يوماً على الأرض مزنةٌ فلي سَمَحَتْ بالدمعِ في كلّ مربع

وهو شعر ضعيف ، بيّن التكليف .

وقال يوسف بن هارون الرمادي[4] :

على كَبدي تهمي السحابُ وتلرفُ ومن شجني تبكي الحمامُ وتهتفُ

---

١ د : أول هذه .
٢ د : السبيل .
٣ أحد شعراء الدولة العامرية ، باطن عبد الله بن المنصور ، فلمّا ضرب أبوه عنقه سجن أبا الأصبغ هذا ، وهو يشكو في شعره طول سجنه بقوله :

ليت شعري كيف البلاد وكيف النا س والوحش والسما والماء
طال عهدي عن كل ذاك وليـلي ونهاري في مقلتي سواء

انظر المغرب ١ : ٢٠٦ – ٢٠٧ .
٤ المطمح : ٧٣ .

وماأحسنَ قول أبي الوليد بن زيدون من قصيدة قد تقدمت ، أولها[1] :

ألم يأنِ أن تبكي الغمامُ على مثلي ويطلبَ ثأري البرقُ مُنْصَلَتَ النصل

ولما قتل الوزير الفقيه أبو عبد الله محمد بن ابراهيم[2] بمدينة الأشبونة ، رفع الله منازله ، وقَتَل قاتِلَهُ ، قال بعضُ أهلِ العصرِ فيه يرثيه :

عليك ابنَ إبراهيمَ تبكي الغمائمُ وفيك إذا ناحتْ تنوحُ الحمائمُ
فلا يأمنوا رَعْدَ السماءِ وبرقَهُ فما هيَ إلاّ أنْصُلٌ وغماغم
وقلّ لنعشٍ سار شِلْوُكَ فيه أنْ يرى لبني نعشٍ عليك مآتم
وأن تلبس الزُّهْرُ النجومُ حدادَها عليكَ وتبكيك العلا والمكارم
وتنثرَ الجوزاءُ من نَظْمِ عقدها وتسقط من كفّ الثريّا الخواتم

وقول ابن عمار : « لريح الصَّبا في إثره أنفُ راغم » هو أيضاً من متداولات المعاني ، منها قولُ محمد بن هاني[3] :

وأجلُّ عِلْمِ البرقِ فيها أنها مَرّتْ بحاشيتيه وهيَ ظنونُ

وقال المعرّي[4] :

ولما لم يسابقهنّ شيءٌ من الأشياء[5] سابقْنَ الظّلالا

---

١ ديوان ابن زيدون : ٢٦١ ، والذخيرة ١ : ٣٥١ .
٢ ذكره ابن بسام في القسم الثالث : ٨٦٣ ، وذكر أن الذين قتلوه هم آل أفطس ، وأورد لأبي عامر الأصيلي قصيدة في رثائه : ٨٦٦ .
٣ ديوان ابن هانيء : ١٧٥ .
٤ شروح السقط : ٤٦ .
٥ شروح السقط : من الحيوان .

وقوله : « من العابسات الدُّهْمِ . . . » كقول ابنِ نُباتَةَ يصفُ فرساً أغرَّ محجّلَ الأربع[1] :

وكأنما لَطَمَ الصباحُ جبينَهُ فاقتصَّ منه فخاضَ في أحشائهِ

على أنَّ ابن الرومي قرَّبَ له مَرْمَاه ، وإن كان في غير معناه ، حيث يقول في صفة الشُّمول[2] : [٧٣ أ]

أخَذَتْ من رؤوسِ قومٍ كرامٍ ثأرَهَا عند أرْجُلِ الأعلاجِ

وقوله : «تسيرُ إلينا ثم عنا » . . . البيت ، ينظر من طرف خفيٍّ ، إلى قول الرضيّ[3] :

وأمستِ الريحُ كالغيرى تجاذبنا على الكثيبِ فضولَ الرَّيْطِ واللمم

والذي عوَّل عليه الرضيُّ قولُ ابنِ المعتز[4] :

والريحُ تجذبُ أطرافَ الرداءِ كما أفضى الشفيقُ إلى تَنْبِيهِ وَسْنَانِ

وبهذا ألَمَّ ابنُ نباتة في قوله[5] :

إذا ما الصبحُ أسفرَ نبّهتْني جنوبٌ مسُّها مسُّ الشفيقِ

---

١ اليتيمة ٣ : ٣٩٢ وابن خلكان ٣ : ١٩٠ ورفع الحجب ١ : ٨٦ .

٢ ديوان ابن الرومي : ٤٩٠ ورفع الحجب : ١٥٠ .

٣ ديوان الرضي : ٢٧٤ والذخيرة ١ : ٣٦٥.

٤ الذخيرة ١ : ٣٦٥ .

٥ اليتيمة ٣ : ٣٩٤ .

وقوله : « وتمكينُ كفّي من نواصي المظالم » مغتصَبٌ من قول أبي الطيب[1] :

كأنّ رحيلي كان من كفّ طاهر فأثبتَ كُوري في ظهورِ[2] المواهبِ

وقوله : « وأيٌّ حياء طيّه أيّ سوْرةٍ » كقول الآخر :

لا تغرّنْك هذه الأوجُهُ الغُرُّ فيا ربّ حيّةٍ في رياضِ

وقوله : « إذا ركبوا فانظره أوّلَ طاعن » . . . البيت ، معنى قديم ، وأول من أثاره ، ورفع مناره ، عنترةُ بقوله[3] :

يخبرْكِ منْ شهِدَ الوقائع أنّني أغْشَى الوغى وأعفّ عند المغنمِ

ولما قتلَ عليٌّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، عمروَ بنَ ودّ[4] يوم الأحزاب وسقط وانكشف ، قال[5] :

وعففتُ عن أثوابه ولو أنني كنتُ المُقطّرَ[6] بزّني أثوابي

وقال أبو تمام[7] :

١ ديوان المتنبي : ٢١٠ .
٢ ط م : أكف .
٣ ديوان عنترة : ٢٠٩ .
٤ م ط : أد .
٥ عيون الأثر ٢ : ٦١ .
٦ د : المقنطر .
٧ ديوان أبي تمام ١ : ٧١ .

إنَّ الأسودَ أسود الغابِ همّتها يومَ الكريهة في المسلوبِ لا السَّلبِ

وقال المعري[1] :

أدنى الفوارسِ من يُغيرُ لمغنمٍ فاجعلْ مُغارَكَ للمكارم تُكْرَمِ

والتناسبُ في الألفاظ والمعاني حبلٌ يتصل ولا ينفصل ، وإنما نلمعُ منها باليسير اللطيف ، وقد اندرج منها جملةٌ وافرة في تضاعيف هذا التصنيف .

وقال ابن عمار من قصيدة في المعتضدِ عبّاد أوّلها[2] :

أشاقك برقٌ أم جفاك حبيبُ فليلُكَ فضفاضُ الرّداءِ رحيبُ

يقول فيها :

إلى الله أشكو أنَّ مالكِ في دمي شريكٌ وما لي في هواكِ نصيبُ
أتدرين منْ كلَّفْتِ عينيك قتْلهُ وقلتِ : فتى لا يستقيدُ غريب
ستنصرُهُ من مهْرَةَ الخيلُ ترتمي بأعلامِ نصْرٍ في الوغى وتؤوب
تساموْا بلخمٍ فاستهلَّتْ سماؤهُمْ بغيمين منها ذائبٌ ومذيب
بدورٌ ولكنَّ السَّماء محاربٌ وأسْدٌ ولكنّ العرين حروب
مزحتُ فانّي يا ابنةَ القيْلِ لم أكن لأفشيَ سرّاً ضُمّنَتْهُ قلوب
سأشْهِدُ[3] قومي أن طرْفكِ من دمي بريءٌ وإن كان الفتور يريب

... .

١ شروح السقط : ٣٢٧ .
٢ خالص : ٢٠٥ ورفع الحجب ١ : ٦١ .
٣ د : فأشهد .

وكيف أرى في الغدر نهجاً لسالكٍ   وعهديَ بالملْكِ الوفيِّ قريب
فتىً نسخَ العذرَ اقتضاءُ وفائه   فلا تحكمي أنَّ الوفاء غريب
أغرُّ ينيرُ الملك منه بكوكبٍ   له في سماءِ المشكلات ثقوب[٧٣ب]

وله فيه من أخرى[١] :

أدرِ الزجاجةَ فالنسيمُ قد انبرى   والنجم قد صَرَفَ العنانَ عن السرى
والصبحُ قد أهدى لنا كافورَهُ   لما استردَّ الليلُ منّا[٢] العنبرا
والروضُ كالحسنا كساهُ زَهْرُهُ   وشياً وقلَّدَهُ نداهُ جوهرا
أو كالغلام زها بوردِ رياضِهِ   خجلاً وتاه بآسهنَّ معذّرا
روضٌ كأنَّ النهرَ فيه معصمٌ   صافٍ أطلَّ على رداء أخضرا
وتهزُّهُ ريحُ الصَّبا فتظنّهُ   سيفَ ابنِ عبَّادٍ يُبدِّدُ عسكرا
عبَّادٌ المخضرُّ نائلُ كفِّهِ   والجوُّ قد لبس الرداءَ الأغبرا
قدّاحُ زَنْدِ المجدِ لا ينفكُّ من   نار الوغى إلاَّ إلى نارِ القرى
يختالُ إذ يهبُ الخريدةَ كاعباً   والطِّرْفَ أجرَدَ والحسامَ مجوهرا
أيقنتُ أني من ذراه بجنّةٍ   لما سقاني من نداهُ الكوثرا
وعلمتُ حقاً[٣] أنَّ ربعيَ مُخْصِبٌ   لما سألتُ به الغمامَ الممطرا
من لا توازنُهُ الجبالُ إذا احتبى   من لا تسابقُهُ الرياحُ إذا جرى

---

١ م : وقال أيضاً ، وانظر هذه القصيدة في القلائد : ٩٦ والمعجب : ١٧٣ والنفح ١ : ٦٥٥ ٣ : ١٩٤ والخريدة ٢ : ٧٢ والوافي ٤ : ٢٣٠ والوفيات ٤ : ٤٢٦ وخالص : ١٨٩ ورايات المبرزين : ٥٥ (٢٦ غ) والزيحان ١ : ١٥٦ ب ورفع الحجب ١ : ١٧٣ .

٢ ط م د : منها .

٣ ط د س : جداً .

ماضٍ وصدرُ الرمح يكْهَمُ والظبا … تنبو، وأيدي الخيل تعثرُ في البُرى
لا خلق أقرأ[1] من شفارِ حسامِهِ … إن كنتَ شبَّهْتَ المواكبَ أسطرا
السيفُ أصدق[2] من زيادٍ خطبةً … في الحربِ إن كانتْ يمينُكَ منبرا
وإليكها كالروضِ زارته الصَّبا … وحنا عليها الطَّلُّ حتى نوّرا
تَمَقَّتْتُها وشياً بذكرك مُذْهباً … وفتقتُها مسكاً بحمدك أذفرا
من ذا ينافحني وذكرُكَ مَنْدَلٌ … أوردتُهُ من نارِ فكري مجمرا
فلئن وجدتَ نسيم حمديَ عاطراً … فلقد وجدتُ نسيمَ بِرِّكَ أعطرا

قوله : « لا خلق أقرأ من شفار حسامه » . . . البيت ، كأنه من قول محمد بن هانىء[3] :

ولم أرَ أنفذَ من كُتْبِهِ … إذا جُعِلَ السيفُ حيث القلمْ

وذكر أن المعتمد[4] أقام برهةً بقرطبة يرفعُ بعضَ الأمور السلطانية فسئم طَلَقَهُ ، وتذكَّر على عادته خُلُقَهُ ، ودعته دواعي نفسه ، إلى قينته وكأسه ، فاستشار يومئذٍ ابنَ عمار ، وكان خاطبه في ذلك بشعرٍ[5] ، وظنَّ عنده أهْبَةً ،

---

١ الخريدة : أقرى (والعلاقة واضحة بين « اقرأ » والأسطر) .
٢ القلائد : أفصح .
٣ ديوان ابن هانىء : ٢٨١ .
٤ بعض هذا النص في الحلة ٢ : ١٣٢ .
٥ قال ابن الابار (الحلة ٢ : ١٣٢) : وسرى إلى ابن عمار أن المعتمد كتب من قرطبة إلى بعض كرائمه شعراً يعتذر فيه من اللحاق بها ، آخره : إن شاء ربي أو شاء ابن عمار ؛ فأجابه ابن عمار بهذه الأبيات : « مولاي عندي لما تهوى ... » ، وذلك ما حكاه أبو الطاهر التميمي السرقسطي في ديوان شعر ابن عمار من جمعه ؛ وانظر خالص : ٢٢٦ .

إذ كانت عليه منه بعضُ الرِّقْبة ، فوجده أهتكَ ستراً، وأقلَّ عن اللذات صبراً، وأشار عليه بتعطيل الثّغْرِ، وإضاعة الأمر ، وجاوبه على ذلك بهذا الشعر :

مولاي عندي لما تهوى مساعدةٌ	كما تتابَعَ خَطْفُ البارقِ الساري
إن شئتَ في البحر فاركبْ ظهرَ سابحةٍ	أو شئتَ في البرِّ فاركبْ ظهرَطيّار
حتى تَحُلَّ وحفظُ الله يكلؤنا	رحابَ قصرك واتركْني إلى داري
وقبل خَلْعِ نجادِ السيف فاسعَ إلى	ذاتِ الوشاح وخذْ للحبِّ بالثّار
ضمّاً ولثماً يغنّي الحليُ بينكما	كما تجاوبُ أطيارٌ بأسحار [٧٤ أ]

ومعنى البيت الرابع من هذه القطعة ينظر إلى قول عبد المحسن الصوري وأنْشِدُ الأبياتَ لحسنها :

أفدي الذي زارني بالسيف مشتملاً	ولحظ عينيه أمْضَى من مضاربه
فما خلعت نجادي في العناقِ له	حتى كساني نجاداً من ذوائبه
وكان أسعَدَنَا في نيلِ بُغْيَتِهِ	مَنْ كان في الحبّ أشقانا بصاحبه

وقال ابن عمّار للمعتضد[1] :

الكأسُ ظامئةُ إلى يمناكا	والروضُ مرتاحُ إلى لقياكا
والدهرُ جارٍ في عنانِكَ لم تَقل	هاتِ المنى إلا أجابَ بهاكا
فأدرْ بآفاقِ الزجاجِ[2] كواكباً	تخذتْ أكفَّ سقاتِها أفلاكا

... .

[1] خ بهامش ط : للمعتمد : وانظر الخريدة ٢ . ٧٧ وخالص : ٢٠١ .

[2] الخريدة : بآفاق السرور .

راحاً إذا هبَّ النسيم حَسِبْتَها مسروقةَ الأنفاس من ريّاكا
في مجلسٍ بسط الربيع بساطَه زهراً ورقرقَه عليكَ أراكا
سقطَ النّدى فيه سُقوطَ نداكما [1] وَجَلَتْ عليه الشمسُ مثلَ سناكا
يسري على ريحانِه نَفَسُ الصَّبا سَحَراً فيوهم أنه ذكراكا
رِدْ موردَ اللذاتِ عذباً صافياً فلقد وردتَ المجدَ قبل كذاكا

قال ابن بسّام وأخبرني الحكيم النديم أبو بكر ابن الاشبيلي ، قال : حضرت مجلسَ أنسٍ مع أبي بكر بن عمار بقصر الرشيد بن المعتمد ، فلما دارت الكأس ، وتمكَّنَ الأنس ، وغنَّيْتُه أصواتاً ، وذهب به الطرب كلَّ مَذْهب ، قال ابن عمار ارتجالاً [2] :

ما ضرَّ أن قيل إسحاق ومَوْصِلُه ها أنتَ أنتَ وذي حمصٌ وإسحاقُ
أنت الرشيد ودَعْ من قد سمعتَ به وإن تشابَهَ أخلاقٌ وأعراق
لله درّكَ دَارِكْها مشعشعةً واحفزْ بِساقيكَ ما قامتْ بنا ساق

وقال في المعتمد في حين نزولِه بعضَ الحصون [3] :

على اليُمْنِ والطائرِ السَّانِحِ نَزَلْتَ وَغَيْرِكَ للبارحِ
وما اهتجتَ إلاّ وقد هَيَّجَتْكَ دواعٍ إلى البلد النازِحِ
وإلاّ فكم خفَّ من خفَّ جهلاً [4] فما هزَّ من حلمك الراجح

---

١ نداكما : لا وجه للتثنية هنا ، ولعل الصواب « نداكا » .
٢ خالص : ٢٢٣ .
٣ خالص : ٢٢٥ .
٤ اضطرب هذا الشطر في م فجاء : « وإلا فكم خف جهلا من خف » .

تطلّبْ حقوقَكَ لا لائمٌ ... فقد بيَّنَ الصبحُ للاّمح
ومن يعترِضْكَ بأوداجِهِ ... فَكِلْهُ إلى سَعْدِكَ الذابح
وكم يَزجُرون وكم يَنْصَحُون ... فما يَقْبَلونَ منَ الناصح
وما كان أنْصَفَهُمْ لو رَمَوا ... زنادَ الوغى ليدِ القادح
ولا عَجَبٌ لثبوتِ القلاعِ ... على بأسِكَ الهادم الناطح
فلولا امتناعُ الفتاةِ الكَعابِ ... لما كملتْ لذَّةُ الناكح [٧٤ ب]
خلعتَ الكرى في طلابِ العلا ... على نائمٍ دونها طافح
هنيئاً فأنتَ مليكُ الملوكِ ... فقد صرَّحَ الجدُّ للمازح
وما أخَّرتنيَ عنكَ النجومُ ... يا[1] غرَّةَ القمرِ اللائح
ولا النهرُ لم يَثْنِني عن ورودِ ... ندى بحرك الزّاخرِ الطافح

وهذا البيت الأخير ، كأنه إلى بيت المتنبي يشير[2] :

قواصدُ كافورٍ تَوارِكُ غيره ... ومن قصد[3] البحر استقلَّ السواقيا

وقوله : « ومن يعترضك بأوداجه » من قول الآخر في سعدٍ ، حاجبِ ابن خاقان[4] :

يا حاجبَ الوزراء إنك عندهم ... سعدٌ ولكن أنت سعدُ الذابحِ[5]

.....

١ ط د م س : فيا .
٢ ديوان المتنبي : ٤٤٠ .
٣ د : ركب .
٤ هو البحتري ، انظر ديوانه : ٤٦٢ .
٥ بعد هذا البيت يبدأ خرم في م س .

وفيه أيضاً يقول البحتري[1] :

سمّاه سعداً للتفاؤل باسمه حقاً[2] لقد ألفاه سَعْدَ الذابحِ

والمعرّي القائل ما هو شبيه به ، وإن كان في غير مذهبه[3] :

يا سعدَ أخبيةِ الذين تحمّلوا لمّا ركبتِ دعيتِ سَعْدَ المركبِ

وقوله : « زناد الوغى ليد القادحِ ، وقد بيّن الصبح للاّمح » من المثلين المضروبين وهو قولهم : « قد بيّن الصبح لذي عينين »[4] و « أعْطِ القوس باريها »[5] .

وقوله : « فلولا امتناع الفتاة الكعاب » . . . البيت ، كقول كشاجم :

لولا اطّرادُ الصّيْدِ لم تك لذّة فتطاردي لي بالوصالِ قليلا[6]

وأصلُ هذا المعنى المثلُ السائرُ : « تمنّعي أشهى لك »[7] .

---

١ ديوان البحتري : ٤٧٦٣ .
٢ الديوان : ظن أن يحيا به ، عمري .
٣ شروح السقط : ١١٢٦ .
٤ المثل في فصل المقال : ٦١ والميداني ٢ : ٣١ والعسكري ٢ : ١٢٥ .
٥ فصل المقال : ٢٩٨ والميداني ١ : ٣١٣ والعسكري ١ : ٥٠ والفاخر : ٢٤٦ .
٦ انظر جمع الجواهر : ٦٥ وزهر الآداب : ١١ وتمام المتون : ٣٩٩ .
٧ الميداني ١ : ٧٤ .

ما وُجد له من شعره في النسيب وما يناسبه

قال في غلام من عبيد ابن هود[1] :

وأحورَ[2] من ظباءِ الروم عاطٍ ... بسالفتيه من دمعي فريدُ
نبيلُ الخَلْقِ جافي الخُلْقِ عبدٌ ... هو المولى ونحن له عبيد
بكيتُ وقد دنا ونأى رضاه ... « وقد يبكي من الطرب الجليد »[3]
قسا قلباً وسنّ عليه درعاً ... فباطنُه وظاهرُه حديد
وإنّ فتى تملّكه بنقدٍ ... وأحرز رقّه[4] لفتىً سعيد

وَسَجَنَ المؤتمنُ يوماً هذا الغلامَ لبعض الأمر فتخلّفَ ابنُ عمار عن الركوب للقصر ، وكتب إليه[5] :

أنا المطبَقُ المسجونُ لا مَنْ سَجَنْتَهُ ... وأطْبَقْتَه فانظر لعبدكَ أو دعِ
حرامٌ حرامٌ أن تراني عينُ مَنْ ... تراه فان شئتَ ارتجاعيَ فارجع
ويا حُسْنَ حالِ الودّ إن سمحت يدٌ ... ولقّبتُ فيها بالشفيع المشفّع

فضحك المؤتمنُ وأخرج ذلك الغلام .

---

١ انظر قلائد العقيان : ٩٤ والمطرب : ١٧٢ وخالص : ٢٩٩ والنفح ٣ : ٣٢٨ والوافي للرندي : ٧٦ والمسلك السهل : ٤٣٦ .
٢ خ بهامش ط : وأغيد .
٣ مضمن وصدره : « فقالوا قد جزعت فقلت كلا » (أمالي القالي ١ : ٤٩ وروايته : وهل يبكي) وانظر الذخيرة ١ : ٣٢٥ .
٤ النفح : وأحرز حسنه .
٥ خالص : ٣٠٠ .

وساير ابنُ عمّار في بعض الأسفار غلامين من بني جهور ، أحدهما أشقر والآخر عذاره أخضر ، فكان يميلُ بحديثه من ظهر دابتّه إلى الذي وصف منهما في هذه القطعة ، وهي من ملحه النادرة ، وغرائبه السائرة[1] :

تعلّقْتُهُ جَهْوَرِيّاً[2] النّجارِ حُلْوَ اللمى جوهريّ الثنايا
من النّفَرِ البيضِ جَرّوا الزمانَ رقاقَ الحواشي كرامَ السجايا [٧٥أ]
ولا غرو أنْ تغربَ الشارقاتُ وتبقى محاسِنُها بالعشايا
ولا وَصْلَ إلا جُمانُ الحديثِ نُسَاقِطُهُ من ظهورِ المطايا
شنئتُ المثلّثَ للزعفران ومِلْتُ إلى خُضْرَةٍ في التفايا[3]

ومعنى البيت الثالث منها من مشهورِ المعاني ، ومنها قول الطليق المرواني[4] :

وإذا ما غَرَبَتْ في فمِهِ تركتْ في الخدِّ منه شفقا

ومعنى البيت الرابع يشبه قول البحتري ، ويتعلق به خبر حكاه الصولي

---

١ نفح الطيب ٣ : ٣٢٦ وخالص : ٢٥٤ ، والقصة والأبيات في القسم الرابع من الذخيرة (الورقة : ٤٠) .

٢ ط د : جوهري .

٣ المثلث : عند الاندلسيين أنواع من الأطعمة يطلق عليها هذا الاسم منها المجبنة المثلثة ، والمثلث من رؤوس الخس (كتاب الطبيخ : ٢٠١ ، ٢٢٢ ومعجم دوزي) وألوانها تضرب للصفرة لأن الزعفران يدخل في تركيبها ؛ والتفايا : من بسائط الأطعمة ، تحضر من لحم الضأن الفتي مضافاً إليه ملح وفلفل وكزبرة يابسة . . . (كتاب الطبيخ : ٨٥ – ٨٨) والخضراء منها يضاف إليها ماء الكزبرة الرطبة .

٤ انظر نفح الطيب ٣ : ١٩٧ وقد وردت أبيات الطليق في القسم الأول من الذخيرة : ٥٦٥ .

عن يحيى ابنه ، قال[1] : لما ابتدأ أبي بعمل قصيدته في أبي الصقر ويهجو أحمد ابن صالح ، التي أولها :

أمِنْ أجْلِ أن أقْوَى الغُوَيْرُ فواسِطُهُ

قلتُ له : لمَ ركبت هذه القافية الصعبة مع رجلٍ لا حظٌ لك معه ؟ اركب قافيةً سهلة ، فقال : لعمري إن الكلام في القوافي السّهلة أمْكَنُ ، إلا أن الحاذق لا يعملُ إلا جيِّداً في أي شيءٍ أخذ ، ثم رأيته قال في نسيبها :

ولمَّا التقينا واللِّوى موعدٌ لنا تعجَّبَ رائي الدرِّ حسناً ولاقطُه
فمن لؤلؤٍ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤٍ عند الحديث تساقطه

فطابت نفسي وقلت : ليقلْ بعد هذا ما أراد ، فقد أجاد وزاد .

وشبيه بهذا قول بعضهم[2] :

كَلَّمَتْني فقلتُ : درٌّ سقيطٌ فتأمَّلتُ عقدَها هل تناثرْ
وازدهاها تبسّمٌ فأرتني نَظْمَ درٍّ من التبسُّمِ آخر

وقال ابن عمّار في مثل ما تقدّم من صفته لأهل العذار[3] :

---

١ أخبار البحتري : ١٢١ – ١٢٢ وديوان البحتري : ١٢٢٩ .
٢ ورد البيتان في الحلة السيراء : ٢٦٠ وكتاب التشبيهات : ١٤٤ والمسالك ١١ : ١٧٤ والمرقص والمطرب : ١٦ والدرة المضيئة ٦ : ٥٧٦ ورفع الحجب ١ : ١٢٤ . وينسبان للمصحفي أو لابن فرج ، وقال المقري في النفح ١ : ٦٤ إن صاحب المطمح نسبهما للمصحفي ، ولكنهما لم يردا في المطمح .
٣ قلائد العقيان : ٩٦ والنفح ١ : ٦٥٣ ، ٣ : ٣٢٨ وخالص : ٢٩٧ وبدائع البدائه : ٣٧٢ والريحان ١ : ١٥٦ ب .

وَهَوِيتُهُ يَسْقِي المُدامَ كأنه قمرٌ يدور بكوكبٍ في مجلس
متأرجُ الحركات تندى ريحُهُ[1] كالغُصْنِ هزَّتْهُ الصَّبا بتنفُّسَ
يسقي بكأسٍ في أناملِ سوسنٍ ويديرُ أخرى من محاجرِ نرجس
عنَّا بكأسك قد كفتنا مقلةٌ حوراءُ قائمةٌ بسكر المجلس
يا حاملَ السيف الطويل المرتدى[2] ومصرِّفَ الفَرَسِ القصير المحبس
إيّاكَ إيّاكَ الوغى[3] من فارسٍ خشنِ القناع على عذارٍ أملس
جَهْمٍ وإن حَسَرَ اللثامَ فإنما رفع الظلامَ عن النهار المشمس
سلِّمْ فقد قَصَفَ القنا غُصْنُ النقا وسطا بليثِ الغاب ظبيُ المكنس

ومعنى البيت الرابع منها كقول ذي الوزارتين ابن الحضرمي[4]، في رثاء غلام وسيم وكان اسمه فعال ، كان المتوكل يهواه ، ومات الغلام فرثاه ، فقال :

أوْدَى فَعَالُ فلهفي له ولهفي عليهِ[5]
غالَتْهُ أيدي المنايا وكنَّ في مقلتيه
وكان يسقي الندامى بطرفه ويديه
غصنٌ ذوى وهلالٌ جارَ الكسوفُ عليه

---

١ النفح : متناوح . . . يندى عطفه .
٢ خ بهامش ط : نجاده (بخط مغاير لخط الأصل) .
٣ النفح : إياك بادرة الوغى .
٤ هو أبو الوليد ابن الحضرمي ، وزر للمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، فداخله تيه وعجب وتجبر ، كرهه من أجلها أصحاب الدولة فعزله المتوكل (المغرب ١ : ٣٦٥ والنفح ٣ : ٤٥٠ والشريشي ٤ : ١٢٤ . وفيه ثلاثة من الأبيات التي وردت هنا) .
٥ خ بهامش ط : وشوقي إليه .

وقال ابن عمّار :

غزا القلوبَ غزالٌ حجّتْ إليه العيونُ
قد خُطّ في الخدّ نون وآخرُ الحسنِ نون

وكان له غلام وسيم يميل إليه ، فعتب في بعض الأمر عليه ، وزال عنه إلى دارِ الوزير أبي المطرّف ابن الدبّاغ[1] ، فشفع له أبو المطرف برقعة وصلها ذلك الغلام ، فكتب ابن عمار إلى الوزير المذكور[2] : [٧٥ ب]

قرأتُ كتابك مستشفِعاً لوجهِ أبي الحسنُ من ردّهِ
ومن قبلِ فضّيَ ختْمَ الكتاب قرأتُ الشفاعةَ في خدّه[3]

وقال من قصيدة[4] :

قالوا : أضرّ بك الهوى فأجبتهمْ يا حبّذاه وحبّذا إضرارُهُ
قلبي هو اختار السّقامَ لجسمه زيّاً فخلّوهُ وما يختاره
من قدّ قلبي إذ تثنّى قدُّهُ وأقام عذري إذ أطلّ عذاره
أم مَنْ طوى الصبحَ المنيرَ نقابُهُ وأحاطَ بالليل البهيم خماره

منها :

. . . .

١ وردت ترجمته في القسم الثالث : ٢٥١ .
٢ النفح ٤ : ٧٣ ، ٣٠٦ وخالص : ٢٤٤ .
٣ هنا ينتهي السقط في م س .
٤ المعجب : ١٧١ والقلائد : ٨٦ وخالص : ٢٢٠ .

عيّرتموني بالنُّحول وإنّما شَرَفُ المهنّدِ أن ترقَّ شفاره
فتَوَحّشْتُنه لقد ابتديتُ[1] لوصفه بالبخلِ لولا أنَّ حمصاً داره
بلدٌ متى أذْكُرْهُ تهجْ[2] لوعتي وإذا قدحتَ الزندَ طار شراره

ومن مقطوعاته الاخوانيات

اجتاز على بني عبد العزيز ببلنسية ، وكانوا يضمرون عداوته، فأخرجوا إليه ضيافاتٍ، وتخلّفوا عن لقائه ، وناب في ذلك عنهم أقوامٌ عوامّ ، فكتب إليهم[3] :

تناهيتمُ في برّنا لو سمحتمُ بوجهِ صديقٍ في اللقاء وسيمِ
وسلسلتمُ راحَ البشاشةِ بيننا فما ضَرَّ لو ساعدتمُ بنديم
سألتمسُ العذرَ الجميل عن العلا وأحتالُ للمجدِ[4] احتيالَ كريم
وأثني على روضِ الطلاقةِ بالجنى وان لم أفُزْ من طيبه[5] بنسيم
ضننتم بأعلاقِ[6] الرجال على النوى فلم[7] تصِلونا منهمُ بزعيم

---

1 القلائد : انتدبت .
2 القلائد : هيج .
3 القلائد : ٩٠ والخريدة ٢ : ٨١ والحلة ٢ : ١٤٥ وخالص : ٢٧٨ .
4 القلائد والخريدة والحلة : للفضل .
5 م : بالحيا . . . القلائد والخريدة والحلة : من نشره .
6 الحلة : بخلّم بأعيان .
7 ط م : ولم .

واستهدى منه بعضُ إخوانِهِ خمراً، فبعث بها مع تفاحتين ورمّانتين وكتب مع ذلك[1] :

خُذُوها مثلَ ما استهديتموها عروساً لا تُزَفُّ . إلى اللئامِ
ودونكمُ بها ثديي فتاةٍ أضفتُ إليهما خدّيْ غلام

وأهدى إلى ذي الوزارتين ابن لبون تفاحاً وإجّاصاً ، وكتب معهما[2] :

خُذْها كما سفرت إليكَ خدودُ أو أوْجَسَتْ في راحتيك نهودُ
حذراً من التفّاح نشراً[3] بينها ولها بأغصان الجنانِ عقود
وشفعتُ بالإجّاصِ قصداً إنّه شكلُ الجمالِ وحدُّهُ المحدود
عذراً إليك فإنما هي أوْجُهٌ بيضٌ تقابلها عيونٌ سود
إيهٍ وعندي من فراقك لوعةٌ يعزَى إليها ثابتٌ ويزيد
أفطرت من صومي بغرّتك التي كانت هلالاً كان عنه العيد[4]
لله ليلتنا التي من أجلها هذا الزمان بمثله محسود

وكتب إليه ابن لبون بهذه الأبيات[5] :

خُتِمَتْ بعصرِكَ أعْصر الأجوادِ وَعَنَتْ لذكرك ألْسُن الورّادِ
وسبقتَ أملاكَ الزمانِ إلى مدىً ضَلّوه حتى كنتَ أنت الهادي

---

١ خالص : ٢٦٤ .
٢ خالص : ٢٦٣ .
٣ م ط س : نثراً .
٤ وقع البيت في م س وهامش ط .
٥ القلائد : ٩٣ .

وغدوتَ أكثرهمْ حسوداً في العلا إنّ الكريمَ طليبة الحساد [٧٦أ]
وبدا بفضلك نقص كلِّ معاندٍ تتبيّن الأشياء بالاضداد
وقفتْ بمغناك العيون فقابلتْ[1] أسْدَ العرين به وبدرَ[2] النادي
وأتتْكَ وافدة الركابِ فقابلت أمَلَ الحريصِ ومنية[3] المرتاد
وَصَدَرْنَ قد حُمِّلْنَ عنك عوارفاً أصبحن كالأطواقِ في الأجياد
فضلٌ أرانا جودَ حاتمِ طيّىءٍ وفخار كعبٍ في قبيل إياد
إيهٍ أبا بكرٍ أتُظْلِيم ساحتي ظلماً وَصبْح العدلِ عندك بادي
عجباً لوعدك كيف تُمْسِكه يدٌ موصولة الأفعال بالأوعاد
وَلِسَيْبِ جُودِكَ كيف لم تسمحْ به لصحيح ظنّي أو صريح ودادي
إني لمعتقدٌ إخاءَكَ موئلي وأرى وفاءَكَ مَعْقِلي وسنادي
وأصول منكَ على الزمانِ بمنْصُلٍ جعل الطُّلى بدلاً من الأغماد
فسقى ديارَكَ نائياً أو دانياً[4] صَوْبُ الغمامِ المستهلُّ الغادي
ولئن رحلتَ لقد حللتَ بمنزلٍ من نور عيني أو سواد فؤادي

فأجابه ابن عمار بهذه القصيدة الفريدة التي برز فيها، وأحسنَ ما شاء في ألفاظها ومعانيها، وأوّلها[5]:

عطّلْتُ من حَلْيِ السروجِ جيادي وسلبت أعناقَ الرجالِ صعادي
وثنيت عزمي عن مسيرٍ هزّني سَعْدي إليه وحثّني إسعادي

١ القلائد : فلاحظت .
٢ خ بهامش ط : ولاح بدر .
٣ القلائد وخ بهامش ط : ونجمة .
٤ القلائد : دانياً أو نائياً .
٥ القلائد : ٩٣ وخالص : ٢٧٢ .

وَسَلَلْتُ من ثوبِ المروّةِ والوفا ثوبي[1] وحلَلْتُ[2] على بني عبّاد

إنْ لم أحلِّكَ من فؤادي منزلاً يُنبيك أنكَ مالكٌ لقيادي

وأخصَّ جانبكَ الرفيع بخدمةٍ أسقيك صفو أحبّةٍ وأعادِ[3]

وأرِدْ بذكركَ من ثنائي روضةً غنّاءَ حاليةً بنَوْرِ ودادي

حتى تبيّنَ أن غرسك قد دنا بجنًى وزرعَكَ قد أنى لحصاد

قال ابن بسام : وكأن هذه الأقسام التي جرت على لسانه وحلف بها أجيبتْ عنه ، فإنه لم يرجع إلى إشبيلية بعد من سفرته تلك لشيءٍ صفا له، ولا رفا[4] لابن عبّاد ولا وفى له .

وذكرت بهذه الأقسام – إذ الشيء بالشيء يُذْكَر، إذا كان من واديه أو تعلّق بألفاظه ومعانيه – خبراً نقلته من خط الوزير أبي عامر ابن مسلمة ، في كتابه المترجم بـ « الحديقة » قال : كنا يوماً في مجلس أنسٍ مع أبي جعفر ابن الأبار ، فغنّي بشعر الأشتر في التحريض على معاوية ، حيث يقول[5] :

بقّيْتُ وَفْري وانحرفتُ عن العلا ولقيتُ أضيافي بوجهِ عبوس

إنْ لم أشُنَّ على ابنِ هندٍ[6] غارةً لم تخلُ يوماً من نهابِ نفوسِ

---

١ القلائد : نفسي .

٢ د : وصلت .

٣ هذا البيت واللذان بعده من هامش ط .

٤ رفا : مخفف من رفأ بمعنى حاباه ورفق به ؛ ط م د س : وفا .

٥ انظر البيتين في الاصابة ٦ : ١٦٢ والحماسية رقم : ٢٥ (شرح المرزوقي : ١٤٩) .

٦ الحماسة : ابن حرب .

قال أبو عامر: فسألت ابن الأبار الردَّ عليه، والانضمام على السلامة من ذكر أحدٍ ، حميَّةً للأموية وولاءً[1] إلى الحربية ، فقال على الارتجال، وقد أخذت منه الجريال :

غادرتُ عرضي عُرْضةً وأبحتُهُ وتُركتُ نهب نفائسٍ ونفوسِ
وقذفتُ أمَّ المؤمنين تمرّداً وكفرتُ من حربٍ بكلِّ رئيس
إن لم نصبّحكم بكلِّ مصمّمٍ وبكلِّ ذِمْرٍ في اللبوس عبوس
خيلٍ كأمثالِ الأجادلِ فوقها ليسٌ غطارفُ عامدون لليس[2] [٧٦ب]
فإذا كسوناكم حِداد مآتمٍ أبنّا بصافيةِ الأديم عروس
نسقيكمُ خمر الردى بصوارمٍ ونُعَلُّ من خمر المنى بكؤوس

قال أبو عامر : وقد سلّم ابنُ الأبار لتلك الطائفة المردود عليها ، وتخلّص ألطفَ تخلّص ، على أن الاشتر ما سلم ولا كرم .

قال ابن بسّام : والذي وصف الوزيرُ أبو عامر من الحميّة للأموية ، وولائه لآل الحربية صحيح، لأن جدّهم الأول أبان بن عبيد المعروف بالشرخ[3] مولى لمعاوية بن أبي سفيان ، أهْدِيَ إليه من سبي البربر[4]، وأبان بن عبيد هو الداخل مع عبد الرحمن بن معاوية ، فأنزله بربض الرصافة من حضرة قرطبة ، وتلك النزل دورٌ يتوارثها بنو مسلمة من تاريخ دخول عبد الرحمن إلى وقتنا هذا ، فلها بأيديهم نيّفٌ على أربعمائة سنة .

---

١ ط د م : ولواء .
٢ الليس : جمع أليس وهو الشجاع الذي لا يبالي الحرب .
٣ د : بالشرح ؛ م : بالشرج .
٤ نقل ابن سعيد هذا في المغرب ١ : ٩٧ .

وفي هذه القصيدة يقول ابن عمار :

يا سيِّدي وأنا الذي ناديتُهُ … لرضىً فلبّى منك خير منادي
أعطاكَ فضلَ الإبتداء ولو جرى … ظلمٌ لأنكر أنْ تكونَ البادي
لله درُّ عقيلةٍ أبرزتَهَا … من خِدْرِ فكرك في حُلى الإنشاد
فرعاءُ عاطرةُ الذوائب واللمى … غَيْداءُ حاليةُ الطلى والهادي
وصلتْ[1] إليَّ مع المساءِ فعارضتْ … صلةَ الحبيب أتى بلا ميعاد
خطٌّ من النظمِ البديع أفادني … حظَّ الكرام وخُطَّةَ الأمجاد
يفدي الصحيفة ناظري فبياضُها … ببياضهِ وسوادها بسواد[2]
أهدى تحيتك الزكية طيبها … كافور قرطاس ومسك مداد[3]
وشيٌ سَخَتْ يَدُكَ الصّناعُ برقمهِ … فَكَسَوتَنيه مُذْهَباً بأيادي
ولقد تعيَّنَ لو أعانتْ قدرةٌ … حَسُنَ الجزاء بها وَهَزَّ النادي
لكن عجزتُ فما استقلَّ بنشأتي … ماءُ الفراتِ ولا ثرى بغداد
عُذْراً ففيكَ لكلِّ طالبِ حُجّةٍ … خَصْمٌ ألدُّ ووجهُ عُذْرٍ بادي
بك فاخر القلمُ القصيرُ فطاولَ الـ … ـرُّمحَ الطويلَ كتابةٌ بطراد
فلَكَ الفصاحةُ أو لسيفكَ كلّما … استمطيتَ متنَيْ منبرٍ وجواد
ثنيتْ عليك حلى الوزارة مثلما … حمل الحسام عليه ثني نجاد[4]
وتتوجت منك القيادة بالذي … ترك الرياسة مهنة القواد
أنت الحلال الحلو رقَّ طبيعةً … وصفا مزاجاً كالسحاب الغادي

١ خ بهامش ط : خلصت .
٢ ورد في الرايات : ٥٦ .
٣ هذا البيت والذي قبله من هامش ط .
٤ هذا البيت وخمسة أبيات بعده من هامش ط .

امن معشر تتشرف الأذوا بهم كتشرف الأيام بالأعياد
جلوا فحلوا في الأنام مكانةً كمكانة الآلاف في الأعداد
أفديك من حرٍّ تعبّد بره شكري وقلٌّ له الفدا والفادي
ولقد ظفرتُ من اقتبالك بالمنى وبلغتُ أقصى غايتي ومرادي
وأرحت من تعبي بعهدك في ندى ظلّ ونمت على وثير مهاد[1]
وشددتُ منكَ يدي بعِلْقٍ مضنّة ونفضتها بزعانفِ أنكاد
يتعلّلون[2] من الوفاءِ بعلّةٍ ضحكَ الطبيبُ لها مع العوّاد
جمحوا إلى ظلمي فَسُسْتُ جماحهم ولقيتُ شدّتَهُ[3] بلينِ قيادِ
واستبطنوا حِقْداً وبينَ جوانحي طبع يسلُّ سخائمَ الأحقاد
ولكم دعيٍّ في الإخاء أعَرْتُهُ جَذْبَ ابنِ سفيان بِضَبْعِ زياد
حتّى إذا رفضَ الوفاءَ رفضتُهُ واعتضتُ منه بطيِّبِ الميلاد
لا ذنبَ لي في طَرْدِ سائمةِ الهوى منه على السَّرْحِ الوبيل الصادي
أنا قد رضيتك فارضَني وأعدّني إن كنتُ محتاجاً إلى الإعداد
إني لممّن إن دعوتَ[4] لنصرةٍ يوماً بساطي حجّة وجلاد [٧٧ أ]
أذكيتُ دونك للعدا حَدَقَ القنا وخصمتُ عنك بألسُنِ الأغماد
صلني أصِلْكَ وصلْ فديتُكَ بي أصِلْ بك واعتمدني اتخذْكَ عمادي
ولئن بدرتَ إلى رضاي فربما وافيتني لرضاك بالمرصاد
وعلى تظاهرنا الضمانُ بقلّة الـ أعداء ثم بكثرة الحسّاد

١ هذا البيت من هامش ط .
٢ خالص : متعللين .
٣ م س : شدتهم (وكذلك عند خالص) .
٤ م ط س : دعاك .

إيهٍ وقلت إلى الوفاء محرّكاً إيهٍ فما خطرتْ بعطف جمادْ[1]
وزعمت تُظلم ساحة ما بيننا ظلماً وَصُبْحُ العدلِ عنديَ بادي
كلاّ فما التسويفُ من خُلُقي ولا ليْ الجميل بعادةٍ من عادي
وهل التوت بهواك إلا لقية أحلى لعيني من لذيذ رقاد
أخطرتها وأكرُّ بعد إلى التي يدعو المطيّ لها ويشدو الحادي
لا بدّ من ذاك السفّارِ وان عَدَتْ عنه الليالي إنهنّ عوادي
سَفَرٌ إذا استبعدته فسأمتطي حرصي ، وأجعلُ من ثنائك زادي
خُلْدُها نتيجةَ منكرٍ لودادها بَرِم بها قالٍ لها متفادي
حذراً من الردّ المخلّ فإنها بَعَثٌ[2] الزيوف إلى يَدَيْ نقاد

وكان بينه وبين حسام الدولة أبي مروان بن رزين تمكُّنُ أنسٍ ، فاتفق أن اجتاز على مقربة من بلده ، ولم يلتقيا ، فعتب ابن رزين عليه ، فكتب ابن عمار إليه[3] :

لقاؤكَ النُّجْحُ لو أعقبته[4] سفري ووجهُكَ الصبحُ لو أقبلتُهُ نظري
وقصرك[5] البيتُ لو أني قصدتُ به حجّي ويمناكَ منه موضعُ الحجر
لم تثنِ عنكَ عِناني سلوةٌ خَطَرَتْ على فؤادي ولا سمعي ولا بصري

... .

١ هذا البيت مقدم عن موضعه عند خالص .
٢ خالص : فإنما أهدي .
٣ خالص : ٢٦٢ .
٤ ط د س م : أعقبته .
٥ س : وقصدك .

لكنْ عَدَتْني عَنكم خَجْلَةٌ عرضتْ   كفانيَ العذرَ فيها بيتُ معتذر
« لو اختصرتمْ من الإحسانِ زُرتكمُ   والعذبُ يُهْجَرُ للإفراطِ في الخصر »[1]

وما قيل في العجزِ عن الشكر ، بكثْرة البرِّ ، أحسنُ من بيت المعرّي هذا ، وقد تضمنه ابنُ عمّار أحسنَ تضمين .

ونزل ابنُ عمّار في بعضِ حركاته بحصنِ شقورة ، وانقبضوا عن لقائه استيحاشاً منه ، فكتب إليهم[2] :

أإخوانَنا هل حالَ من دوننا أمرُ   تراءَى لكم أم وحشةٌ جرَّها الدهرُ
بخلتمْ بلقيانا وكان نزولنا   على جَفْوَةٍ منكم وإن عَظُمَ البرّ
وما هو إلا مقطعٌ كهوائكم   عصيبٌ وخلقٌ مثل منزلكم وعر
ثقوا بي إذا عنّ اللقاء فما اعتزى   إلى شيمتي غدرٌ ولا بيدي سحر

وكتب منه إلى أبي الفضل بن حسداي[3] يصفُ حصنَ شقورة وحصانَتَه[4] :

أدْرِكْ أخاكَ ولو بقافيةٍ   كالطَّلِّ يوقظُ نائمَ الزَّهَرِ
فلقد تقاذفتِ الركابُ به   في غير مَوْماةٍ ولا بحر
طفحتْ[5] صحابتُهُ بلا سِنَةٍ   وتمايلتْ سُكراً بلا خمر [٧٧ ب]

---

١ انظر شروح السقط : ١٢٠ .
٢ خالص : ٢٩٥ .
٣ ترجمته في القسم الثالث : ٤٥٩ .
٤ القلائد : ٩٢ وخالص : ٣٠٢ .
٥ م ط س : طفقت .

ومنها في صفة الحصن :

وحشٌ تناكرتِ الوجوهُ به حتى استربتُ بصفحةِ البدر
متجبِّرٌ سال الوقارُ على عطفيه من كِبَرٍ ومن كِبْرِ
عالٍ كأن الجنَّ إذ مَرَدَتْ جعلَتْهُ مَرْقاةً إلى السرِّ

وكتب في ذلك إلى ابن المطرّز[1] :

تراءَ لعيني إنْ أردت مبرّتي وسبِّبْ إلى الحُسْنَى ولو بقسيمِ
فما شُمَّ عَرْفُ المسكِ دون تنشُّقٍ ولااهتزَّ عطفُ الغصنِ دونَ نسيم

وكان في ضيافة المعتصم صاحب المرية ، بالمنية الصمادحية ، فلما أزمع على الرحيل استسرحَهُ بهذه الأبيات[2] :

يا واثقاً وَصَلَ السّماحَ الجَوْدَ[3] في فضلِ السماحِ
ومطابقاً يأتي وجوهَ الجِدِّ من طُرُقِ المزاح
أسْرَفْتَ في برِّ الضياف فَجُدْ قليلاً بالسَّراحِ

فأجابه المعتصم[4] :

يا فاضلاً في شكرِهِ أصِلُ المساءَ مع الصباحِ
هلا رفقْتَ بمهجتي عند التكلُّمِ بالسَّراح
إنَّ السماحَ بمثلكم واللهِ ليس منَ السماح

١ ط م س : إلى المطرز ؛ وسيرد « ابن المطرز » ص : ٤١١ ؛ وانظر خالص : ٣٠٤ .
٢ القلائد : ٥٠ وخالص : ٢٦٥ والحلة ٢ : ٨٥ والمغرب ٢ : ١٩٨ .
٣ المغرب والحلة : فضح السحاب ؛ المغرب : الجون .
٤ القلائد : ٥١ والحلة ٢ : ٨٥ والمغرب ٢ : ١٩٨ .

فلما أزمع على الرحيل ، وشرع في سلوك السبيل ، وحضر المعتصم لوداعه ، أنشده ابن عمار جواباً على أبياته الثلاثة[1] :

ألَفْظُكَ أم كأسُ الرحيقِ المعتقِ	وخطُّكَ أم روضُ الربيعِ المنمقِ
ونظمك أم سلكٌ من الدرِّ ناصعٌ	يروقُ على جيدِ العروسِ المطوق
بعثتَ بها يا قطعةَ الروضِ قطعةً	شممتُ[2] بها عَرْفَ النسيم المخلَّق
ثلاثةَ أبياتٍ وهيهاتِ إنما	بعثتَ بها الجوزاءَ في صفح مُهرَق
هيَ السحرُ أسرى في النفوس من الهوى	وكيف يكونُ السِّحرُ في لفظ متَّق[3]
أمعتصماً بالله والحربُ ترتمي	بأبطالها والخيلُ بالخيل تلتقي
دعتني المطايا للرحيل وإنني	لأفرَقُ من ذكرِ النوى والتفرق
وإني إذا[4] غرّبتُ عنك فإنما	جبينكُ شمسي والمريّة مشرقي

وكتب إليه المعتصم يوماً بنثر وشعر يقول فيه[5] :

وزهّدني في الناسِ معرفتي بهم	وطولُ اختباري صاحباً بعد صاحبِ
فلم تُرِني الأيامُ خِلاً تسُرني	مباديهِ إلا ساءني في العواقب
ولا قلتُ أرجوهُ لدفعِ ملمَّةٍ	من الدهرِ إلا كان إحدى المصائب

فأجابه ابن عمار بقوله[6] :

---

١ القلائد : ٨٦ والمطرب : ١٧٣ وخالص : ٢٩٧ .

٢ م ط : بعثت .

٣ ط والقلائد : منطق .

٤ القلائد : وإن .

٥ القلائد : ٤٩ والخريدة ٢ : ٨٣ وابن خلكان ٥ : ٤٠ والحلة ٢ : ٨٤ والمغرب ٢ : ١٩٧ .

٦ القلائد : ٥٠ والخريدة ٢ : ٨٤ وخالص : ٢٦٩ .

فديتك لا تزهدْ وثَمَّ بقيةٌ ستَرغب فيها عندَ وقْعِ التجاربِ [٧٨أ]
وأبقِ على الخُلْصانِ إنَّ لديهمُ على البدء كرّاتٍ بحسن العواقب
تكنّفتَني بالنثرِ والنظم عاتباً[1] وسقتَ عليَّ القولَ من كلِّ جانب
وقد كان لي لو شئتُ ردٌّ وإنما أجَرَّ لساني ذكرُ[2] تلك المواهب
ولا بدَّ من شكوى ولو بتنفُّسٍ يسكِّنُ[3] من حَرِّ الحشا والترائب
كتبتُ على رسمي وبعد نسيئةٍ قرأتُ جوابي من سطور المواكب
ثلاثةَ أبياتٍ وهيهات إنّما بعثتَ إلى حربي ثلاثَ كتائب
وكيف يلذ العيشُ مِنْ عَتْبِ سيِّد وما لذَّتي يوماً على عَتْبِ صاحب
وقبْلُ جرَتْ عن بعض كتبي جفوةٌ ألحَّتْ على وجهي بغمزٍ[4] الحواجب
سلكتُ سبيلي للزيارة إثرها[5] فقابلتُ[6] دفعاً في صدور الركائب
وما كنتُ مرتاداً ولكن لنفحة تعودتُ من ريحانِ تلك الضرائب
ولو لمعتْ لي من سمائكَ برقةٌ ركبتُ إلى مَغْناكَ هُوجَ الجنائب
فقبّلتُ من يمناكَ أعذبَ موردٍ وقضّيتُ من لقياك أوكدَ واجب
وأبتُ خفيفَ الظهر إلاَّ من النوى وخلّيتُ للعافي ثقالَ الحقائب
سواك يعي قولَ الوشاةِ من العدا وغيرك يقضي بالظنونِ الكواذب

---

١ القلائد وخ بهامش ط : جاهداً (بغير خط الأصل) .
٢ القلائد وخ بهامش ط : بعض (بخط مختلف) .
٣ الخريدة : يخفف ؛ القلائد : يبرد .
٤ ط م س : لغمز .
٥ القلائد : قبلها .
٦ الخريدة : فصادفت .

تلخيص التعريف بآخر أمره وكيفية مقتله

كان حب الرياسةِ في رأسه يدور، وأما انتزاؤه بمرسية فمشهور، وأفضت[1] الحالُ بالرشيد هنالك إلى الاعتقال، بأيدي نصارى الافرنجة، في جملة من المال كانوا أكثروا بها، فحبسوا الرشيد بسببها، إلى أن افتكّه أبوه المعتمد في خبرٍ طويل، وابن عمار صاحب ذلك الرعيل[2]، والملومُ في المعلوم من أمره والمجهول، وفساد حاله عند المعتمد يتزايد، وتدابُرُهُ يتساند. وفي أثناء ما وقع من تدبير تلك الأمور، ونجوم ذلك الاستيحاش والتغيير، خاطبه المعتمد عاتباً متمثّلاً بهذين البيتين[3]، وكان قد خرج عنه:

تغيَّر لي في من تغيَّرَ حارثُ ... وكلُّ خليلٍ غيَّرتْهُ الحوادثُ
أحارثُ إنْ شوركتُ فيك فطالما ... نعمنا وما بيني وبينك ثالث

فأجابه ابن عمَّار بقوله[4]:

. . . .

١ نقله ابن الابار في الحلة ٢ : ١٤٤ .

٢ الحلة (٢ : ١٤٤) : الرحيل ، وذلك تغيير من المحقق ، ليطابق ما اقترحه ابن عمار من خروج إلى شرق الأندلس مع الرشيد بجيش اشبيلي للاستيلاء على مرسية (وفي أصل الحلة : الرعيل) .

٣ هما لابراهيم بن العباس الصولي قالهما لما انحرف عنه ابن الزيات ، وكان الحارث بن بسخنر صديقاً له ، فهجره فيمن هجره من إخوانه (الأغاني ١٠ : ٤٥ وديوان العباس : ١٨٢) وقيل إن البيتين لإسحاق بن ابراهيم الموصلي .

٤ الحلة ٢ : ١٤٣ وخالص : ٢٨٤ وتمام المتون : ٣٠٨ .

لك المثلُ الأعلى وما أنا حارثُ ولا أنا ممَّن غيَّرته الحوادث
ولا شاركتكَ الشمسُ فيَّ وإنه لينأى بحظّي منك ثانٍ وثالث
فديتُكَ ما للبشرِ لم يَسْرِ بَرْقُهُ ولا نفحتْ تلك السجايا الدمائث
أظنُّ الذي بيني وبينك أذهبتْ حلاوتَهُ عنّي الرجالُ الأخابث
تنكَّرتَ لا أني لفضلك ناكرٌ لديَّ ولا أنّي لعهدك ناكث
ولكنْ ظنونٌ ساعدتْها نمائمٌ كما ساعدتْ مَثْنَىَ[1] المثاني المثالث
أبَعْدَ مَضَتْ خمسٌ وعشرون[2] حجَّة تجافتْ بنا تلك الخطوبُ الكوارث [٧٨ب]
مضتْ لم تَرِبْ مني أمورٌ شوائبٌ ولا تُليتْ مني مساعٍ خبائث
حللتَ يداً بي هكذا وتركتني نهاباً وللأيام أيدٍ عوابث
وهل أنا إلا عبدُ طاعتِكَ التي إذا متُّ عنها قام بعديَ وارث
أعِدْ نظراً لا توهنِ الرأيَ إنه قديماً نبا[3] هافٍ وأدرك رائث
ستذكرني إن بان حبلي وأصبحت تئنُّ[4] بكفّيْكَ الحبالُ الرثائث
وتطلبني إنْ غاب للرأي حاضرٌ وقد غاب منّي للخواطر باعث
أعوذ بعهدٍ نطْتَهُ بكَ أن تُرى تَحُلُّ عراه العاقداتُ النّوافث

قوله : « قديماً نبا هافٍ وأدرك رائثُ » معنى مشهور ، القولُ فيه كثير ، ومن أشهره قول عبيد * :

....

١ الحلة : صوت .
٢ الحلة : أبعد انقضا خمس وعشرين .
٣ الحلة : كبا ؛ ط م د س : بنا .
٤ د : تمر .
* ليس لعبيد ، وإنما هو لعدي بن زيد ، ديوانه : ٧٠ .

قد يدركُ المبطىءُ من حظّه والخير قد يسبقُ جَهْدَ الحريصْ

وقال القطامي[1] :

قد يدركُ المتأنّي بعضَ حاجته وقد يكونُ مع المستعجلِ الزَّلَلُ

ولما سمعه أعرابي قال : هذا ضَبَطَ الناس . هلاّ قال بعد هذا :

وربّما ضرَّ بعضَ الناس بطئُهُمُ وكان خيراً لهم لو أنّهم عجلوا

وفي أثناء تلك الحال ، التي أفضتْ بالرشيد إلى الاعتقال ، كتب إلى المعتمد بهذه الأبيات[2] :

أصَدِّقُ ظنّي أم أصيخُ إلى صحبي وأمضي عزيمي أم أعوجُ مع الركبِ

إذا انقدْتُ في رأيي مشيتُ مع الهوى وإنْ أتَعَقَّبْهُ نكصتُ على عقبي

وإنّي لتثنيني إليكَ مودّةٌ يغيّرها ما قد تعرَّضَ من ذنب

فما أعْجَبَ[3] الأيام في ما قضت به تُرِينيَ بُعْدي عنك آنَسَ من قربي

أخافُكَ للحقّ الذي لك في دمي وأرجوك للحبّ الذي لك في قلبي

وهذا[4] البيت على سهولة مبناه[5] ، من أحسن ما قيل في معناه ، وبمثله

١ ديوان القطامي : ٢٥ وتمام المتون : ٥٦ .

٢ الحلة ٢ : ١٣٥ وديوان المعتمد : ٥١ ؛ وعند الفتح في القلائد : ٩٠ - ٩١ أبيات اختلطت بها بعض هذه ، كتبها ابن عمار إلى المعتمد ، وانظر خالص : ٢٧٩ .

٣ الحلة : أغرب .

٤ نقل التعليق في الحلة ٢ : ١٣٦ .

٥ د : مبتناه ؛ ط : معناه .

فلتنخدع الألبابُ ، وتستعطفِ الأعداءُ للأحباب[1] ، إلا أنّ المصراع الأوّل كأنه شيء تكهّنَهُ من شانه ، وطيرةٌ ألقاها الله تعالى على لسانه ، وصدق كان له في عنقه ربْقٌ ، وفي دمه حقٌ ، احتال له فناله ، والمرءُ يعجزُ لا المحالة . وفيها يقول :

وكم قد فرَتْ يمناك بي من ضريبةٍ ... ولا بدّ[2] يوماً أن يُفَلّل من غربي

ولا بدّ ما بيني وبينك من ثنا ... يطبّقها ما بين شرقٍ إلى غرب[3]

وأعلمُ أن العفو منك سجيّةٌ ... فلم يبق إلا أن تخفّف من عتب

فلي حسناتٌ لو أمُتُّ ببعضها ... إلى الدهرِ لم يَرْتَعْ لنائبةٍ سربي

فأجابه المعتمد بقوله[4] :

تقدّمْ إلى ما اعتدت عندي من الرحب ... ورِدْ تَلْقَكَ العُتْبى حجاباً عن العتبِ

متى تلقني تلق الذي قد بَلَوْتَهُ ... صفُوحاً عن الجاني رؤوفاً على الصحب

سأوليك منّي ما عهدت من الرضى ... وأصفحُ عمّا كان إن كان من ذنب

فما أشعر الرحمنُ قلبيَ قسوةً ... ولا صار نسيانُ الأذمّةِ من شعبي [79أ]

تكلّفْتُهُ أبغي به لك سلوةً ... فليس يجيدُ الشعر مشتركُ اللبّ

١ د : للأصحاب .
٢ الحلة : ولا غرو .
٣ هذا البيت ورد في ط م س ، وذكر ابن الابار (الحلة ٢ : ١٣٧) أن أبا الطاهر التميمي أورد هذا البيت زيادة على ما أورده ابن بسام في روايته .
٤ الحلة ٢ : ١٣٦ وديوان المعتمد : ٥٢ ؛ والرد الذي أورده الفتح في القلائد يتضمن أبياتاً على الروي نفسه ، لكنها غير هذه .

فلم يزده جواب المعتمد هذا إلاّ توحّشاً ونفاراً، وتوقفاً عن اللحاق به وازوراراً ، ولله درّ أبي الطيّب في قوله[1] :

إذا ساء فعلُ المرءِ ساءتْ ظنونُهُ   وصدّق ما يعتادُهُ من توهّمِ
وعادى محبّيه لقولِ عداته   وأصبح في ليلٍ من الشكّ مظلم

ونقله المتنبي من قول أعرابي :

أسأت إليّ فاستوحشتَ منّي   ولو أحسنتَ ما استبعدت عني
أسأت فساء ظنُّك بي لجاجاً   وما أوْلى المسيء بسوءِ ظنّ

وقول المعتمد : « تكلفته أبغي به لك سلوة » . صدق فيما وصف . وزاد على التكلف .

وقول ابن عمار : « فلي حسنات لو أمتُّ ببعضها ، إلى الدهر » مما ردّد لفظه ومعناه ، وأصله فيما أراه من قول الفيلسوف : « قد تكلمتُ بكلامٍ لو مُدِح به الدهرُ لما دارت عليّ صروفه » ، وأخذه الناجم[2] فقال[3] :

ولي في أحمدٍ أمَلٌ بعيدٌ   ومعنى حين أنْشِدُهُ ظريفُ
مدائحُ لو مدحتُ بها الليالي   لما دارتْ عليّ لها صروف

وقال المتنبي[4] :

---

[1] ديوان المتنبي : ٤٥٦ .
[2] م ط س : الناظم .
[3] زهر الآداب : ٦٣٣ وذهب الحصري إلى أن الناجم أخذه من قول بشار في المهدي: « لقد مدحته بشعر لو قلت مثله في الدهر لما خيف صرفه على حر » .
[4] ديوان المتنبي : ٣٧ .

في فيلقٍ من حديدٍ لو رميت به[1]   صرْفَ الزمانِ لما دارت دوائرُهُ

وكانت حالُ ابنِ عمار ، حين تردّد بتلك الأقطار من بلد بني هود ، قد تمكّن منهم بالمؤتمن ، إلاّ أن بني عبد العزيز كانوا يُشْرِقُونَهُ بريقه، ويوعّرون عليه السّهْل من طريقه، ويبلغُهُ عنهم ما تتوقّدُ له ضلوعُهُ ، وتنسكبُ منه دموعُهُ . بلغه عنه[2] وعن ابن طاهر أنهما تَنَدّرا فيه بسبب خاتمين كان المؤتمن ختّمه بأحدهما ، والآخر اذفونش بن فرذلند ، فكتب ابن عمار إلى ابن عبد العزيز[3] :

قلْ للوزير وليس رأيَ وزير   أن يُتْبِعَ التنديرَ بالتنديرِ[4]
إنّ الوزارةَ مذ لبستَ رداءها[5]   وقفٌ على التغيير والتزوير[6]
وأرى الفكاهَةَ جُلّ ما تأتي به   رحماك في التعجيز والتصدير
بلغتْ دُعابتُكَ التي أهْدَيْتَها   في خاتم التأمين والتأمير
وأظنّها للطاهريّ[7] فإن تكنْ   فجديرةٌ التقديسِ والتطهير

---

١ الديوان : لو قذفت به .

٢ يعني ابن عبد العزيز ، ولم يصرح بذكره فيما سبق .

٣ الحلة ٢ : ١٤١ والقلائد : ٦٤ وخالص : ٢٩٣ .

٤ القلائد : التنزير بالتبذير .

٥ الحلة : لو سلكت سبيلها .

٦ د : والتدوير ؛ الحلة والقلائد : التعزيز والتوقير .

٧ يعني أبا عبد الرحمن ابن طاهر ، وكان مشهوراً بنوادره ، كما وضح ابن بسام في ترجمته في القسم الثالث : ٢٦ — ٢٧ .

فرسا رهان أنتما فتجاريا بالقولِ في التقديم والتأخير[1]
وإذا سلكتَ سبيله فحقيقةٌ كي تتبع التصفير بالتصفير
وأرى بلنسيةً وأنت قُدارها[2] سيناالها التدميرُ من تُدمير

وفي بني عبد العزيز أيضاً يقول مغرياً بهم ، خاطباً لنفسه ، ونحلها ابن المطرز الشاعر[3] :

بَشِّرْ[4] بلنسيةً وكانت جنّةً أنْ قد تدلَّتْ في سواءِ النار[5]
جازوا[6] بني عبد العزيز فإنهم جرُّوا إليكمْ أسوأ الأقدار
ثوروا بهم متأوِّلين وقلِّدوا ملكاً يقومُ على العدوّ بثار
هذا محمدٌ أو فهذا أحمدٌ وكلاهما أهلٌ لتلك الدار [٧٩ب]
جاء الوزيرُ بها يكشِّفُ ذيله[7] عن سوءةٍ سوأى وعار عار
وأوى لينصر من نبا المثوى به ودهاه خذلانٌ من الأنصار[8]

.. ..

١ في الحلة :

ولعل يوماً أن يصير نعته في طينة التقديم والتأخير

وفي القلائد : أن يصير نقشه .

٢ قدار : عاقر الناقة ؛ وفي د : مدارها .

٣ كان ابن عمار شديد التنقص للوزير أبي بكر أحمد بن محمد بن عبد العزيز ، ويقال إنه نظم هذه الأبيات حين غدره ابن عبد العزيز في حصن جملة (Jumilla) من أعمال مرسية (انظر الحلة ٢ : ١٥٥ وديوان المعتمد : ٧١) .

٤ الحلة : خبر .

٥ د : سواد القار .

٦ ط د س : جاروا .

٧ ط م د س : ذيلها .

٨ البيت من هامش ط ، وهو والأبيات المزيدة هنا من تقييد معلق آخر عدا الناسخ .

نكث اليمين وحاد عن سنن التقى ‏ وقضى على الإقبال بالادبار
ما كنتمُ إلا كأمّة صالح ‏ فرماكمُ من طاهر بِقُدار
هذا وخصكمُ بأشأم طائر ‏ ورمى دياركمُ بألأم جار[1]
برَّ اليمين ولم يعرّض نفسَهُ ‏ ونفوسُكُمْ بمصارع الفجّار
لا بدّ من مَسْحِ الجبين فإنّما ‏ لطمته غَدْراً غيرُ ذاتِ سوار
هيهات يُطْمَعُ بالنجاةِ لطالبٍ ‏ ساعٍ إذا ونتِ الكواكبُ سار
كيف التفلُّتُ بالخديعةِ من يَدَيْ ‏ رجلِ الحقيقةِ من بني عمّار
رجلٍ تطعّمَهُ الزمانُ فجاءَهُ ‏ طَرَفَيْنِ في الإحلاءِ والامرار
سلس القيادِ إلى الجميل وإن يهجْ ‏ فَدَعِ العنانَ لهبّةِ التيّار
طَبِنٌ بأعراض الأمور مجرّب ‏ فَطِنٌ لأسرارِ المكايد دار
ماضٍ إذا برزت إليه مصمم ‏ حَوِلٌ إذا التفّتْ عليه مدار[2]
ما زال مذ عقدت يداه إزاره ‏ فسما فأدرك خمسة الأشبار
كشاف مظلمة وسائس أمّة ‏ نفّاع أهل زمانه ضرّار
عجباً لأشمطَ راضعٍ ثدي الوغى ‏ منه ، وطودٍ في القنا الخطّار[3]
شرّاب أكواسِ المدام وتارةً ‏ شرّاب أكواس الدّمِ الموّار
جرّار أذيالِ القنا ، ظنُّوا به ‏ قد زاركم في الجحفل الجرّار
وكأنّكم بنجومهِ ورُجُومهِ ‏ تهوي إليكم من سماء غبار
وأنا النصيحُ فإن قبلتم فاتركوا ‏ آثارها خَبَراً من الأخبار
قوموا إلى الدار الخبيثةِ فانهبوا ‏ تلك الذخائرَ من خبايا الدار

---

1 هذا البيت والذي يليه من هامش ط .

2 هذا البيت والذي بعده من هامش ط .

3 زيادة من هامش ط .

وتعوّضوا من صفرةٍ خبثيّة بأغرَّ وضّاحِ الجبين نضار

ولما سمع المعتمد هذا القصيد ، وقرع سَمْعَهُ فخارُ ابن عمار ، قال هذه الأبيات ، وهي من مليح التعريض ، ومقلوبِ التقريض[1] ، وأضافها إلى بيت ابن عمار حيث قال عن نفسه :

كيف التفلُّت بالخديعةِ من يَدَيْ رجلِ الحقيقةِ من بني عمّارِ

فقال المعتمد[2] :

الأكثرين مسوّداً ومملكاً ومتوّجاً في سالفِ الأعصار
المكثرين من الكباء لنارهم لا يوقدون بغيره للساري
والمؤثرين على العيالِ بزادهم والضاربين لهامةِ الجبّار
الناهضين من المهودِ إلى العلا والمنهضين الغارَ بعد الغار
إنْ كوثروا كانوا الحصى أوفوخروا فَمَنِ الأكاسر من بني الأحرار
يضحي مؤمّلهم يؤمّل سَيْبُهُ ويبيت جارهُمُ عزيزَ الجار
تبكي عليهم شنتبوس بعبرةٍ كأتيّها المتدافعِ إِالتيّار
يبكي بها القصر المنيف تلألأتْ شُرُفاتُهُ في خُضْرَةِ الأشْجَار
ما ضاحكتْهُ الشمسُ إلا خلتَهُ نُضِحَتْ جوانبُهُ بماءِ نضار
يا شمسَ ذاك القصرِ كيفَ تخلّصتْ فيه إليكِ طوارق الأقدار[٨٠ أ]
لما تَنَلْكِ شَعوبُ حتى جاوزتْ غُلْبَ الرجالِ وساميَ الأسوار
كم كان من أسَدٍ هنالك خادرٍ لكِ حارسٌ بأسنّةٍ وشفار

. . . .

١ ط د : التقريظ .

٢ الحلة ٢ : ١٥٦ وديوان المعتمد : ٧٢ .

من قومكِ الزُّهْرِ الوجوهِ إذا الوغى كستِ الوجوهَ الغُرَّ ثوبَ القار
من كلّ أشوسَ خائضٍ في لُجّةٍ نحو الكُماةِ بشعلةٍ من نار
لمّا نماهم للعلا عمّارُهُمْ تركوا العداةَ قصيرة الاعمار

وشنّبوس[1] التي ذكر هي اسم قرية ببادية شلب، كانت مقرّ سلفِ ابن عمّار.

وقوله: « يا شمس ذاك القصر » كانت والدة ابن عمّار — زعموا — تدعى بشمس مصغّرة.

فلما بلغ ابنَ عمارٍ شعرُ المعتمد هذا، وقد بلغ من التّنديز[2] فيه الغاية، وتجاوز من الطَّنْزِ عليه النهاية، فُلّ حَدُّ صَبْرِهِ، ولم يَشُكَّ أنّه من شعره، فشاعت في الناس أشعارٌ، عُزِيَتْ إلى ابن عمّار، في القدح في المعتمد وآله وذويه وعياله، منها قصيدةٌ أوّلها[3]:

ألا حيّ بالغرب حيّا حِلالا أناخوا جِمالا وحازوا جَمالا
وعرّج بيُومينَ أمّ القُرى ونَمْ فعسى أن تراها خيالا
لتسألَ عن ساكنيها الرّمادَ ولم تر للنارِ فيها اشتعالا

وبَعْدَهُ ما أضربتُ[4] عنه، رغبةً بكتابي عن الشَّيْنِ، وبنفسي أن

....

[1] ط م د: وشنبوش.
[2] ط م س: التدبير.
[3] الحلة ٢: ١٥٧٦ والخريدة ٢: ٧١ والريحان ١: ١٥٦ ب والوفيات ٤: ٤٢٨ والوافي ٤: ٢٣٠.
[4] د: أضرب.

أكون أحدَ الهاجيَيْنِ ، فقد قالوا : الراوية أحد الشاتمين .

وقوله : « وعرّج بيومين » هي أيضاً اسمُ قريةٍ بقطر إشبيلية كانت أوليَّةُ بني عبّاد منها .

فلما قَرَعتِ الأسماعَ تلك الأشعار [1] ، ونُسِبَتْ لابن عمّار ، اشتدَّ حَنَقُ المعتمد عليه ، ونفوذُ المقدورِ يتسبَّبُ لموته على يديه ، فلم يزل المعتمد يرتصدُ فيه الغوائل ، وينصبُ له الحبائل ، إلى أن لاح لابن عمّار عند صاحبِ شقورة برقٌ خُلَّب ، وكان قد تجاوز بطمعه في الرئاسة طمعَ أشعب ، فسوَّل للمؤتمن ابن هود امتطاءَ صهوتها ، وسهَّلَ له تسنُّمَ ذروتها ، وإنما أراد أن يخدعه كما خدع ابن عبَّاد ، فَدُفِعَ في صدره ، وحاق به سيّءُ مَكْرِه ؛ فلما طرق إليه ولحق بحصنه ، لم يلبَثْ أن حصل في سجنه ، غدراً به ، فجعل ابنُ عمَّار يلاطفه ويسترحم ، وينشدُهُ اللهَ في حقنِ الدم ، ووعده في نفسه وضَمِنَ له أموالاً ، فلم يُصْغِ إليه وشدَّ صفاده اعتقالاً ، وطيَّر إلى المعتمد بالخبر . واتفق أن اجتاز الوزير أبو جعفر ابن جرج [2] بذلك الأفق ، وابنُ عمَّار في المطبق ، فخاطبه بهذه الأبيات [3] :

كأني أراكَ أبا جعفرٍ تقولُ وتبسمُ نحوي مشيرا
سفرْتُ ليرجعَ هذا معي وزيراً فلم أرَ إلا أسيرا

---

[1] ذكر ابن الابار (الحلة ٢ : ١٥٧) أن ابن عبد العزيز دس إلى مرسية نبيلا من يهود الشرق ليلابس ابن عمار ويروي ما يقوله من أشعار ، وأن هذا اليهودي هو الذي حصل على هذه القصيدة وطار بها إلى ابن عبد العزيز ، فطيرها هذا مدرجة طي كتابه إلى المعتمد .

[2] ترجمته في القسم الثالث : ٤٤٨ .

[3] خالص : ٣٠١ .

وهل يملكُ المرءُ من أمره قبيلاً فينفذه أم دبيرا
هو القدر الحتم يُعْمي الفتى وإن كان بالدهرِ طَبّاً بصيرا

واتفق أيضاً وقتَ القبضِ عليه يومئذٍ دخولُ المعتمدِ حصنَ بيّاسةَ ، وتطارُحُ أهلِها عليه ، وحصول تلك الجهة في يديه ، ورأيت رقعةً صدرت عنه في ذلك إلى أحد بنيه ، وذكر الخائن[1] ابن عمّار في فصلٍ منها قال فيه :

كتابي يوم كذا ، وفي أمسه ورد كتابُ المأمون أخيك من داخل حصن بيّاسة ، وأنّ أهلها لما بلغهم تأهّبي لمحاصرتهم ، واحتفالي لمنازلتهم، وعلموا أنّ تدبيرهم قد اضمحلّ في أيديهم ، وأنّ صريخهم قد خَرِسَ عن إجابة داعيهم ، وتيقّنوا أني إذا نويتُ مضيت ، وإذا بلججتُ حَجّجتُ ، خامرهم الفَزَعُ ، وضاق بهم المتّسَعُ ، ومشى بعضُهُم إلى بعضٍ يتشاورون كيف المصنع[2]،وأين المنزع ،فلم يروا لأنفسهم طريقاً أنجى ،ولا مهرباً أجدى[٨٠ب] بالخلاصِ وأحجى ، من الترامي عليّ ، والاستسلام إليّ ، فبادروا نحوي رجالاً وركباناً ، وتسرّبُوا قِبَلي زرافاتٍ ووحداناً ، ولم أرِدْ حضرةَ قرطبةَ إلاّ وقد لحقَ بها منهمْ أفواجٌ ، وسالتْ بمن وراءَهم أباطحُ وفجاج ، كلٌّ يستعطفُ ويستنزِلُ ، ويسألُ لمن وراءه عفواً يعمّ ويشمل ، فأقبلتُ وقبلت ، وعذرتُ واغتفرت ، وبالغتُ في تأنيسهم ، وتطييب نفوسهم ، والحمدُ لله على ما مَنّ وتطوّلَ ، وأنعم وأفضلَ .

ووافى هذا الصنعَ الجميلَ ، والفتحَ الجليل ، آخرُ تقدّمه خُطّا ،

---

[1] ط : الخيان .
[2] د : الصنع .

وكان له ــ ونعمَ ما كان ــ فَرَطاً ، وذلك بقبضِ عتادِ الدولة أبي محمد ابن سهيل[1] على الغادرِ الملحدِ ابنِ عمّار ، قطع الله به وبمن أوى[2] إليه وآل بكلّ مَنْ سعى سَعْيَهُ أو نزع منزعَه مآلَه، بحبائلَ نصبناها له هنالك حتى عَلِقَتْهُ ، وغوائلَ أرْصَدْناها حتى أوْبَقَتْهُ ، وتلك عادةُ الله الحسنى عندنا ، في من غمطَ نعمتنا ونكث عهدنا ، فله الحمد دائباً والشكر واصباً .

قال ابن بسّام : وكان القبض على ابن عمّار بشقورة يوم الجمعة لستّ بقين لربيع الآخر سنة سبع وسبعين ، وورد على المعتمد غيرُ ما خطابٍ في معناه وَوَجْهِ الشفاعة فيه ، وَجَبْرِ صَدْعِهِ وتلافيه ، فسدّ بابَ الشفاعة في ذلك ، وشدّ صفادَه هنالك . وممن كان شفع له يومئذ ذو الوزارتين ابن محقور صاحبُ شاطبة ، بخطابٍ مشهورٍ معروف ، ورأيت عليه الجواب من إنشاء أبي الوليد ابن طريف[3] ، قال فيه :

وقفتُ على الإشارةِ الموضوعة من قِبَلِكَ على أخلصِ وجوه السّلامة ، المستنام فيها إلى شَرَفِ محتدِكَ وصفاءِ مُعْتَقَدِكَ أكرمَ

....

1 لم أجد تعريفاً به ، ولكن يبدو من سياق الأحداث أنه كان صاحب حصن شقورة ، حيث تم القبض على ابن عمار . وقد قص لسان الدين كيف احتال صاحب هذا الحصن على ابن عمار وجعل البلد بيده باللسان ، وطلب منه الصعود بنفسه لمباشرة قصبته . فأسرع لذلك في طائفة يسيرة من الرجال فلما تحصل في القصبة وثب به صاحب الحصن وكبله وأودعه المطبق (أعمال الأعلام : ١٦٠) .

2 د : أووا .

3 ذكره في النفح ٣ : ٤٢٩ وأورد له أبياتاً في زوال دولة المعتمد، وانظر الذخيرة ١ : ٨١٨ — ٨٢١ .

استنامة ، في الشفاعة في من أساء لنفسه حظَّ الاختيار ، وسبَّبَ لها سببَ النكبةِ والعِثار ، بغَمْطِهِ لعظيم النعمة ، وقَطْعِهِ لعلائقِ العِصْمَة ، وتخبُّطِهِ في سَنَنِ غيِّه واستهدافه ، وتجاوزِه في ارتكابِ الجرائم وإسرافِه ، حتى لم يَدَعْ للصلح موضعاً ، وخرقَ سِتْرَ الابقاءِ بينه وبين مولى النعمة عنده فلم يترك فيه مَرْقَعاً ، وقد كان قبل استشراء دائه[1] ، وكَشْفِهِ لصفحة المعاندة وإبدائه ، عُذْرُهُ في جميع جناياتهِ مقبولٌ ، وجانبُ الصفحِ له مُعَرَّضٌ مبذولٌ ، لكنْ غيَّرتْهُ الغواية ، عن طريق الهداية ، فاستمرَّ على ضلالِهِ ، وزاغَ عن سَنَنِ اعتداله ، وأظهر المناقضةَ ، وتعرضَ — بزعمه — إلى المساوَرَةِ والمعارضة ، فلم يزل يُريغُ الغوائلَ ، وينصبُ الحبائلَ ، ويركبُ في العناد أصعبَ المراكب ، ويذهبُ منه في أوعر المذاهب ، حتى عَاقَتْهُ تلك الأشراكُ التي نصبها ، وتشبَّثَتْ به مساوىء المقدّمات التي جرَّها وسبَّبها ، فذاق وبالَ فِعْلِهِ ﴿ ولا يحيقُ المكرُ السيّءُ إلاَّ بأهْلِهِ ﴾ (فاطر : ٤٣) ولم يحصلْ في الأنشوطة التي تورَّطَها ، والمَنْحَسَةِ التي اشتملت عليه وتوسَّطها ، إلاَّ وَوَجْهُ العفوِ له قد أظلم ، وبابُ الشفاعةِ فيه قد أبهم ، ومن تأمَّلَ أفعالَهُ الذميمة ، ومذاهِبَهُ اللئيمة ، رأى أنَّ الصفْحَ عنه بعيد ، والإبقاءَ عليه داء حاضر عتيد ؛ ومثلك في رجاحةِ ميزانه ، ومعرفتِهِ بأبناء زمانِهِ ، لم يجهلْ بدأةَ حالِهِ من القُلِّ والضَّعَةِ ، وارتقاءَهُ منها إلى الرفعة والسّعة ، وإنشالَهُ من ذلِّ الخمول ، إلى العزِّ العريضِ الطويل ، وتسويغَهُ عقائلَ الأموالِ ، وجلائلَ الأحوال .

وفي فصلٍ منها : ففوّقَ لمناضلةِ الدولة نبالَه ، وأعْمَلَ في مكايدتها

[1] ط د س : رائه .

جَهْدَهُ واحتياله ، ثم لم يقتصرْ على ذلك ، بل تجاوزَه إلى إطلاقِ لسانِه بالذمّ الذي صدر عن لؤمِ نجارِه ، والطّعْنِ الشاهدِ بخبثِ طويّتِه وإضماره ، ومن جهلَ مقدارَ تلك النعمةِ التي كان سُوّغها أوّلاً ، أخْلِقْ به أنْ لا يعرفَ مقدارَ العفوِ عنه آخراً ، ومن فسد هذا الفسادَ كيف يُرْجى استصلاحُهُ ؟ ومن استبطنَ مثلَ غلّهِ كيف يؤمّلُ فَلاحُهُ ، ومَنْ لكَ بسلامةِ الأديم النَّغِلِ ، وصفاءِ القلبِ الدَّغل ؟ ! وعلى ذلك فلا أعتقدُ عليك [٨١ أ] فيما عرضتَ به مِنْ وجه الشفاعة غيرَ الجميل ، ولا أتعدّى فيه حُسْنَ التأويل ، ولو [1] وَفَدَتْ شفاعتك في غير هذا الأمرِ الذي سبق فيه السيفُ العذلَ ، وأبطل غافلُ الأقدارِ فيه الألطافَ والحيل ، لَتُلُقّيَتْ بالإجمالِ ، وقوبِلَتْ ببالغ المبرّةِ والاهتبال .

ما أخرجته من سري نظمه وجزل مقاله مدة اعتقاله

من ذلك أبيات خاطب بها صاحب المريّة يقول فيها [2] :

أصبحت في السوقِ ينادى على ... رأسي بأنواعٍ من المالِ
فهل فتىً يبتاعني ماجدٌ ... أخدمه مدّةَ إمهالي
تالله لا جار على نَقْدِهِ ... مَنْ ضمّني بالثمن الغالي

---

١ ط د م س : ولقد .
٢ القلائد : ٩٢ والمعجب : ١٨٣ وخالص : ٣٠٥ .

أرْبِحْ بها مولاي من صفقةٍ ... في سلعة من برّك العالي[1]

وكتب أيضاً إلى المعتمد[2] :

نفسي تحنُّ إلى فـداءِ ... تفديك نفسي من شراءِ
فاسبقْ بنقدك وعْدهُمْ ... مسترخصاً لي بالغلاء
ثم امضِ فيَّ على اختيا ... رك من فَناءٍ أو بقاء
والله ما أدري إذا ... قالوا : غداً يوم اللقاء
ما أقْتلُ الحالينِ لي ... إن كان خوفي أو حيائي

وكتب إليه أيضاً[3] :

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح[4] ... وعذرك إن عاقبت أجْلى وأوضحُ
وإن كان بين الخطتين مزيّةٌ ... فأنت إلى الأدنى من الله أجنح
حنانيك في أخذي برأيك لا تُطِعْ ... عداي[5] ولو أثْنَوْا عليَّ وأفصحوا
فإنَّ رجائي أنَّ عندك غير ما ... يخوض عدوّي اليوم فيه ويمرح
ولمْ لا وقد أسلفتُ ودّاً وخدمةً ... يكرّان في ليلِ الخطايا فيُصْبح
وهبْني قد أعقبت أعمال مُفْسِدٍ ... أمَا تفسد الأعمال ثمّت تصلح

. . .

١ ط د م س : ترك ؛ د ٠ المال .
٢ الحلة ٢ . ١٥٤ وخالص : ٣٠٦ .
٣ الحلة ٢ : ١٥٣ – ١٥٤ والقلائد : ٩٨ والمعجب : ١٨٥ وأعمال الاعلام : ١٦١ والنفح ٥ : ١٨٢ وخالص : ٣١٩ والريحان ١ : ١٥٧ أ وتمام المتون : ٩٢ .
٤ المعجب : وأسجح .
٥ القلائد : عداتي ؛ الحلة : وشاي .

أقِلني لما بيني وبينك من رضىً	له نحو روْحِ الله بابٌ مفتّح
وعفٌّ على آثارِ جُرْمٍ سلَكتُه	بهبّةِ رحمى منك تمحو وتصفح[1]
ولا تلتفتْ رأيَ الوشاةِ وقولهم	فكلُّ إناءٍ بالذي فيه يرشح
سيأتيك في أمري حديثٌ وقد أتى	برأي[2] بني عبد العزيز موشح
تخيَّلتُهُمْ لا درَّ لله درُّهُمْ	أشاروا تجاهي بالشّماتِ وصرحوا
وقالوا : سيجزيه فلانٌ بذنبه[3]	فقلت : وقد يعفو فلانٌ ويصفح
ألا إنَّ بطشاً للمؤيّد يرتمي[4]	ولكنَّ حلماً للمؤيّد يرجح[5]
وماذا عسى الواشون أنْ يتزيلوا	سوى أنَّ ذنبي ثابتٌ[6] متصحح
نعمْ ليَ ذنبٌ غير أنَّ لحلمه	صفاةٌ يزلُّ الذنبُ عنها فيسفح[7]
سلامٌ عليه كيف دار به الهوى	إليّ[8] فيدنو أو عليّ فينتزح
ويَهْنيه إنْ متُّ السلوُّ فإنني	أموتُ ولي شوقٌ إليه مبرّح
وبين ضلوعي من هواه تميمةٌ	ستنفعُ[9] لو أنَّ الحِمام يُجَلّحُ[10]

... ...

١ س و الحلة: وتمصح .

٢ الحلة والقلائد والمعجب : بزور .

٣ القلائد والمعجب : بفعله .

٤ القلائد : يتقى .

٥ ط : أرجح .

٦ المعجب و خ بهامش ط : واضح .

٧ الحلة ..فيفصح ؛ م ط س : فيمرح .

٨ م ط س : علي .

٩ النفح · ستشفع .

١٠ القلائد : مجلح .

قال ابن بسام[1] : بلغني أنّه لمّا وصلت هذه القصيدة إلى المعتمد جعل من بحضرته [٨١ ب] من أعداء ابن عمّار ينتقدونه ، ويطلبون به عيباً لو يجدونه ، فجعلوا يقولون : أيّ معنى أراد ، ما قال شيئاً ولا كاد ، فقال لهم المعتمد : مهما سَلَبَهُ الله من المروة والوفاء ، فلم يسلبه الشعر ، إنّما قَلَب بيتَ الهذَليّ[2] فأحسنَ ، وهو قوله :

وإذا المنيّةُ أنشبتْ أظفارها ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

فسكتَ القوم في ناديهم ، وَسُقِطَ في أيديهم . غير أنَّ أبا سالم العراقيّ جعل يتمضّغُ بقوله : « يكرّان في ليل الخطايا » وقال : ما معناه ؟ وهلاّ بدّل هذا اللفظ بسواه ؟ فقال له المعتمد ، وأراه طَنَزَ عليه ، وأشار بالتقصير إليه : أبا سالم ، أنْزِلْهُ[3] ، وإن استطعت بفضلك فأبْدِلْهُ ! فأحجم وتلعثم ، ولم يتأخر ولا تقدّم . وكذلك قوله : « فماذا عسى الواشون أن يتزيّدوا » ، وهو لفظ المجنون[4] :

وماذا عسى الواشون أن يتحدّثوا سوى أن يقولوا إنني لكِ عاشقُ

وإن كان المعنى مختلفاً فحذو اللفظ واحد .

ولحق بشقورة بعد القبض على ابن عمّار يزيدُ بن المعتمد الملقّب بالراضي ،

١ انظر المعجب : ١٨٦ .
٢ يعني أبا دؤيب الهذلي . ديوان الهذليين ١ : ٨ .
٣ ط س : أزله .
٤ ديوان المجنون : ٢٠٣ .

فكتب إليه ابن عمّار[1] :

قالوا أتى الراضي فقلتُ لعلّها ... خُلِعَتْ عليه من سِمات أبيهِ
فألٌ جرى فعسى المؤيدُ واهبٌ[2] ... لي من رضاه ومن أمانِ أخيه
قالوا نعم ، فوضعتُ خدّي في الثرى ... شكراً له وتيَمُّناً ببنيه
يا أيُّها الراضي وإن لم يلقني ... من صفحةِ الراضي بما أدريه
هَبْكَ احتجبتَ لوجه عذرٍ بيِّنٍ ... بذلُ الشفاعةِ أيُّ عذرٍ فيه
خفِّفْ على يدك الكريمة أسطراً[3] ... في مَنْ أسرتَ فتنثني تفديه

ثم صدر[4] عن شقورة ، وجاء به إلى قرطبة يومَ الجمعة السادسَ من رجب من العام ، وقد برز الناسُ لدخولِ الراضي ، وابنُ عمّار في ذلك الحفل ، في قيوده ، على دابّة هجينة ، حاسراً في ثوْبٍ خَلَقٍ بين عِدْلَيْ تِبْنٍ ، عظةٌ لمن اعتبر مجاريَ الليالي والأيام ، ولَعِبِهَا بالأنام ، فكم دخل قرطبة قبلُ في أبَّهة الرؤساء، يسحبُ ذَيْلَ الكبرياء ، فسبحان من يَبْسُطُ للمحسن والمسيء عَدْلَه ، ولا تدومُ العزّةُ إلاّ له :

حدثني الوزير أبو عمر الفرضي كاتبُ حَشَمِ المتوكل أنّه شهد دخولَ ابنِ عمّار يومئذ قرطبة ، فلم يَرَ زعيماً من زعماء البلد ، ولا عظيماً من أهل دولة المعتمد ، إلاّ وهو يمسحُ عِطْفَهُ ، ويمشي بين يديه أو خلفه ، توقّعاً

---

1 القلائد : ٨٦ والحلة ٢ : ١٥١ وخالص : ٣٠٨ والريحان ١ : ١٥٧ أ .
2 القلائد والحلة : واهباً .
3 القلائد والحلة : سهل ... أحرفاً .
4 قارن بالحلة ٢ : ١٥٨ وأعمال الاعلام . ١٦١ .

لكرّته ، واستدفاعاً لمضرّتِه ، فقد كان أكثرهم لا يشكُّ أنّ غضبَ المعتمد عليه ، نارٌ يطفئها نَظَرُهُ إليه ، وتيّارٌ يكفته مثولُهُ بين يديه ، فقد كان من قلبه بمكان ، ومن إيثارِ قُرْبِهِ في شان.

وأخبرني الوزير المذكور أنّ ابن عمّار كان يباهي يومئذ بذلّته وقلّته ، عُدَدَ آسرهِ الراضي وعُدّته ، ويقاوم بهوانِهِ وامتهانه بأسَهُ وشدّته ، حتى كأنّه أحدُ خدَمه ، أو بعضُ حشمه . قال : وكتب في أثناء ذلك إلى المأمون بهذه القصيدة الفريدة ، وهي من حُرِّ النظام ، وجزل الكلام ، وأوّلها [1] :

هلاّ سألتَ شفاعةَ المأمونِ ... أو قُلْتَ ما في نَفْسِهِ يكفيني
ما ضرّ لو نبّهْتَهُ بتحيّةٍ ... يسري النسيمُ بها على دارين
وهززتَ منه فقد يقلّبُ سيفَهُ ... يومَ الجلاد الحينَ بعد الحين [٨٢أ]
ما لي أنبّهُ ناظراً لم يَغْفُ عن ... حَظَّيْهِ من دنيا ولا من دين
وأهزُّ من عِطْفٍ ثناه عَطْفَهُ ... حتى خشيتُ عليه فَرْطَ اللين
بيدي من المأمون أوثقُ عصمةٍ ... لو أن أمري في يد المأمون
أمري إلى مولى [2] إليه أمرُهُ ... وكفاكَ من فوقِ كفاك [3] ودون
حيث استوى [4] الخصمان حقاً والتقى ... عزّ الغنيِّ بذلّةِ المسكين
ملكٌ طوى سرَّ المهابةِ شخصُهُ ... لولا أسرّةُ وجههِ الميمون

١ الحلة ٢ . ١٥١ وتمام المتون : ٣٦٣ وخالص : ٣١٣ .
٢ الحلة : ملك .
٣ الحلة : وكفاه . . . كفاه.
٤ د : التقى .

جَبَلٌ سما بذؤابتيه إلى العلا ورسا بِهَضْبَتِه على التمكين
متوقِّدُ الجنَبات كُلِّل دَوْحه بجنىً وفُجِّرَ صَفْحُهُ[1] بعيون
ذلّتْ لأيدي المجتنين قطوفُهُ ودنا إليهم من ظلال غصون
ونأى لأبصار العُصاة فإنما يتوهّمون نعيمَهُ بظنون
بحرٌ إذا ركب العفاةُ سكونَهُ وهبَ الغنى في عزّةٍ[2] وسكون
وإذا طمى للذنب لم يسمعْ به إلا الدعاء يُعان بالتأمين
كم أسْكَبَ العذبَ الفراتَ على فمي ورمى يدي باللؤلؤ المكنون
واليومَ قد أصبحتُ في غَمَراتِه إن لم تُغِثْني رحمةٌ تنجيني
بَعُدَتْ سواحلُه عليّ وأدركت أمواجُهُ فتلاعبت بسفيني
لا شكَّ في أني غريقُ عُبابه إنْ لم يمدَّ الفتحُ لي بيمين
يا فتحُ جَرِّدها عنايةَ فارسٍ بطلٍ على حَرْبِ الوليِّ[3] أمين
متقدِّم من جدّه[4] بكتيبة مستظهرٍ من لفظه بمكين
واقرنْ شفاعتكَ الكريمة عنده بتواضعٍ عن عزّةٍ لا هُون
في شيكّةٍ من هيبةٍ وسكينةٍ وبضجّةٍ من رحمةٍ وحنين
فأبوك مَنْ تغشى الملوكُ بساطهُ شُوساً فما يرمونه بعيون
ما يعرضُ الجبَّارُ منه لحاجةٍ إلا برفعْ يدٍ وَوَضعِ جبين
يا فتحُ إن نازلته مستنزلاً[5] فاهنأْ بفتحٍ من رضاه مبين

١ د : سفحه .
٢ م ط : غرة .
٣ الحلة : درب على نصر الولي .
٤ د : حده .
٥ ط م : لدفع .

وليخلصنّ إليك من أعلاقهِ[1]   عِلْقٌ يَشُدّ عليك[2] كفَّ ضنين

وكان قد كتب أيضاً يومئذ[3] إلى الرشيد بهذا القصيد، وهو من قصائده الحرة وقلائده المُبرَّة[4] :

قل لبرقِ الغمامِ مِطوِ[5] البريد   قاصداً بالسلام قصرَ الرشيدِ

فتقلَّبْ في جوِّهِ كفؤادي   وتناثَرْ في صَحْنِه كالفريد

وانجذبْ[6] في صلاصِلِ الرعد تحكي   ضَجَّتي في سلاسلي وقيودي

فجزاك الإله من ملكٍ حُرٍّ   بقاءَ التمكين والتمهيد[7]

من مطيعٍ عهدَ[8] الوفاءِ مطاعٍ   ودودٍ على النَّوى مودود[٨٢ب]

كنت أشدو عليك يا دوحةَ المجـ   ـدِ ويا روضَةَ النَّدى والجود

إذ جناحي نَدٍ بظلكَ طَلْقٌ   ولساني رطب على التغريد

وأنا اليوم تحتَ ظلِّ عقابٍ   لَقْوَةٍ مُخوتِ[9] الجناح صيود

. . ..

١ الحلة : أنماله .

٢ الحلة . عليه .

٣ يومئذ سقطت في م .

٤ د . المنيرة ؛ ط س . المنبرة ؛ م المثبرة ، وانظر أبياتاً من القصيدة في الحلة ٢ . ١٥٢ وهي عند خالص ٠ ٣٠٩ .

٥ مطو البريد صاحبه ، وفي م ط ٠ مطهر البريد ؛ الحلة . ظاهر بريدي .

٦ الحلة ٠ وانتحب، ووق اللفظه في م كذا . ولعل الصواب . وانحدر

٧ بعده في الحلة بيتان متصلان به وهما

فإذا ما اجتلاك أو قال مادا   قلت إني رسول بعض العبيد

بعض من أبعدته عنك الليالي   فاجتنى طاعة المحب البعيد

٨ ط ٠ عبد .

٩ في النسخ . مخوة ؛ والمخوت التي إذا خاتت أي انقضت سمع لجناحها دوي .

أتقيها بناظرٍ خافقِ اللحـ ظِ مَروعٍ وخاطرٍ مزؤود[1]

غير أنّي سأصطفي لك جهدي من ثنا طيِّبٍ وذكرٍ حميد

في قليلٍ من القوافي كثيرٍ وَذَلول من المعاني شرود

كلماتٍ كأنها الدرُّ نظماً طَوَّقَتْ منكَ أيَّ طوقٍ وجيد

أنت بدر النجوم تحت سنا الشمـ سِ أتتكم على سماءِ السعود

أنت ريحانةُ العلا لبني عَبّا دِ السّادَةِ الكرامِ الصِّيد

أنت إمّا اعترضتمُ دُرّة التّا ج فرنْدُ الحسام وسِطْى الفريد

وإذا ما مُدِحتُمُ نُكْتَةُ الخطـ بةِ فَصُّ الحديثِ بيتُ القصيد

وإذا ما ركبتم الخيلَ صَدْرُ الجيـ شِ عين اللواءِ قلب الحديد

أنت فيهم إن يُعْتموا ليلة القَدْرِ وإذ يُصبحونَ يوم العيد

فهنيئاً أبا الحسين خلالٌ وصفاتٌ جَلَّتْ عن التحديد

وشفوفٌ على الجميعِ بسنٍ[2] وسناءٍ إلى سنا ممدود

وهنيئاً من المؤيِّد حظٌّ لا مزيدٌ عليه للمستزيد

لك في نفسه العزيزة حبٌّ شابَ فيه حلاوةَ التوحيد

وعلى لحظِهِ النزيهِ طلوعٌ كطلوعِ البشير بالتأييد

وإذا ما شدا بذكركَ شادٍ قال أحسنتَ هزّةَ المستعيد

فعلامَ السُّرَى بصبحِ رضاه معْ سنا وجهك الأغرِّ السعيد

وإلى أين في الشفيع إذا ما لم ألُذْ منكَ عنده بالرشيد

بفتىً نازحِ المكانِ مُطِلٍ غائبِ الشّخصِ ذي اعتناءٍ عتيد

... ...

١ مزؤود : مذعور .

٢ د : بمن .

مشفقٍ يستجيب لي من قريبٍ		وأنا أستغيثُه من بعيد
لو أطلّتْ عليَّ رحمة عينيـ		ـه انجلَتْ شِدّتي وذابَ حديدي

قال ابن بسام : فصدرت هذه الأشعار ، يومئذٍ عن ابن عمار ، وهو في قيود الحديد ، وقالها على البديه والارتجال ، في تلك الحال ، من شِدّةِ الاعتقال ، وبالٍ يناجيه البلبال ، قد تيقّنَ أنه لا يُفْلِت ، ولا ينظر إلاَّ إلى عدوٍّ يَشْمَت ، والموت يلاحظه من حيث لا يتلفت[1] ، إذ كان المعتمد قد أحضره في تلك الحال غيرَ ما مرّةٍ بين يديه ، ويعدد ذنوبَه عليه ، ولو قال كلَّ قصيد ورَوّاه حولاً كاملاً ، في أمْنٍ ودعة ، وفرطِ شهوة أو شدّة حميّة وعصبية ، لما زاد على ما أجاد ، فكانت هذه القصائد القلائد ، مع ما تشتمل من البدائعِ الروائع ، رقىً لم تنفع ، ووسائلَ لم تنجعْ ، وإذا سبق القدر ، فلا وِرْدَ ولا صَدَر . [٨٣ أ] .

أخبِرْتُ عمّن صحب الراضي في وجْهَتِهِ يومئذٍ من شقورةَ وكان ممن رقّبَ على ابنِ عمار ، فجعل يكلأه في طريقه ، خوفاً على نفسه ومراعاةً أيضاً لسالفِ حقوقه ، فلما انتهى[2] إلى قرطبةَ وسُلّمَ للقصر ، دعيَ ذلك الرجل مع أصحابه بعد العصر ، في سلاح شاكٍ وتعبئةٍ ظاهرة ليصحبوه إلى اشبيلية ، فبينما هم عند بابِ السدّةِ ينتظرون إلى أنْ يسلّم إليهم ابن عمار ، وقد انسلخ النهار ، إذ أوجسوا نبأةً ، فإذا المعتمد قد خرج والشمع بين يديه

١ في النسخ : يلتفت ، وإنما نثر قول تميم بن جميل السدوسي (الوافي للرندي : ٢٠) :
أرى الموت بين السيف والنطع كامناً		يلاحظني من حيث ما أتلفت
٢ قارن بالحلة ٢ : ١٥٨ .

وخدمُه [1] حواليه ، وابن عمارٍ بينهنّ على بَغْلٍ يهزأن به ويتضاحكن ، فأعربَتْ حالُه يومئذٍ بمباديها ، على [2] سوءِ العاقبةِ فيها .

وحدثني أبو بكر الخولاني المنجم قال [3] : لما وصل المعتمد إلى اشبيلية من وجهته تلك ، سجنَ ابنَ عمار داخلَ القصر على قُرْبٍ منه ، وأحضره مراراً بين يديه ، يعدّد ذنوبه عليه ، فبقي مدّةً كذلك ، في سجنه هنالك ، لا يتنفّس ولا يتحرك إلا تحت سَمْعٍ وعَيْنٍ ، فاستدعى يوماً سحاءةً ودواةً فَبُعِثَ إليه بِزَوْجٍ كاغَدٍ ، فكتب إلى المعتمد شعراً استرحمه فيه ، فعطف عليه ، وأحضره ليلتَه تلك ، ووعده بالعفو عنه ، فخاطبَ ابن عمّار من حينه الرشيدَ بذلك ، فلمح تلك المخاطبةَ عيسى بن الأعلم [4] وزيره يومئذٍ ، فتحدّثَ بالأمر ، وذاع السّرّ ، وانتهى الخبر إلى الوزير أبي بكر بن زيدون صاحب الدولة وَقْتَه [5] ، وعداوتُه لابنِ عمّار أوضح من أن تُشْرَحَ ، فَدَمَغَتْه من ذلك دامغة ، وبات بليلة النابغة ، وتخلَّفَ عن الركوب إلى القصر صبيحةَ الغد ، حتى ورده رسول المعتمد ، وحَدَس [6] أنّ مجلسَ سِرّهِ مع ابنِ عمار وَصَلَ إليه ، واستفهمه فوجد نَصّ المجلس عنده ،

....

[1] الحلة : وحرمه .

[2] الحلة : عن .

[3] انظر الحلة ٢ : ١٥٩ .

[4] هو عيسى بن يوسف بن سليمان الشنتمري ، ولد أبي الحجاج الأعلم اللغوي المشهور ، روى عن أبيه واختص بعبيد الله بن المعتمد حتى استوزره ونال معه دنيا عريضة (الذيل والتكملة ٥ : ٥١٥ والتكملة : ٤٠٩) .

[5] د : في وقته .

[6] ط : وحدس إليه .

فازداد حنقاً على ابن عمّار الخائن ، وحرّك ضِغْنَه الساكن ، فقال لأحد الصقالب : سل ابنَ عمّار كيف وَجَدَ السبيلَ ، مع عظيم التَرقيب ، إلى إفشاء ما أخذت معه فيه[1] ، فلما سأله أنكر ، قال المعتمد : فما أراد بالكاغد الذي طلب ؟ قال : إنه أخبر انه كتب إليكَ فيه بشعر ، قال : هو في ورقة مفردة ، فما فعل بالأخرى من الزَّوْج الكاغد المبعوث به إليه؟ قال: كتب فيه مسوّدة ذلك الشعر ، قال المعتمد : خُذْها منه لأقِفَ على ذلك ؛ فلما لم يجد بُدّاً من النطق بالصدق ، رجع إلى الحقّ ، وقال : إني خاطبت الرشيد بما وعدني به مولانا من العفو ، فاتقد[2] المعتمد ، وقام من فَوْره كما كان . وأخذ طبرزيناً[3] ، وجاء إلى موضع ابن عمار الذي كان فيه مسجوناً ، ودخل إليه ، ففزع — كما كان في قيوده — إلى تقبيل رجليه ، فضربه به ، ثم أمر بأن يتمّ عليه ، وأخرِجَ ووري في قيوده ، خارجَ باب القصر المبارك المعروف في اشبيلية بباب النخيل ، فمضى رحمه الله على هذا السبيل . واتفق بأن وقع حَفْرٌ بموضع رمسه من ذلك المكان ، لبنيان عَرَضَ فيه بعد نيّف على عشرين سنة من مقتله ، فأخبرني مَنْ شهد إخراجَ جمجمته وأعظُم ساقيه بِكَبْلِهِ وهي رميم ، « وعندالله تجتمع الخصوم »[4] . وما وقفت في

---

[1] الحلة : معه البارحة فيه .

[2] ط : فالتقد ؛ د : فانفذ .

[3] اضطربت كتابة اللفظة في ط م س (ط : طبر بزيراً ، وفوقها : كذا).

[4] بحاشية ط شعر بخط الأصل وهو :

أما والله إن الظلم لوم ... وما زال المسيء هو الظلوم
إلى ديان رب العرش نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

قلت : والبيتان لأبي العتاهية وقد مر تخريج الثاني منهما .

تأبين ابن عمار على شعرٍ لأحدٍ من أهل العصر ، غير بيت مُفْرَدٍ شهد أنّ المعتمدَ باشر قتله بيده ، وهو لعبد الجليل حيث يقول[1] :

عجباً لمن أبكيه ملءَ مدامعي وأقول لا شُلَّتْ يمين القاتلِ

وكان عبد الجليل متعصّباً لابن عمار ، مائلاً إليه بطبعه ، إذ كان الذي جَذَبَ بِضَبْعه ، ونوّهَ بذكره ، ونفّقَ من شعره ، وعرّفَه بالمعتمد حتى استخلصه لنفسه ، وأحْضَرَهُ مجالسَ أنْسِه .

ويتعلّقُ بهذا القتلِ الشنيع ، خبرٌ غريب المسموع ، في ذلك الأوانِ ، وحديثٌ ظريفٌ من الحدثان[2] ، أخْبِرْتُ به عن غير واحد من وزراء المعتمد ، وذلك أنه لما مَضَتْ لقتلِ ابنِ عمار أيام ، حضروا مع المعتمد في مجلسِ أنْسٍ ، فلما طابتِ الأنفس ، وأخذت [٨٣ ب] منهم حُمَيّا الأكؤس ، وارتاح المعتمدُ وهزَّ عِطْفَهُ ، وبدا على قسماته عطفه ، سُئِلَ عن هذا الخبر المستظرف ، الذي كانوا سمعوه من بعضِ السَّلَف ، وأقسموا عليه بتخليدِ ملكه في أنْ يحدثهم بحديثٍ كان إليه ينسبُ ، وقالوا : هو من فمِ مولانا أطيبُ ، فقال لهم كلاماً معناه لعلّ هذا الاستخبار عن شأنِ ابن عمار ، قالوا : أجل ، وطفقوا يفدُّونَهُ بالأنفس ، وأكثروا في ودادِهِ من شرْبِ الأكؤس ، فأخبرهم أنه كان أيامَ مقامِه بشلْب ، قد غلب ابنُ عمار على نفسِه ، وأخذ بمجامع أنْسِه ، فأمره وأخَذَ عليه — إذا دعا أصحابه — أن يكونَ أوّلَ داخلٍ وآخرَ خارج ، ليأنسَ به ويتمتّعَ بأدبه ، فيجده ينفرُ

---

١ الحلة ٢ : ١٦٠ .

٢ انظر الحلة ٢ : ١٦١ .

نِفارَ الشَّارد ، ويتسلّلُ من مجلسه تسلّلَ الطريدةِ من يد الصائدِ ؛ فلما أبى إلاّ اطراداً عن أصله ، وطال ذلك عليه من فعله ، تقدّمَ إلى أصحابِ سُدّته ليلةً في ترقّبه ، وَمَنْعِهِ من مذهبه ، وأنذر وتَهدّدَ ، وأقامَ في ذلك وأقعد، وقام ابنُ عمار كعادته ، فلم يحفلْ المعتمدُ ليلتَهُ بمكانِهِ ، لما كان قَدّمَ في شانه ، فلما انفضَّ مَنْ كان عنده ، التمسه ففقده ، وطلبه مُنْتَهى جهدِهِ فما وجده ، وأحضرَ مَنْ كان أوصى فيه إليه ، فأخبر أنه لم تقعْ له عَيْنٌ عليه ، فرابه أمرُهُ ، وخفي عنه سِرُّه ، فشهر فيما بلغني سَيْفَهُ وأخذ الشمعَ بين يديه وجعل يطلبه حيث يحسبُهُ ولا يحسبه ؛ فلما انتهى إلى بعضِ الدهاليز إذا بحصيرٍ مطويّ ؛ وابن عمّارٍ فيه أغمضُ من سرٍ خفيّ ، عريانُ كالأفعوان ، فأمر بحمله ، وهو قد تعجّبَ من فعله ، فلما استقرَّ بالمعتمد المجلس ، جعل يبسطُ جانبَ ابنِ عمار ويؤنّس ، وابنُ عمار يبكي فيُضْحِك ، ويشكو فَيُشَكِّك ، فلما سكن قليلاً ، وأفرخَ رَوْعُهُ ، ورقأ دمعُهُ ، سأله عن شأنه فأخبر أنه كلّما كانتْ تأخذُ منه الشمول سمع[1] كأنَّ قائلاً يقول : يا مسكين ، هذا يقتلك ولو بعد حين ، كلاماً هذا معناه ، فلا يزال يطلبُ الأنْسَ بوسعه فيبعدُ عليه ذلك ويمتنع ، حتّى يصنَع ما يصنع ، إلى أن كان له معه الذي قُدّر .

ومن مقاله في أثناء اعتقاله هذه القطعة البديعة[2] :

يقولُ قومٌ إنَّ المؤيّدَ قد أحالَ في فديتي على نَقْدِهْ

... .

١ د : يسمع .

٢ ذكر ابن قاسم الشلبي الذي أخذت عنه أكثر أخبار ابن عمار أن هذه القصيدة وجدت في قراب ابن عمار بعد قتله (الحلة ٢ : ١٦٠) ؛ وانظر الأبيات عند خالص : ٣١٧ .

يا قومُ[1] ماذا الشراءُ ثانيةً ترى لمعنىً يَريبُ من عنده ؟ !
أوْحَشَني والسَّماحُ عادتُهُ سماحُهُ بالغلاءِ في عبده
الحمد لله إنْ يكنْ حرجاً فليس في مِثْلِهِ[2] سوى حمده
وحيلة إنْ وصلتُ حَضرتَهُ جعلتُها رغبةً إلى جنده
لو ساعوا في الفرندِ أرْمُقُهُ من طَرْفِهِ لم أخَفْهُ من غمده
يا ربِّ بَشِّرْ برحمةٍ وحياً يؤْنِسُ من بَرْقِهِ ومن رعده

ومنهم الوزير الكاتب أبو الوليد حسان بن المصيصي[3]

وهو أيضاً من شِلْب ، ومن ذلك الأفقِ طلعتْ نجومُ الكلام ، فأضاءت البلاد ، ونشأت غيومُ النثارِ والنظام ، فطبَّقَتْ الهضابَ والوهاد ؛ إلا أن حسّاناً[4] هذا وصاحبيه أبوي بكر : ابن عمار وابن الملح كانوا هنالك رؤساء الأمّة ، ورؤوس إجماع الأئمة ، ونجمتْ دولةُ المعتمد ابن عباد بتلك البلاد وهم أغصانُ دَوْحَة ، وأخدانُ غَدْوَةٍ إلى طلبِ العلم وَرَوْحَةٍ ، يتدارسون

... ...

١ الحلة : فقلت .
٢ الحلة : مثلها .
٣ انظر المغرب ١ : ٣٨٥ والمسالك ١١ : ٤٢٨ (وفيه نقل عن الذخيرة) ورايات المبرزين : ٢٧ (غ) والخريدة ٢ : ١٩١ ، ٣ : ٥٨٨ (ط . تونس)والنفح ٤ : ٣٠٧ ؛ ولفظة « حسان » سقطت من م س ط .
٤ في الأصول : حسان ؛ وقد اضطرب الاسم فجاء حيناً مصروفاً وحيناً ممنوعاً من الصرف ، وهذا جائز فيه ، لأنه ان كان من « حسن » كان مصروفاً لأصالة النون فيه ، وإن كان من « حس» كان ممنوعاً من الصرف لأن النون فيه زائدة؛ ولكني أجريت ما جاء في هذا النص على سياق واحد . أي اعتبرته مصروفاً .

آياتِه ، ويتبارون[1] إلى أبعد غاياته ، ولكلٍّ دليلٌ في السَّنا مشتهر ، وسبيلٌ إلى العلياءِ مختصر . ونهض تصريفُ المقدار منهم بابن عمار ، فشبَّ عن طَوْقِهِ ، بالحمل وأَوْقِهِ[2] ، وبلغ المبلغ الذي استغنى باشتهاره عن تكراره ، وتبعه هذان في الانقطاع إلى الدولة ، يحسبانِ كلَّ بيضاءَ شحمة[3] ، ويتخيَّلان كلَّ ضوءٍ نجمةً ، ولله في بريّته أقدارٌ يُمْضيها ، ومن مشيئتهِ أسرارٌ يتفرّدُ بها فيخفيها ؛ فلم يحصلا إلاّ على لُبْسِ ما خلع [٨٤أ] والارتسام حيثُ أشار ووضع ؛ فأمّا ابنُ الملح فإنه نَفَرَ نفرة الأنِفِ ، وفرَّ فِرارَ الحَنِقِ الأسِفِ ، مؤثراً للانزواء ، على الاستخذاء ، مكتفياً بالدُّون ، من التصرّف على الهون ، وكانت له خلالَ ذلك مَدَائحُ يُهْديها ، وَرَحَلٌ إلى الحضرة يحملُ على نَفْسِهِ الأبيَّةِ فيها ، فيطرأ جديداً ، ويصادفُ عهداً بها بعيداً ، فيؤوبُ ضَخْمَ العيابِ ، محمود المقامِ والإيابِ . وأما حسّان هذا فَصَدَقَ الحملةَ ، ولزم الجملةَ ، مغتبطاً[4] بما خُوِّلَ ، جاعلاً نفسه حيثُ جُعِلَ ، ورضي من ابن عمّارٍ بوطءِ عَقِبِهِ ، ولزومِ مركبه ، وابنُ عمّار يرعاه لمكانه ، ويخاف انتباه المعتمدِ لشانه ، حتى زاحمه أخيراً بالأديب أبي محمد عبد الجليل ، فأقرَّا له بالفرق ، وأخذ منهما جميعاً قصباتِ السبق . وكان ابنُ عمّارٍ بعد ذلك كلّه

---

١ م : ويتبادرون .

٢ الأوق : الثقل .

٣ ناظر إلى قول الشاعر :

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة عشية لاقينا جذام وحميرا

وهو من المثل : ما كل بيضاء شحمة (الميداني ٢ : ١٦٩ والعسكري ٢ : ٢٨٧ تحقيق أبو الفضل ، وانظر ما تقدم ص : ١١٤) .

٤ مغتبطاً : سقطت من م .

كلّما مرَّ ذكرُ عبد الجليل ألقى بيديه[1] ، وشهد له بالفضل عليه ، وليست الحظوظُ بالأقدار ، ولا الأمورُ على الاختيار . ولما أنشأ المعتمدُ لابنه الفتح ، دولته بقرطبة المتقدِّمة الشرح ، أصحبه حسَّاناً هذا كاتبَ سرّه ، وصاحبَ أكثرِ أمره . وقد أخذتُ من شعره أعدلَ شاهدٍ على ما أجريتُ من ذكره .

جملة من شعره في المدح وما يتصل به

له من قصيدة في المعتمد أولها :

أضاءَ بك الأفقُ الذي كان أظلما ... وقد لحتَ في الإكليل بدراً متمّما
على أيِّ وجهٍ لم يُشَعْشِعْ طلاقةً ... وفي أيِّ ثغرٍ لم ينوِّرْ تبسما
وقد صغتَ من ذاك المحيّا وحُسنهِ ... صباحاً ومن تلك الخلائقِ أنجما
إذا غبتَ عن أرضٍ تمثّلَ أهلها ... « عسى وطنٌ يدنو بهم ولعلَّما »[2]

ومنها :

ألا قُلْ لأربابِ المخائضِ أهملوا ... فظلَّ ابنِ عبَّادٍ عليهنَّ أينما
فهل تقتدي الأعلامُ فيك بحارَها ... لتحظى بعقْدِ السِّلمِ منك فتسلما
مع الله يمضو[3] إن مَضَوْا مَعَ غيره ... ولله أحرى أن يَفُلَّ ويغنما
وُلِدْتَ مع الإقدامِ في ساعةٍ معاً ... ففدّاك في الهيجاء كَوْنُكَ توأما

---

[1] م : بيده .
[2] صدر بيت لأبي تمام (ديوانه ٣ : ٢٣٢) وعجزه : وأن تعتب الأيام فيهم فربما .
[3] يقال في مضارع مضى : يمضي ويمضو .

وللهِ عاداتٌ لديك جميلةٌ   يُفيدكَ أرياً حيث تحسبُ علقما
ولو جَبَلَيْ طيّ رميتَ بفرقةٍ   لجاءَ أجا سلمى إليكَ مسلّما
لذاك ابنُ عمّارٍ ثنى آذفونشَ طائعاً   بِسَعْدِكَ حتى لو أمَرْتَ لأسلما
ولم يُبْقِ روميّاً بفضلك مشركاً   وان أشركوا بالله عيسى بن مريما
تفاءَلتَ باسم الفتح[1] لما لقيتَهُ   لتفتحَ أمراً خاله[2] الناسُ مبهما
تلاقيتما للسَّعْدِ بدراً وكوكباً   أباً لا يُبارَى في المكارِمِ وابنما

ومنها :

أراهُ وأرجوه وأنشرُ فَضْلَهُ   فيملأُ مني العينَ والكفَّ والفما

ومعنى هذا البيت الأخير كقولِ ابن شَرَف[3] :

سلْ عنه وانطقْ به وانظرْ إليه تجدْ   ملءَ المسامعِ والأفواهِ والمقلِ

وإلى هذا المعنى أيضاً ينظر قولُ الحسنِ[4] على رأي بعض من فسَّر وهو :

* ألا فاسقني خمراً وقلْ لي هيَ الخمرُ *

وقوله : « ولم يبق روميّاً بفضلك مشركاً » كقول محمد بن هانىء[5] :

.. ..

١ ط م د س : تفاءلت بالفتح اسم الفتح .
٢ ط د : داله ؛ م س : دله .
٣ يرد مع أبيات أخرى له في القسم الرابع من الذخيرة (الورقة : ٩٠).
٤ يعني أبا نواس ، ديوانه ٢٧٣ ، وعجز البيت : « ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر » .
٥ ديوان ابن هانىء : ١٧ .

لم يشركوا في أنّه خيرُ الورى　　ولذي البريةِ عندهمْ شركاءُ [٨٤ ب]

وله من أخرى فيه ، أولها[1] :

من استطال بغير السيفِ لم يَطُلِ　　ولم يخبْ من نجاح سائلُ الأسَلِ
أعدَتْكَ[2] صحبَتُكَ الأرماحَ شيمتَها　　فانفذ نفوذَ القنا في الأمرِ واعتدل
وإنْ أتَتْكَ أمورٌ لم تُعِدَّ لها　　فانهضْ برأيك بين الرَّيْثِ والعجل
أقْدمْ على عَجَلٍ وارغب على زهد　　واغلظ على رقة واسفرْ على خجل[3]
حاز المؤيّدُ ممّا قلتُ أفْضَلَهُ　　وزاد للفرق بين القَوْلِ والعمل

وهذا البيت الأخير مما بَعُدَ شأوُهُ ، وفات سَرْوُهُ ، وتجاوز أكثر الحدَّ عَفْوُهُ .

مَلْكٌ تُواصِلُهُ الدنيا ويهجرها　　سرّاً ويلبسُ تقوى الله في الحلل
لا تحمدنْ زُهْدَ مَنْ لم يُعطَ رغبتَهُ[4]　　لعلَّةٍ غضٍّ من جفنيه ذو الحَوَل
وكم له سُنَّةٌ ضاءَ الزمانُ بها　　ضوءاً بلا لهبٍ كالشمس في الطَّفَل
تعطي الهواءَ وَمَتْنَ الأرضِ غرّتُه　　نُوراً وَنَوْراً عطاءَ الشمسِ في الحمل

وهذا البيت لحسّان من حسناتِ شعره، وأبين آياتِ ذكره، فيه توليدٌ، شَهِدَ أنه شاعر مجيد :

. . ..

١ منها أبيات في المغرب والمسالك والرايات .
٢ ط م د : أغرتك ؛ س : أعزتك .
٣ في الأصول : واغلظ على رقة وارغب على زهد ، والتصويب عن المغرب .
٤ الرايات : قدرته .

تنهاهُ عِفَّتُهُ عن أمرِ بَطْشَتِهِ فالمشتري عنده قاضٍ على زحل

وهذا البيت أيضاً من مليح المنظوم ، وله اختصاصٌ حَسَنٌ بأحكام النجوم ؛ ومنها :

يَطْوي على نُورِ إيمانٍ جَوانِحَهُ فالنفسُ من كوكبٍ والجسم من رجل
لم يَعْتَقْ يوماً ولا احلولى لمسترطٍ وإنما هو بين الصَّاب والعسل
جرَّ الذيولَ ولكنْ من جحافلِهِ على القَتَادِ ولكن من شبا الأسل

وهذا البيت أيضاً مما برز في لفظه ومعناه ، وأراده كثير من الشعراء فأعياه :

فلم يطأْ غَيْرَ ما تحكي شمائلُهُ مع الجزالةِ من سَهْلٍ ومن جبل
جلالةٌ أدْخَلَتْ أملاكَ أندلسٍ تحت الخناعةِ والإحجامِ والفشل
كأنَّ مُلْكَكَ أسنى من ممالكهمْ وأنَّ دولَتَكَ العُلْيا على الدول
لما دعا الغادرُ المضعوفُ قال له أخوه عنك : أخي لاتبكِ في طلل
صَفَحْتَ عنه لآمالٍ له سَلَفَتْ وربما كُرِهَ التفصيلُ للجمل
قد يدخل المسلمُ المخطي الجنانَ غداً بنيَّتي أرتجي الغفرانَ لا عملي

وهذا البيت مما خلصَ فيه يقينُهُ ، وَحَسُنَتْ بخالقه ظنونُهُ ، وعسى الله أن يلقّيه مآلها ، فربَّ مرحومٍ بكلمةٍ قالها .

وما أحسنَ أيضاً ما أنشدته للحسن بن رشيق[١] ، وقد مُنِحَ من التوفيق

---

١ ديوانه : ١٥٣ .

لسلوك هذه الطريق :

إذا أتى الله يومَ الحشرِ في ظللٍ ... وجيء بالأمم الماضين والرُسُلِ
وحاسبَ الخلقَ مَنْ أحصى بقدرته ... أنفاسَهُمْ وتوفَّاهُمْ إلى أجل
ولم أجدْ في كتابي غيرَ سيِّئةٍ ... تسوءني وعسى الاسلامُ يسلمُ لي
رجوتُ رحمةَ ربِّي وهي واسعةٌ ... ورحمةُ الله لي أرجَى من العمل [٨٥أ]

وفي هذه القصيدة يقول[1] حسان :

لولا الكتائبُ لم تنظم مواكبها ... نَظْمَ العقودِ لكان[2] الدهرُ ذا عطل
من كلِّ مُعْتَقِلٍ بالبأسِ مخترِطٍ ... للعزم ، مدَّرعٍ للحزم مشتمل
يقودهم من بني قحطانَ ذو بدعٍ ... من النَّدى والمعالي لا من النحلِ
ينبيك سؤدَدُهُ عن صِيْدِ معشره ... فليس يُزْري أخيرُ المجد بالأول
لا تعجبنَّكَ عَلْيا لا قديمَ لها ... ولا تخلْ غُرَّةً ما ابيضَّ بالكفل
بيضٌ يمانون إن سَلُّوا يمانيةً ... لم يُعرفِ السيفُ في الهيجا من الرجل
وكم جَلَوْا بالندى من ليلِ مفتقرٍ ... كأنَّه دمعةٌ في جَفْنِ مكتحل
إذ كلُّ نابتةٍ شوكٌ بلا ثَمَرٍ ... وكلُّ طائرةٍ شَوْرٌ بلا عسل
طلبتُ مثلَهُمُ في غير حيِّهمُ ... فلم أجدْ غُرَرَ الأفراسِ في الابل
ما زال ينْدى على كفِّي بنائلِهِ ... حتى مسحتُ على عينيَّ من بلل
مَنْ مُبْلغٌ يَدَهُ أني نظمتُ لها ... شكراً جعلتُ قوافيه من القبل
شكراً ذكرتُ به من جودِهِ سرَقاً ... كأنه مُفْرَغٌ في قالب العذل

....

[1] م : يقول فيها .
[2] س : وكان .

لعلَّ عذريَ في ذا الغَزْوِ قد عُرِفَتْ أسرارُهُ بلسانٍ صادقٍ مَذِلِ
وما الحروبُ ومثلي أنْ يشاهدَهَا وإنما أنا حسّان وأنت علي

قال ابن بسّام : وأظنُّ حسّاناً هذا لم يكنْ له علمٌ بالسير ، ولا تصرفٌ بعلم الخبر ، وقد رأيتُ جماعةً من أهلِ الأدب ينسبون حسّان ابن ثابت رحمه الله إلى الجبن ، ويخرجونه من أهلِ الضربِ والطعن ، يحتجّون في ذلك بقعوده عن رسول الله . صلى الله عليه وسلم ، في مغازيه وسراياه ، وينشدون له في ذلك شعراً أظنهم نحلوه إياه . وهي هذه الأبيات على رواية بعض الرواة[1] :

أيها الفارسُ المشيحُ المُطيرُ إنَّ قلبي من السلاحِ يطيرُ
ليس لي قُوَّةٌ على رَهَجِ الخيـ ـل إذا ثَوَّرَ الغُبَارَ مثير
أنا في ذا وعند ذاك بليدٌ ولبيبٌ في غيره نحرير

ولا أمتري أنها منحولةٌ إليه ، ومفتعلةٌ عليه ؛ وبلغ من حججهم على ذلك حديثه في شأن اليهوديّ يوم الأحزاب[2] المطيفِ بالأطَم الذي كان النبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ أحرز فيه النساء والأبناء ؛ وإن حساناً حضَّ صفية بنت عبد المطلب على قَتْلِهِ وأخْذِ سلاحه ، ويقولون لم تَكُنْ به قُوَّةٌ على سلبه ، فضلاً عن حربه ؛ وذهب عليهم أن حساناً . رحمه الله ، كان

....

١ لم ترد هذه الأبيات في ديوان حسان .
٢ انظر هذا الخبر في السيرة ٢ : ٢٢٨ والإصابة ٢ . ٨ وفيه قول حسان عندما حضته صفية على قتل اليهودي : « يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا » وقوله بعد أن قتلته وحرضته على سلبه : « ما لي بسلبه من حاجة . . . » .

قد أصيب في بعض حروبهم في الجاهلية ، فقطع أكحله ، وفي ذلك يقول [1] :

* وخانَ قراعَ يدي الأكحلُ *

ومن أدلّ شيءٍ على ذلك أنه هاجى في الجاهلية والإسلام أكثرَ من ثمانين شاعراً ، لم يَصِفْه أحدٌ بالجبن ولا عيّره به ، ولم يكنْ شيء يتعايرون به أشدّ . ولحسان أيامٌ مشهورة ، ومواطنُ في الحروب مذكورة ، وكان ممن له كنيتان في السلّم والحرب ، كما كان الأبطال تفعلُ على عهده ، كان يكنى في السلّم بأبي الوليد . وفي الحرب بأبي نعامة [2] .

وقد أولع ابنُ المصّيصي [٨٥ ب] بهذا المعنى فأعاده وأبداه ، وألحمَه وأسداه . وأعجبه ما اتفق له منه . حتى أخرجه إلى ما كان في مندوحةٍ عنه . والشعرُ ميدانٌ ربما دعا الأرِنَ إلى المراح ، وأخرج السابقَ إلى الجماح ، فقال من قصيدة يمدح بها المعتمد ، وذكر نفسه وابن عمّار :

كأن أبا بكرٍ أبو بكر الرضى وحسّانُ حسّانٌ وأنتَ محمدُ [3]

فأراد أن يُعرب فأعجم ، وأحبّ أن يضيء فأظلم ، ونعوذ بالله من الخطل في القول ، ونبرأ إليه من القوّة والحول .

....

١ ديوانه ١ : ٤٣٢ وصدر البيت : « أضر بجسمي مر الدهور » .

٢ كان حسان يكنى أبا الوليد – وهي الأشهر – وأبا المضرب وأبا الحسام وأبا عبد الرحمن ؛ ولم أجد أحداً ذكر له كنية في الحرب ؛ وأبو نعامة كنية قطري بن الفجاءة ، ولا مانع من أن يتكنى بها غير واحد من الناس .

٣ إزاء البيت بهامش ط تعليق بخط الأصل ، وهو : يا مصيصي لقد أفرطت ، وفي قبيح القول تورطت ، وفي التأدب فرطت .

وقول ابن المصيصي : « مَنْ مبلغٌ يَدَهُ » . . . البيت كقول ابن عبدون :

بلّغ سلامَ فمي يَدَيْ ملكٍ غاب الملوكُ عن العلا وشهدْ

وكوّره ابنُ عبدون في موضعٍ آخر ، فقال :

وبلّغ عن فمي يدَهُ سلاماً كما أدنَى الأزاهيرَ الربابُ

وقول حسان : « ويلبسُ تقوى الله في الحلل » لفظ أبي الطيب[1] :

« وكساني الدرعَ في الحلَلِ »

وقوله : « لا تحمدنْ زهدَ مَنْ لم يُعْطَ رغبته » . . . البيت ، معنى قد أكثر الناس فيه ، وإن كان لحسان فضلٌ بزيادة التشبيه ؛ ومن مشهوره قول حبيب[2] :

إذا المرءُ لم يزهدْ وقد صُبِغَتْ له بِعُصْفُرِهَا الدنيا فليس بزاهدِ

وقد أحسن فيه أبو الطيب بقوله[3] :

والظلمُ في خُلُقِ النفوس فإن تجد ذا عفّةٍ فلعلّةٍ لا يظلمُ

وقال بعضُ أهلِ عصري :

تورّعُوا بين لا عزٍ ولا ظفرٍ[4] وأكثرُ الضّعفِ محسوبٌ على الوَرَعِ

---

١ ديوان المتنبي : ٣٢٩ وأول البيت : جاد الأمير به لي في مواهبه ، فزانها . . .

٢ ديوان أبي تمام ٢ : ٧٣ .

٣ ديوان المتنبي : ٢١٩ .

٤ د : لا عزوا ولا ظفروا ؛ م س ط : ولا ظفروا .

وقوله : « كالشمس في الطَّفَلِ » معنى بيِّنُ النقصانِ . قصيرُ الباعِ في مدى الإحسانِ . وفيه نَقْدٌ أعربَ عنه بعضُ أهلِ زماننا . ومَنْ في طبقةِ ديواننا . وهو أبو حاتم الحجاري[1] . وزاد فيه بقوله :

فكفى من الدينار صُفْرَةُ وجهِهِ   الشمسُ صفرتها من أجل زوالها

وقد نقله بعضُ أهلِ عصري إلى النسيب ، فقال :

يَعيبُونَها عندي لصفرةِ وجهها   فقلتُ المرقليَّاتُ[2] أوْجُهها صفرُ

وقوله للمعتمد : « فلم يطأ غير ما تحكي شمائله » . . . البيت ، أرى حساناً مما بلَّحَ فيه سَيْرُهُ ، وَوَقَعَ طيرُهُ . هذا يطأ المعتمد فليت شعري ما يطأ غيره ؟ !

وقوله : « من كل معتقل بالبأس مخترط » . . . البيت من التقسيم[3] المليح في القريض . الذي كثيراً ما يتَّفِقُ في هذه العَروضِ ، وهو شبيهٌ بقولِ أبي سعد المخزومي[4] :

وما يريدون لولا الحينُ[5] من رجلٍ   بالليلِ مدَّرِعٍ بالجمرِ مكتحلِ

وشبيه أيضاً بقول أبي تمام[6] :

١ ترجمته في القسم الثالث : ٦٥٢ .
٢ المرقليات : الدنانير .
٣ المعتمد . . . التقسيم : سقط من م .
٤ السمط : ٧٦٦ وزهر الآداب : ٣٣٠ والمختار : ٨٠ ، وديوان أبي سعد : ٥٢ .
٥ في النسخ : الجبن ، وهو ما في زهر الآداب أيضاً .
٦ ديوان أبي تمام ١ : ٦٣ .

تدبيرُ معتصمٍ ، بالله منتقمٍ   في الله مرتغب ، لله مرتقب[1]

إلى غيرِ ذلك ممَّا لا يُحْصَى ، والإحاطة لله تعالى .

وقال حسّان من قصيدةٍ أوَّلها[2] :

بياضَ أياديكَ تحكي الصِّفاحُ   ومثلَ نفاذكَ تحلو الرِّماحُ [٨٦ أ]
وأنبتتِ[3] الحربُ شَوْكَ القَتَادِ   وفتّحتِ الوردَ فيها الجراحُ
وكم لكَ في السّلم وجهٌ حييٌّ   وكم لك في الحرب وجهٌ وقاح
فما غيرُ أصلك عودٌ نضارٌ   ولا غيرُ لَتخْميكَ حيٌّ لقاحُ
فجودُكَ صِرْفٌ عداهُ المزاجُ   وطبعك جِدٌّ عداه المزاح
فلو كان خِيمُكَ من ماءِ كرمٍ   لما شابَهُ فيك ماءٌ قراحُ
ألم تَرَ غادِرَ أسطبّة[4]   حَوَى الخُسْرَ صَفْقَتُهُ لا الرباح
سيدعى براقشَ أصحابِهِ[5]   فقد دلَّ منهُ عليهمْ نُباح
فداسوا على قِصَدِ الذابلاتِ   تبكّي دماءٌ عليها الصفاح
وغنّى الحمامُ برقصِ الرؤوسِ   ولذَّ اغتباقٌ وطابَ اصطباح
أيخفَى علاك على ذي جفونٍ   ويطمعُ يبدو إليهِ الصباح
ولما زَجَرْتُ بذكركَ شعري   تبيَّنَ يَنْشَالُ فيها المراح

. . . .

١ الديوان : لله مرتقب في الله مرتغب .
٢ منها أبيات في المسالك وبيتان في تمام المتون : ٢٩٠ .
٣ م س ط : فانبتت .
٤ اسطبة أو اصطبة (Estepa) على بعد ٢٣ كم إلى الشرق من أشونة (Osuna) وتقع ضمن ولاية اشبيلية (الروض رقم : ١٨) .
٥ فيه إشارة إلى المثل : « على أهلها دلت براقش » .

ولولا أياديكَ خابَتْ يدي ولم يورِ مِنْ زَنْدِ فكري اقتداح
برقّةِ معناه يسري كلامي إذا الخصرُ رقَّ يجولُ الوشاح
وَجَدْتُ معاليكَ أصلاً لشعري وهل نُظِمَ الدر لولا النّصاح[1]
لك الفضلُ أنْ طاب شكري ونشري بطيبِ الرياضِ تفوح الرياح

وله فيه[2] أيضاً من قصيدة[3] :

ليس العلا إلاّ على كرمٍ أيقومُ خطٌ ما له سَطْحُ
من لحمِ أصلكَ يا مملّكُ أمْ في الخطّ نَبْتُكَ أيها الرمح
كأسُ المسرّةِ[4] قد سكرتُ بها والحدُّ يلزمني متى أصحو
شِيدْ في الوغى لك منزلاً خشناً[5] لا يهلكِ الديباجُ والصّرح
ودعِ الرياضَ لمن يلذُّ بها ما إنْ لغير مكارمٍ نفح
أذكى من الآسِ النضير قناً وأنمُّ من وَرْدِ الربى جرح
إنّ النطاحَ من الورى خلقُ حتى الكواكبُ بينها النّطْح

قال أبو الحسن : وهذه المقطوعة له من التحريضِ الحسن ، لولا اعتراض المقادير أنْ تمرّ[6] بأذُن .

١ النصاح . السلك يخاط به .
٢ فيه : سقطت من م س .
٣ وردت الأبيات في المسالك ، وانظر الغيث ٢ . ٦٠ .
٤ م : المضرة
٥ المسالك : حسناً .
٦ م ط ثم

وقال فيه من أخرى[1] :

غنّى الحمامُ ولو رآنيَ ناحا وأعارني نحوَ الحبيب[2] جنَاحا
ونعم كلانا فاقدٌ محبوبَهُ قَلِقٌ ، ولكنّي كتمتُ وباحا

ومنها :

ثم انثنى ليعلّني ريقاً وَمَنْ قد ماتَ سُكْراً كيف يشربُ راحا
فعففتُ عن رشفي مُدامَ رضابه وجنيتُ من وَجنَاتِه التفّاحا
وثلاثة خالَطْتُهَا بِثَلاثة ما ينتشقْ منه المتيَّمُ فاحا
المسكَ والشّعَرَ الملخلخَ والدُّجَى والوجهَ والكافورَ والإصباحا [٨٦ب]
ليس الملاحةُ في الوجوه تروقني يوماً إذا الأخلاقُ كُنَّ قباحا
سبحانَ مَنْ خَصَّ المؤيدَ بالعلا كلاًّ وعمَّ بحبّه الأرواحا
ملأتْ بطاعتِه القلوبَ أناتُهُ أضعافَ ما ملأتْ لُهَاهُ الراحا
يا أهلَ قرطبةَ اغرفوا من بحره فلطالما خضخضتم الضَّحْضَاحا
هل لي إلى الشعراءِ من ذَنْبٍ سوى سبقي إلى عليائكَ المدّاحا
ومنابذٍ ناءٍ حَذِرْتُ أناتَهُ ما غرَّني امّا أتى وانزاحا
لا تأمننْ مكرَ العدوِّ لبعده إنَّ امرأ القيسِ اشتكى الطمّاحا[3]

قال ابن بسّام : وخبر الطمَّاحِ على ما ذكر[4] الرواة : رجلٌ من بني

١ منها أبيات في المسالك ١١ : ٤٣٠ .
٢ المسالك : نحو الديار .
٣ ورد هذا البيت في النفح ٤ : ٣٠٧ .
٤ م س : ذكره .

أسد كان امرؤ القيس قتل أخاه ، فلمَّا توجَّه إلى أرض الروم مع صاحبه عمرو بن قميئة الذي يقول فيه[1] :

* بكى صاحبي لما رأى الدربَ دونَه *

ووصل إلى قيصر وأكرمه، ووجه معه جيشاً فيه أبناء الملوك ، فلما فَصَلَ أتى الطمَّاحُ فوشى[2] به إلى قيصر ، وقال : إنه أعرابيٌّ عاهر يشبِّبُ بابنتك في شعره ، ويشهرها عند العرب، فبعث إليه قيصرُ بحُلَّةٍ منسوجةٍ بالذهب مسمومة ، وقال : إني أرسلتُ إليك بحلَّتي تكرمةً . فالبسها باليُمْنِ والبركة ، فَسُرَّ بذلك ولبسها ، فأسرع إليه السمّ، وسقط جلده ، ولذلك سُمِّيَ ذا القروح ، وقال في ذلك[3] :

لقد طمح الطمَّاحُ من بُعْدِ أرضه ليُلْبِسني من دائِهِ ما تلبَّسا
ولو أنها نفسي تموتُ جميعةً ولكنها نفسٌ تساقَطُ أنفسا

وقد كرَّر معنى هذا البيت وأوجزه بقوله[4] :

* وإن كنتِ قد أزمعتِ قتلي فأجملي *

أي اقتليني جملةً ولا تنوعيه . وإلى هذا المعنى ينظر من طرف مريب ،

---

١ ديوان امرىء القيس : ٦٥ ، وعجز البيت « وأيقن أنا لاحقان بقيصرا » .
٢ في النسخ : يوشي .
٣ ديوان امرىء القيس : ١٠٨ ، ١٠٧ .
٤ ديوانه: ١٢ وصدر البيت : « أفاطم مهلا بعض هذا التدلل » .

قولُ عبدة بن الطبيب[1] :

فما كان قيسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ ولكنَّهُ بنيانُ قومٍ تهدما

هذا على تفسير مَنْ جَعَلَ هُلْكَهُ هُلْكَ جميعِ من اتّبعه وعاش في رِفْدِهِ ، كما قال الآخر :

ولكنَّ الرزيَّة فَقْدُ قرمٍ يموتُ لموته خلقٌ كثيرُ[2]

وأبينُ منه وأولى بقولِ امرىء القيسِ قولُ المجنون[3] :

وعروةُ مات موتاً مستريحاً وها أنا ميِّتٌ في كلِّ يومِ

لا بلْ أشْبَهُهُمْ عندي بقولِ امرىء القيس ذي القروح ، قولُ قيس ابن الذريح[4] :

تساقَطُ نفسي حينَ ألقاكِ أنفساً يَرِدْنَ فما يَصْدُرْنَ إلا صواديا

وتمام الحديثِ عن امرىء القيس أنه رأى هنالك حين احتُضِرَ قبرَ امرأة من بناتِ الملوك ، في سَفْحِ جبلٍ يقال له عسيب . وأخبر بقصتها فقال[5] :

١ انظر البيان والتبيين ٢ : ٣٥٣ ، ٣ : ١٨٨ وعيون الأخبار ١ : ٢٨٧ والحماسية رقم : ٢٦٣ والأغاني ١٠ : ٢٠٢ .

٢ ورد البيت للمليل بن الدهقانه التغلبي في الحماسة البصرية ١ : ٢١٢ ومعجم المرزباني: ٤٤٥ ونسب في الأمالي ١ : ٢٧٢ لأعرابية، وفي البيان والتبيين ٢ : ٣٥٣ ورد البيت التالي دون نسبة:

إذا ما مات مثلي مات شيء يموت بموته بشر كثير

٣ ديوان المجنون : ٢٥٦ .

٤ الأغاني ٩ : ٢٠٠ .

٥ ديوان امرىء القيس : ٣٥٧ ومادة « عسيب » في معجم ياقوت .

أجارتَنا إنّا غريبانِ ها هنا   وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيب

ومات فدفن إلى جنب [1] تلك المرأة . وروي [2] أن امرأ القيس دفن بأنقرة الروم ، وأنهم اتخذوا صورته كما يفعلون بمن يعظمونه . وحدث المأمون أنه مرَّ بأنقرة ورأى صورةَ امرىء القيس قال : فإذا رجلٌ مُكَلْثَمُ الوجه ، يريد مستديره ؛ وقيل المدفون بعسيب صخر أخو الخنساء [3] ، وهو القائل :

* وإني مقيمٌ ما أقام عسيب *

رجع :

وقال حسان بن المصيصي [4] :

روضُ الشبابِ تناوبتْ أزهارُهُ   ولىَّ بنفسجهُ وجاءَ بهارُهُ [٨٧ أ]
ودَّ المها [5] لو أنَّ أسْوَدَ لحظِهِ [6]   أضحى خضاباً حين شابَ عذاره
قد كان يعجبهنَّ خِفَّةُ حِلْمِهِ   فالآن ساءَ الغانياتِ وقاره
تركَ الذي اشتملَ الكئيبَ إزارُها   منه الذي اشتملَ العفافَ إزاره

ومنها :

إنّي على هذا لأسْمَعُ بالصِّبا   فيسرّني ممن صَبَا [7] أخباره

١ م : جانب .
٢ انظر هذا الخبر في معجم ما استعجم ١ : ٢٠٤ (مادة : أنقرة) .
٣ معجم ما استعجم ٣ : ٩٤٣ وابن خلكان ٦ : ٣٤ .
٤ المسالك ١١ : ٤٣٠ - ٤٣١ .
٥ د : امرؤ .
٦ ط م : لحظها .
٧ المسالك : فيسرني متعللا .

وأميلُ نحو الروضِ فارقهُ الحيا حيناً فدمّع إثرَهُ نُوّاره
وكأنّما خدُّ الحبيب شقيقُهُ خجلانَ أو وَجْهُ المحبِّ عراره
فكأنني ممّا ظمئتُ وشاحُهُ وكأنني ممّا شرقتُ سواره

ومنها في المدح :

هو أعرفُ الكرماء ، إن سَمّيْتهُم جُهِلوا ، وَدَلّ على اسمه إضماره
لاتَعْذِلَنّهُ على إهالتِهِ اللهى في كيمياء المجد بان نضاره
لا تغتررْ بالبشرِ من سَطَواتِهِ فالسيفُ فيه فرنده وغراره
يأبى لمولاي الهوانَ وظلمه كأبي عرارٍ إذ أهينَ عراره[1]
لا يستطيعُ النكسُ ينطقُ باسمه وانظر كما حَمَلَ اسمه ديناره
قلْ للمؤيّد إذ تَقَيَّلَهُ ابنه إنّ الدُّجى متشابهٌ أقماره
يحكيك في شأوِ العلاءِ وإنّما تجري إلى أمَدِ الجوادِ مهاره
إن تُمْضِهِ رمحاً فأنتَ وشيجُهُ أو تُورِهِ قَبَساً فأنت عَفَاره

وقال يداعبُ ابنَ جمهور[2] :

شكوت إليه بفرطِ الدّنفْ فأنكرَ من علّتي ما عرَفْ
وقال الشهود على المدّعي وأمّا أنا فعليَّ الحلف

---

[1] لم يرد البيت في م ط س ، وقصة عرار الذي أرادت زوج أبيه إهالته فامتعض أبوه لذلك ، تتحدث عنها الحماسية :

أرادت عراراً بالهوان ومن يرد عراراً لعمري بالهوان فقد ظلم

[2] انظر الخريدة ٣ : ٥٨٨ والمسلك السهل : ٤٣٥ ووردت الأبيات في زاد المسافر : ١٤١ والوافي للرندي: ٣٠ والنفح ٣ : ٣٨٢ منسوبة لأبي عبد الله محمد بن الفراء الأعمى ، وفيها زيادة على ما هنا ، واختلاف في الختام .

فجئنا ابنَ جمهورِ المرتضى ... فقيهَ الملاحِ وقاضي الكَلَفْ[1]
وكان بصيراً بحكم الملاحِ ... ويعلم[2] من أين أكْل الكتف
فأومى إلى الخد أن يجتَنَى ... وأومى إلى الرِّيق أن يُرْتَشَف
وقال له جاهداً في انتصافي ... دعوا يا مخانيثُ هذا الصلف
كذا تقتلون مشاهيرنا ... إذا مات هذا فأينَ الخَلَف ؟ !

وأرى حساناً أراد أن يسلكَ من هذه السبيل ، مَسْلَكَ ابنِ معمرٍ جميل ، في قصيدته حيث يقول[3] :

وقلتُ لها : اعتديتِ[4] بغيرِ جُرْمٍ ... وغبُّ الظلمِ مرتعُهُ وبيلُ[5]

فجاء بين الشعرين ما بين الشاعرين ، وبين القطعتين ما بين الزمانين ؛ على أنَّ محاسنَ حسانٍ كثيرة ، وحسناته مشهورة ، وإنَّما ألمعتُ منها بقليل ، لزهدي في التطويل .

---

١ روايته في زاد المسافر والوافي والنفح : فجئنا إلى الحكم الألمي شيخ المجون وقاضي الظرف .
٢ م س : يعلم .
٣ ديوان جميل : ١٦٤ .
٤ الديوان : فقلت له قتلت .
٥ د : وخيم .

ومنهم الوزير الفقيه أبو بكر بن الملح [1]

قال ابن بسَّام : وأبو بكر ، فرد من أفرادِ العصر ، وهو من بيت أصالة ، وبحبوحة جلالة ، وفارسُ ميداني الزهد والبطالة ، وشاعرُ ناد ، وخطيبُ أعواد ، غبَّر صدراً من زمانه لا يحفلُ بعاذل ، ولا يُصغي في الفتوَّةِ إلى قولِ قائل ، وكان في ذلك أحسنَ من التوريد في الخدّ ، وبمكان الحلمة من النهد ، والدينُ في أثناء [٨٧ ب] تلك الوهلة ، وبين خصاصات تلك الغفلة ، يستطيلُ غَيْبَتَهُ ، وينتظرُ أوْبَتَهُ ، فلما أقْصَرَ باطله ، وأسمعه عذّاله وعواذله ، تلقَّاه باليمين ، واشتراه بالثمنِ الثمين ، فأصبح سجيرَ عَنَزةٍ ومنبر ، وأمسى سميرَ مصحفٍ ودفتر ؛ وفي ذلك يقول من أبيات :

وكنتُ فتى الكاسِ عهدَ الشبابِ فصيَّرني الشيبُ شيخَ الدعاء

ومُدَّ لأبي بكر هذا في العمر وعاش إلى وقت تحريري هذا المجموع سنة خمسمائة ، وتوفي رحمه الله في شهر رمضان منها ؛ وقد أثبتُّ من شعره ما يملأ الأسماع بياناً ، ويبهر الطباعَ حسناً وإحساناً .

---

١ هو أبو بكر محمد بن اسحاق اللخمي من أهل شلب يعرف بابن الملح وابن الملاح ، كان له ابنان هما أبو القاسم أحمد وأبو محمد عبد الملك وقد رويا عنه. (انظر ترجمته في الذيل والتكملة ٦ : ١١٨ والتكملة ٠ ٤١٤ والمغرب ١ : ٣٨٣ والرايات : ٢٧ (غ) والقلائد : ١٨٧ والنفح ٤ : ٧٠ ، ١٤٨ ، ٢٦٣، ٣ : ٤٦٦) ؛ وفي ترجمة ابنه عبد الملك انظر الذيل والتكملة ٥ : ٣٢ والتكملة رقم : ١٧٠٥ وأما في ترجمة ابنه أحمد فانظر الذيل والتكملة ١ : ٤٠٠ والتكملة: ٥١ ، وكان أحمد هذا ريان من الأدب شاعراً، ولي الصلاة والخطبة بجامع بلده زماناً ، وعن أحمد وعبد الملك يروي أبو بكر ابن خير ، وقد مر لأحمد هذا شعر في النفح ٤ : ٧١ والمغرب ١ : ٣٨٤ وفي أخباره ما يشير إلى أنه انقلب بعد العفة إلى الانخلاع وتزوج امرأة كانت ترقص في الأعراس باشبيلية .

ما أخرجته من شعره في النسيب وما يناسبه

قال [1] :

حَسِبَ القومُ أنني عنكَ سالي   أنت تدري سريرتي [2] ما أبالي
قمري أنت كلَّ حينٍ [3] وبدري   فمتى كنتَ قبلَ هذا هلالي
أنت كالشمسِ لم تَغَيَّرْ [4] ولكن   حُجِبَتْ ليلها حِذارَ الملال
ما مللنا فكان ذا غيْرَ أنّا   قد حسبناهُ من صروف الليالي

وقال [5] :

ظبي يموجُ الهوى بناظره   حتى إذا ما رنا [6] به انبعثا
مبتدع البخلِ [7] لا كفاءَ له   يعدُّ شكوى صبابتي رفثا
أنكرَ سُقْمي وما قصدتُ له   وما تعرَّضْتُ للهوى عبثا
أقسمَ في الحبِّ أن أموتَ به   فما قضى بِرَّهُ ولا حنثا

وقال :

حبيب إلينا أنْ نراكَ على طيبِ   حراماً بشربِ الراح من كلِّ تأنيبِ
تُكَسِّبُكَ الصهباءُ فَضْلَ خلائقٍ   وعندك فَضْلٌ آخر غيرُ مكسوب

---

١ منها ثلاثة أبيات في الحريدة ٣ : ٤٦٧ والقلائد ١٨٨. (وبيتان في المغرب ١ : ٣٨٤) .
٢ أصل ط والقلائد : صبابتي؛ الحريدة والمغرب . قصيتي .
٣ المغرب كل يوم
٤ القلائد لم تعب لي .
٥ انظر القلائد والخريدة .
٦ القلائد والحريدة رمى .
٧ القلائد والحريدة الخلق .

ومن قصائد ابن الملح المطولات[1] في المدح

قال من قصيدة في المعتمد أولها[2] :

سَكَنَ اشتياقُكَ ما عدا عمّا بدا — أرَويْتَ أم خَمَتِ الخطوبُ الورَّدا
لم يُطْفَ وَجْدُكَ إنّما هي شعلةٌ — كالسيف جَرَّدهُ المقام وأغمدا
والعَضْبُ يسترُهُ القِرابُ وربما — خَشُنَتْ مضاربه الرقاقُ من الصدا
والروضُ يبعثُ بالنسيم كأنّما — أهداه يضربُ لاصطباحك موعدا
سكرانُ من ماءِ النَّعيمِ وكلّما — غنّاهُ طائرُهُ وأطربَ ردَّدا
يأوي إلى زَهْرٍ كأنَّ عيونَهُ — رُقَبَاءُ تقعد للأحبّة مَرْصدا
زهرٌ يفوحُ به اخضرارُ نباتِهِ[3] — كالزُّهْرِ أسرجها الظلام وأوقدا
ويبيت في فَنَنٍ[4] توهّم ظلّه — بالصُّبح في عَيْنِ القرارةِ[5] مرودا
قد خَفَّ[6] موقعُهُ لديه وربّما — سمح النسيم بعطفه فتأوّدا
أعلى محلَّ الشعر أنَّ قصائدي — جَعَلَتْ مديحكَ بالمعاني مقصدا [٨٨أ]
خَطَبَتْهُ تركبُ بطنَ كفّي منبراً — وَدَعَتْكَ تعمرُ ظهرَ كفِّكَ مسجدا
أثقلتَ أعناقَ المآربِ لؤلؤاً — وملأتَ آماقَ البصائر إثمدا

. .

١ د ط · المطولة .
٢ منها ستة أبيات في كل من الخريدة والقلائد والريحان ١ . ١٥٧ /أ وأربعة في المغرب .
٣ المغرب : سانه .
٤ ط د : فنن .
٥ القلائد والخريدة : يمسي ويصبح في القرارة
٦ ط د س حف .

كم قد ركبتُ إليكَ كاهلَ همّةٍ كادتْ تغالطُ في أخيهِ الفرقدا
أبغي لديك العيشَ أخضرَ يانعاً فأجوبُ جنحَ الليلِ أسفَعَ أسودا
يقظانَ تحسبني الكواكبُ ناظراً فيها يراقبُ للغزالةِ مولدا
وإذا تكنّفني النهارُ لبستُهُ وَهَجاً لفوحاً أو سراباً مزبدا
رطب الجوانح في اليبابِ كأنّما اسـ تهديتُ في الماء الخفيِّ المدهدا

قال ابن بسام : لو قطع المفازة التي اهتدى فيها أصحابُ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ببيت الضلّيل حيث يقول :

تيمّمتِ العينَ التي عند ضارجٍ يفيءُ عليها الظلُّ عَرْمَضُها طامي[1]

ما زاد على ما وَصَفَ ، فكيف في رُقْعَةٍ من الأرض مساحتُها يومان ، لراكبِ أتان ، أكثر بلادِ الله ماءً ، وأرطبها هواء ، إلاّ أنّه والله قال فأجاد ، وخَيَّلَ فسحر وزاد . وليس هذا البيت في شعر امرىء القيس في أكثر الروايات . وفي العرب عشرة رجال يسمّون كلهم بامرىء القيس .

وروى ابن الكلبي قال : جاء قوم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فضلّوا في طريقهم ووقفوا على غير ماء . فمكثوا ثلاثاً لا يقدرون على الماء ، فجعل رجلٌ منهم يستذري[2] فروعَ السَّمُرِ والطَّلح ، فبينما هم كذلك إذ أقبل رجل راكبٌ على بعير ، فأنشد بعضُ القوم بيتَ امرىء القيس المتقدمَ الذكر ، فقال الراكب : ما كذب ، هذا والله ضارجٌ عندكم ، وأشار إليه ، فأتوه ،

. . . .

١ انظر مادة « ضارج » في معجم ما استعجم والروض المعطار .
٢ م . يستذر ؛ ط : يستذير ؛ د : يستدر .

فإذا ماء غَدَقٌ قد غطّاه العَرْمَضُ ، والظلُّ يفيءُ عليه ، فشربوا منه وارتووا . فلمّا بلغوا النبيَّ . صلى الله عليه وسلم ، وأخبروه القصة ، قال لهم : ذلك رجلٌ مذكورٌ في الدنيا شريفٌ فيها . خاملٌ في الأخرى منسيٌّ فيها ، يجيء يومَ القيامة معه لواءُ الشعراء إلى النار .

وقال ابنُ الملح من أخرى في المعتضد بالله :

نشرتُ للحمدِ طيباً عن شَذا نَفَسٍ بعثتُهُ عن ضمير غيرِ مُتَّهَمِ
فنوَّرتْ بالقوافي روضةٌ أُنُفٌ في تربةِ العقلِ تُسْقى وابلَ النعم
ليَ الثوابُ فلم أرجعْ لمشكلةٍ عن اليقين ولم أعْكُفْ على صنم
لي همّةٌ ما يزالُ الدهرُ يطلبها وما تزالُ من التأميلِ في حَرَمِ
وما تحمَّلتُها في ظهرِ فاحشةٍ ولا وقفتُ بها في بَرْزخِ التهم
ما لي وللناس عَمّتْ لي منابتهم تباينَ اللمسِ بين الآسِ والسَّلَم
تمزّقتْ بردةُ الإنصافِ بينهمُ في منكبيَّ ولم تُضْغَطْ بمزدحَم
ليُقْصِرِ الدهرُ خصمي لستُ مكترثاً من الخصوم وفي بيت الندى حكمي

وله فيه من أخرى :

قد صيرْتَ في أخرى المقاصدِ فانصرف وشرعت في شتّى المواردِ فاصدُرِ [٨٨ب]
واخترْ لهذا الدرِّ أجياد العلا يَزْدَنْ فَحُسْنُ الجيد زينُ الجوهرِ
واشهدْ صروفَ[١] الدهرِ تظفر[٢] عندها بالظافر ابن أبي الكرام وتنصرِ
فصغيرُ مَرْأى العين عن بُعْدِ المدى كالنجم أصْغَرَهُ تنائي المنظر

١ د . حروب ؛ ط م س : ضروب .
٢ م ط د س : يظفر .

وهذا كقول المعري[1] :

والنجم تستصغرُ الأبصارُ صورَتَهُ[2] والذنبُ للطَّرفِ لا للنجم في الصِّغَرِ

وقال منها :

حازَ السناءَ[3] وما أسَنَّ وإنّما نمتِ الفروعُ بطيب ماءِ العنصرَ
من معشرٍ يُمْسي ويصبحُ طفلهم من حبِّ [. . .][4] العلا في معشر
ألِفوا مُضاجَعَةَ الظُّبا بمهودهم وولوا مطاولةَ الوشيجِ الأسمر
فلتحفظِ الأيامُ منهمْ عصبةً سكنتْ بأرجاءِ الوغى والمنبر
ثبتوا على الأصلِ القديم فأثبتوا نَسَبَ الكواكبِ في قبائل حمير
وَبَنَوا على السَّعي الجميلِ فبيَّنوا أنَّ المكارمَ في تراثِ المئزر
ولتحفظِ الأيامُ سالفَ أمَّةٍ ملأت مفاخرُهُمْ فروجَ الأعصر
بقيَ الثناءُ عليهمُ فكأنّما ركبوا المنابرَ في بطون المقبر

ومنها :

أهْدى إليكَ الودَّ عبدٌ يدَّعي شَرَفاً بصهرٍ في بنات المحبر
طابتْ مواردُهُ لديك كأنّما وقفتْ ركائبُهُ بريفِ الكوثر
وسما يبلِّغُهُ إليك كأنّما قَطَعَ المراحلَ في بروج المشتري

---

[1] شروح السقط : ١٦٣ .
[2] د : رؤيته ، وهي رواية البطليوسي .
[3] م ط س : حان النساء ؛ د : حاق .
[4] بياض في ط م س ؛ وفي د : أنهار ، ولا معنى له .

نقلَ الودادَ على قطارِ قصائدِ رتعتْ زماناً في جَناب الدفترِ
يحملنَ طيبَ الحمدِ فيكَ كأنّما ينشرنَ بالفلواتِ طيبَ العنبرِ

وله فيه من أخرى :

ضمانُكَ ملء الأرض كالأخذ باليدِ لذلك هَوْلُ الأمرِ بالغد في الغدِ
لذلك يبدو الموتُ ناراً ولُجّةً على صفحتي صمصامِكَ الواقد[1] الندي
لذلك مادتْ بالرماحِ صِعادُها وليستْ لِوَهْيٍ في الكعوبِ بمُيَّدِ
يهزُّ بها أعطافَهُ كلُّ باسلٍ رحيبِ ذراعٍ أو طويلٍ مُقَلَّدِ
على شُزَّبٍ لو سايرتْها خُطُوبُها عَرَضْنَ عليها من وجوه التجلد
يصلن السرى والماءُ غَوْرٌ[2] كأنما حَمَلْنَ عصا موسى على كلِّ جلمدِ

ومنها :

له جدولٌ من صارمٍ مُتَسَلّلٍ إلى غُصُنٍ من ذابلٍ متأوِّدِ
هناك ربيعٌ للسيوفِ مُرَجّسٌ قريبٌ أوانٍ من ربيعٍ مورّدِ

وهذا كقول أبي العلاء[3] :

روض المنايا على أن الدماءَ بها وإن تخالفن أبدالٌ من الزّهَرِ

وقال ابن شهيد من شعر قد تقدم[4] : [٨٩ أ] :

---

١ د م الواهر .
٢ ط · غرو ؛ س . عرق
٣ شروح السقط ١٥٨ .
٤ ديوان ابن شهيد ١٠٨ والذخيرة ١ : ٢٨٩ .

فذا جدولٌ في الغمدِ تسقى به المنى وذا غصنٌ في الكفِّ يُجنى فيثمرُ

وقال المتنبي [1] :

أأخلعُ [2] المجدَ عن كتِفي وأطلبه وأتركُ الغيثَ في غمدي وأنتجعُ

وقال ابن الملح من أخرى :

أوْطأنَ في ظُبَةِ الحسامِ توسدي وَمَزَجْنَ كأسي في لهاةِ الأرقمِ
وإليكَ من نارِ الحياءِ بوجنتي وَهَجاً تحفُّ به عيونُ المرزم
ولكم لقيتُ الهمَّ يملأ أرضَهُ بأحمَّ طامي اللجتين عرمرم
وتركتُ ذاك الجيش نهباً للظبا مُتخاذلَ الأنصارِ مطلولَ الدم
حتى إذا رَمَتِ الليالي جانبي من كلِّ ناحيةٍ بكلِّ الأسهم
خَطَمَتْ بحبلِ الشيبِ أنفَ شبيبةٍ قدكان قبلَ صروفها لم يخطم
لو كنتُ أقْدَرَ قادرٍ لم أجْزِها إني لأزْهَدُ في عقابِ المجرم
إني لأقبضُ في مراجعها يدي ولو احتذيتُ بها فروعَ الأنجم
وأردُّ [3] عزمي والحقيقةُ مطلبي وأبيحُ حظي والكريمةُ مغنمي
أنا ضاحكٌ للدَّهْرِ ضحكةَ شامتٍ إنْ كان يعبسُ للندى المتبسم
قصدَ الزمانُ الآملين بحربِهِ وأتيتُ في الغَمَرَاتِ أوّلَ مقدم
وعلمتُ أني إنْ أصِلْ بمحمد أنفُذْ على ضيقِ المكرِّ وأسلَمِ
الله أكبرُ لو قضى لخليفةٍ بمزيةِ العِلْمِ الذي لم يُعْلَم

. . .

[1] ديوان المتنبي : ٣٠٢ والذخيرة ١ : ٢٨٨ .
[2] الديوان : أأطرح .
[3] ط : وأرود (اقرأ : وأذود) .

لرووا حديثَ النفسِ غيرَ مرجمٍ وتيقنوا التنزيلَ غير مترجم
يا أيها البشرُ المنزّه جملةً للمجد قبل إشارة المتكلم
خذْ بالندى والبأسِ أعدلَ وجهةٍ وافرضْ ليوميك بالمآثرِ واقسم
واحطمْ عداك مُكايداً ومُكابداً واثأرْ بسيفك للقنا المتحطّم
واقنعْ بعذرٍ منْ قناك[1] فإنه نبأٌ لرمحِ ربيعةَ بن مكدّم
بيدَيْكَ صَعْدَتُهُ، وكلُّ قبيلة جُشَمٍ وكلُّ الأرضِ وادي الأخرم[2]

وله من أخرى في المعتضد بالله :

سَرَوْا تحت ليلٍ في الظلام بهيم مكلّلِ آفاقٍ كليلِ نجومِ
تواصَوْا بأعمالِ الشّقاوة بينهم وعاذوا بشيطانٍ هناك رجيم
مقامةُ شَرْبٍ ما قضوا حقَّ مجلسٍ ولا فرحوا في سكرهم بنديم
ولا وجدوا بَرْدَ السرورِ كأنما أديرَتْ على الأقوامِ كأسُ حميم
مذاهبُ سُوءٍ غيَّرتْ من معاشرٍ نفوساً فلم تسلمْ لها بجسوم
تحامَوْا بلاداً مَزَّقَتْهُمْ كأنّما مَضَتْ في رباها عاصفٌ بهشيم[٨٩ب]
سَرَوْا تحتَ أطرافِ الرماح كأنها شياطينُ ضَلّتْ تحت رَصْدِ نجوم
ومالوا على حدِّ السيوفِ كأنّما تميلُ إلى آذانهم بنميم
كأنَّ المنايا الحمرَ دانتْ نفوسهمْ محلّتْ على عُسْرٍ حُلولَ غريم

---

١ ط د : فتاك

٢ في يوم الكديد بارز ربيعة بن مكدم عدداً من الفرسان تواتروا لمبارزته ، وحمى الظعينة ، فلما دهب دريد بن الصمة ليرى ما حدث ووجد ربيعة حديث السن ، أعطاه رمحاً وعاد عنه دريد وادعى لأصحابه أن ربيعة انتزع منه الرمح ؛ وفي ذلك اليوم يقول ربيعة :

إن كان ينفعك اليقين فسائلي عني الظعينة يوم وادي الأخرم

(انظر العقد ٥ : ١٧١) .

ومنها :

ألا فاخطبوها للعقولِ فإنها وان رَخُصَتْ يوماً بنات[1] كريم
ولا تبخسوها في المهور فإنها إباء ستيٍ في الملوكِ عظيم

وقال من أخرى أيضاً :

كم قَصْرِ أنسٍ لهو نا في مطالعِهِ قد عاد والعهدُ دانٍ موحشَ الطَّللِ
فمن مُغَنٍّ بألحانِ المنى غَرِدٍ وشاربٍ بين طاساتِ الهوى ثمل
وغافلٍ بالصِّبا عن قَطْعِ مُدَّتِهِ قد راش أجنحةَ الأيام بالجذل
حتى إذا جئتُ آمالي تحرَّفَ لي خَطْبٌ دفعتُ به في غُرَّةِ الأمل
إذا الهوى فاضَ طوفاناً ركبتُ له فُلْكَ العزاءِ ولم آوي إلى جبل
لولا الحياءُ وقد شَبَّتْ معاركُهُ لقد كشفتُ لثامَ الصبر عن بطل

ومنها :

ضاق الزمانُ بما حطّمتَ من قُضُب في رَعْيِهنَّ وما قصَّدْتَ من أسَلِ
لا تُغْمد البيض إلاَّ في ضرائبها حتى لقد عادتِ الأغمادُ للقلل
رواقُ مُلْكِكَ بالأسياف ذو طنبٍ وَبُرْد مجدكَ بالأرماح ذو خَمَل
وباب حربك مفتوحٌ لقارعِهِ عن قَسْوَرٍ أهرَتِ الشّدقين ذي عصل
كأنّهُ بكمُ واللهُ يَكْلَؤكم يقضي على الدهر أو يختارُ للدول
لو كانت الشمسُ من خدّامِ دولتكم والعدلُ ما العدلُ لم تبرحْ من الحمل

....

[1] ط : نبات .

قال ابن بسّام : ولم أسمع بمثل هذا البيت لمن سبق ، فإن كان اتباعاً فما أحسن ما أرقّ ، وإن يكن اختراعاً فما أولى وأخلق .

وفي هذه القصيدة يقول :

كم حُطتُمُ من ضياعٍ في الأنام وكم ... وصلتمُ من شتيتٍ غيرِ متّصلِ
بِسُنَّةٍ كسنانِ الرمح ماضيةٍ ... ومَذْهَبٍ كقناة الرمح معتدل
مَدَحتكم حيثُ لا فخرٌ أزيدكمُ ... فقد كحلتُ عيوناً جَمّةَ الكحل

كما أن هذا البيت أشار فيه أبو بكر إلى التقصير ، فلعله أراد أن يجعله في شعره تميمة من الفتور ، وأحسنُ مما انتحاه ، قولُ بعضهم في معناه :

لم أُفِدْكَ المديحَ إلا لنفسي ... ليس للسيفِ إربةٌ في الصّقالِ

وقال ابن الملح :

لا حدّ للوجدِ إلاّ أنت عارفُهُ ... كأنّ قلبكَ للأشواقِ ميزانُ
ولا صَبابةَ إلا أنت واسِعُهَا ... كأنّ صَدْرَكَ للأشجانِ ميدان[٩٠أ]

ومنها [1] :

سِرْنَا نراقبُ إعلانَ الصباح بنا ... كأنّنا في ضمير الليلِ كتمانُ

وهذا كقول الصاحب بن عباد :

* كأنيَ سِرّ والظلامُ ضميرُ *

[1] ومنها . سقطت من م س .

وقال أبو الطيّب[1] :

* سريت وكنت السرَّ والليلُ كاتمه *

وقال أبو الوليد بن زيدون[2] :

سِرَّانِ في خاطر الظلماءِ يكتمنا حتّى يكادَ لسانُ الصبحِ يفشينا

وفيها يقول ابن الملح في المدح :

هو المُقِرُّ العلا والخيلُ سارحةٌ والّلابسُ الحمدَ والصمصامُ عريانُ
والمبصرُ الرشدَ في أقصى مطالبه والناسُ من فتنةِ الأهواءِ عميان
تاهتْ بمجدكَ قحطانٌ وعدنانُ وقد تخاضعَ يونانٌ وساسان
وسار ذكرُكَ والأفواهُ تَنْقُلُهُ حتّى تطارحَ فيه الإنسُ والجان
وشكَّ في العصرِ أقوامٌ فقلتُ لهم فلانُ في ثَقَلَيْها لا سليمان
ذكَّيْتَ جودك حرباً والعدا جزَرٌ وَسَيْفُكَ النارُ والأطيارُ ضيفان
همى عليها من الموتِ الزُّعافِ حَيَاً مُجَلْجِلٌ بصليلِ البيضِ حنّان
وماجَ فيه وريحُ البأسِ تنسجه جيشٌ هو اليمُّ والأسيافُ خلجان
وللدماءِ غديرٌ فوقَ صَفْحَتِهِ للجيشِ دَوْحٌ وسُمْرُ الخطّ أغصان

وله من أخرى يصفُ حَلْبَةَ الخيل :

خوافقُ قد ريشتْ بأجنحةِ المدى فطارتْ ببحر الرومِ كلَّ مطارِ
فهنَّ بشدّ الجري عِقْبانُ شاهقٍ وهنَّ بألحانِ الصهيلِ قماري

١ ديوان المتنبي ، ٢٤٨ وصدر البيت ، « وكنت إذا يممت أرضاً بعيدة » .

٢ ديوان ابن زيدون : ١٤٦ والذخيرة ١ : ٣٦١ .

بكلِّ مباهٍ بالسلاحِ كأنّما يجرُّ من الخطيِّ فَضْلَ إزار
مهينٌ لدنياه يظنُّ[1] حياتَهُ إذا لم يمتْ في الله دارَ بوار
تسنّمَ جدرانَ المكاره فانتهى مآثرَ لم تُحْجَبْ له بجدار،
سقى من قليبِ الحربِ أشجارَ مفخرٍ تدلّتْ له من ساعةٍ بثمار

ومنها :

فمن سابحٍ وَرْدٍ تجلبَبَ خلقةً بنسجٍ[2] دمٍ قبل النتاج ممار
وأبلقَ كالريم المدمّى مُفَضّضٍ تخالُ بشقّيه مَسَالَ نُضَار
وأشهبَ تجلوهُ المعاني كأنّما تزيّنُ منه زَنْدَها بسوار
وأشقرَ نوريّ يهبُّ كأنّهُ وقد قَدَحَتْهُ الحربُ مِقْبسُ نار
وأدهمَ كالليل البهيم تعلّقَتْ به تحت كمٌّ الفجر كفُّ نهار
إذا ما علاه راكبٌ فكأنّهُ بغرّته تحت المطالب سار
بلبّتِه خَيْطُ المجرّةِ فصّلت له موهناً أوساطه بدراري
سفينةُ برٍّ سُخّرتْ غيرَ أنّها تجوبُ من الإلهاب لُجَّ غبار[٩٠ب]
تُطَأطِأ من عُونِ الطباعِ بجاذفٍ وتُهْنأُ من لَونِ الأديمِ بقار
له خُلُقٌ لولا توارُدُ غيره على عِتْقِهِ لم ينحرفْ لنفار

ومن الحسن في تشبيه الخيل بالبحر ، قولُ بعضِ أهلِ العصر ، وهو الأديب أبو بكر ابن العطار اليابسي[3] ، من شعرٍ أنشدنيه لنفسه ببَطَلْيَوْسَ

---

١ م د ط س : يظل .
٢ بنسج : سقطت من م س .
٣ هو محمد بن العطار اليابسي نسبة إلى جزيرة يابسة ، انظر المغرب ، ٢ : ٤٧٠ والمسالك ١١ : ٤٥٨ والنفح ٤ : ١٠ وله ترجمة في القسم الرابع من الذخيرة .

سنة ست وثمانين[1] :

والجيشُ قد جعلَتْ أبطالُهُ مرحاً ... تختالُ عن خُيلاءِ السُّبَّقِ العتقِ
إذا تسعَّرتِ الهيجاءُ أخمدها ... ما في معاطفها من نُدْوَةِ العرَقِ
هيَ البحورُ ولكنْ في كواثبها[2] ... عند الكريهة منجاةٌ من الغرقْ

والشيء يذكر بالشيء إذا ناسبه أو قاربه ؛ كان للمتوكل فرسٌ أخضر أغرّ محجّلٌ ، وعلى كفله ستُّ نقطٍ بيض ، فتناغَتْ لمةٌ من الشعراء يومئذ ببطليوس في صفته ، فكلٌّ جهد جهده ، وبذل ما عنده ، فما سبق إلى الغاية ، ولا أخذ الرايةَ إلا النحليّ ، على أنه كان مُزْجَى البضاعة ، في هذه الصناعة ، فقال[3] :

حمل البدرَ جوادٌ سابحٌ[4] ... تقفُ الريحُ لأدنى مَهَلِهْ
لبسَ الليل قميصاً سابغاً ... فالثريّا نُقَطٌ في كَفَلِه
وكأنَّ الصبحَ قد خاضَ[5] به ... فبدا تحجيله من بللِه
كلُّ مطلوبٍ وإن طالتْ به ... رِجْلُهُ ، من أجْلِهِ في أجَلِه

بيته الثاني أراه أخَذَ[6] من قولِ ابن صاحب الاسفيريا[7] معناه :

---

١ منها بيتان في المغرب ٢ : ٤٧٠ .

٢ ط : كوثبها ؛ د : كواتبها .

٣ بدائع البداله : ٢٦٩ والنفح ٣ : ٣٣٣ والشريشي ٣ : ١٥٤ .

٤ البدائع والنفح : ركب البدر جواداً سابحاً .

٥ البدائع والنفح : خيض .

٦ ط د م س : أخذه .

٧ هو أبو المطرف عبد الرحمن بن فتوح ، وقد وردت ترجمته في القسم الأول : ٧٧٠ .

لبسَ الظلامَ أديمهُ فبدا لنا   منْ بين عينيه سنا جَوْزَائِهِ

والثالث نبّه عليه ابن نباتة ببيته[1] :

وكأنّما لطمَ الصباحُ جبينَهُ   فاقتصّ منه فخاضَ في أحشائه

وما أراه نقل إلا لفظ ابن شهيد ومعناه ، من جملة قصيد له قد أنشدناه ، وهو قوله[2] :

* وكأنما خاضَ الصباحَ فجاءَ مبيضَّ القوائمْ *

وقال فيه أبو بكر الداني[3] :

لله طِرْفٌ جال بابنِ محمد[4]   فحوتْ به حَوْباؤهُ التأميلا
لما رأى أنّ الظلامَ أديمهُ   أهدى لأربعةِ الهدى تحجيلا
وكأنما في الردف منه مباسمٌ   تبغي هناكَ لوجهه تقبيلا

ولأبي عبد الله بن عبد البرّ الشنتريني فيه جملة أبيات[5] :

فعلى المحيّا كوكبٌ متلألىءٌ   وعلى القطاةِ بناتُ نَعْشٍ تسطعُ
وكأنّما عُمَرٌ على صَهَواتِهِ   قمرٌ تسيرُ به الرياحُ الأربع

.. ..

١ قد مر البيت ص ٣٧٩ من هذا القسم .
٢ مر في القسم الأول : ٢٠١ وانظر ديوانه : ١٥٧ .
٣ بدائع البدائه : ٢٧٠ والنفح ٣ : ٣٢٣ .
٤ البدائع والنفح : يا ابن محمد .
٥ ورد البيت الثاني في البدائع والنفح .

ولم يحضرني من شعر أهلِ العصر في وصف هذا الطِّرف إلا ما أثبتُّ، وكانت لهم عندي في صِفَتِهِ عدّةُ مقطوعات وجملةُ أبياتٍ ، سقطت من ذكري ، وطارتْ من شَرَكِ صدري ، وتعلّقَ بحفظي أشعارٌ لمن تقدّمهم من أهلِ هذا الأفق، ممن تقدّم زمانه ، وشُهِرَ إحسانُهُ بالقول ، في صفة الخيل ، رأيت إثباتها ، إذ لها موقع بهذا الموضع

قال يوسف بن هارون الرمادي[1] : [١٩١أ] .

وأبلقَ من شرطِ الطِّرادِ[2] لزينةٍ وإخوانِ[3] ميدانٍ ويومِ قتالِ
فَخُضْرَتُهُ ثلثٌ وثلثاه شُهْبَةٌ فأخضرُ قُدّامٍ وأشهبُ تالِ
له لَهَبٌ من دُهْمَةٍ فيه شهبةٌ[4] كعامِ صدودٍ فيه يومُ وصالِ
تدرَّعَ بَدْرَ التِمِّ حُسْناً وبهجةً[5] فألْزِمَ[6] في حيزومهِ بهلالِ

وقال أبو عامر بن عبدوس في صفة أشهب ، حاشا عرفه كان أحمر :

يا حُسْنَ هذا الجوادِ حين بدا في شيَةٍ لم تكنْ لذي بَلَقِ
قام عليه النهارُ مدّعياً فاعترفتْ عَرْفَهُ يدُ الشفق

. . ...

١ كتاب التشبيهات : ١٩٣ .
٢ التشبيهات : الكمي .
٣ التشبيهات وإحراز .
٤ التشبيهات : لبب من شهبة بين دهمة .
٥ التشبيهات : نوراً وظلمة .
٦ التشبيهات . وألبس .

وقال أبو بكر بن حجاج[1] :

وأشهبَ صافي بياضِ الأديم ... له شيةٌ زانها عَرْفُهُ

كبدرِ سماءٍ بدا زاهراً ... وقد مُسَّ في شفقٍ طرفه

وقال ابن فتوح :

طِرْفٌ يفوتُ الطَّرْفَ شأواً عدْوُه ... ويضيقُ وُسْعُ الأرضِ عند مجالهِ

يبدي سوادَ الليل في إدباره ... ويريكَ وَجْهَ الصُّبحِ في إقباله

متبختراً تيهاً كأنَّ لجامَهُ ... إكليلُ كسرى لاحَ فوق قذاله

عَقَدَ الجيادَ بشأوه وجرى على ... عِرْقٍ نماه عُلاً إلى عُقَّاله

ذرَّعَتْ مَتْنَ الأرضِ منه بذارع[2] ... كادت تكونُ الأرضُ من أمياله

تعيا الرياحُ وراءَهُ في لأيه ... ويكلُّ شأوُ الدهرِ دونَ كلاله

وقال الرمادي :

ومعارضٍ للريح في حركاته ... لولا اللجامُ لجالَ كلَّ مجالِ

ذو منظر حَسَنٍ تضمَّن مخبراً ... حسناً وكان لزينةٍ وقتال

حَسُنَتْ به الحركاتُ والمعشوقُ لا ... يصبي لغيرِ براعةٍ ودلال

حَطَمَتْ حوافِرُهُ السَّلامَ صلابةً ... فكأنه من أوجهِ البُخَّال

---

١ هو أبو بكر عبد الله بن حجاج العافقي، من شعراء المعتضد، هجر إشبيلية إلى الجزيرة الخضراء ومدح صاحبها محمد بن القاسم بن حمود ، وقد لقيه الحميدي في حدود ٤٣٠ (انظر الجذوة : ٢٤٣ والبغية رقم ٩١٩ والمغرب ١ : ٢٦٠ والنفح ٣ : ٣٨٥).

٢ د : بأذرع .

وهذا كقول حبيب[1] :

أيقَنْتَ[2] إنْ لم تَثَبَّتْ أنَّ حافِرَهُ	من صخرٍ تدمرَ أو من وَجْهِ عثمانِ[3]

وأخذه البحتريّ فقال[4] :

ما إنْ يعافُ قذىً ولو أوردتَهُ	يوماً خلائقَ حمدويه الأحولِ

وقال القسطلي[5] :

سامي التليلِ كأنَّ عِقْدَ عذاره	في رأسِ غصْنِ البانةِ الميَّادِ
يُهْدَى بمثل الفرقدين ونابَ عن	رَعْي السِّماكِ بقلبه الوقَّاد
فكأنّما أطأُ الأباطحَ والرّبى	بعقابِ شاهقةٍ وحيّةِ وادي[91ب]
وكأنه من تحت سوطي خارجاً	في الرَّوْعِ شعلةُ قادحٍ بزناد

وقال يحيى بن هذيل[6] :

في خُضْرَةٍ مفترَّةٍ في غُرَّةٍ	كالصبح كشَّف عنه ليلٌ أليَلُ
يمشي العِرضْنَةَ فهو يحكي بالطلى	كيف الصدودُ عن الحبيبِ فيقبل

. . . .

١ ديوان أبي تمام ٤ : ٤٣٤ وأخبار أبي تمام : ٦٨ .

٢ الديوان : حلفت .

٣ هو عثمان بن إدريس الشامي (أو السامي) .

٤ ديوان البحتري : ١٧٤٥ وأخبار أبي تمام : ٧٠ .

٥ من ملحقات الديوان : ٥٤٣ عن الذخيرة ، وانظر الشريشي ٣ : ١٥٤ .

٦ عن يحيى بن هذيل (– ٣٨٩) انظر كتاب التشبيهات ص ٣٣٦ – ٣٣٨ حيث ورد ذكر القطع الكثيرة التي ضمها ذلك الكتاب من شعره مع نبذة عن حياته وذكر لمصادر ترجمته .

وقال أبو تمام بن رباح[1] من أهلِ عصرنا :

وأقبَّ تنقدُ البروقُ إذا جرى ... من غيظها حسداً بأن لم تَلْحَقِ
مَلَكَ الرياحَ قوائماً فجرى بها ... فيكادُ يأخذُ مَغْرباً في مشرق

وقال فيه[2] :

وتحيَّ ريحٌ تسبقُ الريحَ إنْ جَرَتْ ... وما خلتُ أن الريحَ ذاتُ قوائمِ
لها في المدى سَبْقٌ إلى كلِّ غايةٍ ... كأنَّ لها فيه نفوذَ عزائم
وهمَّةَ نفسٍ نزَّهَتْها عن الوجى ... فيا عجباً حتى العلا في البهائم

رجع :

بقية ملح ابن الملح

له من قصيدة عتاب قال فيها :

لقد ظلمتني أمَّةٌ ما خَمَشْتُها ... بلحظٍ وقد عمَّتْ حشايَ ندوبا
توهَّمتهمْ سلماً فَسُولِتُ ظاهراً ... وشبُّوا على ظهر المغيبِ حروبا
وثقتُ بهم في النائباتِ فأخلفوا ... وكانوا إلى جَنْبِ الخطوبِ خطوبا
فكم صاحبٍ منهم يبيتُ بقلبه ... بعيداً ويغدو باللسانِ قريبا
إذا لاح خيرٌ ذادني عن حياضه ... كما ذادتِ الزَّجْرُ العرامسَ نيبا
وإنْ عنَّ شرٌّ قادني نحو ضنكةٍ ... جنيباً وأنَّى لي أقادُ جنيبا

... ...

١ ترجمته في القسم الثالث : ٨٢١ والبيتان في الشريشي ٣ : ١٥٤.

٢ انظر الشريشي أيضاً .

وآخر قد فاجأته الودّ أوّلاً — بديهة ساعٍ ماجدٍ وأديبا
سريتُ له من حُسْنِ ظنّي بطالعٍ — أمِنْتُ له حتّى المماتِ غروبا
وكنتُ إذا بَلّ الودادَ بلفظةٍ — أدرتُ عليه بالمحبّة كوبا
جفاني ولكنّي أهُبُّ بعشرتي — شمالاً إذا هبّ الصديقُ جنوبا
وآخر لم أسأل به مَنْ ولا ابنُ مَنْ — فلستُ لما يُرْتابُ منه طلوبا
نشرتُ له بُرْدَ الإخاءِ كأنما — خضبتُ بها في العارضَيْنِ مشيبا
وكنت إذا رثَّتْ من الودّ بُرْدَةٌ — عليه صرفتُ الإحتبالَ قشيبا
سقى كأسَ حِقْدٍ فوق لحقٍ نميمةٍ — تشقُّ قلوباً لا تشق جيوبا
فماذا يرى العبدان في ذَنْبِ أمّةٍ — رأتْ حسناتي في الوفاء ذنوبا
ومن ينكرُ الشكوى إلى الله منهم — وقد ملأوا الصدرَ الرحيب وجيبا
سأغفرُ لا عجزاً ولكن سجيّةٌ — نمتني نجيباً أو ورثتُ نجيبا

ومن شعره في الأوصاف

قال يصف سوار فضة مذهباً ، وأخبر عنه :

أنا من الفضةِ البيضاءِ خالصةً — لكنْ دهتني خطوبٌ غيّرتْ جسدي[٩٢أ]
عُلّمْتُ عضّي بما أحوي فأحسدني — جَرْيُ الوشاحِ فهذي صفرةُ الحسد

وقال في شمّامة فضة مُنَيَّلة[١] :

.. .. ..

١ م : مثيلة ؛ أما المنيلة فقد شرحت في القسم الثالث : ٤٣٢ (حاشية : ٣) ومعناها مرصع أو مزخرف .

أنا المدارةُ بين الكأسِ والطّبقِ والمستعارةُ للآنافِ والحدَقِ
أكونُ للوردِ والخيريّ آونةً وتارةً لغصونِ الآس والحبق
لولا صيانةُ[1] جسمي عن مجاذبةٍ لثارتِ الحربُ بين النوْرِ والورق
خفتُ الزمانَ على تغيير عهدتها ففي إهابيَ آثارٌ من الحرق
كأنني نقطةٌ في الصحو صافيةٌ قد غيّرتْ بعضَ لوني خضرةُ الورق[2]

وكان[3] في بعض قصور المعتمد باشبيلية في من جملة التصاوير صورةٌ من خالصِ اللجين على صورة الفيل ، وهو الذي يقول فيه عبد الجليل :

ويُفْرِغُ فيه مثل النصلِ بدعٌ من الأفيالِ لا يشكو ملالا
رعى رَطْبَ اللجين فجاء صلداً وقاحاً قلّما يخشى هزالا

فجلس المعتمد يوماً على البحيرة والماءُ يسيل[4] ، من فم ذلك الفيل ، وقد أوقدتْ شمعتان من جانبيه . ومعه ابنُ الملح ، فقال في ذلك عدة مقطوعات منها قوله :

كأنّما النارُ عند الشمعتين سنا والماءُ من نفَذِ الأنبوبِ ينسكب[5]
غمامةٌ تحت جنحِ الليلِ هامعةٌ في جانبيها جناحُ[6] البرق يضطرب

. . . .

١ ط م د س : صبابة .
٢ الورق : موضعها بياض في ط م س .
٣ انظر نفح الطيب ٤ : ٢٦٣ وبدائع البدائه . ٢٧٣ .
٤ النفح والبدائع : يجري .
٥ النفح والبدائع : منسكب .
٦ النفح والبدائع : حفاف .

وقال في ذلك :

ومشْعَلَيْنِ من الأضواء قد قرنا بالماء والماءُ بالدولابِ منزوفُ
لاحا لعينيَّ كالنجمين بينهما خَطُّ المجرَّةِ ممدودٌ ومعطوف

وقال فيه :

وأنبوبِ ماءٍ بينَ نارين ضُمِّنا هوىً لكؤوسِ الراحِ تحت الغياهب
كأنَّ اندفاعَ الماءِ بالماء حَيّةٌ يحركّها بالليلِ[1] لمعُ الحباحب

وقال فيه :

كأن سراجَيْ شربهم في التظاهما وأنبوبَ ماءِ الحوضِ[2] في سيلانه
كريمٌ تولّى كِبْرَهُ من كليهما لئيمانِ في إنفاقه يعذلانه
إذا هزَّهُ للجود بَرْدُ سماحةٍ أصرّا على تثريبه يحرقانه

في ذكر الأديب أبي محمد عبد الجليل بن وهبون المرسي[3]

شمس الزمان وبدره، وسرُّ الإحسانِ وجهره، ومستودعُ البيان ومستقرّه،

---

١ النفح والبدائع: في الماء .
٢ النفح والبدائع: الفيل .
٣ ترجمته في بغية الملتمس رقم : ١١٠١ والمطرب : ١١٨ والقلائد : ٢٤٢ والخريدة ٢ : ٩٥ والمعجب : ١٥٩ والنفح ١ : ٦٥٧ (نقلا عن القلائد) ومواطن أخرى متفرقة . والمسالك ١١ : ٢١٩ والسلفي : ١٩ ومواطن مختلفة في بدائع البدائه، وورايات المبرزين ٧٧ (غ) .

آخرُ مَنْ أفرغ في وقتنا فنونَ المقال [1] ، في قوالبِ السحرِ الحلال ، وقيَّد شواردَ الألباب ، بأرقَّ من مُلَحِ العتاب ، وأرْوق من غَفَلاتِ الشباب ؛ وكورةُ تُدْمير أفقه الذي منه طلع ، وعارضُهُ الذي فيه لمع ، وإنما ذكرته في هذا القسم الغربيّ مع أهل إشبيلية لأنها بيتُ شرفه المشهور ، ومسقط عيشِهِ المشكور . طرأ عليها منتحلاً للطَّلَب ، وقد شدا طرفاً من الأدب ، وكان الاستاذ أبو الحجاج الأعلم [2] يومئذٍ زعيم البلد ، وأستاذَ وَلَدِ المعتمد ، معوَّل عليه من رحلته . وانقطع إليه بتفصيله وجملته ، وكانت له في أثناءِ ذلك همّةٌ تترامى به إلى العلا ، تراميَ السَّيْلِ من أعالي الزُّبى ، وكان بين الاستاذين أبي الحجاج وأبي مروان بن سراج [3] ما يكون بين فحلين في هَجْمَةٍ ، وزعيمين [٩٢ ب] من أمّة . فاتفق أن كتب ابنُ سراجٍ إلى المعتمد بشعرٍ بائيٍ من شطير الوافر يمدحه فيه ، وكأنه — زعموا — عرَّض بِقِرْنِهِ ومُباريه . وأعْلِمَ بذلك الأعلم ، فصمت عن جوابه وأحجم ، وولاَّها عبدَ الجليل فأطْلَعَهُ في أفقها قمراً . ونبّه منه لحربها عمراً [4] ، فقال قصيدته البائية التي أوَّلها :

---

١ م د س : المال .

٢ أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمري (٤١٠ — ٤٧٦) كان عالماً بالعربية واللغة ومعاني الأشعار ، وكف بصره آخر عمره (انظر ابن خلكان ٧ : ٨١ والصلة : ٦٤٣ ومعجم الأدباء ٢٠ : ٦٠ ونكت الهميان : ٣١٣) .

٣ أبو مروان ابن سراج : له ترجمة في القسم الأول من الذخيرة : ٨٠٨ وفيه فصل من أشعار رثي بها . وانظر صورة من هذه الخصومة بينه وبين الأعلم حول الرسالة الرشيدية في إحكام صنعة الكلام : ٦٨ .

٤ فيه إشارة إلى قول بشار (ديوانه : ٢١٧ جمع العلوي) :

إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمراً ثم نم

* هوىً بين النجومِ له قبابُ *

ومع أنها ليست لاحقةً بعيون شعره ، لما سمعها ابنُ عمارٍ خادمُ الدولة يومئذٍ طار بذكره ، وأجناهُ ثمارها ، وباهى به أقمارها ، وخلع عليه أصائلها وأسحارها ، ووافق من المعتمد ناقداً بصيراً ، وعاشقاً قديراً ، فأغلى بتلك الأعلاق ، وأقام له الدنيا على ساق ، وقصر عبد الجليل على هواه ، فلم يرحلْ إلى ملكٍ سواه .

وكانت له كلَّ عامٍ رحلة، يتعهَّد فيها بلده وأهله، فحدثني غيرُ واحد أنه اجتاز بالمرية ، في بعض رِحَلِهِ الشرقيّة ، وملكها يومئذ قبلةُ الأمّال ، وقطب رحى الآمال ، ومرمى جمارِ المدائح ، أبو يحيى ابن صمادح ، فاهتزَّ لعبد الجليل واستدعاه ، وعرَّض له بجملة وافرة من عَرَضِ دنياه ، فلم يعرِّجْ على صفَدِهِ ، وبادر العيد ــ وكان قريباً ــ بالارتحال عن بلده، وقال في ارتجال [1] :

دنا العيدُ لو تدنو لنا كعبةُ المنى ورُكنُ المعالي من ذؤابة يعربِ

فيا أسفا [2] للشعر تُرْمَى جماره ويا بُعْدَ ما بيني وبين المحصّب

ولما ابتدأت الفتنة بالمعتمد ، بادر الخروج عن البلد ، فلم يُغْنِ عنه نفاره وأدركه مقدارُهُ ، على قربٍ من مُرسية ، لقي قطعةً من خيل النصارى فتورَّط فيهم ، وقضى الله له بالشهادة على أيديهم .

١ القلائد : ٢٤٤ والمطرب : ١٢١ والخريدة ٢ : ١٠٢ .

٢ الخريدة : فيا ويلتا .

وذكرت بمقتل عبدالجليل – رحمه الله – ومَفَرَّه أعجوبةً من الزمان، وحديثاً ظريفاً من الحدثان: كان بحضرة إشبيلية أيام ماجتْ بها على المعتمد الفتنةُ ، ودارت عليه[1] رحى المحنة ، أبو القاسم ابن مرزقان[2] ، من شعراء الدولة ، ونبهاءِ أهلِ الحضرة ، مِمَّنْ متَّ إليها بقديمِ جوار ، لا ببارعِ أشعار ، وأدلَّ عليها باسم مَرْزُقَانهِ ، لا بفضل بيانه ، وكان في بني عبّاد عُجْبٌ بكثرةِ عددهم ، وعصبيةٌ لأهل بلدهم ، وكان أبو القاسم هذا حُلْو الحوار ، نادر الأخبار ، وكان به على ذلك توهُّمٌ يُخْرِجُهُ إلى جبن الفرّارِ السُّلَميّ[3] ، وغفلةٌ تشهدُ عليه بلوثة أبي حيّة النمري[4] ، وكان هو وعبد الجليل من بين سائر أهل القريض ، في طرفي نقيض ، هذا يتعصَّبُ لسلطانه بهواه ، وعبد الجليل يقفو الصواب[5] بزعمه ويتحرّاه ، فكانا ربّما اجتمعا فيكونُ بينهما بَوْنٌ بعيد ، وشقاقٌ شديد : فأمّا عبد الجليل فقد ذكرتُ الخبر عمّا فَعَل ، وشرحتُ كيف قُتِل ، وأمّا أبو القاسم هذا فإنه غَرَّهُ القتالُ فأقدم عليه ، وهيّت له القَتْلُ فبرز إليه ، على حالٍ لو تخيَّل بها المجدُ لجحده ، وفي يومٍ لو رآه دون الماء لما ورده ، فأدركه سرعانُ الرجّالة

---

١ م : عليهم .

٢ ترد ترجمته في ما يلي من هذا القسم ص : ٥٢٠ .

٣ هو حيان بن الحكم السلمي (انظر حماسة البحتري : ٦٥ وحماسة الخالديين ١ : ١٤٢ والعيون ١ : ١٦٤ والحيوان ٤ : ١٨٥) .

٤ اسمه الهيثم بن الربيع (ترجمته في الشعر والشعراء : ٦٥٨ والأغاني ١٦ : ٢٣٦ وطبقات ابن المعتز : ١٤٣ والخزانة ٤ : ٢٨٣ والسمط : ٢٤٤ وقد جمع شعره رحيم صخي التويلي – مجلة المورد (١٩٧٥) المجلد الرابع – العدد الأول : ١٣١ – ١٥٢) .

٥ م : على الصواب (اقرأ : يقف على الصواب) .

فهبروه بالسيوف ، وجرّعوه[1] أكْره ما كان له من الحتوف ، فصار حديثهما عجباً من الخبرِ عجيباً ، ومثلاً في تصرُّفِ القدر مضروباً ، كلاهما أنهب نَفْسَهُ الأقتال . وذاق منيّتَهُ على يدي من خال .

ولابن مرزقان هذا أخبار طريفة ، ونوادر في الشعر معروفة . ونأخذ فيما بعد بطرف مستطرف منها . ان شاء الله .

وقد أثبت هنا من شعر عبد الجليل في مِدَحِه الفائقة ، وأوصافه الرائقة ، ما يشهد أنه سابقُ الحَلْبَةِ . وصدْرُ الرتبة . وضاق ذرْعُ هذا المجموع ، عن تضمين ما له من البديع . فجمعت شعره على حروف المعجم في تصنيف ترجمته بـ «كتاب الاكليل المشتمل على شعر[2] عبد الجليل» وكذلك فعلتُ في سائر أعيان الوزراء الكتّاب . لم يتسع لاستيفاء محاسنهم هذا الكتاب . فجمعت في تأليفٍ تَرْجَمْتُهُ بـ «سلك الجواهر [٩٣ أ] من نوادر ترسيل ابن طاهر» وفي تصنيف رابع[3] وسَمْتُهُ بـ «كتاب الاعتماد على ما صحَّ من أشعار المعتمد بن عباد» وفي كتابٍ خامس ترجمته بـ «نخبة الاختيار من أشعار ذي الوزارتين أبي بكر بن عمار» . ولبعض الناس إلى كلامِ بعضٍ صغوٌ ، وذلك الكلام عند آخرين — على جَوْدتِهِ — لغو ، وإنما كان ذلك لتباين النحائزِ ، واختلاف الغرائز . فاستوفيتُ في هذه التواليف لكلّ فرقةٍ مرادها ، وخلصت لها موادّها ، إن شاء الله .

... ...

١ م : وجروه .
٢ على حروف . . شعر : سقط من م .
٣ كذا ، وهو ثالث بحسب ما عده في هذه الفقرة ، إلا أن يكون قد عد الذخيرة ضمناً

ما أخرجته من شعر عبد الجليل في شتّى الفنون

من ذلك ما له في الرثاء والتأبين

من ذلك قصيدته[1] في الأستاذ أبي الحجاج يوسف بن عيسى المعروف بالأعلم ، أوّلها :

سَبَق الفناءُ فما يدومُ بقاءُ ... تفنَى النجومُ وتسقطُ البيضاءُ

يقول فيها[2] :

نفسي وحسّي إنْ وصفتهما معاً ... آلٌ يذوبُ وصخرةٌ خلقاءُ[3]

لو تعلمُ الأجبالُ كيف مآلها ... علمي لما امتسكتْ[4] لها أرجاء

إنا لنعلمُ ما يراد بنا فلمْ ... تعيا القلوبُ وتُغلَب الأهواء

طيفُ المنايا في أساليب المنى ... وعلى طريق الصّحةِ الأدواء

بتعاقبِ الأضداد مما قد ترى ... جُلِبَتْ عليك الحكمةُ الشنعاء

ماذا على ابنِ الموت من إبصاره ... ولقائهِ هل عقّتِ الأبناء[5]

أيغرُّني أن يستطيل بيَ المدى ... وأبي بحيثُ تواصتِ الغبراء

....

١ م : قصيدة .

٢ يقول فيها : سقط من م

٣ خلقاء : مصمتة ملساء .

٤ م : لما أمست

٥ د : عفت الأنباء

لم ينكرُ الإنسانُ ما هو ثابتٌ في طَبْعِهِ لو صحّتِ الآراء
ونظيرُ موتِ المرء بعد حياته أن تستوي مِنْ جنسه الأعضاء
د نيفٌ يبكّي للصحيح وإنما أمواتُنا لو تشعرُ الأحياء
وسواءٌ آن تجلى اللحاظُ من القذى أو تنتضي من شَخْصها الحَوْباء
ما النفسُ إلا شعلةٌ سقطتْ إلى حيثُ استقلّ بها الثرى والماء
حتّى إذا خلصتْ تعودُ كما بدت ومن الخلاصِ مشقّةٌ وعناء

قال ابن بسّام : لعلّ عبد الجليل اكتسب في هذا البيت والذي قبله من العمل[1] بحقيقة النفس ما جهله في وصفه لها قبل أنها « آلٌ يذوب » وما أعجب أيضاً قوله عن جسمه بأنّه صخرةٌ خلقاء ، اللهم إلاّ إن كان عنى بذلك رأسه لأنه كان يلقّبُ بالدّمغة [2] . وذهب هنا من صفة النفس إلى مذهب كلاميّ ، كقول بعض أهل بلدنا ، وهو أبو عامر ابن سوار[3] الشنتريني ، من جملة أبيات :

يا لَقومي دفنوني وَمَضَوْا وَبَنَوْا في الطينِ فوقي ما بَنَوْا
ليت شعري إذ رأوني ميّتاً وبكوني أيَّ جزأيَّ بكوا
أنَعَوْا جسمي فقد صار إلى مركزِ التعفين[4] أم نفسي نَعَوْا
كَيْفَ يَنْعَوْنَ نفوساً لم تزلْ قائماتٍ بخضيض وبجوّ
ما أراهم ندبوا فيَّ سوى فُرْقَةِ التأليفِ إنْ كانوا[5] دروا

---

[1] كذا في النسخ ، وأظن صوابه : « العلم » .
[2] لعل لهذا اللقب صلة بقولهم : « الدامغة » وهي الشجة التي تبلغ الدماغ ، وإن كنت أرجح أن اللقب يشير إلى ضخامة رأس عبد الجليل وأنه لذلك نبز عامي .
[3] ط د : نوار .
[4] د : التعوين .
[5] ط م س : كان .

وهذا معنى فلسفيّ ، قلّما عرّجَ عليه عربيّ ، وإنما فزع إليه المحدثون من الشعراء ، حين [٩٣ ب] ضاق عنهم منهجُ الصواب . وعدموا رونقَ كلامِ الأعراب . فاستراحوا إلى هذا الهذيان استراحَ الجبانِ إلى تنقّص أقرانه ، واستجادةِ سيفهِ وسنانه ؛ وقد قال بعضُ أهلِ النقد إنه عيبٌ في الشعر والنثر أن يأتي الشاعر أو الكاتب بكلمةٍ من كلام الأطباء ، أو بألفاظ الفلاسفة القدماء ؛ وإني لأعجبُ من أبي الطيب ، على سَعَة نَفَسه ، وذكاء قَبَسِهِ ، فإنه أطال قَرعَ هذا الباب ، والتمرُّسَ بهذه الأسباب ، وكذلك المعرّي : كَثُرَ به انتزاعه ، وطال إليه إيضاعه ، حتى قال فيه أعداؤه وأشياعه ، وحسبك من شرٍ سماعه ، وإلى الله مآله ، وعليه سؤاله .

وإنما سلك عبد الجليل في هذا المعنى سبيل القائل حيث يقول :

يا سالكاً موئلاً[١] يكلّمنا ... عَرِّجْ أخبِّرْكَ خالصَ الفائدْ
جِسْمُكَ والنفس خُلّتا عرضٍ ... وكل خلٍ لخلّه قائد[٢]
والنفسُ تلقى الخلودَ إن خلصت ... والجسم لا باقياً ولا خالد

وقال المتنبي[٣] :

تخالفَ الناسُ حتى لا اتّفاقَ لهم ... إلا على شَجَبٍ والخُلْفُ في الشجب
فقيل تخلُصُ نَفْسُ المرءِ سالمةً ... وقيل تَشْرَكُ جسمَ المرءِ في العطب

وقال :

..

١ ط م : منزلا (دون اعجام) .
٢ ط د م س . فائد .
٣ هذه القطع في ديوان المتنبي : ٤٢٦ ، ٢٢٦ ، ٤٧٨ ، ٥٧٣ — ٥٧٤ .

إلفُ هذا الهواءِ أوقع في الأنْفُسِ أنّ الحِمامَ مُرُّ المذاقِ
والأسى قبل فُرْقَةِ الروحِ عجزٌ والأسى لا يكونُ بعدَ الفراق

وقال :

تمتَّعْ من سهادٍ أو رقادٍ ولا تأمُلْ كرًى تحتَ الرجامِ
فإن لثالثِ الحالين معنًى سوى معنى انتباهِكَ والمنام

وقال :

تبخلُ أيدينا بأرواحنا على زمانٍ هنّ من كَسْبِهِ
فهذه الأرواحُ من جَوِّه وهذه الأجسامُ من تربه
يموتُ راعي الضأن في جهله ميتةَ جالينوسَ في طبّه
وربما زاد على عُمره وزادَ في الأمن على سرْبِهِ

وإنما نقل أبو الطيب هذا المعنى من قول أبي غسان المتطبب[1] :

حُكْمُ كأسِ المنونِ أن يتساوى في حماها الغبيُّ والألمعيُّ
ويحلُّ البليدُ تحت ثرى الأرضِ كما حلَّ تحتها اللوذعيّ
أصبحا رمةً تزايل[2] عنها فضلها الجوهريُّ والعرضيّ

١ لعل الصواب ابن غسان ؛ وقد سماه الثعالبي (اليتيمة ٣ : ٤٢٨) أبا الحسن ابن غسان البصري الشاعر الطبيب، وذكر أنه ورد الأهواز مع الشعراء ومدح عاملها، وذكره التوحيدي باسم «ابن غسان» في الامتاع ٢ : ١٦٩ وحكى أنه غرق نفسه لأسباب تجمعت عليه من فقر وجرب وعشق ؛ وترجم له القفطي (تاريخ الحكماء : ٤٠٢) وذكر أنه كان يخدم بصناعته ملوك بني بويه .

٢ م ط : أصبحا . . . يزايل .

وتلاشى كيانُهَا الحَيَوانيُّ وأودى[1] تقويمُها المنطقيّ

وهذا كلامٌ من الإلحاد ، على غاية الاضمحلال والفساد ، فليس تساوي الناس في الموت والفناء ، حجةً في عدم البقاء ، والمراتب في دار الجزاء .

ومن شعر أبي العلاء ، في هذه الأنحاء ، التي ولع بها أيضاً وشغف ، وصرف كلامه فيها فتصرف ، قوله[2] :

والنفسُ أرضيّةٌ في قولِ[3] طائفةٍ وعند قومٍ ترقّى في السمواتِ
وكونُها في طريحِ الجسمِ أحوجَها إلى ملابسَ عنّتْها وأقوات

وقال[4] :

وأوصالُ جسمٍ للتراب مآلُها ولم يدرِ دارٍ أين تذهبُ روحُها

وقال[5] :

والروحُ تنأى ولا يدرى بموضعها وفي التراب لعمري يرفت الجسدُ

[وقال][6] :

---

١ ط م د س : وأردى .
٢ اللزوميات : ٥٥ب (نسخة ليدن رقم : ٩٠٦) ؛ ١ : ١٤٨ — ١٤٩ (ط . هندية) .
٣ اللزوميات : والروح . . . في رأي .
٤ اللزوميات : ٦٦ ب ، ١ : ١٧٨ .
٥ اللزوميات : ٨٧ أ ، ١ : ١٩٧ .
٦ اللزوميات : ٩٠ أ ، ١ : ٢٠٠ .

والعيشُ كالماء يغشاه حوائمنا فصادرون وقومٌ إثرهم وردوا[٩٤أ]
ومدُّ وقتيَ مثلُ القَصْر غايته وفي الهلاكِ تساوى الدّر والبرد

وقال[١] :

أما الصحابُ فقد مرّوا وما عادوا وبيننا في لقاءِ الموت ميعادُ
سيران[٢] ضدّان من روح ومن جسد هذا هبوطٌ وهذا فيه إصعاد

وقال[٣] :

وفكري سلّ حبَّ المال مني ووجدي بالحياة أطالَ شغفي
ستضربني الحوادثُ في نظيري فتمحقني ولا يزدادُ[٤] ضعفي

رجعت إلى ما قطعت من قصيدة عبد الجليل .

وفيها يقول :

كذبتْ حياةُ المرءِ عند وجودها وُجِدَ الحمامُ ومنه كان الداءُ
لله أيُّ غنيمةٍ غَنِيمَ الردى ومن الفجائع غارةٌ شعواء
من كان غُرَّةَ جنسه حتى امحتْ فإذا البريّة كلُّها دهماء
جبلٌ تقوّضَ لو تشخّصَ عظمه لتواصتِ الغبراءُ والخضراء
ومَغيضُ ما قد غاضَ منه شاهدٌ أنْ لا يدومَ بحالهِ الدأماء

. .. ...

١ اللزوميات : ٩١ أ ، ١ : ٢٠٣ - ٢٠٤ .
٢ ط م د س : شيئان .
٣ اللزوميات : ١٨٩ ب ، ٢ : ٩٧ .
٤ اللزوميات : ولا أزداد .

أكبرتُ نَعْيَ جلالِه فنفيتُهُ   وهو الجليّةُ ما عليه خفاء
ماتابنُ عيسى مَنْ يقول به عسى   شفقاً وليس مع الحمام رجاء

ومنها :

أفلا حَمَتْهُ فضائلٌ موفورةٌ   وجلالةٌ تعنو لها العظماء
وأذمّةٌ في سرِّ لحمٍ طالما   خَدَمَتْ رعايةَ حقّها الأمراء
شهروا سلاحَ الدّمعِ خلفَ سريرهِ   إذ لم يكنْ للباترات غناء
رُحْنا به بل بالسيادةِ والعلا   والشمسُ نجمٌ والنهارُ مساء
نطأ القلوبَ على سواءِ سبيله   فالسيرُ مَهْلٌ والعثارُ ولاء
أخذَ الأسى فيه البرود بثاره[1]   مما جناهُ الزَّهْوُ والخيلاء
حتّى إذا بلغوا به ملحودَهُ   قمنا به لو أنّه الجوزاء
ضرب الهدى في لحدِهِ بيمينه   فتناولَتْهُ عَرْصَةٌ فيحاء
وأظلّه التنزيلُ يتلو نفسه   بتلاوةٍ لم يؤتها القرّاء
مستصحباً أعمالَهُ متأنّساً   بزواهرٍ هيَ والنجومُ سواء
ولربما استخلصتَ منا أنفساً   ملأتْ ضريحَكَ والصدورُ جلاء
وهناك لو كُشِفَ الغطاءُ لناظرٍ   حول القليبِ حديقةٌ غنّاء
في الحبِّ إذ يحوي سميَّكَ أسوةٌ   لو حُمَّ منك وقد حُجِبْتَ لقاء
يا تُرْبَةُ استبقي سناه ، ويا فلا   لا تَلْحَقَنْكَ[2] جريمةٌ شنعاء
اللهَ فيَّ وفي جوانحَ رطبةٍ   لم تخلُ من شفقاتها الأعداء
أبنيه نحن وأنتمُ شرعٌ به   وعلى المصابِ بفقدِهِ شركاء

---

١ بثاره : سقطت من م س .
٢ ط م س : سناه (دون اعجام في ط وفوقها كذا) ويا فل ؛ د : لا تخلقنك .

هزُّوا قوادمكم إلى عليائه قد رَشَّحتْ أبناءها الفتخاء [٩٤ ب]

أمَّا وقد شبهتُ مائلَ رَسْمِهِ سطرا فثمَّ الحكمة الغرّاء

واعجبْ لذاك الخطِّ في صفحِ الثرى أنْ حاز علماً ما له إحصاء

أنَّى وسعتَ وأنت مضجعُ واحدٍ مَنْ هذه الآفاقُ منْهُ ملاء

يا زائريه تكحلوا بصعيدهِ كُحْلُ البصائرِ تلكمُ البوغاء[1]

فَغَرَتْ له فاها الجدالةُ[2] فانطوى في طيِّها الإسهابُ والإيماء

قَسَمَ الأنامُ تراثَ علمك فاستوى في نَيْلِهِ البُعَداءُ والقرباء

كنَّا عبيدَكَ في اعتقادِ نفوسنا إذ في اعتقادك أنَّنا أبناء

يا مُلْبَسَ النُّعمى يجرُّ ذيولها لبستْ ثراكَ غمامةٌ وطفاء

وبكتْ عليك الشمسُ حقٌّ بكاؤها أن كان قد تتفاقد النظراء[3]

خُذْها عُلالَةَ خاطرٍ دلّهْتَهُ من حيثُ ينشطُ جاءَهُ الإعياء

قامتْ تناوحُ فيك كلُّ قصيدة ثَقَّفْتُها وقناتُها زَوْرَاءُ

أنشدتُها على توالي الانتخاب ، حسبما صنعته في أكثر أشعار هذا الكتاب .

قوله: « أيغرني أن يستطيلَ بيَ المدى » . . . البيت ، يلمح من بعض الوجوه ، وإن لم يشبهه كلَّ التشبيه ، قولَ أبي العلاء[4] :

وقبيحٌ بنا وان قَدُمَ العهـ ـدُ هوانُ الآباء والأجدادِ

---

١ البوغاء : التراب عامة ، أو التراب الهابي في الهواء .

٢ الجدالة . الأرض .

٣ د : القرناء .

٤ شروح السقط ٩٧٥ .

وأبو العلاء إنّما ذهب إلى قول أبي الطيب[1] :

يدفّنُ بعضنا بعضاً ويمشي أواخِرُنا على هامِ الأوالي

وقوله : « وسواء آن تجلى اللحاظ » . . . البيت ، كقول التهامي[2] :

واستلّ من أترابِهِ ولِداتِهِ كالمقلةِ استلّتْ من الأشفارِ

إلاّ أنّ عبد الجليل قد نفخ فيه روحاً ، وسلك به مسلكاً مليحاً ، وولّد له إحساناً صريحاً .

وأما قوله : « أكبرتُ نَعْيَ جلاله » . . . البيت ، فقلّ أحدٌ من الشعراء ال بيتاً في الرثاء ، إلا ولهذا المعنى أشار ، وحواليه دار ، لأنّه من متداولات المعاني ، قال صريع الغواني[3] :

تأمّل أيها الناعي المشيد أحقّ أنه أودى يزيدُ
أتدري[4] من نعيتَ وكيفَ فاهَتْ به شفتاك كان بها الصعيد

وقال أبو الطيب[5] :

طوى الجزيرةَ حتّى جاءني خبرٌ فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذبِ

١ ديوان المتنبي : ٢٥٧ .
٢ ديوان التهامي : ٥٣ .
٣ ديوان مسلم بن الوليد : ١٤٧ ورجح ابن خلكان ٦ : ٣٣٨ أن الشعر لعبد الله بن أيوب التيمي .
٤ الديوان : تأمل .
٥ ديوان المتنبي : ٤٢٣ .

وقال أبو إسحاق بن معلّى من أهل عصرنا [1] :

وتلجلجَ الناعي به فسألتُهُ عن ذا الحديث لعلّهُ يرتابُ

وقال أبو الحسن ابن الجد [2] :

تصاممتُ عنها مستريحاً إلى المنى وقلتُ عساها في الأحاديثِ بهتانُ

وقال أيضاً بعض أهل عصرنا [3] :

ونبّهني ناعٍ مع الصبح كلّما تشاغلت عنه عنّ لي وعناني [٩٥ أ]
أغمّض أجفاني كأنّيَ نائمٌ وقد جلّتِ الأحشاءُ في الخفقان

ولبعضهم أيضاً في قريب منه وإنْ لم يكن به :

أيحيى وما أدعوكَ إلاّ تعلّةً [4] نغالط فيكَ النفسَ حيناً من الدهرِ
وإنّا لندري أنّه لا يجيبنا ولكنْ تخلّينا الجواب فما ندري

وقوله : « شهروا سلاح الدمع » . . . البيت ، كقول أبي الطيب [5] :

* يبكي [6] ومن شرّ السلاحِ الأدمعُ *

---

١ ترجمته في القسم الثالث : ٨٤٠ وانظر البيت : ٨٤٤ .
٢ سيرد البيت في هذا القسم . وانظر الثالث : ٨٤٩ .
٣ هو الأعمى التطيلي ، انظر ديوانه : ٢٢٨ وستأتي ترجمته في هذا القسم : ٧٢٨
٤ ط م : لعلة .
٥ ديوان المتنبي . ٥٠٨ وصدره : بأبي الوحيد وجيشه متكاثر .
٦ ط د م س : أبكي .

وقوله[1] : « والشمس نجم » . . . البيت ، معنىً أحسن فيه وإن لم يكنْ اخترع ، فقد أحسن وأبدع حيث اتّبع .

وقوله : « نطأ القلوب » . . . البيت ، من قول التهامي[2] :

كأنَّ وَخْدَ مطاياهم إذا وَخَدَتْ يطأنَ في حُرِّ وجهي أو على بصري

وقوله : « أخذ الأسى فيه البرود » . . . البيت ، نبَّهه عليه ابن الرومي بقوله[3] :

أخذتْ من رؤوسِ قومٍ كرام ثارها عند أرْجُلِ الأعلاج

وقوله : « يا تربة استبقي » . . . البيت ، من قول المعرّي[4] :

فيا قبرُ واهٍ من ترابك ليِّناً عليه وآهٍ[5] من جنادلك الخُشْنِ
لأطْبِقْتَ إطباقَ المحارةِ فاحتفظْ بلؤلؤةِ المجدِ الحقيقةِ بالحزن

وقوله : « أنّى وسعت وأنت مضجعُ واحد » . . . البيت ، كقول أشجع السلمي[6] :

---

١ وقوله : سقطت من ط م .
٢ لم يرد في ديوانه .
٣ مر قبلا ص : ٢٧٩ مع تخريجه .
٤ شروح السقط : ٩٣٨ – ٩٣٩ .
٥ ط د م : واهاً . . . وآهاً .
٦ أمالي القالي ٢ : ١١٥ والحماسية رقم : ٢٨٠ (شرح المرزوقي) وزهر الآداب : ٧٩٤ والسمط : ٧٤٥ ووفيات الأعيان ٤ : ٨٩ .

فأصبحَ في لحدٍ منَ الأرض ميتاً   وكان به حيّاً[1] تضيقُ الصحاصحُ

وأجمع أئمة الأدباء[2] ، أنه لا فرق بين المدح والرثاء ، إلاّ أن يقال : أوْدَى وعُدِمَ به كيت وكيت وشبهه ، مما يُعْلِمُ أنَّ الممدوحَ ميت ، هذا إذا كان المؤبّن ملكاً أو ذا صيت وقدر ، كقول النابغة في حصن بن حذيفة بن بدر[3] :

يقولون حِصْنٌ ثم تأبى نفوسهم   فكيف بحصنٍ والجبالُ جُنُوحُ

وألفاظ[4] النساء ، أشجى في بابِ الرثاء ، من كثير من الشعراء ، لما ركّبَ في طباعهن من الخور والهلع ، وألفاظ الناسِ مبنية على كثرة التفجع كما قال حبيب[5] :

لولا التفجُّعُ لادَّعَى هَضْبُ[6] الحمى   وَصَفَا المشقَّرِ أنّه محزونُ

ولذلك عرّوا المراثي من ألفاظ النسيب ، وجرت بذلك سُنَّةُ البعيدِ والقريب ، على قديم الزمان ، إلاّ ابن مقبل فإنه قال في رثائه لعثمان بن عفّان رضي الله عنه[7] :

. . ...

١ الأمالي : وكانت له حياً .
٢ متابع للعمدة ٢ : ١٤٧ .
٣ ديوان النابغة : ٢١٣ والعمدة ؛ ط د : حصن بن بدر ؛ م : حصن والفاظه بدر .
٤ قارن بالعمدة ٢ : ١٥٣ .
٥ ديوان أبي تمام ٣ : ٣٢٤ والعمدة .
٦ ط د م : حصب .
٧ ديوان تميم بن أبي بن مقبل : ١١ ومطلع القصيدة :

عفا بطحان من قريش فيثرب   فملقى الرحال من منى فالمحصب

وهذا الذي أورده ابن بسام هو ما جاء به ابن رشيق في العمدة ٢ : ٢٥٢ .

ولم تنسني قتلى قريش ظعائناً تحملن حتى كادتِ الشمسُ تغرب

ودريد في تأبين أخيه، تغزّل أيضاً فيه [1]، والشاذُّ لا يُلْتَفَتُ إليه، ولا يُعَوَّلُ عليه.

ومن أشد [2] الرثاءِ صعوبةً على الشعراء، تأبينُ الأطفال والنساء، ألا ترى أبا الطيب — وهو الذي قال، فأصاختِ الأيامُ والليال، قد عابوا قوله في رثائه أمَّ سيف الدولة:

سلامُ الله خالِقنا حَنُوط على الوجه المكفَّنِ بالجمالِ

وقالوا: ما له ولهذه العجوز يصف جمالها ؟؟ وتعصَّبَ له بعضهم وقال: إنها استعارة. فقيل: إنها استعارةُ حدادٍ في عرس [3]، وكذلك قوله في أخته:

ولا ذكرتُ جميلاً من فعائلها [4] إلا بكيتُ ولا ودٌّ بلا سببِ [٩٥ب]

ولولا الإطالة، وأنها تُفضي إلى الملالة، لزدنا، فلنرجعْ إلى ما وعدنا

---

١ مطلع قصيدة دريد في رثاء أخيه:

أرث حديد الحبل من أم معبد بعاقبة وأخلفت كل موعد

٢ العمدة ٢ : ١٥٤

٣ هو قول الصاحب بن عباد في رسالته : ٢٣٣ .

٤ الديوان . صنائعها .

ومن شعر عبد الجليل في المدح ، وهو فيه فائز القدح

قال من قصيدة في المعتمد بالله ، أوّلها [1] :

بيني وبين الليالي همّة جَلَلُ	لو نالها البدرُ لاستخذى له زُحَلُ
سرابُ كلّ يبَابٍ عندها شَنَبٌ	وَهَوْلُ [2] كلّ ظلامٍ عندها كحل
من أين أبْخَسُ لا في ساعدي قصر	عن المساعي ولا في مقْولي خَطَلُ
ذنبي إلى الدهر إن أبدى تعنُّتَهُ [3]	ذنبُ الحسام إذا ما أحجمَ البطل
يا طالبَ الوفرِ إني قمت أطلبها	علياءَ تَغْنَى بها الأسماعُ والمقل
لا كان للعيش فضل لا يجود به	يكفي المهنّدَ من أسلابه الحلل
لكن بخلتُ بأنفاسٍ مهذّبةٍ	تروي العقول وهنّ الجمرُ والشُّعَل
إذا مدحتُ ففي لحمٍ وسيّدها	عن الأنامِ وعمّا زخرفوا شُغُل
وإن وصفتُ فكاليوم الذي عرفت	بك الفرنجةُ فيه كُنْهَ ما جهلوا
وقد دلفتَ إليهم تحتَ خافقةٍ	قلبُ الضلالةِ منها خائف وجل
فراعهم منكَ وَضَّاحُ الجبينِ وعن	نشر الحسام يكونُ الرعب والوهل
وحين أسمعتَ ما أسمعتَ من كلمٍ	تمثّلتْ لهمُ الأعرابُ والرَّعَلُ [4]
وكلما نفحت ريحُ الهدى خَمَدَتْ	دَماؤهم [5] وسيوفَ الهند تشتعلُ

. . . . . .

[1] بعض أبياتها في القلائد والخريدة والبغية والمسالك والرايات .

[2] الرايات : ودحن .

[3] الرايات : والخريدة فلتكره سجيته .

[4] م ط د : والوهل .

[5] م ط س : دماؤهم .

جيش فوارسه[1] بيض كأنصله وخيله كالقنا عسّالةٌ ذُبُل
يمشي على الأرض منهم كلُّ ذي مرحٍ كأنما التيهُ في أعطافه كسل

ومنها :

أشباهُ ما اعتقلوه من ذوابلهم فالحربُ جاهلةٌ مَنْ منهمُ الأسَلُ
لولا اعتراضُكَ سدّاً بين أعينهمْ لكان يَغْرقُ فيها السهل والجبل
أنسيتها النظرَ الشزْرَ الذي عهدتْ فكلُّ عينٍ بها من دَهْشَةَ قَبَلُ
ترسَّلوا آلَ عبادٍ فربّتما لم يُدرِكِ الوصفُ ما تأتون والمثل
إذا أسرتمْ فما في أسركم قَنَطٌ وإنْ عفوتم فما في عفوكم خَلَلُ
يقبّلُ الغلَّ مرتاحاً أسيركمُ فهو البشيرُ له أن تُسْحَبَ الحلل

قوله : « ذنب الحسام إذا ما أحجم البطل » ، أشار إلى قول حبيب[2] :

وقد يكهمُ السيفُ المسمّى منيّةً وقد يرجعُ المرءُ المظفّرُ خائبا
فآفةُ ذا أن لا يصادفَ مضرباً وآفةُ ذا أن لا يصادفَ ضاربا

وأخذه البحتري فقال[3] :

وعذرتُ سيفي في نبوِّ غِراره إني ضَرَبْتُ فلم أقعْ بالمضربِ

ونعم ما نقله بعضُ أهل عصرنا ، وهو أبو الفضل ابن شرف ، وزاد

١ جيش فوارسه : موضعها بياض في ط س .
٢ ديوان أبي تمام ١ : ١٤٨ .
٣ ديوان البحتري : ٢٨٣ .

فيه حسن النقل وبراعة التشبيه فقال [1] :

تقلدتني الليالي وهي مدبرةٌ كأنني صارمٌ في كفِّ منهزمِ

وقال ابن عبد الصمد السرقسطي [2] : [٩٦أ]

ذلٌّ في ذا الزمانِ نظمي ونثري ذِلَّةَ السيفِ في يمين الجبانِ

وإن كان أبو الطيب سلك سبيلها ، وكان في حسن مذهبه دليلها ، حيث يقول [3] :

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته فسرَّهُمْ وأتيناهُ على الهرمِ

وقال أبو تمام [4] :

نظرتُ في السِّيرِ اللائي مَضَتْ فإذا وجدتها [5] أكلتْ باكورةَ الأممِ

فجمع ابنُ شرفٍ المعنيين ، واتخذ طريقاً معلماً بين الطريقين ، وأجاد المعري في هذا المعنى ما أراد وزاد ، حيث يقول [6] :

تمتّعَ أبكارُ الزمانِ بأيْدِهِ وجئنا بوهنٍ بعدما خرِفَ الدهرُ

. . . .

١ الذخيرة ٣ : ٨١٢ .

٢ الذخيرة ٣ : ٨١٢ .

٣ ديوان المتنبي : ٥١٣ .

٤ ديوان أبي تمام ٣ : ١٩٢ .

٥ الديوان : أيامه .

٦ اللزوميات : ١٠٩ / أ ١٤ . ٢٤٧ .

فليت الفتى كالبدر[1] جُدّد عمره يعودُ هلالاً كلما فنيَ الشهر

وقال[2] :

كأنما الخيرُ ماءٌ كان واردَهُ أهلُ العصورِ وما أبْقَوْا سوى العَكَرِ

وقال ابن شماخ[3] من أهل عصرنا :

صفا للأُلى قبلي أتَوْا دَرُّ دَهْرِهِمْ فلم يصفُ لي مذ جئتُ بعدهم عمرُ
فجاءوا إلى الدنيا وعصرُهُمُ ضحىً وجئتُ وعصري من تأخره عصر

وقال أبو جعفر المحدّث من أهل عصرنا[4] :

لقي الناس قبلنا غُرَّةَ الدهرِ ولم نلقَ منه إلا الذُّنابى

وقال عبد الجليل من قصيدة في ابن عمار :

قتلتُ بني الأيامِ خُبراً فباطني مشيبٌ وما يبدو عليَّ شبابُ
ولما رأيتُ الزورَ في الناس فاشياً تخيَّل لي أن الشبابَ خضاب
وآليتُ لولا مَلْكُ لخمٍ محمد لما كان ملك في الأنامِ لباب
ولولا ابنُ عمّارٍ وفاضلُ سعيه لأصبح رَبْعُ المجدِ وهو خراب
وما كان يؤتى المجد من حيث يبتغى ولا كان يُدْرَى للحوادث باب

---

١ ط م د س : كالفجر .
٢ الزوميات ١٣٧ / أ ؛ ١ : ٣١٥ .
٣ أبو مروان عبد الملك بن شماخ ، وردت ترجمته في القسم الأول : ٨٢٧ .
٤ ترجمة أبي جعفر المحدث في القسم الأول ص : ٩٠٥ وقد ورد البيت هنالك .

ولا أحرقتْ أرضَ العدوِّ صواعقٌ ولا مَطَرَتْ أرضَ العفاةِ سحاب

وما كان هارونٌ أصحَّ وزارةً لموسى . وهل دون السحاب حجاب

بعيدُ الرضى في النصح ما كان راضياً لوآنَّ له السبعَ الشدادَ قباب

نهوضٌ ولو أن الأسنَّةَ مركبٌ ورودٌ ولو أنَّ الحمامَ شرابُ

مضى مثلما يمضي القضاء وهزّه همامٌ يهزُّ الجيشَ وهو هضاب

كما اقترنت بالبدرِ شمسٌ منيرة له عن سناها في الخطوب مناب

فكايَلَهُ صاعَ المودّة وافياً وكلٌّ مُثيبٍ بالوفاءِ مثاب

ومن كأبي بكرٍ لبكرِ مكارمٍ لها من ثنائي حلْيَةٌ وَمَلاب

أنافَتْ به فوق السماكين هِمَّةٌ أنافَ عليها عنصرٌ ونصاب

فلفظَتُهُ يومَ المهابةِ خطبةٌ ولحظتُهُ يومَ اللقاء ضراب [٩٦ب]

له سُنَّةٌ في الجدِّ والهزلِ مثلما تُدارُ كؤوسٌ أو تُدَقُّ حراب

ومنها في وصف كلامه[١] :

رقيقٌ كما غَنَّتْ حمامةُ أيكةٍ وجزلٌ كما شقَّ الهواءَ عقاب

وله من أخرى :

أطَلْتُ في الدهر تصعيدي وتصويبي ودهرُ ذي اللبِّ مضمارُ التجاريبِ

وربَّ أخرقَ لا يُهْدَى إلى فمهِ أصابَ غرَّةَ مأمولٍ ومرغوب

وآفتي أدبٌ بادٍ فضيلَتُهُ من حيثُ يشفعُ لي قد صار يغري بي

كفى من اللحظ أني لا أنافسُ في حظٍ وَمَخْبُرتي تكفي وتجريبي

وقد أرى صوراً في الناسِ ماثلةً أشيمها بين تحقيق وتكذيب

---

١ انظر الذخيرة ، القسم الأول : ١٤ .

لما ملأتُ يدي منهم لأخبرهم نفضتُ كفّي بأشباهِ اليعاسيب
بيضٌ وجوههمُ، سودٌ ضمائرهم فما حصّلْتُ على عُرْبٍ ولا نوب
الصدقُ أولى بمن يُبْدي ضغينتَهُ لا تجعلِ الصدقَ في نعت الأصاحيب

ومن المدح :

في حسن رأي عبيد الله لي عوَضٌ[1] وفضلُهُ بَدَلٌ من كلّ مطلوب
وإن صحبتُ فتأميلي لغرّتِهِ وَذِكْرُهُ خيْرُ مألوفٍ ومصحوب
بذلك الوجه تُجلى كلُّ غاشيةٍ عن ناظرٍ بوجوه اللوم محصوب
عاد المصلّى بوضّاحٍ أسِرّتُهُ تنبيك عن خَلَدٍ بالفهم مشبوب
فاستقبلت قبلةُ الإسلام بدرَ عُلاً يُمْسي له البدر نجماً غير محسوب
وغرةٌ تطلبُ الآمال قبلتها بين المحارب طرّاً والمحاريب
أدنى المؤيد إذ شطّت منازله فضلاً بفضلٍ وتهذيباً بتهذيب
كالطّرفِ والقلبِ فيما بين ذاك وذا مسرى الضمير وتبعيدٌ كتقريب

يتطرف هذا ، وإن لم يكن به ، قولَ ابن الرومي[2] :

كضميرِ الفؤاد يلتهمُ الدُّنْيا وتحويه دفّتا[3] حيزومِ

ومنها :

فبتُّ من وصفه في غايةٍ قَذَفٍ والطبعُ ينجدني والفكرُ يسري بي
كأنني واجدٌ من عَرْفِ سؤدده ريحَ القميص سَرَتْ في نفس يعقوب

---

١ م : عرض ؛ وسقطت « لي » منها ومن ط .
٢ زهر الآداب : ٣٩٢ وتشبيهات ابن أبي عون : ٣٤٧ .
٣ م ط د : دنفا .

وله من أخرى[1] :

يعزُّ على العلياءِ أنيَ خاملٌ وإن أبصرتْ منّي خمودَ شهابِ
وحيثُ يُرَى زَنْدُ النجابةِ وارياً فثمَّ يُرَى زَنْدُ السعادةِ كابي

ألمَّ في هذا بقول أبي الطيب[2] :

وما الجمعُ بين الماءِ والنار في يدي بأصعبَ من أن أجمع الوفْرَ[3] والفهما

بل إلى قول الآخر أشار ، وحواليه دار ، وهو[4] :

إذا جمعت بين امرأين صناعةً فأحببتَ أن تدري الذي هو أحذقُ
فحيثُ يكونُ الجهلُ[5] فالرزقُ واسعٌ وحيثُ يكونُ النبْلُ[6] فالرزق ضيق

وفي هذه القصيدة يقول عبد الجليل : [٩٧أ]

وإني لفي دهرٍ فرائسُ أسْدِهِ سدًى عبثتْ فيه نيوبُ كلاب
أتخفى على الأيامِ غُرُّ مناقبي وقد بذَّ شأوي شأوَ كلّ نقَّابِ
ويركبني رسمُ الخمولِ وقد غدت خصالُ العلا والمجدِ طوعَ ركابي

١ انظر الغيث ٢ : ٧٤ والشريشي ٢ : ١٣٩ .
٢ ديوان المتنبي : ١٦٢ .
٣ الديوان : الجد .
٤ الشعر لأبي إسحاق الصابي ، انظر اليتيمة ٢ : ٢٩٣ ومعجم الأدباء ٢ : ٨٥ – ٨٦ وبهجة المجالس ١ : ١٩٤ .
٥ اليتيمة والمعجم : النقص ؛ بهجة المجالس : النوك .
٦ اليتيمة والمعجم : الفضل ؛ بهجة المجالس : الحذق

سأرقى بهمَّاتي قُصارَى مراتبي | وإن كان أدناها يُطيلُ طلابي
لتعلمَ أطرافُ الأسنَّةِ أنني | كفيلٌ بها عند الصدا بشراب
وتشهدَ أطرافُ اليراعاتِ أنني | بهنَّ مصيبٌ فَصْلَ كلِّ خطاب
وليس نديمي غيرَ أبيضَ صارمٍ | وليس سميري غيرَ شخصِ كتاب[1]
مضمَّخةٌ لا بالخلوقِ أناملي | مزعفرةٌ لا بالعبير حرابي
ولكن بنفحٍ يُخْجِلُ الروضَ زاهراً | ولكن بدعسٍ في كُلىً ورقاب

ومنها[2] :

ومن لم يخضِّبْ رُمْحَهُ في عداته | تساوتْ به في الحيِّ ذاتُ خضاب
ومن لم يُحلِّ السيفَ من بُهَمِ العدا | تحلَّى بخزيٍ في الحياةِ وعاب
إذا ورقُ الفولاذ[3] هُزَّ تساقطتْ | ثمارُ حتوفٍ أو ثمارُ رغاب
ومنْ يتَّخذْ غيرَ الحسامِ مخالباً | فما هو إلاَّ واردٌ بسراب
ومن غرَّهُ من ذا الأنام تبسُّمٌ | فبالعقل قد أضحى أحقَّ مصاب

وله من أخرى أولها :

لولا تبسُّمُ ذاك الظَّلْمِ والبَرَدِ | قبلتُ نُصْحَكَ إلاَّ في هوى الغَيَدِ
بل لا أطيعكِ في غُصُنٍ أهيم به | كأنه نابت في طيِّ معتقدي
وأين بي وبصبري عن جفون رشا | غوامض السحرِ لا ينفثن في العقد
بعدي على اللوم قلبي وهي تؤلمه | كما تضرُّ كَمياً شِكَّةُ الزَّرد

---

١ د : كتابي .
٢ ومنها . سقطت من م .
٣ م د : الفلاذ .

وهذا من قول أبي الطيب[1] :

بنو كعبٍ وما أثّرت فيها[2]   يدٌ لم يُدْمِها إلاّ السّوارُ
لها[3] من قَطْعِهِ ألمٌ ونقصٌ   وفيها من جلالته افتخار

ومن قصيدة عبد الجليل حيث يقول :

قل للرشيد وقد هبّتْ نوافحها   أسرفت يا ديمةَ المعروف فاقتصدِ
أشكو إليكَ الندى من حيث أحمده   لو فاضَ فيضاً عليّ البحرُ لم يزد

قال ابن بسّام : وأخبرني من لا أردُّ خبره أنه دخل على عبد الجليل يوماً وقد تطاول حتى كاد يمسُّ رأسُهُ السماء ، فقال له : قد أتيت [ببيت] فلم أزِدْ[4] ، وما أحسب حُسْنَهُ لأحد ، وأنشد هذا البيت ؛ قال الحاكي ، فقلت له : فأين أنت من قول أبي عبادة[5] :

تنصّب البرقُ مختالاً فقلتُ له   لو جُدْتَ جودَ بني يزداد لم تزدِ

قال : فبدا عبوسه ، وتضاءل حتى كدتُ أدوسه ، وقال : كسرتني والله ؛ لو خطر هذا على بالي ما قلت [٩٧ ب] ذلك .

وفيها يقول :

١ ديوان المتنبي : ٣٩٧ .
٢ الديوان : فيهم .
٣ الديوان : بها .
٤ م س : هل أتيت فلم يزد .
٥ ديوان البحتري : ٦٥٩ .

يا قاتلَ الشكرِ بالإحسانِ يعمره[1] مهلاً أما لقتيلِ الجودِ من قَوَدِ

عجبتُ من كَرَمٍ في راحتيك بدا إشراقُهُ كيف لم يُعْزَ إلى الفند

جادت سحابُكَ إذ جادت على أملي فقال أشياعها جادتْ على بلد

أثريتُ عندَكَ[2] من جاهٍ ومن نشب حتى وجدتُ الغنى في همّتي ويدي

يا واحداً تقتضي آلاؤه جملاً بَرَّحتَ بي وبنظم الشكلِ فاتئد

للناسِ بعدكَ في العَليا منازلُهُمْ والواحدُ الفردُ يحوي مبدأ العدد

يُدْعَى[3] الرشيدَ ولم تعدم به صفة يا مَنْ هو الفصلُ بين الغيِّ والرشد

لك الرشادةُ أخلاقاً وتسميةً مثل البسالة إذ تُعْزَى إلى الأسد

أيُّ الفضائلِ تَسْتَوفيه مكتهلاً وذا شبابُكَ قد أربى على الأمد

بادهْتني بأيادٍ لا يقومُ بها ما في لساني من قصدٍ ومن لدد

عاد الزمانُ بما أوليتني غُصُناً غضاً فقمتُ[4] مقام الطائرِ الغرد

ما عذر طبعيَ أنْ ينبو وما تركتْ به أياديك من أمْتٍ ومن أودِ

وله من أخرى في المعتمد أولها :

قالوا صحا وأدال الغيَّ بالرَّشَدِ من لي بذاك الصِّبا في ذلك الفَنَدِ

لئن صحوتُ فعن كَرْهٍ وقد علموا بأيّ علقٍ من الدنيا فتحتُ يدي[5]

لم يقصد الدهرُ إصلاحي ولي مثلٌ في الغصن تذهبُ عنه صورةُ[6] الغيد

. . .

١ س : يغمره .

٢ ط د : عبدك .

٣ م س : تدعو .

٤ د : فقمت فيه .

٥ وقعت لفظة « ومنها » في ط بعد هذا البيت .

٦ م س : سورة .

ومنها :

طوى الزمانُ لييلاتٍ نعمتُ بها ... رنا بعينِ الرضى منها ولم يكد
وقاتل الله أدوار السنين فكم ... مزجن بالسمّ ما احلولى من الشهدِ
لم يرسمِ الشيبُ في فوديّ خطتَه[1] ... إلاّ ترحّلَتِ اللذاتُ من خلدي
ضيفُ الوقارِ أفدنا منه تكرمةً ... بما تثقف[2] من أمْتٍ ومن أود
وأسمرُ الخطّ لا تبدو فضيلتُه ... بغير أزرق كالنبراسِ ـ متّقد
للدهرِ عندي بناتٌ[3] من تجاربه ... أوْلى وأجدرُ بي من بيضها الخرد
الحرُّ يُرْزأ إلاّ فضل شيمته ... وإن تقلّب بين البؤسِ والنكد
وما الغنى في يدٍ مملوءةٍ عَرضاً ... لكنه في وفورِ العزم والجلد
أو في رجاءِ ابنِ عبادٍ وقد رغبت ... أيدي الملوك عن الإفضال والصَّفَد
استوثق الناس مما في أكفهمُ ... وربما نفثوا بخلاً على العُقَد
ولا يرى العَقْد إلا في أذمّتهِ ... وما حوته يداه غيرُ منعقد[4]
بقيةُ الفضلِ في دنيا قد ارتضعت ... ورحمة الله في سلطانه النكد
مستجمعُ الفكرِ لا ينحوْ معاندُهُ[5] ... على بوائدَ من آرائه بدَدِ [٩٨ أ]
إذا استخفت حلومُ القومِ وقّرها ... يقظانُ يَسْعى إليهم سَعيَ متّئد
يكفي المؤيدَ في الأعداء أنَّ له ... عيناً من الله لا تَغْفَى[6] من الرصد

---

١ م : قطعته .

٢ ط د : فما تثقف .

٣ ط د : نبات .

٤ سقط هذا البيت واثنان بعده من م .

٥ ط س : ينجبو .

٦ م : لا تخفى .

تلقى به صِلٌ أصلالٍ وآيتُهُ   أنْ تستبين عليه قشرةُ الزرد
وما تمرُّ بأدهى من ليوثٍ وغىً   يتبعن منه أباناً وافر اللبد
يجرٌّ من شجر الخطيّ غابته   وذاك ما لم تَسَعْهُ عزمةُ الأسد

ومنها :

جاريتمُ الدهرَ في مضمار حَلْبتها   جرياً سواءً إلى أقصى من الأمد
لكن تحيتها قدماً وقد شهدت   « يا دار ميَّةَ بالعلياء فالسند »[1]
لحمُ ابن يعربَ أولى أن يضاف إلى   سناء معتضد فيكم ومعتمد
أنت الجميع وأنت الفرد قد علموا   سريرة لم تكن في واحد العدد

ومنها :

يا أشبه الناسِ آداباً بما لك من   جمالِ وجهٍ تحدثني وفضل يد
من أين لي قَدَمٌ في الفضلِ سابقةٌ   لو أنَّ طبعيَ في واديك لم يرد[2]
هذا الأتيُّ لذاك المزنِ منتسبٌ   عاري الأديمِ من الأقذاء والزبد
أرسلتها في سماءِ المجد طائرةً   عن غير جهدٍ وفيها متعةُ الأبد
تُضْحي النهى أبداً من حيث تسكرها   وتسمع[3] اللحظَ صوتَ البلبل الغرد
لو أن لقمان يُعْطَى عمرها بكَ لم   يَخْنِ عليها الذي أخنى على لبد
طبعتها ولك التبرُ الذي طُبِعَتْ   منه فأسْلَمتها في كفٍّ منتقد

وله وقد توقف مرتّبه عند العامل :

. ...

١ لم يرد هذا البيت في م س .
٢ ط د : يزد .
٣ م س : وتشيع .

ألستمُ معشرَ الأملاكِ طائفةٌ تقضي بتخليدها هذي الأناشيدُ
فان نقصتمْ أناساً من نوالكمُ فحقٌ منكمْ لأهلِ الشعر تزييد
لكمْ خلِقْنا ولم نُخلقْ لأنفسنا فإنّما نحن تحميدٌ وتمْجيد
يا صاحبَ المجدِ إن المجدَ سائمةٌ تضلُ إن لم يكنْ[1] بالشعر تقييد
خُذْني بما شئتَ من غرّاءَ شاردةٍ يصغي الأصمُ إليها وهو مفؤود
واعذرْ بتقصيره مَنْ لا يزالُ له في ساقةِ الرزقِ إرقالٌ وتوخيد
لا يُدْرِكُ القوتَ مما أنت واهبُهُ حتى يطولَ من العمّالِ تنكيد
وليس للشّعرِ إلاّ خاطرٌ يقظٌ يهزُّهُ منكَ ترفيهٌ وتأييد
وما المدائحُ إلاّ بالملوك وهل يبدي سنا العقدِ إلاّ النحر والجيد

وهذا كقول أبي الطيب[2] :

• وفي عنقِ الحسناءِ يُسْتَحْسَنُ العقدُ •

وله من أخرى إذ جاز المعتمدُ البحرَ إلى أمير المسلمين وناصر الدين ، أولها[3] :

عزمٌ تجرَّدَ[4] فيه النصرُ والظفَرُ وفكرةٌ خمدتْ من تحتها الفكرُ

وقال فيها[5] :

---

١ م : يحق .
٢ ديوانه : ١٩٤ ، وصدر البيت : وأصبح شعري منهما في مكانه .
٣ منها سبعة أبيات في المطرب : ١١٩ ، وبيت في الخريدة ٢ : ٩٥ وسبعة في الخريدة ٢ : ١٠١ وثلاثة عشر بيتاً في المسالك ١١ : ٢٢١ .
٤ م : تجدد .
٥ وقال فيها : لم يرد في م .

ركبتَ في الله حتى البحرَ حين[1] طما   آذيُّهُ وبسوطِ الريح ينحصر[2] [٩٨ب]

طِرْفٌ يَزِلُّ عليه سرجُ فارسه   وليس مما تضمُّ الحزْمُ والعُذَرُ

كأنَّ راكبه في متنِ ذي لبدٍ   غضبانَ تقدحُ من أنفاسِه الشرر

حملتَ نفسك فيه فوقَ داهيةٍ   دهياءَ لا ملجأٌ منها ولا وزر

عُذِرَتْ لو أنه ميدانُ معركةٍ   يسمو له رَهَجٌ في الجوِّ منتشر

في حيثُ للكرِّ والإقدامِ مضطربٌ   وحيث تملكُ ما تأتي وما تذر

عساك خلتَ حبابَ الماءِ من زَرَدٍ   تعوَّدَ الخوضَ فيه طِرْفُكَ الأثِرُ

أو قلتَ في الموج خرصان معرضة[3]   تحارب الجيشَ أو مصقولةٌ بُتُرُ

هي البسالةُ إلاَّ أنها سَرَفٌ   تنفي الحذارَ ، وممّا يُؤثَرُ الحذر

لا تحملِ الدينَ والدنيا على خَطَرٍ   وليس يُحْمَدُ في أمثالك الغرر

إن كان ثَوبُكَ مختصاً بلابسهِ   فقد تعلَّقَ من أذيالِه البشر

هلاَّ رحمتَ نفوساً حام حائمها   عليكَ واستولتِ الأشواقُ والذكر

وعاد أجْبَنَها من كان أشْجعَها   شحاً عليكَ وأحيا ليله السهر

إنا لفي حمصَ نستقري محاضرها[4]   وللقلوبِ بذاك اللجّ مُحْتَضَر

لا نحسنُ الظنَّ إشفاقاً وقد ضمنتْ   لنا مساعيك أن يعنو لك القدر

كأنَّما النهرُ[5] لما سرتَ سار إلى   ذاك المجازِ فأجرى فُلْكَكَ النهَر

كأنما قمتَ بالجدوى تساجِلُهُ   فناله دَهَشٌ أو نابه[6] حصَر

---

١ م : حيث .

٢ لعلها : ينحسر .

٣ ط د : المدح . . . معوضة ؛ م : قرصان .

٤ ط : محاظرنا .

٥ ط : الدهر .

٦ ط د : وارتابه (اقرأ : وانتابه) .

أحاط جودُكَ بالدنيا فليس له إلا المحيطَ مثالٌ حين يُعتَبر
وما حسبت بأن الكُلَّ يحملُهُ بعضٌ ، ولا كاملاً يحويه مختصر
لم تثنِ عنكَ يداً أرجاءُ ضفتيهِ إلاّ وَمَدَّتْ يداً[1] أرجاؤهُ الأخر
تواصِلُ اللحظَ حسرى من هنا وهنا وليس غيرَ الدعاءِ الجِصُّ والحجر
فصرتَ فوق دفاعِ الله تهصُرُهُ براحةِ البرّ والتقوى فينهصر[2]
كأنما كان عيناً[3] أنت ناظرها وكلُّ شطٍ بأشخاصِ الورى شفُر

وهذا قول أبي الحسن السلامي . وقد دخل مع بعض إخوانه دجلة ، فقال[4] :

وميدانٍ تجولُ به خيولٌ تقودُ الدارعين وما تقادُ
ركبتُ به إلى اللذاتِ طِرْفاً له جسمٌ وليس له فؤاد
جرى فظننتُ أنّ الأرضَ وجهٌ ودجلة ناظرٌ وهو السَّواد

وعبد الجليل أيضاً الذي[5] يقول في صفة الأسطول[6] :

يا حُسْنَهُ يوماً شهدتُ زفافها بنتَ الفضاء إلى الخليج الأزرقِ
ورقاءُ كانتْ أيكة فتصوَّرتْ لك كيف شئتَ من الحمام الأورق

١ م : وحدت بها ؛ س : وهدت بها ؛ ط د والمسالك : ومدت به ، والتصويب عن المطرب والخريدة .
٢ هذا البيت والذي يليه في الغيث ٢ : ١٦٠ ، والأخير في مختارات ابن الصيرفي : ١٢٤ .
٣ المطرب والخريدة والصيرفي: كأنما السحر عين .
٤ اليتيمة ٢ : ٦٠ قال : وركب في صباه سمارية ، ولم يكن رأى دجلة قبل ذلك ؛ وابن خلكان ٤ : ٤٠٤ .
٥ الذي : زيادة من م س .
٦ نفح الطيب ٤ : ٥٩ — ٦٠ والمسالك ١١ : ٢٢ .

حيثُ الغرابُ يجرُّ شملةَ عُجْبِهِ وكأنَّه من عزَّةٍ لم يَنْعق[1] [١٩٩ أ]
من كلِّ لابسةِ الشباب ملاءةً حَسْبَ اقتدارِ الصَّانع المتأنِّق
شهدتْ لهنَّ العينُ[2] أنَّ شواهناً أسماؤها فتصحفت[3] في المنطق
من كلِّ ناشرةٍ قوادمَ أفتخٍ وعلى معاطفها فراهةُ شَوْذَق[4]
زأرت زئيرَ الأسْدِ وهي صوامتٌ وزحفن زَحْفَ مراكبٍ في مأزق[5]
ومجادفٍ تحكي أراقمَ ربوةٍ نزلت لتكرعَ في غديرٍ مُتْأقِ
والماءُ في شكلِ الهواءِ فلا ترى في شكلها إلا جوارحَ تلتقي

ومن البديع في وصف الأسطول قول محمد بن هانىء الأندلسي من جملة قصيدٍ ، قال فيه[6] :

قبابٌ كما تُرْخَى القبابُ على المها ولكنَّ من ضُمِّنَتْ عليه أسودُ
أنافتْ بها آطامُها[7] وسما بها بناءٌ على غير العراءِ مشيد
منَ الطير إلاَّ أنهنَّ جوارحٌ وليس لها إلاَّ النفوسَ مصيد
إذا زفرتْ غيظاً ترامتْ بمارجٍ كما شبَّ من نارِ الجحيم وقود

....

١ ط د : يمنق .
٢ النفح : لها الأعيان .
٣ ط د : فتفصحت .
٤ الشوذق والسوذق – بالشين والسين – الشاهين ، و«فراهة» في النسخ قد وردت « وهابدة »، وتصحيحها على التقدير ، لا أنها قراءة دقيقة .
٥ لم يرد البيت في م س .
٦ م س : قصيدة قال فيها ؛ وانظر ديوان ابن هانىء . ٥٢ وزهر الآداب : ١٠٠١ .
٧ الديوان : أعلامها ، وما هنا موافق لزهر الآداب .

وقال عليّ بن محمد الإياديّ يصف أسطولَ القائم من كلمة يقول فيها[1]:

يتنزّلُ الملاّحُ منه ذؤابةً ... لو رام يركبُها القطا لم يركبِ
وكأنّما رام استراقةَ مقْعَدٍ ... للسَّمْعِ إلاّ أنّه لم يُشْهَبِ
وكأنّما جنُّ ابنِ داودٍ همُ ... ركبوا جوانبها بأعنفِ مركب
من كلّ مَسْجورِ[2] الحريقِ إذا انبرى ... من سجنه انصلتَ انصلاتَ الكوكب
عريان يقدمُهُ الدُّخانُ كأنَّه ... صُبْحٌ يكرُّ على ظلامٍ غيهب[3]
ولواحقٍ مثلِ الأهلَّةِ جُنَّحٍ ... لُحُقِ المطالبِ فائتاتِ المهرب
يذهبْنَ فيما بينَهُنَّ لطافةً ... ويجئن فِعْلَ الطائرِ المتقلّب
كنضانضِ الحيّاتِ رُحْنَ لواغباً[4] ... حتى نقعْنَ ببردِ ماءِ المشرب[5]
شرعوا جوانبها[6] مجادفَ أتعبت ... شأوَ الرياحِ لها ولمّا تتعب
تنضاعُ من كَثَبٍ كما نفرَ القطا ... طَوْراً وتجتمعُ اجتماعَ الربرب
والبحرُ يجمعُ بينها فكأنه ... ليلٌ يقرّبُ عقرباً من عقرب

رجع:

---

١ من هذه القصيدة ثمانية وعشرون بيتاً في زهر الآداب: ١٠٠٣ ورفع الحجب ١ : ١٤١ ، وثمانية عشر بيتاً في النفح ٤ : ٥٧ - ٥٨ وبعضها في المقتضب من تحفة القادم : ١٢٢ ومنها بيتان في الحلة ١ : ٢٨٥ .

٢ النفح : مسجون ؛ م س : مزجور .

٣ زهر : الظلام الغيهب .

٤ زهر : لواعباً .

٥ زهر : ببرك ماء الميزب .

٦ ط : نوائبها .

وقال عبد الجليل من قصيدة أولها [1] :

محلٌّ ألبسَ الدنيا جمالاً ... وإنْ فَضَحَ المقاصرَ والحلالا
بناه كما بنى العلياء بانٍ ... يَشيدُ مآثراً ويُبيدُ مالا

ومنها في وصف القصر :

وللزاهي الكمالُ سناً وحسناً ... كما وسِعَ الجلالةَ والكمالا
يحاطُ بشكلِهِ عرضاً وطولاً ... ولكنْ لا يُحاطُ [2] به جمالا
تواصلتِ المحاسنُ فيه شتّى ... فوفدُ اللحظِ ينتقلُ انتقالا [٩٩ ب]
وقورٌ مثلُ ركنِ الطَّوْد ثَبْتٌ ... ومختالٌ من الحُسْنِ [3] اختيالا
تدافَعَ منْ جَوانِبِهِ ائتلافاً ... فكاد المستبينُ يقولُ مالا
فلوْ أدْنَوْا حرامَ السِّحْرِ منه ... لأضحى يعبدُ السحْرَ الحلالا
سماءٌ ترتمي بعُبابِ بحرٍ [4] ... كأنَّ بها إكاماً أو تلالا
فقد كاد اللبيبُ يُهالُ [5] منه ... ويحسبُ أنَّ بحرَ الجوِّ سالا
فما أبقى شهاباً لم يصوِّبْ ... ولا شمساً تنيرُ ولا هلالا
وللبهو البهيِّ سماءُ نورٍ ... تمثَّلَ شكلها حَلَقاً دِخالا [6]
مزخرفةٌ كأنَّ الوشي ألقى ... عليها من طرائِقِهِ خيالا

---

١ منها أبيات في المسالك ١١ : ٢٢٢ – ٢٢٣ والنفح ٤ : ٢٦٣ وانظر ما مر منها في القسم الثالث ٧٦٦ – ٧٦٧ .

٢ م يحيط .

٣ المسالك : من الأنس .

٤ م س والمسالك : تبر .

٥ س م : يهاب .

٦ م س : خلقاً دبالا ؛ المسالك : خلقاً وحالا .

وما خلتُ الهواءَ يكونُ روضاً ولا سقفاً يكونُ كذاك آلا
بلى حققتُ أنّ النارَ كانَتْ له ظئراً وعنصرهُ زلالا
فلم أعْدِلْ بجامده مذاباً ولم أنكرْ لِنَدْوَتِه[1] اشتعالا
وكلّ مصوّرٍ حيّ جماد تبيّنَ فيه زهواً أو دلالا
له عملٌ وليس له حراكٌ وافهامٌ وما[2] أدّى مقالا

ومنها :

ويُفرِغُ فيه مثلَ النصلِ بدعٌ من الأفيالِ لا يشكو ملالا[3]
رعى رَطبَ اللجين فجاء صلداً وقاحاً قلّما يخشى هزالا
كأنّ به على الحيوانِ عَتْباً فلم يرفعْ لرؤيتها[4] قذالا
وأوصى بالرياحينِ اغتراساً همامٌ طالما اغترس الرجالا
وكان الغرسُ والاثمارُ وقفاً لمن جعل النّدى والوعدَ حالا
وقامتْ يومَ قمنا منشداتٍ فغضّتْ من رويتنا[5] ارتجالا

ومنها :

براعةُ مصنعٍ جُليَتْ فاضحت براعةُ منطقي منها مثالا
فكم طلب العويصَ فما تأبّى وكم قلبَ العيانَ فما استحالا
ولكنّ المؤيّد عزّ وصفاً وأعيتني حقيقتهُ منالا

... .

١ م : لذوبته ؛ س : لدويته .
٢ ط د : فما .
٣ انظر ما تقدم ص : ٤٧٢ .
٤ المسالك : فلم ترفع لرؤيته .
٥ ط د س : رويتها .

إذا استوضحتَهُ أبصرتَ دهراً | لو آنَّ الدهر لم يُنْسَخْ فَعالا[1]
أقامَ لها معاليها[2] شموساً | ومدَّ لنا مساعيَهُ ظلالا
وآراءً يُنَتِّجها رزاناً | فيرسلهنَّ أقداراً عجالا
وفيه أناةُ مقتدرٍ حليمٍ | تكاد تغر بالأُسْدِ[3] النمالا
ويبطشُ بطشةً تُنْبي الأعادي | أكفّهُمُ وما حملوا اعتقالا
من البيض الذين إذا تولّوا | صنيعاً لم تجدْ فيهم شمالا
وبينا نجتلي منهم بدوراً | إذا بهمُ قد اعترضوا جبالا
تألّقَ وجهُهُ وزكتْ نُهاهُ[4] | فقلتُ مثالُهُ محقَ الضلالا [١٠٠ أ]
وما يومُ العَروبةِ يومُ سرّ | لقد نطق الزمانُ به[6] فقالا
عجزنا أن نحقّقَ منه وصفاً | وما عجز الرشيدُ له امتثالا
يعارضُهُ بكلّ سبيلِ مجدٍ | فتحسبه ينافسُهُ خلالا
ولمّا لم يُطقْ يَثْني صباه | أحالَ على شمائله اكتهالا
وكاد يكونُهُ حتى تراه | يجاذبُهُ ولا يقوى انفصالا
وأبْهجَنَا طلوعهما بدستٍ | طلوعَ الأصلِ والفرعِ اتصالا
فلم أرَ قبله بدراً كساه | جوارُ الشمسِ تمّاً واكتمالا[7]

.....

١ المسالك : مقالا .
٢ م س : لنا معاليه .
٣ م : تغرب الأسد .
٤ م س : وذكت بهاه .
٥ د : عز ، ط : عن ؛ م . عق ؛ والتصويب عن المسالك .
٦ م س : بها .
٧ م س : واكتهالا .

وفيها يقول :

أتتك على خلائقها جيادي[1] وإن كان الضياعُ لها شكالا[2]

وما يبليك ذهنٌ أحوذيٌّ إذا أصحبته جَدّاً تفالى[3]

تزاحمتِ الهمومُ خلالَ صدري فما تركتْ لأنفاسي مجالا

وما خلتُ النسيمَ يكون ثِقْلاً ولا نفَحاتِهِ تأتي وبالا

كأنّي كلما استنشقتُ منه أردُّ به إلى كبدي نصالا[4]

وكيف يصحُّ ذو قلبٍ أبيٍّ إذا كان الإباءُ له نكالا

مضى ماءُ الشبيبةِ في الأماني ومن ولّى فما يرجو اقتبالا

وكنتم خيْرَ مَنْ يُرْجى فما لي وجدتُ يقينَ آمالي محالا

ولم أحملْ ودادكمُ ادّعاءً ولا أظهرتُ مدحكمُ انتحالا

احتذى عبد الجليل فيما وصف به الرشيد من تقيّله[5] لمذهب[6] أبيه قولَ الخنساء[7] ، وقد قيل لها مدحتِ أخاكِ حتى هجوتِ[8] أباكِ ، فقالت :

---

١ م س : خلائقها جياد .

٢ مر البيت في الذخيرة ١ : ٨٢ .

٣ م : حداً نفالا ؛ س : حداً ثقالا .

٤ المسالك : أردد منه للكبد النصالا .

٥ س م د : تقبله .

٦ س م : لمذاهب .

٧ أبيات الخنساء في زهر الآداب : ٩٢٥ وأمالي المرتضى ١ : ٩٨ وحماسة ابن الشجري ١٠٤ والأول في الخزانة ٣ : ٢٧٧ وأنيس الجلساء ٤٣ .

٨ أمالي المرتضى : هجنت .

جارى أباه فأقبلا وهما يتعاورانِ مُلاءَةَ الحُضْرِ
حتّى إذا جدَّ الجراءُ وقد ساوى[1] هناك العذرَ بالعذرِ
وعلا هتافُ الناس أيهما قال المجيبُ هناك لا أدري
برقتْ[2] صحيفةُ وجهِ والدِهِ ومضى على غُلوائه يجري
أولى فأولى أنْ يساوِيَهُ لولا جلالُ السنِّ والكبرِ
وهما كأنّهما وقد برزا صقرانِ قد حطّا إلى وكرِ

وقيل لأبي عبيدة[3] : ليس هذا في مجموع شعر الخنساء . فقال : العامةُ أسقطُ من أن يجادَ عليها بمثل هذا .

وقد أحسن البحتري حيث يقول[4] :

جدٌّ كجدِّ أبي سعيد إنّه تركَ السماك كأنّه لم يشرفِ
قاسَمْتَهُ أخلاقَهُ وهي الردى للمعتدي ، وهي الندى للمعتفي
فإذا جرى في غايةٍ وجريتَ في أخرى التقى شأواكما في المنصف

وقول الخنساء : « يتعاوران ملاءة الحضر » أبدع استعارة ، وأنصع عبارة . وقال عديّ بن الرقاع[5] : [١٠٠ ب] .

١ ط د . سارت ، م س . صارت ؛ أمالي المرتضى . لزت هناك .
٢ أمالي المرتضى : بررت .
٣ س م . لأبي عبيد الله .
٤ متابع لزهر الآداب . ٩٢٦ وانظر ديوان البحتري . ١٤٢١ وأنيس الجلساء : ٤٣ .
٥ زهر الآداب : ٩٢٦ والمختار : ٢٦٣ والطرائف الأدبية : ٩٦ وديوان أبي تمام ٢ : ٣٣٧ .

يتعاوران من الغبارِ ملاءةً غبراء محكمةً هما نسجاها
تُطْوى إذا وردا مكاناً جاسياً وإذا السنابكُ أسهلتْ نشراها

وإلى هذا أشار حبيب بقوله[1] :

يثيرُ عجاجةً في كلِّ ثغرٍ يهيمُ بها عديُّ بن الرقاعِ

وأول من نظر إلى هذا المعنى شاعر من بني عقيل فقال من جملة أبيات[2] :

قفارٌ مَرَوْرَاتٌ يحارُ بها القطا ويمشي بها الجأبان يقترِيانِ[3]
يثيران من نسجِ الغبار عليهما قميصين أسمالاً ويرتديان

وقول عبد الجليل : « يثير مآثراً ويبيد مالا » ، سمّاه بعضُ أهلِ النقد معاقدة ، وهو أن يشترط الشاعرُ شروطاً في معان يريد التوفيق بينها ، فيعقد لكلِّ صنف منها ما يشاكله ويماثله . ومن عجيب ذلك قول جنوب أخت عمرو ذي الكلب[4] :

فأقسمتُ يا عمرو لو نبّهاكَ إذاً نبّها منكَ داءً عُضالا

....

١ زهر الآداب : ٩٢٦ وديوان أبي تمام ٢ : ٣٣٧ .
٢ زهر الآداب : ٩٢٦ – ٩٢٧ وأنيس الجلساء : ٤٣ .
٣ زهر الآداب : يقتريان .
٤ ديوان الهذليين ٢ : ٥٨٣ وحماسة ابن الشجري : ٨٣ والحماسة البصرية ١ : ٢٢٥ وزهر الآداب : ٧٩٥ والخزانة ٤ : ٣٥٣ وبلاغات النساء : ١٧٣ وحماسة البحتري : ٢٧٣ وأمالي المرتضى ٢ : ٢٤٣ وكتاب الصناعتين : ١٤٢ ؛ وقد أورد ابن رشيق هذا الشعر في العمدة ٢ : ٣١ (تحقيق محيي الدين عبد الحميد) في باب التسهيم أو ما يسميه قدامة « التوشيح » ويسميه ابن وكيع « المطمع » ولم أعثر على من سماه « معاقدة » .

إذاً نبّها ليثَ عِرِّيسةٍ مُفيتاً مفيداً [1] نفوساً ومالا

فعاقدت بين مفيت ومفيد [2] .

وقال المجنون [3] :

وأدنيتني حتّى إذا ما سبيتني بقولٍ يُحِلُّ العُصْمَ سَهْلَ الأباطحِ
تجافيتِ عني حينَ لا ليَ حيلةٌ وخلّيْتِ ما خلّيْتِ بين الجوانح

فعاقد بين قوله : « أدنيتني » و « تجافيت عني » حيث تشابها رسماً وشكلاً ، وعاقد أيضاً بقوله : « وخليت ما خليت » وبقوله : « يحل العصم سهل الاباطح » .

وإلى هذا أشار العباس بن الأحنف بقوله [4] :

أشكو الذين أذاقوني مودّتهم حتّى إذا أيقظوني في الهوى رقدوا

ومن مليح هذا لبعض أهل أفقنا قول يحيى بن هذيل القرطبي [5] :

لما وضعتُ على قلبي يدي بيدي وصحتُ في الليلةِ الظلماء واكبدي
ضجّتْ كواكبُ ليلي في مطالعها وذابتِ الصخرةُ الصمّاء من جلدي

. .

١ م : عرينة . . . مبيداً .
٢ م : ومبيد .
٣ ديوان المجنون : ٩٤ والزهرة : ٤٧ والعقد ٥ : ٣٧٨ .
٤ ديوان العباس : ٨٤ والعقد ٥ : ٣٧٨ .
٥ الذخيرة ٣ : ٣٤٧ .

فعاقد بين قوله : « يدي بيدي » و « ذابت الصخرة الصماء من جلدي » ؛ وذكر أن المتنبي أنشد من شعر أهل الأندلس ، حتى أنشد هذين البيتين ، فقال : هذا أشعر القوم .

ولما سمع المعتمد بن عباد قصيدةَ عبد الجليل هذه ووعاها ، سرتْ في نفسه حميّاها ، وكانت سبباً لصلةِ من كان ببابه من الشعراء ، غير أنّه وفى لعبد الجليل في الحباء .

وكنت يوماً بدار أبي بكر الخولاني المنجم ، فاتفق أنْ دخل علينا عبد الجليل وفي كمّه صلة المعتمد من ضرب السكة لديه ، قيمتها ثلاثة آلاف درهم ، فرفع إليه إثر ذلك قصيدته التي أوّلها[1] :

ما الشعر مرتجلاً أو غير مرتجل	ببالغ كنه ذاك السؤدد الجلل
بأي لفظ أحلّي[2] منك ذا شيم	لولا حلاها لكان الدهر ذا عَطَلِ
لا حُلّةُ الشمسِ مما قد أحاوِلُهُ	ولا نظام النجوم الزهر من عملي
وسائلينِ أجَدّا في مباحثي	خذا حديثي عن الأملاكِ والدول[١٠١أ]
جيشُ المؤيّد يقضي من خلائقه	أنّ الملوكَ له ضَرْبٌ من الخول
فالفرقُ[3] بينهما في كلّ مَعْلُوَةٍ	كالفرقِ يوجَدُ بين النقص والكمل
سَلِ المكارم[4] عنه كيف تَعْلَمُهُ	أو لا فَسَلْ شَفراتِ البيض والأسل

. . . . . .

١ انظر المسالك ١١ : ٢٢٤ — ٢٢٥ .
٢ ط : أحيي .
٣ م س : والفرق .
٤ ط د : المكاره .

أحدّ من ذهنه في كلّ معضلة   إذا تعثّر في العسالة · الذبل
واري البصيرة لا تزري الأناةُ به   ولا تعودُ عليه آفةُ العجل
لذلك الحلم في الاعداء قد علموا   فتكٌ يَسُدُّ طريقَ الأمن بالوجل
صاحي النهى عربدتْ فيهم مكايده   فطار عنهم خُمارُ السُّكْرِ والثمل
يجيزنا[1] كلما حكنا مدائحه   والصبحُ عُرْيانُ مستغنٍ عن الحلل
لله آذارُ من شهرٍ سموتَ به   حتى لقيتَ عليه الشمسَ في الحمل
ما بين نورِ جبينٍ منك[2] مؤتلقٍ   وبين فضلِ طباع منه معتدل
ونائلٍ أسديّ النوءِ طوع يدي   يسطوعلى القِرْنِ أو يسطوعلى البخل
فديتُ موسومةً[3] باليُمْنِ مدّ بها   فكان تقبيلها أسنى النهى قِبَلي
لثمتها فرشفتُ العزَّ ممتزجاً   فيه الغنى وأخذتُ الريَّ في النهل[4]

وقال عبد الجليل أيضاً من قصيدة في المعتمد ، أولها[5] :

أربع [الندى] تهمي [به][6] وتصوب   ومغنى العلا نأوي له ونثوبُ
بحيثُ استقلّ المجد فوقَ سريرهِ   وقام لسانُ المجدِ وهو خطيب
سقاكَ غمامٌ مثلُ وديّ ضاحكٌ   كأنّ سماءَ[7] الصَّحْوِ منه تذوب

١ ط م : يحيرنا ؛ د : فخيرنا ؛ المسالك . يجيرنا .
٢ ط م د س : منه .
٣ ط م د س : مرسومة .
٤ إلى هنا تنتهي الترجمة في ط د ، وما تبقى منفرد به م س ، ولهذا سيجد القارىء أن النص قد يجيء قلقاً في بعض المواضع
٥ منها أبيات في المسالك · ٢٢٤ .
٦ ما بين معقفين زيادة من المسالك .
٧ هذه هي قراءة س والمسالك ؛ وفي م : سمى .

ولا فاءَ ظلُّ العيشِ وهو مقلّصٌ عليكَ ولا صافيه[1] وهو مَشوب
ولا آل مزوراً عليك غُدَيّةً[2] زمانٌ يُمَسّي الصفحتين طروب
ولا انفكّ للخطيّ حولك هزّةٌ وللأعوجيّاتِ الجيادِ دبيب
لقد رُقْتَ حتى قيل إنّك رحمةٌ[3] وإنّ أكفَّ الضارعينَ قلوب
كأنّك بيتٌ نادرٌ وأكفّهم خواطر أورى زندهنّ حبيب[4]
طلعتَ كريعان الشبيبة روقة فكذّبتَ في دعوى البياض مشيب

ومنها يخاطب الربع :

أراق على عطفيه منه طلاوةً مدى الدهرِ ملتاحُ الجبينِ مهيبُ
إذا رسبتْ يوماً حُلاهُ فإنّما سِماكُ العلا في منتداك رسوب

ومنها :

فيا أيها القصر المبارك لا تزلْ وأنت جديدُ الحلّتين قشيب
ويا أيها الملكُ المؤيد دُمْ به ليُتْرَعَ كوبٌ أو يثارَ عكوبُ[5]
أسِمْ فيه سَرْحَ اللحظ من طَرْفِ باسل مَراد الوغى في ناظريه عشيب
ستظأره أمُّ النجومِ تَحلّهُ[6] لها كوكبٌ لا حان منه غروب

١ س : شافيه .
٢ صورة اللفظة في م : مويه ؛ وسقطت من س .
٣ س : حكمة .
٤ يريد بحبيب الشاعر أبا تمام .
٥ العكوب : الغبار .
٦ س . تخاله .

محيطٌ بما أحببتَ من كلِّ صورةٍ تروقُكَ حتى شَكْلُهُنَّ قريب[1]
ومن حُبُكٍ دون السُّموك كأنّها أفاريدُ رَوْضِ الحَزْنِ وهو هضيب
إلى طُرَرٍ تحكي أصائلَ ملكه[2] تكادُ بأنداء النضار تصوب
ومن مرمرٍ أحْذاهُ رونقَهُ المها فأخطأ فيه اللحظُ وهو مصيب
وبحرٍ عليه للرياحين فيئة كيمناك مخضرُّ البرودِ لحوب
لئن كان مكظوماً كغيظك إنّه كعرضك مصقولُ الأديمِ خشيب[3]
أرى حَوَرَ الأحداقِ أو رونق الطلى طلاه ففيه للعقول خلوب
أجلْ إنما يجتابُ منك بشاشةً لها جيئة من فوقه وذهوب
وإلاَّ فمن آدابِكَ الزُّهرِ يجتلي فرنداً له درٌّ عليه رطيب
كما ضاعَ من أهدابِ ثَوْبك نَشْرُهُ وكلُّ صعيد مسٍّ وطؤكَ طيب
وكلُّ هواءٍ تحت ظلِّكَ سَجْسَجٌ وكلُّ مكان في ذراك خصيب
إليك أشارت أعين وأناملٌ وفيك أُجيلتْ ألسنٌ وقلوب
كأنّك من طبع الحياةِ[4] مركّبٌ فأنت إلى كلِّ النفوسِ حبيب
مليك كما تهواه أمّا دِلاصُهُ فغاوٍ ، وأمّا بُرْدُهُ فمنيب
موفّرُ أعطافِ السيادةِ لم يزلْ بأفئدة الأعداءِ منه وجيب
إذا ضاق في الهيجا مَجَرٌّ سنانِهِ فان مناطَ السَّيفِ منه رحيب

ومنها :

---

١ المسالك : مريب .
٢ المسالك : سلكه .
٣ خشيب : صقيل كالسيف .
٤ المسالك : من كل القلوب .

لهم حاركٌ للملك ثُمَّ حنيفُهُ[1] سما كاهلٌ منه وسالَ سبيبُ
وكانوا عليه في الزمان فوارساً عَلَتْهُ وشبّانٌ تروق وشيب
وسُنّةُ مجدٍ من نعيمٍ وشدة على الدهر منها محكةٌ وقطوب
ليخضب[2] منها اليومُ والأفقُ أشيبٌ وينصلَ ثوبُ الليلِ وهو خضيب[3]

ومنها في صفة بنية :

ثغورٌ على المجدِ التليدِ ضواحكٌ وأيدٍ إلى المجد التليد تصوبُ
ترقرق عنه الملك واهتزَّ عِطْفُهُ كما اهتزَّ مخشوبُ الغرارِ قضيب
مشابه لا تخطي علاكَ سهامُهَ فتهوي إلى أغراضِها فتصيب
تملأ أثناءَ النداء مهَابَةٌ وتبسم عَنْها الحربُ وهو قَطُوب
ويهنيك عيدٌ للصيام ذَخَرْتَهُ كفيلٌ بأنَّ اللهَ عنه مثيب
وعيدٌ عليه منك رَسْمُ طلاقة كأوْبِ حبيبٍ طال منه مغيب
خلعتَ عليه من بهائك حُلَّةً كما عُصْفِرَتْ فوق العروس جيوب
ونمّتْ عليه من مديحك فَوْحَةٌ كما مَسَحتْ فوق الرياضِ جَنوب

---

١ يعني أصلح مائله ؛ وهذه قراءة محتملة لهذا الشطر لا نقطع بصحتها .
٢ فليخطب ؛ س : فليخضب .
٣ م : مصيب .

الوزير الأديب أبو القاسم بن مرزقان [1]

هو أكثر القوم قولاً وإصابة ، فانّه يوفّقُ في إصابة الأغراض ، وكلامه سهلٌ قريب. فمما أخرجتُ من شعره في أصنافٍ شتّى قوله في وصف شمعة ، محكمةِ الصنعة ، على صورة مدينة ، أهديت إلى المعتمد على الله بالمحدّدة [2] :

مدينةٌ في شمعةٍ صُوِّرَتْ ... قامتْ حُماةٌ فوق أسوارها
وما رأينا قبلَها روضةً ... تتّقدُ النّارُ بنوّارها [3]
تُصَيِّرُ الليلَ نهاراً إذا ... ما أقبلتْ ترفلُ [4] في نارها
كأنّها بعضُ الأيادي التي ... تحت الدجى تسري بأنوارها
من مَلِكٍ معتمدٍ ماجدٍ [5] ... بلادُهُ أوطانُ زوّارها
أكفُّ ذاتَ الشعر تَغنّى به ... وشعره حليٌ لأشعارها

وأصبح [6] المعتمد على الله على حال راحته في القصر المبارك ، ودخل إليه

---

١ ذكره في المغرب ١ : ٢٦١ والنفح ٣ : ٢٦٤، ٦١٤ ، ٤ : ١٢٤ وبدائع البدائه: ١١٤ ، ٣٦٦ وانظر قصة له فيما تقدم ص : ٤٧٦ — ٤٧٧ وهذه الترجمة لا تفي بما وعد به ابن بسام من نوادره، ولعلها زيدت من بعده ، وقد سقطت من ط د .

٢ الأبيات في المغرب والنفح ٤ : ١٢٤ ما عدا الأخير .

٣ هذه هي القراءة في المغرب والنفح ؛ وأما في م فقد تقرأ « بفؤادها » وفي س : بموادها ، وهو غير منسجم مع القافية .

٤ المغرب : تضحك .

٥ المغرب : أصبحت .

٦ انظر النفح ٣ : ٦١٤ وبدائع البدائه : ١١٤ .

الرشيد ابنه ، فتبادل الأنس معه ، ثم أمر بإحضار من جرت عادته بمشاهدة المجلس الكريم من الأصحاب ، فحضروا ، فقال لهم المعتمد بعد كلام حذفناه للاختصار طلباً للمعنى : قلت البارحة بيتَ شعر وهو :

بعثنا بالغزالِ إلى الغزالِ وبالشمسِ المنيرة للهلال[1]

وذلك أنَّ المعتمد على الله قد أمر بصناعة غزالين من ذهب، فصنعا معاً من سبعمائة مثقال خالصة ، فأهدى أحدهما إلى الرشيد ابنه ، والآخر إلى السيدة العروس بنت ابن مجاهد ، فقال في ذلك البيت المذكور ، وأحب أن يُذَيَّلَ ، فذيل هذا البيت ممن حضر هذا المجلس ذلك اليوم وممن لم يحضره ، منهم أبو القاسم ابن مرزقان ، وأصاب الغرض ، فقال :

بعثنا بالغزالِ إلى الغزال وبالشمس المنيرة للهلال
فذا سَكَنِي أُسَكِّنُهُ فؤادي وذا نَجْلِي أُقَلِّده المعالي
شَغَلْتُ بذا وذا خَلَدِي ونفسي ولكني بذاك رخيٌّ بال
زففتُ إلى يديه زمامَ ملكٍ محلّىً بالصوارم والعوالي
فقامَ يُقِرُّ عيني في مضاءٍ ويسلكُ مسلكي في كلِّ حال
فَدُمْنا للعَلاءِ ودامَ فينا فانا للكفاح[2] وللنزال

ورفع أبو القاسم ابن مرزقان قطعة شعر في ذلك أيضاً وهي :

عاطني القهوةَ مثلَ الجلّنارْ حَمَلَتْها أكؤسٌ مثل البهارْ

١ النفح والبدائع : والشمس . . . بالهلال .
٢ النفح والبدائع : للسماح .

وأدِرْها بين زَهْرٍ عَبِقٍ   واسقني وُدّ كبيرٍ بكبار

ملكٌ إن قلتُ مَنْ ربُّ العلا   فإليه كلُّ مخلوقٍ أشار

لخميٌّ ماجدٌ معتمدٌ   كلّ عسرٍ حين تلقاه[1] يسار

ما دجا ليلٌ على آمليهِ   كلُّ ليلٍ بأياديه نهار

بين كفّيه وفي ناديهِ   ظبيةٌ ريقتها صِرْفُ العقار

عجبي منها وهذا أسدٌ   كيف لا تُبْعدُ عنه بنفار

أنِسَتْ من أنها مُرْسَلَةٌ   باتصالِ الوصلِ من أشرف دار

ولها عدّ إلى غرّتها   أنهم قد صوروها من نضار

في قدودٍ[2] تتهادى وبها   سترى في حَرَمٍ ذات الفقار

لا عدتْ موضعَ لهوٍ ودد   فلقد تنهضُ في خير سفار[3]

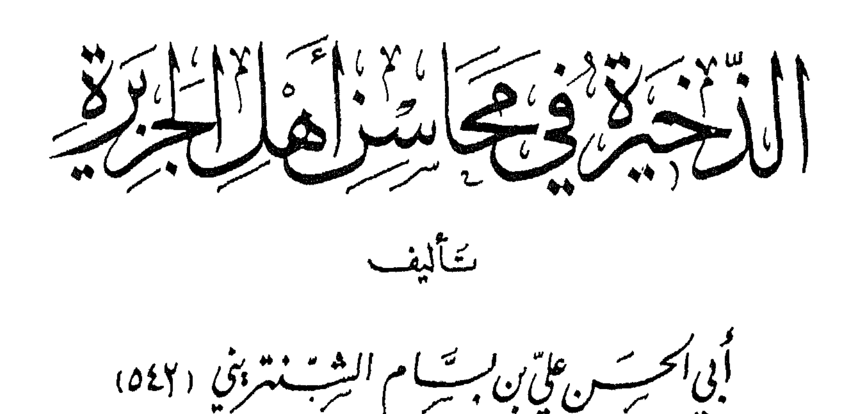
---

١ م س . تلقاهم .

٢ م س . خدود .

٣ س : شفار .

فهرس المحتويات



تحقيق
الدكتور إحسان عبّاس

دار الثقافة
بيروت - لبنان

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

٢

١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م

فصل في ذكر الوزير الكاتب أبي بكر محمد بن ذي الوزارتين المشرف أبي مروان بن عبد العزيز[1] وإثبات جملة من نظمه ونثره

وبنو عبد العزيز يعرفون ببني المرخي[2] . نسبهم في لخم . وهم جملة فضل . وبيتة[3] نبل . وعلم وفهم . وفيهم يقول الوزير أبو محمد بن عبدون

---

١ هو محمد بن عبدالملك بن عبدالعزيز بن محمد بن الحسين بن كميل اللخمي الاشبيلي المعروف بابن المرخي أخذ عن أبي الوليد العتبي وأبي عبيد البكري وأبي الحسين ابن سراج وأبي علي الغساني وسكن قرطبة . واختص بأميرها المرابطي محمد بن الحاج داود اللمتوني . فلما توفي يوسف ابن تاشفين سنة ٥٠٠ رفض ابن الحاج أن يبايع علي بن يوسف وانحاز له الملأ من أهل قرطبة ، ثم إن ابن الحاج نكب وفسد تدبيره . فهرب أبو بكر ابن المرخي إلى شرق الأندلس ، حتى إذا رضي أمير المسلمين على ابن الحاج عاد ابن المرخي إلى صحبته عندما ولي فاس وغيرها من أعمال المغرب ثم سرقسطة وبلنسية عندما وليهما . وظل في صحبته حتى قتل سنة ٥٠٨ بمعركة البورت (ومعناها الباب) . وبأخرة من عمره ، جلس يقرىء الناس الكتب الأدبية ، وكان مقرباً إلى اللمتونيين . ينتفع به الناس لحسن وساطته لديهم . وكان محدثاً متقناً ضابطاً حسن الخط . واستكتبه علي بن يوسف مع أبي عبد الله بن أبي الخصال . وروى عنه ابنه الوزير أبو الحكم وغيره . وتوفي سنة ٥٣٦ وقال العماد سنة ٥٤٠ . ودفن بمقبرة أم سلمة وشهد جنازته والي قرطبة الزبير بن عمر اللمتوني . (انظر المغرب ١ : ٣٠٧ والصلة : ٥٥٥ والذيل والتكملة ٦ : ٥٠٤ ومعجم الصدفي : ١٣٢ والخريدة ٣ : ٤٣٣ والبغية رقم : ٢٠١ والمطرب : ٢٠٨ والقلائد : ١٦٣ والنفح ٣ : ٤٥٨ ، ٥٧٠ ؛ ولا بد من التفرقة بين بني عبد العزيز هؤلاء وبني عبد العزيز الذين كانوا ببلنسية وكانوا خصوماً لابن عمار ومنهم أيضاً أبو بكر ابن عبد العزيز وقد ترجم له ابن بسام في القسم الثالث : ٤٠ وكانت وفاته سنة ٤٥٦) .

٢ قال ابن دحية (المطرب : ٢٠٨) صوابه عند أهل النحو بفتح الخاء . وقوله هذا يومىء إلى أنه كان ينطق بكسرها « المرخي » عند العامة .

٣ د : ومنبت ؛ ط : وثبتة (اقرأ : وبيتة) .

من جملة أبيات خاطبهم بها بقرطبة[1] :

بني عبدِ العزيزِ لئنْ سلوتمْ ... فما أنا عن علائكمُ[2] بسالِ
وما عهدي بناسٍ أيَّ ناسٍ ... تواصَوْا بالمكارمِ والمعالي
وإيثارِ الغريبِ على سواه ... وإن لم يُثْرِ[3] من جاهٍ ومالِ
بحورُ بلاغةٍ ونجومُ عزٍّ ... وأطوادٌ رواسٍ من جلالِ
سلامٌ يملأُ الملَوين طيباً ... على تلك السجايا والكمالِ
فكم كافورِ أيامٍ خلطنا . ... ولم تَظْلمْ بمسكٍ من ليالِ

ومن جواب أبي بكر له :

أمالكَ رِقَّ أبكارِ المعاني ... وربَّ السَّبْقِ في يوم الرهانِ
وفائتَ كلِّ منطيقٍ بليغٍ ... بطولِ الباع واليد واللسان
بدأتَ وكان منك الفضلُ عَوْداً ... فمن عذراءَ تُرْدَفُ بالعَوَان
فجاء الشعرُ متَّسقاً حُداهُ ... كما اتسقت حلَى السيفِ اليماني
تقاصرَ دونك البلغاءُ حظّاً ... كما قَصُرَ السماعُ عن[4] العيان
لئن أهدتْ بدائع كلِّ حسنٍ ... فمهديها غريبٌ في الزمان
غريب سيادةٍ غربيُّ أفْقٍ ... وقد عرَضَتْ إليه المشرقان[5][١٠١ب]

....

١ م س : من قرطبة .
٢ م س : علاقتكم ؛ ط : علاتكم .
٣ م س : يوثر .
٤ م س : على .
٥ د : له بالمشرقان ؛ ط : له المشرقان .

وأبو بكر في وقتنا هذا مهبُّ صَبَا البراعةِ وجَنوبِها . ومنتهى بعيدِ هذه الصناعة وقريبها . وكان جَدُّهُ[١] صَدْرَ الفتنة الناشئة في آخر دولة بني عامر قد انزوى بضيعة له بمدينة شذونة[٢] أحدِ أقاليم القطر الغربي من الأندلس حيث ظنّ أنه يخفى على الدليل منارُهُ . وتتلفّع برمادِ الخمول ناره ، وتأبى الزَّهْرَةُ إلا مروقاً من الكمامة . والشمسُ إلا شروقاً تحت الغمامة . فاهتدى له أحدُ أمراءِ البرابرةِ[٣] المتغلّبِ — كان يومئذٍ — على مدينة قرمونة وذواتها من أقطار الجزيرة . فاستخلصه لنفسه . وغلب عليه أهلَ جنسه . فلم يزل يقتدحُ بزنده . ويُلْقي إليه بمقاليد حَلِّه وَعَقْدِهِ[٤] . ونشأ ابنه أبو[٥] مروان المذكور في حِجْرِ دولتهم . فحمى حماها . ودارتْ عليه رحاها . إلى أن انتحاها من قَدَّرِ الله تعالى على يدي عبَّادٍ[٦] ما انتحاها . فلم يجدْ أبو مروان بُدّاً من لزوم طاعته ، والدخول في جماعته . فأقام باشبيلية بقيّة أيامِ المعتضد وصدراً من دولة المعتمد . يتبرّضُ جميمها . ويتزوّدُ نسيمها ، إلى أن أنشأ المعتمد لابنه الفتح دولته بقرطبة — حسبما نومىء[٧] إلى خبرها بالشرح —

....

١ يعني عبد العزيز بن محمد .

٢ تذكر المصادر أن أبا بكر بن عبد العزيز شراني الأصل أي من قرية شرانة إحدى قرى شريش بولاية شذونة .

٣ م س : أحد من البرابر .

٤ فلم يزل . . . وعقده : سقط من م س .

٥ أبو : سقطت من م .

٦ استولى عباد على قرمونة سنة ٤٥٩ من يد المستظهر عزيز بن محمد البرزالي (ابن عذاري ٣ : ٣١٢) وفي م : على يد ابن عباد .

٧ م س : سنومىء .

فانتقى لها [1] من حَمَلَةِ السيوفِ والأقلام ، مَنْ وقعَ عليه ظنُّهُ من الأعيان والأعلام ،فكان أبو مروان عَلَمَ بُرْدها ، ووسطى عقدها ، ومالكَ زمامَيْ عَفْوِها وجهدها .

ونشأ ابنه أبو بكر هذا في حجرها ، وبين سِماكها ونَسْرها ، طِفْلٌ دَفَعَ في صَدْرِ الكهول ، وغِرٌّ بَهَرَ ألبابَ ذوي التجربة والتحصيل . وبخل المأمونُ به بُخْلَ الحازم بِسره ، وشدَّ عليه شدَّ يدِ الضنين [2] على وَفْرِه ؛ فلما انقضت تلك الدولةُ ، أخْلَدَ إلى العُطْلَة ، وتميَّزَ من الجملة ، متلفعاً بالحياء ، مستحلماً للوفاء ، وقد لحظته اليومَ هذه الدولة [3] في وقتنا ، فأخذ من حَبْلها بِطَرَفٍ ، وتولى من ظلها إلى كَنَفٍ ، ولم يحضرني وقت [4] تحريري هذه النسخة من نظمه الفائقةِ دُرَرُهُ ، ولا من نثره الرائقة أحجاله وغرره ، لما أجريت من ذكره ، إلا ما لا يكاد يفي بقدره ، وفيما أثبتُّ من ذلك دليلٌ وبرهان يريك الفرق بينه وبين سواه ، إن شاء الله .

جملة ما وقع إلي من نثره
مع ما ينخرط في سلك ذلك من شعره

كنت بحضرة قرطبة أوَّلَ سفري إليها سنه أربع وتسعين ، فدخل عندي هلال بن الأديب ، وقرع سمعي من شعر أبي بكر هذا بكلِّ حَسَنٍ غريب .

---

[1] م س : فانتقله .

[2] م س : البطش .

[3] تلك الدولة . . . الدولة : سقط من م س .

[4] م س : إلى وقت .

فكتبت معه رقعةً أخطبُ فيها ودّه . وأستجلبُ ما عنده ، أقول في فصل منها :

كلّ يبلّغُ[1] — أعزّك الله — من حسناتِ نبلك وفضلك . ومَعْلُواتِ حسبك ونسبك . ما يُحدِّثُ إليكَ طرباً في الموتانْ . فضلاً عن الحيوان . وما زلتُ أسمعُ فأتطلّع . وأستشعرُ فأستبصرُ . وأحنُّ إلى مفاتحة الخطاب . وقلّما يقعُ إلاّ بأسباب . إذ الدخولُ لا يكونُ إلا على باب . وعندهم — على علمك — أنّ الهجومَ عليه . دون سبب يدعو إليه . نوعٌ من الجفاء . وضربٌ من مفارقةِ الحياء . ولا يستجيزُهُ إلا مَنْ كان عن الأدب بمعزل . وللأمورِ غيرَ محصِّل . ومع هذا فإن الزمانَ شأنُهُ البخلُ إذا استُعطي . والمطلُ إذا اقتضي . وربَّ مرغوب فيه لا يَنْفُقُ . ومحروصٍ عليه[2] قد سُدَّتْ دونه الطرق . ومذ[3] دخلتُ الحضرة . في هذه السفرة . تحدثتُ بلقائك . لأكتبَ اسمي في ديوان أوليائك . فارتقبتُ ذلك ارتقابَ الصائمِ للهلال . إلى أن كتبتُ هذه الأحرفَ مع صديقنا أبي الحسن الفاضل هلال . فلك الفضلُ بما لك من شرفٍ خيِم . ومحتدٍ كريم . في الغضّ على ما تراه من زيوف . والمراجعة إن تأتّت[4] عنها ولو بقليل حروف . فهذا الخطاب . الذي قرعت به هذا الباب من مواصلتك . وجعلته سلّماً إلى مخاطبتك . أسٌّ يقوم[5] عليه

---

[1] م : يبلغه .

[2] عليه دون سبب . . . ومحروص عليه : سقط من م س .

[3] م س : وقد .

[4] تأتت : سقطت س م .

[5] م س : أمر سيقوم .

بنيانٌ. وغرسٌ ستلتفُّ فوقه أفنان، وهمسٌ سيكون بعده إعلان. ثم ختمت الرقعة بهذه الأبيات[1] :

أبا بكرٍ المجتبى للأدب	رفيعَ العماد قريعَ الحسبْ
أيلحنُ فيكَ الزمانُ الخؤون	ويُعْرِبُ عنكَ لسانُ العرب[١٠٢أ]
وتعدل في الفهم[2] بالحاضرين	لديهم وما النبعُ مثل الغرب
أراك بعينٍ أراهم بها	إذاً فأرى الدرَّ كالمخشلب
لقد كان جيلُ[3] الورى أدهماً	بقرطبةٍ عُجْمها والعرب[4]
إلى أن تبسَّم عنكَ الزمانُ	فأسفرَ عن واضحٍ ذي شنب
فجئتَ كما شئتَ ذا مِقْولٍ	يفلِّلُ حدّاه بيضَ القُضُب
فوا حَزَنَا لزنادٍ كبَا[5]	وروضٍ ذوى وزلالٍ نضب
وما كان جيلَكَ هذا الأنامُ	ولا لك في أفْقِهِم من أرب
وطَبْعُكَ[6] ينفثُ عن لؤلؤٍ	تنظّمه في نحور الكتب
فأين العميد[7] وعبد الحميد	وما حويا من خطيرِ الخُطَب
وأين البديعُ وشمسُ المعالي	بديعك مدَّ عليهم طنب
ولما سمعتُ هلالاً يُعيدُ	قوافيَ لؤلؤكَ المنتخب

---

١ انظر نفح الطيب ٣ : ٤٥٨ .

٢ د ط : وتعدم ربعهم .

٣ م س : حبل .

٤ ط : أعجم لا عرب ، م س : عجم لا عرب .

٥ ط : كتب ؛ س : كبت .

٦ م س : فطبعك .

٧ ط د : الحميد .

شَفَعْتُ بها لو وَفَت ذمتي   بواجبها إذ عليها وَجَب
وخامرني حبُّ سمعي لها   كأنّي خَلَوتُ ببنت العنب
فقلتُ جريرٌ يجيدُ القريضَ   والآن جاد بحوك الخطب
وقرطبةٌ بُدِّلَت بالعراقِ   أم الأرضُ تحملنا من كثب
فجئتك خاطبَ ودٍّ فلا   تردَّ أبا بكرَ من قد خطب
وإن لم يكن أفقُنَا واحداً   فينظمنا شَمْلُ هذا الأدب

فراجعني أبو بكر برقعة [1] قال فيها [2] : وقفت — أعزّك الله — من كتابك الكريم . المضمن [3] من البرّ العميم . ما أيسَرُهُ يُثْقِلُ الظهر . ويستنفدُ الشكر . ويستعبدُ الحرّ . ورأيتك — رأيتَ أملك — تخطبُ من مودّتي ما ليس بكفؤ لخطبتك . ولا بازاء جلالةِ رتبتك [4] . لكنّه فضلٌ ملكتَ زمامه . وأعْطيتَ مِقْوَدَهُ وَخُطَامَه . ولا شكّ أن صديقنا أبا الحسن — أعزّكما الله — أنطقه هواه . ونامت عن الخبرة [5] عينُ رضاه . فسماعٍ بالمعيديّ لا أن تراه . ولعمري لقد أخّرتُ الجواب فَرَقاً من كشفِ السرّ ، وإرادة التمادي [6] في تدليس الأمر . ثم علمتُ أن فضلاً وُضِعَ في يديك [7] ، وقُصِرَ

---

١ د [illegible] ، وسقطت اللفظة من م ؛ وفي س : رقعة .
٢ ورد بعضه في المغرب ١ : ٣٠٨ .
٣ المغرب : المهدي .
٤ المغرب : ولا بإزاء رتبته
٥ م : عن الخبر .

عليك ، يوسعني في النقد طَولاً ، كما شرفتني[1] في البدءِ قَولاً . وعند اللقاء أنهي عذري . وأعرِّفُكَ حقيقةَ قدري . إن شاء الله .

ثم أتبع النثر بهذا النظم :

أمُحْيي معاهدَ رَسمِ الأدبْ ومبقي مشاهدَ فخرِ العربْ
ومن نَظَمَ الفَضْلَ نَظْمَ الجمانِ ومن سَبَكَ الشعرَ سَبْكَ الذهب
بدأتَ فلبيكَ منْ خاطبٍ وأين الكفيُّ له إنْ خطب
أتحتلُ يا بدرُ في أفْقِنا ولما تحيّيكَ[2] زُهْرُ الشهب
ويهتزُّ نصلك في غمدهمْ ولما تُحَجّبْكَ بيضُ القضب
فَمِنْ تلك جلاَّسك الواصلون وَمِنْ هذه لك غيلٌ أشِب
تناءَتْ علَيْنا مساعِي العلا وَرُقِّيْتَ منها قصيَّ الرتب
لك الفضلُ حرَّكتني للنهوضِ نحوك[3] وهو بعيدُ الطلب
وَحُدِّثْتَ عنّي وهذا الحديثُ يدخُلُهُ صِدْقُهُ والكذب
فمعذرةً إنَّ بعضَ المقال[4] محضٌ وأكثره مُؤْتَشب
برئتُ إليكَ من الزائِفَيْنِ نظمِ القريضِ ونثرِ الخطب
وعمداً تأخّر عنك الجوابُ أنْ لم يكن قاضياً ما يجب
تعرضتُ شأوك يومَ الجزاء فإذ لم أجُبْ نَهْجَهُ[5] لم أجب
وأقدمني العذرُ والإعترافُ فجاءتك تسجد أو تقترب

---

١ م : شرفني .
٢ كذا وصوابه « تحيك » .
٣ م : بجوك .
٤ ط د : المآل .
٥ ط : بهجة .

ولولا الحياءُ لقد كنتُ قبلُ أرغبُ من سيدي ما رغب [١٠٢ب]
لأبقيتَ ذكري بما صُغْتَهُ بخطٍّ على صفحات الكتب
قوافٍ تعطّلُ في وزنها « قرأتُ الكتابَ أبرَّ الكتب »[١]
وإن تكُ أحمدَ هذا الزمانِ فأين عليٌّ لنا أو حلب

وقال يخاطب الوزير[٢] أبا محمد بن عبدون معتذراً من تخلفه عن تشييعه[٣] :

في ذمّةِ الفضلِ[٤] والعلياء مرتحلٌ فارقت صبريَ إذ فارقتُ موضعَهُ
ضاءَتْ به برهةً أرجاءُ قرطبةٍ ثم استقلَّ فسدّ البينُ مطلعه
يا قاطعاً أملاً قد كان واصلَهُ وناثراً جَذَلاً قد كان جمّعَهُ
عذراً إلى المجد عنّي حينَ فارقني ذاك الجلالُ وأعيا أنْ أشيّعه
قد كنتُ أصْحَبْتُهُ قلبي فأقْعَدني ما كان أوْدَعَهُ عن أنْ أودّعه
صُبْ أيها القطرُ موروداً شرائعه فقد ظمئتُ وعمَّ الريُّ موقعه
إني لأحسدُ هذا الطرسَ تلمسُهُ كفّاه أو تجتلي عيناه مودعه
والشمسُ تحسدُ والخضراءُ موضعُها للفضلِ تعرفُ في الغبراءِ موضعه
لا زعزعتك الليالي النكدُ يا جبلا لم ترجُ غيرُ الليالي أن تزعزعه

وله فصل[٥] من رقعة شفاعة: أحسنُ الصلةِ — أعزّك الله — بين[٦] الأخوان

---

١ صدر بيت للمتنبي ، ديوانه : ٤٣١ وعجزه : « فسمعاً لأمر أمير العرب » .
٢ الوزير : سقطت من م س .
٣ القلائد : ١٠٤ والخريدة ٣ : ٤٣٣ والمطرب : ٢٠٨
٤ في المصادر : المجد .
٥ ط د : في فصل .
٦ ط م : حسن الصلة . . . بين .

ما كان الفضل موجبها ، والمجدُ مسبّبها . وطيبُ الخُبْرِ منشيها وَحُسْنُ الثناءِ ممهّدها ومنطيها[1] ؛ والوزيرُ أبو فلان – أبقاه الله – ممّن يفتنُ في شكرك فيسحرُ المسامعَ . ويوقعُ ذكركَ في القلوب أكرمَ المواقع . حتى يستميل إلى مودّتك النفوسَ فتنقادُ سمحةَ القياد . ويهتفُ بالثناء عليك في المحافل فلا يخافُ المعارضةَ والعناد . وكان له من رأيك الجميل في سالفِ المدّة[2]. أشرفُ ذخيرة وعدّة. فلما ملّككَ الفضلُ أزمّةَ النقضِ والإمرار . ورتّبكَ في ديوان الإيراد والإصدار. علم[3] أنه لا يسقطُ نجمُهُ مع علوّ نجمك . ولا تلدغهُ عقاربُ الدهر وهو يرقيها باسمك . وأنت – دام عزُّك – تسمه بميسم إيجابكَ[4] . وتقيّده بالإحسان في جنابك . وتطيعُ الكرمَ[5] في رعاية نزاعه . ومحافظةِ تأميلهِ وانقطاعه . ومهما تعتمدْهُ به من مبَرّة . وتُسْديه إليه من عادةٍ مستمرة . فإنما تسقي غرسك . وتبني أسّك .

وله من أخرى : أما الودّ – أعزك الله – فمقيم . والعهد كريم . والإخاءُ مخيِّمٌ لا يَريم ؛ لكنّي أخبرك عن حالٍ مختلّة . ونفسٍ معتلّة . وشغل بك قد ضَيَّقَ الصدر . وأظلم منيرَ الفكر . بما وقفتُ عليه من كتابك . واستطلعتُهُ من خطابك . فتجرعتُ الكمدَ – علم الله – مُرَّ المذاق[6] ، وشربتُ من كأسه المترعِ الدّهاق . وعلمتُ أنه جنسٌ ذليل . ورهطٌ مخذول

---

١ م : منشأها . . . و ممطؤها .

٢ م س : المودة .

٣ م : علم لنا .

٤ م : إلحافك ؛ س : الحافل ؛ ط د : إلحائك .

٥ م : الدر (لعلها : الود) .

٦ م : من المراق .

وحزبٌ مفلولٌ بل مقتول ؛ حيث لا ناصرَ فَيُسْتَصْرَخ . ولا فَحْمَ لِقَيْنٍ فَيُنْفَخ . ولا وَزَرَ إلاّ العَبَراتُ تُسْتَنجد ، والزفراتُ[1] تستحثُّ فتوقد . وقلّ غناءٌ عنك دمعٌ تجريه ، أو حزنٌ تبديه ، أو صديق[2] لا يملكُ إلا التفجُّع ، ولا يستطيع إلا التلهُّف والتوجُّع ، لكنه في الشرّ خيار ، وفي الأرض قرار . وفي الناس منتَجعٌ ومُزْدَار . وإلى الله انقطاعٌ وفرار ؛ وصاحبُ الشرعِ عليه السلام قال[3] : « لا تُلبثوا بدارِ مَعْجزَة »[4] ؛ وقال الأول : « وإذا نبا بك منزلٌ فتحوّلِ »[5] ؛ وأنت — ولا عتب — تقيم بذلك[6] الإقليم ، مقامَ عَيْرِ الحيِّ والوَتِدِ[7] . ولا تتعوّضُ منه ببلد . ولا من أهله[8] بأحد ؛ حتى كأنك إنما تُشْفِقُ من خرابِ عامرِ ضيعتِكَ . ودروسِ جديدِ أرْبُعِكَ . ومعذرةً إليك من هذا الجفاء . فما يبعثُ إليه إلاّ حَنَقٌ يقوده شَفَق ، وقلقٌ تذكيه حُرَق . [١٠٣ أ] وقد عرضتُ على عِدّةٍ من إخواننا — أعزّهم الله — شَخْصَ كتابك . فكلّهُمْ تألّمَ بمصابك[9] . وتوجّعَ

---

١ م س : وزفرات .

٢ م : صديع ؛ س : صديغ .

٣ م س : يقول .

٤ في النسخ : تلبثوا . . . م : المعجزة ؛ وفي اللسان (عجز) أنه من حديث عمر . ومعناه لا تقيموا ببلدة تعجزون فيها عن الاكتساب والعيش . (والمعجزة بفتح الجيم وكسرها) .

٥ التمثيل والمحاضرة : ٤٠٠

٦ ط د : ذلك .

٣ يريد مقام ذل . مشيراً إلى قول الشاعر :

ولا يقيم على ضيم يراد به ... إلا الأذلان عير الحي والوتد

٨ ط د : أجله .

٩ م : لمصابك .

لأوصابك . وارتمض لعثرة الأحرار التي لا تقال ، ودولة الذلّ التي لا تذال [١] ، جبر الله الكسر ، وحكم على الدهر ، وكشفَ الضرَّ ، ورزق فيما بقي حُسْنَ التسليم والصبر .

قال ابن بسّام : وإنما امتعض أبو بكر في هذا الجواب على خطاب كان شرح له فيه الأديب أبو جعفر الكفيف [٢] محنته مع مقاتل ، غلامٍ كان لابن مطري أوّلاً ، ثم لابن [٣] الأفطس ، لتنازعٍ وقع بينهما على بيتِ شعر ظهر عليه فيه أبو جعفر ، فحقد ذلك له ، فبينما هو [٤] ماشياً فارغ القلب ، آمنَ السَّرب ، إذ اعترضه مقاتلٌ في الطريق ، على مقربة من السوق ، على هملاجه ، بين طوقهِ وتاجه ، فجرى شَوْطَهُ ، وأخرج سَوْطَهُ ، الذي كان يحث به فرسه ، وأمر سائسه [٥] بحبس يديه ، وانحنى به عليه ، قائلاً : لم تعرضتَ بَطْشَتي ، ولم تَخَفْ سطوتي ؟ ! فلا النعمان بن بشير يوم الأخطل ، ولا الزبرقان بن بدر في مسألة جَرْوَلٍ ، ولا المأمون يسطو بدعبل ، وتالله لو كان مقاتلٌ كليبَ وائل ، أو قيس بنَ عاصم ، أو مُعْرِقاً في بني هاشم ، لثنى من عنانه ، وقَصَرَ من يده ولسانه ، فكيف وهو مقسومُ الولاء ، معدوم الآباء ! ! وإنما أقدره يومئذ الكِبْر ، وأبطره الوفر ، بعد الكُدْيَةِ في الرفاق [٦] ، والقَصَصِ في الأسواق ، ونَقْلِ اللحم بالأشبونة من الدور

---

١ ط : تزال ؛ س : لازال .
٢ انظر مقدمة ديوان الأعمى التطيلي : ح – ي .
٣ م : لبني .
٤ س : فبينما .
٥ ط : سيسه ؛ س : منيسه .
٦ س : في البرياق .

إلى[1] الوضم، فكيف لا[2] يُتَرَبَّصُ خروجُ الدجال،أو ينزل المطرُ على هذه الحال ، أو تتأخر القيامة ، ومقاتلٌ قد صار[3] قدامه ، يقتلُ الأحرار ، ولا قَوَدَ ولا ثار ! ! ألا مُغيثاً ، ألا مَشْياً إلى الموتِ[4] حثيثاً ، ألا دعوةَ نوحٍ ، من قلب قريح ! !

ولأبي بكر أيضاً فصولٌ من جوابٍ عن أهلِ قرطبة على خطابٍ ورد من قِبَلِ المستعينِ بن هود قال فيه : وصل كتابك ، فوقفنا على جميع معانيه ، وأحَطْنا علماً بما فيه ، ورأينا ما تضمَّنَهُ من المقال الذي لم يوفّهِ أعزّه الله — حقّ النظر ، ولا تدبَّره أحسنَ التدبّر ، بل أطاعَ فيه سلطانَ هواه ، ودعاه الحرجُ[5] إليه فاستهواه ، ولو حكَّم عادلَ النَّصَفَةِ ، وعصى أمرَ الأنَفَةِ ، لخاصم نفسه قبل أن يخاصِمَ عنها ، وكان قبل أن يأخذَ لها آخذاً منها ، ولعلم أنّ الحقّ ليس بأقوالٍ تُسَطَّرُ ، ولا حُجَجٍ[6] تُصْرَف عن طريقها وتغيَّر ؛ والشيطانُ قد ينصبُ للعاقلِ أشراكَ الخدع ، ويرومُ أن يستنزلَ الحليمَ بأصنافِ الطّمع ، فمن صَرَفَتْهُ عصمةُ الله انصرف[7]، ومن وَقَفَتْهُ خَشْيَتُهُ أحجمَ ووقف .

وفي فصل منها : وقد كنتَ[8] خاطبْتَنَا المرّة بعدَ المرَّة، وكاتبتنا الكرَّةَ بعد

---

١ م س : إلى الضدور من .
٢ لا : سقطت من م س ط .
٣ قد صار : سقط من م س .
٤ م : المنية .
٥ م : الخروج .
٦ م : بحجج .
٧ ط : أنصف .
٨ وقد كنت : سقطت من م .

الكرَّة ، تذكُرُ أنك [1] قد حللتَ عن تلك البلاد يدك ، وأصفيتَ [2] في طاعة أمير المسلمين وناصر الدين – أيّده الله – مُعتَقَدَك ، ورأيتَ أنها [3] أمانةٌ تؤديها، إلى حافظها وراعيها، وتسلّمها إلى من يقومُ بحقّ الله – عزّ اسمه – فيها ، إلا مواضعَ يسيرةً استثنيتها ، وأماكنَ قليلةً سمَّيْتَها ، فما الذي نقلك عن هذا الرأي الحميد. والمذهب السديد، إلى التمسك بما قد بانَ لك وجهُ الحيرةِ في تركه ، وإرادة التملك بما لا قدرةَ لك على ملكه ؟ ! ولو كنتَ – أحسنَ الله توفيقك – مليّاً [4] بالدفاع ، قديراً على التحصّنِ من أعداء [الله] الكفرة [5] والامتناع ، لكنت معذوراً فيما ترغبُهُ ، وجديراً أنْ يُخلّى بينك وبين ما تطلبه ؛ لكنّ العجبَ كلَّ العجب أن يكونَ سعيك للكفّار ، وتوفيرك للدمار ، وكيف يَسُوغُ لك أن تحذّرَ من الله وأنت لا تحذَرُهُ [6] ، وتذكّرَ به تعالى ثم لا تذكرُهُ ؟ ! ألستَ تعلم أن النصارى – لعنهم الله – قد استولوا على ثغورِ المسلمين التي كانت بنظرك مَنُوطَةً ، وبمستقرّ قَدَمَيْك [7] مخلوطة ؟ فهل كانت لك طاقةٌ بمحاربتهم ، أو قوةٌ على مقارعتهم ، أو إصراخٌ لمن استصرخك من قتيلٍ مستشهد ، أو أسيرٍ مضطهد ؟ !

وفي فصل منها : فحين وصلتْ دعوتهم لسامعها ، واتصلت مَظْلمتهم

---

١ تذكر أنك : سقطت من م .

٢ م : وأضفت .

٣ م : لنا .

٤ ملياً : سقطت من ط .

٥ د : الأعداء والكفرة : ط : الفكرة .

٦ زاد في م : العجب أن يكون .

٧ م : مخدمك ؛ ط : قدمك .

برافعها ، وتعلّقوا من أمير المسلمين وناصر الدين – أيّده الله[1] – بالسبب المتين ، وأوَوا منه إلى الحِصْنِ الحصين ، أردتَ – والله يقيدك[2] – أن تقطعَ منه[3] حبالَهُمْ ، [١٠٣ ب] وتفرقَ اتّصالهم ، وتذرَهُمْ بينَ أيدي[4] الأسر والقتلِ نهاباً ، لا ترجو فيهم ثواباً ، ولا تخافُ[5] عقاباً . وهو – أيّده الله – لم يبلغْ بلادَكَ ولا غيرها لمالٍ[6] يبتزُّهُ ، ولا لتملُّكٍ يستفزُّهُ ، وإنما بُغْيَتُهُ[7] أن يقمعَ شيطانَ الشرك ، ويستنقذَ المسلمين من الهلْكِ ؛ ولما[8] نرجوه من حسن إنابتك ، وإسراعِكَ إلى داعي الحقّ وإجابتك ، خاطبنا أمير المسلمين – أيده الله – محيلين على ما تضمَّنه خطابُك ، ووعاه كتابك ، ممهّدين عنده عُذْرَكَ فيما تضمّنه من القولِ الذي لا تصحُّ شواهده ، ولا ترتبطُ[9] لمتأمّلٍ معاقده ، وإنّا لنخشى أن يَنْفُضَ[10] عن ذلك الثغر يَدَهُ ، ويحلَّ مِنْ عَزْمِهِ[11] فيه ما كان عَقَدَهُ ، فحينئذٍ لا ينفعُ النادمَ قرعُ سِنِّهِ ولو هتَمها ، والعاضَّ يَدَهُ ولو كَلَمها ، وقد كان لك مندوحةٌ

---

١ م س : أدام الله تأييده .
٢ ط : يعيذك .
٣ منه : سقطت من م .
٤ أيدي : سقطت من م .
٥ م : يرجو . . . يخاف .
٦ س م : لملك ؛ وسقطت من ط .
٧ م : بغية .
٨ ط : وانما .
٩ م : ترتبطه .
١٠ م س : لينفض .
١١ م : العزم .

في القول الليّن ، والاحتجاج المبيّن ، عن[1] الموافقة والمخالفة ، والمدافعة بغير الحقّ والمكاشفة ، حتّى انتهيت[2] إلى أن تقول إنه لك في مَنْ سَلَفَ واعظٌ يَزَعُكَ ، أو زاجرٌ يردعك ، والله يَعْصِمُكَ من أن تختار اختيارَهُمْ ، وتؤثر إيثارهم .

وفي فصل منها : وقبيحٌ بمن عَلِمَ بما[3] عند الله عِلْمَكَ ، وفهم بما لديه فَهْمَكَ ، أن يزهَدَ في الدنيا وهو يطمعُ منها في غير حاصل ، أو يذمّ العاجلةَ وهو يعتدُّ بِعَرَضٍ من أعراضها غيرِ طائل ، ونرجو أن يكونَ وراء هذا من ركوبك المثلى ، ورجوعِكَ إلى التي هي أوْلى ، وتكذيب ما تلقيه[4] الوساوس ، وتمنيه[5] خادعاتُ الهواجس ، ما يبقى به دينُكَ نقياً لا يتدنّسُ[6] إزارُهُ ، وذكرُكَ جميلاً لا تقبُحُ آثارُهُ ، وهو الذي يشبه مذهبَكَ الكريم ، وآراء سَلَفِكَ القديم ، الذي أنت متقيّلٌ حميد آثارهم ، مستضيءٌ بأنوارهم ، مشيّدٌ على[7] ما أسّسوه من الأثر الصالح ، والعملِ الراجح . وما كان في هذا الكتاب من[8] مراجعة ، فيها موافَقَةٌ ومنازَعَةٌ ، فإنّما دعا إليها ما ننوي من النصيحة ، والموالاةِ الصحيحة ، وقد يعاتب

---

١ م : على ؛ س : الهين على .
٢ م : انثنيت .
٣ م س : ما .
٤ ط د : تلقته .
٥ د : وتمنته ؛ م س : وتلقيه .
٦ م : يدنس .
٧ على : سقطت من ط د .
٨ الكتاب من : سقط من م س .

الشفيقُ فلا يُحجم ، ويقولُ الصديقُ فلا يَكتُم ، وأنت تحملُ ذلك على سبلِه[1] الواضحة ، وطرائقِه اللائحة ، وتعلمُ أنّ أخاك من أرضاك باطنُه ، وإن عصاك ظاهره وعالنه[2] .

وله من قصيدة[3] في القاضي[4] :

وكيف أجزتِ الحيَّ جَيْبُكِ عاطرٌ	وَرِدْفُكِ فضفاضٌ وعِقْدك صائحُ
تجاوَبُ أفرادُ الحليِّ وساوساً	عليك كما غنى الحمامُ النوائح
وكيف شققتِ الليلَ خَدُّكِ زاهرٌ	وجيدُكِ برّاقٌ وثغرُكِ واضح
وكيف استطعتِ السيرَ حِجْلُكِ مفعمٌ	وَرِدْفُكِ رجراجٌ وَحَلْيُكِ قادح
وَمُنْعَرَجُ الوادي ظباً وأسنَّةٌ	ومنقطَعُ البيداءِ خَبٌّ وكاشح
وقد نصَّتِ[5] الجوزاءُ جيداً[6] كأنّه	عيونٌ إلى تلك الطروقِ لوامح
تأرَّجَتِ الموماة أنْ سرتِ وسطها	فكلُّ سبيلٍ جُزْتِ بالطيب فائح
أقبِّلُ تربَ الأرضِ حتى كأنما	تضمُّ ثناياكِ العذابَ[7] الأباطح
فما سجد الرهبانُ[8] في كلِّ بيعةٍ	كما أسجدتني أرضُها والصحاصح

---

[1] م : سبيله .

[2] م : وغالبه .

[3] م : ومن قصيدة له .

[4] انظر ديوان ابن زيدون : ٣٩٠ ، ٤٨٣ وقصيدة فائية لأبي المغيرة ابن حزم في القسم الأول : ١٧٦ فهذا كله نسق واحد من المعارضات ؛ ولم يتضح أي القضاة يمدح ، ولعل هنا نقصاً في النسخ .

[5] م : نصب .

[6] م ط : جيد .

[7] م : العراب .

[8] ط : البرهان .

ومنه في المدح :

فان أكُ في [illegible] راكضاً	فانيَ للقاضي الأجلِّ لمادحُ
هوالسببُ المدني [illegible] لِّ سلوةٍ	وكفَّارةُ الآثام وهي فوادح
به تنهضُ الأيَّامُ [illegible] بي عواثرٌ	وتُستَدْرَكُ الآمالُ وهي نوازح [١٠٤أ]

قال ابن بسّام[١] : قول أبي بكر : « أقبّل تُرْبَ الأرض » . . . البيت مع الذي بعده ، من الوصف الغريب ، في توفية إكرام ربع الحبيب . وأوّل من بكى بالربع ووقف واستوقف ، الملكُ الضلّيلُ ، حيث يقول :

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

ثم جاء أبو الطيب فنزل وترجّل ومشى في آثار الديّار وقال[٢] :

نزلنا عن الأكوارِ نمشي كرامةً	لمن بان عنه أن نُلِمَّ بها ركبا

ثم جاء المعرّي فلم يقنع بهذه التوفية من الكرامة حتى خنع وسجد ، وقال[٣] :

تحيةَ كسرى في السَّناء وتبّعٍ	لِرَبْعِكَ لا أرضى تحيةَ أربعِ

وأبو بكر إنّما ألمَّ بهذا المعنى .

ومحاسنه أكثر من أن تحصى ، ولم أحاضر وقتي هذا إلاّ بقليلها[٤] ، ولا

---

١ نقل الصفدي جانباً كبيراً من هذا النص في الغيث ١ : ٦٧ وصرح أنه ينقل عن الذخيرة .
٢ ديوان المتنبي : ٣١٨ .
٣ شروح السقط : ١٥٢٧ .
٤ ط د : بأقلها .

بأس من الزيادة — إن شاء الله — عند حصولها .

ومما سمحت [1] به الأيام ، وفازت به الأزلام ، من نثر أبي بكر المتدفق عن بحر [2] ، المزري بدرّ انتظم في لبّات الزهر، رقعة يقول فيها :

مولاي وسيدي الأجل لا يزال بمعونة الله تخدمه الأوطار ، وتطيعه الأنصار ، وتتنافس فيه الأقطار ، وتستأذنه في صوبها القطار ، فدعاؤه متقبّلٌ مستجاب ، والغيمُ عند استصحابه منجاب ، وقد كان الغمام أسفّ وَدْقُهُ ، ورجّيَ صدقه ، فصعد وتعلّى ، ثم دنا فتدلى ، فكاد من قام بالراح [3] يدفعه ، وانتظرت شآبيبهُ وَدُفَعُهُ ، إلاّ أن تلك الدعوةَ رَدَّتْ مَخيلته جهاماً ، وفرّقَتْ جمعه وكان لماما ، وعاد المحلُ يلتهمُ التهاماً ؛ فرفقاً — رفق الله بك — فانّ الناس مُسْتنتون . ولما لا يُرْضى من القول بسوء الظن مُبَيّتون ، وماذا عليه — أعزّه الله — في أن يُخْصِبَ محله ، سقى الغيثُ بلداً يحلّه ، وتشيّعه حيث ارتحل ديمةٌ مدرار [4] ، وينزل حيث ينزل النوار ، وننالُ من بركة دعائه نصيباً ، ولا نلقى منه يوماً عصيباً . وإن دام دعاؤهُ في استصحاب الشمس ، فسيتركها خاوية كأن لم تغرب بالأمس .

---

١ هذا مما زيد من بعد وقد انفردت به النسختان م س حتى آخر الترجمة .

٢ م س : بحره .

٣ م س : بالراجي ؛ وفيه إشارة إلى قول الشاعر يصف السحاب :

دان مسف فويق الأرض هيدبه   يكاد يدفعه من قام بالراح

٤ من قول المتنبي (ديوانه : ٢٦٨) :

وإذا ارتحلت فشيعتك سلامة   حيث اتجهت وديمة مدرار

وأخرى يقول فيها :

سقى بلداً أمستْ سليمى تحلُّهُ   من المزن ما تَرْوى به وتسيم[1]

كيف لا أستسقي لمثواه — أدام الله نعماه — عزالي[2] الغمام ، وأنتقي لعلياه حُرَّ الكلام ، وأعيذ[3] النفسَ بمقدار سعده ، وأنفي الأُنْسَ جملةً من بعده ، وهو — أعزه الله — سرُّ الضمير ونجواه ، وذكر اللسان ودعواه ، وشغلُ القلبِ والصدر ، والصديقُ الوفيُّ الذي بَعُدَتْ أخلاقُهُ عن الغدر[4] ، والواحدُ الذي يَعْدِلُ ألوفاً في جلالة القدر ، ويزيد على الأ[نام] كما زادت على الليالي ليلةُ القدر ؛ ما هذا الاطراء ، والقول بالآراء[5] ؟ ! تكفي شهادة الضمائر ، وتَنَاجي السرائر . ما أوْلاني بالنَّجْهِ ، وحثو التراب < في > الوجه ! ! كيف وجد — أعزه الله — تلك البلاد الكريمة ؟ أظنّه أكرم فارتبط ، وانتاب[6] فاغتبط ، وحطّ الرحلَ عند الملك الظاهر ، المكنيّ بأبي الطاهر ، فأنشد قول أبي تمام في عبد الله بن طاهر[7] :

إذا ما امرؤ ألقى إليك برحله[8]   فقد طالَبَتْهُ بالنجاحِ مطالبُهُ

---

١ انظر الأغاني ٢ : ١٩٨ وأمالي القالي ١ : ٣٦

٢ م : عز ؛ س : عن (اقرأ : عين) .

٣ س : واعتد ؛ م : واعند .

٤ م : بعدت عن الضمير الغدر .

٥ م س : الاراء (لعلها : الهراء) .

٦ م س : وارتاب .

٧ ديوان أبي تمام ١ : ٢٣٩ .

٨ الديوان : بربعك رحله .

وفي فصل منها : وماذا عليه لو عرف من شأنه بقضّه[1] ، من عدة النسيم اجتاز على أرضه ، فتنشق عَرْفَهُ ، وتقبّل عُرْفَه :

يقبّلُ الريحَ من صبابتِهِ   ما قبّل الريحَ قبله أحدُ

ومنها : ولما علم أن تلك الحضرةَ مجرّ العوالي[2] ، بل مُسْتَقَرّ المعالي ، ومَجْرَى السوابق ، بل مَسْرَى البواشق ، أمّلها فأمّها ، وقدم أرجاءها فجاءها ، وغرضُهُ أن يكونَ هنالك خادمَ قائد ، أو جامعَ فائد ، وإذا ظفرت يداه بجواد ، يحمله على جواد ، فقد أخصب مَراده ، وأكثب مُراده .

ومنها : وإن خفّتْ بالمراجعة بالحالِ العليّة وصِلَةُ الإجمالِ ، وخُتِمَتْ بالحسنةِ الأعمال ، أسمعني الله عنك أنباء طيبة ، وأمطركَ من المعروف ديمةً صيّبةً ، برحمته .

وأخرى يقول فيها :

وإني واسماعيلَ يومَ وَداعِهِ   لكالغمدِ يومَ الرَّوْعِ فارقَهُ النّصْلُ[3]

لا بل كالجفنِ فارقَهُ السّواد ، والصدرِ بان عنه الفؤاد ، هذا تعدادٌ يطول ، ودهرٌ بأحداثه يصول ، وعلى ما جرَّ من خطوبه ، وأعْقَبَنا من

---

[1] صورتها في م : يقضه .
[2] م : بحر العزالي .
[3] البيت لصريع الغواني ، ذيل ديوانه : ٣٣٢ والشعر والشعراء : ٧١٣ .

عبوسه وقطوبه ، لنقرينّه صَبْراً يردُّه ، وجَلَداً يهدُّه [1] ، وتحملاً يَرْدَعُهُ ويصدُّهُ ، فلا يجد لسهامه منفذاً ، ولا يعرف للقدح فيها مأخذاً ، وإنّا لنرضى بالقَدَر ، ونشربُ على القذاة [2] الكدر ، ولا تؤثر فينا لأْواءُ ، ولا تبلغُ منّا عزّاء ، أمّا وقد ذقنا طعميه ، وحلبنا شطريه ، وخطرنا قُطْرَيه ، وَجرَّبْنا حاليه ، فما يُحْدِثُ جديداً ، ولا ينشيء شديداً ، وإن الله سبحانه ليختار للعَبْدِ ، ويهديه إذا استهداه للرُّشْدِ ، إذا انتهى به العسر ؛ طالعه اليسر ، ووافاه النصر .

ومنها : فذكَّرنا [3] — أعزَّك الله — وَطالِعنا بأنبائك — أطابها الله — فانا نرتقبُ أخبارَكَ ، ونستوضحُ آثارك ، ونلحظُ على البعدِ ديارك :

كما نظرَ الأسيرُ إلى طليقٍ   يؤمُّ بلادَهُ لشهودِ عيدِ

ومن الحقّ أن تشدَّ يدَ اغتباطك ، وحَبْلَ ارتباطك ، بفلان ، فهو للصحبة ذاكرٌ ، وبعهدِكَ مُكاثر ، ومن أعبائك في تلك الرحلة معتذرٌ متَنصّل ، ووِدُّهُ وكيدٌ متأصِّل ، وستفرح معه أياماً ، وترى الفضل إماماً ، والزمان غلاماً ، إن شاء الله .

وأخرى افتتحها بهذين البيتين :

أخاطبَ ودٌّ من أخٍ لكَ عنده   إنابةُ مخلوع العنان إذا لبّى
تفيّأ إذا ما شئتَ ظلَّ ضلوعه   ظليلاً وَرِدْ من ودّه شبماً [4] عذبا

---

[1] م : يردده . . . يهدده .

[2] م س : القذار .

[3] لعل الصواب : « فاذكرنا » .

[4] م س : طلوعه . . . أشنباً .

وصلَ لسيدي — وصله الله — تحيةٌ أهداها ، مقترنةٌ ببغيةِ اهتداها ، فلولا أنَّ تموّجَ الهواء. لا ينقل[1] الأهواء ، لوافاه يحملُ من رَجْعِ السَّلام أحفاه . ولوصف ما نشأ له من الولوع ، < و> انتهى <حتى> هدَّ الضلوع . فما غريبٌ أوْحَشَهُ سلطانُهُ . وَجَفتْ أوطانُهُ ، فباتَ يستهدي البوارحَ نسيمها . شوقاً إلى وسيمها . ويستكشفُ الرَّكْبَ عن أنبائها ، كلفاً بأحبائها :

بأشوقَ مني إلى حضرةٍ تخذتُ بساحتها موطنا

وأتمثَّلُ بما بين يديَّ من الأشواق . إلى تلك الأخلاق . فأقول : ما غريب . نأى عنه هوًى قريب . فكلَّما أمَّ بابه قطع < أسبابه > ، أو همَّ أن يثني إليه عنانه . شغلت الأيامُ بنانه ، فبات مُراقَ كأسِ الوَسَن . فضفاضَ رداءِ الحَزَن ، بأشوقَ مني إلى ذلك الخلق الكريم . فهل يسمح به صرف الزمان اللئيم . وله الذم : ما وهبَ إلاَّ خلالَ ما انتهب ، ولا أباح إلاَّ ريثما استباح . وإن تكنِ الأيَّام أتتْ دونَ لقائك . فانا أسأل الله طولَ بقائك . عسى أن يدنو بك داراً . أو يدور بنا عليك مزاراً .

وله[2] :

قد هَزَزْناكَ في المكارم غُصْنا واستلمناك في النوائب ركنا
فوجدنا الزمانَ قد مال[3] عطفاً وتأتَّى علاً وأشرقَ حسنا

. . . .

١ م س : لا ينفعل .
٢ وردت الأبيات في القلائد والخريدة والمطرب .
٣ في المصادر : لان .

فإذا ما سألته كان سمحاً وإذا ما هززته كان لَدْنا
مؤثراً أحسَنَ الخلائقِ لا يَعْـ ـرِفُ ضناً ولا يكذّبُ ظنّا
أنت ماءُ الزمانِ أخصبَ وادي ه ورفّتْ رياضُهُ وانتجعنا
نزعت بي[1] إلى ودادِكَ نفسٌ قلّما استصحبتْ سوى الفضلِ <خدنا>

في ذكر الوزير الكاتب أبي الحسين يوسف بن محمد بن الجد[2] واجتلاب قطعة من نظمه ونثره[3]

قد قدّمت ذكر بني الجد[4] ، وذكرتُ أنهم كانوا صدورَ رُتَبٍ ، وبحورَ أدب ، توارثوه نجيباً عن نجيب . كالرمح أنبوباً على أنبوب ، مع اشتهارهم بصحبة السلطان ، وشرفهم على وجه الزمان . وأبو الحسين هذا كان من أسنى نجوم سَعْدهم ، وأسمى هضابِ مجدهم ، ولولا ما خلا به من معاقرة العُقارِ ، وتمسكَ بأسبابه من قضاء الأوطار : لملأ ذكره البلاد ، وطبّق نظمُهُ ونثرُهُ الهضاب والوهاد . وقد استكتبه ذو الوزارتين أبو بكر ابن عمار أيام حربه بمرسية ، وله معه أخبار مذكورة ، وعنه رسائل مشهوره ،

---

١ بي : سقطت من م .

٢ كنيته في المغرب (١ : ٣٤٠) أبو الحسن ، وورد في مواضع أخرى من الذخيرة مرة أبو الحسين ومرة أبو الحسن ؛ وفي هذا الموضع من النسخة ط « أبو الحسن » ، وانظر مسالك الأبصار ١١ : ٤٣١ ؛ وسقطت لفظة « يوسف » من م س .

٣ م : نثره ونظمه .

٤ ذكر ابن سعيد (المغرب ١ : ٣٤٠) أن بيت بني الجد بيت جليل ، وهم فهريون سكنوا لبلة وسادوا أيضاً باشبيلية . ثم ترجم لأربعة منهم ، ولكن ليس من السهل تبين صلة القربى بينهم . وقد مرت ترجمة أبي القاسم منهم في هذا القسم من الذخيرة : ٢٨٥ .

ولم أقعْ من كلامه وقتَ تحريري هذا التصنيف ، إلاّ على اليسير الطفيف ، وفيما أثبتُّ منه ما يقرُّ له بالفضل ، ويرفع لواءه في النُّبْل .

جملة من نثره مع ما يتشبث به من شعره

له من رقعةٍ خاطبَ بها من استنهضه إلى معارضة الحصري في قصائده المعشرات[1] قال فيها :

يا سيدي[2] — أبقاك الله شاحذَ فكرٍ ، نافذَ ذكرٍ ؛ مِنْ حقٍّ ذمتك ، الذهابُ مع وَفْقِ همتك . ولما أكملتُ رغبتك من كَتْبِ مُعَشَّراتِ[3] الحُصريّ ، هبَّ من خاطري النائمُ البكيّ . فنظمتُ في معناها ، ما لا يُغْني من الصناعة مَغْنَاها ، فالدرُّ لا يُعَارِضُ بالمَخْشَلَب ، والبحرُ لا يناهَضُ بالمِذْنَبِ ، وإنما ذلك لما في طباعِ الإنسان ، من اتباع الإحسان ؛ مع أني أردت أن أملأَ سَمْعَكَ ، بصورةِ حالي معك ، وأنت تعلمُ أني حين تعرَّضْتُ ، وأوانَ تربَّصْتُ[4] ، غريبٌ حريب ، قليلٌ فِليلٌ ، مريضُ الجنان ، مقروض اللسان ؛ فالشعرُ إذا لم يحكِهْ قلبٌ فارغ ، ولم يسْبِكْهُ

١ المعشرات : قصائد تتألف كل قصيدة منها من عشرة أبيات ، في موضوع من الموضوعات كالنسيب أو مدح النبي أو الزهد ، ومعشرات الحصري في النسيب ، وقد نشرت مع دراسة عن الحصري قام بها الاستاذان محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : ٢١٢ — ٢٤٠ (تونس ١٩٦٣) وفي م : المشعرات .

٢ يا سيدي : سقطت من ط .

٣ م : معشر .

٤ م : ترصنت (اقرأ : تبرضت) .

لبّ من ظلماء الشغْلِ بازغ ، لم يكملْ خلْقُهُ ، ولم يروِ الصدورَ وَدْقُهُ ، وجاءَ خِداجَ النتاج ، أجاجَ المزاجِ . فإن نظر في هذي إليك ناظر ، وعطف من عنانِ المناظرة بينها وبين تلك — على تباعدها — مناظِرٌ ، فأطْلِعْهُ على غَيْبِ حالي ، قبل أنْ تُطْلِعَهُ على عيب مقالي ، ليعلمَ أنها زبدةُ الماءِ ، وَعُصَارَةُ الصخرة الصماء . والله المرجوُّ للإدالةِ ، والمدعوّ في الإقالة .

وله من أخرى خاطب بها عمّه من ميورقة ، عند تناثر عقد[1] رؤساء الجزيرة :

يا مولاي وسيدي الذي أقترض برَّهُ ، وألتزم شكره[2] ، ومَنْ لا زال في أمان من الزمان ، وسلامٍ من الليالي والأيام :

طوى الجزيرةَ حتّى جاءني خبرٌ فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذبِ[3] [١٠٤ب]
حتّى إذا لم يدعْ لي صدقُهُ أملاً شرقتُ بالدمع حتّى كاد يشرقُ بي

وإن عيناً لم تَصُبْ بدمٍ[4] بعدَ دمٍ لبخيلة ، وإنّ نفساً لم تَذُبْ على تلك النازلة العظمى لَجَلْدَةٌ حَمُولَةٌ . لله تعالى التسليم فيما حلّ وجلّ ، وفجعَ وأوجَعَ ، وان تكنْ تجافت عن النفوس ، ورتعت[5] في العَرَضِ الخسيس ، فَخَطْبُها حقيرٌ ، وَكَسْرُهَا مجبور[6] . على أنها كيف تصرّفَتْ مشكلة ،

١ عقد : زيادة من م س .
٢ س : ذكره .
٣ لأبي الطيب ، ديوانه : ٤٢٣ والذخيرة ٢ : ٤٨٦ .
٤ م س : تصب دماً .
٥ م : وولعت .
٦ م : المجبور .

وعلى ما تُخُيِّلتْ[1] مُذْهِلَةٌ، وَصَفَاتُكَ – أعزَّك الله[2] – أصلبُ من أنْ تؤثرَ فيها النوازلُ ، وأثبتُ من أن تُضَعْضِعَ فيها الرواجفُ والزلازل ؛ وأنا حين خططتُ هذه الأحرفَ على جمر الأسى متقلب ، وبارتقاب ما خَصَّكُمْ[3] – لا زال خيراً – مُعَذَّب ، وقد أودعتُ مُناوِلَها من خبري ، وحملته من عُجري وَبُجَري ، ما لك الطَّوْلُ في الإصغاء إليه ، واستيفاء ما لديه ، ثم في مراجعتي بما تقرَّرتِ الحالُ عليه .

وختمها بهذه الأبيات[4] :

كتبتُ وقد غالتْ عزائيَ[5] أشجانُ ... وقد شَرِقَتْ بالدمعِ والدمِ أجفانُ

وقد وقذتني نبأةُ الخطبِ لم تصخْ ... إلى مثلها في سالفِ الدهرِ آذان[6]

تصاممتُ عنها مستريحاً إلى المنى ... وقلتُ عساها في الأحاديث بهتان[7]

إلى أن جلاها الصدقُ عندي فهدَّني ... وإنَّ قليلاً أنْ تُضَعْضَعَ أركان

كذا فارقبوا يومَ القيامةِ بغتةً ... فيهلكَ شيطان وَيُهْتَكَ سلطان

عزاءً وأنى بالعزاءِ وقد هَوَتْ ... كما قد ذوتْ فيكم نجومٌ وأغْصان

وغاضتْ بحورٌ[8] للندى وتقلّصَتْ ... ظلالُ العلا وانهدَّ للمجد بنيان

....

[1] م : خيلت .
[2] م س : دام عزك .
[3] د : يخصكم .
[4] منها بيتان في كل من المغرب والمسالك .
[5] د : غرامي .
[6] سقط هذا البيت والذي بعده من م س .
[7] ورد البيت في القسم الثالث ٣ : ٨٤٩ وفي هذا القسم الثاني أيضاً : ٤٨٧ .
[8] م س : بحار .

لبانَ بما قد بانَ أمْنٌ[1] وإيمانُ | وفضلٌ وإفضالٌ وَحُسْنٌ وإحسان
همُ حَسَنُوا بالدهرِ ظنّاً فخانهم | وما الدهر إلاّ ناقضُ[2] العهدِ خوّان
ولولا الأُسى لم يبدُ في العيش عذره | وحسبي ولم أبعدْ عليٌّ وعثمان
وكم قبلها من مثلها ثم بعدها | وليس على دهر جنى[3] ذاك عدوان
وبين ضلوعي والجفونِ تنازعٌ | على الرَّسْمِ من جسمي فَسُحْبٌ ونيران
ولا شكَّ أني بين هاتين طائحٌ | فَيُغْرِقُ طوفانٌ ويحرقُ بركان
تقسّم صبري والحوادثُ جَمّةٌ | ملوكٌ وجيرانٌ وقومٌ وأوطان
لعلّ الليالي ، والليالي لواعبٌ | ستأتي التي فيها عن الغمّ سلوان
وفي الفمِ ماءٌ مانعٌ من زيادةٍ[4] | وعند الذي يُهدي كتابيَ تبيان
فَطَوّلْكَ في إرعاءِ سَمْعِكَ ساعةً | لتسمعَ ما شطَّتْ به عنكَ أزمان
وراجعْ ولو في صفحةِ الماء راقماً | وطالعْ فيكفيني من الطِّرسِ عُنوان

وله من أخرى : يا سيدي الأجلّ ، وغمامي المستهلّ ، وكوكبي النيّر المطلّ ، ومن أبقاهُ الله في الشمل الأجمعِ ، والأملِ الأمتع . أوذنْتُ بِمَقْدَمِكَ الميمونِ ، المُقِرّ للنفوس والعيون ، فارتحتُ ارتياحَ من أنْشدَتْ ضالّتُهُ . وأعيدتْ عليه بعد السَّقَم صحتُهُ ، وقد كان مِنْ وِرْدِ اشتياقي إليك ، أنْ أقع بين يديك ، غيرَ أنَّ الوجلَ[5] قيّد القدمَ ، فلم أجِدْ بُدّاً من أن أستنيبَ القلم ، ومثلك — دام عزُّك — شَرَحَ لِعُذْرِ وليِّهِ صَدْراً ،

---

[1] م س : يمن .
[2] س م : ناكث .
[3] م ط : حنى (حنا) ؛ د س : خنى .
[4] م ط : زيارة .
[5] م : الوجد .

ولم يظنَّ بصفيِّه فيما يقعُ من إخلاليه بخلاله وجلاله[1] غدراً . ومع هذا فلو كنتُ على ثقةٍ من وجدانك بمكانك ، لمشيتُ ولو على شوكِ [١٠٥ أ] القتاد ، مجتنياً من تلك الخلائق الناضرة[2] العاطرة زَهْرَ الربى والوهاد ، وناقعاً من تلك السجايا الباهرة حرارةَ الجوانحِ والأكباد — لا زلت لأوداتك أملا ، ولأوليائك فضلاً من الزمان كلا[3] .

ومن شعره[4]

أهدى الزمرّد مورقاً[5] ومنوّراً عجباً تطلّعَ كلُّ لحظٍ أبصرا
فحسبتُهُ من قلبه ومودّتي حجراً وريحاناً يرفُّ معطرا
وزَجَرْتُ منه بأنَّ قسوته انثنتْ ليناً كخدٍّ منه رقَّ وعذّرا
قد كان سري فيه ممنوعَ الحمى فاليومَ هُتّك كلُّ سرٍ سُتّرا
فلأخلعنْ ثوبَ الوقارِ عن[6] الصّبا ولألبسنْ ثوبَ الهوى متبخترا
ولأشربنْ كأسَ الصبابة علقماً حتّى أغاطَى كأسَ وصلٍ سكّرا
ولئن كتمتُ الحبَّ فيه صيانةً وضنانةً فكفى بجسمي مخبرا
وإذا سما بسمائه بدرُ الدّجى فعليه من قلبي السلامُ مكرّرا

---

١ ط : من إخلاله بجلاله .

٢ س : الباصرة (اقرأ : الباهرة) .

٣ س . وكلا

٤ انظر المسالك ١١ : ٤٣١ .

٥ المسالك : مونقاً .

٦ م : على .

واستكتبه العامل ابن القرويّ[1] الإسلامي ، فغاب عنه أياماً يشرب النبيذ فلامه على خَلْعِ عِذاره ، في استهتاره ، وترك خدمته ، فكتب إليه أبو الحسين :

أمْسِكْ عنانَكَ[2] إن ركبتَ قليلا ... واسمعْ وإن كان الحديث طويلا
إعْزِلْ وولِّ ففي حديثك آيةٌ ... لو أنَّ قومَكَ أحسنوا التأويلا
هلاَّ عذرتَ على البطالةِ أهلَها ... ورأيتَ رأياً في المدام أصيلا
هي ما علمتَ فإن عدَرَتْكَ[3] جهالةٌ ... فاستفسرنْ مِنْ سرِّها الانجيلا

وقال[4] :

تحكّمتِ اليهود على الفروجِ ... وتاهتْ بالبغالِ وبالسروجِ
وقامتْ دولة الأنذالِ فينا ... وصار الحكم فينا للعلوجِ
فقل للأعورِ الدجّال هذا ... زمانُكَ إنْ عزمتَ على الخروجِ

وله يخاطب بعضَ مَنْ نهضَ به زمانه لا إحسانه ، وكانت لداره بابان إذا انتُظِرَ من الواحدِ طلوعُه ، خرَجَ به من الثاني عُدولُه عن الفضل ونُزوعُه ، وفي ذلك يقول أبو الحسين وقد اختلف اليه فلم يلقَهُ ، ولا شامَ يوماً بَرْقَه :

يا ماجداً والزمان عَدْلٌ ... طال اختلافي لساحتيكْ
لقد رأيت الغريب حتّى ... رأيت شَعراً[5] براحتيك

---

١ ط : ابن القدوي .
٢ م س : عتابك .
٣ م ط د س : عدتك .
٤ المسالك ١١ : ٤٣١ — ٤٣٢
٥ م : شعري .

في ذكر الأديب أبي الحسن [غلام] البكري[1]
وإثبات جملة من محاسن شعره

وأبو الحسن في وقتنا بحرٌ من بحورِ الكلام ، قذفَ بدرَّ النظام ، فقلّده أعناقَ الأيام[2] ، أسحرَ من أطواقِ الحمائم ، وأبهرَ من النجوم العواتم ؛ من شعراء الدولة العبّادية ، لم تكن له رحلةٌ لسواها[3] ، ولا قَدَمٌ في غير ذراها ، وكان أخيراً هو وعبد الجليل وأبو بكر الداني هَقْعَةَ جوزائها ، ونَسْرَ سمائها ؛ وطبقتها التي قال بتفضيلها الإجماع ، وشهد لها [١٠٥ ب] العيانُ والسّماع . ولما انجابت غيومُها ، وامّحتْ نجومُها ، بخلعِ صاحبها ، خلَعَ أبو الحسنِ صَنْعَةَ الشعر خَلْعَ النجاد ، وتبرأ منها تبرُّؤ العبادية[4] من دعوة زياد ؛ إلا إلمامَ الطَّيْفِ بِعَيْنِ الفَرِقِ . والتفاتَ الدليلِ بثنيّاتِ الطرق ، واشتمل عليه البكريّون لِكَوْنِهِ إحدى ذُرى بنيانهم . وأحدَ[5] دعائم أركانهم . ولتعويله عليهم ، وانقطاعه بالولاء اليهم ، فألحفوه نعماهم ، وأغْنَوْهُ عن سواهم .

وقد أثبتُّ من شعره ما يقضي له بالفوق[6] . ويخصّهُ بِقَصَبَاتِ السَّبْق .

---

١ اسمه حكم بن محمد : وله ترجمة في القلائد : ٢٩٠ (وانظر ص : ٢٤٢ وعنه النفح ١ : ٦٥٧) والمغرب ١ : ٣٤٨ وبغية الملتمس رقم : ٦٩٢ والمسالك ١١ : ٣٨١ ولفظة « غلام » موجودة في فهرسة الذخيرة ، وفي المصادر .

٢ ط د : الأنام .

٣ ط : سواها .

٤ م س : العباسية .

٥ م س : وإحدى .

٦ د م س : بالفرق .

جملة من شعره

له من قصيدة أولها [1] :

ألاحتْ وللظلماءِ من دونها سِدْلُ عقيقةُ برقٍ مثلما انتضيَ النَّصْلُ

يقول فيها [2] :

نَكيّرتُ الدُّنا والأهل [3] فيها فليس لي بها عَقْوَةٌ آوي اليها ولا أهلُ
وأفردني صرفُ الزمان كأنني طريرٌ من الهنديّ أخْلَصَهُ الصقل
فيا ليت شعري هل مُقامي لنيّة تصيخ [4] لنجواها المطيّةُ والرحلُ [5]
وسير يخلّي المرءَ منه قرينَهُ [6] فريداً كما خلّى تريكَتَهُ الرألُ
فكم من حبيبٍ كان روضةَ ناظري [7] يرفُّ ويندى بين أفنانها الوصل
ضحى ظِلُّهُ إذ كُوِّرَتْ ليَ شمسهُ فشخصُ نعيمي لا يقومُ له ظل
غبرتُ وبادوا غيرَ أنَّ تلبُّثي وراءَهُمُ عيش يلذُّ له القتل
اذا كان عيش المرء أدهى من الردى فعائدة الأيامِ داهية خبل [8]

---

١ انظر القلائد والمسالك وبغية الملتمس .
٢ يقول فيها : سقطت من م س .
٣ د والقلائد : والأرض .
٤ ط : يصيح ؛ والقلائد : تضج بنجواها .
٥ القلائد : والرجل .
٦ القلائد : قريبه .
٧ القلائد : خاطري .
٨ القلائد : ختل .

وللناسِ همَّات تَبَحْبَحُ بالغنى[1] … وان كان جمعاً ضمّهُ اللؤمُ والبخل

اذا قنع المضطرُّ كانت بكفّهِ … مقاليدُ[2] لم يَبْهَمْ لها أبداً قُفْلُ

ومن راد[3] لم يعدمْ من الله نجعةً[4] … ففي كلِّ مَحْلٍ من غمامته وَبْلُ

رأيتُ النهى في المرءِ فضلاً يُشفّهُ[5] … ولكنَّ مَنْ يحويه ليس له فضل

ومن ميَّزَ الدنيا بتمييز أهلها … تبيَّنَ أنَّ العقلَ مثلُ اسمِهِ عقل

فيا ليت علمي[6] فيهمُ أنه عَمى … وحلمي الذي أشقى به أنه جهل

وطئتُ من الأيام أخشنَ جانبٍ … فهل ليَ منها جانب دَمِثٌ سَهْلُ

ولكتَ من الأعداء شَرْيَ ضغينة[7] … لبستُ بها ماذيَّةً مجَّها النحل

وقارعتُهُمْ حتى فللتُ شَبَاتَهُمْ … بِسَوْرَةِ عزٍّ لا يكفكفها الذّل

ولكنَّ صرفَ الدهر قِرْن إذ سطا … يخرُّ حفافيه[8] الفوارسُ والرَّجْلُ

ومنها[9] :

حُبِسْتُ كما ضَمَّ المهنّدَ غِمْدُهُ … وقُيِّدتُ مثلَ القَرْمِ يضغطه العَقْل

وَعُرِّيتُ من مالي وما ملكتْ يديَ … كأنيَ منه مُحْرِم ما له حلّ

---

١ م د . سجح ؛ ه : بالقنا ؛ س . فالقند .

٢ القلائد : مفاتيح .

٣ ط . داك ؛ د : ذاك ؛ م . أراد .

٤ ه س : تحفة ؛ ط : نعمة .

٥ د يشفقه . ط : يشيفه

٦ م : شعري .

٧ م : ولو كنت من . . . أسرى سمينة ؛ ط : طعينة ؛ د س : ظعينة .

٨ د : يجر حفافيه ، ط : يجد حفافيه .

٩ ومنه . سقطت من م س .

أري أعيُنَ الأعداءِ بِشْرَ طلاقةٍ وأوجهُ آمالي مُقَطّبَةٌ طُحْلُ
فمن لي بأنّي في جناحِ غمامةٍ لها بارق نحو الأحبّةِ مُنْهَلُ

وله من قصيدة[1] في المعتمد[2] :

مضيتَ كما يمضي الحسام المصمّم وأبْتَ كما آب الحيا المتبسّمُ[3][١٠٦أ]
وأسفرَ من مرآك صبحُ مَسرّةٍ تجلّى به قِطْعٌ من الليل مظلم
تحفُّ به الأجنادُ[4] تخطرُ بالقنا فخلناك بدرَ التِمِّ حفّتْهُ أنجم
لكَ العزَماتُ النافذاتُ التي بها رأينا قناةَ الدين كيف تقوَّم
سيعلمُ من ناواكَ أنّكَ لا الذي يَخيمُ عن الحرب العوانِ ويُحجم
دعِ السيفَ يُوهي ما بناه فإنما على السيف أن يبني بما هو يهدم[5]
لكيما يُقِرَّ الشامخون أنوفَهم بأنَّ علاكم للمعاطسِ مرْغم
أحلَّكَ ربعَ الملكِ[6] مَجْد مُؤَثَّل وسرو على مرِّ الجديدين قَشْعم
لِتَرْبأ[7] بك الأيام عن حدثانها فإنك في يَهْماءِ دهرك مَعْلَمُ
لربعك يَخْدي كلُّ نِضْوٍ كأنها قسيّ عليها من عُفَاتِكَ أسْهُمُ[8]
ويومِ كريعانِ الشباب شهدتَهُ يقيناً ولم يطمحْ اليه التوهم

---

١ س م : قصيد .
٢ المسالك ١١ : ٣٨٢
٣ ط د : المتنسم .
٤ م : الأجياد .
٥ وقع هذا البيت رابعاً في م س .
٦ ط د : المجد .
٧ ط : لتفرأ (اقرأ : لتبرأ) .
٨ اقترن الشطر الثاني من هذا البيت بالشطر الأول من البيت السابق في م .

فما خلتُ أن البحر يحويه مجلسٌ ... ولا يحتبي وَسْطَ النديّ يلملم

لقد طَرَّزَتْ نُعماك يَمْنة منطقي ... فراق بها وشيُ القريض المسهم

لك الخيرُ إنّ القلبَ واعٍ وإنما ... يبوحُ بما فيه اللسان المترجم

ولولا[1] الأسى ما رقّ شعرُ مهلهلٍ ... ولا حاز سبقاً في الرثاء متمم

وله من أخرى[2] :

إذا أنت عاينتَ الأنامَ ودهرهم ... ترى نَقَداً يأدو لِغِرّتها سِمَعُ

تأهلَ قلبي وحشة حَشّتِ الحشا ... وأقفر من أنسٍ كما أقفَرَ الربع

فلا جَبْرَةٌ[3] إلا إراقةُ عبرةٍ ... وزفرةُ منجودٍ يقومُ لها الضلع

هما نَصْرَتَا من لم تؤيدْه قدرةٌ ... وبئس النصيران التنفسُ والدمع

تدرَّعْتُ قلبي جرأةً وحزامةً ... ومن يدّرِعْ قلباً يَهُنْ عنده الدرع

فإن خَدَعتْ دنياي منيَ مُنجداً ... فانّ سرابَ القاعِ شيمتُهُ الخَدْعُ

وإن أفتَقِدْ عزمي فقد أطأ العدا ... بأخمصِ ضيمي مثلما يوطأ الفَقْع

هببتُ عليهم بالرَّدى فأطَرْتُهُمْ ... كما نفحتْ عَصْفاً مؤوّبة مِسْعُ[4]

عَلَوْا وهووا من غير نفعٍ كأنهم ... سماء ولا رجْعٌ وأرض ولا صدْع

أرى النقص عاراً في الجوارح والنهى ... فما لفمي أخذ ولا ليدي منع

---

[1] م س : فلولا .

[2] منها بيتان في المسالك .

[3] م س : خبرة .

[4] من قول الهذلي : « قد حال بين دريسيه مؤوبة ، مسع . . . » والمؤوبة : ريح تجيء مع الليل والمسع : ريح الشمال .

أصونُ ببذلِ الجهد عِرْضي وإنني   لأحفظُ أسراري كما يُحْفَظُ الشرع
وأفْتِشُ أعضائي مخافة أن يُرى   بها وصمة تُشْتى فيخطفها السمع
وأصْمِتُ أفواه الرواةِ بمقولٍ   لورقائِهِ في أيكةِ المنتدى سجع

وله من أخرى في المعتمد :

قرعت الصَّياصي بِشُعْثِ النواصي   وسُمرالعوالي وبيض القُضُبْ[١٠٦ب]
خميس يضاهي الحيا المكفهرَّ   إذا اختال في الهيدبى المنسحب
ودانَيْتَ حتّى ثغور الظبا   تبسَّمُ عن فَلَجٍ[١] ذي شنب
وخلّفْتَ قِتْلَك لمّا عتا   فليل[٢] المضاربِ دامي[٣] الندب
تحاجَزُ عنه[٤] العلا فُرَّكاً[٥]   وأبْتَ بها آنساتٍ عُرُب
يُراعيك مرتقباً مثل ما[٦]   رعى الشمسَ حرباؤها المنتصب
فخفَّضْتَ من طَرْفِهِ إذ سما   وأصمتَّهُ بعد طولِ الصّخَبْ
وعاودت قرطبَةً عِنْدما   عبأْتَ الهِناء لذاك الجرب

ومنها[٧] :

فلو أنَّ جَدّي كودّي لكم   لبوّأني الجدُّ أعلى الرتب
أليس ثنائيَ وسْط النديّ   يجرُّ المقاول أنْ تختطب

---

١ ط د : ملح .
٢ في النسخ : قليل .
٣ د : بادي .
٤ م س : تحاد عنه ؛ ط د : تحاجر .
٥ ط د : برکا .
٦ ط د : كلما .
٧ ومنها : زيادة من م س .

ألظّ الرواةُ به فازدهتْ قلائدُهُ في نحورِ الكتب

وله في القاضي أبي عبد الله بن حمدين يشفعُ لبني البكري :

بعدلك رِشْت جناح القضاءِ وسرْبَلْت حُكْمَك ثوب الضياء
وصارتْ خطاك على منهجٍ من القصدِ بين السَّنَا والسناءِ
ومدَّت ظلالُك نار الهجير ودرَّتْ سماؤك بالحرباء
وقد كمنتْ فيك سيما التقى كما كمن العودُ تحت اللحاء
وما يُحْمَدُ الرَّعْيُ في كلِّ وادٍ ولا يوجدُ الريُّ في كلِّ ماء
ختمت القضاء بحكم الإله كختمةِ أحمد للأنبياء [1]
دُعيتَ بكنيته واسمِهِ فنورُ الهدى طيَّ ذاك الدعاء
أهنّيك لا بل أهنّي الورى بأنْ فاز نقبهمُ بالهِناء
طلعت لهمْ وسْط عمياء لا ترى العينُ فيها سبيل اهتداء
ولحت منار هدىً نارُهُ يُوَرِّثُها مَلَكُوتُ السماء
فَهَدَيْكَ شمس يَطيرُ الضلالُ شَعاعاً بأرجائها كالهباء
وسَعْيُكَ في ذاته لم يَزَلْ يبيحُ الجنَى في جذوعِ الأشاء
فَحُطْ أفرُخاً ضمَّهُمْ في يديك حميم ثوى في ربوع الفناء
أغاض الردى منه ماء الندى وأخمد منه شهاب الذكاء
يضمُّكُما مُنْتَمَى وائلٍ وقُرْبُ النفوسِ أجلُّ انتماء
وأكرمُ حَيٍّ وفيٍّ رعَى أذمَّة مَيْتٍ كريمِ الإخاء

....

[1] في هامش ط بخط الأصل : انظر هذا التمثيل البشيع ، فليته لم يمثل به .

هم كبنيك فان تحمهم ... تنل من إلهك حسن الجزاء[1]
وتبدو مساعيك وضّاحةً ... تُعيرُ الدجنّة بِشر الضّحاءِ[2]
وليستْ ببِدْعٍ فكم مثلها ... صنعت وأوليت في الأولياء [١٠٧أ]
وذلك أنك من أسرة ... مهذّبةٍ كقداح السّراءِ[3]
نَضتْ[4] منك تغلبُ مشحوذةً ... مصمّمةً في المجنّ السّواء
فمن شام برْقك لم يعتمدْ ... ثراك ببذرٍ بطيء النماء
بعثْتُ إليك بها رايةً ... تقودُ لواديك سرْحَ الثناء[5]
ولم يأتِك الشعرُ من بابه ... ولكنّهُ واثق بالوفاء

وله من أخرى يصف بعض المصانع[6] السلطانية المعتمدية[7] :

أقرْنُ الغزالةِ أم معْقِلُ ... يكاد الجمادُ به يعْقِلُ
قرارةُ أنسٍ تُبين[8] الظباء ... به والضراغمةُ البسّل
تجرّدُ أفواهُها في الصفا ... سيوفاً بشمس الضحى تُصقل
وليست سيوفاً ولكنّها ... لظامي الثرى[9] منْهَلٌ سلسل

---

١ ط : العزاء .
٢ د : نشر الضياء .
٣ السراء : ضرب من شجر القسي ، الواحدة سراءة .
٤ ط د : قضت .
٥ سقط البيت من م س .
٦ م س : المصانيع .
٧ انظر المسالك ١١ : ٣٨٣ .
٨ تبن : تقيم .
٩ ط د : بصافي ؛ د: الندى .

تشق[1] المياهَ بهنَّ المياهُ كما شقَّ في اللأمةِ المنصل
محاسنُ للروضِ فيّاضةٌ بها تضعُ الأرضُ ما تحمل
ترضّعُ أطفالَ أشجارها ضروعُ مثاعبِيها الحفّل
يلي الحوضَ مِذْنَبُه مثلما جنا[2] الردف واندمجَ الأيْطَل
تلفُّ الثرى في برود الربيع إذا عزّتِ الروضةَ الشمأل
وفي صَحْنِ ساحته[3] مجلسٌ شَرودُ اللحاظِ به يُعْقَلُ[4]
كأن تماثيلَ جُدْرانهِ على مَنْ يقابلها تُقْبِلُ
تُبينُ بِفَصْلِ الخطابِ الفصيح لديك وإن أخْرِسَ المقول
وترنو وما راقها منظرٌ وتُصْغي وما رابها أزْمَلُ
تودُّ الكواكبُ لو أنّهُ لها يعتلي[5] أو له تنزل
ولو ظفرتْ بالمنى لم تزلْ حفافيه تطلعُ أو تأفُلُ
كأنَّ أعاليَه روضةٌ ومرمرُ أسفلِه جدول
ينمُّ سناهُ بأسرارهِ فتعلم عينُكَ ما تجهل
ويجري عليه فرِنْدُ[6] الحبورِ فكلُّ كئيبٍ به يَجْذَل
وتكرعُ في ماءِ لألائهِ ظماءُ العيونِ ولا تنهل
فلو أنَّ زهرته للهجير بدا[7] وَرْدُهُ وشدا البلبل

---

١ تشق : بياض في ط .

٢ جنا : مخفف جناً أي احدودب ومال ؛ وفي الأصل : جنى ؛ المسالك : جثا .

٣ المسالك : صفحته ؛ م س : صاحته ؛ ط : ساجته .

٤ ط د : تعقل .

٥ ط د : له تعتلي .

٦ ط . فريد .

٧ ط د . للنجوم ؛ م س : بقى .

وله من أخرى ، أوّلها :

شكري لنعماك شُكْرُ الروضِ للدّيمِ … فاقطفْ بأيدي الأيادي روضَةَ الكلمِ
أبتْ خِلالُكَ إلا كلَّ مَكْرُمَةٍ … بثّتْ[1] لك الحمدَ في عُرْبٍ وفي عجم
سجيّةٌ في العلا شابت ذوائبُها … وهمّةٌ نشأتْ في تربة الكرم [١٠٧ب]
جَيّشْ أياديَكَ الحسنى تقدْ لجباً … واجعلْ سلاحَكَ ما تُسديه من نعم
تَهزمْ أعاديَكَ اللائي إذا فحصَتْ … عنها المكارمُ لم توجدْ من الأمم
والقَ انتعاشَكَ عند العثْرِ[2] منفرداً … بلا أخٍ كانفرادِ الصارم الخذم
والفظْ جَنَاه[3] وإن لذّتْ مذاقتُهُ … فربما شَرِقَ الغَصّانُ بالشبم[4]
كم من سريرةِ عَلْيا بثّ أثرتها[5] … لك المهيمنُ بين اللوحِ والقلم
ومن أفانينِ صُنْعٍ كلّها نعم … لديك ترمي القذى في أعين النقم
من أيّ قطر[6] يكرّ الخطبُ تصدمه[7] … وإن عَرَتْكَ[8] المنايا الحمرُ لم تخم

ومنها[9] :

لولاك لم تنتظمْ في السلكِ لؤلؤة … ولا غدا الشعب منه جدّ ملتئم

---

١ ط د : بنت .

٢ د : الوفر ؛ ط : الود .

٣ م س : جفاد .

٤ ط د م : بالشيم ؛ س : بالشتم .

٥ د : بث آثرها ؛ س : بث لشرتها .

٦ د : فكر ؛ س : قصر .

٧ م : تصرفه .

٨ د : عنتك .

٩ ومنها : لم ترد في م س

واليتَ[1] سعيكَ بالتقوى فشافهه[2] بينَ الملمّاتِ نُجْحُ الله من أمم

فمجتبيك كمرتاح[3] رمى نظراً في ناضرٍ من رياض الحَزْن مبتسم

ومجتويك كمغرورٍ أجالَ يداً في مُزْبدٍ من عُباب البحر[4] ملتطم

دلائلُ الفضلِ في الساداتِ واضحة منها الوفاءُ ومنها الرعيُ للذمم

تبلى الليالي ولا تَبْلى عرائكُها وربّما جَدَّدَتْها لبسةُ الكرم

همى حَيَاكَ فأحيا مَيتَ كلَ ثرى ولاح بَرْقُكَ وضّاحاً لكلٍّ عم

من لي بتأدية[5] الشكر التي كتبت جدواك أسطره في صَفْحَتَي عدمي

حمّلْتني منه ما لو حلَّ في جبلٍ لرضّ رضوى وآدَ الركن من إضم

ما لي سوى العجز[6] والتقصير من وزر فاعذرْ شكورَكَ بعضَ العذر أو فلم

---

١ ط د س : وانيت .

٢ م س : فشابهه .

٣ ط د : فمحتنيك ، كرتاح : بياض في ط ؛ د : كثرثار .

٤ م س : الدهر .

٥ د : بنادية ؛ م ط : ببادية .

٦ في النسخ : الفخر .

في ذكر الكاتب أبي الحسن صالح بن صالح الشنتمري[1] وإثبات جملة من نظمه ونثره[2]

وأبو الحسن غربيّ[3] النشأة ، شنتمريّ الأفق ، شاعرٌ ناثر ، وله من المعرفة بلسانِ العرب حظ وافر ، وكلامُهُ في المماثلة والسّجْعِ ، جارٍ على الطبع ، ذاهبٌ بين الجزالة والحلاوة ؛ من رجل شديد الحَياء ، كثير الانقباضِ والانزواء ، يرى الكتابةَ عليه من أشقّ الأشياء ، لا لنبوٍّ طبعٍ وقلّةِ أدَب ، بل لضعفِ عصب ، فكان لا يكتبُ الرُّقْعَةَ إلا في مدّة ، وكثيرٌ من الكتّاب ، يشق عليه الكتاب ، لزمانةٍ تكون في يده ، أو إفراطِ ضَعْفٍ في خطّه ، وفيما[4] أثبتُّ هنا من نَوْعيَ كلامه ، في نثره ونظامه ، شاهدٌ على ما وصفته به ، ومنبّه على فهمه وأدبه .

---

1 انظر ترجمته في المغرب ١ : ٣٩٧ ورايات المبرزين : ٣٥ (غ) وذكر محقق المغرب أن له ترجمة في المسالك ٨ ، الورقة ٣٢٤ .

2 م س : نثره ونظمه .

3 م س : عربي .

4 ط د : ومما .

جملة من نثره

له من رقعة في استدعاء خلطة : المحاسنُ — أعزّك الله — على رُتَب وأحوال . وَصُوَرٍ وأشكال . فأحقّها بالإعظام والإجلال ، ما كان منها في الخصال والخلال ، وما يتلى من آيات براعتك ونبلك . ومَعْلُوَاتِ حَسَبك ونسبك . بَعَثَ على التّطارحِ عليك ، والحنينِ إليك ، وكم حننتُ إلى المخاطبة فملكني عنها ارتيادي لها سبباً[1] يوطّىءُ لها كَنَفَ [١٠٨ أ] القبولِ والارتضاء . إذ الهجوم عليها عندهم ضربٌ من الجفاء[2] ، والحنينُ في خلال ذلك يتزايدُ ويتصاعد[3] . إلى أن بلغ بي غايةً ملكتني عن التمالك ، وأمْسَكتني عن التماسك .

وفي فصل من أخرى : لو كان البدارُ[4] إلى المخاطبة بحكم الاعتقاد ، وعلى حسب المحبّةِ والوداد . لكنتُ أوّلَ مَنْ أعْمَلَ كَلِمَهُ في مكاتبتك ، وأرسَلَ قلمه لمخاطبتك[5] . لكنّ المخاطباتِ بين الناس قلّما تقعُ إلاّ بعللٍ وأسباب . كالدخولِ قلما يكون إلاّ على باب[6] .

---

١ م : سنى ؛ س : سنا .
٢ انظر ص : ٥٢٧ س ٦ — ٧ حيث كرر ابن بسام نفسه هذه العبارة .
٣ س : يتصاعد ويتزايد .
٤ م : البدر .
٥ م : بمخاطبتك .
٦ انظر أيضاً ص : ٥٢٧ س : ٦ .

ومن أخرى له[1] إلى الوزير الفقيه أبي الحسين ابن سراج : مثلك — أعزّك الله — لا يُغْرَبُ عليه بمقال[2] . ولا يُقَعْقَعُ له باحتفال[3] ، فإنّ العلومَ الشريفة بأصلها . والآداب الرفيعة بجملتها ، مشهورةٌ بروايتك ، محصورةٌ بدرايتك ، محظوظةٌ بحِفْظِكَ لها[4] . مَحُوطَةٌ بإحاطتك بها . والبلاغةُ التي هيَ أفضلُ ثمراتها . وأطيبُ طيباتها ، لا تعزى حقائقها إلا إليك ، ولا تُلْفى[5] معجزاتها إلاّ لديك ، ولا يُقْتدى في سُنَنها إلاّ بك ، ولا يُعْتَرفُ فيها بالعجزِ والتقصيرِ إلاّ لك ، ولذلك[6] أوجزتُ في كتابي هذا ، وتركتُ طريق[7] السجع حياءً من التعرض لصناعةٍ قد انفردتَ أنت بفضلها ، وسبقتَ أهلَ الزمانِ في ميدانها ، وأخذتَ عليهم مسالكها ، وأحرزتَ شرَفَ الدلالة[8] في مجاهلها .

وله من أخرى : كلُّ فَعَالٍ يقصّر عن فَعَالِكَ . وكلُّ إجمالٍ ينزُرُ عند[9] إجمالك ، وإنك فاضلُ أهْلِ زمانِك . ومقلةُ عينِ أوانِك ، فلوخاطبتُكَ بلسانِ الوائليّ والإياديّ[10] مخاطبةً جريتُ معها طَلَقَ الجموحِ ،

....

1 له : زيادة من م س .

2 ط د : يمزب عليه مقال .

3 م س : باحتمال

4 لها : سقطت من م س .

5 ط د س : تلقى .

6 ولا يقتدي . . . ولذلك : سقطت من س م .

7 م س : طريقة .

8 س م : الأدلة ؛ د : الدالة .

9 ط : عن ؛ د : عنه .

10 الوائلي : سحبان وائل ، والايادي : قس بن ساعدة .

وهببتُ لها هُبوبَ اليمانيةِ النفوح [1] ، وشحنتها بفصولِ الإعظامِ والإجلال ، وبلغتُ بها غايةَ [2] الاحتفال ، سعايةً في الوصول إلى قضاءِ حقّك ، وعنايةً بأداء الواجبِ المتعيّن لك ، لكنتُ في ذلك كمن جال في مناكب الأرضِ يرومُ الإحاطة بساحتها ، والوقوفَ على حقيقةِ مساحتها .

وإذا كان التطويلُ : لا يُبْلَغُ معه المأمول ، فالإضراب [3] أجمل ، والخطابُ دونه أسهل ؛ بهذه العينِ نظرتُ ، بعد ما صدرتُ ، ولذلك ما قَصَّرْتُ واختصرتُ ، فحبستُ العنانَ في أول الطَّلَقِ ، وصرفتُ العنايةَ لها إلى الأحقّ بها والأخلَقِ ، وصرّفتها إلى أن جمعتُ بين الاختصار والاعتذار ، وتشفّعْتُ بالاقرارِ إلى الاغتفار [4] . وإنّ ذلك لمما يجعلُ المعذرةَ في حيّز الاعتذار . لا سيّما عند مَنْ أصله أصلُكَ ، وفضْلُهُ فضلك . ممّن إذا تُشفّع إليه ، ورُغِبَ فيما لديه ، جاءتِ الشفاعةُ بين قرينتين : من شرفٍ قديم [5] ، وسلَفٍ كريم ، ومعونتين : من سريرةٍ جميلة ، ونحيزةٍ نبيلة .

وفي فصل له من أخرى : ومن الحقائقِ التي بَرِحَ فيها [6] الخفاء ، واستوى في علمها العلماءُ والجهلاء ، وأقرّ لها الأعداءُ والأولياءُ [7] ، أني متى أهَبْتُ بك إلى الإخاء ، وهززتُكَ بِوَصْفِ ما أنا عليه في الخلوصِ والصفاء ، فإنّما

---

١ النفوح : سقطت من س م .
٢ م س : أبعد غاية .
٣ ط : فالاضطراب .
٤ س : الاعتذار
٥ قديم : زيادة من س م .
٦ س : معها .
٧ س م : وأقر بها الأعداء كما أقر بها الأولياء .

أهبتُ بمن له في الكرم ، شُهْرَةُ العَلَم ، وفي السؤدد ، منزلةُ الفَرْقَد ، ويأبى — لا محالة [1] — ذلك الكرمُ الراسخُ ، والشرفُ المنيفُ الباذخ ، إلاَّ أن يبلّغاني من ودّك أملي ، ويعطياني من جميلِ اعتقادِكَ حتى أقولَ : بَجَلي ، وينقلاني من الوقوف على فَضْلِكَ بالأخبار ، إلى الوقوفَ عليه بالاختبار ، فيصيرَ علمي بكَ علمين ، ويقيني بك يقينين ، لا زال الزمانُ يُبْدي من أسرارِ فضائلك ، ويُهدي من أزهارِ شمائلك ، ما يَصُورُ [2] القلوبَ [3] إليك ، ويطالبُ الألسنةَ بالدعاءِ لك والثناءِ عليك .

وله من رقعة عتاب : إنَّا لله ، لقد غرقتُ من غِشِّكَ في بحرٍ عميق [4] ، وامتُحِنْتُ منكَ بعدوّ في ثياب صديق [5] :

ومن نَكَدِ الدنيا على الحرِّ أن يرى عدوّاً له ما من صداقته بُدُّ [6]

وقد كنت خاطبتك — لا مَسَّكَ خَطْبٌ ، ولا فُلَّ لكَ غَرْبٌ ، جارياً — علم الله — إلى التحقيقِ ، آخذاً بما يلتزمُهُ الصديقُ للصديق ، [١٠٨ ب] غيرَ ملتفتٍ إلى تلك البوادرِ التي كانت الدعابةُ تجريها ، وإدلالُ الودادِ السببَ فيها ، وما كان في كتابي شيء يتَّهمُهُ مَنْ أخلَصَ نيّة ، وأوى إلى حُسْن

---

١ ط د : ويأبى ذلك لا محالة .

٢ ط س : يصون .

٣ م : القلب .

٤ ط م س : غميق .

٥ من قول أبي نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

٦ للمتنبي ، انظر ديوانه : ١٨٤ .

طويّة ، اللهم إلا إن كان ما ضَمّنْتُهُ من التبجيل ، قد حرّفْتَهُ عن الوجه الجميل ، وتأوّلْتَهُ أقبحَ التأويل .

قال ابنُ بسّام : ومما لوّح فيه بالعتاب ، وزخرفَ بالتصنّع ظاهرَ الخطاب ، رقعةٌ خاطب بها مَنْ أحوجته الأيامُ إلى مصانعته ، وقد بَدَتْ منه بَوادٍ [1] صوّب فيها وصعّد ، وقام وقعد ، قال [2] فيها :

معلومٌ — أعزّك الله — أن لكلّ مقامٍ مقالاً ، ولكلّ [3] حالٍ تناولاً وحوالا [4] ، وكما لا يصلحُ الإكثار في كلّ خطاب ، فكذلك الاختصارُ لا يسوغُ في كلّ كتاب ، وفي النفسِ كوامنُ لا يمكنُ تبيينها عليك ، وتقريرها لديك ، إلا بالتّطويل ، وإن أصار إلى التثقيل ، وأنت بِعُلاكَ تصرفُ إليها بالكَ . لما وُهِبَ لنا أيها العمادُ من عرفانِكَ ما وُهِبَ ، وسُبّبَ من التعلّقِ بك ما سُبّبَ . رأيتني قد رقيتُ إلى جوار الأفلاك ، وجعلتُ الأخمصَ على ذروة السّماك ، لما رجوتُ من الاعتزاز بجانبك العزيز .

وفي فصل منها : وإني بحمدِ الله لممّن إذا عُلِمَ أكرمِ ، وإذا جُرّب قُرّب ، وإذا خبِرَ [5] ادّخِرَ ، أما الإكرام فلما أحملُهُ من الأدب ، الذي به يُرتَقى إلى عَليّاتِ الرّتَبِ ، وأمّا الادّخار فلاعتدالي في أحوالي ، وثقةٍ جعلها الله من خلالي ، وعندي من الآلات التي تبعثُ على اتخاذي واستعمالي :

---

١ ط م س : بوداد (واقرأ : بوادر) .

٢ موضع قال : بياض في ط .

٣ م س : وان لكل .

٤ م : وحذالا ، س : وخلالا .

٥ ط د : أخبر .

أني أقولُ من الشعر أبْدَعَهُ ، ومن النثر أرفعه[1] ،وأنقدُ النقدَ الذي قلَّ من يجاريني فيه ، ويباريني[2] في التكلّم على معانيه . وإن كان خطّي لا يلحقُ بالخطوطِ القوية الكتابية فان ضَعْفَهُ لتميمةٌ على جيّد لفظي ، ونميمةٌ على ذكاءِ فهمي واتساعِ حفظي ؛ فمن المعلوم المعروف . أنَّ العلماء مخصوصون بضؤولة الخطوطِ ولطافة الحروف ، فكلٌّ[3] يشهدُ أني أنْهَضُ إلى المطوّلات ، وأقتدرُ على المخاطبات السلطانيات ، وما أنا ممَّن يفتخر بخدمةِ الزمام ، ويجعلها ذريعةِ[4] إلى الإكرام :

معاذ إلهي إنني وعشيرتي بنفسيَ[5] عن ذاك المقامِ لراغبُ

ولكنني أفتخرُ — عند الاضطرار إلى الافتخار — أني حاملُ رواياتٍ ، وحافظُ لغات ، وذو شمائلَ تُنْسَبُ إلى مكرمات ، وما تطارحتُ قطُّ على زاهدٍ فيَّ ، ولا أظهرتُ حرصاً على غيرِ حريصٍ عليَّ ، بل كنتُ أقابلُ الإباءَ بنظيره ، وأظهر الاستغناء بظهيره ، وأنشد :

ولستُ بساقطٍ في قِدْرِ قومٍ وإن كرموا ، كما يقعُ الذبابُ
ورائي مذهبٌ عن كل ناءٍ بجانبِه إذا عزَّ الذهاب

ولست أضربَ المثلَ في سقوطي عليك ، وانجذابي إليك ، ولكنّي أقول :

---

١ د : أسمعه ؛ ط : أبد (ثم بياض) .
٢ ط : ويمازيني ؛ د : ويماريني .
٣ م س : وكل .
٤ ذريعة : سقطت من ط : وفي م : ضريعة .
٥ م : ونفسي .

إني أسقطُ[1] سقوطَ الطلِّ على الرياض ، وأتزيَّنُ بخدمتك تزيُّنَ الجمالِ بالبياض .

وله فصل في صفة القلم : بخطِّ اليراعة ، يُنالُ حظُّ البراعة ، وأفضلُ أقلامِ الكتّاب ، المنتخبة للكتاب ،ما لم يكنْ في طوله تعوّج ، ولا في صلابته ترجُّجٌ ، وكانت خصوصيةُ العنصرِ الذي نماه ، وسجيَّةُ المنبتِ الذي إليه منتماه ، قد أخذتْ به ما بين الدقّةِ المتناهية التي لا تُستَحسَنُ ، والغِلَظِ المفرطِ الذي يُستَخشَنُ ، وأقرَّتْه[2] على المقدارِ الذي لا يقعُ اختيارُ الكاتبِ على سواه ، ولا يتعدّاهُ اقتراحُهُ ولا يتخطّاه ، ثم انتحى بَرْيَهُ ذو يمينٍ رفيقة ، وسكّين رقيقة ، فأجاد الشق وأحكمَ القطَّ ، وجاء به غير شاقّ ولا عاق[3]،سَلِسَ الجريان إذا أُرْسِل ، موافقاً للبنانِ إذا أُعْمِل ، مُعْطِياً[4] لقياده ، غيرَ بخيلٍ بمداده ، تتبنّاهُ الأناملُ فترأمُهُ ، [١٠٩ أ] وتواصلُ العمل به فلا تسأمُهُ .

قال ابن بسّام : ومن البديع في وصف القلم ما حكاه العتّابي عن نفسه قال[5]: سألني الأصمعيّ فقال : أيُّ الأنابيب أصلحُ للكتابة وعليها أصبر ؟ قلت : ما نَشِف بالهجير[6] ماؤهُ ، وستر[7] عن تلويحه غشاؤه ،من التبريّةِ

---

١ إني أسقط : زيادة من م س .

٢ م س : وأقربه .

٣ ط . شان ولا عان .

٤ ط د : معط .

٥ زهر الآداب : ٦١٩

٦ س م : في الهجير .

٧ زهر : وسيره .

القشور ، الدريّة الظهور ، الفضيّة الكسور ؛ قال : فأيّ نوعٍ من البَرْي أكْتَبُ وأصْوبُ ؟ قلت : البَرْيَةالمستويةُ القطّ ، عن يمين سنّها برية تأمنُ معها المجّة عند المطّ،الهواءُ في مشقّها فتيق ، والريحُ في جوفها خريق ، والمدادُ في خرطومها رقيق . قال : فبقي الأصمعي شاخصاً إلي ضاحكاً لا يحير مسألةً ولا جواباً[1] :

وهذه أيضاً[2] قطعة من شعره

قال يتغزّل[3] :

أمَلي من الدنيا تيَسُّرُ خَلْوةٍ ... أبكي بها وأبثُّ سرَّ هواكِ
حولي وحولك أعين ومسامعٌ ... أخفي الهوى عنهنَّ عند لقاكِ[4]
حَذراً عليكِ فديتِ بي ومخافةً ... أن يَقصروكِ[5] ويحجبوا مرآك[6]
لولا الحياءُ وأنْ تشيع سريرتي ... لنثرتُ[7] شمل الدمعِ حين أراك

ومن شعره الطيار المليح ، المتناهي في خفة الروح . قوله[8] :

---

١ لا يحير . . . جواباً : سقط من م س .
٢ أيضاً : سقطت من م س .
٣ انظر المغرب ١ : ٣٩٧ .
٤ المغرب : إذ ألقاك .
٥ س : يبصروك .
٦ ط د : مأواك .
٧ المغرب : بددت .
٨ البيتان في المغرب ، وقد وردا في الذخيرة ٣ : ٤٩٠ ونسبهما صاحب الذخيرة له هنالك أيضاً ، وصرح ابن سعيد بأنهما قد ينسبان أيضاً لأبي محمد ابن سارة .

أسنى ليالي الدهر عندي ليلة لم أخْلِ فيها الكأس من إعمالِ
فرّقْتُ فيها بين جفني والكرى وجمعتُ بين القُرْطِ والخَلْخَالِ

وقوله :

للحسنِ في خَلْقِ من أهوى خلائقهُ روض بهيٌّ بسيف اللحظ محميُّ
فالجيدُ سوسنة والعينُ نرجسة والخدُّ وردٌ وذاك الخالُ خيريّ

وقال :

لله ما صنع الحياءُ بصفحةٍ لم تُبْقِ عندي للتجلّد مذهبا
كان البياضُ بها لجيناً خالصاً فأحاله فغدا[1] لجيناً مُذْهَبا

وقال :

أبدى الحبيبُ تعجباً من طولِ مكـ ـث الوردِ عندي عندما أهداهُ
لم يدرِ أنّ دوامَهُ في منزلي من أجلِ أنّ مدامعي سقياه

وقال :

وصافيةٍ كمعتقَدِ الصديقِ لها في الكأسِ إيماضُ البروقِ
كأن بكأسها ما تشتكيه[2] قلوبُ العاشقين من الحريق
إذا قَبَضَتْ يدُ الساقي عليها رأيتَ له أناملَ من عقيق[3]
شربتُ وصاحبي عَذْبُ الثنايا يعلّلني لماهُ على الرحيق

---

١ د : فقدي .
٢ م س : تشتهيه .
٣ ط : عقوق .

وقال :

وصهباءَ لم تُمْسَسْ بنارٍ ولم تُذَلْ بِعَصرٍ ولم[1] توهَنْ قواها[2] بماءِ
لحاني عليها مَنْ لحَا فزجرتُهُ وقلت له : مَهْ لستَ من قُرنَائي
سأشربها ما سوَّغَ الدهرُ شُرْبَها وعفْوُ إلهِ العالمين ورائي

ومما أبهم فيه ، وإنما يكني عن قَدَحٍ فخَّارٍ مزفّت[3] قد اتخذ للمشروب :

وخلٍّ إذا قلَّ المجيبون لم يزلْ إلى كلِّ ما أدعو إليه مجيبي
غدوتُ أخا التوفيقِ لما اتخذتُهُ أديبَ السَّجايا وفقَ كلِّ أديب
تخيرتُهُ من نجرِ آدمَ خالصاً فكانأخي في نَجرِهِ ونسيبي [١٠٩ب]

وله يمازحُ بعض إخوانه :

خُذْ ما أتاك من الزمانِ ولا تُطِلْ في إثْرِ ما قد فاتك البُرَحَاءَ
ماذا ترى في فلذة[4] رشراشة ورُقاقة ورقيقة[5] صفراءَ
إن كان عندكَ ما ذكرنا كلُّهُ وبعثتَ فينا لم تَخَفْ إبطاء

وقال :

ألاَ يا خيرَ مَنْ يُبْغَى نداه وَيُسْعَى نحو منزله ويُمشى
تحنُّ إلى بناتِ البحر نفسي وأكرهُ أن تموتَ لديَّ عطشى

---

١ ط د : ولا .
٢ اقرأ الألف الأخيرة من « قواها » بالقصر .
٣ مزفت : زيادة من م س .
٤ س م : بلذة .
٥ م : ورفيقة ؛ س : وفريقة .

وله يفتخر من كلمةٍ طويلة [1] :

خليليَّ ليس المجدُ إلاّ لعالمٍ ... على كلِّ مجهولٍ من العلم قائمِ
أخو العلم حيثُ احتلَّ أضحى مكرَّما ... ولا سيّما إنْ حلَّ بين الأكارم
وذو الجهل معدودٌ [2]، وإن كان سيداً ... طريرَ الكسا، في مُهْمَلاتِ البهائم
وإني لمن فاز بالعلم قِدْحُهُ ... وممن له فيه اشتهارُ المعالم
ولي قَلَمٌ قد شرَّفَ الله شأنَهُ ... بصنعةِ وشّاءٍ على الماءِ راقم
خليليّ ليس الخطُّ ما قد عنَيْتَهُ ... وإن كنتُ مشغوفاً به [3] جدَّ هائم
ولكنه لفظٌ إذا ما وشيتُهُ ... تحيَّرَ فيه كلُّ واشٍ وواشم
بلى إنَّ خطي فيه ضَعْفٌ وإنّما ... أقامَتْهُ ألفاظي مقامَ التمائم
إذا شئتُ نثراً كنتُ أنثرَ ناثرٍ ... وإن شئتُ نظماً كنتُ أنظمَ ناظم

ومنها :

تكلّفني الحَوْباءُ لا درَّ دَرُّها [4] ... سماحَ البهاليلِ الكرامِ الخضارم
تقولُ أحبُّ ذا قربى وصِلْ ذا وسيلة ... وقم بالحقوق الواجباتِ اللوازم
أمّا إنّني لو نلتُ أيسرَ نَزْرَةٍ [5] ... لكانت لكفّي بسطةٌ في المكارم
فآهٍ [6] لعصرٍ مثلِ أهليه جاهلٍ ... ودهرٍ لأبناءِ المروءةِ [7] ظالم

---

١ منها أبيات ثلاثة في الغيث المسجم ١ : ١٢٧ .
٢ هامش ط : معدوم .
٣ به : لم ترد في ط ؛ د : على .
٤ م س : لله درها .
٥ الغيث : يسرة .
٦ الغيث : فآهاً .
٧ م : المودة .

وله من أخرى يصف شروطَ المروءةِ ومكارمَ الأخلاق[1] :

أحبُّ من الأقوامِ كلَّ نجيبِ[2]	شريفٍ زكيٍّ الوالدين حسيبِ
وإني لذو علمٍ صحيحٍ يقينُهُ	بأنَّ صديقَ الصدقِ غيرُ غريب
ومن خُلُقي أني إذا ما وجدتُهُ	شددتُ عليه منه كفًّ رغيب
وإنَّ نصيبَ الجارِ عند احتياجه	إلى العونِ في مالي لمثلُ[3] نصيبي
وإنَّ بعيدَ القومِ ينزلُ ساحتي	ويأوي إلى ركني لمثلُ قريبِ
أمينُ له مالي وأحفظُ ماله	وآتيه من برِّي[4] بكلِّ عجيب
وألقى الخطوبَ السودَ في الذبِّ دونه	لقاءَ أخي صدرٍ لهنَّ رحيب
وجدِّكَ لو كان الزمانُ مساعدي	وكان الذي في راحتيَّ يفي بي
لألفيتَني جمَّ الفضائلِ منعماً	كثيراً إلى الفعلِ الجميلِ هبوبي [١١٠ أ]
تجودُ يدي قبلَ السؤالِ وتمتري	طلوبَ الندى جدوايَ غيرَ طلوب
لحا الله وهّاباً بطيئاً حباؤهُ	يجيءُ الذي يُعْطيه بعدَ لغوب
ولكنَّ وهّاباً يهبُّ إلى الندى	كما هبَّ عضبٌ في يمينِ ضَروب
يحاذرُ[5] أحداثَ الليالي وقلّما	خلا من توقّيهنَّ قلبُ لبيب
ويرتابُ[6] بالأيّام عند سُكُونها	وما ارتابَ بالأيام غيرُ أريب
وما الدهرُ في حالِ السكونِ بساكنٍ	ولكنّه مستجمعٌ لوثوب
لقد عاينَ الأيامَ مَنْ خافَ غدرها	بعينَي بصيرٍ بالأمورِ طبيب

---

١ منها ثلاثة أبيات في الغيث المسجم ٢ : ١٩٨ .

٢ ط د : محيب .

٣ ط د : بمثل .

٤ م : مالي .

٥ الغيث : تحاذر ؛ م : يحادث .

٦ الغيث : وترتاب .

وقال في مثل ذلك :

حبيبٌ إليَّ الدهرَ إعطاءُ سائلي ... وإكرامُ قُصّادي وعونُ خليلي

أهزُّ طباعي بل طباعي تهزُّني ... إلى الجودِ لا أرضى طباعَ بخيل

وراحٍ كما افترَّ الصباحُ سبأتُها ... لطارقِ ليلٍ ما عليَّ جليل

نضوتُ بها عنه جلابيبَ ليلِهِ ... فَعُوِّضَ من تَعْريسه بمقيل

وما زلتُ أسقيه وأشربُ فَضْلَهُ ... وكأسُ الكريمِ الفضلِ ذاتُ فضول

إلى أن تناهى طيبُهُ ونعيمُهُ ... ومالتْ به الصهباءُ كلَّ مميل

فوطّأتُ مثوى جَنْبِهِ وكَنَنْتُهُ ... بضافٍ لِصِنَّبْرِ الشتاءِ قتول

وقلتُ له لما تعاظَمَ عندَهُ ... صنيعي به ، هذا أقلُّ قليلِ

حللتَ بنا ليلاً وقد قُسِّمَ القِرى ... فلم يبقَ منه مَقْنَعٌ لأكيل

أقِمْ عندنا تستوفِ ما أنت أهْلُهُ ... فأنت لدينا أهلُ كلِّ جميل

وإني لممّنْ تعتريه كآبةٌ ... إذا آذنتْ أضيافُهُ برحيل

وهذا من حُرِّ الكلام ، وجَزْلِ النظام ، وسجيّة حاتمية ، وشِنْشِنةٌ أعرابية ، وإنّما احتذى أبو الحسن في هذا قول أبي عامر بن شهيد القرطبي في أبيات ، وقد تقدّم إنشادها ، أوّلها[1] :

ولما رأيتُ الليلَ عَسْكَرَ قَرُّهُ ... وهبّتْ له ريحانِ تلتطمانِ

---

[1] الذخيرة ، القسم الأول : ٣١١ وديوان ابن شهيد : ١٦٣ وجواب « لما » قوله :

وعنت السدري الليل ناران فارتأى ... شعاعين تحت النجم يلتقيان

وسائر القصيدة في الحفوة بالضيف على نسق شبيه مما أتى به الشنتمري .

فصل في ذكر الوزير أبي الحكم عمرو بن مذحج
وأبي الوليد ابن عمه ، ابني حزم ، وإيراد بعض ما لهما من ملح النظم

وأبو الحكم[1] منهما في وقتنا شقيق الوفاء ، وخاتمةُ مَنْ حَمَلَ هذا الاسم من النجباء ، وكان نادرةَ الوقتِ لمن اتخذ الإحسانَ قبلةً ،وَحُجّةً على من جعل النقصان جبلّة ، إذ عن كلّ قوسٍ من الفخر نزع[2] ، وفي كلّ أفقٍ من علوّ القدر طلع ، أول ما نشأ بدرَ فلك ، ومسحةَ ملك ، وإكليلاً على جبين ملك ، قلّما عنّ لنظر إلا راقه ، ولا اختلج ذكره في قلب بشرٍ إلا شاقه ؛ وإياه يعني الوزير أبو الحسن بن سعيد البطليوسي [١١٠ ب] وقد غلب على لبّه ، وأخذ بمجامع قلبه ، عجباً منه أو عجباً به[3] :

رأى صاحبي عمراً فكلّفَ وَصْفَهُ ... وحمّلني من ذاك ما ليس في الطوقِ
فقلت له عمرو كعمرو فقال لي ... صدقت ولكن ذاك شبَّ عن الطوق

وفيه أيضاً يقول الوزير أبو محمد بن عبدون من جملة أبيات[4] :

---

١ ترجمة أبي الحكم عمرو بن مذحج بن حزم الاشبيلي في المغرب ١ : ٢٣٨ والمسالك ١١ : ٤٣٢ وله شعر في النفح ٣ : ٤٧١ .
٢ نزع : سقطت من ط د .
٣ انظر نفح الطيب ١ : ٦٣٦ ، ٣ : ٤٧٠ والمغرب والمسالك ؛ وفي س م أنه أبو الحسن ابن السيد ، وهو خطأ ، لأن ابن السيد كنيته أبو محمد، وأما ابن سعيد هذا فترجمته تجيء في هذا القسم من الذخيرة .
٤ نفح الطيب ٣ : ٤٧٠ .

يا عمرو رُدَّ على الصدورِ قلوبَها من غير تقطيعٍ ولا تحريقِ
وَزُرِ الثريّا وهي نحن بكوكبٍ لولا العقوقُ لقلتُ بالعيّوق
وأدِرْ علينا من خلالِكَ أكؤساً لم تألُ تسكرنا بغيرِ رحيق

وفيه أيضاً يقول أحدهما[1] :

قل لعمرو بن مذحج خاب ما كنتُ أرتجي
شاربٌ من زبرجد ولمىً من بنفسج

فلما همَّ ليلُه بنهاره ، ودبَّ على سيفِ وجنته فرندُ عذاره ، راع المجدَ بحزمٍ وكرم[2] ، ونبوة[3] سيف وقلم ، ممّنْ سارى نجومَ الليل ، واحتلَّ[4] صهوات الخيل ، وعلى ذلك كلّه فلم ينسَ مكارمَ الأخلاق ، ولا خلا ذِكْرُهُ من قلوب العشّاق ؛ وله في الأدب سَبْقُ سَلَفٍ ، ومنه بيتُ شرف ، وله شعرٌ مطبوع قلّما يغبّه البديع ، وقد أتيتُ منه بفصول ، تشهد له بالتفضيل[5] .

....

١ نفح الطيب ٣ : ٤٧٠ والمسالك ونسبهما العمري لابن عبدون .
٢ س ط د والمسالك : بحر كرم ، وأثبت ما في المغرب .
٣ ط س : وأسوة ؛ والمسالك : وأسرة .
٤ ط د : وأصل ، وبهامش ط : لعله : وأصهل ؛ المغرب : وتقلب في ؛ س والمسالك : وأمل .
٥ وفيه أيضاً يقول الوزير . . . بالتفضيل : سقط من م وحدها .

جملة من شعره في أوصاف شتى

كتب إليه الوزير أبو محمد عبدون بأبيات قال فيها [1] :

سلامٌ كما هبّتْ من الحَزْنِ نفحةٌ تنفّسَ قبل [2] الفجر في وجهها الزهرُ
من الوارف [3] الفينان وشتّتْ برودَهُ ذراعٌ من الليثِ ، الثريّا له شبر [4]
وإلاّ يدٌ حزمية مذحجيّة تقشّعَ عنها مذحجٌ فانهمى عمرو
فجاد على تلك الأجارعِ والرّبى رواعدُهُ وعدٌ وبارقُهُ بشر
أبا حكمٍ أبلغ سلام فمي يدَيْ أبي حسنٍ وارفق [5] فكلتاهما بحر
ولا تنسَ يمناكَ التي [6] هيَ والندى رضيعا لبان لا اللجينُ ولا التبر

فراجعه أبو الحكم بأبيات منها [7] :

أتى النظمُ كالنظم الذي تزدهي به عروسٌ من الجوزاء إكليلُها لبدرُ
تجلّتْ [8] لنا منه بخطِّكَ رقعةٌ هي الروضةُ الغنّاء كلّلها الزهر

---

١ النفح ٣ : ٤٧٠ — ٤٧١ .
٢ النفح : عند .
٣ ط : الوافر .
٤ م : الميث ؛ ط : ستر .
٥ ط د : وارقني .
٦ م : ولا تنس لي تالك التي .
٧ انظر النفح ٣ : ٤٧١ والمسالك ١١ : ٤٣٢ — ٤٣٣ والمغرب ١ : ٢٣٨ .
٨ ط م : تجلت .

تحيّر ذهني في مجاري صفاتِه ... فلم أدْرِ شعرٌ ما به فهتَ أم سحر
فان قلتُ شعرٌ فالقلوبُ شعارُهُ ... وإن قلتُ سحرٌ فهو سحرٌ ولا كفر
أرى الدهرَ أعطاك التقدُّمَ في العلا ... وإن كان قد أوفى أخيراً بك الدهر
لئن حازتِ الدنيا بك الفضلَ آخراً ... ففي أخرياتِ الليلِ ينبلجُ الفجر

قول أبي محمد: « . . . أبلغ سلام فمي يدي » . . . ، معنى قد كرره في مواضع من شعره كقوله في المتوكّل :

إن كنت من أصْلي ومن عَصَبي ... أو كنتَ من فرعٍ نأى وَمَجُدْ
بلّغْ سلامَ فمي يَدَيْ ملكٍ ... غابَ الملوكُ عن العلا وشهد[1]

وحسان بن المصيصي القائل من شعر قد تقدَّم إنشاده[2] : [١١١ أ]

من مبلغٌ يدَهُ أني نظمتُ لها ... شكراً جعلتُ قوافيه من القُبَلِ

وقال أبو الحكم في صديقٍ كان له به هوى يسمّى باسمه :

يا مَنْ شكا فشكا جسمي بشكواه ... الله يكلأني فيه ويرعاهُ
ويا ضنى جسدي بالله صِلْ جَسَدي ... وخلِّ عنه ولا تُلْمِمْ بمثواه
عمرو بعمروٍ ولكن فيَّ مُحْتَمَل ... لما تجشّمه من برحٍ بلواه
الحمدُ لله حتى السقمُ نافسني ... فيه فأضحى كما أهواه يهواه
عينُ الكمالِ أصابتني ولي كبد ... مصدوعة فيه إن لم يدفعِ الله

---

١ ورد البيت في هذا القسم : ٤٤٢ .
٢ انظر ما تقدم ص : ٤٣٩ .

وله فيه وقد سقط عن دابّته وَوُثِئَتْ رجله[1] :

لقد أسرعتْ فيكَ العيونُ وإنما ... جميلُ دفاعِ الله عنك التمائمُ
وما أنت إلا البدرُ طارتْ بسرجه ... عقاب لها الريحُ[2] الخريق قوادم
ولا غروَ أنْ طافتْ برجلك وثأةٌ ... لها المجدُ خفّاقَ الجناحين حائم[3]
فقد ترجفُ الأفلاكُ في دورانها ... وتنقضُ أعلامُ النجوم العواتم

وكتب إلى الوزير أبي محمد بن عبدون[4] :

زُرْني فديتُكَ يا زعيمَ الناسِ ... لترى بدوراً من كبارِ أناسِ
أنت الهزبرُ وهم جآذرُ جاسمٍ ... قد خيّموا من منزلي بكناس
من كلِّ مَنْ أثوابُهُ مَزْرورة ... منه بغصنِ البانةِ الميّاس
يا راضعاً دَرَّ المكارم قفْ بنا ... « ما في وقوفك ساعةً من باس »[5]

وله في عمرو المتقدم الذكر :

يا عمروُ إنك لعبة من[6] سكّرِ ... فإذا مررت بسكّرٍ فتذكّرِ
ما شان وَجْهَكَ نمشة في صفحة ... فبذاك يوصَفُ كلُّ بدرٍ أزهر
يحمرُّ أحياناً فأحسبُ أنّهُ ... ورد ينقّطُ صَفْحَهُ بالعنبر

---

١ انظر المغرب ١ : ٢٣٨
٢ ط د : الجو .
٣ ط د : قائم .
٤ المسالك ١١ : ٤٣٣ .
٥ صدر بيت لأبي تمام (ديوانه ٢ : ٢٤٢) وعجزه : نقضي ذمام الأربع الأدراس .
٦ ط : في .

أضمرتُ فيك صبابتي فوشى بها ... دمع فككتُ به صحيفةَ مضمر
من ذا يفرّقُ بيننا وجلالنا ... متكافىء في المنتَمى والعنصر

وكتب إلى الوزير أبي العلاء بن زهر :

يا من نضا العزمُ منه صارماً خـَذِما ... توشّحِ المرهفين السيفَ والقلما
افرش[1] بمغدى ومَسْرَى حُرَّ أوجهنا ... وبعدها فانتعلْ أبصارنَا أدما
وما بأنفسنا بخل عليك فقد ... سارتْ أمامك تعدو البعدَ والأمما
أبا العلاء ابنِ للعليا تشيد ما ... أضاع منه بنو التضييع فانهدما[2]
لا زال شَمْلُكَ في وِرْدٍ وفي صدرٍ ... على اقتراحِ المعالي فيك منتظما

وله فيه[3] :

ضَعِ الرحلَ في حمصٍ بأيمنِ طائر ... ووالِ اصطناعَ الخير فيها وظاهرِ
فما هو إلا السّرْوُ بين موارد ... تصاحبُه طولَ المدى ومصادر[١١١ب]
لعمرُ العلا لولا أبوها[4] وذكرُهُ ... لما شاقني برق ببُرْقَةِ صادر
ولا بتُّ والظلماءُ إثمدُ مقلتي ... يؤرّقها بيضُ النجومِ الزواهر
وهبتُ فؤادي للبشير بأوْبِهِ ... سليماً ولم أبخلْ عليه بناظري
وأصغرْ بموهوبٍ وإنْ جلَّ قدره ... يقضّي به الأحرارُ حقَّ الأكابر
وإني وإعظامي لسؤدده الذي ... يعظّمه أهلُ النهى والبصائر
لألحى الليالي إنّهنَّ قعدنَ بي ... وألحقنَ جَدّي بالجدودِ العواثر

---

١ د : اسرف .
٢ لم يرد البيت في ط د .
٣ منها ثلاثة أبيات في المسالك ١١ : ٤٣٣ .
٤ م : أبوه .

فلو نهضتْ بي قدرة لهززتُ في | نهوضي إلى العَلْيا قوادمَ طائر
وما ليَ مركوب سوى رجليَ التي | تقيّدها أيدي السحابِ المواطر
غمام عداني عن غمامٍ كلاهما | ثناني غريقاً في البحور الزواخر

وله فيه :

متى تجتلي منكَ ابنَ زُهْرٍ نواظري | محيّا مصوغاً من حياً وحياءِ[1]
فقد دَوِيَتْ شوقاً إليك جوانحي | وفي يد لقياه مسيحُ شفاء
وأعجبُ مني كيف أصبحتُ جارَ من | حياتي بكفّيه ومتُّ بدائي

وله[2] :

قدمتَ علينا والزمانُ جديدُ | وما زلت تُبدي في النّدى وتعيدُ
وعيشِ[3] العلا لولا مراتبُكَ العُلى | لما اخضرَّ في أفْقِ المكارم عود
فيا ناهضاً والجِدُّ والجَدُّ صحبهُ | بحيثُ كبا للمنخرين حسود
لقيتَ أميرَ المسلمين وظلُّهُ | عليك بما تهوى لديه يزيد
فقمْ بالمعالي واستقلَّ بملكها | فأنت بملك العالمين قعيد
ولوحوا بني زهر فانَّ وجوهكم | نجوم بأفلاكِ العلا وسعود

وله فيه[4] :

---

١ ط د : وحباء .
٢ منها ثلاثة أبيات في النفح ٣ : ٤٧١ .
٣ النفح : وحق .
٤ منها بيتان في المغرب ١ : ٢٣٩ .

يا جالياً وجه السعادة[1] واضحا ومقلّباً طَرْفَ النباهة طامحا

صيِّرْ مجنّكَ صفحتَي قمرِ الدجى وَسِنَانَ رايتكَ السماكَ الرامحا

الله يعلمُ أنَّ بين جوانحي قلباً إليكَ مدى الليالي جانحا

دمْ للعلاء أبا العلاء مصاحباً واقتدْ زمانك سامحاً لا جامحا

وله فيه وقد جاز البحر معه ، فقال[2] :

يا ابنَ زُهْرٍ طأ الثريّا عبيراً وحصى البيدِ لؤلؤاً وعقيقا

وتلقَّ الهواءَ وهو طليق كمحيّاكَ حين تلقى الصديقا

ما ترى الريحَ كيف هَبّتْ رخاءً لكَ بعد الهبوب ريحاً خريقا

وَضَحَى البحرُ هيبةً لكَ لمّا جئتَهُ سالكاً عليه طريقا

غَمَرَتْهُ من راحتَيْكَ بحار صاح من موجها[3] الغريقَ الغريقا

فَرِقَ اللُّجُّ منك حتى استطارتْ منه أحشاؤه فريقاً فريقا

جُزْهُ يا ابنَ الكرام أرضاً ذلولاً أو فَقُدْهُ إنشئتَطر فأعتيقا [١١٢أ]

وانتضِ الحزمَ حيثُ كنتَ حساماً واصحبِ النُّجحَ حيث كنتَ رفيقا

وتفيأ عُلاكَ ظلاً ظليلاً وتنشّقْ ذكراك مِسْكاً فتيقا

وكتب إلى أبي الوليد ابن عمّه ، فقال[4] :

إني لأعجبُ أن يدنو بنا وطنٌ ولا يُقَضّى من اللقيا لنا وَطَرُ .

---

١ م : السيادة .

٢ فقال : زيادة من م س ؛ وانظر المسالك ١١ : ٤٣٣ .

٣ المسالك ؛ من بعدها ؛ م : وجهها .

٤ فقال : زيادة من م س ؛ ومنها بيتان في المسالك وثلاثة في النفح .

لا غرو أن بَعُدَتْ دارٌ مصاقبةٌ   بنا وجدَّ بنا في الحضرةِ[1] السفر
فمحجرُ العينِ لا يلقاهُ ناظرها   وقد توسّع في الدنيا به النظر
صبراً جميلاً وإن أبدى الزمانُ لنا   غيرَ الجميل فإنا معشرٌ صُبُرُ
وبيننا فِقَرٌ يجري المزاحُ بها   كالغُنْج في أعينٍ مرضى بها حور
نثراً ونظماً منَ الآداب بينهما   سحرُ البلاغةِ منظومٌ ومنتثر

بيته الثالث من هذه يتطرف قول الآخر :

كم والدٍ يَحْرِمُ أولادَهُ   وخيرُهُ يحظَى به الأبعدُ
كالعينِ لا تُبْصرُ ما حولها   ولحظُها يدركُ ما يبعد

وكقول الآخر أيضاً :

كتجاورِ العيَنين لا يتلاقيا   أبداً وبينهما قصيرُ جدار[2]

ومن جواب أبي الوليد له[3] :

لبّيْكَ لبيكَ أنت السمعُ والبصرُ   وإن أتتْ دونك الأحداثُ والغيرُ
إيهٍ أبا حكمٍ فالودُّ مقتربٌ   وإنْ تباعدتِ الأشخاص والصور
لا عَتْبَ فالودُّ يمحو ما أتيتَ به   حسبي من الذنب تجنيه وأعتذر
ينبو لسانيَ عن عتبِ الصديق وما   أزرى بِغَرْبَيْه لا عيٌّ ولا حصر

---

١ النفح : الحضرة .
٢ م : قصيد حداد .
٣ انظر المسالك ١١ : ٤٣٣ — ٤٣٤ .

ضنانةً بخليلٍ[1] أنْ أفارقَهُ ... ما القوسُ إنْ لم يكنْ يوماً لها وتر

أراعَ سربَكَ يا ابنَ العم أنْ درستْ ... سُبْلُ الوفاءِ فلا عينٌ ولا أثر

إنْ يرفعِ الدهرُ يوماً من خسيستهمْ ... وَحَطَّ منا ونحن الأنجمُ الزهر

فالدهرُ كالبحر تطفو فوقه جِيَفٌ ... وتستقرُّ بأقصى قعرِهِ الدرر

وقدم أبو الحكم من بعض أسفاره ، فكتبت إليه أنا بأبياتٍ منها[2] :

يهني قدومُكَ كلاً يا أبا الحكمِ ... يا دوحةَ العلم والآداب والحكمِ

مذ غبتَ ما رَنّقَتْ عيني إلى سِنَةٍ ... يا عمروُ إلا لكي ألقاك في الحلم

إن كنتُ من تغلبٍ في بيت سؤددها ... وكنتَ من مذحجٍ في السؤدد العَمم

فلم يَضِرْنا تنائي النسبتين وقد ... رحنا نسيبين في علمٍ وفي فهم

والعذرُ في زَمَنٍ أنْ جئتَ في أممٍ ... لا الجيلُ جيلُكَ فاعذرهمْ ولا تلم

في أبيات غير هذه ، وعاتبتُ فيها بعضَ إخوانه ، فراجعني بأبيات منها قوله[3] : [١١٢ ب]

يا مَنْ تناول حُرَّ اللفظِ من أمَمٍ ... بذي غرارين مثلِ الصارم الخذمِ

لو أنَّ لفظك تُهْديهِ إلى حَجَرٍ ... لما استجيز عليه الوصفُ بالصمم

هذي جوارحُ جسمي كلُّها أذُنٌ ... مذ جاء[4] منك بأذني لؤلؤُ الكلم

حاشا لنبلك أنْ تخفَى معالِمُهُ ... وهنَّ أشهرُ من نارٍ على علم

---

١ م س والمسالك : بخليلي .

٢ المسالك ١١ : ٤٣٤ .

٣ المصدر نفسه .

٤ المسالك : جاز .

إنْ كان للنبل عرنينٌ تُدِلُّ به حُسْناً فأنت به أبهى من الشمم
اردُدْ أنوفَ الليالي وهيَ راغمةٌ ما لم تكنْ لك في الإذعانِ كالخدم
من تغلبٍ أنت في علياءِ مركزها فمن يباريك في مجدٍ وفي كرم
قومٌ أراد ابنُ هندٍ أن يضيمهمُ فأوطأوا الرأسَ منه أخمصَ القدم
مآثرٌ قُسِمَتْ بين الورى وغدا للتغلبيين منها أوفرُ القِسَم
رأيتُ نفثةَ مصدورٍ بعثتَ بها منّي إلى متلظّي الصدرِ محتدم
لم تفضِ منيَ بالشكوى إلى طَلَلٍ ولم تبتْ عاكفاً مني على صنم
سافر بطرفٍ أو انظرْ هل ترى يقظاً يحلُّ من طَلَبِ الأيام في حرم
حوادثٌ لم تزلْ بالحرّ [1] لاعبةً كما تلاعبتِ الأيسارُ بالزلم
وبيننا قربةٌ ليست أواصرها ما بين آدابنا مجفوّةَ الرحم

ومن أبناء هذه القبيلة ، وشعراء هذه البيتة الأصيلة ،
ابن عمه أبو الوليد محمد بن يحيى بن حزم [2]

أحدُ أعيانِ أهلِ [3] الأدب ، وأجلى الناس شعراً لا سيما إذا عاتب [4] أو عتب ، جعل هذا الغرض هجيّراه ، فقلّما يتجاوزه إلى سواه ، وكلما أبدأ فيه وأعاد ، أحسنَ ما شاء وأجاد ، وفي كلّ معنىً يُحْسِنُ ،

---

١ م س : بالمرء .
٢ انظر ترجمته في المغرب ١ : ٢٣٩ والمسالك ١١ : ٤٣٤ ونفح الطيب ٣ : ٤٧٢ .
٣ أهل : سقطت من م .
٤ م : عابث .

أكثر مما يمكن ، ولكن رأيته في باب[1] العتاب يعلن بأمره ، ويُعْرِبُ عن ذاتِ صدره ، وقد أجريتُ من شعره في هذا المعنى وسواه ، ما يصرّح عن مغزاه ، ويشهد على بعد مداه .

جملة من شعره في أوصاف شتى
في النسيب وما يناسبه

قال[2] :

أتجزعُ من دمعي وأنت أسَلْتَهُ ومن نارِ أحشائي ومنك[3] لهيبها
وتزعم أنّ النفسَ غيرَكَ علّقت وأنت ولا منٌّ[4] عليك حبيبها
إذا طلعت شمس عليّ بسلوةٍ أثار الهوى بينَ الضلوعِ غروبها

وهذا البيت الأخير ينظر إلى قول مجنون بني عامر[4] :

نهاري نهارُ الناسِ حتى إذا دنا ليَ الليل هزّتني إليكِ المضاجعُ

وقال أبو الوليد[5]: [١١٣ أ] .

وطارحَكِ الواشون عنّي سلوةً مغالطةً هيهات ذاك بعيدُ

---

١ م : جواب .
٢ الأبيات في النفح ومنها اثنان في المسالك وفي معاهد التنصيص ١ : ٣٧٢ .
٣ النفح : وأنت .
٤ ديوان المجنون : ١٨٥ .
٥ منها ثلاثة أبيات في المسالك .

وكيف سلوّي عن هواكِ وإنَّه ليَبْلَى فؤادي وهو فيك[1] جديد
إذا ما ثناه الناسُ عنكِ لوتْ به علائقُ حبٍّ فيكِ ليس تبيد
بلى إن عرتني[2] فترةُ الصبرِ هزَّني تذكُّرُ أيامي بكم فأعود

وقال وهي من حسنات شعره ، وآيات ذكره[3] :

وكم ليلةٍ ألطفتْ بالمنى فقمتُ أبادرُ إلطافها
بشمس[4] إذا ما تأمّلتها رددتَ على الشمسِ أوصافها
بفترةِ[5] لحظٍ كأنَّ الكرى أعانَ عليها وإنْ خافها
وإني وإن عفتها مُعْلناً لأعذلُ في السرِّ مَنْ عافها
وهبّتْ علينا صباً رطبةٌ وقد عابث الطَلُّ أعطافها
وقد بشّها الروضُ هجر الحيا فجرّتْ على النورِ أطرافها[6]
وتَخَيَّلُ الظلام أمامَ الصباح والركضُ قد ضمَّ أجوافها
وقد فضَّضَ الفجرُ أذيالها وزاد فذهَّبَ أعرافها
وكاثرتِ البدرَ شمس بدت فمدّتْ على الأرضِ أكنافها
وغاضبتِ السُّحبَ[7] فيها الرياح فصرّتْ من الغيظِ أخلافها
وذكّرني بادارات الحمام حمائم تندبُ ألاّفها

---

١ م : فيه .
٢ المسالك : علتني .
٣ انظر المسالك ١١ : ٤٣٥ ومنها بيتان في المغرب .
٤ م : وشمس .
٥ ط : لعزة ؛ د : لغرة .
٦ سقط البيت من س م .
٧ ط د : الصبح .

وقال من أخرى[1] :

كم قلتُ فيكَ معرِّضاً ومصرِّحاً أكذا علقتَ ضلالةً بفلان
ومنيتَ من خُلَطائه بعصابةٍ خلطتْ بها شُبَهاً من البهتان
هيهاتِ لولا غُنْجِ[2] لحظِ محمد ما كنتُ نُهزَةَ أعينِ الغزلان
ولقد بعثتَ على السلوِّ لو آن لي قلباً يطاوعني على السلوان
فجعلتُ ثوبَ الصبر فيه بصيرةً وثنيتُ عن علمٍ إليه عناني
ونبذتُ حلمي والتفتُّ إلى الصبا ويدُ العفافِ تضمُّ من أرادني
لله أيام على وادي القرى سلفتْ لنا والدهرُ ذو ألوان
إذ نجتني في ظلِّه ثَمَرَ المنى والطيرُ ساجعةٌ على الأغصان
والشمسُ ترمقُ من محاجر أرمدٍ والظلُّ يركضُ في النسيم الواني
والراحُ تأخذُ من معاطفِ أغيدٍ أخذَ الصَّبا من عطفِ غصنِ البان
حتى إذا ضرب الظلامُ رواقه وخشيتُ فيه طوارقَ الحدثان
ملنا نؤمّلُ غيرَ ذلك منزلاً والراحُ تقصرُ خطوه[3] فيُداني
ويرومُ قولَ أبي الوليد وربّما كتبتْ مكانةَ لامه الواوان[4] [١١٣ب]
ثم احتللنا والوشاةُ بمعزلٍ وقد التقتْ في جفنه سِنَتانِ
والبدرُ يرميني بمقلةِ حاسدٍ لو يستطيعُ لكان حيث يراني
حتّى إذا نشر السرورُ بساطَهُ وطوى بساطَ شكيّتي لأوان
أهوى يقبّلُ راحتيَّ تودداً ويشدُّ عقد بنانه ببناني

---

١ انظر المسالك أيضاً .
٢ المسالك : غنج فاتر لحظه .
٣ المسالك : خطونا .
٤ ورد البيت في القسم الأول : ٣٠٩ وروايته « كتمت » .

ويقول إشفاقاً عليَّ ورحمةً متلجلجَ الألفاظِ بعد بيان
هاكَ[1] اغتنمها من زمانك خلسة تشفي غليلَ فؤادِكَ الهيمان
فلثمتُ فاه والتزمتُ عناقَهُ ويدُ الوصالِ على قفا الهجران
ومرقتُ من ظنّ الأعادي عفّةً والليلُ مشتملٌ على الكتمان

وقد كرر هذا المعنى في موضع آخر فقال[2] :

فاطلعْ طلوعَ الشمسِ أو معها فَيَدُ[3] السرورِ على قفا الحَزَنِ
في ساعةٍ سمحَ الزمانُ بها فكأنما هي المدّةُ الوَسَنِ

وقال[4] :

وكم ليلةٍ كاد الهوى يستفزُّني ولا رقبةٌ دون الأماني ولا سِتْرُ
وفي ساعدي بدرٌ على غُصْنِ بانةٍ يودُّ مكاني بين لبّاتِهِ البدر
وفي لحظِهِ كالسُّكرِ لا مِنْ مدامةٍ ولولا اعتراضُ الشكّ قلتُ هو السكر
وقد سلبته الراحُ سَوْرَةَ كِبْرِهِ ومال على عطفيه وانقطع العذر
وبين ضلوعي يعلمُ الله حاجةٌ طواها عفافي لا كما زعم الغدر[5]
فلم يك إلا ما أباحَ ليَ التقى ولم يبق إلا أن تحلَّ ليَ الخمر

---

١ م : هات .
٢ هما في المسالك ١١ : ٤٣٦
٣ م : بيد .
٤ منها أربعة أبيات في المسالك .
٥ سقط البيت من س .

وله في مثله[1] :

وكم ليلةٍ ظافرت[2] في ظلِّها المنى ... وقد طَرَقَتْ[3] من أعينِ الرقباء

وفي ساعدي حُلْوُ الشمائلِ مترفٌ ... لعوبٌ بيأسي تارةً ورجائي

أطارِحُهُ حُلْوَ العتابِ وربّما ... تغاضَبَ فاسترضيتُهُ ببكائي

وفي لفظه[4] من سَوْرَةِ الكأس فترةٌ ... تمتُّ إلى ألحاظه بولاء

وقد عابَثَتْهُ الراحُ حتى رَمَتْ به ... لَقىً بين ثِنْيي بردتي وردائي

على حاجةٍ في النفسِ لو شئتُ نلتها ... ولكنْ حمتني عفّتي وحيائي

قوله : « وفي لفظه من سورة الكأس » . . . البيت ، مما فتن فيه أبو الوليد فتنةً لا يحسنها السامري ، بل سحر سحراً لا تتعطاه الحبال ولا العصي .

وقال من أخرى :

لاحَ العذارُ فلاح عذريَ فيه ... وسقى ومن عينيه ما يسقيهِ[5]

وقضى عليَّ ومرَّ يسحبُ ذيله ... أكذا سفكتَ دمي ولستَ تديه

وفجعت سادةَ مذحجٍ بزعيمها ... وأمنْتَ من أشياعِهِ وذويه

هيهات لو ملك القضاءُ سبيلها ... لثنى عنانَ جماحِهِ[6] ثانيه

لكنْ حَمَاكَ الحسنُ من سطواتهم ... ومَنِ الذي ترنو فلا تصبيه [١١٤أ]

---

١ انظر المسالك أيضاً .

٢ المسالك : ضافرت .

٣ م : وكم طرفت .

٤ س والمسالك : لحظه .

٥ سقط هذا البيت والذي يليه من س .

٦ ط د : حمامه .

ولقد أتاح لك الهوى من معشري ما لا يكادُ الدهر يطمعُ فيه
وهويته عذبَ الشمائلِ مترفاً[1] نشوانَ يعثرُ في فُضُولِ التيه
كالغُصْنِ غازلتِ الصّبا أعطافهُ فتكاد لمحةُ ناظري تثنيه
أطوي إلهوى شُحّاً عليه ورقّةً والدهرُ ينشرُ منه ما أطويه
يجني فأضمرُ هجرهُ لا عن قِلىً والحبُّ يغفرُ كلَّ ما يجنيه
ولكم صَدَدْتُ فعارضتني سورة من وَرْدِ وجنته وَخَمرةِ فيه
كم ليلةٍ ضمّتْ عليه ساعدي والمسكُ يأخذُ منه ما يعطيه
والبدرُ من حَسَدٍ يجمجمُ قوله ما ضرَّ مَجْدَكَ لو شركتُكَ فيه

وقال أبو الوليد من أخرى :

وَشَتْ بهواهُ مقلتي ولساني وأتلفتُ فيه مهجتي وجناني
فلمّا تناهى الشوقُ واستحكم الهوى وقيل فلانٌ طاعةٌ لفلان
نأى عن مكاني حين لا ليَ حياةٌ وقد حلَّ من قلبي بكلِّ مكان
وصدَّ على عَمْدٍ ليشركَ في دمي ولو ظفر الأعداءُ بي لبكاني
ومن عَجَبٍ أني إذا رُمْتُ سلوةً وجدتُ هواه آخذاً بعناني
أبا قاسمٍ خُذْهَا شكايةَ واجدٍ كما وجد المقصوص للطَّيَران

وقال[2] :

أساكنَ قلبي والمقامُ كما ترى[3] لعلك تصغي ساعةً فأقولُ[4]

---

١ ط د م س : مترف .
٢ المغرب ١ : ٢٤٠ .
٣ المغرب : والجوار حفيظة .
٤ سقط البيت من ط

أعيذُكَ من أقوالِ قوم وربّما[1] فكم قمرٍ غطّى عليه أفولُ
وكم أمّلوا لا بُلّغوا[2] فيك خطّةً وحاشاك منها والحديثُ يطول
ومستكشفٍ لم يدرِ ما بين أضلعي يعرّضُ[3] بي واللومُ فيك ثقيل
فصكّتْ[4] لساني يعلمُ الله سكتةٌ لها في جَناني زفرةٌ وعويل
وسدَّ طريقَ اللحظِ دمعٌ كأنما تشحّطَ من جفنيَّ فيه قتيل

وهذا البيت مما أحسن فيه ، ولكن ابن الرومي زاد عليه بحسن الاستعارة والتشبيه ، وهو قوله[5] :

رسمُ الكرى بين الجفون محيلُ عفّى عليه بكاً عليكَ طويلُ
يا نظرةً ما أقْشَعَتْ لحظاتُها حتى تَشَحّطَ بينهنّ قتيل

ونسب هذين البيتين صاحبُ « العمدة »[6] لأبي نواس .

وقوله : « فصكّت لساني » البيت . . . يشبه قول حبيب[7] :

ولّى وقد أفْحَمَ الخطّيُّ منطقَهُ بسكتةٍ تحتها الأحشاءُ في صخبِ

وقال أبو الوليد من أخرى :

---

١ المغرب : مريبة .
٢ ط د : يبلغوا .
٣ المغرب : تعرض .
٤ المغرب : فشدت .
٥ البيتان لأبي نواس في ديوانه : ٣٨٨ ، وكذلك نسبهما له صاحب زهر الآداب : ٢٤١ .
٦ العمدة ٢ : ١٢٠ .
٧ ديوان أبي تمام ١ : ٧٢ .

وكم معشرٍ لاموا عليك رددتهم — وأكبادهُمْ غيظاً عليَّ تذوبُ
ومالوا إلى رَجْمِ الظّنون وبيننا — إذا ما خلَوْنا للعفافِ رقيب
ولمّا بدتْ أشياءُ منكَ تَريبني — وأكثرَ فيها مخطِىءٌ ومصيب
وشاركني فيك الذين علمتُهُمْ — ولم يكُ لي إلاَّ السلوَّ طبيب
تجافيتُ عن حظّي لهم فيكَ عنوةً — وقديتجافى الشيءُ وهو حبيب [١١٤ب]
إذا عرَّضوا أوليتهُمْ فيك سكتةً — ويَعْرِضُ دمعي دونهم فيجيب

وقال[١] :

لما استمالك مَعْشَرٌ لم أرضَهُمْ — والقولُ فيك كما علمتَ كثيرُ
داريتُ دونكَ مُهجتي فتماسكتْ — من بعدِ ما كادتْ إليكَ تطير
فاذهبْ فغيرُ جوانحي لكَ منزلٌ — واسمعْ فغيرُ وفائكَ المشكور

وقال[٢] :

يقول وقد لمتُهُ في هوى — فلانٍ وعرَّضْتُ شيئاً قليلا
أتحسدني ؟ قلتُ : لا والذي — أحلَّكَ في الحبِّ مرعىً وبيلا
فكيف وقد حُلَّ ذاك الحمى[٣] — وقد سلك الناسُ تلك[٤] السبيلا

وقال :

---

١ الأبيات في المغرب ١ : ٢٤٠ والنفح ٣ : ٤٧٢ .
٢ الأبيات في النفح ٣ : ٤٧٢ .
٣ النفح : ذاك الجناب .
٤ م س والنفح : ذاك .

أبلغ فلاناً وإن كنتُ الضنينَ به قولاً تطاير من أرجائه الشَّرَرُ
انّي تركتُ الحمى عن غير مَقْليَة لمعشرٍ وردوا قبلي وما صدروا
وصنتُ وَجْهَ عفافي عن تبذّله حتى سلا القلبُ عنه وارعوى البصر
يا أملحَ الناسِ إلا ريبةً عرضتْ تكادُ من ذكرها الأحشاءُ تنفطر
ما الذنبُ عندك إلاّ عفّةٌ صرفتْ يدَ الهوى عنكَ إلاّ ما جنى النظر
وباحثٍ عن غرامي فيكَ قلتُ له عنّي إليك فلا عينٌ ولا أثر
ويلي عليه وويحي[1] من تبذّله وطالما صُنْتُهُ او ساعَدَ القدر

ومن شعره في العتاب

قال من كلمة[2] :

مقالٌ يطيرُ الجمرُ من جنباته ومن تحته قلب عليك يذوبُ
أحينَ نبذتُ الناسَ إلاّ علالةً من الحسن يدعو ناظري فيجيب
ودنتُ بما تهوى هدىً وضلالة وما الناسُ إلاّ مخطيءٌ ومصيب
سَرَتْ لك في أفياءِ ظلّيَ قولةٌ لها بين أحناءِ الضلوعِ دبيب
فهلاّ على حالٍ وفيتَ لمن وَفَتْ[3] سجيّتُهُ حيثُ الوفاءُ غريب
وحاشاك أنْ تُعْزَى إلى المجد خطة تجشّمه داءٌ وأنت طبيب
ولكن أبى إلاّ إليكَ التفاتةً فؤاد عليه من هواك رقيب

---

١ م س : وويلي .
٢ بعض أبياتها في المسالك ١١ : ٤٣٤ : ٤٣٧ ومنها بيت في المغرب .
٣ وفت : سقطت من م .

وودٌ وإن أخّرتموه مقدّمٌ وَصَدْرٌ وإن أحرجتموه رحيب
وكم بيننا إن كنتَ تحفظُ ما مضى إذ العيش غضٌّ والزمان قشيب
وقد قام في وجه النسيم غُزَيّل تغازِلُ عطفيه صَبَاً وجنوب
وسدّ طريقَ الشمسِ بدر إذا بدا أهاتَتْ عيونٌ بالهوى وقلوب
يديرُ علينا السّحرَ ملءَ جفونه فكلٌ بريءٍ عند ذاك مريب
وتحت جناحِ الغيم أحشاءُ روضةٍ بها لخفوقِ العاصفاتِ ضروب
وللزّهْرِ في ضمن الرياضِ تبسمٌ والطيرِ من فوق الغصونِ نحيب
وقد شملتنا يعلمُ الله عفّةٌ على ماترى والعاشقون ضروب [١١٥أ]
أمَا والذي أعطاكَ شامخةَ العلا فزلّ شبابٌ عن مداك وشيب
لقد علّقتْ كفّاك منّيَ كوكباً له في سماءِ المكرماتِ ثقوب
حنَانَيْكَ لا تَحمدْهُ بعد توقّدٍ فربّتما علّ الطلوع [1] غروب
وخذها وإن صدّتْ قليلاً بوجهها ففي صَدْرِهَا شوقاً إليكَ لهيب

قوله : « وقد قام في وجه النسيم غُزَيّل » من براعة الشعراء الحلوة ؛ وأنشدت لأبي بكر بن سعيد البطليوسي[2] :

عندي قُطَيّع[3] قهوةٍ ومودّتي وأبو الحسينِ

وقال أبو الوليد من أخرى[4] :

.... -- ....

١ س م وأصل ط : عل ؛ ط : الضلوع .
٢ هو أبو بكر عبد العزيز بن سعيد أحد بني القبطورنة، وسترد ترجمته في هذا القسم: ٧٥٣.
٣ القطيع : الزجاجة الصغيرة .
٤ منها أربعة أبيات في المسالك .

ولقد منحتكَ مهجتي لبصيرةٍ   لاحتْ لقلبي في إخائكَ أو عمى
فلو اطّلعتَ على فؤادي لم تجدْ   إلاّكَ فيه ما أجلَّ وأعظما
وهوًى لطيفِ الكشحِ ذا جبريّة   إلاّ عليك فما أحنَّ وأرحما
كالغُصْنِ غازلتِ الصَّبا أعطافَهُ   نشوانَ يعبثُ بالنفوسِ وربما
وكأنّما غَمَرَ[1] الكرى أجفانَهُ   فتضرَّجَتْ وَجَنَاتُهُ منها دما
فكأنّما[2] لبس الملاحةَ حلّةً   ولقد خجلتُ لقولتي فكأنَّما[2]
يروّى ترابُكَ من مدامة ريقه   وسواك يَهْلِكُ لا سواي من الظما
فلئن هممتُ فغيرُ مشدودِ الحبي[3]   ولئن عففتُ فغير ممنوع اللمى
ولقد قنعتُ فلا قنعتُ بزورةٍ[4]   ولقد نجوتُ فما نجوتُ مسلّما
فأبحتُ مَسْرَحَ اللهو مرتادَ الهوى   ومنعتُ طيرَ الوجد أن يترنّما

قوله: « يروى ترابك » . . . البيت ، ذهب إلى قول الآخر :

أتمنعُ ريقَكَ المعسولَ عنّي   وأنت على التّرابِ به تجودُ

إلاّ أنّ هذا زاد عليه ، لبعض حاجته إليه ، ولكنه والله دعا الإحسان فأسمع ، وجادت نفسه فأقنع ، حيث يقول بعده :

وأنت لو اقتصرتَ عليه جدنا[5]   ولكنْ قد علمنا ما تريد

---

١ المسالك : غمز ؛ م س ط : عمر .
٢ م س : وكأنما . . . وكأنما .
٣ م ط د س : الحيا .
٤ د : ولقد قنعت بزورة من طيفه .
٥ م : حرنا .

وقوله : « ومنعت طيرَ الوجدِ أن يترنّما » ، من لطيف الاشارة ، ومليح الاستعارة . أومأ به إلى الكتمان ، إيماءً يأخذ بمجامع البيان .

وقال من أخرى[1] :

خذها أبا العبّاسِ قولَةَ مُخْلِصٍ ... إنْ وافقتْ من مِسْمَعَيْك قبولا
تطغى ويمنعها[2] الحياءُ وربّما[3] ... مالَ العتابُ بها عليك قليلا
واضيعتا للودّ عند معاشرٍ ... لا يهتدون إلى الوفاءِ سبيلا
فارغبْ بنفسك عن معاريض العدا ... لا زال دونك حدُّهُمْ مفلولا
وانظر[4] فربتما ضللتَ وكم فتىً ... لعبَ السَّرابُ بناظريه طويلا[5]
وأصخْ فغيري من يسوءك غيبهُ ... وسوايَ من رضيَ الوداد عليلا
وارفقْ فثمّ وإن صدرتَ[6] بقيّةٌ ... تأبى على رغم السلوّ رحيلا[١١٥ب]
فلطالما أجريتَ أجفاني دماً ... وملأتَ أضلاعي جوًى وغليلا

وله من أخرى إلى أبي الحكم ابن عمه[7] :

أعمروٌ كم أطامِنُها حياءً ... فتُطْغيها معاتبةُ الأماني
وإن وقفَ الغرامُ بها قليلاً ... فعذرُ أخيك في جَفَنيْ فلان

---

1 منها أربعة أبيات في المسالك ١١ : ٤٣٧ .
2 م س : تصغي ويحفظها ؛ المسالك : ويحفظها .
3 ط د : وإنما .
4 ط د : فانظر .
5 ط د : طولا .
6 م س : صددت .
7 منها بيتان في المسالك : ٤٣٧ .

أتتني قولةٌ هَجَسَتْ فكادتْ تغلُّ يدي وتعقدُ من لساني
ولم أرتبْ ومجدِكَ غير أني كليمٌ من مقارعةِ الزمان
أأرحلُ والنوى قَذَفٌ ورحلي كما تدري مظاهرةُ الحران
أما رأي الأمير ولم أرَجِّمْ ظنوني في التباعد والتداني
يُعينُ على المكارم عاشقيها وإنْ عزَّتْ مصافاةُ الحسان
ويَثني الدهرَ طوعَ يديَّ حتى كأنَّ الدهرَ كفِّي أو بناني
وإنْ سدَّ القضاءُ سبيلَ سعي فليس جميلُ سعيك لي بدان

فأجابه أبو الحكم بأبيات منها :

أمَا وعقيلةٍ لك غازلتني بغُنْجِ السّحرِ من جَفْنَيْ فلانِ
لقد أهديتَ لي منها عروساً مُعَرَّسها سويداءُ الجنان
جلَتْ من رقةِ التعريض صحفاً أرَقَّ من الحسام الهندواني
وأخشى أن أكونَ لها ظلوماً إذا سمَّيْتُها سحرَ البيان
بنفسي أنت قولُ الناسِ ريحٌ يوافقُ منك ركناً من أبان
أنا لك حيث كنتَ أخٌ أمينٌ إذا ما خان إخوانُ العيان
الا ليت القبولَ غدَت بسرجي إلى لقياك مطْلَقَةَ العنان
فألمحَ منك أروعَ أريحيّاً تبوَّأ ذروةَ الحسَبِ الهجان

ولأبي الوليد إلى أبي بكر ابن عمه[1] :

....

[1] أبو بكر محمد بن مذحج : أخو أبي الحكم عمرو ، انظر المغرب ١ : ٢٣٩ ونفح الطيب ٣ : ٤٧١ ؛ ومنها بيتان في المسالك : ٤٣٧ .

إليكَ وإن أصبحت عني بمعزل   وأخفقَ ظنّي في هواك ولا أدري
عتاباً كحدِّ السيف إلا بقيَّةً   عليك ولولاها لساءَكَ ما يفري
وأعددته للدهر جُنَّةَ واثقٍ   فألفيتُهُ سيفاً عليَّ مع الدهر
وأرسلته سهماً سديداً على[1] العدا   فأخطأهم عمداً وعاج[2] إلى نحري
أريشُ ويبري أعظمي غير مُقْصرٍ   فيا ليت شعري كم أريشُ وكم يبري

ومن جواب أبي بكر له[3] :

ولمّا رأى حمصَ استخفَّتْ بقدره   على أنها كانت به ليلةَ القدر
تحمَّل عنها والبلادُ عريضةٌ   كما سُلَّ من غمدِ الدّجى صارمُ الفجر
فيا أيها المهدي إليَّ صوارماً   من العَتبِ يفري حدُّها جُنَنَ الصبر [١١٦أ]
أفي الحقِّ أنْ يحظي بقربِكَ معشرٌ   قليلو الحجى ليسوا بخلٍّ ولا خمر؟

ومنها[4] :

ألسنا من القوم الذين سَمَوْا[5] بنا   إلى حيثُ لا تسري النجومُ التي تسري
فكم جعلوا عبساً يطولُ عبوسُها   وكم صبَّحوا بَكْراً براغيةِ البكْرِ

وقال أبو الوليد من قصيدة[6] :

---

١ المسالك : إلى .
٢ س والمسالك : وعاد .
٣ منها بيتان في المسالك والنفح .
٤ ومنها : زيادة من م س .
٥ م : ملوا .
٦ البيتان في المسالك ١١ أ : ٤٣٧ – ٤٣٨

وإذا الزمانُ رمى إليك مسالماً ... وأمِنْتَهُ فاحذرْ من الإخوانِ
وسجيّتي ما قد علمتَ وربّما ... صدىءَ الحسامُ من النجيع القاني

ومعنى البيت الأول كأنه يشير إلى ما قال الفقيه منصور[1] :

لو قيلَ لي خُذْ أماناً ... من حادثِ الأزمانِ
لما أخذتُ أماناً ... إلاّ من الإخوان

والبيت الثاني كقول ابن الملح من شعر وقد تقدّم[2] :

والعضبُ يستره القرابُ وربّما ... خَشُنَتْ مضارِبُهُ الرقاقُ من الصدا

ولأبي الوليد[3] من قصيدة[4] :

حبيبٌ إليه الوِرْدُ ، والمنهلُ الردى ... يسيرٌ عليه الخطبُ ، أهونُهُ القتلُ
إذا نال غاياتِ المكارم والعلا ... فلاأسعدتْسُعْدى ولاأجملت جملُ

ومنها[5] :

---

١ هو أبو الحسن منصور بن اسماعيل بن عمر التميمي المصري الضرير (– ٣٠٦) ، وقد ذكرت ترجمته في القسم الأول : ٨٨٣ والمصادر ، ويمكن أن يضاف إليها معجم الأدباء ١٩ : ١٨٥ والمغرب (قسم مصر) ١ : ٢٦٢ والمنتظم ٦ : ١٥٢ وحسن المحاضرة ١ : ١٦٨ ومعجم المرزباني : ٢٨٠ وجمع الجواهر : ١٢٠ – ١٢٢ ولم يرد البيتان في المصادر المذكورة هنا أو في القسم الأول .

٢ انظر ص : ٤٥٤ فيما تقدم .

٣ م س : ولأبي بكر .

٤ منها بيتان في المسالك .

٥ ومنها : لم ترد في م س .

نبذْتُ[1] إليكَ الناس لا غادراً لهم ... ولا طالباً جدواكَ إنْ خيَّمَ المحلُ
ونكّبْتُ عن قومٍ مضوا وبودِّهم ... لو آنَّ ثرى رجلي لأجفانهم كُحْلُ

وهذا كقول بعض أهل عصري :

وكم رافعٍ لي بالعداوةِ صَوْتَهُ ... يود لو آنّي بين أضلاعِهِ قَلْبُ

ولأبي الوليد من مرثية[2] :

بأيِّ مقالٍ من لسانيَ أرثيهِ ... وأيِّ دموعٍ من جفونيَ أبكيهِ
وقد جلّ رُزْئي فيه حتّى كأنما ... رزايا جميعِ الناسِ مجموعةٌ فيه

ومنها :

فَرَوْضُ سروري بعديومِكَ قد ذوى ... وعارضُ حزني فيك حلّتْ عزاليهِ
ولو كنتُ أدري أينَ ثاريَ نلتُهُ ... ولو حلَّ ما بين الكواكبِ جانيه

ومنها :

وإن كنت أوتيتَ السيادة ناشئاً ... فذلك فضلُ الله من شاء يؤتيه
وما باختياري عشتُ بعدك ساعةً ... فلي أجَلٌ يُفْنِي سوادي وأفنيه[3]
فيا قَبْرَهُ ماذا تُجِنُّ من العلا ... ويا يومَهُ ماذا نعي فيك ناعيه

وله مما كُتِبَ على قوسٍ وأخبر عنها :

---

١ ط د : تبدت .
٢ منها بيتان في المغرب ١ : ٢٤٠ .
٣ الشطر الثاني من هذا البيت اقترن مع الشطر الأول من البيت السابق في ط د .

إنّا إذا رُفِعَتْ سماءُ عجاجةٍ والحربُ تقعدُ بالردى وتقومُ
وتمرَّدَ الأبطالُ في جَنَبَاتها والموتُ من فوق النفوسِ يحوم
مَرَقَتْ لهم منا الحتوفُ كأنَّما نحن الأهلَّةُ والسِّهامُ رجوم
ولكم دمٍ عزٍّ القضاءَ ورودُهُ فَرَوِيْنَ منه والعوالي هِيمُ

في ذكر الأديب أبي بكر يحيى بن بقي[1]
وإثبات جملة من سريّ نظامه ، وحُرّ كلامه

[١١٦ ب] وأبو بكر في وقتنا هذا على صغر سنّه شهابُ فهم وَنُبل قلَّما يخلو شعره من بديع ، وأخرجته فتنةُ طليطلة — جبرها الله — الآتي خبرها في القسم الرابع من هذا المجموع ، ولمَّا يسطعْ بعدُ ضوءُهُ ، ولا نشأ نوءه ، فاحتلَّ اشبيلية ، فمن ثمَّ شرَّقَ وغرَّب ، وأحزن ذكره في البلاد وأسهب ، ولذلك نسقته في دررها ، وأثبته أثناء حجولها وغررها ؛ وقد أخرجت من شعره ما يشهد بما أجريت من ذكره ، ويبرأ من الإطراء ، ويُري أنّي ربما قصَّرتُ في الثناء .

---

١ أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن بقي (وعند السلفي يحيى بن حكم بن بقي وعند ابن الأبار يحيى بن أحمد) الشاعر الوشاح ؛ سرقسطي النسب (وقيل طليطلي) اشبيلي الأدب ، سلوي النشب ، وادياشي العطب ، أي أن أصله من سرقسطة (أو طليطلة) وتأدب باشبيلية ، واكتسب المال بمدينة سلا ، وتوفي بوادي آش سنة ٥٤٠ (أو ٥٤٥) ؛ قيل إن له ما ينيف على ثلاثة آلاف موشحة ومثلها قصائد ومقطعات ، وله مدائح كثيرة في بني عشرة أعيان سلا (انظر ترجمته في القلائد : ٢٧٩ وعنه وعن المطمح ترجمة منقولة في نفح الطيب ٤ : ٢٣٦ — ٢٤٠ ؛ ووفيات الأعيان ٦ : ٢٠٢ والسلفي : ٥٠ — ٥١ ومعجم الأدباء ٢٠ : ٢١ والمسالك ١١ : ٢٨٠ والخريدة ٢ : ٣٠٨ ونفح الطيب ٣ : ٢٠٩ ، ٣٤٧ ، ٤٠٤ ، ٤٣٩ ، ٤٤٨ ، ٤ : ١٣ ، ١٥٥ ، والمطرب : ١٩٨ وله موشحات في دار الطراز وجيش التوشيح .)

جملة من شعره في أوصاف شتى

استهدى من بعض إخوانه أقلاماً ، فبعث إليه منها بثلاثٍ من القصب ، وكتب معها إليه :

خُذْها إليكَ أبا بكرِ العلا قصباً كأنما صاغها الصوّاغُ من وَرِقهْ
يزهى بها الطرسُ حسناً ما نثرتَ بها مسكَ المدادِ على الكافور من ورقه[1]

فأجابه أبو بكر بأبيات منها قوله :

أرسلتَ نحوي ثلاثاً من قناً سُلُبٍ منآدةٍ تطعنُ القرطاسَ في دَرَقهْ
فالحظّ ينكرها والخطّ يعرفها والرّقُ يخدمها بالرقّ في عنقه

فكأنّ بعضَ من حضر سماعَ شعره حسده عليه ، ونسب الانتحال إليه ، فقال أبو بكر يخاطب صاحبه الأول من جملة أبيات :

وجاهلٍ نَسَبَ الدعوى إلى كلمي لمّا رماهُ بنبلِ النّبل في حَدَقِهْ
فقلتُ من حَنَقٍ لمّا تعرَّض لي من ذا الذي أخرج اليربوعَ من نفقهَ
ما ذمّ شعري وأيمُ اللهِ لي قسمٌ إلا امرؤٌ ليستِ الأشعارُ من طرقه
الشعرُ يشهدُ أني من كواكبه بل الصباحُ الذي يستَنُّ في أفقه

وله من كلمة في الوزير أبي العلاء[2] :

---

[1] لم يرد هذا البيت في ط د .
[2] يعني أبا العلاء ابن زهر ، الذي تقدمت ترجمته ص : ٢١٨ .

عُلّقتها من رَبْرَبِ العفرِ لكنّها عربيةُ النّجرِ[1]
لا تلتمحها ربما سَلَبتْ منك الفؤادَ وأنت لا تدري
واذهبْ بشأنك إنّ مقلتها سُقيتْ[2] ببابل قهوةَ السحر
سلْ بالعيون فتىً أصيب بها مثلي لتعلمَ صحّةَ الأمر
هنّ السيوفُ من الردى طبعت تَبْري القلوبَ وقلّما تُبري

ومن المدح :

مَنْ جَدُّهُ كعبُ بن مامة قد حاز النّدى بالطّي والنشر
هو آثرَ النّمريَّ صاحبَهُ بالماء في دَويّةِ القفر
واساهُ حتى مات من ظمأٍ ثم انطوى والجودَ في قبر
وأراك يا زُهَرُ اقتديتَ به في صبره ونواله الغمر
زُهَرُ الكواكبِ كلُّها شهدتْ أنّ السيادة في بني زهر
ذَرْ حاتماً يَشْجَى بكعبكمُ وافخرْ بدعمي[3] على عمرو
وافخر بنفسك لستَ دونهمُ ولئن سكتّ[4] فخيفةَ الكبر

وله من أخرى < فيه > :

افخر على الناسِ ملءَ الأرض من شممٍ العزُّ أقعسُ والآباءُ أنجادُ [١١٧أ]
هل يستوي الناسُ قالوا كلّنا بشرٌ فالمندلُ الرطبُ والطرفاءُ أعواد

---

١ بعد هذا البيت في م س : ومنها .
٢ سقيتْ : سقطت من ط د .
٣ دعمي الذي يعنيه هنا من إياد قبيلة كعب بن مامة وهو أخو زهر القديم (انظر كاسكل ١ : ١٧٤) .
٤ ط م س : سكنت .

وهذا يشبه قول أبي الطيب[1] :

فان تفقِ الأنامَ وانت منهم ... فان المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

وقال الحصري :

أبا بكر آنْ أصبحتَ بعضَ ملوكهم ... فانّ الليالي بعضها ليلةُ القدرِ

ومنها :

يا زُهْرُ زُهْرَ إيادٍ لا كما زعمتْ ... زُهْرُ النجوم فما للصّيد أندادُ
حقاً سلكتَ إلينا كلَّ موحشةٍ ... تيهاءَ ساكنها ظبيٌ وفيّاد
يجيبُ فيها الصّدى مَنْ ليس يسأله ... ويقتلُ الجوعُ فيها مَنْ له زاد
وينضبُ الماءُ وهو الجمُّ مورده ... [. . .][2] الرمل رملاً وهو أعقاد
والمروُ في الحرّة الرّجلاء قد حميتْ ... كأنّهنَّ من العشّاقِ أكباد
من شرّ ما طرَقَ الأقوامَ من نوبٍ ... وخير ما ارتاده للنُّجعِ مرتاد
يخرجن من جنَبَاتِ النقع طائرةً ... كأنّهنَّ سقوطٌ وهيَ أزناد

ومنها :

ولّوْا جميعاً بما في الدهرِ من حَسَنٍ ... لاعيبَ في القوم إلاّ أنّهم بادوا

وهذا كقول أبي تمام حيث يقول[3] :

---

١ ديوان المتنبي : ٢٥٨ .

٢ بياض في ط د س وموضعه كلمة غير واضحة في م ، ولعلها «ويحشد» .

٣ م س : كقول أبي حاتم من قصيدة ؛ وانظر ديوان أبي تمام ١ : ١٩١ .

وما كان بين الهَضْبِ فرقٌ وبينهم   سوى أنهم زالوا ولم يَزُلِ الهَضْبُ

ولأبي بكر من قصيدة :

لم أعلمِ الشوقَ إلاَّ من مطوَّقةٍ   فهمتُ عنها الذي قالت ولم تُبنِ
لا مثلها وسقيطُ الطلِّ يضربها   في عاتِقَيْ حُلَّةٍ من سندسِ اليمن
تذكّرتْ ساقَ حرّ وهي تندبُهُ   بالأخضرين من الظلماءِ والفَنَن
كأنهنَّ بأعلى الدوح إذ سجعتْ   رومٌ تَراطَنُ بالألفاظِ من فَدَنِ
والنجمُ منهزمٌ أولى كتائبِهِ   والصبحُ يَغْسِلُ ثوبَ الليل من درن
والروض يرشفُ ريقَ الطّلِّ عن ترف   وليت لي مثله ممّنْ يعذبني
دعِ المنى ربما نيلتْ بلا طَلَبِ   وربّما وقع الحرمان في المهن

ومنها في وصفِ طِرْفٍ :

لكن على سابحٍ نهدٍ مَراكِلُهُ   مؤلّلِ الجيد والأرساغِ والأذنِ
أقام في الحيِّ أحوالاً وآونةً   يُسْقَى الخليطين[1] من ماءٍ ومن لبن
فجاءَ إذ صَنَعُوهُ وهو مضطمرٌ   سامي التليلِ مُمَرَّ الخلقِ كالشَّطَنِ
يهوي من الأرض أنّى شاءَ راكبُهُ   وتتركُ الريحَ في الآريِّ والرسن

قوله : « والصبح يغسل ما في الليل من درن » . يشبه قولَ بعضِ أهل العصر : [١١٧ ب] .

شهمٌ له نظرةٌ في كلِّ مشكلةٍ   يكادُ يغسلُ ما في الطين من دَرَنِ

---

[1] م : الطريحين .

وقلبه من قول المعرّي[1] :

فإن كان يكتبه كاتبٌ ... فقد سوّد الصبحَ مما كتبْ

وقال أبو بكر من قصيدة :

أقبلتَ بالجيشِ ملموماً كتائبُهُ ... كأنّكَ البدرُ تحتَ العارضِ المطِلِ
في فتيةٍ كسيوفِ الهند أنحلَهُمْ ... حبُّ الصوارم والخطيّةِ الذبل
وتيّموا بعيونٍ غير فاترةٍ ... من الأسنّةِ لم تهجعْ مع المقل
إنْ لا تكنْ أعيناً نجلاً فانّ لها ... في أضلعِ القومِ مثلَ الأعيُنِ النجل

وما أحسن ما أتى بهذا المعنى ، وإنما ذهب إلى قول[2] أبي الطيب[3] :

أثبتّ[4] عينَكِ في حشايَ جراحةً ... فتشابها كلتاهما نجلاءُ

وقال :

« عليهنّ من وقعِ السيوفِ حواجبُ[5] »

ومن قصيدة أبي بكر :

ترى السماءَ دخاناً مثلما خُلِقَتْ ... والأرضَ قد شرقتْ بالخيلِ والإبلِ

---

1 اللزوميات ٤٧ / أ ؛ ١ : ١٢٦ .
2 م س : ذهب بقول .
3 ديوان المتنبي : ١١٥ .
4 الديوان : مثلت .
5 وقال ... حواجب : لم يرد في م س ؛ ولا يعرف إلى من يعود الضمير في « وقال » .

تمشي بها الخيل لا جُرْدٌ مطهَّمةٌ مشيَ الكواعب في حَلْيٍ وفي خلل
من كلّ مضطمرٍ الكشحين حافرُهُ أحقُّ من مبسم الحسناء بالقبل
يا معشرَ الروم قد شالتْ نعامتكمْ إمّا من الحَيْنِ أو من شدّةِ الفشل
لم يَكْسُكُمْ من ثياب الخزي أسبعها إلاّ اتّقاؤكمُ للصَّدْرِ بالكفل
يا ويلكم معشراً بل ويلَ أمكمُ فإنها وَلَدَتْ للثّكْلِ والهَبَلِ

وهذا المعنى كثير ، ومنه قول أبي تمام[1] :

لم تبقَ مشركةٌ إلاّ وقد علمتْ إنْ لم تُنِبْ أنّه للسيف ما تَلِدُ

وأخذه أبو الطيب فقال[2] :

للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

وقال محمد بن هانيء[3] :

لو تعلم الرومُ ما لاقتْ بطارقها[4] ما هُنِّئتْ أمٌّ بطريقٍ بمولودِ

وقال أبو بكر من قصيدة :

مَنْ لي به والوغى شهباءُ من أسلٍ في صهوةٍ من أقبّ البطن منجردِ
يُرْدي ويصرع أقواماً ، عيونُهُمُ حُمْرٌ من الرَّوْعِ لا حمر من الرمد
بكلّ غُصْنٍ من الخطّي منعطفٍ بطائرٍ من سنانٍ ليس بالغرد

---

١ ديوان أبي تمام ٢ : ٢٠ وروايته « إن لم تتب » .
٢ ديوان المتنبي : ٣٠٣ .
٣ ديوان ابن هانيء : ٤٦ .
٤ الديوان : لو كان الروم علم بالذي لقيت .

ومنها :

الدهرُ أخونُ من أن يستقيمَ لكم وإنما جاد عن كَرْهٍ ولم يكد
ومن تصنَّع يرجعْ بعد آونة إلى الطباع رجوعَ العَيْرِ للوتد

وهذا المعنى مشهور ومنه قول الآخر [1] :

كلُّ امرىءٍ راجعٌ يوماً لشيمته وان تمتّعَ أخلاقاً إلى حين

وقال آخر [2] :

يا أيها المتحلِّي غيرَ شيمته إن التخلُّقَ يأتي دونه الخلُقُ [١١٨أ]

وقال آخر [3] :

ومن يتكلَّفْ غيرَ ما في طباعه يَدَعْهُ ويغلبْهُ على النفسِ خيمُها

وقال الرضيّ [4] :

....

١ م س : الأول ، والبيت لذي الاصبع العدواني ، المفضليات : ٣٢٣ وبهجة المجالس ٢ : ١١٣ .

٢ بهجة المجالس ٢ : ١١٣ وروايته :

ما ان تخلقت إلا شيمتي خلقاً إن الخلائق يأتي دونها الخلق

وسقط البيت من م .

٣ هو كثير عزة ، انظر ديوانه : ١٤٨ وعيون الأخبار ٢ : ٥ والشعر والشعراء : ٤٢٠ واللسان (خيم) وروايته :

ومن يبتدع ما ليس من سوس نفسه (من خيم نفسه) .

٤ الرضي : سقطت من م س ، وانظر ديوان الرضي ١ : ٦٥٢

لاتُبْدِيَنَّ لِيَ التكلُّفَ في الهوى[1]   فَضَحَ التطبُّعَ شيمةُ المطبوعِ

ولكنّ أبا بكر استولى على الأمد ، ونفث بالسحر في العقد ، بقوله : « رجوع العَيْرِ للوتدِ » .

وله من قصيدة :

لم أنسَ إذ ودَّعتُهُ وقد التقت   منّي هنالك بالبكا عينانِ
يرنو بنرجسةٍ إليَّ وربّما   قَرَعَ الأقاحَ بياسمينِ بنانِ

وهذا كقول الآخر[2] ، ولكنّ أبا بكر نقص عنه[3] :

وأسْبَلَتْ[4] لؤلؤاً من نرجسٍ فَسَقَتْ   ورداً وعضّتْ على العنّابِ بالبردِ

وقال من أخرى[5] :

وقالوا ألا تبكي وتلك مطيُّهُمْ   على السُّهْبِ يحملن الأوانس[6] كالدُّمى
لئن نفدتْ[7] مني الدموع تغامزوا   وقالوا : سلا أو لم يكنْ قبلُ مغرما
فهلاَّ أقاموا كالبكاء تنهُّدي   إذا ما بكى القمريُّ قالوا ترنّما

---

١ الديوان : هيهات لا تتكلفن لي الهوى .
٢ هو الوأواء الدمشقي ، ديوانه : ٨٤ .
٣ ط : تقصر منه .
٤ الديوان : وأمطرت .
٥ منها ثلاثة أبيات في كل من القلائد والخريدة وبيتان في الرايات : ٤٩ (غ) وبيت واحد في المغرب .
٦ القلائد : الخرائد .
٧ ط م د س والقلائد : بعدت ، الرايات : أإن بعدت .

وهذا من حجول الكلام وغرره ، وإن لا يكن اخترع ، فما أتقنَ ما اتّبع ! !

ومنها :

نأوا بِصَموتِ الحجلِ عاطرةِ الشّذا مبتّلة الأعطاف معسولةِ اللمى
ألا نظرةٌ منها فتنقعَ غُلّةً على كبدي ما أشبه الشوق بالظما

وله من قصيدة :

وإني من الوُرْقِ السواجعِ بالضحى ولكنّني من بينها لم أطَوَّقِ

وهذا كقول ابن حمديس الصقلي ، وهو أبرع وأجمع وأصنع ، إلا أن أبا بكر قلبه على ما أراد ، ونقص منه فما أخلّ به ولا كاد[1] :

جناحيَ مبلولٌ وجيدي مطوَّقٌ وروضيَ مطلولٌ[2] فما ليَ لا أشدو

وله من قصيدة أيضاً[3] :

أتى به الدهرُ فرداً في فضائله وفي الفرائد ما يُربي على الجملِ
بياضُ عرضي تحامى الذمَّ جانبُهُ ليس السّوادُ بأبهى منه في المقل

والبيت الأول منها كقول بعض أهل عصرنا :

---

١ ديوان ابن حمديس : ٥٤٥ (عن الذخيرة) .
٢ د : مبلول ؛ ط : مملول .
٣ أيضاً : سقطت من م س .

وقد تقتضي هذه المفردات معانٍ تقصُّرُ عنها الجمل.

وله من قصيدة :

عندي حُشَاشةُ نفسٍ في سبيل ردى[1] إن شئتَها اليومَ لم أمطلْ بها لِغدِ
وكيف أقوى على السلوانِ عنك[2] وقد ربّيتُ حبَّكَ حتى شب في خلدي[3]
خُذْها وهاتِ ولا تمزجْ فتفسدها الماءُ في النار أصْلٌ غيرُ مطَّرد

وهذا كلام بديع ، ونظم سنيع[4] .

وقال :

جرِّبْ ولا تَغْتَرِرْ بمحمدةٍ قد يقتلُ [النَّورُ][5] وهو نفَّاحُ

وقال :

ولقد وصفتُ لعاذلي من حسنه طَرَفاً فودَّ بأنّه لم يَعْذُلِ
وعصيتُهُ فيما مضى من عهدنا وأنا الذي أعصيه في المستقبل

وله من قصيدة[6] : [١١٨ ب]

---

١ أصل ط : هوى .
٢ عنك : سقطت من ط د .
٣ م س : كبد (ي) .
٤ ونظم سنيع : سقط من م س ، كما سقط البيت التالي أيضاً من م وحدها ؛ ط : شنيع .
٥ ما بين معقفين لم يرد إلا في س .
٦ منها أربعة أبيات في كل من المغرب والقلائد ، وبيتان في الخريدة .

إذا ما غراب الليل مدَّ جناحا … عليَّ وغطّاني بريش قوادمِ[1]
تقلَّبْتُ في طيِّ الجناحِ لعلَّني … أرى الصبحَ يبدو من خلالِ القوادم
إلى الله أشكوها نوىً أجنبيّةً … لها من أبيها الدهرِ شيمةُ ظالم
سلا كلُّ مشتاقٍ برؤيةِ إلفـهِ … وكان عليَّ الشوقُ ضربةَ لازم
إذا جاش صدرُ الأرضِ بي كنتُ منجداً … وإن لم يجشْ بي كنتُ بين التهائم
أكُلٌّ بني الآداب مثليَ ضائعٌ … فأجعلَ ظلمي أسْوَةً في المظالم
أمِ الظلمُ محمولٌ عليَّ لأنّني … طلبتُ العلا من قبل حَلِّ التمائم
لعمرُ أبيك الخير ما آمل الغنى … للينِ لَبُوسٍ واحتفالِ مطاعم
ولكنَّما أمّلته لصنيعةٍ … أسُرُّ بها نَفْسَ الصديقِ الملائم
ستبكي قوافي الشعر ملءَ جفونها … على عربيٍّ ضاع بين أعاجم[2]
ولا ذنبَ لي عند الزمانِ علمتُهُ … سوى أنني للشعر آخرُ ناظم
توهَّمْتُهُ عمروَ بنَ هندٍ وخلتني … شقيّاً أتاهُ من وفودِ البراجم[3]

ومنها :

إليكَ ترامتْ بي قَلوصٌ كنبعةٍ … معطَّفَة في دَفِّها والحيازم
لعوبٌ إذا رَقْصُ السّرابِ استفزّها … ببيضِ الأداحي في النقا المتراكم
تباري الصَّبا في سيرها فكأنّها … جبانٌ تولّى في غبارِ الهزائم
وما راعها إلاّ الزمام تظنُّه … إذا ما تلوّى حيّةً في المخاطم

---

١ سقط هذا البيت من ط د .

٢ المغرب : الأعاجم .

٣ يشير إلى المثل : « إن الشقي وافد البراجم » . (فصل المقال : ٤٥٤ والعسكري ١ : ٨١) وكان عمرو بن هند قد آلى أن يحرق مائة من بني تميم ، فحرق تسعة وتسعين ووفى العدد برجل من البراجم أقبل على النار يظن أنه يجد عندها طعاماً .

وهذا كقول المعري[1] :

يحاذرنَ من وقعِ[2] الأزمّةِ لا اهتدى مُخَبِّرها أنَّ الازمَّةَ أصلالُ

وهذا كقول بعض أهل العصر[3] :

تخشى الزمامَ فتثني جيدها فَرَقاً كأنه بين ثنيي حيّةٍ ذكرِ

ومن قصيدة أبي بكر :

كأني من البيداءِ أطوي صحيفةً قد اختلفتْ فيها خطوطُ المناسمِ
لنفسكَ أكرِمْني ولا لمعاشِرٍ إذا انتُقِدوا كانوا زيوفَ الدّراهم
ومَيِّزك بي مَيْزَ الكميِّ بسيفه وان أدركتْهُ مهنةٌ في الصوارم
أحبّك للعليا غَصَبْتُكَ بعضَها وكلُّ كريمٍ مولعٌ بالأكارم
وإن كان منك الودُّ فيئاً أخذتُهُ غُلولاً وحظّي وافرٌ في المغانم
وإن تَصْطَنِعْني تصطنعْ ذا حفيظةٍ شديداً على الأعداءِ صَعْبَ الشكائم
له كلماتٌ كالقلائد في الطّلى ولكنّها في أوجهٍ كالمياسم
يشقُّ عليها تَرْكُ مَدْحِكَ ضلّةً لمدحِ أناسٍ في عداد البهائم
يصولون منّي بالمهنّدِ ماضياً وأمْسِكُ منهم بالحبال الرّمائم

ومنها في المدح :

حمدتُ السُّرى عند الصباح بماجدٍ هو الماءُ يُعطي ريّه كلّ حائم[119أ]

.....

1 شروح السقط : 1257 .
2 شروح السقط : من لدغ .
3 هو الأعمى التطيلي ، انظر ديوانه : 51 .

رَحَسْبُكَ من قاضي الجماعة أنه أمانٌ لمذعورٍ ومالٌ لعادم
به ثَبَتَ الإسلامُ في مستقرّهِ وشُلَّ فريقُ الكفر شَلَّ النعائم
إذا مشقتْ يمناه في بَطْنِ مُهْرَقٍ تحجَّب نُوَّارُ[1] الرّبى في الكمائم
ولاحتْ سطورٌ كالشباب حكينَ لي سلاسلَ أصداغ الخدودِ النّواعم
ومن لي بتقبيلِ الحروفِ فإنّها ثغورُ الدُّمى إلاّ ابيضاضَ المباسم
أقلُّ أيادي كُتْبِهِ ردُّ عسكرٍ وتأليفُ أشتاتٍ وَسَلُّ سخائم
ورثتَ العلا من تغلبَ ابنةِ وائلٍ تلاداً لها من عهدها المتقادم
وأنّي يجاريكم إلى المجدِ حاسدٌ جهولٌ بأسرارِ العلا غيرُ عالم
وهذا بُجَيْرٌ وهو خيرُ لداته سوى شِسْعِ نَعْلٍ منكمُ لم يقاوم[2]
ويا عجباً يُعْزَى إلى الجود[3] حاتمٌ وما هو منه في اللهى واللهازم
بل المثلُ المضروبُ في الجودِ للذي يعودُ على[4] أبناء كعبٍ وحاتم

وله من أخرى في الوزير أبي الحسين بن سراج :

تَشِفُّ وراءَ فطنَتِهِ المعاني شفيفَ الراح من خَلْفِ الزجاجِ
وما طلب الكلامَ الحرَّ إلا أتى بين انفرادِ وازدواج[5]
أقام العلمُ دهراً ليس يبدو لها منه سوى نُتَفٍ خِداج
وكان الناس في ظُلُماتِ جهلٍ فما جليتْ بغير بني سراج

---

١ ط د : أنوار .
٢ يشير إلى قول مهلهل التغلبي، وقد قتل بجير بن الحارث بن عباد: « بؤ بشسع نعل كليب » .
٣ ط د : المجد .
٤ ط : إلى .
٥ هذا البيت والذي يليه سقطا من م س .

وقال من قصيدة :

وبناتُ أعوج قد بَرِمْنَ بصحبتي   ممّا قطعنَ من اليباب المقفرِ
بيداءُ كالمحرومِ في أحواله   لا ذا أنيلَ وهذه لم تعمر

أراه كأنّ له في هذا بعضَ إلمام ، بقول أبي تمام[1] :

وإذا تأملتَ البلادَ وجدتَها[2]   تُثْري كما تُثْري الرجالُ وتعدمُ

وإلى هذا أشار بعضُ أهلِ العصر بقوله :

حظٌّ من الدين والدنيا أصبتَ به   كلٌّ يرزّأ حتى هذه البُقَعُ

ولأبي بكر من قصيد[3] :

من لم يعانقْ غزالاً في مغازلةٍ   ما بين ممتنعٍ طوراً ومنفعلِ
فما قضى من لبانات الصِّبا وَطَراً   ولا تنزَّه في روضٍ من الجذَل
وعاذلين رأوْا أنّي على خطأ   كما رأيتُ بأنّ القومَ في خطل
هل أنكروا غير تهيامي بغانيةٍ   سكرى من الدل أو ألحاظها النجلِ
ما زال يحجبها الغَيْرانُ مذ نَشأتْ   لو غيْرّها حجبَ الغيران لم أبلِ [١١٩ب]
في كلَّةٍ سِيَراءٍ تَتّقي نظري   يا أيّها الناسُ حتى الظلمُ في الكلل
من لي به حيثُ لا نخشى مراقبةً   ولا نَبيتُ من الواشي على وجل
في ليلةٍ لا يلي المرّيخُ مدَّتها   ولا نقيمُ بها إلا على زحل

---

١ ديوان أبي تمام ٣ : ١٩٥ .
٢ الديوان : رأيتها .
٣ م س : قصيدة .

أما الرياضُ[1] فقد أمهرتها قَدَحاً   من المدام نكاحاً ليس فيه ولي
عقيقةٌ في يدي سالتْ وأشْرَبُها   لو شُعْشِعَتْ بسجايا الدهرِلم تَسِلِ

وله من أخرى :

كيف صبري على الكؤوسِ إذا ما   عثر الروضُ في ذيولِ النسيمِ

وهذا من المقلوب ، إنما يعثر النسيم في ذيول الروض . فإن ذهب به أبو بكر مذهب الأخطل في قوله[2] :

* أو بَلَغَتْ سوآتِهِمْ هَجَرُ *

وشبهه فأبو بكر ممّن لا يتّهم أدبه . ولا يُعْجَمُ نبعه ولا غَرَبُهُ .

رجع :

وقال :

ورنا نرجسُ الرّبى بعيونٍ   وجلا الوردُ عن محيّاً وسيمِ
وبدا مِعْصمُ الخليجِ فخطّتْ   فَوْقَهُ الريحُ أسْطراً من وشوم
سوف تدري الهمومُ أيّةَ راحٍ   أخذتْ من أرواحنا والجسوم
بنتُ دنٍّ رعتْ[3] ببيداءِ نفسي   فهي تعدو به كَعَدْوِ الظّليم
كَرُمَتْ[4] في حدائقٍ غرسوها   لكرامٍ فسمّيت بالكروم

---

١ م س : الليالي .
٢ ديوان الأخطل : ١١٠ وأول البيت : « على العيارات هداجون قد بلغت ، نجران أو ...الخ
٣ م س : ريقت .
٤ م س : كرمة .

طُفْتُ بالأيكِ فاستهلّتْ دموعي لحمامٍ تبكي فراق حميم
تتغنّى الثقيلَ حتى كأنْ قد نشر اللهُ معبداً من رميم
عجمةٌ أعربتْ بوجدٍ دقيقٍ وكلامٌ مقطّعٌ من كلوم

قال ابن بسّام : لو لم يتجاوز معبد الثقيل إلى سواه ، لكان لأبي بكر ما ادّعاه ، وقرب منه ما تكلّفه وتعاطاه ، وأسْحَرُ منه وأولى بالحكمةِ وفصلِ الخطاب ، أبو العلاء حيث يقول ، يصف الأبل[1] :

كأنّ المثاني والمثالثَ بالضحى تَجاوَبُ في غيدٍ رُفِعْنَ طوالِ[2]
كأنّ ثقيلاً أوّلاً تُزْدَهَى به ضمائرُ قومٍ في الخطوبِ ثقال

ولعمري لو شبه سَجْعَ الحمام ، بخفائف الغريض وأهزاج حكم الوادي لكان أحسنَ عبارةً وأفتقَ إشارة .

وأما قوله : « كلام مُقَطّعٌ من كلوم » فأشفى للقلوب من اعتلال النسيم ؛ وأحلى على الأكباد من محاورة الطرف السقيم .

وفي هذه القصيدة يقول أبو بكر :

أوضعتْ بي إليه وجناءُ حَرْفٌ أكلتها السّفارُ أكلَ القضيم
تترك الريحَ خلفَها وهي حَيْرى بين إيضاعِها وبينَ الرّسيم
ظلتُ أطوي القفارَ منها بلامٍ طَبَعَتْها بالميم بعد[3] الميم

....

١ شروح السقط : ١١٨٨
٢ الغيد : الطوال الأعناق من الابل .
٣ م : إثر .

فأتتْهُ والمروُ[1] قد نال منها ... فهي تخطو على وظيفٍ رثيم
وقليلاً تمتّعَتْ في الفيافي ... بسنامٍ كالعارض المركوم
فأنخنا إلى فِنَاءِ جوادٍ ... مالُهُ نُهْبَةٌ لكلّ عديم[2]
فأكلنا لُهاهُ أكْلَ الضواري ... وشربنا [. . .][3] شرب الهيم

أما تشبيههم الخليج بالمعصم ، فطريق لم يبق له ستر محرم إلاّ هتك ، ولا فيه موضعُ قدمٍ [١٢٠ أ] إلاّ سُلِك ، فمن أشهره مناراً ، وأبهره أنواراً ، قول ابن عمار[4] :

روضٌ كأنّ النهرَ فيه معصمٌ ... صافٍ أطلّ على رداءٍ أخضرا

وقوله : « فسميت بالكروم » يشبه لفظُهُ لفظَ بيتِ المعرّي ، وبينهما من البعد ، ما بين الدرّة والحجر الصّلْد ، المعرّي أثبتُ فيه قدماً ، وأمسّ رحماً ، حيث يقول[5] :

وأنت أبوها إن غَدَتْ كَرَمِيَّةً ... وإنْ سكَّنَتْ راءٌ فوالدها الكرم[6]

وذكرت بقوله : « بلام ، طَبَّعَتْها بالميم بعد الميم » ، قولَ ابنِ الرومي في جهة أخرى :

---

١ ط د : والمره، والمرو : الحجارة .
٢ هذا البيت والذي يليه لم يردا في م س .
٣ سقطت في ط ، وموضعها في د : « لماه » .
٤ انظر ما تقدم ص : ٣٨٢ .
٥ شروح السقط : ١١٥٠
٦ شروح السقط : كرم .

يا أخا النحوِ والمقدَّمَ فيه لِمْ تَرَى[1] اللامَ أدْغِمَتْ في الميم

وكتب خلف الأحمر إلى بعض المؤدبين :

أتترك في الحلالِ مَشَقَّ صادٍ وتأتي في الحرام مشقَّ ميم

وذكر الثعالبيّ[2] أنه كان للقاضي عليّ التنوخي غلامٌ وسيمٌ ، اسمه نسيم ، وكان يؤثره على سائرِ غلمانه ، ويخصُّه بتقريبه واستخدامه ، فكتب إليه بعض إخوانهِ يداعبه :

هل عليّ لامُهُ مُدّغمٌ لاضطرارِ الشعرِ في ميمِ نسيمْ

فوقّع تحته : نعم ولِمَ لا ؟ !

وقال أبو بكر من قصيدة :

واحرَّ قلبي من خليطٍ زائلٍ صبري على آثاره سيزولُ
زُمّتْ له قُلُصٌ يبارينَ الصّبا ولربّما سبقَ الهبوبَ ذميل
همْ فارقوك وحمّلوكَ من الأسى ما ليس يحملُ شامةٌ وَطَفيل
زَرَعُوا بقلبكَ حُبّهَ ، ونباتُهُ برحُ الجوى ، لا إذخرٌ وجليل[3]

---

١ ط : لم تر ؛ م س : لن ترى .

٢ اليتيمة ٢ : ٣٣٦

٣ في هذا البيت والذي قبله إشارة إلى قول بلال بن رباح مؤذن الرسول (ص) :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

وشامة وطفيل : جبلان قرب مكة .

شيعتُهُمْ متوجِّهينَ وأدمعي حَذَرَ الفراقِ سوافحٌ وهمول
ونظرتُ في تلك الحدوجِ وطيِّها غزلانُ وجرةَ أهيفٌ وكحيل

وقال من أخرى :

لا تحملنّي على التسويف في هبةٍ فيلتقي فرحي فيها مع الأسفِ
ليس اعتذارك بالأشغالِ أقبلُهُ فان شُغْلَكَ بي أدنى إلى الشَّرف

وهذا كقول الأوّل[1] :

ولا تعتذرْ بالشغلِ يوماً فإنّما تُناطُ بك الآمالُ ما اتّصل الشغلُ

وقال أبو حاتم الحجاري[2] :

إني لأعلم أن شغلك بالعلا والمجد فاجعلني من الأشغال

وقال أبو بكر من قصيدة[3] :

عليك أبا عبدِ الإله خلعتُها لها البدرُ طوقٌ والنجومُ دلائلُ
وما هي إلاّ الدهرُ في طولِ عمرها وإن لم يكنْ فيها الضحى والأصائل

قال ابن بسام[4] : ويا لهذا البيت ما أحْسَنَ مَذْهَبَه، وأبدعَ منتواه[5]

---

١ انظر الإمتاع والمؤانسة ٣ : ٢٢٩ والبصائر ٢/١ : ١٥٩ وزهر الآداب : ٢٨٦ وربيع الأبرار : ٢٥٨ ب (نسخة برنستون) .
٢ انظر الذخيرة ٣ : ٦٦٣ ؛ وسقط قول الحجاري من ط د .
٣ البيتان في تمام المتون : ٢٨٩ .
٤ قال ابن بسام : سقطت من ط د .
٥ ط د : مثواه .

وَمُنْقَلَبَه ، إلا أنه أتى بالدهر مسلوبَ الضحى والأصائل ، فلم يزدْ على أن جلاه في زيّ عاطل ، لا بل أبرزه في مُسوحِ شوهاءَ ثاكل ، وليت شعري أيّ شيء أبقى للدهر المظلوم ، بعد ضحاه الناصعةِ الأديم ، وآصاله المعتلّةِ النسيم ؟ هل بقي إلا ليله الأسودُ الجلباب [١٢٠ب] وهجيره السائلُ اللعاب؟! ولو قال لممدوحه: « وتلك العلا فيها الضحى والأصائل »[١] لأبرز قصيدته رقّافةَ البرود ، شفّافة العقود ، ولأفاد ممدوحه بهذه الكلمة مدحاً لا يسعه المقال ، ولا تفي به القصائدُ الطّوال .

وله من أخرى :

وما أكثرُ الأقوام إلاّ ثعالبٌ ... تروغُ ولا يُحلَى لديها بطائلِ
يردُّون ذهني حائراً في طباعهمْ ... كأنهمُ من مُشْكلاتِ المسائل
وأصغي إلى أقوالِهِم فتَريبني ... صدورٌ لهم أقْوَيْنَ مثلَ المنازل

وقال :

خُذْها على وجهِ الربيع المُخْصِبِ ... لم يقضِ حقّ الروضِ من لم يَشْرب
همي سماءُ علاً وهمّي ماردٌ ... فارجمْهُ من تلك الكؤوسِ بكوكب
والله ما أدري وإني واقفٌ ... للراحِ بين تحيّر وتعجّب
أفضضت دنّاً أم فككت الخدرَ عن ... بكرٍ تجولُ مع المنى في ملعب
أخت الزمانِ تَكَسّبَتْ[٢] من خلقه ... جَهْلَ المراهقِ واحتناكَ الأشيب

وله من أخرى :

....

١ قارن هذا بما اقترحه الصفدي من تغيير (تمام المتون : ٢٨٩ — ٢٩٠) .
٢ ط د : تكشفت .

مسوَّمة تحكي سنابِكُها الصّفا وتنقضّ منها بالضراغم عقبانُ
نمتها إلى حُرّ كريمٍ[1] صِفَاتُهَا فللنَّبْعِ أضلاعٌ وللآسِ آذان

ومنها :

دخلتُ عليها خيمةً شرفاتُهَا وَأعْمِدُهَا[2] بيضٌ رقاقٌ وخرصان
فقالت : ألصٌّ قلت : بل ذو صرامةٍ تُشَبُّ على أحشائه منكِ نيران
إليكِ شققتُ الليلَ كالسَّيْلِ يرتمي وفيكِ أسَغْتُ الهولَ والهولُ[3] خطبان
فقالت : أقم[4] عندي لك الوصلُ كاملاً على أنَّ حظَّ العين منّيَ حرمان

ومن قوله[5] :

عاطيتُهُ والليلُ يسحبُ ذيلَهُ صهباءَ كالمسك الذكي[6] لناشقِ
حتّى إذا مالتْ به سِنَةُ الكرى باعدته شيئاً ، وكان معانقي
زحزحته[7] عن أضلعٍ تشتاقه كي لا ينام على وساد خافق

---

١ س م : النجار .
٢ ط د : وأغمادها ؛ م س : وأعهدها .
٣ م س : والخطب .
٤ س م : أفق .
٥ انفردت س م بهذه المقطوعة ، وهي من قصيدة اشتهرت عند المشارقة ، ووجدت استحساناً ومعارضات ، ومنها بيت في القسم الأول من الذخيرة : ٨٢٣ وقد ذكرت بعض مصادرها هنالك ويضاف إليها : الرايات : ٤٨ (غ) والمسالك : ٢٨٠ ورفع الحجب ١ : ٥٩ ومعاهد التنصيص ٣ : ٨٠ والقلائد : ٢٧٩ ومطلعها في المقتضب من تحفة القادم : ٨٤ . وانظر أيضاً نفح الطيب ٣ : ٢٠٩ والغيث ١ : ١٨٦ والمسلك السهل : ٣٢٩ .
٦ في أكثر المصادر : الفتيق .
٧ في رواية : باعدته .

في ذكر الأديب أبي الحسن بن هارون الشنتمري[1]

قال ابن بسّام : وأبو الحسن هذا سهل الكلام ، بارع النظام ، ممّن اغترف من بحر الكلام بكلتا يديه ، وجذب ثوبَ البيانِ من كلا طرفيه ؛ جدُّهُ لأمه أبو الحسن بن الاستجي المتقدّم الذكر[2] ، فأمّا سَلَفُهُ من قبل أبيه فقد انخدع لهم الزمانُ بُرَيْهَةً ، وهينمَ بأسمائهم هنيهة ، بشنتمريةِ الغربِ إلى أن نَبَّهَ الدهرُ الغافلُ على[3] أمرهمْ ، وأسكتَ من ذكرهم ، على يدي المعتضد عباد بن محمد مُخْلِي الأوطان ، وملحق الأقران بالأقران ؛ وقد ذكر ابن حيان ذلك ، وألمعت أنا بطرف مما وقع لهم معه هنالك .

ومن شعرأبي الحسن المعرب عن أدبه ، والشاهد لما وصفته به ، قوله : يصف صدودَ غلامٍ كان له به كَلَفٌ[4] :

عادتْ إلى أديانها هَيْفُ[5]   واطَّرد الإسرافُ والحيْفُ

---

١ هو علي بن محمد بن سعيد بن هارون، وقدكان أهله يحكمون في شنتمرية الغرب حتى انتزعها منهم المعتضد بن عباد سنة ٤٤٤ (انظر الحلة السيراء ٢ : ١٧ – ٢٠ والمغرب ١ : ٣٩٥ والمسالك ١١ : ٤٣٨) .

٢ انظر ص : ٢٠٠ من هذا القسم .

٣ ط د : عن .

٤ الحلة ٢ : ١٩ .

٥ من المثل: «ذهبت هيف لأديانها » (العسكري ١ : ٤٦٠ تحقيق أبو الفضل، وفصل المقال: ٣١٣ والميداني ١ : ١٨٧) يضرب مثلا لركوب الرجل رأسه ، والهيف : الريح الحارة ؛ الأديان : العادات .

وامتنع الأصبغُ من وصلنا وزاد حتى امتنع الطيف
شنتمريٌّ الأفقِ[1] غربيّهُ وربما حَنَّ له الخيف
ذو لحظةٍ إن لم تكنْ في الحشا رمحاً وإلا فَهيَ السيف

وأنشدت له[2] :

يا ليلةَ العيدِ عُدْتِ ثانيةً وعاد إحسانُكِ الذي أذْكُرُ[121أ]
إذ أقبل الناسُ ينظرون إلى هلالك النِّضْوِ ناحلاً[3] أصفر
وفيهمُ من أحبّهُ وأنا أنظرُهُ في السماءِ إذ ينظر[4]
فقلتُ لا مؤمناً بقوليَ بل مُعَرِّضاً للكلام لا أكثر
أثّرَ شهرُ الصيام فيك أبا محمدٍ قال لي وما أثر
بل أثر اليومَ في هلالكمُ هذا الذي لا يكادُ أنْ يظهر

وقال[5] :

وحديقةٍ شَرِقَتْ بغمرٍ[6] نميرها يحكي صفاءَ الجوّ صَفْوُ غديرِها
تُجري المياهَ بها أسودٌ أُحْكِمَتْ من خالصِ العقيانِ في تصويرها
وكأنها أسْدُ الشّرى في شكلها وكأنّ وقع الماء صوتُ زئيرها

---

١ س م والحلة : القطر .
٢ انظر الحلة ٢ : ١٩
٣ في النسخ : ناحل .
٤ م س : انظر وهو في السماء ينظر .
٥ الحلة ٢ : ٢٠ والمسالك والمغرب .
٦ ط د : بغير ؛ الحلة : بعد ؛ وما أثبته رواية م والمغرب ؛ وفي س : شربت بغمر .

وقال [1] :

انظر إلى ثابتٍ على طِرْفِهْ قد سلَّ سيفَ المنونِ من طَرْفِه
وهزَّ من قدِّه لواءَ ردًى يُدْني الصحيحَ السليمَ من حَتْفِه
يطوفُ بالحجِّ [2] مِنْهُ بدر دجىً على جوادٍ كالبرقِ في خَطْفه
يكادُ من لينهِ ونعمتِهِ يُعْقَدُ عَقْدَ العنانِ في نصفه
فلا ترى غيرَ باهت فَرِق بين يديه منَّا ومن خلفه
ومن مشيرٍ له باصبَعِهِ ومعلنٍ بالسَّلام من كفِّه

فصل يشتمل على ذكر الكتاب الوزراء وأعيان الأدباء الشعراء ، ممن نشأ في المدة [3] المؤرخة بحضرة بطليوس ، وسائر بلاد البحر المحيط الرومي [4] ، والأخذ بطرف من نوادر أخبارهم ، وشوارد أشعارهم .

قال ابن بسام : قد قدّمت في صدر هذا القسم أنَّ هذا الجانبَ الغربي من الجزيرة . لأوَّلِ تلك الفتنةِ المبيرة [5] ، الواقعة بقرطبة في آخر دولة بني [6] عامر ، اشتمل على بيتَي حسب ، وجمهوريْ أدب : مملكتان من لخم وتجيب .

---

١ منها أربعة أبيات في المسالك
٢ كذا في الأصول .
٣ المدة : سقطت من ط د .
٤ زاد في م س : والأندلس .
٥ م س : المثيرة .
٦ ط د س : ابن أبي .

فَوَفَدَ عليه لذلك كلُّ أديب، واستوطنه كلُّ أغرَّ نجيب. وقد جئتُ بجملةٍ موفورة ، لطوائفَ كثيرةٍ ، وجماعةٍ أعداد ، كانوا بدولة بني عباد ، من أرباب هذا الشأن ، فلنذكر الآن من نشأ من أرباب المنثور والمنظوم ، بعقر هذا الإقليم ، ولنقدّم منهم من تَقَدَّمَ في الزمان .

وقاعدة بلاد هذا الساحل من الجانب الغربي بطليوس ، ورئيسها في أكثر المدة المؤرخة — كان — .

المظفر أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس [1]

أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع ، وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق، المترجم بـ«التذكرة» والمشتهر اسمه أيضاً بـ «كتاب المظفر [2]»، في خمسين مجلّدة ، يشتمل على علوم وفنون من مغاز وسِيَرٍ ، ومَثَلٍ وخَبَرٍ ، وجميع

---

١ جد بني الأفطس عبد الله بن محمد بن مسلمة — فيما يقول ابن حيان — من فحص البلوط وكان من أهل المعرفة والدهاء والسياسة ، استطاع أن يملك بلاد غرب الأندلس : بطليوس وشنترين والأشبونة وتوفي سنة ٤٣٧ فخلفه ابنه محمد الملقب بالمظفر وكان أديباً عالماً ، وأقام ملكاً عظيماً بالثغر الجوفي ضاهى فيه ابن عباد وابن ذي النون ، وكانت بين هؤلاء حروب وغارات ، وقد كان محمد المظفر يدفع الاتاوة للأذفونش ، وبقي في حكمه حتى سنة ٤٥٦ (انظر البيان المغرب ٣ : ٢٣٦ والحلة ٢ : ٩٦ والمغرب ١ : ٣٦٤ والتكملة ٣٩٣ (وفيه نقل عن الذخيرة) وأعمال الاعلام : ٢١٢ وصفحات متفرقة من نفح الطيب وتاريخ ابن خلدون ٤ : ١٥٩ وابن الأثير ٩ : ٢٨٨ والمعجب: ١٢٧ وشرح البسامة ودوزي Spanish Islam : ٦٣٤ وابن خلكان ٧ : ١٢٣) .

٢ المشهور فيه : « المظفري » وكذلك هو في التكملة ويقال إنه لم يستعن فيه بأحد من العلماء إلا بكاتبه أبي عثمان سعيد بن خيرة (البيان المغرب ٣ : ٢٣٦) وفي م س : بكتاب ابن المظفر .

ما يختصّ به علم الأدب ، أبقاه [1] في الناس خالداً . وليس بمعدود في الشعراء والكتّاب ، فأفرد له فصلاً من هذا الكتاب ، ولو كان مجموعنا هذا في طبقات العلماء ، لكان قطبَ أفقه ، وغايةَ طَلَقه . وكان ينكر الشعر على قائله في زمانه ، ويفيّلُ رأي مَن ارتسمَ في ديوانه ؛ حدثني من سمعه يقول : من لم يكنْ شعره [١٢١ ب] مثلَ شعر المتنبي أو شعر المعرّي فليسكتْ ، لا يرضى بدون ذلك .

وقد ذكر أبو مروان بن حيان خبره في جملة ما شرح من قصص ملوك الطوائف في ذلك الأوان ، وشرح كيف غَرَّ سرابُهُمْ ، وطَنّ ذبابهم ، فقال [2] : كان عبد الله بن مسلمة رجلاً من مكناسة ، وكان سابور العامري أحدُ صبيانِ فائقِ الخادم ، فتى الحكم ، قد انتزى ببطليوس وثغرِ الغرب من عمل الحاجب ابن ميتويه [3] ، فصحبه عبد الله وظاهره [4] ، ورمى إليه بأموره ، فدبَّر أعماله وتزيّد في الغلبة عليه ، حتى صار كالمستبدّ به ، فلما هلك سابور ورث سلطانَهُ بعده ، فاستولى على الأمور وتلقب بالمنصور ، ثم أفضى الأمرُ لابنه محمد وتلقب بالمظفر .

قال ابن حيان : ومن النادر الغريب انتماؤه في تجيب ، وبهذه النسبة مدحته الشعراءُ إلى آخرِ وقتِه ، منهم ابن شرف القيرواني حيث يقول [5] :

---

١ م س : أبقاه الله .
٢ النص في الحلة ٢ : ٩٦ وانظر البيان المغرب ٣ : ٢٣٧ .
٣ ط م د س : ميذويه .
٤ م س : وصاهره .
٥ انظر أبياتاً منها في المسالك ١١ : ٢٤٠ .

يا ملكاً أمْسَتْ تجيبٌ به ... تحسد قحطانَ عليه نزارْ
لولاك لم تشرفْ معدٌ بها ... جَلّ أبو ذرٍّ فجلَّتْ غفار

انتهى كلام ابن حيان .

قال ابنُ بسّام : وأوّلُ قصيدة ابنِ شرف هذه في المظفر قوله[1] :

زار وقد شمَّرَ فَضْلَ الإزارْ ... جُنْحَ ظلامٍ جانحٍ للفرار
وروضةُ الأنجمِ قد صَوَّحَتْ ... والفجرُ قد فجَّرَ نَهرَ النهار
قلت له : أهلاً بطيف دنا ... من نازحِ الدارِ بعيد المزار[2]
كيف خطوتَ الشرَّ ثم الشَّرى ... وابنَيْ هلالٍ والقنا والشّفار
أصهوةَ الغبراء أم داحساً ... ركبتَ حتى خُضْتَ ذاك الغمار
وجئتَ بالخطّار أم أعوجٍ ... جنيبةً معتدّةً[3] للخطار
وهل تقلّدتَ لدفعِ الردى[4] ... حمائلَ الصمصامِ أم ذي الفقار
وأنت زيدُ الخيلِ أم عامرٌ[5] ... ومالك بن الريب أم ذو الحمار[6]
فقال لا هذا ولا ذا ولا ... بل كنتُ عنهم قمراً في سرار

ومنها :

....

١ قوله : سقطت من م س .
٢ قبل هذا البيت في س م ط : ومنها .
٣ م س : معدة .
٤ المسالك : الأذى .
٥ عامر بن مالك أبو براء ملاعب الأسنة أو عامر بن الطفيل .
٦ ذو الحمار : لقب عوف بن الربيع ذي الرمحين (التاج : خمر) ، وانظر فيما يلي (ص : ٦٤٦) تعليق ابن بسام فهو خطأ ، لأن الإشارة هنا إلى فارس لا إلى فرس .

سيري فلم نَقْذفْكِ في مجهلٍ ... ولا ضربنا بكِ ضَرْبَ القمار[1]
حيث علوقُ[2] العلمِ مطلوبةٌ ... يوافقُ السوقَ كرامُ التجار
خذها أبا بكر غريبيّةً ... سرى بها الودُّ إليكمْ وطار
ليست من الشعر القصير الخطى ... ولا من المسروقِ والمستعار
قدّمتها قبل قدومي كما ... قدّمَتِ الحُجّاجُ رميَ الجمار

ومنها :

أقمتَ للعلم مناراً وما ... أظنُّ في الدنيا لعلمٍ منار
فما نداماك سوى أهلِهِ ... وكلُّهُمْ بين ندامى العقار
مَيْزُكَ ميزانُ عقولِ الورى ... وفهمك العدلُ لكلِّ عيار
تبدو لك الهجنةُ في لحظةٍ ... وتعرفُ الأسنانَ قبل الفِرار
من لفظهم تَعْرفُ ما هم وفي ... جحفلةِ العاثرِ يبدو العثار
فما رأتْكَ العينُ تصغي إلى ... مُحالِ[3] عجلٍ سامريِّ الخوار [١٢٢أ]

وكان ابن شرف كتب بهذه القصيدة من طليطلة إليه . فوصله بمائه مثقال من ضرب السكّةِ لديه .

قوله : « زار وقد شمّر فضل الإزار ، جنح ظلام » أشار إلى أنه زار آخر الليل كما قال أبو تمام [4] :

---

١ من قول أبي الطيب :
ضربنا بها التيه ضرب القمار ... فإما لهذا وإما لذا

٢ ط د : علوم .

٣ في النسخ : مجال .

٤ ديوان أبي تمام ٣ : ١٨٥

زار الخيال له[1] لا بل أزاركَهُ   فكرٌ إذا نام فكرُ الخلْوِ لم ينمِ
ظبيٌ تقنّصتَهُ لما نصبتَ له   في آخر الليلِ أشراكاً من الحلم

وقد عاب الآمدي هذا عليه فقال[2] : وإذا زاره بالفكر فقد زار ، فلا معنى للاستدراك ؛ ثم اعتذر له فقال : الاستدراك صحيحٌ لأنّهُ إذا قال زار الخيال احتمل زيارة الاختيار ، من غير بَعْثِ باعثٍ ، واحتمل وقوعَ الزيارة عن حَمْلِ حاملٍ ، فأزال هو[3] الإبهام بقوله : « لا بل أزاركه فكر » ؛ وقوله : « لم ينم » لم يرد حقيقة النوم بل كما يقال : لم ينمْ فلانٌ عن هذا الأمر . وقال : « آخر الليل » ولم يقلْ أوّله ، لأنه أنبأ أنه يسهر ، وإنما يهوّم في آخره تهويماً فيطرقه الخيال في ذلك الوقت ؛ وقيل وجه آخر ، وهو أن الخيال لا يطرق في العادة إلاّ مع وفود النوم ، وهذا إنما يكون في آخر الليل مع استمرار النوم وطول زمانه .

وقال أبو الطيب[4] :

لا الحلمُ جاد به ولا بمثالهِ   لولا ادّكارُ وداعه وَزِيالِهِ
إنّ المعيدَ لنا المنامُ خيالَهُ   كانت إعادَتُهُ خيالَ خياله

يقول : التمثيل والتخييل له في اليقظة إعادة خياله في المنام ، فكأن الخيال الذي في النوم خيالُ الخيال الذي تصور في اليقظة ؛ وأظهر من هذا قول أبي

---

١ الديوان : لها .
٢ الموازنة ٢ : ١٦٧ وفي النص اختلاف كثير .
٣ م س : هذا .
٤ ديوان المتنبي : ٢٧٤ .

تمام المتقدّم[1] ، وإنما أخذه من قول جران العود[2] :

حيِّيْتُ طيفَكَ من زَوْرٍ ألمَّ به[3] حديثُ نفسكَ عنه وهو مشغولُ

فقوله : « وهو مشغول » أي لم يزرْ على الحقيقة ، فبنى حبيب من هذا قوله : « وما زارك الخيال »[4] ، وبنى من قوله : « حديث نفسك » قوله : « ولكنك بالفكر زرت طيف الخيال »[5] .

وقال الكميت[6] :

ولما انتبهتُ وجدتُ الخيالَ أمانيَّ نفسٍ وأفكارَهـَا

وقد أعاد حبيب لفظ جران العود فقال[7] :

استزارته فكرتي في المنام فأتاني في خفيةٍ واكتتامِ
يا لها لذةً تنزَّهتِ الأر واحُ فيها سرّاً من الأجسام
مجاسٌ لم يكن لنا فيه عيبٌ غير أنّا في دَعْوَةِ الأحلام

---

١ المتقدم : سقطت من م س .
٢ -الموازنة ٢ : ١٦٨ وديوانه : ٥٥ وحماسة ابن الشجري : ١٧٧ .
٣ الموازنة : أهلا بطيفك . . . أتاك به ؛ الديوان : سقياً لطيفك .
٤ ط م س : طيف الخيال ، وهو خطأ ، انظر التعليق التالي .
٥ الإشارة هنا إلى بيتين لأبي تمام حذفهما ابن بسام أو سقطا من النسخ ، وأوردهما الآمدي ، وهما :

عادك الزور ليلة الرمل من رملة بين الحمى وبين المطالي
ثم فما زارك الخيال ولكنك بالفكر زرت طيف الخيال

٦ الموازنة ٢ : ١٦٩ وديوانه ١ : ٢٢٢
٧ الموازنة ٢ : ١٦٩ وديوان أبي تمام ٤ : ٢٦٢

وعيب عليه « دعوة الأحلام » ، لأنها من ألفاظ العوام . وصفةُ طيفِ الخيالِ بابٌ ممتدّ الأطناب ، لا يتّسع له عرض هذا الكتاب .

وقول ابن شرف : « وأنت زيد الخيل أم عامر »... البيت ، أراه مما وهم فيه ، وذو الحمار فرس مالك بن نويرة ، حكاه المبرّد[1] وأنشد قول جرير[2] :

عتيبةُ والأحيمر وابنُ عمروٍ وعتّابٌ وفارس ذي الحمار

جملة من نثر المتوكل وشعره[3]

من ذلك رقعة خاطب بها وزيره أبا الوليد بن الحضرمي[4] وقد صرفه عن خدمته قال فيها : ولما رأيتُ الأمرَ قد ضاع والإدبارَ قد انتشر وذاع ، أشفقتُ من التلف ، وعدلتُ إلى ما يُعْقِبُنَا – إن شاء الله – بالخَلَف ، وأقبلتُ أستدفعُ مواقعَ أنسي ، وأشاهد ما ضَيَّعْتُهُ بنفسي . فلم [١٢٢ ب] أرَ إلاّ لججاً قد تورطتها ، وغمراتٍ قد توسّطتها[5] ، فشمرْتُ عن السّاقِ

---

١ انظر الكامل ٣ : ٤٠٠ وفرس مالك يعرف حقاً بذي الحمار ، ولكن ابن شرف لم يقع في الوهم ، كما ظن ابن بسام ، إذ أن « ذو الحمار » أيضاً لقب عوف بن الربيع ، كما تقدم ص : ٦٤٢ وكان يحارب في خمار امرأته ، فإذا سئل المطعون : من طعنك ؟ قال : ذو الخمار .

٢ ديوان جرير : ٨٥٥ .

٣ هو عمر بن المظفر محمد الذي حاصره المرابطون في بطليوس وقتل هو وابناه ذبحاً سنة ٤٨٧ . (انظر الحلة ٢ : ٩٦ والمعجب : ١٢٧ وأعمال الاعلام : ١٨٥ والقلائد : ٣٦ والمغرب ١ : ٣٦٤ والفوات ٣ : ١٥٥ والخريدة ٣ : ٣٥٦ والنفح ١ : ٦٦٣ « نقلا عن القلائد » .

٤ انظر التعريف به فيما تقدم ص : ٣٩١

٥ م س : غرقتها .

للّجتها ، وخدمت النفس بمهجتها[1] ، حتى خُضْتُ البحر الذي أدخلني رأيُكَ ، ووطئتُ[2] الساحلَ الذي كاد يحولُ بيني وبينه فعلك ، فنَفَسَكَ لُمْ ، وبسوء صنيعها ألمِمْ[3] واعتصمْ ، وإن متَتَّ بجميلِ اعتقاد، وَمحضِ وداد، فأنا مقرٌّ بذكره[4] ، معترف بقلّه وكُثْرِه[5]، لكنك كنتَ كالمثل السائر: « شوى أخوك حتى إذا أنْضَجَ رَمَّدَ »[6] حتى أطمعتَ فيَّ العدوَّ ، ولبست لأهلِ حضرتي الاستكبارَ والعتوّ ، واستهنْتَ بجيرانك ، وتوهَّمْتَ أنَّ المروءةَ التزامُ زَهْوِكَ وتعظيمُ شانك، حتى أحرجتَ النفوسَ عليَّ وعليك[7]، فانجذب مكروهُ ذلك إليك ، ومع ذلك فليس لك عندي إلا حفظُ الحاشية ، وإكرامُ الغاشية .

واتصل بالمتوكل أيّامَ سلطانه بيابرة[8] أنّه قُدِحَ فيه ، بمجلس المنصور يحيى أخيه[9] ، فكتب إليه : كلُّ صديقٍ — أيدّك الله — إذا خاطب صديقه ،

....

١ ط د : مهجتها .
٢ م : وواطيت ؛ س : وواطأت .
٣ م س : ألم .
٤ ط د : بغره ؛ وفي م س : مغر بذكره .
٥ د : بقلك وكثرك ؛ ط : بقله وكثرك .
٦ فصل المقال ١ : ٢٤٣ يضرب لمن يفسد اصطناعه بالمن .
٧ وعليك : سقطت من ط .
٨ ط د : بيانورة (اقرأ : بيابورة) ؛ ويابرة (Evora) بلدة في جنوب البرتغال (الروض المعطار ، الترجمة الفرنسية : ٢٣٩) .
٩ تولى يحيى الملك في بطليوس بعد أبيه المظفر سنة ٤٥٦ وتلقب بالمنصور ، أما المتوكل فأعطي يابرة .

فأغربُ ما يُطْنِبُ به عليه، ويسهبُ فيه لديه[1] ، أن يقول: أنا كأخيك ، محبّةً فيك ، فإذا كتبت إليك ، فأيّ غريبة أوردُ عليك ؟ ونحن منتهى كُتُب المتخاطبين[2] ، وغاية آمال المتحابين؟ ! غير أنه جرى في ناديك – لا زال معموراً بمعاليك – أنني أبيعُ[3] الأحرارَ والحرائر، وأستصغر المعاصيَ[4] والكبائر، واللهُ نزّهني عن هذا وأبعدني عنه، فلا قدرةَ لبشرٍ أن ينيطه[5] بي ويدنيني منه.

ثم ختم الرقعة إليه بشعر أثبتناه ، على ما ذكرناه ، من رواية أشعارِ الجلّة والأعيان ، على قدم الزمان ، وهو[6] :

فما بالُهُمْ[7] لا أنعَمَ اللهُ بالهم ... يُنيطون[8] بي ذمّاً وقد علموا فضلي
يسيئون فيَّ القولَ جهلاً وضلّةً ... وإني لأرجو أنْ يسوءهمُ[9] فعلي
طَغَامٌ لئامٌ أو[10] كرامٌ بزعمهم ... سواسية ما أشبه الحُولَ بالقُبْلِ
لئن كان حقّاً ما أذاعوا فلاخَطَتْ[11] ... إلى غايةِ العلياءِ من بعدها رجلي

---

١ م س : عليك . . . لديك .
٢ ط د س : المخاطبين .
٣ م : أني أسمع .
٤ ط د : الصغائر .
٥ ط : يلبطه (اقرأ : يلطه) .
٦ الحلة ٢ : ١٠٤ والفوات ٣ : ١٥٦ والقلائد : ٤٠ والخريدة ٣ : ٣٥٧
٧ م س : فما لهم .
٨ الحلة : ينوطون .
٩ ط د : يسيئهم .
١٠ م س : طعام ليال أم .
١١ القلائد والخريدة والفوات : فلا مشت .

ولم ألقَ أضيافي بوجه طلاقةٍ ولم أمنحِ العافين[1] في زمن المحل

وكيف وراحي درسُ كلِّ غريبةٍ ووِرْدُ التقى شمّي وحرب العدا نقلي

ولي خُلُقٌ في السُّخْطِ كالشري طعمه وعند الرضى أحلى جنىً من جنى النحل

« وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانَهُ » لآتٍ بما أعيا الصناديدَ من قبلي

وما أنا إلا البدرُ تنبح[2] نورَهُ كلابٌ عِدىً تأوي اضطراراً إلى ظلّي

فيا أيُّها الساقي أخاهَ على النوى كؤوسَ القلى مهلاً رويدَكَ بالعَلِّ

لنطفيءَ[3] ناراً أُضْرِمَتْ في نفوسنا فمثلي[4] لا يُقْلى ومثلك لا يقلي[5]

ألستُ الذي أصفاكَ قِدْماً ودادَهُ وألقى إليك الأمرَ في الكُثْرِ والقُلِّ

وصيَّرك الذُّخْرَ الغبيطَ لدهره ومن ليَ ذخراً غيرك اليوم لا مَنْ لي

وقد كنت تُشْكيني إذا جئت شاكياً فقل لي لمن أشكو صنيعك بي قل لي[6]

نفثتُ — أيدك الله — نفثةَ مصدور انتهى الجفاء به[7] منتهاه ، وبلغ به أقصى مداه ، فان ظهر زَلَلٌ ففضلك في ستره على المعهود منك قديمَ الزمان ، لا على المنفصل عنك الآن ، والله يقلّبُ القلوب ، ويصلح العيوب ، ويبلّغنا الأملَ والمرغوبَ .

وقد ذكر ابن حيان بعضَ ما كان شجر بين المتوكل وأخيه في ذلك الأوان

---

١ الفوات : ولم أسخ للعافين .

٢ م س : تلمح .

٣ م س : لتطفيء .

٤ ط د : فمثلك .

٥ م س : يغلى . . . يغلي .

٦ انفردت م س بايراد هذا البيت .

٧ م س : به الجفاء .

فقال : وفي صَدْرِ سنة إحدى وستين ، نشأ من تلقاءِ ثغر غربيِّ الأندلس المثغور عارضُ همٍ ضاعفَ الإشفاقَ ، وأكدَّ التوقّعَ بانكشاف خبر الاختلاف الواقع بين أميريه : يحيى وعمر ابني المظفر بن الأفطس ، [١٢٣ أ] واهتدى الطاغيةُ اذفونش بن فرذلند المتمرس[١] بجماعة ملوك الطوائف بالأندلس، إلى شبِّ نارِ الفتنة بينهما كياداً للمسلمين[٢] : فبدأ بالاعتلال على يحيى صاحب بطليوس منهما ، يسومه الزيادةَ في مال جزيته التي كان فارق أباه الهالكَ عليها بوساطةِ [٣] المأمون بن ذي النون بينهما ، فانتقض على هذا الغلام لوهيٍ في جبلّته ، وطماعيةٍ في إتيانه من قبل أخيه ، فأظهر له يحيى العجزَ عن الزيادة في الجزية ، فجرتْ بينه وبين الطاغية في ذلك خطوبٌ اغتدى [٤] بها بلد بطليوس وثغره ثغوراً ، فأقام يحيى منهما على ولاية المأمون بن ذي النون وحِلْفِهِ وراثةً[٥] عن أبيه المظفر ، ومال أخوه عمرُ إلى المعتضد ، وتأتّتْ بين هذين الأخوين في أثناء ذلك هدنةٌ على دَخَن ، لم يتمَّ معها أُنسٌ ولا تمكّنَتْ لهما طمأنينة ، وما زالتِ السعايةُ تقدحُ بينهما نارَ العداوة . حتى أوْرَتْ نارَ فتنةٍ ضَرَّمتِ[٦] البلادَ ، وأجاحتِ الرعية ، وثلمتْ ثغرهما وضاعفتِ البلية ؛ انتهى كلام ابن حيان .

قال ابن بسام : ثم استوسق الأمرُ للمتوكل بموت يحيى أخيه[٧] ، وحصلتْ

---

١ ط د : المتورس

٢ م س : للإسلام

٣ م س : بواسطة .

٤ م س : اعتدى .

٥ م س : وارثه .

٦ س : أضرمت .

٧ ط د : أخيه يحيى .

له جميعُ بلادِ أبيه ، واحتلَّ حاضرةَ بطليوس ، وجعل ابنه العباس في يابورة[1]
واتفق أن خرج طلحة بن عبيد الله[2] مستوحشاً عنه لأمر بلغه عنه . ولحق ببلد
المعتمد . فكتب العباسُ إلى أبيه معتذراً عن فراره ، ويقسم أنه ما خرج إلا
باختياره . فأخبرني الوزير الكاتب أبو **المطرف** بن الدباغ قال : إني لمسايرٌ
المتوكلَ خارجَ حضرته ، بطليوس ، حين ورودِ تلك الرقعة من ابنه العباس
عليه . فبلغ منه الضجرُ منتهاه . وتجاوز مداه ، واستدعى وهو على ظهر دابّته
دواةً ، ووقّعَ في ظهر الرقعة يومئذ فصلاً قال فيه — دون عنوان ولا دعاء
ولا سلام ، وأنا أتعجب في كَتْبِهِ تلك الفقار ، مع فرط الضجر[3] — : قبولي
لتنصُّلِكَ من ذنوبك موجبٌ لجراءَتك عليها ، وعودتك إليها ، واتّصلَ
بي ما كان من قِبَلِكَ في خروج طلحة بن عبيد الله عنك ، ولم تتثبَّت في
أمره . ولا تحققتَ صحيحَ خبره ، حتى فرَّ بنفسه عن أهله ووطنه . والعجلةُ
من الشيطان . ولا يُحْمَدُ قبل النضجِ بُحْرانٌ . وهو الذي أوجبه إعجابك
بأمرك.. وانفرادك برأيك ، ومتى لم ترجع إلى ما وعدت به من نفسك[4] ،
وصَدَّرْتَ به كتبك فأنا المريحُ والله نفسي من شَغْبك ، وإن تكنِ الأخرى
فهو لك الحظُّ الأوفى . فاختر لنفسك أيَّ الأمرين ترى .

وأخبرني الوزير أبو طالب بن غانم قال : لا أنسى والله خطَّ المتوكل بهذين

---

١ م س : بيابرة

٢ م س : عبيد الله (حينما وقع)

٣ فصلا قال . . الضجر : سقط من م س .

٤ ط : عودت به نفسك .

البيتين في ورقة[1] بَقْلَةِ الكرنب[2] وقد كتب إليَّ بهما من بعض البساتين[3]:

انهضْ أبا طالبٍ إلينا واسقطْ سقوطَ الندى علينا
فنحن عقدٌ بغير وسْطَى ما لم تكنْ حاضراً لدينا

في ذكر الوزير الكاتب أبي عبد الله محمد بن أيمن[4] ، واجتلاب جملة مما بلغني من ترسيله

وكان أبو عبد الله محمد بن أيمن بأفقنا أعجوبة الدهر ، وفريد العصر ، وفارسَ ميدان النظم والنثر ، اشتهر في حَمَلَةِ الأقلام ، اشتهارَ البدرِ في السماء ، وتلاعبَ بغرائبِ الكلام ، تلاعُبَ الأفعالِ [١٢٣ ب] بالأسماء . ولما صرف المتوكّلُ ذا الوزارتين أبا الوليد بن الحضرمي عن خدمته ، وقبض يَدَهُ عمّا كان يتصرّف فيه من تدبير دولته ، لم يفوّضْ بعده إلى وزيرٍ ، ولا ألقى إلى أحدٍ بأزمّة ذلك التدبير ، غير أن أبا عبد الله بن أيمن هذا كان من وزرائه ، وصُحْبَتُهُ بمنزلة الرقيب من الحبيب ، لا يحظى بَشَرٌ بنواله ،

---

١ في ورقة : سقطت من م س .

٢ ط : بقلب الكرب ؛ د : بقلة الكرب ؛ وانظر الحلة ٢ : ١٠٧ .

٣ القلائد : ٤٦ والمغرب ١ : ٣٦٥ وأعمال الاعلام : ١٨٥ والحلة ٢ : ١٠٧ والنفح ١ : ٦٦٦ ، ٣ : ٣٢٩ ؛ ٤ : ١٥٥ ونسبهما في الموضع الثاني إلى المعتصم بن صمادح ، وانظر بدائع البدائه : ٣٧٤ والمقتطف : ٣٢ والفوات ٣ : ١٥٦ وفيه أن الوزير هو أبوغانم وهو يخاطبه بقوله : انهض أبا غانم الخ .

٤ انظر ترجمته في المغرب ١ : ٣٦٦ وذكر المحقق هنالك أن له ترجمة في مسالك الأبصار ٨ : ٣٣٢ .

ولا يطمعُ أحدٌ معه في وصاله ؛ ولما احتلّ الوزير الكاتب أبو المطرف[1] ابن الدبّاغ حضرة بطليوس — حسبما سنشرحه[2] — خاف ابنُ أيمن أن يمحوَ سناه ، ويستولي على مداه ، فاشتعلتْ بينهما نارٌ ملأ الآفاقَ شُعاعُها ، وأخذ بعنانِ السماء ارتفاعُها ، وأحسبُ ذلك كان سببَ ارتحال أبي المطرف عن حضرتهم ، وخروجِهِ من جملتهم ، وسنأتي بذكره في القسم الثالث من هذا المجموع ، إن شاء الله .

وقد أخرجت من كلام ابن أيمن ما يأخذ من البلاغة باليمين ، ويشهد له بالمكان المكين .

فصل من ترسيله

لما اشتدّ يومئذ كَلَبُ الروم ، بهذا الإقليم ، على ما تقتضيه شهادةُ المنثور والمنظوم ، بلسان من اندرج ذكرُهُ في هذا الديوان من كلّ زعيم ، استصرخَ ملوكُ الطوائف بأفقنا أميرَ المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، رحمه الله ، وقد ألْقَوْا بأيديهم ، فكتب أبو عبد الله بهذه الرسالة عن صاحبه ، وأراها كانت ثالثة المفاتحة ، أو ثانيةَ المداخلة[3] ، وهي :

لما كان نورُ الهدى — أيدك الله — دليلَك ، وسبيلُ الخير سبيلَك ،

---

[1] م س : أبو المظفر .
[2] ورد مشروحاً في القسم الثالث : ٢٥١ .
[3] عن صاحبه . . . المداخلة : سقط من م س .

ووضحتْ في الصّلاح معالِمُك ، ووقفت[1] على الجهاد عزائِمُك ، وصحّ العلمُ بأنّكَ لدعوة الإسلام أعزّ ناصر ، وعلى غزو الشّرك أقدر قادر ، وَجَبَ أن تُستَدْعَى لما أعْضَلَ من الداء ، وتستغاثَ لما أحاطَ بالجزيرة من البلاء ، فقد كانت طوائفُ العدوّ المطيفةُ بها — أهلكهم الله — عند إفراط تسلّطها واعتدائها[2] ، وشدّة كَلَبها واستشرائها ، تُلاطَفُ بالاحتيال ، وَتُستنزَلُ بالأموال ، ويُخْرَجُ لها عن كلّ ذخيرة ، وتسترضى بكلّ نفيسةٍ خطيرة ، ولم يزلْ دأبُها التشطّطَ والعنادَ ، ودأبُنا الإذعانَ والانقيادَ ، حتى استُصْفيَ الطريفُ والتّلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاد ، وأيقنوا الآن بضعف المِنَن ، وقويتْ أطماعُهُمْ في افتتاح المدن ، واضطرمتْ في كلّ جهةٍ نارهم ، وَرَوِيَتْ منْ دماء المسلمين أسنّتُهُمْ وشفارهم ، ومن أخطأه القتلُ منهم فإنما هم بأيديهم أسرى وسبايا ، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا ، وقد همّوا بما أرادوه منَ التوثّب ، وأشرفوا على ما أمّلوه من التغلّب[3] ، فيا لله ويا لَلْمُسْلمين ! ! أيسطو هكذا بالحقّ الافكُ ، ويغلب التوحيدَ الشرك ، ويظهر على الإيمان الكفر ، ولا يكتنفُ هذه الملّةَ النصرُ؟! ألا ناصرَ لهذا الدين المهتَضَم ، ولا حاميَ لما استبيحَ من حِمَى الحرم! ! وإنّا لله على ما لحق عَرْشَهُ[4] من ثلّ ، وعزّه من ذلّ ، فإنها الرزيّةُ التي ليس فيها عزاء ، والبليّةُ التي ليس مثلها بلاء .

---

١ م س : ووقف .

٢ م : واغترابها

٣ قوله : ولم يزل دأبها . . . من التغلب : انظر ما تقدم ص : ٢٤٨ — ٢٤٩ حيث اقتبسه ابن بسام كأنما هو من إنشائه .

٤ عرشه : يعني عرش الدين .

ومن قبل هذا ما كنتُ خاطبتك - أيّدك الله - بالنازلة في مدينة قورية - أعادها الله - وأنها مؤذنةٌ الجزيرةَ بالخلاء، ومن فيها من المسلمين بالجلاء، ثم ما زال ذلك التخاذُلُ يتزايدُ ، والتّدابُرُ يتسانَدُ ، حتى تخالّصت القضية ، وتُعُجّلَت البليّة ، وحصلت في يد العدوِّ - قصمه الله - مدينةُ سُرْتَهَ[1] وعليها قلعةٌ تجاوزت حدَّ القلاع ، في الحصانة والامتناع ، وهي من المدينة كنقطة الدائرة وواسطة القلادة، يُدْركها من جميع نواحيها، ويستوي [في][2] الاستضرار بها قاصيها ودانيها[3]؛ وما هو إلا نَفَسٌ خافت، ورمَقٌ زاهق ، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالاً ، وتتداركوها رُكْباناً ورجالاً ، وتنفروا نحوها[4] خفافاً وثقالاً . وما أحضُّكُمْ على الجهاد بما في كتاب الله تعالى ، فإنكم له أتلى ، ولا أحرِّضكُمْ على [١٢٤ أ] التسرُّع إليه بما في حديث رسوله عليه السلام ، فإنكم إلى معرفته أهدى .

وكتابي هذا جُمْلَةٌ[5] : الشيخُ الفقيه الواعظُ يفصّلها ، ومشتملٌ على نكتةٍ هو يوضحها ويبيّنها ، فإنه لمّا توجّه نحوك احتساباً ، وتكلّف المشقّةَ إليك طالباً ثواباً ، عوّلْتُ على بيانه ، ووثقتُ في عرض الحال عليك بفصاحة لسانه ؛ وأنت بفضلِكَ تستوعبُ ما يؤدّيه استيعابَ المستوفي ، وتصغي

---

١ ذكرها الادريسي (نزهة المشتاق - قسم الأندلس والمغرب : ١٧٥ ، ١٩٦ تحقيق دوزي) وذكر أن بينها وبين شقورة مرحلتين كبيرتين ،وأنها مدينة متوسطة القدر حسنة البقعة كثيرة الخصب .

٢ ط : ويستوفي .

٣ قارن بما ورد ص : ٢٤٩ .

٤ نحوها : زيادة من م س .

٥ ط د : يحمله ؛ م س : حمله .

إلى ما يُنْهيه إصغاءَ الواعي ، وتجد منه مضضَ المرتمض ، وتتحرَّكُ له تحرُّكَ المتعض .

ثم لم يزل يستشري الداء، ويعمُّ أقطارَ الجزيرة البلاء، وأميرُ المسلمين وناصر الدين — رحمه الله — مشغولٌ ببقية حرب طوائف البرابرة المتغلبين — كانوا — على أقطار العدوة ، فلم يزل يميطُ أذاها ، ويضرحُ قذاها ، حتى سُلِكَ[1] سبيلُها ، وطاب مُسْتَقَرُّها ومَقيلها . وكان من أشدّ تلك الطوائف أيْداً ، وأمتَنِها كيداً ، العزّ بن سقوت[2] ، المتغلب — كان — على مدينة سبتة وما والاها ، فإنه جاهرَ بالخلاف سَماعاً وعياناً ، وشغل أميرَ المسلمين — رحمه الله — عن تلافي هذه الجزيرة زماناً ، إلى أن بلغ الكتابُ أجَلَهُ ووقته ، وفُتِحَتْ على يديه سبتة ، حسبما نلخّص الخبر عنها .

---

١ م س : سلكت .

٢ د م : سكات ، وهذا وجه من وجوه كتابة هذا الاسم (انظر الجذوة: ٣٣) وهو أيضاً سكوت ، وسواجات ، وفي أخباره راجع البيان المغرب : ٢٥٠ وأعمال الاعلام : ١٤١ وروض القرطاس : ١٠٤ وابن خلدون ٦ : ١٨٤ ؛ وقد كان الحموديون استخلفوا على سبتة شخصاً اسمه رزق الله (أبو المطاف) فقتله سقوت سنة ٤٥٣ وحكم سبتة وتسمى «المنصور » وهو والد الحاجب العز ، الذي دخل المرابطون سبتة في أيامه .

إيجاز الخبر عن فتح مدينة سبتة
وتلخيص التعريف بأولية أمرها [1]

كان سقوت بن محمد المتغلب عليها قد جرى عليه سباء ، واستبدّ به ولاء ، ففاز به [2] قِدْحُ عليّ بن حمود أيّـامَ امترى أخلافَهَا ، واعرورى شقاقها [3] وخلافها ، ومنْ هالتِه طلعَ هلالاً وبدراً ، وبين باطله وبَطالته عتق خلاً وخمراً ، وعليه [4] جيبت رحاها ، وإليه كان مَجْراها ومُرْساها ، حتى عُدّتْ [5] أيامه ، واشتهر مقامُهُ ، وملأ أجزاءَ الزمان وصدرَ الأوان بأسُهُ وإقدامُهُ . ولما أفْضَت الدولةُ الحمودية إلى سِقْط زَنْدها ، ومنتهى جهدها ، يحيى بن علي — المتقدم الذكر — ألقى بمقاليد سبتة إلى هذه الأفعى الجارية ، والشعلة الوارية ، سقوت المذكور ، فأقام به عمودها ، وأطعمه قائمها وحصيدَها ، وطفق لأول حينه يخلق ويفري ، ويجر لأبعد شئونه ليسير ويسري [6] ، وقد كان يحيى بن عليّ أشرك معه في عمالتها مولىً آخر من مواليه يكنى أبا العطّاف ، أخذَ أجْذَال الطّعان ، وكُفَاة الأقران ، فأقاما بقيّةَ أيام يحيى بن عليّ يتجاذبان أهدابَها ، ويتعاطيان

---

١ م س : أميرها .

٢ به : سقطت من ط د .

٣ م س : ثقافها .

٤ م س : وعنه .

٥ ط : غدت .

٦ وطفق . . . ويسري : سقط من ط د .

أقداحَها وأكوابَها ، إلى أن وقع من مقتله[1] سنة سبع وعشرين ما فرغنا من ذكره ، ونبَّهنا على مستودَع مستقره ؛ ولما أفْضَت دولة آل حمود إلى ابنه إدريس بن يحيى بن علي سما سقوت بن محمد فأخذ بِلَقَم الطريق ، وطلع لمغبونه إدريس من ثنايا العقوق ، وأول ما بدأ به من ذلك الفتكُ بشريكه الحاسر ، بحيلةٍ خفيَّة ، تمخَّضَتْ له بميتة[2] وحيّة ، في خبر طويل ، تركتُهُ تخفيفاً للتثقيل ، فأصبح بعده سقوت بن محمد قد حلَّت شمسُ سُلطانه بالحمل ، وقام وزنُ زمانِه فاعتدل[3] ، وتسمى لأوَّل وقته يومئذٍ من الأسماء السلطانية بالمنصور المعان ، وقد عرض له ابن حيان ببعض أوابده ، وفصَّل بذكره سِلْكَ مُقَيَّداتِه وشوارده ، وأنا أذكر من ذلك ما وفى به وُسْعي ، وكان من شَرْط جَمعي .

قال ابن حيان[4] : وهذه نادرة من طخيات[5] هذه الفتنة[6] المبيرة ، أن تخطَّتْ أرضَ هذه الجزيرة ، إلى ما وراء بحرها الزقاقي الذي كان منه دخول العرب أيام فتحهم لهذا الصُّقْع ، هاجتها[7] أسبابُ المنافسة الفادحة ، لامتعاض حسيب الأملاك النبيه الأبوة الشامخة ، عبَّاد ، من هضم جاره الخارجيّ سقوت

---

١ يعني مقتل يحيى الحمودي .

٢ م س : بموتة .

٣ م س : واعتدل .

٤ نقل بعض هذا النص في كتاب مفاخر البربر : ٤٥ مع بعض اختصار وتغيير في الترتيب وخلط بكلام ابن بسام نفسه ، وانظر مخطوطة الرباط (رقم : 1275) ص : ٨٣ .

٥ ط : طحيات ؛ م : ضحياة ؛ س : صخياء ؛ مفاخر : هيجان (وفي المخطوطة : طخليات) والطخية : الظلمة أو السحابة .

٦ زاد في المفاخر : البربرية .

٧ م س والمفاخر : هاجها .

مولى ابن [1] حمود –بزعمه– الناهض الجدّ بأنقص [2] الخلال : من معقّة المولى وختر الرفيق [3] واهتضام الحقوق ، والترقّي إلى أعلى مراتب [4] السلطان ، حتى تسمّى بالمنصور المعان ، لقبين في قران ، أغمض له عليهما [١٢٤ ب] الزمانُ ، فساءَ غلطُهُ في نفسه ، واضطره القدر أن تمرّس بجاره [5] عبّاد صيرفيّ [6] الفتنةِ الذي لا ينام على دمنة ، كان سبب ذلك باعتقالِ عبّادٍ لرجلٍ من تجارِ سبتةَ في شيءٍ حضره بحضرته ، فاعتدى عليه سقوت فاعتقل له عدّةَ تجار [7] ، فنشأت لذلك بينهما [8] وحشةٌ سنة سبع وخمسين ، امتطيا لها ظهر اللجّجِ ، على ما بينهما من التطام اللُّججِ ، فتهافتا على القطيعة واجتمعا على عقد [9] البحر بينهما ، فتلفتْ فيه رؤوس أموالٍ ، وهلكتْ من أجلها نفوسُ رجال ، يطول في صفتها المقال ، إلى أن أكمل عبّادٌ من أسطولٍ أنشأه نحواً من ثمانين قطعة ، فأجراها إلى سبتة، فخرج عليها [10] أسطولٌ لسقوت ، فكان الظهورُ لابن عباد ، ثم افترقت الأساطيل بعد حروبٍ وسفكٍ

---

١ م س : آل .
٢ م : بأنقض ؛ س : فانغض .
٣ م س : وخبر الرقيق .
٤ م س : لأعلى موارب (س : موازب)
٥ م س : بجاه .
٦ ط : صيفري ؛ م : صرفي .
٧ ط : رجال .
٨ م س : بينهما لذلك .
٩ ط د : عقل ؛ س : عقر .
١٠ م س : إليها .

دماء ، وانقطع بحر الزقاق بينهما مدة استهما اجترار[1] منافعه فيها ؛ انتهى ما لخصته من كلامه .

قال ابن بسام : ثم غلظ أمر سقوت ، حتى أخاف[2] القريبَ والنازح ، واقتاد الحرونَ والجامح ، وانبثت سراياه في البحر والبر ، فأدرك المطلوب والطالب ، وتصيد الطافي والراسب ، ونجم[3] في لمتونة أمير المسلمين وناصر الدين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين ، رحمه الله ، فأحاطت دولته بالفرق ، إحاطةَ القلادة بالعنق[4] ، ودبت في ممالك العرب والعجم ، دبيبَ البُرءِ في السقم ، وطفق يتبع آفاقَ جَوْرِهم بالعدل ، تتبع الديمةِ آثارَ المحل ، ويسبق قولَهُم بالعمل ، سَبْقَ السيفِ العَذَل ، وتجاروا إلى مصارعهم ، حتى لحق متبوعُهُم بتابعهم ، وانتظم دانيهم بشاسعهم ، ودارت النَّوْبة على سقوت بن محمد ، فتطرَّفَ[5] أمير المسلمين — رحمه الله — بلدَه للفراغ ممن شذ عنه من ذؤبانِ زَناتة ، وقد التفُّوا بأحد محاش الفتنة ، وولوا إلى موضع يعرف[6] بالدمنة ، فنزل بساحتهم أمير المسلمين ، سنة إحدى وسبعين ، على مقربة من بلاد سقوت[7] ، فهم بالانحياش إليه ، فقد كان آلَ وَإيلَ عليه ، فنهاه حزبُه الذميم السَّعْي ، وثناه ابنه الفائل الرأي ، فقد كان هذا الفتى على بعْدِ

---

١ ط د م س : احترام .

٢ أخاف : سقطت من م س .

٣ من هنا يبدأ النقل في كتاب مفاخر البربر : ٥٤ ومخطوطة الرباط : ٨٧ .

٤ م س : بالفراق . . . بالأعناق .

٥ مفاخر والمخطوطة : فتطوف .

٦ م س : يدعى .

٧ زاد في المفاخر : فتضيفه لا من خلة ، وأراد أن يكثر به لا من قلة .

مراميه ، ولوذعيةٍ – زعموا – كانت فيه ، يذهب مذهبَ الجبابرة من ملوك الطوائف عندنا ، من الإعراض عن العواقب ، وأخذِ الشاهد عياراً على الغائب ، أين ما هو فيه . لا يحفل بشيء يذره ولا يأتيه . ووضحت لأمير المسلمين – رحمه الله – السبيل إلى حربه ، لما كان من نفارهِ عن قُرْبِه ، وانتباذهِ لأوّلِ وهلةٍ عن حزبه : فلما أوقعَ بأهل الدمنة ، رمى سقوتَ ابن محمد بأقمارهِ ونجومه ، وأحلّه وجوهَ هِمَمِهِ[1] وهمومه ، والبلاد تنقاد لحكمه ، والمنابر تكاد تَهِلُّ[2] باسمه ، وسمع الرعية بمقدمه : فانثالوا عليه انثيالَ الجياع على الوليمة ، وتباشروا به تباشُرَ البلدِ[3] بالديمة . وخرج سقوت بن محمد في عديده وعُدَدِهِ ، للذبّ – زعم – عن رعيّتِه وبلده[4] ، وعساكر أمير المسلمين يومئذٍ على مقربة من مدينة طنجة ، وعليها من قبله[5] ابنه المسمّى بضياء الدولة ، فلقيَ عساكرَ المرابطين وقد سالت بها سيولُهُمْ . وشارفها[6] لواؤهُمْ ورعيلُهُمْ . فأقام بإزائهم يومين والأجل يُقْحمه . والخيل تُسْلِمه ، إلى أن طَحَنَتْهُ رحاهم . وسالت نفسه على أسنتهم وظباهم ، يوم الكسوف الشمسي الكليّ من العام المؤرخ ، ودخل المرابطون طنجةَ ذلك اليوم .

وأفضت الدولة البرغواطية إلى الحاجب العزّ ابنِه ، شهاب أفلاكها ،

---

١ م س والمفاخر : همته .

٢ م : تهذ ؛ س : تمد .

٣ زاد في المفاخر : التيهاء (وفي المخطوطة : التمية) .

٤ زاد في المفاخر : وأقسم أن لا يسمع قرع طلبه (طبله ؟) في ملكه .

٥ يعني : وعلى طنجة من قبل سقوت . . .

٦ م : وطار بها ؛ س : وشان بها .

وخيرة أملاكها ، هبَّ للأدب ريحاً ، ونفخت دولته في أهلِهِ روحاً ، أعرض [1] به الشعراء وأطالوا ، ووجدوا به السبيل إلى المقال فقالوا . وممن خيَّم في ذَراه ، ونال الحظَّ الجسيمَ من دنياه ، الحصريّ الضرير ، فإن [2] له فيه [3] ما أذهلَ الناظر عن الرقاد ، وأغنى المسافر عن الزاد ، والحاجبُ يكحلُ عينيه بزينةِ دنياه ، ويفتقُ لهاتَهُ بمواهبه ولهاه ، وكان سهل الجانب للقصَّاد ، طَلْقَ اليد بالمواهب الأفراد ؛ من رجلٍ [١٢٥ أ] استعان بالشرّ ، وتهاون بالأمر ، لا يجبي إلا من غُلولٍ ، ولا يجيشُ إلا إلى ابنِ سبيل ؛ لا سيما البحر فإنه أضرم لُجَجَهُ ناراً ، ولقي ريحه إعصاراً ، أخذَ كلَّ سفينة غصباً ، وأضاف إلى كلِّ رعبٍ رعباً ، فضجَّتْ منه الأرضُ والسماء ، والتقت الشكوى عليه والدعاء ، وأذن الله لأمير المسلمين وناصر الدين — رحمه الله — فأناخ بعقوته ، وحكَّم مُداه بين سَنَامِهِ وَذِرْوَتِهِ .

وكان من الاتفاق العجيب أن أنشأ المعتمد سفينةً ضاهى بها مصانعَ الملوكِ القاهرين بَعُدَ العهدُ بمثلها : شدَّةَ أسْرٍ ، وسعة [4] بطنٍ وظهر ، كأنما بناها على الماء صَرْحاً ممرَّداً ، وأخذ بها على الريح ميثاقاً مؤكداً ، ووجَّهها على [5] مدينة طنجة لتمتار ، وقد أنجد أمرُ الله وغار ؛ ولمّا رأى أمير المسلمين وناصر الدين — رحمه الله — تلك السفينة ، خاطب المعتمد في ذلك ، فشحنت على سبتةَ موتاً ذريعاً ، وأقيمت بإزاء أسوارها [6] حصناً منيعاً . فلما كان يوم

---

١ مفاخر : أعوص .
٢ ط د : فبان .
٣ في النسخ : فيها .
٤ ط د : ومنعة .
٥ م س : إلى .
٦ م س : سورها .

الخميس من صفر سنة ست وسبعين ، قَدَّمَ أمير المسلمين لقتالِ سبتةَ أسطولاً فخماً ، رجم به مرَدَةَ عفاريتها رجماً ، ولقيه العزّ بن سقوت ببقيةِ جمَّةٍ من أسطولٍ طالما أوسعَ البلادَ شرّاً ، وملأ قلوب أهلها ذعراً ، فكان لأوّلِ ذلك اليوم ظهورٌ[1] على أسطولِ المرابطين حتى أخذ منه قطعةً جليلة المقدار ، ظاهرةَ الحماةِ والأنصار ، فكان من إذلال الله للعزّ بن سقوت يومئذٍ أنْ بخلَ على آخِذِها[2] ، وتكلَّمَ بكلامٍ أنكر عليه فيه ؛ وارتاعت محلة المرابطين لأخْذِ تلك القطعة ، حتى هَمُّوا بالإحجام ، وقوَّضُوا بعضَ الخيام . وغضب أمير المسلمين وناصر الدين — رحمه الله — إحدى غضَبَاتِهِ فكانت إياها ، وفغرت المنايا[3] على سبْتَةَ فاها ، وتقدَّمتْ تلك السفينة حتى أطَلَّتْ على[4] أسوارها ، ورفعت صوتها ببوارها ، وأفضتْ بدولة صاحب سبتة إلى سوءِ قرارها ، ليلة الجمعة من صفر المؤرخ ، ولجأ العزُّ بن سقوت في نُفَيْرٍ من أصحابه إلى البحر ، فهمَّ بركوبه ، فأعوزه الفرار ، ودَفَعَ في صدْرِهِ المقدار ، وكرَّ راجعاً ، فدخل داراً تعرف بدار تنوير[5] . وبدر به جماعة من المرابطين ، فاقتحموا عليه بعد مرامٍ بعيد ، وقتالٍ شديد ، حتى ضاق اضطرابُه ، وفرَّ عنه أصحابُه . ولما أحسَّ بالشرّ دفع ذخائر[6] كانت عنده إلى أحد من وفى له من رُؤوسِ حُماتِهِ . فبلغني أنه عثِرَ عليها ووُجِدَ فيها جوهرٌ كثير . ونشَبٌ من نَشَبٍ

---

[1] م س والمفاخر : ظهر .

[2] ط : آخذيها .

[3] ط د : المنية .

[4] م س : أظلت أسوارها ؛ ط د : طلت على . . .

[5] مفاخر : شوير (وفي المخطوطة : تنوير) .

[6] م س : دنانير .

الملوكِ[1] خطير ، وَوُجِدَ في جملتها خاتم يحيى بن علي بن حمود . وخرج العزّ بن سقوت حين وضح الفجر من ليلته تلك . فلقيه المعزُّ ابن أمير المسلمين [2] — رحمهما الله — فجلّله الحسام ، وحكّم فيه الحمام ، تعالى من لا يُردُّ قضاؤه ، ولا تبيد آلاؤه .

ومن ترسيل ابن أيمن أيضاً رقعة [3] عن المتوكل إلى المعتمد في معنى خروجِ أبي المطرف ابن الدبّاغ عنه [4] إليه ، قال فيها : من تخيّرك — أيدك الله [5] — على سواك ؛ وأرادك [6] وتركَ وطنه هجرةً إلى ذَرَاك ، وأسْرَعَ تلبيةً إلى دواعي سَرْوِكَ وعلاك ؛ فمجدُكَ يقضي له — وإنْ أزْعَجَتْهُ عنك بحكم الاضطرار ، صروفُ الأقدار — أن تستمرَّ عليه النعمى ، وتطّردَ لديه [7] العارفةُ الحسنى ، وينتظمَ بدءُ الصنيعة فيه بالعقبى ، فالفضلُ على علمك بتمامه ، والطَّوْلُ باختتامه ؛ والبرّ بمقتضاه [8] ؛ والمنُّ بأخراه .

وهذه — أدام الله تأييدك — حالُ فلان ، فإنّه هجر إليك الورى ، وركب

---

١ م س : الملك .

٢ كان المعز ولي عهد يوسف بن تاشفين ، لكنه توفي في حياة أبيه فقدم يوسف ابنه علياً لولاية العهد ، وفي مفاخر البربر أن المعز طلب إلى ابن سقوت أن يعطيه المال فقال له : « خازن أبيك كنت نجمع لك المال ؟ » فجلله الحسام . . . الخ .

٣ ط د : ومن ذلك رقعة . . .

٤ عنه : زيادة من م س .

٥ م س : أدام الله تأييدك .

٦ وأرادك : سقطت من م س .

٧ م س : عليه .

٨ م س : بمنتهاه ؛ ط د : بمنتضاه .

نحوك أعناقَ الأملِ والهوى ، وقد كان ظفرَ بالحظّ[1] من دنياه ، واعتلقَ منها السببَ الذي لا تُنْتَقَضُ مِرَرُهُ ولا تنتكثُ[2] قواه . إلاّ أنّ الزمان من بتّ[3] العِصَم ، وإحالةِ النّعم ، والقَطْعِ بذوي الآمالِ والهمم ، جارٍ في سَنَنِهِ الذميم ، على القديم ، وحين جَدّ به[4] الجدُّ العاثر — أسعدَ الله جدودك ، وأدامَ تأييدك — في الانزعاج من جنابك ، ومفارقةِ النعمةِ من ملازمةِ ركابك ، وخِدْمَةِ بابك ، لحق بحضرتي — طاعتَك — يعتقد — وحقٌّ [١٢٥ ب] ما اعتقده — أنه لم ينفصلْ عن جماعتك ، ولا تحوّلَ إلاّ إلى أعمالك ، ولا انتقل من يمينك إلاّ إلى شمالك ، وعنده تذكّرٌ لحُسْنِ معاهدِهِ لديك ، وطيبِ مشاهدِهِ بين العزيزتين يديك . ما ليس مثلُهُ إلاّ عند معتقد أيّامِ الصِّبا ، ومستعيد عشيّاتِ الحمى . وأما شُكْرُهُ لِسَوالفِ نعمك ، ونشرُهُ لمطاوي منازِعكَ الجميلة وهِمَمِك ، وإشادَتُهُ بسنائك ، وإبداؤهُ وإعادتُهُ في حُسْنِ[5] آثارك وأنبائك ، فبحيثُ لو جاز أن تُتَقَلَّد مقاومه في ذلك لعطّلتِ الحلى ، أو تُتَوَرَّدَ لشفتْ من الصَّدَى ، أو تُتَرَشَّفَ لأغنتْ عن برد اللمى ، أو تُقْطَفَ لكَفَتْ من يانعِ الجنى . ومن فارقك — أيّدك الله — وتحرُّقُهُ للبعد عنك تحرُّقُهُ ، وتحقُّقُهُ بالتشيُّعِ لك تحقّقه ، ففضلُكَ الباهرُ يأبى أن تنقطعَ عنه عوارفُ الإجمالِ على النوى ، ولا سيّما

[1] م : بالحظ فيه ؛ س : بالحد فيه .
[2] م س : ينتقض . . ينتكث .
[3] م س : الزمن من بث .
[4] م س : جذبه .
[5] م س : تحسين .

وقد وسَّدتْ مع القُرْبِ جوازِىءُ آمالِهِ أبردَيْ ظلالِهِ[1] ، وأورِدَتْ على الدنوِّ ظامئةُ ذمامِهِ النميرَ العذبَ من جِمامِهِ ، وقد كان لحقّهُ عند انزعاجه عن حضرتك – ولله حراستُها ، ولك رئاستها – ما الفضلُ له متألِّم ، والمجدُ منه متذمِّم ، ممّا أعلم – واللهِ – عِلْمَ اليقين أنَّ سيادتك تأبى مسموعَهُ ، ولا ترضى وقوعَهُ ، وإنما أتى ذلك التعدّي – لا محالة – من جهة المتولّي ، لأنَّ قَدْرَكَ – رفعه الله – مُنزَّهٌ عن ارتجاعِ موهوبٍ ولو عظم ، ومعاملة خادمٍ باستصفاءِ مكسوبٍ وإن ظَلَّم ، وعند الوزير الكاتب أبي طالب من بَسْطِ هذه النكتةِ ما أنت بمعاليك تقتضيه منه وتستوفيه ، وتأتي متفضلاً من الإيجاب فيه ، بما يليقُ بسؤددك الأثيل ، وتَعْهُّدِكَ الجليل ، ومعتَقَدِكَ الحَسَنِ الجميل ، واضعاً بذلك عندي يداً تشفُّ على متقدِّم أخواتها ، وتهتفُ بالتعجيزِ عن معارضتها من جميع جهاتها .

وله[2] : الفضلُ – لا زلتَ له أهلاً ، وبه أولى – عن شرف حامليه مُوضِح ، «وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضح» ؛ وورد كتابك – لا زالت المسارُّ[3] تَرِدُكَ ، والأقدارُ تُسْعِدُك – بوصول فلان إلى حضرتك – ضاعفَ الله جلالها ، وبسطَ ظلالها – ، وما كان مِنْ أخْذِهِ عند مثوله ، بكرمٍ[4] فَرْعِهِ التابع لطيب أصوله ، في وصفي بما والله قَطَعَني على البعد ، وقنَّعني حياءً من المجد ، فإني ما رأيتُ مثله سواه ، والله يغفرُ له ما أتاه ، ذكَرَ الجودَ والبحرَ[5]

---

١ ط د : ظله ؛ وهذا من قول الشاعر :

إذا الأرطى توسد أبرديه خدود جوازىء بالرمل عين

٢ وله : سقطت من ط د ، واتصلت هذه الرسالة بما قبلها .

٣ م س : المسرات .

٤ م س : بكريم طبعه .

٥ ط د : والمجد .

شاهد ، وأسهمَ في الفضل وربُّهُ واحد ، وإذ لا أستجيز موافقةَ جفائه ، بالاعتراض على تقريظه وثنائه ، فلا بدَّ أن أعتذر مما استكثر ، وأتذمَّم ممّا استعظمَ ، وأقول : إني ما عدوتُ في تلقيه ببعض حقوقه ، استرسالَ الصديق مع صديقه ، ولو ذهبتُ إلى معارضةِ فضله ، وتَوْفِيَةِ واجبِ مثله ، لضَعُفَتْ عن ذلك أسبابُ المقدرة[1] ، ووضحتْ بوقوع العجز وجوهُ المعذره ، وهو وليُّ البرّ والإجمال ، فيما عرضه وحسَّنه من الحال ؛ وهكذا مَنْ شرَّف اللهُ محتدَهُ ، وأطابَ[2] مشهده ، ومن زكا عُنْصرُه ، وكَرُمَ مَحْضره .

وذكرتَ في الكتاب الكريم ، عقبَ هذا الفصل ، بل سابغِ الفضل ، أنَّ ما نقله فلان المذكور إليك ، وأورد عني عليك . مما وافق مرادَكَ ، وطابق غرضَكَ واعتقادَكَ ، ولا غرو فاتفاقُ المذاهبِ والآراء تبعٌ لتمازج[3] النفوسِ والأهواء ، ونحن بحمدِ الله في الاتصالِ يدٌ وساعدٌ ، وفي الانتظام جسمان والروحُ واحد .

وتقدَّمتْ كتبي إليك بما كان من تطرُّق خيلِ العدوِّ — بدَّدها الله — جهاتي[4] ، طاعَتِكَ ، حتى كادت تتركها خلاء ، وتعيدها[5] عَفاء ؛ وأنبأتك أنَّ ذلك لا يثبتُ معه سَلْمٌ ، ولا يرقأ عليه كَلْمٌ ، ولا يطيبُ معه مُعْتَقَدٌ ،

---

١ ط : المقدورة .

٢ م س : من شرف محتده وطاب .

٣ ط د : لتنازح .

٤ جهاتي : موضعها بياض في م س .

٥ ط د : وتوعدها .

ولا يصبرُ عليه أحدٌ ؛ والآن فقد ورد ما هو أشدُّ ، وطلع ما هو أشنعُ وأفظع ، وذلك ضَرْبُ الخيلِ من قبل فلان على تلك الجهاتِ، وبلوغها في النكايات أقصى الغاياتِ ، فِعْلَ العدوّ المحارب . وعَمَلَ الضدّ المطالب، لا يمرُّ بحصنٍ إلاّ أناخ بحياله ، وجدّ في قتاله ، وهذه حالٌ ليس وراءها إلاّ الاستئصالُ ، فمذهبُ القوم في حيِّزِ الجليّ[1] [١٢٦ أ] الظاهر ، وقد وضح الصبحُ لذي ناظرٍ ، وأهلُ تلك الجهات مُظْهِرو القَلَقِ ، من اتّصال هذا التطرّق[2] ، مُعْلِنُو الشَّكْوى ، بتجاوزِ هذه العَدوى ، فكيف يسوغُ لي — وجهاتُهُمْ مباحَةٌ ، وأحوالهم مُجْتَاحَةٌ ، طَالَبُهُمْ بما تَعْرِفُهُ ، والاستعانةُ بهمْ على ما نُكلّفُهُ : أليس ذلك في حدِّ الامتناع ، وجانبِ الأمرِ غيرِ المستطاع؟ !

فَصْلٌ في ذكر الوزير الكاتب أبي محمد عبد المجيد بن عبدون[3] ، وسياقة فصول من غرائب نثره ونظمه .

وأبو محمد هذا في وقتنا سرُّ الدهرِ المكتوم، وشرفُ فِهْرٍ الحديث والقديم،

---

١ م : الخلا .

٢ ط د : هذه الطرق .

٣ كان ابن بسام يعتقد أن المتميزين من كتاب عصره أربعة كلاعيان وفهريان ، فالكلاعيان هما ابن القصيرة وابن عبد الغفور ، والفهريان أبو القاسم ابن الجد وأبو محمد ابن عبدون ، (إحكام صنعه الكلام : ١١٠) وكانت صلة ابن بسام بابن عبدون وثيقة وقد صور اللقاء الأول بينهما في القسم الأول والثالث ١ : ١٤٤ - ٣ : ٤٩٨ (وانظر إحكام صنعة الكلام : ٢٦٠) ؛ كما أن ابن عبد الغفور صور علاقة ابن عبدون بأبيه (إحكام: ١٤٨) وكيف تصافيا بعد خصام ، وأبرز اعتداد ابن عبدون بنوع من النثر يقال له المبتدع (١٥٧) . ولابن عبدون ترجمة في القلائد: ١٤٥ والخريدة ٢ : ١٠٣ (وكناه مرة أبا بكر ومرة =

لسانُ صِدْقها في الآخرين ، وقَمَرُ أفْقها الذي ملأ الصدور والعيون ، وديوانُ علمها المذال والمصون ، ومسترقّ كلمها المنثور والموزون ، أعجوبةُ الليالي ، وذروة المعالي ، ذو لسانٍ يفري ظبةَ السيف ، وصدر يسع رحلة الشتاء والصيف ، أفصح من صمت ونطق ، وأجمح من صلّى وسبق ، عوّل من ملوك الطوائفِ على رئيسٍ بلده المتوكل ، فعليه نثر درَّهُ الثمين ، وباسمه حبّر وشْيَهُ المصون ، وقد رحل إلى المعتمد فكأنه لم يجد قبولاً ، ولا وافق منه رأياً جميلاً ، وأراه إنما أتي من ازورارِ جانبه ، وبُعْدِ مطالبه ، فلما صمتَ ذكرُ ملوكِ الطوائفِ بالأندلس ، طوى الشعر على غَرّه[1] ، وبرىء من حلوه ومرّه ، إلاّ نفثة مصدور ، أو التفاتةَ مذعور ، وهو اليوم ببلد يابرة يرتشفُ[2] فَضْلَ ثماده ، ويأكلُ من بقيَّة زاده ؛ وقد أثبتّ من نظمه الرقيقةِ حواشيه ، الرائقةِ أعجازُهُ وهواديه ، ونثرِهِ الغضّةِ مجانيه ، المبيضّةِ مجاليه ، ما يشهدُ له بالفضل ، شهادةَ البرهان على الشكل .

= أبا محمد) والمغرب ١ : ٣٧٤ والرايات : ٣٢ (غ) وبغية الملتمس رقم : ١٥٦٧ (وقال إنه كان في حدود الأربعمائة فوهم أو عنى شخصاً آخر) وصلة الصلة : ٤٢ والتكملة: ٤٠٧ (وذكر أن وفاته كانت بعد ٥٢٠) والمعجب : ١٢٨ ، ٢٢٨ ، (وأورد له رسالتين لم يوردهما ابن بسام) والمطرب :١٢٧ ، ١٨٠ والفوات ٢ : ٣٨٨ والزركشي : ٢٩٨ وأورد ابن بشكوال ترجمة في الصلة : ٣٦٩ لمن سماه عبد المجيد بن عبد الله بن عبد ربه الفهري وذكر أنه توفي سنة ٥٢٧ ؛ وانظر صفحات متفرقة من إحكام صنعة الكلام ومن نفح الطيب (وفي ج ١ : ٦٧٣ نقل لترجمة ابن عبدون عن القلائد) والريحان ١ : ٨١ب — ٨٦/أ.

[1] الأصل في الغر أنه كسر الثوب ، يقال طويت الثوب على غره أي على كسره الأول .

[2] م : يرشف .

نسخة[1] له خاطب بها الوزير أبا[2] القاسم بن الجد يخطب فيها ودَّه ، ويستجلب ما عنده ، قال[3] فيها : يا رايةَ مجدٍ رُفِعَتْ ، فان تلقيتها باليمين ، وأعطيتها الثناءَ الثمين ، شددتُ عليها يدَ الضنين ، وشريعةَ فضلٍ على مائها[4] أحلّقُ وأحوم ، وبصفائها أجِدُ[5] وأهيم ، وفي ابتغائها أقعدُ وأقوم ، فلووُصِلَ رشائي بباع ، من رَجْعِ جوابٍ واجتماع ، لبردتْ غُلّةُ ذلك الاشتياقِ والالتياع ، وإن تعذَّر لقاء ، فقد انتشر ثناء ، امتلأتِ الأرضُ منه والسَّماء ، ووصفٌ عزَّ الأوصافَ وَغَلبها ، وهزَّ الأعطاف وجذبها ، وذِكْرٌ ملأ الآذانَ حُلِيّاً ، والآنافَ رِيّاً ، والأفواه أرياً ، ونُبْلٌ جلَتْ مطالعُهُ دياجيَ الأوهام ، وصقلتْ[6] مواقعُهُ صواديَ الأفهام ، ومجدٌ ردَّ الليالِيَ الدُّهْمَ زُهْراً ، والمساعيَ البُهْمَ غُرّاً ، فوددتُ أن أعار جناحَيْ طائرٍ ، فأكونَ لكعبة ذلك الجلال أوّلَ زائر ، فأقرن هناك حَجَّةً بعُمْرة ، وأفوزَ من عمادي — وصل الله علوَّهُ — بنظرة ، توسِعُ عيني قُرَّةً ، ووجهي نَضْرةً ، وأعشو إلى ذلك الضياء ، وأرى محلّي من تلك السماء ؛ ولله دهرٌ أطلعكَ أفقُهُ ، ووقتٌ وَسِعَكَ طَلَقُهُ ، ما أكرمَ طبيعتَه ، وأضْخَمَ دسيعتَه ، وأشرفَ في الأوقات خِيمَه ، وأعبقَ في الآناف شميمَه ، وأرقَّ على الأنفاسِ نسيمه ! ! وبحقّك أقسم ، وألتزمُ من ذلك ما ألتزمُ ،

---

١ م س : نسخة رقعة .

٢ م س : أبو .

٣ قال : زيادة من م س .

٤ ط د : ثنائها .

٥ ط د : وبصفاتها أحدو .

٦ م س : وروت ؛ وعلى هذه القراءة تكون « صوادي » بمعنى « عطاش » ؛ أما على القراءة المثبتة فإن « الصوادي » تعني التي أصبحت صدئة تحتاج إلى صقل .

لقد أظهر بك شرَفَهُ وبيّنَ ، وأخذَ منكَ زُخرُفَهُ وازَّيّنَ ؛ وجعلك غرّةَ بهيمهِ ، وغارة[1] [١٢٦ ب] مُليمه ، والحجةَ على خُصومهِ[2] ، وأبدى سرّاً طالما كتمه وأخفاه ، وشرحَ معنى شدَّ ما أبهمه وعمّاه ، فلو كنتَ في الأزمانِ السالفةِ لوددتُ أن يتقدَّمَ دهري فألقاك ، أو في الأوقاتِ المستانفة لحمدتُ أن يتأخَّر عمري فأراك ، فكيف وقد ضمَّني معك عَصْرٌ ، وجمعني وإياك فِهْرٌ ، وأنا أخْطُبُ إلى عمادي ــ أدام الله عزته ــ مودّتَهُ عقيلةً ، وأجعلُ رَحِمَي الأدبِ والنسب وسيلة ، وأبذلُ من تحليةِ حمدي وشكري مَهْراً ، وأبني لها بين سَحْري ونَحْري قصراً ، وأسْدِلُ عليها من الإشاعة والإذاعة ستراً ، وأحلّيها[3] من مشدودِ مواثقَ ومعاقد ، بمسرود مخانقَ وقلائدَ ؛ والله جلَّ وعلا يعينني[4] على فرضه أؤدّيه ، وقرضه أقضيه ؛ ومن[5] جزيل تحيّتي ، على سيدي الأعظم وإمامي ، ما يفعمُ ريّاه الخافِقَيْنِ ، ويُقِرُّ مرآه كلَّ عين ، ينقاد من غيرِ قائد ، وينساقُ من غير سائق ، إذا انتهتْ أولاه ، عادت أخراه ، وإذا صَدَقَتْ تباشيرُهُ ، بَرَقَتْ أساريرُهُ ، يُحَيِّي مغناه ، عند[6] سروبه وسراه .

فراجعه الفقيه[7] أبو القاسم بما نسخته : يا روضةَ أدبٍ غُذِيَتْ بِرُهُمِ

---

١ ط : وعذرة ؛ س د : وغدرة .

٢ ط : خصوصه .

٣ م : وأحلها .

٤ ط د : يمينا .

٥ منْ هنا حتى آخر الرسالة ورد غير منسوب في إحكام صنعة الكلام : ٨٣

٦ عند : سقطت من ط د .

٧ الفقيه : سقطت من م س .

الفَهِمِ ، وسُقيت بيديم حُسْن الشيم ، ما أدمثَ رباك ، وأطيبَ شذاك ، وأزكى قرارك ، وأذكى عرارك ! لقد شَرِقَتْ بأزهارك[1] زُهْرُ النجوم ، ولبستْ من الكَمَدِ والحسد زيَّ الوجوم ، وبَطَلَ لنفحات[2] شذاك ورياك أرَجُ[3] العبير ، وتعطَّلَ لِما وَشَتْ يداك واكتسى ثراك نسيجُ الحبير ، لله دَرٌّ[4] تحفةٍ أهْدَيْتَ[5] من تحفك! ما أنضرَ جناها ، وأزهَرَ سناها ، وأبهر لفظها ومعناها ! ! لقد ضُمِّنَتْ من بدائع الكلم فقراً شوارد ، وقُلِّدتْ من نواصع الحكم درراً فرائد ، وَخَلَعَتْ[6] عليَّ خلعةَ نبلٍ لو كسي مثلها أوَيْس[7] لاهتزَّ طرباً ، أو سُلّيَ بشبهها قيس لعاد نَبْعُ وَجْدِهِ غَرَباً ، لاجرم أنها حُلاكَ ، تبرَّعَتْ بها عُلاك ، وصفاتُك ، تجافَتْ عنها مصافاتك ، فيا لها منَّةٌ لا يكافئها ثمن ، ولا يسمحُ بمثلها زمن ، ومنحةٌ تتضاءَلُ لها بيضُ النِّعَم ، وتتقاصرُ عنها حُمْرُ النَّعَم .

وما زلت أستنشقُ من عَرْفِ أنبائِكَ ، ما يُرغِّبُ في اقتنائك ، وأتحقق من قِلَّةِ أندادِك ، ما يبعثُ على خِطْبَةِ ودادك ، لا سيَّما وقد جمعتنا عناصرُ ، وضمَّتنا من سهمِ الأدَبِ والنسب أوَاصِرُ ، لكن تحاميتُ المفاتحةَ هيبةً لبراعةِ إحسانك ، وبلاغَةِ يدك ولسانك ، ومن ذا ينازِعُكَ رتبةَ

---

١ م س : بأزاهرك .

٢ م : نفحات .

٣ م س : ريح .

٤ در : سقطت من م س .

٥ م س : أهديت لي .

٦ م : وجعلت .

٧ أويس القرني مضرب المثل في الزهد، توفي في خلافة عثمان (سنة ٣٧ ﻫ) انظر طبقات ابن سعد ٦ : ١١١ وحلية الأولياء ٢ : ٧٩ ؛ وقرن – بفتح الراء – بطن من مراد .

البيان ، ولو سَحَبَ ذيولَ سحبان ،أو نطق بلسان حَسَّان ؛ وإن كانت للكلام إمارةٌ فأنت فارسُ منابرها ، وطاعنُ محابرها ، ومقلَّد[1] علَمها ولوائِها ، ومذلِّلُ صَعَرها والتوائِها ، ولئن كنتَ ـ أعزّك الله ـ من غرائب المغرب ، لقد زُهيَتْ بك المشارق ؛ وحليتْ بجواهرِكَ ونوادرِكَ المهارقُ ، ولمَّا صحَّ لك فَضْلُ التقدُّمِ إلى صلةِ الأسباب ،ومفاتحةِ هذا الباب ،تعيَّنَ الجواب[2] ، وان أنْبطَ من حِسْيٍ بكيٍ ،وقلبٍ غير ذكيٍّ ، وناهيك من خَجَلٍ من يقيس الصُّفْر بالذهب ، ويعرِّضُ الجمودَ للتَّهب ، فتكلفتُ المراجعةَ اضطراراً ، واستشعرتُ اعترافاً بفضلك[3] وإقراراً ، وأنت بِسَرْوِكَ تصفحُ عن هَنَاتِها ؛ وتقيمُ أَوَدَ قناتها ؛ ولولا حقُّ الاقتضاء ، والثقةُ بكرم الإخاء ؛ لأحجمتُ ذُعْراً ؛ وقدّمتُ عُذْراً .

وأما المودَّةُ التي خطبتَ بفضلك بِكْرَها ، واستوجبت حَمْدَها وشكرها ، فقد زَفَفْتُها إليكَ مُشْرِقَةَ الجبين ، بنور الحقِّ المبين ، ضاحكةَ الترائبِ ، على حُسْنِ[4] الضرائب ؛ تتأوَّدُ في حُلَلِ الثناءِ[5] ، تأوُّدَ الكاعبِ الحسناء ، وتحملُ من نُطَفِ الصَّفاء ، ما يُزْرِي على الديمةِ الوَطْفَاء ، فإن وافقتْ لديك وجهاً خصيباً ، واستحقَّتْ من رضاك وقَبولك نصيباً ، فقد فاز قِدْحها ، ووَرِي قَدْحها ، ولم يخبْ سعيها وكَدْحُها . وظنّي أنها ستسعد بارتضائك ، وتهتزّ في يد انتضائك، وتأنسُ بجوارك ، وتسكنُ إلى جوارك ،

---

١ م : ومتقلد .

٢ الجواب : سقطت من م .

٣ م : لنفسك .

٤ م : بحلى حسن ؛ وسقطت « حسن » من ط .

٥ في . . . الثناء سقطت من م .

[١٢٧ أ] والله تعالى يبقيك ، مرغوباً فيك ، وأقرأ على سيدي سلاماً دائمَ الاتصال ، عَطِرَ البُكَرِ والآصالِ . يتكررُ تكرُّرَ الأنفاس، ويخضرُّ دائماً اخضرار الآس .

وكتب أيضاً أبو محمد[١] إليه برقعة قال فيها : يا أعظَمَ مَنْ لو سريتُ بأنواره لاهتديت ، وأفخمَ مَنْ لو اقتديتُ بآثاره لاكتفيت ، ومن أبقاه الله لفخرِ آبائه يُفضلُهُ إلامن بنيه، ولِيستَرِ إغضائه يَسْدُلُهُ على مستحقّيه ؛ ولِعُذْرِ أوليائه يقبله على ما فيه ، كتبتُ عن قريحة خمدَ[٢] لهيبها : ونحيزة ركدَ هبوبها ، وذهنٍ امّحتْ أضواؤه . وطبع أخْوَتْ أنواؤه . وجنانٍ فلَّ ظبتَهُ[٣] الكسلُ ، ولسانٍ عقَدَ عذَبَتَهُ الخجلُ ، نَدَبْتُهُ إلى الاحتفال فانقطع ، وبعثتهُ على الاسترسال فامتنع ، وقال : في كلّ حين تعرضني على العيون ، بوجهٍ مجدور، بكلّ نَجْهٍ[٤] جدير . فقلتُ : لا عليك . وَلْتَثُبْ نفسُكَ إليك ، العذرُ إن شاء الله بين يديك ؛ حاملُ الرقعةِ إلى عمادي — وليته لم يحملْها إليه ، ولم يُطْلِعْها عليه[٥] . ولم يضعها بين الكريمتين[٦] يديه — حفز ني أشدَّ حَفْزٍ ، واختطفها[٧] من يديّ اختطافَ الذئبِ داميةَ العنز ، ومنعني من النظر فيها ، وتصفُّحِ ألفاظها ومعانيها . فأسقطتُ لفظتين . كانتا

١ م س : أبو محمد أيضاً .
٢ إلا من . . . خمد : سقط من م .
٣ م س : الطيبه .
٤ م س : نجد .
٥ ولم يطلعها عليه : سقطت من ط .
٦ الكريمتين : زيادة من م .
٧ م : واستخطفها .

بين سطرين ، فاتفق بذلك نوعٌ من الإغراب ، لم يقعْ في بابٍ من الإعراب ، ولا سُمعَ من العرب ولا من الأعراب ، ولم يقعْ في حساب .، فكيف في كتاب؟ ! ولئن عثّر قلمي وما أولاه بالتعثير ، وغيَّر كلمي وما أجْدَرَهُ بالتغيير ، ما بَهرَ من جلالك ، وتعيَّنَ من إجلالك ، فمن رام الصعودَ إلى السماء زلّ ، أو المكاثرةَ بالهباءِ قلّ ، أو المظاهرةَ على الرؤساء ذلّ ؛ وبين يدي نجواي صدقةٌ على الكتاب أقدِّمها ، وكلمةٌ من الصواب أغتنمها : مَنْ طَمعَ في مجاراتِك قَطَفَ[1] ، ولو ركب البرقَ ، ومن دفعَ إلى مباراتك تَخَلَّفَ ، ولو سبق الخلق ؛ وإن وصلَتْ تلك الرقعةُ تتعثّر ألفاظها في معانيها ، وتتبرأ هواديها من تواليها ، ووافتك تَرْسُفُ من مهابتك في عقال ، وتقفُ من سيادَتِكَ بين انقباضٍ واسترسال ، فلك — أدام الله عزَّك — شرفُ الاهتبال وكرمُ الإجمال ، في إرخاء سترٍ وإسدال سجْف ، على ما فيها[2] من جفاءِ بَشْرٍ وإخلالِ حَذْف ؛ فقبّح الله العجلةَ فما أسوأ آثارها ، وأكثرَ عثارها وأكبر شَنَارها ، وأوحش غَلَطَها ، وأفحش سَقَطها! وقديماً تحامتها الحكماءُ ، وتبادرتها العقلاء ، من ركبها لم ينجُ — لو أقيلَ — من عثار ، ومن صحبها لم يخلُ — لو قُبلَ — من اعتذار ، والله جلّ وعلا يُعلي قَدْرَ عمادي على الأقدار ، ويجعلُ إليه وفي يديه مقاوم الليل والنهار ، ويديمُ سِتْرَ إغضائه ، على أودّائِه وأوليائه ، ويزيلُ وحشةَ أرضِه بتأنيسِ سمائه .

وكتب[3] إليه أيضاً برقعة ثانية يقول فيها : يا حامل يراعي

---

١ قطف : مشى ببطء .

٢ عند هذا الحد تنتهي النسخة م .

٣ تنفرد س بهذه الرسالة ، ولرداءة هذه المخطوطة فإن إقامة نص صحيح تماماً منها أمر بالغ العسر .

الأعظم ، ومعوّل انقطاعي الأقوم ، ومعقل امتناعي الأعصم ، ومن لا زال جنابه للأمطار رضيعا ، وبابه للأوطار شفيعا، ترشح فيه نعم الأيام ، وتقسم أرزاق الأنام . سلام الله ورَوْحُ رحماه ، ونفح سقياه ، عليك من روضة نجد ، وزهرة حُسْنٍ لا زهرة حَزْن ، ما أغدق صوبها ، وأغزر شربها ، وأرسخ وهاد مطاويها الشريفة ، وأشمخ نجاد مباديها المنيفة ، وأشهر بغرر المجد وحجوله بطونَ مجانيها ، وأغمر بدرر الرفد وسيوله ظهور روانيها. وأصفق غيوم كرم تسقيها ، وأرق نسيم شيمٍ يجري فيها . وآنق تسبيح لسانها ، وأعبق رائح أنفاسها ، وأخلص شذاها إلى الأرواح ، وأعرض ريّاها على الأفواه . وأضحك ثغور أقحوانها ووارف نَوْرها . على رَقْصِ قدودِ أغصانها وغناء طيرها، لقد حيّا بها نفوسنا فشفاها ، وكساها من حُرٍّ أزاهرَ الكرم ما كساها ، وحلاها من درر نوادر الحكم بما حلاّها ، وأجرى هوامي الخير والحمد من أصولها وفروعها . وأبدى مطاوي النور من كمونها وبروعها ، فهامُ رعانِها محلاّةُ الأكاليل بمحاسن من المفاخر العظام ، وأجسام غيطانها موشاة السرابيل بتزايين من المآثر الجسام . وأبقى من أرواحها ، في رؤوس أدواحها .ألسُناً تثني عليك بالجميل .ودموع أندائها تخلق في وجوه مائها نوالك بالقبول ، فلا لحقَ أزهارَ خِلالِك ذبول ، ولا طَرَقَ أنوار خصالِكَ أفول . ما مشى بالقسيم ، بريد النسيم ، بين الأزاهر والخياشيم .

يا مرادي الحفيّ . ومن أعلى الله أمره السنيّ ، وصلني كتاب كريم ، طلعت عليّ منه نجوم . أستغفر الله تعالى بل رجوم ، هوت من أساطيري على شياطين فأحرقتها بنور الحقّ المبين . ومحقتها مَحْقَ ضياء اليقين ظلامَ الشكّ الظنين . وتلقفتها تلقُّفَ عصا موسى حبالَ المُلْقِينَ . وقبل نظري إليه وفيه . قبَّلتُ يدَ مُوَشّيه ومهديه ، وخفتُ أن أمحوَ سطوره تقبيلاً .

فوضعته لرأسي إكليلاً ، وصرتُ به على الدهر أميراً ، وكيف لا و [قد] ملأ عيني نوراً وقلبي سرورا ، ويدي مسكاً وكافوراً ، وداخلَتْ نفسي منه قوة لا أعرفها ، فكيفَ أصِفُها ، ولا أدريها ، فكيف أحكيها ؟ وهي — أظن — ما يداخل المُضِلّ إذا أنْشَدَ فوجد ، والمقلّ إذا استعدى على الدهر فأعدي بنُغبةِ الحيا ، فقال : يا رِفَاه ، فَرَحاً بسقياه ، وأنا أقول ذلك ألفاً ، وأصَعِّرُ خداً وأرفعُ كفّاً ، فرحاً بما أولى عمادي — أعلى الله قدره — من مسارّ متناصرة ، ومبارّ متظاهرة ، لاينبري إليها شكر ، ولا يحتوي عليها حُضْر ، ولولا رجائي — إن اختارلي — بلقائه ، واعتزائي إلى ولائه ، ما حاسنتُ البقيعَ المزهرَ بشجرة ، ولا ماتنت الربيعَ المخضرّ بِقَطْرَة ، وأرجو أن يسمح بالعفو ، ويصفحَ عن الهفو ، ويلقي عليه سترَ معروفه ، ويغطّيه بسجفٍ من سجوفه ، والله تعالى يقيه ويبقيه ، مشكوراً أياديه ومساعيه ، قريرةً عيون أوداته وأوليائهِ فيه ؛ ومن سلامي على عمادي المعظّم ، وإمامي المقدّم ، ما لا يخلف مكانه قطر ، ولا ينوب منابه زهر ، ولايقوم مقامه عنبر ، ولا يشق قتامه مسكٌ أذْفَر ، يلوحُ بلغة لكلّ رامق ، ويفوحُ عبقة لكلّ ناشق ، ما أديل غاربٌ لشارق ، وساربٌ بطارق ، والسلام.

فكان من جواب الوزير الفقيه أبي القاسم له على ذلك ما نسخته : تَمَهَّدَتْ لك يا عمادي أكتافُ الهمم ، ودرَّتْ عليكَ أخلافُ النعم ، وألقتْ إليك مكنونَ ضمائرها ومَصُونَ جواهرها أصدافُ الحكم ، فما أتمّ فضائلك وشمائلك ، وألمّ[1] بأنوارِ المحاسنِ خمائلكَ ، وأسمحَ بكلّ جوهرةٍ ثمينة ولؤلؤةٍ نفيسة بحاركَ ، وأنفحَ بأنفاسِ الآدابِ بل بأرواحِ الشبابِ أصائلكَ

---

١ س : وأنم .

وأسحارك ! ! وأكرمْ بخطابين لك تسابقا إليَّ وتلاحقا لديَّ ، كما لحق المصلّي السابق ، وتطلّعَ الضحى غبَّ الشارق ، وتدفّقَ الحيا إثر البارق ، أو كما شفع المولي الطوقَ بالسّوار ، وجمع العروسُ بين بَهْجَةِ الحليّ ونَفْحِ الصوار[1] ، وأنجد البطلُ[2] المبارز بالفارس المغوار ، فما طَوِيَتْ للمتقدِّم مطارف ، حتى نُشِرَتْ من المتأخِّر رفارف ، وما انحسرتْ عن محاسن الأوّلِ معاجِرُ ، حتى سَحَرَتْ من براقعِ الآخر محاجر . وقد كان في السابقِ منهما[3] ما يملأُ بهراً مدارجَ نَفَسي ، ويملكُ دهراً أعنّةَ خرسي ، ويوسعُ لساني وجَناني إفحاماً ، ويوجب لدواعي الانقطاع بين يديَّ ازدحاماً ، فكم تقلّد من درَّة فكر لَفَظها بحرُكَ العذبُ الزلال ، ونفثَ فيها سحرُكَ الحلوُ الحلال ، فلم تقنعْ لغامرِ [١٢٧ ب] بحرِه ، وباهرِ سحره ، حتى شَدَدْتَ عُرى أواخيه ، بقوى أخيه ، وأمْدَدْتَ مذانبَ سربه ، بتلاع تِرْبِه ؛ فلئن كان الأولُ قد استعار من الجوزاء مِرْطاً ، لقد استمنح الآخرُ من الثريّا قُرطاً ، ولئن وردَ السابقُ من موارد النَّشْرَةِ نُغَباً ، لقد شرب اللاحقُ من ماءِ المجرةِ ثغباً ، فهلا كففتَ استنانَ خيلك ، وأمسكتَ قليلاً عنانَ سَيْلِك ، وثنيتَ من غَرْبِ غرائبك ، وجريتَ على سَجَاحَةِ ضرائبك .

وقد كان من حق الإخاء أنْ لا تُهِبَّ عواصفَكَ على نسيمٍ عليل ، وتجهّزَ كتائبَكَ إلى عددٍ قليل ، وحدٍّ فليل ، وبدون هذا كنتُ أواليكَ مبايعاً ، وأعطيك صفقة يدي بالعجزِ طائعاً ، فلستُ ممن يعارِضُ قوةَ البرهان بضعفِ الإقناعِ ، ويشتبه عليه فرقُ ما بين الإمكان والامتناع ، وإني لأعلم

---

١ الصوار : وعاء المسك .

٢ البطل : سقطت من س .

٣ في الأصول : منها .

ممرَّ سهمي فأقفُ وأنصرف ، ومنتهى علمي فأنْصِفُ وأعترف ؛ وأما العذرُ الذي بَسَطْتَهُ في معنى الوهم ، فقد كنتَ غنياً عن مدِّ أوضاحه ، وحرياً باطِّراحِهِ لاتِّضاحه ، وهيهات أنْ يلتبسَ عليكَ الغريب ، فكيف القريب؟ ! أو يشتبهَ لديكَ الخفيُّ ، فكيف الجليّ ؟ ! وما حسبته إلا تميمةً في صدرِ الكتاب ، تصرفُ عنكَ أعينَ الكتّاب .

وبعدُ – باعدتك الأسواءُ – فإنَّ رسمي في صناعةِ الكتابةِ قد دثر ، ونظمي في ضَبْطِ معانيها قد انتثر ، ولم يبقَ عندي منها إلاَّ أثرُ خرابٍ ، أو لمعُ سرابٍ ، فإذا امتريتُ خِلْفها دَرَّ بِعُسْرٍ ، وعلى قَسْرٍ ، وتحلّبَ رِسْلُهُ بضَجرٍ ، كأنما يتفجّرُ من حَجَر . وهي خطّة مَدَارُهَا على الإقبال ، وفراغِ البال ، وزمامُها في يدي الشباب ، مع توكُّدِ الأسباب ؛ وأنا – أعزك الله – قد عطّلْتُ صهوةَ جوادها ، ونزلتُ عن ذروة أعوادِها ، فلا تُرْهِقْني فيها عُسراً ، ولا تحمّلني من مناهضتك إصراً ، وتوخَّ بفضلك معي جانبَ الترفيه والتخفيف ، وتقبّلْ مني عَفْوَ اليسير اللطيف ، وأقرأ عليك من سلامي ما يُرْبي على القَطْرِ ، ويُزْري بِعَنْبرِ السّحر ، ويبقى ميسمُهُ في صفحة البدر .

قال ابن بسّام : قول أبي القاسم : « وما حسبته إلا تميمةً في صدر الكتاب » احتذى في ذلك حذو أبي المغيرة بن حزم ، في فصل خاطب به ابن عمه الفقيه أبا محمد بن حزم في حَرْفٍ هَمَزَهُ ، مما لا يهمز ، فقال له[1] :

ومن أين نفذَ بصرك حتى هَمَزْتَهُ هَمْزَ عامر بن الطفيل ، قرنَهُ في

[1] انظر القسم الأول من الذخيرة : ١٦٣ – ١٦٤ .

سواد الليل ، وما أظنك جعلتها إلا تميمةً ، لتلك القطعة الكريمة ، وامتثالاً لقول القائل :

ما كان أحوجَ ذا الكمالَ إلى عيبٍ يوقّيه منَ العيْنِ

فصول من ترسيل أبي محمد

فصل له من رقعة عتاب : سلام على من نظر بقلبه لا بعَيْنيه ، وحكَم بيقينه لا بظنّه ، ونطقَ بعقله لا بهواه ، وأخذ من دنياه لأخراه ، ولم يستفزَّهُ قال ولا قيل ، ولم تهزَّهُ تلك الأباطيلُ . وبلغني قولُ من قضى عليَّ بالظنّة ، وحكمَ بالشُّبْهَة ، وللدعاوى طُرُق لا يتعدّاها متعدٍّ إلاّ وكان وَبَالُ ذلك راجعاً عليه ، ولا يتجاوزها متجاوز إلا نُسِب زَيْغها إليه ، لا سيّما في ضربةٍ توجبُ حَدّاً ، وتُضْرِعُ خدّاً ، وتَفُلُّ من فاضلٍ حَدّاً ، لم يطّلع مُشيعُها منّي على ريبة ، ولا وقفَ مذيعُها على حقيقة ، بل افتراءٌ من مُفْتَرٍ ، وادّعاء من مدّعٍ ، في تلك التي لا أسمّيها ، فإني طلّقتها قبل الدخول ثلاثاً ، « ونقضْتُ حَبْلَ وصالِها أنكاثا » ، قبل هذا والزمانُ مساعد ، والسلطانُ مهاود ، فكيف بها الآن ، وقد علَت الإنسانَ أبّهةُ [الكبير][1] ووخَطَتْهُ[2] واعظةُ القتير ، وردَّ ما استعار من الشباب إلى المعير ، وهجرَ كلَّ الهجر من ذاقها شميماً ، ورفضَ كلَّ الرفض من لم يكنْ إلاّ على

---

١ الكبير : زيادة من س .

٢ كذا في النسخ ، ويمكن أن تقرأ أيضاً « ووعظته » .

الحديث نديماً[1] . وأقسمُ وأعرفُ بما أقسم، وألتزمُ من ذلك ما ألتزمُ ، لقد تركتها خوفاً للمعاد ، لا رياءً للعباد ، إذ الصيانة أذكى عتاد ، فكيف وأنا تحت نِعَم من الله ضافية ، ونوافلَ متوالية ، وفواضلَ رائحةٍ وغادية ؟ ! فلا تظنَّ أنَّ تنصّلي لمعاذرة أريدُ [١٢٨ أ] قَبولَها ، وأحب تبليغها وتوصيلَها ، لا والذي صيّرَ العقلَ لصاحبه خصماً ، وجعل بعضَ الظنِّ إثماً ، ولا قصدتُ مَنْ قصدتُ إلاّ تطوُّعاً ، ولا زرتُ مَنْ زرتُ إلا تبرُّعاً ، ولقد أذهبُ بنفسي عن كلِّ طمع ، وأرغبُ بها عن كلِّ حرصٍ وجَشَع .

وله من أخرى : كتبت والعهدُ يرفُّ ماؤه ، ويشف ضياؤهُ ، وتتألّقُ غُرَّتُهُ ، وتشرقُ أسرَّتُهُ ، والودُّ كما تدريه ، لا مزيدَ على ما تعلم فيه ، وإن كانت القلوبُ تتناجى على البعاد ، بألْسُن الوداد[2] ، وتتراءى على الفراق ، بأعين الوفاق ، فربّما أحْوَجَتْ دواعي الأيام ، إلى المفاوضة[3] بالأقلام ، لضرورةٍ لا بدَّ من الإفصاح عنها ، والخروج شفَاهاً[4] منها .

وغاب فلان ــ أعزَّه الله ــ وأنت تواليه وتناصره ، وتؤاخيه[5] وتظافره ، فلك الفضلُ في إيصال أحرفي ، والعذر على[6] تخلّفي ، فكان يجب أن أزورَهُ

....

١ في إشارته إلى ترك الخمر يومىء إلى قول أبي نواس :

أيها الرائحان باللوم لوما لا أذوق المدام إلا شميما
فاصرفاها إلى سواي فإني لست إلا على الحديث نديما

٢ ط د : المداد .
٣ ط د : المعارضة .
٤ ط د : سفاهاً .
٥ ط د : وتواصيه ؛ س : وقواصيه (اقرأ : وتواصيه)
٦ س : عن .

ولو على قدمي ، ولا أخاطبُهُ إلاّ بفمي لا بقلمي ، لكنْ هي الأيامُ وعواديها ، والأقدارُ ومجاريها ، ولو أُعطيتُ أعنّةَ الاختيار ، لطرتُ إلى جنابِه كلَّ مطار ، ولكنتُ في بابه أوثقَ مسمار ، وإن كانت مهلةٌ انحشرتُ في زُمْرتِه ، وتشرّفْتُ بخدمته .

وله من أخرى : لو أنّ جهتي غضّةٌ على مطاويها ، لم تؤثّر أيدي الغِيَر فيها ،ولا تحيّفتها الفتنُ بحوادثها ،ولا نَظَرَتْ إليها المحنُ بكوارثها ، لوجب عليّ المبادرةُ إلى الهجرة ، والتحوُّلُ إلى الحضرة ، التي الفقيهُ الأجلُّ القاضي سيّدُ الأمة فيها ، وبيديه أزمّةُ أوامرها ونواهيها، ولحقّ على مثلي الانحيازُ إلى فِئتِه ، والانحشارُ في زمرته ، والانحياشُ إلى جنّتِه ، ولكانَ تنقُّلي لذراه ، لتقيُّل بعضِ سجاياه ، على حسب قدرتي ، ومَبْلَغَ مُنّتي ، ومنتهى قُوّتي ، ولعذْتُ بعلاه من أن أرجعَ أعرابياً بعد الهجرة ، وبدوياً بعد لزوم الحضرة ، فكيف وأنا آخذُ من اجتبائه بأوفر قسم ، وأضربُ في ولائِه بأوفر سهم ؟ ! وجهتي خاويةٌ على عروشها ،خاليةٌ من أنيسها ،فبينها وبين النصارى ، أقصرُ من إبهامِ الحبارى ، هي متَجَرُّ عواليهم ، ومُجْرَى مذاكيهم ، وموردُ صاديهم ،ومَوْقِدُ صاليهم ،ومَخْفَقُ أعلامهم ،ودَرِيّةُ سهامهم[1]، ومسرحُ جيادهم ،ومركزُ صِعادِهِم : الخروجُ عنها غنيمةٌ ،والسلامةُ فيها هَضيمةٌ ، ومن تفرَّدَ بالجلالةِ تَفَرُّدَ عمادِنا ، وتوحّدَ بالسيادة تَوَحُّدَ مَصادِنا ، استجنى مؤمّلُهُ من الليالي والأيام ، ثمرةَ بُسُوقِهِ على الأنام ، ولم يزلْ يستنشي هَبّةَ تلك المخايلِ الراعدةِ البارقة ، ويقتضي عِدَةَ تلك الشمائلِ الصادقة . وها أنا بين يدي اختباره ، فَلْيُجدْ في اختياره[2] ، فان رأى

---

١ أقصر من . . . سهامهم : اقتبس ابن بسام بعضه : ٣٧٤ س : ٩ – ١١ .
٢ ط : اختاره .

موضعاً لجميلِ رأيه أقدم[1] ، وإن ألفاني مضطلعاً بأعباءِ وَلائِهِ صَمَّم ، ولا رغبةَ إلاّ فيما يُزْلِفُ لديه ويقرِّب منه ، دافعَ اللهُ للمجدِ والسَّرْوِ عنه :

وما أسَفي إلا على فَوْتِ رتبةٍ عليها مضى قومي ولم أكُ تاليا
وأنت على رفعي ووضعيَ حُجّةٌ فكنْ لي على أَوْلاهما بكَ جاريا

وله من أخرى : كتابي عن عهدٍ طال زمانُهُ ، واستطال سُلْطانُهُ ، ووقتٍ لا يَحْزِرُهُ حسابٌ ، ولا يَحْصُرُه كتاب ، ولا يحويه حدٌّ ولا يجمعه ، ولا يحصيه عدٌّ[2] ولا يسعه . وحالت بيننا في الأكثر أقاليمُ ، لا يقطعها الإيجافُ ولا الرسيم ، ولا تهتدي في طُرُقِها النجومُ ، لا أقولُ : مجاهلُ ومعالم ، بل أقاليمُ وعوالم ، لا يُفْهِم الحُدّاثَ فيها إلاّ التراجم[3] ، ولا تقطعها الجيادُ بِشَدِّها ، ولا الركابُ بِوَخْدِها ؛ فهنيئاً للحضرة وجميعِ أهلِ الملّة حضورُك ، وفي مقام[4] المجد مُقامُكَ الميمونُ ومَسيرُك ، ولولا آلامٌ تناوبتْ ، وأسقام تعاقَبَتْ ، لتلقيتُ أَوْبتكَ السعيدةَ بقدمي ، ألا بمدادي وقلمي ، والله يملّي الاسلامَ عمرَك ، ويحملُ عنّا — معشرَ أوّليائك — شكرك .

---

١ ط د س : أقام .
٢ ط : ولا يجمعه عدد .
٣ من قول المتنبي (ديوانه : ٣٧٦) :
تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث إلا التراجم
٤ س : سبيل .

ما أخرجته من شعره الرائع ، الكثير البدائع

له من قصيدة في المتوكّل[1] : [١٢٨ ب]

وافاك من فلقِ الصباحِ تبسُّمُ ... وانجاب من غَسَقِ الظلام تجهُّمُ
والليلُ يُنْعَى[2] بالأذانِ وقد شدا ... بالفجر طيرُ البانةِ المترنّم
ودموعُ طلِّ الليل تخلق أعيناً ... يرنو بها من ماء دجلةَ أرقم
يا صاحبي بين الصّراةِ ودجلةٍ ... ودعا العلاقة مُسْعِد ومتيّمُ
هلْ في لحاظك إنما هي عطفةٌ ... زَهرٌ على خضرِ الرُّبى أو أنجم
بيضٌ كما ضحكتْ حواشي رَوْضة ... وشتّى السماكُ مُلاءَهَا والمرزم

ومنها :

خبَطَتْ بنا وَرَقَ الظلامِ سوابحٌ ... ملءُ النواظرِ سيرهنَّ توهُّمُ
فإذا سَرَتْ فالليلُ منهمْ أبيضٌ ... وإذا غَدَتْ فالصبحُ منها[3] أدهم
من كلِّ هفهافِ العنانِ كأنّهُ ... نَفَسُ المشوقِ تَعاوَرَتْهُ اللوَّم
بيني وبين الدهر يومٌ مثلُهُ ... والبيضُ تشهدُ والصوارم تحكم
ومن المشاهدِ كالشّهودِ سوامعٌ ... ومن الأسنّةِ ألسُنٌ تتكلّم

وهذا من الكلام الذي لا يجهل مناره ، ولا يشقّ غباره .

---

١ منها ثلاثة أبيات في الفوات ٢ : ٣٩١
٢ ط د : يبغي ؛ س : تنفى ، والتصويب عن الفوات .
٣ ط : منهم .

ومنها :

سامتْ لساني فيك يا ابنَ محمّدٍ — مِقَةٌ إذا كُتِمَ الهوى لا تُكْتَم
ومحبّةٌ موروثةٌ مكسوبةٌ — بُدىءَ الزمانُ بها وعنها يُختَم
وإليكَ من بنتِ الضمير حديقةً — غنّاءَ تُنْجِدُ بالرواة[1] وتتهم
طبّقتُ آفاقَ الكلامِ فلم أدَعْ — زَهَراً يرفُّ ولا جُماناً يُنْظَم
وحلوت من غُرَرِ البديع بأينُقٍ — أنا خلفها بادي العروقِ محرّم
وتركتُ أرضَ الغربِ وهيَ كأنّما — بي عالجٌ أو ضارجٌ أو زمزم
ورحمتُ في الآداب كلَّ مُسَفسفٍ — يثغو إذا هَدَرَ الفنيقُ المقرم
والفهمُ قد غارتْ نجومُ سمائهِ — والعلمُ وحيٌ والطروسُ تترجم
لله درُّكَ هل لمجدكَ غايةٌ — إلاّ وأنت بها معنّىً مغرم
وعلاك لي رِدْءٌ وجودُكَ في يدي — ماضٍ كرأيك في الخطوب مصمّم
هزّتْكَ أرواحُ السماحةِ بانةً — ومن الرجاحةِ في حماك يلملم
وتعلّمتْ منكَ الغمامةُ شيمةً — تهمي وفيها للبروقِ تبسّم

قوله : « من كل هفهاف العنان » . . . البيت ، أخذه من قول بشار ، حيث يقول[2] :

* ثم انثنت كالنَّفَسِ المرتدّ *

وقوله : « وإذا سرت فالليل منهم أبيض » ، من قول محمد بن هانیء[3] :

---

١ ط : بالدوات ؛ د : بالدواه .
٢ ديوان بشار : ٨٥ (جمع العلوي) .
٣ ديوان ابن هانیء : ١٩٠ .

قد أطلعوا بالشهبِ صُبْحَهُمُ فلو[1] عقدوا نواصِيها أعادوا الغيهبا

وألمَّ بعضَ ألمام ، بقولِ أبي تمام[2] :

* كظلمةٍ[3] من دخانٍ في ضُحىً شحبِ[4] *

ولأبي محمد من قصيدة أولها :

لمن أينُقٌ تأكلُ الأرضَ وخدا تُريني العوالي إلى الغربِ تُحْدَى

وفي قصيدته هذه بيت يُستَظْرَفُ فيما وصف من طعنة غلا في سعتها حتى أدخل عليها الفيل ، [١٢٩ أ] وأراق من دمها ما يُرْبي على النيل ، فقال :

له طعنة يدخل الفيلُ منها إذا الطعنُ مزّقتِ الزّغْفَ نقدا

ومن الإفراط في وصفها قولُ قيس بن الخطيم[5] :

طَعَنْتُ ابنَ عبدِ القيس طعنة ثائرٍ لها نَفَذٌ لولا الشّعاعُ أضاءَهَا

وذكرتُ بخبرِ هذه الطعنة قولَ رجلٍ من شيبان[6] :

---

١ الديوان : واستأنفوا بشياتها فجراً فلو .

٢ ديوان أبي تمام ١ : ٥٩

٣ الديوان ، وظلمة .

٤ ط د : سرب .

٥ ديوانه : ٧ والمعاني الكبير : ٩٧٨ والسمط : ٨٩٤ والمختار : ٩١

٦ هو ثعلب (أو ثعلبة) بن عمرو الشيباني ، انظر فصل المقال : ١٥٧ والسمط : ٥٣ والحماسة شرح التبريزي ١ : ٢٢٠ والمرزوقي : ١٤٦

فأتبعتُهُ طعنةً ثَرَّةً يسيل على النَّحْرِ منه سبيبْ
فإن قتلته فلم أرْقِهِ[1] وإن ينجُ منها فَجُرْحٌ رغيب

يقول[2] : إن قَتَلَتْهُ الطعنة فلم أدعْ جهداً ، وإن سلم تركت به جرحاً رغيباً ، أي واسعاً .

وقوله : « لم أرقِهِ » ، كانوا يزعمون أنَّ الطاعنَ إذا رَقَى المطعونَ برئ ، كما قال زهير[3] :

عشيّةَ عاودتُ الحُلَيْسَ كأنما على النحرِ منه لونُ بُرْدٍ محبّرِ
فلم أرْقِهِ إن ينجُ منها وإن يَمُتْ فطعنةُ لا غُسٍّ ولا بمغمّر

وقال حاتم الطائي[4] :

سلاحُكَ مرقيٌّ فلا أنت ضائرٌ عدوّاً ولكنْ وَجْهَ مولاك تخمشُ

وقال أبو محمد بن عبدون من قصيدة[5] :

مَضَوْا يَظْلمونَ الليلَ لا يلبسونَهُ وإن كان مسكيَّ الجلابيبِ ضافيا

---

١ السمط : فلم آله .
٢ متابع للسمط : ٥٤
٣ هو زهير بن مسعود كما في السمط : ٥٥ وفصل المقال : ١٥٧ والألفاظ : ١٤٣ والجمهرة ١ : ٩٣
٤ السمط : ٥٥ ؛ ويروى : مولاك تقطف (اللسان والتاج : قطف)
٥ انظر الفوات ٢ : ٣٩١ وقد استخدم ابن عبدون بعض أبيات هذه القصيدة في رسالة ، (انظر إحكام صنعة الكلام : ٢٤٧)

يؤمّون بيضاً في الأكنّة لم تزَلْ — قلوبُهُمْ حبّاً عليها أداحيا [1]
وأغربةُ الظلماءِ تنفُضُ بينهم [2] — قوادِمَها مبلولةً والخوافيا
إذا مرقوا من بطنِ ليلٍ رقَتْ بهم — إلى ظهر يوم عزْمَةٌ هيَ ما هيا [3]
وإنْ زعزعتهم روْعَةٌ زعزعوا الدجى — إليها كماةً والرياحَ [4] مذاكيا
ولو أنّها ضلّتْ لكان أمامها — سنا عمرٍ في فحمةِ الليلِ هاديا
وصلّتْ به الهيجا عليه وسلمتْ — فما ارتضيا حاشاه ساقاً وساقيا
همامٌ أقام الحربَ وهي قعيدةٌ — وروّى القنا فيها وكانتْ صواديا
شريفُ المطاوي تحت ختم ضلوعِهِ — تميمةُ تقوى ردّتِ الدهرَ صاحيا
إذا قُرِئتْ لا بالنواظرِ طبقت [5] — سُرَى [6] أختها ذاتِ البروجِ مساعيا
وهديٌ لو استشفى المعنّى بِروْحِهِ — لما كان بالوجدِ المبرّحِ صاليا
ورقّةُ طبعٍ لو تحلّى بها الهوى — لأعدى على عَصْرِ الشباب البواكيا
إليه أكلتُ الأرضَ بالعيسِ ثائراً — وقد أكلتْ منها الذّرى والحواميا
حوافيَ لا يُنْعَلْنَ والبعدُ آذنٌ — على نفسه إلا الوجى [7] والدياجيا
فجاءَتْهُ لم تبصرْ سوى البِشْرِ هاديا — وسَلْهُ ولم يَسْمَعْ سوى الشكرِ حاديا [8]

---

١ ط د : حنا عليها جاحيا ؛ س : جناجيا
٢ الفوات : فيهم .
٣ ورد البيت في إحكام صنعة الكلام : ١٤٧ مع تغيير في الرواية .
٤ ط د : كما تأتي الرياح .
٥ الفوات : طابقت .
٦ ط د س : سوى .
٧ ط د : الدجى .
٨ رواية البيت في إحكام صنعة الكلام :

فجاء ولم يبصر كوجهك هاديا — إليه ولم يسمع كشكرك حاديا

هوادٍ على أعجازها قيمُ الندى فأربحْ بنا مَنْ شرِيَّ حمدٍ وشاريا [٢٩١ب]
ألِكْني ألِكْني والسيادةُ بيننا إلى مُولَعٍ بالحمد يشريه غاليا
إلى آمرٍ في الدهر ناهٍ ، إذا قضى على كلِّ من فيها أطاعوه قاضيا
وحيّوْهُ لا راجينَ رَجْعَ تحيّةٍ وإن كان جوداً لا يخيِّبُ راجيا
إليك ابنَ سيفيَّ يعْرُبٍ زَفَّ خاطري عقائلَ لا تَرْضى البروجَ مغانيا
وإني لأستَحيي من المجد أن أرى عليَّ لمأمولٍ سواكَ أياديا
وأنّى وقد أسلفتني قبلَ وَقْتِهِ من البرِّ ما حازتْ[١] خطاه الأمانيا
وأيقظتَ من قدري وما كان نائماً وأبعدتَ من ذكري وما كان دانيا
ولكن نبا من حُسْنِ رأيكَ في يدي أظُن حساماً لم يجدنيَ تاليا[٢]
ولو لم يكنْ ما خفتُ لا خفتَ لم أجدْ على غير ما أخْدَمتنيه اللياليا
إلى منْ إذا لم تُشْكني أنت والعلا أكونُ بما ألقى من الدهر شاكيا
وأنت على رفعي ووضعيَ حُجةٌ فكنْ بي على أوْلاهما بكَ جاريا[٣]
وما أسَفي إلا على فَوْتِ رتبةٍ عهدتُكَ فيها بادياً ومباديا
وكونِ مكاني من سمائك عاطلاً[٤] ولولا مكاني الدهرَ ما كان حاليا
وإنَّ كسادي ، رأسَ ألفِ صناعةٍ ليترُكُ وسماً[٥] في السيادةِ باديا

قال ابن بسام : أبو محمد بن عبدون لمكانه من صنعة الكلام ، وسبقه — زعم — في غايتي النثر والنظام ، أقامها مقام ألفِ صناعة ، وكنى بها واحدةً

---

١ كذا في الأصول ، وربما كان الأصوب « جازت » .
٢ الفوات : نابيا ؛ س : تافيا .
٣ ورد هذا البيت والذي يليه فيما تقدم ص : ٦٨٣ وقد تغير الشطر الثاني من البيت الثاني .
٤ ط د : يكون . . . عاطل .
٥ ط د : رسماً .

عن جماعة ، كما قال الأول :

يا عين بكّي خالدا ألفاً ويُدْعَى واحدا

وفي هذه القصيدة يقول أبو محمد ، وهو من حرّ النظام ، وجزل الكلام :

فردّ المنى خضراً ترفّ غصونُها بمبسوطةٍ تندى ندىً وعواليا
عوالٍ إذا ما الطعنُ هَزَّ جذوعَها تساقطتِ الهيجا عليك معاليا
وعاونْ على استنجازِ طَبْعٍ بهيّةٍ [1] ترقّص في ألفاظهن المعانيا
وأجعلُ أرضَ الرومِ تجلو تلاعُها عليكَ زروداً والحمى والمطاليا [2]
وقد نَشَرَتْ من ذي القُروح وخاله وعمروِ بن كلثومٍ عظاماً بواليا
وقيل لهم من ذا لها فتخيّروا [3] أخيراً يبذُّ القائلين الأواليا
فإن نُسِقَوا على الولاء ولم يكنْ بذلك فاجعلْ منه ظلّكَ عاريا
وعزَّ على العلياء أن يُلْقِيَ العصا مقيماً بحيثُ البدر [4] ألقى المراسيا
ومن قام رأيُ ابنِ المظفّرِ بينه وبين الليالي نامَ [5] عنهنَّ لاهيا

ضجر أبو محمد من سكنى وطنه يابرة ، وهو يكرر هذا في شعره ، كقوله فيه في قصيدة أخرى :

---

١ د : بهمة .
٢ هذه مواطن في بلاد العرب ، والحمى والمطالي قد جمعهما الشاعر في قوله :
« ألا حي ليلى والحمى والمطاليا »
٣ ط د : فتحيروا .
٤ ط د : البدو .
٥ س د : قام .

أنا يا ابنَ[1] سيفيْ يعرُبٍ سيفُكَ الذي إذا شِمْتَهُ لم ينبُ واخبرْهُ تَعْلَمِ
هجرتُ إليك الأقربين مهاجراً ولم أرضَ أوضاً كلُّ ساكنها عَمِ
فعارٌ على العلياءِ سكنايَ بلدةً كَبَلْدةِ عالي الأفْقِ من دونِ أنجمِ[2] [١٣٠أ]
فلو أنَّ غيلاناً حَوَتْهُ ديارُهَا تغنّى بميٍّ بينهم غيرَ مُعْجِمِ[3]

وقوله : « قوادمها مبلولة والخوافيا » ، ينظر إلى قول أبي الحسن[4] بن حصن في سحابة[5] :

بَكَرَتْ سُحرةً قبيل الذهابِ تنفض المسكَ عن جناح الغراب

وقوله : « إليه أكلتُ الأرضَ » . . . البيت ، نَسخَهُ من قول حبيب ، ونقص عنه[6] :

من القلاص اللواتي في حقائبها بضاعةٌ غير مزجاةٍ من الكلمِ

وأبو تمام إنما نظر في هذا المعنى إلى قول الأعشى[7] :

فإن عتاقَ العيسِ سوف تزوركم ثناء على أعجازِهِنَّ مُعلّقُ

١ ط د : أنا ابن .
٢ البلدة : من منازل القمر ، يقال انها لا نجوم فيها البتة .
٣ غيلان : هو ذو الرمة ، وفي البيت إشارة إلى قوله في مية :
أحب المكان القفر من أجل أنني به أتغنى بأسمها غير معجم
وفي ط د : وحته في موضع « حوته » .
٤ ط د : أبي الحصن ؛ س : أبي الحسين .
٥ انظر ما تقدم ص : ١٥٩ .
٦ ديوان أبي تمام ٣ : ١٨٦
٧ ديوان الأعشى : ١٤٩ واللسان (غرب) وفيه : يزوركم ثنائي .

أراد المدح الذي تحدى به من ورائها كما أن الهادي من أمامها ، وهذا كقول الآخر[1] :

سأرفعُ قولاً للحصين ومنذرٍ   يطيرُ به الغربان شَطرَ المواسمِ
وتَرْوَى به الهيمُ الظمّاءُ وتلتقي   بأمثاله منهنَّ سَجعَ الحمائم[2]

ويعني بالغربان أوراك الابل ؛ وقوله : « تروى به الهيم الظماء » يعني أن الماتح يتغنّى به ، فينشطُ ويقوى على سقي إبله .

وقوله : « ولولا مكاني الدهر ما كان حالياً » ، كقول القسطلي[3] :

غريبٌ تحلّتْ بآدابِهِ   بلادٌ تواصَتْ بتعطيلِهِ

وقوله : « ترقّصُ في ألفاظهنَّ المعانيا » من سرقاته الغريبة ، واختلاساته العجيبة ، تدقّ عن أعدادٍ من المباني ، وانها من خفيّات المعاني ، وأراه أنا من قول ادريس بن اليماني ، فاياه أراد ، وإن كان ملح وزاد، حيث يقول[4]:

ثقلتْ زجاجاتٌ أتتنا فرَّغاً   حتى إذا مُلِئتْ بصرفِ الراحِ
خفّتْ فكادت تستطير بما حوَتْ   وكذا الجسومُ تخفُّ بالأرواحِ

قوله : « وأيقظت من قدري » . . . البيت ، هو لفظ أبي نُخَيلَة[5] :

---

١ الأول منهما في اللسان (غرب) والمعاني الكبير : ٢٥٧ وهما في الحيوان ٣ : ٤١٨ — ٤١٩ ورواية الأول في المعاني والحيوان : للحصين ومالك .

٢ روايته في الحيوان : ويطبي ، بأمثاله الغازين سجع . . .

٣ ديوان القسطلي : ٥٤٥ (عن الذخيرة) .

٤ الذخيرة ٣ : ٣٤٤

٥ الأغاني ١ : ٢٤٤ .

ونبّهتَ من ذكري[1] وما كان خاملاً ... ولكنَّ بعضَ الذكرِ أنبَهُ من بعض

وكشف أبو تمام هذا وحسّنه ، فقال[2] :

لقد زدتَ أوضاحي امتداداً ولم أكنْ ... بهيماً ولا أرْضي من الأرضِ مجهلا
ولكن أيادٍ صادفتني جسامها ... أغرَّ فخلّتني[3] أغرَّ محجّلا

وقوله : « ولكن نبا من حسن رأيك » . . . البيت ، مصراعه الأول من قول أبي فراس[4] :

ولكن نبا منه بكفّيَ صارمٌ ... وأظلمَ في عينيَّ منه شهابُ

أخذ هذا البيت بجملته ابن عمار :

أيُظلِمُ في عيني كذا قمرُ الدجى ... وتنبو بكفّي شفرةُ الصّارمِ العضبِ

ولأبي محمد من قصيدة أخرى في المتوكل أولها :

هل عمّروا الأفقَ بالآرام والعفَرِ ... أمْ كحّلوا الشّهْبَ بالتفتير والحور
والنقع قد مدّ[5] جُنْحَ الليلِ فوقهم ... أم عينُهُمْ لا ترى التضفيرَ في الشعَر [١٣٠ب]
يا ليلُ هل صاحبٌ[6] في البيد غيرك لي ... فالنجمُ مُعْيٍ عن الإدلاجِ والسهر

---

١ الأغاني : ونوهت لي باسمي .
٢ ديوان أبي تمام ٣ : ٩٩ .
٣ الديوان : فأوفت بي .
٤ ديوان أبي فراس : ٢٤ .
٥ ط د : صرمد ؛ س : مرمد .
٦ س : مؤنس .

أسري وأسربُ لا مستصحباً أحداً … والناسُ عميانُ لولا الخبرُ عن خبر

أدورُ فيهم وعمرانٌ يخاطِبُهُمْ … منّي وهم فيَّ من رَوْحٍ ومن زُفَرَ[1]

شادٍ وليس لسانُ الرعدِ ذا لسنٍ … هادٍ وما ناظرُ الإيماضِ ذا نظر

كأنّما الليلُ زار الأرضَ ذا شَغَفٍ … فأكبرتْ وصلَ أحوىاللونِ ذاعور

كأنّها عبلةٌ والليلُ عنترةٌ … في جَمْعِ أشتاتِهِ لو كان ذا بَصرِ

والأرضُ قد لبستْ أدْراعَ أبحرها … وجرَّدَتْ فوق أيديها ظُبا الغدر

من كلِّ درعٍ نسيمُ الريح غضّنها … وصارم بالحباب اعتاضَ[2] من أثر

ما كان في هيئةِ الأرض القيام لنا … بالليل لولا مزيدٌ من سنا عمر[3]

مَنْ مَجْدُهُ خَصَّ قحطاناً وأنعمُهُ … عَمّتْ ربيعة والحمراءَ من مضر

أكسى من الكعبة الزهراء من نشبٍ … أعرى على لبْسِهِ العَلْيا من الحجر

بسيفِهِ[4] انتاشَ سَيْفٌ جَدُّهُ يمناً … لا سيفٍ وهرزٍ المحدود بالنّفر

أنتم عَنَى مُسْلمٌ يا آلَ مَسْلَمةٍ … بالجود إذ لم ينازِعْهُ بنو مطر[5]

ولم يُرِدْ مَطَراً جدَّ اليزيد ولـ … كن منْ نَدَى جدِّكم سمّاه بالمطر

لولاكمُ أهلكَ الناسَ استواؤهُمُ … ولم يكونوا سوى دُهْمٍ بلا غُرَر

---

١ يعني عمران بن حطان ويقال إنه نزل في تنقله بروح بن زنباع وزفر بن الحارث ، وكان إذا خاف انكشاف أمره ارتحل متنكراً وادعى لنفسه اسماً ونسبة غير اسمه ونسبته (انظر شعر الخوارج : ١٦١ – ١٦٥)

٢ ط د : اغتاض .

٣ لم يرد هذا البيت في ط د .

٤ ط د : لسيفه .

٥ يريد مسلم بن الوليد في مدحه يزيد بن مزيد الشيباني، ويشير إلى قوله (ديوانه : ٧) :

سل الخليفة سيفاً من بني مطر … أقام قائمه من كان ذا ميل

وفي ط د : على مسلم ؛ وصوبته بحسب المعنى .

كم في سُرادقكمْ من ماجدٍ عَمَمٍ يُعْطي الجزيلَ ومأوى الخائفِ الحذر[1]
لمّا رأوْا أنه لا عيبَ يُدْرِكُهُ عابوه وهو الكبيرُ القدرِ بالقصر
والصبحُ مبدي ربى نجدٍ وإن صغرت والليلُ يستر لبناناً على الكبر

وقوله : « بسيفه[2] انتاش سيفٌ جدَّهُ يمناً » ، يريد سيف بن ذي يزن ، حين استنقذ من أيدي الحبشة ملك اليمن ، في خبر معروف ، خارج عن غرض هذا التصنيف. ووهرز — يقال بالراء والزاي[3] معاً — وهو الذي أنفذه كسرى أبرويز مع سيف بن ذي يزن ، أميراً على من كان في سجنه ، باشارة مرازبته فكان من أمره ما كان .

وله فيه من أخرى :

مالي إذا نَفْسُ مَعنىً قُدِّستْ وسرت في جسمِ لفظ مُسوّى الخلقِ من مثلِ
أنت الذي باهتِ الأرضُ السماءَ به ولا لها بلكَ إن باهتْكَ من قبل
أحومُ حَوْلَ حياضٍ من رضاك وما لي بالورودِ إذا حُلّئتُ من عمل
راعوا قديمَ ولاءِ يالَ مَسْلَمَةٍ وما اطّرَدْتُ بكم في المدح من مثل
تفري أديمي الليالي غيرَ مبقيةٍ عليَّ ما لليالي ويلهنَّ ولي
وإنني في مواليكم كملككمُ بين الممالكِ ، والإسلام في الملل

وهذا كقول ابن الرومي[4] :

تلوحُ في دُوَلِ الأيام دولتكم كأنها ملّةُ الإسلامِ في المللِ

---

١ وقعت لفظة « ومنها » بعد هذا البيت في س .
٢ ط د : لسُيفه .
٣ ط د : والزاء .
٤ الذخيرة ٣ : ٣٤٢ .

وله فيه من قصيدة اندرج له بعضها في رسالة موشّحة ، عارض البديعَ بها في بابه ، وَصَبَّ فيها على قالبه ، منها : [١٣١ أ]

دوحةٌ فرعها على الشُّهْبِ موضوعٌ وأصلٌ قد غاصَ تحتَ النجومِ
شُهُبٌ زَيّنَتْ سماءَ المعالي وحمتها من بيضه برجوم
يردون الظُّبا ورودَ القطا والموتُ قد غَصَّ بالقنا المحطوم
أوقعوا بالمجوسِ ما يعلمُ اللهُ وثنّوا من بَعْدِهَا بالروم
سؤددٌ حار فيه وصفي فما أسطيعُهُ بالمنثورِ والمنظوم
وإذا ما هزُّوا صدورَ القنا الصمِّ فما صدرُ فيلقٍ بسليم
زعزعوها فليس تدري سوى عهدهمُ في حديثها والقديم
كلّما حكّموا اللُّهَى بالنّدى في المالِ نادى مالي وللتحكيم
مثلما حَكّموا اللُّهى بالندى في الأخْذِ بالإختبار في المحكوم
ما على البيضِ غير أن تدعَ الهامَ بهمْ مثلَ الهاء في التّرخيم
صوتُها في أسماعِهِمْ كالمثاني والمثاليثِ في سَماعِ النديم
ليس إلا الظبا لهمْ زَهَرٌ والدَّمُ خمرٌ لكنْ بلا تحريم
فثناءٌ منّي[1] أرفرفُ بُرْدَيْهِ ومنهم إدمانُ برٍّ عميم

قوله: « خمرٌ لكنْ بلا تحريم » من الاستدراك البديع، والتخلص المطبوع . وقوله : « كلما حكموا اللهى » . . . البيت ، يشبه قول أبي محمد بن صارة الشنتريني[2] :

خُلُقُ الوزيرِ أبي العلاءِ خوارجٌ لكنها ليستْ تَرَى التحكيما

---

١ ط د : متى .

٢ ط : الشتمري ؛ وترجمة ابن صارة ترد في ما يلي : ٨٣٤ .

وله أيضاً من قصيدة [1] :

سقاها الحيا من مغانٍ فِساح   فكم لي بها من معانٍ فصاحِ
وحلّى أكاليلَ تلكَ الرُّبى   ووشّى معاطفَ تلك البطاح
فما أنْسَ لا أنسَ عهدي بها   وجرّيَ فيها ذيولَ المراح
فكم ليَ في اللهو من طَيْرَةٍ   عليها بأجنحةِ الإرتياح
ويومٍ على حَبِرات الرياضِ   تُجاذبُ برديَّ أيدي [2] الرياح
بحيثُ لم آعطِ النهى طاعةً   ولم ألْقِ سمعاً إلى لَحْيٍ لاح
وليلٍ كرجعةِ لحظ [3] المريب   لمَ آدْرِ له شَفَقاً من صباح
كَعُمْرِ عُفاتك [4] يومَ الندى   وعُمْرِ عداتك يومَ الكفاح
إليكَ رمى أملي بي ولا   هويًّ مصفّقةٍ بالجناح [5]
أقول لراجي الحيا وهو دان   مَداهُ وجدواهُ من كلِّ راح
إذا عُمَرٌ هَطَلَتْ كفُّهُ   فلا حَمَلَتْ سُحُبٌ من رياح
من النافذي الطّعْنِ تحت العجاج   بين الدّلاصِ وبين الرماح
من القومِ ينزهم خَضْدُهُم [6]   عن الموتِ شوكَ القنا في البراح [١٣١ب]
وعنهم تكوّن رفع العلا   سماءً على عمدٍ من صفاح
وقادوا الزمانَ إلى اليوم وهو   رقيقُ الحواشي صقيلُ النواحي

---

١ الفوات ٢ : ٣٩٣ والقلائد : ١٤٦ والمغرب ١ : ٣٧٥ والنفح ١ : ٦٧٤

٢ القلائد والنفح والمغرب : مر الرياح .

٣ في المصادر : طرف ، وكذلك خ بهامش ط .

٤ الفوات : عداتك (جمع عدة) .

٥ الفوات : بالرياح .

٦ ط : يزلهم خضرهم ؛ د : يزدهم حصدهم ؛ س : ينزلهم حصدهم .

وله من أخرى ، وهي قصيدة فريدة فضح بها الأوائل ، وصرَّح فيها عن كل طائل ، والمرءُ مخبوءٌ تحت لسانه ، وشرفُهُ بنفسه لا بزمانه ، أوَّلها [1] :

ساروا ومِسْكُ الدياجي غيرُ منهوبِ [2] وطُرَّةُ الشرقِ غُفْلٌ دون تذهيبِ
على ربىً لم يزلْ شادي الذبابِ بها يُلهي بآنَقِ ملفوظٍ ومضروب
كالغيد في قُبَبِ [3] الأزهار أذرُعُهُ قامتْ له بالمثاني والمضاريب
والغيمُ تنثرُ منه راحةٌ خُضِبَتْ [4] بالبرق فوقيَ دُرّاً غير مثقوب
فرحتُ أستخبرُ الأنفاس لا الطُّسُمَ الـ أدراسَ عن موعدٍ في الحيّ مكذوب
وأشتفي بسؤالِ الريحِ مُخْبِرةً عنهمْ ولو أنها تهفو بتأنيبي [5]
هيهات لا أبتغي منكم هوًى بهوى حسبي أكونُ محبّاً غيرَ محبوب
فما أراحُ لذكرى غيرِ عاليةٍ [6] ولا ألذّ بحبّ دونَ تعذيب
ولا أصالحُ أيّامي على دَخَنٍ ليس النفاقُ إلى خُلْقي بمنسوب
يا دهرُ إنْ توسع الأحرارَ مَظْلَمَةً فاستثْنني إنَّ غَيْلي غيرُ مقروب
مهلاً فدرعُ حويلي غير مُحْتَنَةٍ عجباً وسيف عزيمي غير مقروب [7]
ولا تخلْ أنني ألقاك منفرداً إنَّ القناعة جيشٌ غير مغلوب

---

١ منها بيتان في الغيث ٢ : ٢٣٢ والريحان : ١٥٦ /أ وثلاثة في رفع الحجب ٢ : ٣٦ .

٢ الريحان : موهوب .

٣ س : كالقيد في قلب .

٤ س : خضلت .

٥ ط : بتأنيب .

٦ س : عالنة .

٧ سقط البيت من د س .

ما كلُّ مَنْ سيم خسفاً عافَ موردَهُ إنَّ الإباءَ لظهرٌ غيرُ مركوب
وكم تأزَّرَتِ الغيطانُ لي كرماً واستنشقتنيَ أنفاسُ الشناخيب
أمشي البَرازَ ولا أعفي به أثري حَسْبُ المريب ركوبُ القاعِ ذي اللوب
وربَّ عاوٍ على إثْري بُليتُ به بَلاءَ ليثِ الشرى في الليل بالذيب
أسْكَنْتُ عنه ولولم يَزْدَجرْ غضبي وَشِمْتُ صارمَ تأنيبي وتثريبي
سوَّيْتُ أشباحَ ألفاظي وقدَّس أر واحَ المعاني لها نقدي وتهذيبي
أوانسٌ أذِنَتْ لي والنوى قَذَفٌ على عُلا[1] كلِّ صَعْبِ الإذنِ محجوب
سما بذكري إلى أسماعهم أدبي مَسْرى النسيم إلى الآنافِ بالطّيب
وطار بي اذنه في أفْقِ حِرْصِهِم على قوادمِ تأهيلي وترحيبي
لا ينظرون إلى شخصي كما نَظَرَتْ بيضُ الخدورِ إلى القترا[2] من الشيب
من كلِّ مُطلِقِ قَيدِ الحربِ عن لجبٍ قَيْدِ الأسودِ على طير السراحيب
يمرُّ مَرَّ الغمامِ الجوْنِ يتبعُ مِنْ لحمٍ أباريقَ ترغيب وترهيب

مدح بهذه القصيدة المعتمد بن عبّاد .

قوله : « حسبي أكون محبّاً غير محبوب » لفظ أبي الطيب [3] :

أنتَ الحبيبُ ولكنّي أعوذُ به من أن أكونَ مُحبّاً غيرَ محبوبِ [١٣٢أ]

وقوله : « ولا أصالح أيّامي على دَخَنٍ » لفظه أيضاً [4] ، وقوله :

---

١ علا : سقطت من ط .

٢ ط : الفقرا ؛ د : القفرا .

٣ ديوان المتنبي : ٤٤٩ .

٤ يريد قول أبي الطيب :

فلا أحارب مدفوعاً على جدر ولا أصالح مغروراً على دخن

« إن غيلي غير مقروب » ، لفظ [بيت] الجميح[1] .

* تسكن غيلاً غير مقروب *

وقوله : « أمشي البراز » . . . البيت ، عكس قول امرىء القيس[2] :

* على أثرينا ذيلَ مِرْطٍ مرحّلِ *

وأخذه ابن المعتز فقال[3] :

فظلتُ أبسطُ خدّي في التّرابِ له ذُلاًّ وأسحبُ أذيالي على الأثَرِ

وقوله : « لا ينظرون إلى شخصي كما نظرت » . . . البيت ، كقول محمد بن هانىء الأندلسي[4] :

همُ لحظوكم والنبوَّةُ فيكمُ كما لحظت شَيْبَ الكبيرِ[5] الفواركُ

وأصله من قول امرىء القيس[6] :

أراهنَّ لا يُحْبِبْنَ من قَلَّ مالُهُ ولا من رأينَ الشيبَ فيه وقَوَّسا

---

١ س ط د : الجمحي ، والجميح لقب لشاعر اسمه منقذ بن الطماح ، وبيته هذا من قصيدة له مفضلية ، وهي الرابعة في الترتيب : (شرح ابن الأنباري : ٢٥ — ٢٩) :

أما إذا حردت حردي فمجرية جرداء تمنع غيلا غير مقروب

٢ ديوان امرىء القيس : ١٤ ، وصدره : « خرجت بها تمشي تجر وراءنا » .

٣ ديوان ابن المعتز ٣ : ٥٠ .

٤ ديوان ابن هانىء : ١٠٤ .

٥ الديوان : كما لحظ الشيب النساء .

٦ ديوان امرىء القيس : ١٠٧ .

وللوزير أبي محمد عبد الغفور من أهل وقتنا فصلٌ يتعلق بهذا المعنى من رقعة ، قال فيه : كنت[1] قبيل هذا المشيب الذي علا ، والشباب الذي تولّى ، كريماً على ذوات الطُّلى ، لا يتعرَّضْنَ فيَّ لمكان القلّة[2] بِلَوْلا ؛ ولمّا أطار غرابَ الشباب بازُ المشيب ، ورُحْتُ رثَّ الجلباب بعد كلِّ شَخْتٍ قشيب ، سمعتهنَّ حيناً يتبرَّمْنَ ، وحيناً يترنّمْنَ ، إلاَّ أنهنَّ يُجَمْجِمْنَ ولا يُتَرْجِمْنَ ، وبفضل حاسّتي — ولله الفضل — ما فهمتُ الوزن ، فلما استقرَيْتُ لتعرُّفِ حُروفِهِ السَّهْلَ والحَزْنَ ، عثَرَ لهَجي في تَطَلُّبِ تلك الضالة بلعلَّ وعسى ، بقولِ الملكِ الضِّلّيل : « ألمّا على الرَّبْعِ القديمِ بعسعسا » ولم أزلْ بعدُ مُحَدِّثاً مُوَسْوِساً ، حتى سقط بي اليقين على قوله « وقوّسا » وفي صدر هذا الرويّ « أراهن لا يُحْبِبْنَ من قلَّ ماله » ، وإذا قوّس ظهر المرء فقد استحال جماله ، فإذن قاتلهنَّ الله يُحْبِبْنَ القبيحَ ذا المال ، والفقيرَ ذا الجمال .

وصفة ابن عبدون للذباب : أجاد فيه ما أراد ، وقد تناول هذا المعنى أبو بكر بن سعيد البطليوسي ، فقال من قصيدة[3] :

كأنَّ أهازيجَ الذبابِ أساقفٌ ... لها من أزاهير الرياضِ محاريبُ

وأخذه ابن عبدون من قولِ ابن الرومي يصف روضاً[4] :

---

1 ط : كتبت .

2 ط : القلت .

3 بيت البطليوسي في رفع الحجب ٢ : ٣٦ .

4 زهر الآداب : ٧٤٢ وديوان المعاني ١ : ٣٦١ والسمط : ٤٨٦ وتشبيهات ابن أبي عون ٣٨٩ .

وغرَّدَ رِبْعيُّ الذبابِ خلاله كما حثحثَ النشوان ُصنجاًمشرّعا
وكانت أهازيجُ الذباب هناكمُ على شَدَواتِ الطير ضَرْباً موقّعا

وإنما اخترعه أوّلاً عنترة بقوله[1] :

فترى الذباب بها يُغَنّي وحده هَزِجاً كَفِعْلِ الشاربِ المترنّم
غَرِداً يحكُّ ذراعَهُ بذراعِهِ فِعْلَ المكبِّ على الزنادِ الأجذم

وهذا من التشبيه الذي ما له شبيه ، ولم يجسر عليه أحد ، غير أن ذا الرمّة نقل معنى الصفة إلى الجندب فقال[2] :

كأنَّ رجليه رجلا مُقْطِفٍ عَجِلٍ إذا تجاوَبَ[3] من بُرْدَيْهِ ترنيم

[١٣٢ ب] والمُقْطِف : راكبُ الدّابة القطوف ، فنقلَ صفةَ يدي الذبابِ إلى رجل الجندب فأحسنَ الأخذَ ، وكأنّهُ لم يَعْرِضْ لعنترة في معناه .

وقال السلامي في صفة زنبور[4] :

إذا حكَّ أعلى رأسِهِ فكأنّما بسالفتيه من يديه جوامعُ

فباعد عنترةَ في الصّفةِ ، وإن قاربه في الموصوف ، وتعلّقَ في اللفظِ

---

١ زهر الآداب : ٧٤٠ والحيوان ٥ : ٥١٣ وتشبيهات ابن أبي عون : ٣٨٩ وديوانه : ١٩٧ — ١٩٨ ، وابن بسام يتابع في هذه القطعة ابن رشيق في قراضة الذهب : ٦٩ — ٧٠ .
٢ ديوان ذي الرمة ١ : ٤١٩ وقراضة الذهب : ٦٩ .
٣ ط د س : تجاذب .
٤ اليتيمة ٢ : ٤٢٠ وقراضة الذهب ٦٩ .

بصريع الغواني إذ يقول في النساء[1] :

فغطّت بأيديها ثمارَ نحورها كأيدي الأسارى أثْقَلَتْها الجوامعُ

وقد قال بعضُ أهلِ أفقنا ، وهو يوسف بن هارون الرمادي :

وكأسٍ كريقِ الإلفِ شعشعتها به وعيشيَ من هذا الشرابِ المشعشع
على روضةٍ قامتْ لنا بدرانكٍ وقام لنا فيها الذبابُ بمسمع
إذا ما شربنا كأسنا صُبَّ فضلها على رَوْضِنا للمسمع المتخلّع

وهذا مما أغربَ فيه الرمادي .

وقد قال الجاحظ [2] : وجدنا المعاني تُقْلَب ويؤخذ بعضها من بعض إلاّ قول عنترة في الذباب ، وقولَ أبي نواس في تصاوير الكأسِ ، حيث يقول [3] :

قرارتُها كسرى وفي جَنَباتها مهاً تدّريها بالقسيّ الفوارسُ
فللراحِ ما زُرت عليه جيوبُها وللماءِ ما دارتْ عليه القلانس

يريد أنّ حدّ الخمر بلغ نحورَ هذه الصور ، وزيد الماء فيه فانتهى الشراب إلى فوق رؤوسها ، وفائدة هذا معرفةُ حدّها صرفاً ، من حدّها ممزوجةً .

---

١ ديوان مسلم : ٢٧٣ وزهر الآداب : ٩٩٦ وقراضة الذهب : ٧٠ .
٢ ورد هذا القول في زهر الآداب : ٧٣٩ — ٧٤٠ وانظر تعليق الجاحظ على شعر عنترة في وصف الذباب في كتاب الحيوان ٣ : ٣١١ — ٣١٢ .
٣ ديوان أبي نواس : ٢٩٥ وزهر الآداب : ٧٤٠ .

قال ابن بسام : وقد ذُكِرَ أنَّ الحسن ولّد هذا المعنى من قول امرىء القيس[1] :

فلمّا استطابوا صُبَّ في الصحن ِ نصفه وشُجّتْ بماء ٍ غير طَرْق ٍ ولا كدرْ

فجعل الشراب والماء نصفين[2] ، لقوة الشراب ، فتسلّق الحسنُ عليه ، وأخفاه بما شغل به الكلام ، من ذكر الصورة المنقوشة في الكأس ، إلا أنّها سرقةٌ مليحة . وكرَّرأبونواس هذا المعنى عجباً به في مواضع كقوله[3] :

بنينا على كسرى سماءَ مدامة ٍ مكلّلة حافاتُها بنجوم ِ
فلورُدَّ في كسرى بن ساسان روحه إذن لاصطفاني دونَ كلِّ نديم

وأخذه الناشيء وولّد معنىً زائداً فقال[4] :

في كأسها صُوَرٌ تُظَنّ ُ لحُسْنِها عرُبُاً بَرَزْنَ من الحجال وغيدا
وإذا المزاجُ أثارها فتقسّمت ذهباً ودرّاً توأماً وفريدا
فكأنهنَّ لبسنَ ذاك مجاسداً وجعلنَ ذا لنحورهنَّ عقودا

وقال ابن المعتز[5] :

وكأس ٍ[6] من زجاج ٍ فيه أسْدٌ فرائسهنَّ ألبابُ الرجال ِ

---

١ ديوان امرىء القيس : ١١ .
٢ س ط : قسمين .
٣ زهر الآداب : ٧٤٢ .
٤ زهر الآداب : ٧٤٠ .
٥ زهر الآداب : ٧٣٨ وديوان ابن المعتز ٣ : ٩٧ والأوراق : ١٩٩ .
٦ الديوان : بغاب .

وألمّ بهذا المتلمس بن بطال البطليوسي[1] فقال :

وغابٍ من الأكواسِ فيها ضراغمٌ   من الراح ألبابُ الرجالِ فريسها
قَرَعتُ بها سِنَّ الهموم فأقلعت   وقد كاد يسطو بالفؤادِ رسيسها

[١٣٣ أ] وقال بعض أهل عصرنا ، وهو أبو تمام بن رباح[2] :

وكأسٍ بدا كسرى بها في قرارةٍ   غريقاً ولكنْ في خليجٍ من الخمرِ
وما صوَّرَتْهُ فارسٌ عبثاً به   ولكنّهمْ جاءوا بأخْفَى من السحر
أشاروا بما دانوا له في حياته   فيُومَى إليه بالسُّجودِ وما يدري

ومثل هذه المعاني التي ذكروا مما انفرد به كلّ واحد من الشعراء ، لا يكاد يتناولها حاذقٌ إلا قصّر ، إلاّ أن يزيدَ زيادةً تظهر ، ولذلك ما تحامى الناس أشياءَ كثيرةً من المعاني التي أخذت حقّها من اللفظ ، ولم يبق فيها فَضْلَةٌ تُلْتَمس ، والقرائح تتفاضل ، ألا ترى إلى قولِ جميل في وصف امرأة فاجأها[3] :

غدا لاعبٌ في الحيِّ لم يَدْرِ أننا   نمرُّ ولا أرضٌ لنا بطريقِ
فلما انتحيناه[4] اتّقانا بِكُمِّهِ   وأعلَنَّ من رَوْعاتِنا بشهيق

---

١ هوسليمان بن محمد بن بطال ، أبو أيوب : كان فقيهاً مقدماً وشاعراً محسناً قريباً من الأربعمائة (انظر ترجمته في الجذوة : ٢٠٦ وبغية الملتمس رقم : ٧٦٢ والنفح ٣ : ٢٩٢ ، ٤٥٠ وله مقطعات كثيرة في كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) .

٢ ترجمته في القسم الثالث : ٨٢١ .

٣ لم يرد هذا الشعر في ديوان جميل ؛ ولكن ابن بسام يتابع هنا ما يقوله ابن رشيق في قراضة الذهب : ٥٧ .

٤ القراضة : افتجيناه (ولا أراه صواباً) .

كيف وَصَفَ حقيقةَ الحال التي صوَّرها تصويراً ، مع حسن لفظ ، وليس مع ذلك ببالغٍ قول النابغة[1] :

سَقَطَ النّصيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَهُ ... فتناوَلَتْهُ واتّقتنا باليدِ

رجع

وقال ابن عبدون من قصيدة :

لولا المؤيّدُ ، مدَّ اللهُ مُدَّتَهُ ، ... ما كان لي في سوى بغدادَ من أرَبِ
فلم أكنْ وسوى بغداد[2] لي أملٌ ... فيها كما كنت في أهلي بمغترب
وإن نبتْ حمصُ بي واللهُ يعصمها ... ركبتُها عزمةً تشأى الكواكبَ بي
وللمؤيد ، مدَّ الله مدَّتَهُ ... رأيٌ يغالطُ شُهْبَ الليل في القطب
لم ينتقبْ وجهُهُ للسُّمْرِ مشرعةً ... وإنّه من حياءِ الوجه في نُقُبِ
يشأى المُساجِلَ في بأسٍ وفي كرم ... ويملأُ الدلو في العليا إلى الكَرَب
تراهُ إن تَدْعُهُ يَومَيْ[3] ندى ووغى ... النارَ في عَرْفَجٍ والماءَ في صَبَب
إليكَ منّي ، أعزَّ اللهُ نَصْرَكَ ما ... أبْقَتْهُ أيدي السُّرى والبيدِ والنُّوب
جاءَتْكَ تَرْقُصُ أردانُ الكلامِ به ... سوابحٌ تأكلُ الغبراءَ بالخبب

وله في المعتمد من قصيدة :

إنَّ الممالكَ والسيوفُ شهودُ ... لكمُ إماءٌ والملوكُ عبيدُ

---

١ ديوان النابغة : ٣٤ وقراضة الذهب : ٥٧ .
٢ بغداد : سقطت من ط د .
٣ ط د س : يوماً .

شامتكمُ في المكرماتِ عزائمٌ | جارٍ على أحكامها التأييد
وعُلاً نشأنَ مع النجوم وقبلها | ولهنَّ من بعدِ النجوم خلود
من معشرٍ أخذوا بأطراف العلا | والأفقُ غُفْلٌ والليالي سود
جادوا فبانتْ في البسيطةِ أنجمٌ | وَسَطَوْا فثارتْ في السّماءِ أسود
يا روضةً وصف النسيم أريجَها | رِقّي[1] عليَّ فانّني غرّيد
ما لي أرفرفُ حول دَوْحِك ضاحياً | أصفُ الأوارَ[2] وماؤها مورود
لا ذنبَ للآمالِ إلاَّ أنّها | شهبٌ لها من أن تراك سعود[١٣٣ب]
ركبتْ إليكَ جناحَ كلِّ عزيمةٍ | قرب الردى من خلفها مزعود
أكلَتْ إليكَ الأرضَ وهي بحسبها | إنْ لم تعقها من ثناكَ قيود

قوله : « وعلاً نشأن مع النجوم وقبلها » ، مأخوذ من قول المعرّي ، وله فيه زيادة ، تجاوزت الغايةَ في الإجادة ، وخرقتْ في الإحسان كلَّ عادة ، وهو قوله يصف خيلاً[3] :

نَشَأنَ مَعَ النعامِ بكلِّ دوٍّ | فقد أَلِفَتْ نتائجُها الرئالا[4]

ولعلَّ هذا تواردٌ من الطباع ، وبحسب القريحةِ يكونُ الإبداعُ والاختراع .

وقوله : « يا روضةً وَصَفَ النسيمُ أريجَها » ، من قول اسحاق

---

1 ط : رقي .
2 لعل الصواب : « الأوام » .
3 شروح السقط : ٤٥٤ .
4 نشأن : الضمير يرجع إلى بيت ذكر فيه السوابق ، أي وقعت الألفة بين المهار والرئال وهي أولاد النعام .

الموصلي[1] :

يا سَرْحَةَ الماء قد سُدّتْ موارِدُهُ   أمّا إليكِ طريقٌ غيرُ مسدودِ

ولابن عبدون من قصيدة في الرشيد نقلتها من مبيضاته ، ولم يعرضها عليه ، ولا أوْصَلها إليه ، أوّلها[2] :

عزيمٌ لا يُسَدُّ عليه بابُ   وقلبٌ لا يُفَلُّ له ذُبابُ

ومنها :

مضى في نائباتِ الدهرِ صَلْداً[3]   فلم يُثْلَمْ وقد طال الضرابُ

وقد زَرّوا[4] الضلوعَ على قلوب   لو انتضيتْ لقَطَّ بها الرقاب

وسرتُ ومن كواكبه حُلِيٌّ   عليَّ ومن غياهِبِه قراب

ولو بسوى الرشيد جعلتُ هديي   لضلَّ الركبُ فيها والركاب

من النّفَرِ الألى طلعوا نجوماً   فمن أنوائهم فينا انسكاب

إذا هزّتْهُمُ نَغَمُ العوالي   فليس سوى النجيعِ لهم شراب

وباءَ فقلتُ في الغبراءِ برجٌ   وثار فقلتُ في الخضراءِ غاب

لقد عُقِدَتْ حُباهُ على خلالٍ   ظُباهُ لا تهابُ كما تُهاب

وطبّق مَفْصِلَ العليا بنَفسٍ   مآثرها تراثٌ واكتساب

كأنَّ عداه في الهيجا ذنوبٌ   وصارمُهُ دعاءٌ مستجاب

---

١ الأغاني ٥ : ٣٥٠ ورفع الحجب ١ : ٤١ ونهاية الأرب ١ : ٢٧٩ والذخيرة ١ : ٨٦٣ .

٢ منها ستة أبيات في الريحان ١ : ١٥٥ ب .

٣ الريحان : فرداً .

٤ الريحان : عطفوا .

وهذا ممّا أغرب فيه ، ولم أسمعْ له بشبيه ، ولعلّه أميرُ شعره ، ونتيجة فكره ؛ وفيها يقول :

إليكَ أبا الحسين ركبتُ عزماً ... يضيقُ برحب مسعاه الطّلابُ
رمتْ في البحر منك ولم تعرِّجْ ... على أرضٍ بقيعتِها سراب[1]
وقد مَرَقَتْ إليكَ من الدجى بي ... أعاريبٌ تخب بها عراب
هفتْ بي والدجى يهفو حشاه ... كما كَسَرَتْ على خُزَزٍ عقاب

قول أبي محمد : « وسرتُ ومن كواكبه حُليٌّ » . . . البيت ، سلك فيه سبيلاً من البديع لا تُسْلَكُ ، واستولى منه على غاية من الكلام المطبوع قلّما تُدْرك .

وأما قوله : « كما كَسَرَتْ على خُزَزٍ عُقاب » فما أولاه عليه بالعقاب ، إذ نسخَ لفظَ أبي الطيب كما تراه ، وقصّر أكثر مما شاء عن معناه ، وهو[2] :

يهزُّ الجيشُ حولك جانبيه ... كما نَفَضَتْ جناحيها العقابُ

على أنَّ أبا الطيب إنما تطرَّفَ قولَ طرفة[3] :

بكتائبٍ تردي كما تردى إلى الجيفِ النّسورُ

[١٣٤ أ] ولكن المتنبي طار في السماء مع العُقاب ، وترك طرفَة في الأرض على التراب .

---

١ وقع هذا البيت آخراً في س .
٢ ديوان المتنبي : ٣٧٠ .
٣ لم يرد في ديوان طرفة .

وكان أبو محمد حين استوحش من المنصور بن المتوكل[1] ، ولحق باشبيلية ، كتب إلى الوزير الأجل أبي بكر بن زيدون بهذه الأبيات :

لك الخيرُ من مثري اليدين من العلا   إذا تَربَتْ أيدي النّوى والتطوّلِ
بما كان بين الماضيين من الذي   إليه استنادي[2] أو عليه مُعوَّلي
ولم تتمسكْ بالمؤيد لي يدٌ   وقد زهفتْ[3] رجلي عن المتوكل

وله أيضاً يقول :

قل للوزير أدام الله عزَّتَهُ   والجاهُ يَفْنَى وقولُ الدهرِ مفهومُ
لئن نبت بيَ حمصٌ وهي قد فعلتْ   فليس تنبو بيَ السّبعُ الأقاليم
لي في مناكبِ أرضِ الله مُضْطَرَبٌ   إن سامحتْ بيَ النّوى[4] لخمٌ ومخزوم

ثم انصرف إلى حضرة المتوكل ببطليوس ، ودفع إليه قصيدةً أوّلها :

خَصَمْتُ الظُّبا عنكم على أنّها لدُّ   بقرعٍ له في كلّ بارقةٍ رَعْدُ
بِزُرْقٍ بما خَلْفَ الضلوعِ بصيرةٍ   على أنّها مما بكتْ حَدَقٌ رُمْدُ
تركتُ لمن هزَّ الأسنّةَ رأيَهُ   وقلتُ لغيري الخَفْضُ والعيشةُ الرغد
وطار جناحُ الليلِ منّي بأجْدَلٍ   إذا ما الظبا فاضتْ ففيها له وِرْدُ
منيرُ أساريرِ الرئاسِ إذا سَرَى   وشتْ بسُرَاه البيدُ والليلُ مسود

---

١ كذا في النسخ ، والمنصور هو أخو المتوكل لا ابنه، وقد ولي بطليوس بعد وفاة أبيه المظفر (سنة ٤٦٠) ؛ وأما ابنا المتوكل فهما الفضل والعباس ولا أعرف إن كان أحدهما لقب بالمنصور ، وقد قتلا مع أبيهما (سنة ٤٨٧) .
٢ س : اجتهادي .
٣ ط د : زهقت ؛ س : زلقت ؛ وزهفت : خفت وعجلت .
٤ س : بالنوى .

وفيها من عتابه للمتوكل :

أفالآنَ لمّا ملّني ومَلِلْتُهُ ... طلابٌ لوى عن نيله الزَّمَنُ الوغْد
وباضتْ على رأسي السنونَ وفرختْ ... وما ليَ حَلٌّ في الأمورِ ولا عقد
طمعتُ بحمصٍ أن تلينَ لمطالبي ... ولا عَجَبٌ قد يرشحُ الحجرُ الصَّلْد
ولي، فأسأتُ ، الذنبُ في ذاك لا لها ... فمذ توجَدُ الجُعْلانُ لم ينفقِ الورد

ما أخرجته من سائر مقطوعاته الاخوانيات

من ذلك ما أنشدنيه لنفسه ، مما خاطب به الوزراء الكتّاب بني سعيد ابن القبطورنة ، حين خرج عن بطليوس مستوحشاً ، حسبما وصفته [1] :

أخلاّئي وفي قُرْبِ الصدورِ ... ظبا تقضي [2] على قممِ الدُّهورِ
وقد ضمّتْ جوانحُنا [3] قلوباً ... أبَتْ غيرَ القصورِ أو القبور
إذا الكرماء نامتْ فوق [4] ضيمٍ ... فما فضْلُ الكبير على الصغير
فقَبْلُ أبى الدنيّةَ قيسُ عبسٍ ... ولم يُصغي إلى قَوْلِ المشير [5]
لئن عثروا وليس لعاً جوابٌ ... فلا عَلِقَتْ بطونٌ من ظهور
ولا سمعوا بها إلاّ بِصُمٍّ ... ولا نظروا بها إلاّ بعور

---

١ منها أربعة أبيات في القلائد : ١٤٦ .

٢ القلائد : تمضي .

٣ س : جوانحها .

٤ القلائد : باتت تحت .

٥ القلائد: المشير ؛ وقيس عبس هو قيس بن زهير الذي هاجر قومه بعد حرب داحس والغبراء وأوى إلى عمان .

ومنها : [١٣٤ ب]

ودلّهني فراقُ بني سعيدٍ فما أدري قبيلاً من دَبير

وبات بطريقه هنالك على وادي آنة بقرية لبّ ، فقال :

عذيري إلى المجدِ من كَوْنِ مثلي بآنةَ أو من مبيتي بلبٍّ
وبغدادُ لو هتفت بي هلمَّ هلمَّ لما كنتُ ممّن يلبّي

وأنشدني أيضاً له مما خاطب به بعضَ الأعيان :

سأطلبُ لا بألسنةِ اليراع سوى ذا الحظّ من أيدي الزماعِ
وأخبطُ بالسرى ورَقَ الدياجي ووَجْهُ الموتِ محدورُ القناع
وأمرقُ من أساريرِ المواضي كما مرق الهلالُ من الشُّعاع
فسلني عن ملوكِ الأرضِ تسأل خبيراً فاقضِ حقَّ الإستماع
عرضتُ عليهم نَفَسي ونفسي لأوضِحَ غَبْنَهُمْ عند البياع
فما اتّبعوا دليلاً في اجتنابي ولا سلكوا سبيلاً في اصطناعي
كأعضاءٍ بها ألمٌ فقلبٌ على ضمَدٍ[1] ورأسٌ في صداع
ومن عَصَبٍ إذا سئلت حراكاً شكَتْ بسكونها نُحْلَ[2] النخاع
ويمنى لا تجودُ على شمالٍ ولا تُصْفي المودَّةَ للذراع
وعينٌ لا تغمِّضُ عن قبيحٍ وأذْنٌ لا تألّمُ من قذاع[3]
فما أبْقَوْا ولا هَمُّوا ببقيا ونَقْلُ الطبعِ ليس بمستطاع

١ الضمد : الحقد .
٢ النحل بمعنى النحول ، وهو من النادر في الاستعمال .
٣ ط د : قراع .

فلو سقَتِ السماءُ الشريَ أرياً لما احلولتْ مراعيه لراع
بدهرٍ ضاعتِ الأحسابُ فيه ضَياعَ الرأيِ في السرِّ المذاع
فبعتهمُ بتاتاً لا بِثُنْيا ولا شرطٍ ولا دركِ ارتجاع
ولم أجعلْ قرابي غيرَ بيتي فحسبي ما تقدَّم من قراع [1]

قوله : « كأعضاء بها ألم » . . . البيت ، مع الذي بعده ، أراه فيما انتحاه سلك سبيلَ أبي نصر المعافى[2] ، من أناشيد الثعالبيّ ، حيث يقول :

لما رأيتُ الزمانَ نِكْساً وفيه للرفعةِ اتّضاعُ
كلُّ رئيسٍ به[3] مَلالٌ وكلُّ رأسٍ به صداع
لزمتُ بيتي وصنتُ عرضاً به عن الذلّة امتناع
أشربُ ممّا ادّخرتُ راحاً لها على راحتي شعاع
لي من قواريرها ندامى ومن قراقيرها سماع
وأجتني من ثمار[4] قومٍ قد أقفرتْ منهم البقاع

وقول أبي محمد : « كما مَرَقَ الهلالُ من الشُّعاع » ، معنى متداول إلاّ أنّ قولَ أبي محمد أولى بالتقديم ، ومنه قول بشر بن أبي خازم[5] :

---

١ س : لنزاع
٢ هو أبو نصر المعافى بن هزيم الهزيمي من أبيورد ، وكان يكثر المقام ببخارى ويخدم رؤساءها (اليتيمة ٤ : ١٢٩ – ١٣٣ وأبياته هذه ص : ١٣٢) .
٣ اليتيمة : له .
٤ اليتيمة : عقول .
٥ ط : أبي بشر بن حازم ، د : بشر بن حازم ؛ س : بشر أبي حازم ؛ وليس البيت في ديوان بشر ، وقد جاء في اللسان (ودق) منسوباً لزيد الخيل .

ضرَبْنَ بغمرةٍ فخرجنَ منها خروجَ الوَدْقِ من خَلَلِ السّحابِ

وقال المتنبي[1] : [١٣٥ أ]

وضاقتْ خُطّةٌ فخلصتُ منها خُلوصَ الخمرِ من نَسْجِ الفدامِ

وقال أبو تمام[2] :

فخرجتَ منها كالشهابِ ولم تزلْ مذ كنتَ خرّاجاً من الغمّاءِ

وقال أبو الحسن الرضيّ[3] :

مرقتُ منها مروقَ النجم منكدراً وقد تلاقتْ مصاريعُ الردى دوني

وقال ابن مُقبل[4] :

خَروجٌ من الغمى إذا صُكّ صكّةً بدا والعيونُ المستكفة تلمحُ[5]
إذا امتحنته من معدٍّ عصابةٌ غدا ربُّهُ قبل المفيضين يَقْدَحَ

والغماء[6] : هاهنا جماعة القداح .

---

١ ديوان المتنبي : ٤٧٧ .
٢ ديوان أبي تمام : ١٩ .
٣ ديوان الرضي ٢ : ٤٤٦ .
٤ ديوان ابن مقبل : ٢٩ ، ٣٠ والعمدة ٢ : ٢٨٨ والميسر والقداح : ٦٥ واللسان (غمم) وفي الأصول « الغما » حذفت همزته ، وهو عندئذ بفتح الغين ؛ وفيه يجوز القصر والمد .
٥ يصف القدح ؛ الغمى : الشدة والضيق ؛ العيون المستكفة : المحيطة به .
٦ كذا ورد أيضاً بالمد ، ورواية الديوان بالقصر وضم الغين .

وأول من نطق بهذا المعنى امرؤ القيس بقوله [1] :

إذا ما ركبنا قال ولدانُ أهلنا تعالَوْا إلى أن يأتيَ الصيدُ نحطبِ

فنقله ابن مقبل إلى صفة القدح ، وقال : إذا امتحنه ممتحنٌ غدا يقدحُ ناراً قبل الإفاضة به ثقةً بفوزه ، ونقله ابن المعتز إلى صفة جارح فقال [2] :

قد وثق القوم له بما طَلَبْ فهو إذا جلّى لصيدٍ واضطربْ

عَرَّوْا سكاكينهمُ من القُرُبْ

وأنشدني أيضاً لنفسه ممّا خاطب به الوزير أبا القاسم ابن الجد [3] :

سجيريَّ [4] من فهرَ لا تخمشنَّ وجهَ الإخاءِ بِظُفْرِ العَذَلْ
فأقسمُ أني أجيبُ الصِّبا إذا ما دعتني إليه المقل
وما أنس ليلتنا والعناقُ قد مَزَجَ الكلَّ منا بِكُلّ
إلى أن تقوّس ظهرُ الظلامِ واشمطَّ عارضُهُ واكتهل
ومسَّ رقيقَ رداء النسيم على [5] عاتقِ الفجرْ بعضُ البلل
وسبّح رعدُ المثاني بحمدِ بني يعربٍ في سماء الجذل
إذ الدهرُ ميتُ الخطى واللحاظ عنّا وأحداثُهُ في غفل
وللطير في الوَرَقِ النضرِ شدوٌ كشدوِ القيان عليها الكلل

---

١ ديوان امرىء القيس : ٣٨٩ والعمدة ٢ : ٢٨٨ .
٢ ديوان ابن المعتز ٤ : ٧ والأوراق : ٢٠٩ .
٣ منها ثلاثة أبيات في كل من المغرب ١ : ٣٧٥ والخريدة ٢ : ١٠٦ والقلائد : ١٤٧ .
٤ د : مجيري ، والسجير : الخليل والصفي .
٥ المغرب : في عاتق الليل ؛ الخريدة والقلائد : على عاتق الليل .

فأبتُ وذنبي أميرُ الذنوبِ ودولته فوق تلك الدول

أشار في هذا البيت الأخير إلى قول أبي الطيّب[1] :

أميرة[2] اللحظِ في الألحاظِ مالكةٌ لمقلتيها عظيمُ المُلْكِ في المقلِ

وقال أبو نواس[3] :

أصبني منك يا أملي بذنبٍ تتيهُ على الذنوبِ به ذنوبي

وأنشدني أيضاً لنفسه[4] :

هل تذكرُ العهدَ الذي لم أنْسَهُ ومودّتي[5] مخدومةٌ بصفاءِ
والأنسُ قد خلَعَ العذارَ[6] فبيننا برٌّ البنينَ ورقّةُ الآباء
ومبيتَنا في نهرِ حمصٍ والحجى قدحلّ عَقْدَ حباهبالصهباء[١٣٥ب]
ودموعُ طلِّ الليلِ تَخْلُقُ أعيناً[7] ترنو إلينا من عيونِ الماء

وأنشدني أيضاً لنفسه[8] :

---

١ ديوان المتنبي : ٣٢٩ .
٢ الديوان : مطاعة ؛ ط د : أسرة .
٣ ديوان أبي نواس : ٤٢٨ .
٤ منها ثلاثة أبيات في كل من القلائد : ١٤٧ والمغرب ١ : ٣٧٥ والخريدة ٢ : ١٠٦
٥ س : ومودة .
٦ س : الوقار .
٧ تكرر هذا الشطر من قبل ص : ٦٨٤ س : ٥ .
٨ انظر القلائد والخريدة والفوات والمطرب .

وما أنسَ بين النهر والقصرِ وقفةً نشدتُ بها ما ضلَّ من شاردِ الحبِّ
رميتُ بلحظي رميةً سمحت به[1] فلم أثْنِـهِ إلا ومحرابُها[2] قلبي

وأنشدني أيضاً لنفسه قصيدة أولها :

دَعَتْكَ ومن سجيّتِكَ البدارُ رؤوسٌ أينعتْ منها ثمارُ

ومنها في وصف السيوف :

فيوردها ظماءً وهي ماءٌ ويُصْدِرها رواءً وهي نارُ
ويقرضها أعاديه بلجيناً وترجعُ وهي لو سلمتْ نضار

بيته الأوسط منها نَقَلَهُ من قولِ أبي الشيص ، إلاَّ أنه زاد عليه ، واستلبه من يديه ، وهو[3] :

فأوردها بيضاً ظماءً صدورها وأصدرها بالريِّ ألوانُها حُمْرُ

وهذا المعنى كثير ؛ وبيته الثالث نسخ بيتَ أبي الطيب ، ونقله من الوادي إلى السيف ، وهو[4] :

ركض الأميرُ وكاللجينِ حَبابُهُ وثنى الأعنّةَ وهو كالعقيانِ

وقال أيضاً أبو الطيب[5] :

---

١ القلائد : بيني رمية جمحت به ؛ الخريدة : سخت به .
٢ القلائد والخريدة : ومجروحها .
٣ لم يرد في ديوان أبي الشيص المجموع .
٤ ديوان المتنبي : ٤١٤
٥ ديوان المتنبي : ٣٩٠ .

ولا تردُ الغدرانَ إلا وماؤها من الدم كالرَّيحانِ تحت الشَّقائقِ

وقال محمد بن هانىء[1] :

لا يوردونَ الماءَ سُنْبُكَ سابحٍ أو يكتسي بدمِ الفوارسِ طُحْلُبا

وأشهر موضع نقله منه قول السناط[2] :

فخذْ ذهباً وردَّ لنا لجيناً تكنْ في الناس أرْبَحَ صيرفيِّ

إلاّ أنَّ قول ابن عبدون قد[3] سلم من الحشو الذي لا يحسنه إلاّ من أدمنَ محاولة مضايق المقال فاقتحمها، واعترى بفجاج السِّحرِ الحلالِ فتسنّمها، وما أشبهه في لين المهزّ، وإجادةِ المحزّ، بقولِ ابن المعتز[4] :

صببنا عليها ظالمين سياطَنَا فطارتْ بها أيدٍ سراعٌ وأرجلُ

وأنشدني له من قصيدة[5] :

مررتُ على الأيامِ من كل جانبٍ أصعِّد فيها تارةً وأصوِّبُ
ينمُّ بيَ الثغرانِ : صُبْحٌ وصارمٌ ويكتمني القلبانِ : نقعٌ وغيهبُ
وقد لفظتني الأرضُ إلا تنوفَةً يحدِّثني فيها العيانُ فيكذب

١ ديوانه ابن هانىء : ١٨٩ .
٢ هو أبو علي الحسن بن حسان، قرطبي عاش في زمان عبد الرحمن الناصر وأصله من وادي الحجارة وقد عرفت به و بمصادر ترجمته في القسم الأول: ٥١٢ وبيته هذا في المغرب ٢ : ٣٧ والقسم الأول من الذخيرة : ٣١٢ ، ٥١٢) .
٣ ط د : لو .
٤ زهر الآداب : ٣١٠ ونهاية الأرب ١٠ : ٥٩ .
٥ انظر القلائد والمطرب .

وهذا كقول المتنبي[1] :

وغادر الهجرُ ما بيني وبينكم ... يهماءَ تكذبُ فيها العينُ والأذنُ

ومن شعر ابن عبدون في الرثاء والتأبين قوله ممّا أنشدنيه في أخيه عبد العزيز يرثيه :

رويدَكَ أيُّها الدهرُ الخؤونُ ... ستأكلنا وإياكَ المنونُ
تعلِّلنا الأماني وهي زُورٌ ... وتخدعنا الليالي وهي خَوُنُ [١٣٦أ]
وكم غَرَّتْ بِزِبْرِجها قروناً ... فما أبقتْ ولا بقتِ[2] القرون
فُجِعْتُ بزاهرٍ منْ سِرّ فهرٍ ... كبدرِ التِمِّ هَالَتُهُ عرين
بأروعَ ملءِ عينِ الحُسْنِ قيداً[3] ... إذا أخذت مجاريَها العيون
منيرِ العِرْضِ فضفاضِ المساعي ... طويلِ الباع ناديه رزين
سمتْ فوق السماءِ به ظهورٌ ... وما حَطَّتْهُ إذ حطّتْ بطون
فأنضبتِ المنايا منه بحراً ... جواريه صفونٌ لا سفين
وأغمضتِ البسيطةُ منه نَصْلاً ... طوابعُهُ قيولٌ لا قيون
مضى مَنْ لو سبقتُ لما تعزَّى ... ولا جَفّتْ له بعدي جفون
وأبقتني يدُ الأيّام فَرْداً ... كما غَدَرَتْ بيسراها اليمين
وهل يبقى على غِيرِ الليالي ... شفيقٌ أو شقيقٌ أو قرين

وقال يرثي ذا الوزارتين أبا محمد بن خلدون[4] ، وكان استشهد يوم الجمعة المشهور :

---

١ ديوان المتنبي : ٤٦٨ .

٢ س : أنت .

٣ ط د : قيد .

٤ ذكره في النفح ٣ : ٢٤٢ وأنه كان مع أبي الوليد ابن زيدون وابن عمار ، وانظر بدائع البدائه : ٢٢٥ — ٢٢٦ .

ملكتَ فأسْجِحْ لا أبا لكَ يا دهرُ أفي كلّ عامٍ في العلا فتْكَةٌ بكرُ
رَثَتْهُ فقلنا إنّها لَتُماضرٌ[1] وان ابنَ خلدون لَمَفْقودها صحخر
مضى لم يَرِثْ عنه الرئاسةَ وارثٌ ولولا المساعي الزُّهْرِ لانقطعَ الذكر
وما كان إلا الغيثَ أقلعَ جُمْلَةً فلم يكُ منه لا غديرٌ ولا زهر
فيا ليتني بين العوالي وبينه وقد مَلّكَتني من أعنّتها فهرُ
لأطبقَ منه بالعَشا حَدَقَ القنا ضرابي وإن كانت لها الأعينُ الخزر

فيا لأبي محمد بن عبدون في الحرب الزبون، مجنّاً ليس بحصين، ليته كلما شهد وقيعة كان كمجن[2] ابن أبي ربيعة، حسبه الكتب من الكتائب، وكفاه اعتناقُ القضبِ من خرط القواضب، وأرى فهراً لو ملّكته يومئذ أعنّتها، وجعلت إليه سيوفَها وأسنّتها، لمات ميتةً ضحاكية[3]، أو حيَّ حياةً فهريّة قَطَنيّة[4]، ولخرَّ البيتُ وعمودُهُ، وضاع الرعيلُ ومن يقوده.

وقال من قصيدة له فريدة ضمّنها مَنْ أباده الحدثان، من أكثرِ ملوك الزمان[5]:

---

١ تماضر: الخنساء.

٢ ط: كمجر؛ د: كمجد؛ س: كمحق؛ والإشارة إلى قول عمر بن أبي ربيعة:

فبات مجني دون من كنت أتقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

وقيل ان يزيد بن معاوية عرض جيش أهل الحرة فمر به رجل من الجند معه ترس خلق، فقال له يزيد: ويحك، ترس عمر بن أبي ربيعة كان أحسن من ترسك (الأغاني ١: ٩١).

٣ أي مات كما مات الضحاك بن قيس الفهري.

٤ أي طالت حياته كما طالت حياة عبد الملك بن قطن الفهري والي الأندلس (ابن عذاري ٢: ٣٢).

٥ وردت مشروحة، شرحها ابن بدرون (ونشرها دوزي، ونشرت بمصر ١٣٤٠) وهي في المطرب والمعجب والفوات والنفح ونهاية الأرب ٥: ١٩٠ وبعضها في المغرب والرايات: ٣٢ (غ) والوافي للرندي: ١١٦ وساقارن نصها في الذخيرة بالفوات.

الدهرُ يفجعُ بعدَ العينِ بالأثرِ فما البكاءُ على الأشباحِ والصُّوَرِ
أنهاكَ أنهاك لا آلوكَ موعظةً[1] عن نومةٍ بين نابِ الليثِ والظُّفُرِ
فالدهرُ حربٌ وإن أبدى مسالمةً والسُّودُ والبيضُ مثلُ البيضِ والسُّمرِ
فلا تغرَّنْكَ من دنياك نومتُها فما سجيّةُ[2] عينيها سوى السهرِ
ما لليالي أقالَ الله عثرتَنا من الليالي وخانتها يدُ الغِيَرِ[3]
تَسُرُّ بالشيء لكنْ كي تغرَّ به كالأيْمِ ثار إلى الجاني من الزهرِ
كم دولةٍ وليت بالنّصرِ خدمتها لم تُبْقِ منها وَسَلْ ذكراك من خبرِ
هوت بدارا وفلّتْ غَرْبَ قاتلِه وكان عَضْباً على الأملاك ذا أثرِ [١٣٦ ب]
واسترجعتْ من بني ساسانَ ما وهبَتْ ولم تدعْ لبني يونانَ من أثرِ
واتبعت أختها طسماً وعاد على عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقضُ المررِ
وما أقالتْ ذوي الهيئاتِ من يَمَنٍ ولا أجارتْ ذوي الغاياتِ من مضرِ
ومزّقت سبأً في كلِّ قاصيةٍ فما التقى رائحٌ منهم[4] بمبتكرِ
وأنفذتْ في كُلَيْبٍ حكْمها ورمتْ مهلهلاً بين سَمْعِ الأرضِ والبصرِ
ودَوَّخَتْ آلَ ذبيانٍ وجيرتَهم لخماً وعضّتْ[5] بني بدر على النهرِ
وما أعادتْ على الضلّيلِ صحّتَهُ ولا ثنَتْ أسداً عن ربّها حُجُرِ
وألحقتْ بعديٍّ بالعراقِ على يدِ ابنه أحمرَ العينين والشّعرِ[6]

---

١ د والفوات : معذرة .
٢ الفوات : صناعة .
٣ س وأصل ط : القدر .
٤ د : منها .
٥ ط : وغصت .
٦ أحمر العينين والشعر : وصف النعمان بن المنذر ؛ وقد سعى في قتله زيد بن عدي بن زيد ثأراً لأبيه (شرح البسامة : ١٢٨ وما بعدها) .

وبلّغتْ يزدجردَ الصينَ واختزلتْ عنه سوى الفرسِ جَمْعَ الترك والخزر
ولم تكفَّ مواضي رستمٍ وقنا ذي حاجبٍ عنه سَعْداً في ابنة الغير
ومزّقتْ جعفراً بالبيض واختلستْ من غيله حمزةَ الظلّامَ للجزُر
وأشرفتْ بِخُبَيْبٍ فوق قارعةٍ وألصقت طلحةَ الفيّاضَ بالعَفَرِ
وخضّبت شيْبَ عثمانٍ دماً وخطت إلى الزُبير ولم تستحي من غمر
ولا رَعَتْ لأبي اليقظانِ[1] صحبته ولم تُزَوِّدْهُ إلاّ الضَّيْحِ في الغمر
وأجزَرَتْ سيفَ أشقاها أبا حسن وأمكنتْ من حسينٍ راحتَي شمر
وليتها إذ فَدَتْ عمراً بخارجةٍ فَدَتْ علياً بمن شاءَتْ من البشر[2]
وفي ابنِ هندٍ وفي ابن المصطفى حسنٍ أتت بمعضلةِ الألبابِ والفكر
فبعضنا قائلٌ ما اغتاله أحدٌ وبعضنا ساكتٌ لم يؤتَ من حصر
وأردتِ ابنَ زيادٍ بالحسين فلمْ يبؤْ بِشِسْعٍ له قد طاحَ أو ظُفُر
وعمّمَتْ بالظبا فودَيْ أبي أنَسٍ ولم يَرُدَّ الرّدى عنه قنا زفر
وأنزلتْ مصعباً من رأسِ شاهقةٍ كانت به مهجةُ المختار في وزر
ولم تراقبْ مكانَ ابنِ الزبير ولا رعت عياذَتَهُ بالبيتِ والحجر
ولم تدعْ لأبي الذبّانِ ماضيةً[3] ليس اللطيمُ لها عمروٌ بمنتصر[4]
وأظفرتْ بالوليد بن اليزيد ولم تُبْقِ الخلافةَ بين الكأس والوتر
ولم تَعُدْ قُضُبُ السفّاح نابيةً عن رأسِ مروان أو أشياعهِ الفجر

---

[1] أبو اليقظان : عمار بن ياسر (شرح البسامة : ١٥٤).
[2] ورد في طراز المجالس : ١٣٢ .
[3] شرح البسامة : قاصية ؛ د : قائمة ، وأبو الذبان هو عبد الملك بن مروان .
[4] ط د : بمعتجر (اقرأ : بمحتجر) ؛ س : بمفتخر ؛ واللطيم هو عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص .

وأسبلتْ دمعةَ الروحِ الأمين على ... دمٍ بفخٍ[1] لآل المصطفى هَدَرِ
وأشرقتْ جعفراً ، والفضلُ ينظره ... والشيخُ يحيى ، بريقِ الصارم الذكر
وأخفرتْ في الأمينِ العهدَ وانتبذت ... لجعفرٍ في ابنه والأعْبُدِ الغُدُرِ
وما وفتْ بعهودِ المستعين ولا ... بما تأكّد للمعتزِّ من مِرَرِ
وأوثقتْ في عراها كلَّ معتمد ... وأشرقتْ بقذاها كلَّ مقتدر [١٣٧أ]
وروّعتْ كلَّ مأمونٍ ومؤتمن ... وأسْلمتْ كلَّ منصورٍ ومنتصر
وأعثرتْ آلَ عبّاسٍ لعاً لهمُ ... بذيل ربّاءَ من بيض ومن سمر
بني المظفر والأيام ما برِحتْ ... مراحلاً والورى منها على سفر[2]
سحقاً ليومكمُ يوماً ولا حملتْ ... بمثله ليلةٌ في مُقْبلِ العمر
من للأسرّةِ أو من للأعنّةِ أو ... من للأسنّةِ يُهديها إلى الثغر
من للبراعةِ أو من لليراعةِ أو ... من للسماحة أو للنفع والضرر
أو رفعِ كارثةٍ أو دفعِ آزفةٍ ... أو ردعِ حادثةٍ تعيا على القدر
ويحَ السماحِ وويحَ الجودِ لو سلما ... وحسرةَ الدينِ والدنيا على عمر
سقَتْ ثرى الفضلِ والعباسِ هاميةٌ ... تُعْزَى إليهم سماحاً لا إلى المطر
ثلاثةٌ ما رقى النسران حيث رقوا ... وكلٌّ ما طار من نسرٍ ولم يطر
[ثلاثة ما رأى العصران مثلهم ... فضلاً ولو عزروا بالشمس والقمر][3]
ومر من كلِّ شيءٍ فيه أطيبُهُ ... حتى التمتعُ بالآصالِ والبكر
من للجلال الذي عمّتْ مهابته ... قلوبَنا وعيونَ الأنجمِ الزهر

1 ط د : يسح ؛ والمقتول بفخ هو الحسين بن علي بن حسن بن حسن ، واستشكل ابن بدرون هنا على الشاعر لقوله « وأسبلت دمعه الروح الأمين » إذ أن دمعة الروح الأمين لم تسبل على قتيل فخ وإنما على الحسين بن علي نفسه (انظر ص : ٢٢٠ من شرح البسامة).

2 من هنا حتى آخر القصيدة لم يرد إلا في س .

3 زيادة لاتصال السياق .

أين الإباءُ الذي أرْسَوْا قواعدَهُ	على دعائم من عزٍ ومن ظفر
أين الوفاءُ الذي أصْفَوْا شرائعَهُ	فلم يَرِدْ أحدٌ منها على كدر
كانوا رواسيَ أرضِ الله منذ نأوا	عنها استطارت بمن فيها ولم تقر
من لي – ولا مَنْ –بهم إن عُطلت سنن	وأحفيت ألسن الأيام والبشر
من لي – ولا من – بهم إن طبّقت محنٌ	ولم يكن وردها يفضي إلى صدر
على الفضائلِ – إلا الصبر – بعدهم	سلامُ مرتقبٍ للأجر منتظر
يرجو عسى وله في أختها أملٌ	والدهر ذو عُقَب شتّى وذو غير

وقد سلك بعض أهل عصرنا هذه السبيلَ ، وهو أبو جعفر الكفيف التطيليّ ، فقال [1] :

خذا حدّثاني عن فلٍ وفلانِ	لعلي أرى باقٍ على الحدثانِ
وعن دولٍ جُسْن الديارَ ، وأهلها	فنين ، وصرفُ الدهرِ ليس بفان
وعن هَرَمَيْ مصرَ الغداةَ أمُتّعا	بشرخِ الشباب أم هما هَرِمان
وعن نخلتَي حُلْوانَ كيف تناءتا	ولم تطويا كشحاً على شنآن [2]
وطال ثواءُ الفرقدينِ لغبطة	أما علما أنْ سَوْفَ يفترقان
وزايلَ بين الشعريين تصرُّفٌ [3]	من الدهرِ لا وانٍ ولا متوان
فإن تذهب الشّعْرى العبورُ لشأنها	فإن الغُمَيْصَا في بقيّةِ شان
وجُنّ سهيل بالثريّا جنونه	ولكن سلاه كيف يلتقيان

---

١ ديوان الأعمى التطيلي : ٢٢٤ ومر منها بيتان ص : ٤٨٧ .

٢ نخلتا حلوان اللتان ذكرهما مطيع بن اياس في شعره ، وقيل انه قطع للرشيد جمار إحداهما فماتت ، انظر ثلاثة شعراء عباسيون : ٦٩ .

٣ الديوان : مصرف .

وهيهات من عَدْلِ القضاء وجورِهِ شآميةٌ ألْوَتْ بدَيْنِ يمان
فأجمعَ عنها آخرَ الدهر سلوةً على طَمَعٍ خلاّهُ للدبران[1]
وأعلنَ صَرْفُ الدهرِ لابني نويرةٍ بيوم تناءٍ غالَ كلَّ تداني
وكانا كَنَدْمَانَي جذيمةَ حقبةً من الدهرِ لو لم تنصرمْ لأوان[2]
فهان دمٌ بين الدكادك واللوى[3] وما كان في أمثالها بمهان
وضاعتْ دموعٌ بات يبعثها الأسى يهيّجه قبرٌ بكلِّ مكان
ومال على عَبْسٍ وذبيانَ ميلةً فأودى بمجنيٍّ عليه وجاني
فعوجا على جَفْرِ الهباءَةِ[4] فاعجبا لِضَيْعَةِ أعلاقٍ هناك ثمان[5]
دماءٌ جرت منها التلاعُ بملئها ولا ذَحْلَ إلاّ أن جرى فَرسان
وأيامُ حربٍ لا يُنَادَى وَليدُهَا أهابَ بها في الحيِّ يومُ رهان
فآب الربيعُ[6] والبلادُ تهرُّهُ ولا مثلَ مودٍ من وراءِ عمان
وأنحى على ابنيْ وائلٍ فتهاصرا غصونَ الردى من كزَّةٍ ولِدان
تعاطى كليبٌ فاستمرَّ بطعنةٍ أقامتْ لها الأبطالُ سوقَ طعان

---

١ الدبران : نجم يدبر الثريا ، بينها وبين الجوزاء .
٢ إشارة إلى قول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك (المفضلية : ٦٧)

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

وندمانا جذيمة هما عقيل ومالك اللذان يقول فيهما أبو خراش الهذلي :

ألم تعلمي أن قد تفرق قبلنا خليلا صفاء مالك وعقيل

٣ إشارة إلى قول متمم :

وقالوا أتبكي كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

٤ جفر الهباءة : مستنقع ببلاد غطفان قتل فيه عدد من بني فزارة ، أخذوا على غرة .
٥ الاعلاق الثماني رهن من بني عبس قتلهم حذيفة بن بدر في اليعمرية قبل جفر الهباءة .
٦ هو الربيع بن زياد العبسي .

وبات عديٌّ بالذنائبِ يصطلي بنار وغىً ليستْ بذات دخان [1]
فذلّتْ رقابٌ من رجالٍ أعزَّةٍ إليهم تناهى عزُّ كلِّ زمان
وهبّوا يلاقونَ الصّوارمَ والقنا بكلِّ جبين واضحٍ ولبان
فلا خدَّ إلا فيه حدٌّ مهنّدٍ ولا صَدْرَ إلاّ فيه صَدْرُ سنان
وطال على الجَوْنين بالشّعبِ فانثنى بأسلابِ مطلولٍ وربقةِ عان [2] [١٣٧ب]
وأمضى على أبناءِ قَيْلَةَ [3] حُكْمَهُ على شَرِسٍ أدْلَوْا به ولَيان
ولو شاء عُدوان الزمان ولم يشا لكان عذيرَ الحيِّ من عَدَوان [4]
وأيُّ قبيلٍ لم تُصدَّعْ جميعهم ببكرٍ من الأرزاءِ أو بعوان
خليليَّ أبصرتُ الردى وسمعتُهُ فإن كنتما في مِرْيَةٍ فسلاني
خذا من فمي هلاَّ وسوف فإنني أرى بهما غير الذي تريان
ولا تعداني أنْ أعيشَ إلى غدٍ لعلَّ المنايا دونَ ما تعداني

وقد تقدَّم أيضاً إلى هذه الطريقة جماعةٌ من المتقدِّمين والمتأخرين [5] ،

---

١ عدي : هو مهلهل بن ربيعة أخو كليب ، والذنائب : اسم موضع يذكره مهلهل في قوله :

فإن يك بالذنائب طال ليلي فقد أبكي من الليل القصير

وفي ط : علي .

٢ الشعب : شعب جبلة ، وفيه يوم من أيامهم ، والجونان : عمرو ومعاوية ابنا شراحيل ابن الجون وقد أسرهما بنو عامر يوم الشعب (شرح النقائض : ٤٠٧) .

٣ ابنا قيلة : الأوس والخزرج .

٤ عدوان : قوم ذي الأصبع ، تفانوا ، وفيهم يقول ذو الأصبع :

عذير الحي من عدوان كانوا حية الأرض
بغى بعضهم بعضاً فلم يبقوا على بعض

وانظر ما تقدم ص : ١٢

٥ والمتأخرين : سقطت من ط .

قال أبو العلاء المعري[1] :

أصاب الأخفشين بصيرُ خطبٍ ... أعادَ الأعشيين بلا حوارِ
وَغيلَ المازنيُّ من الليالي ... بزندٍ من خطوبِ الدهر واري
وللجرميّ ما اجترمتْ يداه ... وحَسْبُكَ من فلاحٍ أو بوار
وأما فَرْخُهُ[2] فبلا جناحٍ ... يطيرُ بحملِ أقلامٍ جوارِ
وما نفعَ المبرَّدَ من حميمٍ ... وصادتْ ثعلباً نُوَبٌ ضَوار

وقال[3] :

أصحابُ أيكةَ[4] أهلكوا بظهيرةٍ ... حَمِيَتْ وعادٌ بالرّياح الصرصر
كسرى أصابَ الكسرُ جابرَ ملكه ... والقصرُ كرَّ على تطاولِ قيصر

وقال[5] :

أعيا سوارُ الدهرِ كلَّ مساورٍ ... ورمى الخليلَ بأسهمِ الأسوار
فاحذرْ وإن بَعدَتْ غزاتك في العدا ... قَدَراً أغار على أبي المغوار[6]
جرتِ القضايا في الأنامِ وأمْضيتْ ... صدقاً بأسوارٍ ولا أسوار[7]

---

١ اللزوميات : ١٤٢ / أ ؛ ١ : ٣٢٨ .
٢ فرخ الجرمي : كتابه ، كان يسمى فرخ سيبويه .
٣ اللزوميات ١٤٢ ب ؛ ١ : ٣٣٠
٤ اللزوميات : أصحاب ليكة .
٥ اللزوميات ١٤٤ / أ ؛ ١ : ٣٣٤ .
٦ أبو المغوار أخو كعب بن سعد الغنوي ، وقد رثاه كعب بقصيدة مشهورة .
٧ ط د : بأسرار ولا أسرار ؛ والأسوار في القضايا المنطقية مثل « كل » و « بعض » فإذا عريت منها فهي بلا أسوار .

في ذكر الأديب أبي جعفر
أحمد بن عبد الله بن هريرة القيسي الأعمى التطيلي[1]

له أدبٌ بارع ، ونظرٌ في غامضهِ واسع ، وفهمٌ لا يجارى ، وذهنٌ لا يبارى ، ونظمٌ كالسحر الحلال ، ونثرٌ كالماء الزلال ، جاء في ذلك بالنادرِ المُعْجز ، في الطويل منه والموجز ؛ نظم أخبارَ الأممِ في لَبّةِ القريض ، وأسْمَعَ فيه ما هو أطرفُ من تَغَنّم مَعْبَدٍ والغريض . وكان بالأندلس سرَّ الإحسان ، وفرداً في الزمان ، إلاّ أنّه لم يَطُلْ زمانه ، ولا امتدَّ أوانه ، واعتُبِطَ عندما به اغتبط ، وأضحتْ نواظرُ الآدابِ لفقده رَمِدةً ، ونفوسُ أهلهِ متفجّعة كمدة . وقد أثبتُّ ما يشهدُ [له] بالإحسان والانطباع ، ويثني عليه أعنّة السماع .

---

١ ذكر الصفدي (نكت الهميان : ١١٠) أنه توفي سنة ٥٢٥ ، وترجمته في المغرب ٢ : ٤٥١ والمسالك ١١ : ٣٨٩ (وفيهما نقل عن الذخيرة) والقلائد : ٢٧٣ والخريدة ٣ : ٥١١ (قسم المغرب) وبغية الملتمس رقم : ٤٢٩ والسلفي : ١٦ وله ذكر في الروض المعطار : ١٣٣ ، ١٩٦ وبدائع البدائه : ٢٤٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤ والنفح (انظر الفهرست تحت : الأعمى التطيلي) وقد ورد اسم أبيه في نسخة حليم من الذيل والتكملة (الورقة : ١٦٧) « عبيد الله » وترد له كنيتان أبو جعفر وأبو العباس ؛ وقد كنت نشرت ديوانه اعتماداً على نسختين خطيتين (بيروت ١٩٦٣) وصدرته بمقدمة في دراسة حياته وشعره ، وضممت إلى الديوان موشحاته من دار الطراز وجيش التوشيح وغيرهما ، ولكن هذه الترجمة التي أوردها ابن بسام (والتي انفردت بها النسخة س) قد احتوت شعراً لم يرد في ديوانه ونثراً لم تورده المصادر الأخرى ، إلا أن انفراد « س » يجعل بعض القراءات أحياناً غير دقيقة ، بكل أسف .

فمن ذلك رقعة كتب بها إلى بعض إخوانه يعاتب : شاكرك أو شاكيك ، من لا يحمد ولا يذم الأيامَ فيك ، يا سيدي – كنايةً عن ذكره ، لا توخياً لبرّه ، وإحياء رغبةٍ في إنصافه ، لا طمعاً في استعطافه – الذي عاطيته كأسَ الوداد فأمرَّها ، وزففتُ إليه بنتَ الفؤاد فأضرَّ بها وأضرَّها ، ومَنْ أطال الله بقاءه ممتعاً بظلّ السلطان ، وإقبالِ الزمان ، فإنَّ الرجلَ بسلطانه ، لا بإخوانه ، وباقبال زمانه ، لا بإحسانه ، إني – أعزَّك الله – وإن كان الدهرُ وضعني ورفعك ، وضاق عني ووسعك ، بين جنبيَّ نفسُ عصام ، وبين فكيّ صارمُ بَسْطام ، إذا ضيم الرجالُ فلستُ بالمضروب زيد ، وإذا تُكلّم القول فلست بسعيد بن حميد :

* الشجوشجوي والعويل عويلي[1] *

لا أستعير عيناً للبكاء ، ولا أبتغي بكبدي كبداً سليمة من الأرزاء .

وإنّكَ أعزَّك الله – لما تكلّمتَ بلسانِ سهل بن هارون ، وجلست مجلسَ الفضلِ من المأمون ، وخدمك الدهرُ ، وانثالتْ في يديك الأنجم الزهر ، قلت : أحمد وعليّ ، وإن لم يكن شبَعٌ فريّ[2] ، أسواء من أعنق أو نصّ ، وأين من ولي حلب ممن ولي حمص ، وعلى رسلك : ما كنت أنا الغلط في مثالك ، إني أبيت ظمآن ، ولا أبيتُ خزيان ، وأحتملُ الحرمانَ ، ولا أحتمل الهوان ، وَليتَ هذا الأمرَ وقلبُكَ لي معمور ، وأنت بزعمك إليَّ فقير ، وأنا أظنُّ أني سأولّي وأعزل ، وأحدث في كنفك وأعدل ، فما هو إلا

---

١ شطر بيت الرمادي ، وقبله : « من حاكم بيني وبين عذولي » .

٢ يشير إلى شعر لامرىء القيس جاء فيه :

فنملأ بيتنا أقطاً وسمناً وحسبك من غنى شبع وري

أنْ نَبَتَ قدمك . وخفقَ علمك . وواِبتلّ قرطاسك وقلمك ، [حتّى] اختصرتَ شَطْرَ السلام ، ودفعتَ في صَدْرِ القيام . وعزلتَ فلاناً قبل الولاية ، واقتصرت بأبي الأصبغ دون الغاية ؛ هينمة أنا كنت معناها ، وكأسٌ لي شَعْشَعَتْ حُميّاها ، وولايتك خطر ، وفي عملك نظر . إنما هو ظلّ غمامة . ومبيض حمامة ؛ ثم تعودُ إلى استحلاسِ البيت . وأكْلِ الخبزِ بالزيت .

وكتب إلى أبي الحسن بن بياع [1] بهذه الرسالة والشعر الذي بعدها : يا عمادي الذي شفَّ قدرُهُ على الأقدار . شفوفَ الضحى على الإبدار ، وسرى ذكره بأطيب الأخبار . مَسْرى النسيم بالأزهار . وامتزج حَمْدُهُ وشكره بالأسماعِ والأبصار . امتزاجَ المثاني بالأزيار .

وفي فصل منها : وإن كنتُ ضيّقَ الباعِ مُزْجَى البضاعة . في غير وِرْدٍ ولا صَدَرٍ من هذه الصناعة ، فاني أقول بفضلها ؛ وأعرفُ الحَسَنَ من أهلها . وأعرض بنفسي — فاديتك — للالتفاف في حبلها . والتصرُّف بين جِدّها وهزلها ؛ ولم أزل منذ تخيَّلَ جَنَاني . وتقوّلَ لساني ؛ وأدبرَ مَلَكي أو شيطاني ؛ ألتمسُ من أهلِ هذا الشان إماماً أسْعَى باسمه وأحفد . وأقيس على حُكْمِهِ وأقلّد ؛ وأحلّ بين تهممه وأعقد . والناسُ كثير . والناقدُ بصير ، وللأمورِ أعجازٌ وصدور . فكيف تراني اتخذتك خليلاً ،

---

[1] ذكره ابن بسام في الذخيرة ١ : ٧٦ وأورد له بيتاً على وزن قصيدة الأعمى التالية ورويها وجاء عند السلفي ذكره عرضاً (ص ١٢٢) واسمه علي بن بياع (كما سيجيء في القصيدة) وهو سبتي النسبة ، وقد نقل بعض شعره وشعر غيره من المغاربة أبو عمران السبتي وأنشده للسلفي .

وذَخَرْتُكَ على الأيّامِ عهداً مسؤولاً . وبايعتك على الطاعة والسمع . وشايعتك سرّي الاستطاعةِ والوسع ، فعوّلتُ عليك كعبةً أولّي وجهي شطرها ، وأسندتُ إليكَ هضبةً إن خشيَ سواي وعرها . لأكونَ قد قَدَّرْت هذه الصناعة قَدْرَها . وأبلغتُ نفسي في ظلّها والتعلّق بسببها عُذْرَها .

وفي فصل منها : وكتبتها عن جنانٍ بلقائك صبّ . ولسانٍ بشكر آلائك رطب ، وشاهدِ سريرةٍ وإعلانٍ لأوليائك نهب . وعلى أعدائك إلْب . وعندي من القول بإمامتك . والحرصِ على سلامتك . والشكرِ لأياديك . ومنافسة أهل ذلك القطر فيك . ما لا يَسَعَهُ نظمٌ ولا نثر . ولا يحيطُ به عَدّ ولا حصر .

وفي فصل : ولما حجبَ سناك . ونظرت إليك نظر المنهزم إلى السَّلْم . وتنكّب الحادي ذراك . وقربتُ منكَ بمكانِ الدّبَران من النجم . واستمر الزمانُ على عادته في إمالة حالي . وظفر بإرادته من عكسِ أراجيّ وآمالي ، خاطبتُ الحضرةَ البهيّة المزدانةَ بموئلي — دام عزّه — بأبيات من ذلك الهذيان . الخالي إلاّ من البيان . أستغفر الله : بل لهثات من ذلك البرسام . المتولّد عن عَكْسِ الاحتدام . وهي على حالها ناطقةٌ بلسانِ شكرها . سافرةٌ عن وجه عُذْرها . وقد زَفَفْتُها إليك . واستَنَبْتُها عني في المثوى بين يديك . غير — والله — مباهٍ لك . ولا متشبه بك . ولا طمعاً في اقتفاء آثارك . فضلاً عن شقّ غبارك . ولكن تغنّماً لمسرّتك . واعتلاقاً بمبرتك . وخدمةً للعليّة حضرتك . ولترى أين أقع . بما أصنع . ولولا أنْ أتعدّى طوري . وأحورَ بعدَ كَوْري . لقلتُ : إنْ تفضّلَ سيدي وإمامي بجواب عزيز ليبسطَ نفسي ، ويردّ شارد أنسي . فعل .

وأوّل الشعر [1] :

أبا حسنٍ دعاءً أو حنيناً ... ولا آلوك إن كانت خبالا
أتأذَنُ في التظلّمِ من زمانٍ ... عدا تلك الزيارةَ والوصالا
ولو أنّ الخيال ينوبُ عنّي ... لأبْلَغَكَ الكرى قِصصاً طوالا
ولولا أن أدَلّس في التلاقي ... لزرتُكَ حيثُ تعترفُ الخيالا
فلم ترَ بيننا وأبيك فرقاً ... سوى أني أحنُّ إذا أحالا
ذكرتك ذكرةً جذَبتْكَ نحوي ... فهل أحسنتُ نقلاً أو نقالا
وأعلمُ أنها كهواكَ سحر ... ولكن كيف تستهوي الجبالا
بلى إنْ يدنُ طيفُكَ من وسادي ... فقد سمّيتها السحرَ الحلالا
وكيف يحسُّ طيفَكَ أو يراه ... ولو نصبَ الحبائلَ والحبالا
معنّىً لا يزالُ سميرَ شوقٍ ... عهدتَ لبرحه ألاّ يزالا
يؤرّقُهُ بعادُكَ كلَّ ليلٍ ... توهّمَ طولَ زفرته . فطالا
كأنَّ نجومَهُ أقداحُ شَرْبٍ ... إذا زيدت هدىً زادت ضلالا
أبا حسن وأينُ الحسنُ مما ... تشيرُ به فعالاً أو مقالا
لك الفضلُ الذي هو فيك طبعٌ ... إذا احتقبوه غصباً وانتحالا
قتلتَ حقائقَ الأشياء علماً ... كفاك البحثَ عنها والسؤالا
نَمَتْكَ إلى المكارمِ والمعالي ... إذا نجم تكارم أو تعالى
صقورٌ أو بدورٌ أو بحورٌ ... وإن لم تلقَ مثلهمُ رجالا
إذا شهدوا القتارَ [2] فسوف تدري ... لأيّةِ علّةٍ شهدوا القتالا
بنو الهيجاء طاروا في وغاها ... وإن كانت حلومهمُ ثقالا

---

١ انظر الديوان : ٢٤٣ .

٢ الديوان : القتال .

إذا زَبَنْتَهُمُ شنُّوا عليها جياداً ضمّراً وقناً طوالا
ونعم النازلون على الروابي إذا ما الشمسُ أحرقتِ الظلالا
إذا اكتفتِ[1] الرياحُ بحيث تدعو بصوبِ المزنِ خالقَها ابتهالا
ولو أني أشاءُ لأبْلَغَتْني ذراك ، ولو أسيءُ بها فعالا
قلائصُ ما رحلناهنَّ إلاّ رأيتَ بهنَّ عُصماً أو رئالا
كأنصافِ البرى وتدقُّ عنها شواها دقةً تسعُ الخلالا[2]
إذا انبعثت رأيتَ قسيَّ نبعٍ وتحسبها إذا بركت سخالا[3]
تناسبُ شدْقَماً أو أذكرته[4] وصار لها السُّرى عمّاً وخالا
[تراع من السقاب إذا رأتها وتشتاق الأزمة والرحالا][5]
وقد ألِفَتْ بناتِ القفر حتى حسبت الغولَ يحذوها النعالا
إذا لمع السرابُ تبادرته فأحسبها تريدُ به اشتمالا
وبين جفونها منه نطافٌ إذا سمع الغليلُ بهنَّ خالا
لعلّك يا عليُّ لها معاذٌ فتسقيها بحاراً[6] أو سجالا
وتبسطَ أو تمدَّ لها يميناً غدا نَوْءُ السِّماكِ لها شمالا
أبيعك يا ابن بيّاع فؤادي وغيري من إذا ندمَ استقالا
وأصفيك الودادَ وغيرُ ودّي إذا حالتْ صروفُ الدهرِ حالا
إليكَ هواي تكرمةً وبراً إذا كان الهوى قيلاً وقالا

---

١ الديوان : التفت .
٢ ورد البيت في الذخيرة ١ : ٧٦ .
٣ الديوان : إذا بلغت محالا .
٤ الديوان : أنكرته .
٥ زيادة من الديوان لاستكمال المعنى .
٦ الديوان : غماراً .

ومعذرةً تشيرُ بناتُ صدري إليكَ بها اختصاراً واحتفالا

عدا بي أن أزورَكَ صرفُ دهرٍ ألحَّ فما أطيق له احتيالا

وهمٌّ من همومي[1] لو توخَّى طريقَ الريح كان لها عقالا

إذا أغفيتُ راعَ إليَّ منه محبٌّ لا يُمَلُّ إذا أطالا[2]

يُخَضْخِضُ مدمعي ويخوضُ فيه فما يدع المصونَ ولا المذالا

ودونكها وأنت أجلُّ قدراً ولكن عادة حُذِيَتْ مثالا

فإن ضاعت لديك فأنت شمس يشبُّ تعسُّفي فيها الذبالا

وإن حظيتْ وأرجو أن ستحظى فإنَّ الشمسَ نوَّرتِ الهلالا

على خطرٍ او آنَّ الليل منه لعاد شبابُ راكبه اكتهالا

وغبَّ تعقبٍ لو كان منه فرند السيفِ ما قبِلَ الصّقالا

---

١ الديوان : هموم .

٢ هذا البيت والتالي له لم يردا في الديوان .

ومن شعره في النسيب وما يناسبه

قال [1] :

هو الهوى وقديماً كنت أحْذَرُهُ ... السقمُ مورده والموتُ مصدرُهُ
يا لوعةً أجلاً من نظرةِ أملٍ [2] ... الآن أعرفُ رشداً [3] كنتُ أنكره
جِدٌّ من الشوقِ كان الهزلُ أوَّلَهُ ... أقلُّ شيءٍ إذا فكرت أكثره
ولي حبيبٌ دنا لولا تمنُّعُهُ [4] ... وقد أقولُ نأى لولا تذكره

وله في قينة كانت تسمّى لذيذة [5] :

يا قلبُ ذُبْ من أسىً أو لا فلا تذبِ ... ما من تحبُّ وإن تحرصْ بمقتربِ
ركبتَ هول الهوى عن غيرِ تجربةٍ ... وراكبُ الهولِ محمولٌ على العطب
قد صابَ طعمُ الهوى من بعدما وضحتْ ... منه ضروبُ منىً أحلى من الضَّرَبِ
لبيتَ داعيه لما أن دعاكَ وما ... دعاك داعي الهوى إلاَّ إلى الشّجب
حتّى إذا نلتَ من تلك المنى جعلت ... تدعو عليك بطول الويل والحرب
أيا لذيذُ ولا والله مذ حجبت ... عني لعيني في اللذاتِ من أرب

---

[1] الديوان : ٢٤٠ وانظر بغية الملتمس : ١٧٥ والقلائد : ٢٧٤ والخريدة ٢ : ٥١٩ والمسالك ١١ : ٣٩٠ والمغرب ٢ : ٤٥٢ .

[2] الديوان : يا لوعة هي أحلى من جنى أمل ؛ المسالك : قربت من نظرة أجلا .

[3] الديوان : شيئاً .

[4] الديوان : وان شط المزار به .

[5] منها أبيات في الديوان : ٢٤٧ .

تركتني يا حياتي للردى غَرَضاً … تفديك أميَ من صَرْفِ الردى وأبي
يَصْلَى فؤادي سعيراً من صبابته … والعينُ في لُجَّةٍ من دمعها السَّرب
يا ربّ قد سفكتْ أمُّ الوفاءِ دمي … وقد تخوَّفتُ يوماً أنْ تؤاخذَ بي
وقد وهبتُ لها قلبي ، وما خطَري … حتى يُعاقَبَ ذاك الحسنُ من سببي
نسيت إلا تدانينا وموقفَنا … على مراقبةٍ من أعينِ الرقب
لما التقينا وقد قيل المساءُ دنا … وغابتِ الشمسُ أو كادت ولم تغب
وأضلعي بين مُنْقَدٍّ ومُنْقَصِفٍ … وأدمعي بين منهلٍّ ومنسكب
تأمّلتْنيَ أختُ المجدِ قائلةً … بمن أراكَ أسيرَ الوجد والطرب
فقلت قلبيَ مسبيٌّ وإنكِ لو … كتمتِ سِرّيَ لم أكتُمْكِ كيف سُبي
فأعرضتْ ثم قالتْ قد أسأتَ بنا … ظنّاً ، أيجملُ هذا من ذوي الأدب
فقلت إني امرؤٌ لمّا لقيتكمُ … والمرءُ وقفٌ على الأرزاءِ والنُّوَب
سَبَتْ فؤاديَ ذاتُ الخالِ قادرةً … ولا نصيبَ له منها سوى النَّصَب
أشقى بها وهي عنّي في بُلَهْنِيَةٍ … شتّانَ والله بين الجِدِّ واللعب
أصابتِ القلبَ لما أنَ رَمَتْهُ ولو … رَمَتْهُ أخرى إذنْ لاشكَّ لم تصب
فقالتِ آشكُ إليها ما لقيتَ ولا … ترهبْ فلن تبلغَ الآمالَ بالرهب
عسى هواكَ سَيُعْديها فيُنْصِبُها … وقد يكونُ الهوى أعدى من الجرب
فقلتُ أعظمها بل ما أكلّمُها … إلا أشارَ إليَّ الموتُ من كثب
قالتْ أنا أتولّى ذاك في لُطُفٍ … فقد أؤلّفُ بين الماء واللهب
فقلتُ مِثْلُكِ مَنْ يُرْجَى لمعضلةٍ … لا زلتِ في غبطةٍ ممتدَّةِ الطنب
قالت لها يا لذيذَ الحسنِ صاحبُنا … يهفو إليك وأضحى جِدَّ مكتئب
صِليهِ أو فاقتليه فالحمامُ له … خيرٌ من الجهد في جِدٍّ وفي تعب
فلو تراني قد استسلمتُ مرتقباً … منها حنانَ الرضى أو جفوةَ الغضب

حتّى إذا ما ألانتْ تلك جانبها ... والقلبُ مهما أرُمْ تسكينَهُ يَتَجِبِ
طفقتُ ألثمُ كفّيها وقد جَنَحَتْ ... إليّ تضحكُ بين العجبِ والعجبِ
ثمّ افترقنا وما ساءَتْ حفائظنا ... إذ اجتمعنا ولم نأثمْ ولم نحبِ
لله مثليَ ما أدنى سجيّتَهُ ... من المعالي وأنآها عن الريبِ
كم مأثمٍ مُستلَذٍ قد هممتُ به ... فلم يَدَعْني له ديني ولا حسبي

وله فيها أيضاً[1] :

يا حُبَّ لَذّةَ قد أدْنَفْتَ فاتئدِ ... إن كنتَ تجهد في نَقْصي فلا تزدِ
ويا لذيذةُ لا والله ما خَطَرَتْ ... بالقلبِ ذكراكِ إلاّ بتُّ في عضدِ
أتحسبينَ فؤادي عنكِ مُنْصرفاً ... وقد حللتِ محلَّ الروحِ منْ جسدي
بِنْتُمْ فخلّد عندي وَشْكُ بينكُمُ ... شوقاً نَفَى جَلَدي لا بل سَبَى خلدي
هيهاتِ يسلو فؤادي عنكمُ أبداً ... أنّى ووجدي بكم باقٍ على الأبدِ
أمَّ الوفاء لِحَيْني ما فتنتُ بكم ... والناسُ قد فُتنوا بالمالِ والولدِ
الله يعلمُ أنّي مذ عرفتكمُ ... لم يخلُ قلبيَ من خَبْلٍ ومن كَبَدِ
ولا اتّكالَ لعيني بعد فُرْقتكمْ ... إلا على مفنييها : الدمعِ والسُّهُدِ
ترى جفونكِ أرضاها الذي صَنعتْ ... بي أنها نَفَثَتْ بالسحر في العقدِ
أتتركُ الناسَ صَرْعَى لا حراكَ بهم ... ولا سبيلَ إلى عَقْلٍ ولا قَوَدِ
من كان يَفْظُعُ طعمُ الموتِ في فمه ... فإنّه في فمي أحلى من الشهدِ
فإن سقميَ أضحى ما له أمَدٌ ... والموتُ أرْوَحُ من سُقْمٍ بلا أمدِ
بما بلحظكِ من غُنْجٍ ومن حَوَرٍ ... وما بِعطفِكِ من عَطْفٍ ومن أوَدِ
حِنّي على هائمٍ بالحبِّ مختَبَلٍ ... بالشوقِ مرتهنٍ بالحزنِ منفردِ

---

[1] منها أبيات في الديوان : ٢٤٨ .

أضحى أسيرَ صدودٍ بل قتيلَ نوىً ... رَمَتْهُ منها بسهمٍ عنه لم يَحِدِ
يخشى على حُبِّك الحسّادَ تفضحه ... فما يبوحُ به يوماً إلى أحد
وإن بكى فبدا لعاذليه فعن ... غير اختيارٍ ولكن عادةُ **الكمد**
أما كفى حزناً أن قد ظمئتُ وقد ... عاينتُ عَذْبَ الحيا يجري على البرد
قد أرْهِفَتْ دونه سيفان من دعجٍ ... بلحظ أحوى رهيفِ القدّ ذي غَيَد
ورِدٌ **شهي** حماه الموتُ مُنصلتاً ... فظلتُ حيرانَ لم أصْدُرْ ولم أرد
وما عجوزٌ لها ابنٌ واحدٌ بَصُرَتْ ... به يخوضُ الردى في ملتقىً كبد
يوماً بأجزعَ منّي يومَ قولهمُ ... أصخْ لداعي تنائينا غداةَ غد
أضحت على الأجُدِ الأقوادِ باكيةً ... فلم يَنَلْ أحدٌ ما نلتُ في الأحدِ
لقيتُ فَعْلَةَ واللذاتُ قد زُهِيَتْ ... بنا وقد مات صرفُ الدهر من حسد
غنَّتْ فلو أنَّ ميتاً كان يَسْمَعُها ... لعاد حيّاً كأنْ لم يَرْدَ يوم رَدِي
فهل يسكِّنُ عذّالي وإن جهدوا ... ما حرّكتْ حَرَكُ الأوتار في كبدي
يا لذّ مالكِ في قتلي بلا سببٍ ... وأنت سؤليَ في قُرْبٍ وفي بُعُد
رفقاً بقلبيَ يا قلبي فإنكِ قد ... أسْكِنْتِ حيثُ الأسى في اللّبِّ والخلد
لم تنطقي قطُّ إلا ظلتُ أفرقُ مِنْ ... أنْ أسْتَطارَ فلم أبدىء ولم أعِدِ
ولا مَدَدْتِ يداً للعودِ عامدةً ... إلاّ وضعتُ عليه أن يذوبَ يدي

وله فيها أيضاً[1] :

النومُ بعدكمُ عليَّ محرَّمُ ... من ذا ينامُ وقلبُهُ يتضرَّمُ
ماءُ الحياةِ وقد نأيتمْ آسنٌ ... رَنْقٌ ووجهُ الدهرِ جَهْمٌ مظلم
قد بانَ عنّي الصبرُ لما بنتمُ ... والوجدُ يُنْجِدُ في الفؤاد ويتهم

---

١ منها أربعة أبيات في الديوان : ٢٤٧ .

أجْرَيْتمُ دمعي دماً لفراقكمْ ظلماً وقلتمْ ما له لا يكتم
ما كانَ أكتمَني لسرِّيَ قبلَ أن تكيفَ الدموع كأنّما هي عندم
فإذا شهدتُ جماعةً واعتادني تذكاركُم فاضتْ دموعي تسجم
فبحقكم من ذا يعاينُ أدمعي تنهلُّ إلا قال هذا مغرم
حمّلتموني ثقلَ بينكمُ ألم تتبينوا ألمَ الحنين فترحموا
عاقبتموني في الهوى بذنوبكم لقد استطلتم إذ قدَرْتُم فاعلموا
أتظلّمونَ وتظلمونَ محبّكم ومن العجائبِ ظالمٌ متظلّم
أعتبتمُ فعتبتمُ وأطعتمُ فعصيتمُ ووصلتمُ فهجرتمُ
قد كان لي في هجركم لو أنني أقوى عليه من السلامةِ سُلَّم
ولقد علمتم أنني قد رُمْتُهُ فضعفتُ عنه فافعلوا ما شئتم
أنتمْ منايَ وفيتمُ أو خنتمُ ولكم هواي دنوتمُ أو بنتمُ
يا حبذا أمّ الوفاءِ وإن جفتْ وتغيّرتْ فهي التي لا تسأم
وهي التي انفردت بودّي كلّه ولطالما قد كان وهو مقسَّم

ومن شعره في المديح

له في محمد بن عيسى الحضرمي[1] :

عتابٌ على الدنيا وقلَّ عتابُ رضينا بما ترضى ونحن غضابُ
وقالتْ وأصغينا إلى زورِ قولها وقد يستفزُّ القولُ وهو كذاب
وغمّتْ[2] على أبصارنا وقلوبنا فطال عليها الحومُ وهي سراب

....

١ الديوان : ٨ .

٢ الديوان : وغطت .

ودانتْ لها أفواهنا وعقوبُنا … وهل عندها إلا الفناءُ ثواب

وتلك لعمرُ الله أمّا ركوبها … فَهُلْكٌ وأما حكمها فغلاب

نلذُّ ونلهو والأعزّةُ حولنا … رفاتٌ ونبلى والديارُ خراب

وتخدعنا عمّا يراد بنا منىً … لبحر المنايا دونهنّ عباب

ونغتنم الأيام وهي مصائب … لهنّ علينا جيئةٌ وذهاب

بكت هندُ من ضحكِ المشيبِ بمفرقي … أمّا علمتْ أنّ الشبابَ خضاب

وقالت غبارٌ ما أرى وتجاهلتْ … وليس على وجه النهار نقاب

هل الشيبُ إلا الرشدُ جلّى غوايتي … فأصبحتُ لا يَخفَى عليّ صواب

وأصبح شيطاني يعضُّ بنانَهُ … وقد لاح دوني للقتير شهاب

أأغفو لصرف الدهر عن هفواتِهِ … على حين لا يأبى[1] عليّ عقاب

وأتركه يمضي على غُلَوائه … وقد عزّ[2] إعتابٌ وطال عتاب

برئتُ من العلياء إنْ لم أردَّهُ … ولي ظُفُرٌ قد عاث فيه وناب

وإن لم أنَهْنِهْهُ من شَباهُ بعزمةٍ … تذلّ لها الأشياءُ وهي صعاب

وقائلة ما بال حمصَ نَبَتْ به … وربّ سؤالٍ ليس عنه جواب

نَبَتْ بي فكنتُ العُرْفَ في غيرِ أهلِهِ … يعودُ على مُوليهِ وهو تباب

وتالله ما استوطنتُها قانعاً بها … ولكنني سيفٌ حواه قِراب

أيُغْضِبُ حُسّادي قيامي إلى العلا … وقد قعدوا عما ظفرتُ وخابوا

همُ حسدوني لا لوفرٍ وَفَرْتُهُ … ولكن شهدتُ المكرماتِ وغابوا[3]

وأروع لا ينأى على عزَماتِهِ … مَرامٌ ولا يُخْفي سناه حجاب

---

١ الديوان : يأتي .

٢ الديوان : قل .

٣ لم يرد هذا البيت في الديوان .

من الحضرميين الأولى أحرزوا العلا بَنَوا فأطالوا أو رَمَوْا فأصابوا
من المانعين الدهرَ حَوْزَةَ جارِهم وأشلاؤه بين الخطوب نِهاب
همُ عَرَضوا دون المعالي فأصبحتْ مطالبَ لا يدنو بهنّ طلاب
وهم جأجأوا[1] بالمعتفين إلى ندىً هو القَطْرُ لا يأتي عليه حساب
مضوا إن تَسُمْهُم خطّة الضيم يأنفوا وإنْ يَدْعُهم داعي السماحِ أنابوا[2]
سجايا على مَرِّ الليالي كأنّما هي المزنُ فيه رحمةٌ وعذاب
تخوّفني ريبَ[3] الزمانِ وقد حَدَتْ برحلي إلى ابن الحضرميّ ركاب
إذا الله سنّى لي لقاءَ محمّدٍ تفتّح دوني للسماحةِ باب
فتىً لم تسافرْ عنه آمالُ آملٍ وكان لها إلاّ إليه إياب
ولا ظمئ العلم المضيّعُ أهلُهُ فساغ له إلا لديه شراب
له هممٌ في الجود والبأس لم تزل[4] لها فوق أثباجِ النجوم قباب
وأقسمُ لولا ما لَهُ من مآثرٍ لأصبح ربعُ المجد وهو يباب
مآثرُ هنّ المجدُ لا كسبُ درهمٍ وهنّ المعالي لا حليّ وثياب
يغيظ العدا منه أغرُّ حُلاحِلٌ أشمُّ طُوالُ الساعدين لباب
ولا عيبَ فيه لامرىءٍ غيرَ أنّه تعابُ له الدنيا وليس يعاب
هو الأسد الوردُ الذي طال ذكرُهُ وليس له إلا البسالةُ غاب
تبوّأ من دارِ الخلافةِ مقعداً له فيه عن حُكْمِ القضاء مناب
وباهتْ به منذ استقلّ بأمرها كما تتهادى للجلاء كَعاب

---

١ الديوان : جنحوا .
٢ لم يرد في الديوان .
٣ الديوان : صرف .
٤ الديوان : والبأس والندى .

سلِ الدينَ والدنيا هل ابتهجا به كما انجاب من ضوءِ النهارِ ضباب
نضاه أميرُ المسلمين[1] مهنّداً له الحلمُ متْنٌ والمضاءُ ذباب
له المثلُ الأعلى مَعاداً ومبدءاً وللحاسدِ العاوي حصًى وتراب
ألانتْ لكَ الأشياءَ وهي صليبةٌ عزائمُ في ذاتِ الإله صِلاب
إليك أبيَاتاً من الشعر صُغْتُها[2] بودِّيَ لو أني بهنَّ كتاب
فإن تَتَقبَّلْها فتلك طويّتي[3] فيا من رأى خطباً ثناه خطاب
وهل أنا إلا الروضُ حيَّاك عَرْفُهُ وقد باكَرَتْهُ من نداكَ سحاب
ومن يُثْنِ بالصنع الجميل فإنّهُ شكورٌ ولا مثلَ المزيد ثواب
وهل أنا إلا عبدُ أنْعُمِكَ التي هي الشهدُ إذ كلُّ الموارِدِ صاب
وهل شهد المجدُ الذي أنت سرُّهُ بأنّكَ بحرٌ والكرامُ شعاب[4]
وها أنا يا رضوانُ باسمكَ هاتفٌ فهل لي إلى دار المقامةِ باب
وهل يُدْرِكُ الحسّادُ غورَكَ في العلا وإنْ طال مكرٌ منهمُ وخلاب
إذا قايسوكَ[5] المجدَ كنتَ غضنفراً إذا زار لم تَثْبُتْ عليه ذئاب
وما احمرَّ إلا من صيالك مَعْرَكٌ ولا اخضرَّ إلا من نداك يباب

وقال أيضاً يمدح ذا الوزارتين أبا جعفر بن أبيّ رحمه الله[6] :

فؤادٌ على حُكْمِ الهوى لا على حكمي يهيمُ على إثر البخيلة أو يهمي

---

١ الديوان : المؤمنين .
٢ الديوان : قلتها .
٣ الديوان : وتلك مطيّتي .
٤ الديوان : سراب .
٥ الديوان : نافسوك .
٦ انظر الديوان : ١٧٥ .

متى أشتفي من لوعتي أو أطيقها ... إذا كان يجنيها فؤادي على جسمي
هنيئاً لسلمى فرطُ شوقي وأنني ... ذكرتُ اسمها يوم النوى ونسيت اسمي
غداةَ وقفنا نقسمُ الشوقَ بيننا ... على ما اشترطنا وارتضت سُنّةَ القسم
وقد طلعتْ تلك الهوادجُ أنجماً ... تركنَ جفوني في الكرى أسوةَ النجم
فأبْتُ بدمعي لؤلؤاً فوق نحرها ... وآبت بما في مقلتيها من السقم
خليليَّ هل بعد المشيبِ تَعِلَّةٌ ... لذي الجهل أو في الحبّ شغلٌ لذي الحلم
وهل راجعٌ عيشٌ لبسناه آنفاً ... كيومِ يزيدٍ في بيوت بني جَرْم[1]
وهل ليَ حظٌّ من مواتاةِ صاحبٍ ... له قدرةُ القاضي وموجدةُ الخصم
بَدَتْ رقةُ الشكوى على غضباته[2] ... ورابتك في أعطافه قسوةُ الظلم
كما اضطرب الخطّيُّ في حومةِ الوغى ... وَصُمٌّ المنايا في أنابيبه الصم
رماني على فَوْتِ الشباب وإنما ... تعرَّضَ لي لما رآنيَ لا أرمي
ولم يدرِ أني لو أشاءُ ختَلْتُهُ ... على رِسْلِهِ إن الحبالةَ كالسهم
ووكّلَ عينيه باتلافِ مهجتي ... سيعلمُ إن لم يستجرْ بي من الغُرم
أبا جعفر هذي المكارمُ والعلا ... دعاء بحقٍّ وادعاء على علم
أرى الناسَ قد باعوا المرّواتِ فاشترِ ... وقد ضيَّعوا ما كان من حسبٍ فاحم
وأنت أحقُّ الناسِ بالحزم فأتهِ ... وصونُ العلا بالمالِ أشبَهُ بالحزم
وأنت بعيدُ الهمّ مقتربُ الجدَا ... كريمُ السجايا ماجدُ الخالِ والعمّ
أبيّ إذا لم يدفعِ الضيمَ دافعٌ ... بغيرِ الحديث الإفكِ والحلِفِ الإثم
وأكرمُ مَنْ يُرْجَى لدفعِ ملمّةٍ ... إذا الطفلُ لم يسكنْ إلى لُطفِ الأمّ

---

١ يعني يزيد بن الطثرية وقد دخل حي بني جرم وانصرف من عند النساء مدهوناً مثقلا بالهدايا (الأغاني ٨ : ١٥٨ : ١٦١)

٢ الديوان : حركاته .

وأهفى بألبابِ الرجالِ من الهوى وأخفى وراءَ الحادثاتِ منَ الوهم

وأحمى لحوزاتِ المعالي من الردى وأسخى بآمالِ النفوس من الحلم

وذو عزَمات لو تُساوى بها الرُبى لطأطأها بين المذلَّة والرغم

ولم أر أحيا منك وجهاً ولا يداً إذا استأثر الحرُّ المرمَّقُ بالطعم

وأصبر في ظلماءِ كلِّ كريهةٍ بحيثُ يكونُ الصبر أفرج للغم

إذا الخيلُ غامتْ في النجيع وألجمت بِسُمْرِ العوالي وهي تَطْغَى على اللاجم

ولم تر إلاّ عاثراً بدمائهِ يحاذرُ كَلْماً أو يدافعُ عن كلم

ولا حصنَ إلا السيفُ في يد ماجدٍ يرى الموت دون المجدِ غُنْماً من الغنم

هنالك حدّثْ عن أبيّ وأحمدِ [1] وعبد المليك الشمِّ في الرُّتَبِ الشم

تسمَّيت بالفضلِ الذي أنت أهله ومعناه ، والمذموم [2] أجدرُ بالذمّ

وألْبِسْتَ من مَثْنَى الوزارةِ حلةً تقومُ لها تلك المآثرُ بالرقم

وتَنْميك من سعدِ العشيرةِ أسرةٌ هل الفخرُ إلا ما نَمَتْهُ وما تَنْمي

بهاليلُ أبطالٌ جحاجحُ سادةٌ كأسْدِ الشَّرى في الحرب كالمزن في السلم

إذا ركبوا الجرد الجياد إلى الوغى رأيت الأسود الضارياتِ على العصم

سيأتيك شعري ذاهباً كلَّ مذهب على شَيَهِمْ من خطةٍ أو على شهم

جزاءً بنُعماك الجزيلةِ إنني تكرَّمْتُ عن شَيْنِ الصنيعة بالكتم

فكم لك عندي من يدٍ ملأتْ يدي ومن نعمةٍ أولى بشعريَ من نُعم

هنيئاً لك العيدُ الذي أنت عيدُهُ وعيدٌ لما حاكوا من النثر والنظم

نأى الحجرُ الملثومُ فيه فأحْظِني بيمناك واجعل لي سبيلاً إلى اللثم .

---

١ الديوان : وجعفر .

٢ س : إن الذم .

وقال أيضاً يمدح الوزير أبا العلاء بن زهر[1] :

يفديك كلُّ جبانٍ في ثياب جري ... نازعتَهُ الوِرْد واستأثرت بالصّدرِ

لما رأى الخُبْر شيئاً ليس يُنكره ... أحال بالدين والدنيا على الأثر

ولّ السُّهى ما تولّى من تكذّبه ... إن المزيّة عند الناس للقمر

وهي الشّفارُ إذا الإقدام جرّدها ... ألْوتْ بما يدّعيه العُشْيُ للشفر[2]

والناسُ كالناسِ إلا أن تجرّبَهُمْ ... وللبصيرة حكمٌ ليس للبصر

كالأيْكِ مشتبهاتٌ في منابتها ... وإنّما يقعُ التفضيل بالثمر

ولّى رجالٌ غضاباً حين سُدْتهُمُ ... لا ذنب للخيل إذ لا عُذْرَ للحمر

واستشرفوا كلما أحرزت طائلةً ... وللستان مجالٌ ليس للابر

طولوا وإلا فكفُّوا من تطاولكم ... إن المآثر أعوانٌ على الأثر

مللتُ حمص وملّتْني فلو نَطَقَتْ ... كما نطقتُ تلاحَيْنَا على صدر[3]

وسوّلتْ ليَ نفسي أن أفارقها ... والماء في المزن أصفى منه في الغُدُر

هيهات بل ربما جنى الرحيلُ غنىً ... بالمالِ أجني به رغداً[4] من العمر

كم ساهرٍ يستطيلُ الليل من دنفٍ ... لم يدرِ أنّ الردى آتٍ مع السحر

أمّا اشتفتْ منّيَ الأيامُ في وطني ... حتى تضايق في ما عنّ من وطر

ولا قضتْ من سواد العين حاجتها ... حتى تكرّ على ما ظلّ[5] في الشعر

....

١ الديوان : ٤٨ وبعضها في المسالك والنفح والوافي والمغرب والشريشي ١ : ١١٠ وطراز المجالس : ١٢٤ ورفع الحجب ١ : ١٤٠ والذخيرة ١ : ٣١٢ .

٢ الديوان : العين للسهر .

٣ هذا البيت والذي يليه في الرايات : ٩٠ (غ) .

٤ الديوان : أحيي به فقراً .

٥ الديوان : كان .

كم ليلةٍ جُبْتُ مَثْنى طولها بفتىً ... شتّى المسالك بين النفع والضرر

حتّى بدا ذنَبُ السرحانِ لي وله ... كأنّما هو زنْدٌ بالصباح يَري

في فتيةٍ يَنْهبون الليل عزمَهمُ ... فليس يطرقُهُمْ إلا على حذر

لا يَرْحَضون دجاه كلما اعتكرتْ ... إلا بمالٍ ضياعٍ أو دمٍ هدَر

لهم همومٌ تكاد العيسُ تعرفها ... وربّما اشتملت بالحادث النُّكُر

باتتْ تخطّى النجوم الزُّهر صاعدةً ... كأنّما تفتليها عن بني زُهُر

القائلين اقدمي والأرضُ قد رجَفَتْ ... إلا ربيٌّ من بقايا البيض والسمر

والهامُ تحت الظُّبا والبيضُ قد حميتْ ... فما تَطَايَرُ إلاَّ وهي كالشرر

أثناء كلِّ سنانٍ عُدَّ[1] في زردٍ ... كأنه جدولٌ أفضى إلى نهر

والخيلُ شُعْثُ النواصي فوقها بهمٌ ... حُمْسُ العزائمِ والأخلاقِ والمرر

شابتْ من النقعِ وارتاب الشبابُ بها ... فَغُيِّرتْ من دم الأبطال بالشَّقَر

والشيبُ مما أظنُّ الدهرَ صحّفَهُ ... معنىً من النقص عمّاه عن البشر

لو يعلمُ الأفقُ أنّ الشيب منقصةٌ ... لم تَسْرِ أنجمه فيه ولم تَسرِ

وليس للمرء بعد الشيب مُقْتَبَلٌ ... نهايةُ الروضِ أن يعتمّ بالزَّهر

أما ترى العرمس الوجناء كيف شكَتْ ... طول السِّفارِ ولم تعجزْ ولم تخر

تسري ولو أنّ جَوْن الليلِ معركةٌ ... ترى الرَّدى كاشراً فيها عن الظُّفُر

باتت توجّى وقد لانتْ مواطئها ... كأنّها إنما تخطو على الإبر

تخشى الزمام فتثني جيدها فَرَقاً ... كأنّه بين ثني[2] حيةٍ ذكر[3]

من كلِّ ناجيةِ الآصال قد فصلَتْ ... منَ الرَّدى فحسبناها من البكر

---

١ الديوان : عل .

٢ الديوان : من تثني .

٤ الديوان : الآمال .

٣ مر قبلا ص : ٦٢٧ .

بهيمةٌ لو تُوَفّى كُنْهَ شرّتها[1] لفاتتِ الخيلَ في الأحجالِ والغُرَرِ
تجري فللماءِ ساقا عائمٍ دَرِبٍ وللرياح جناحا طائرٍ حذر[2]
قد قسّمتها يدُ التقدير بينهما على السَّواءِ فلم تسبحْ ولم تطر
أما إياد فنالتْ كلَّ مكرمةٍ لولا مكانُ رسولِ الله من مضر
وأوقدوا ونجومُ الليلِ قد خَمَدَتْ في لجٍّ طامٍ مِنَ الصِنَّبْرِ معتكر
ألقى المراسيَ والتجتْ غياطِلُهُ على ذكاء فلم تطلعْ ولم تَغُرِ
وأترع الوهدَ من إزباد لجّتِهِ بالبرسِ يلبثُ بين القوسِ والوتر
فالأرضُ ملساءُ لا أمْتٌ ولا عوجٌ كنقطةٍ من سرابِ القاعِ لم تَمُرِ
أفادني حُبُّكَ الإبداعَ مكتهلاً وربما نفع التعليمُ في الكبر
إذا رميتُ القوافي في فرائصها لم أرْمِهَا مُتْلِجاً كفيَّ في قُتَرِ[3]
أين ابنُ بابكَ أو مهيارُ من مِدَحٍ نَسَقْتُها فيكَ نَسْقَ الأنجم الزهر[4]
أشدو فَيُلْقي ابنُ حُجْرٍ بالمقالد لي والدهر يعلمُ أن الدرَّ للحجر
أبا العلاء وحسبي أن تُصيخَ لها إقرارَ جانٍ وإن شئت اعتذارَ بري
أنا الذي أجتني الحرمانَ من أدبي إنَّ النواظرَ قد تؤتَى منَ النظر

وله في القاضي ابن حمدين رحمهما الله يستعينه ويستعطفه[5] :

---

١ س : اثرتها .

٢ الديوان : ذكر .

٣. اشارة إلى قول امرىء القيس (ديوانه : ١٢٣) :

رب رام من بني ثعل متلج كفيه في قتره

وأتلج الكفين : أدخلهما ، والقترة : بيت الصائد الذي يكمن فيه .

٤ ابن بابك : أبو القاسم عبد الصمد بن منصور من شعراء اليتيمة ؛ ومهيار الديلمي تلميذ الشريف الرضي (تاريخ بغداد ١٢ : ٢٧٦)

٥ الديوان : ٤ .

أغَمْزُ جفونٍ [1] وانكسارُ حواجبِ   أم البرقُ في جُنْحٍ من الليل راتبِ
سرى وسرى طيفُ الخيالِ كلاهما   يودُّ لو آنَّ الليلَ ضربةُ لازب
وفي مضجعي أخفى على الليلِ [2] منهما   وأثْقَبُ في أجوازِ تلك الغياهب
لقىً غير نفسٍ حُرَّةٍ نازعت به   نجومَ الدُّجى ما بين سارٍ وسارب
مُعَوَّدَةٌ ألاَّ تطبق روعةٌ   بها مذهباً . والموتُ شتَّى المذاهب
إليكَ ابنَ حمدينٍ وإن بَعُدَ المدى   وإن عَزَبَتْ بي عنك إحدى العوازب [3]
صُبابة ودٍّ لم يكدِّرْ جمامَهُ   مرورُ الليالي وازدحامُ الشوائب
وذكرى عساها أن تكونَ مهزّةً   تردُّ على أعقابِهِ كلَّ شاغب
بآيةِ ما كان الهوى متقارباً   وخطويَ فيه ليس بالمتقارب
أمُخْلِفَةٌ تلك الرسائل بعدما   شددنا قواها بالنجوم الثواقب
وكم غدوةٍ لي في رضاك وروحةٍ   على مَنْهجٍ من سُنَّةِ البّر لاحب
لياليَ لم تمشِ الأخابثُ [4] بيننا   بما كاد يستهوي حلومَ الأطايب
ولم يزحفوا في نقضِ ما كان بيننا   بصُيَّابةٍ ينمونها وأشائب
وأيامَ لم يجنِ الدلالُ على الهوى   هناتٍ جنت عتباً على غير عاتب
أفالآن لما كنت أحكمَ قادرٍ [5]   وسرَّك أني جئتُ أصدقَ تائب
ولم تبقَ إلا نزعةٌ ترتقي بها   شياطينُ تخشى القذفَ من كلِّ جانب
أضَعْتَ حقوقي أو حقوقَ مودتي   فدونكها أعجوبةً في الأعاجب

---

١ الديوان : عيون .
٢ الديوان : على العين .
٣ الديوان : غربت . . . الغوارب .
٤ الديوان : الأخابيث .
٥ الديوان : قاصد .

وفجّعتَ بي حياً نوادبَ كلما ... تذكّرني أسعدنَ غيرَ نوادب

وقال العدا ليلُ الحمول أجنّهُ ... على رِسْلِهِم إني عياضُ بن ناشب

وأصبحتُ لا يرتاعُ من خوف سطوتي ... عدوّي ولا يرجو غَنائيَ صاحبي

ولا تتباهى بي صدورُ مجالسٍ ... أسرّكُ فيها أو صدورُ مواكب

وما تتلاقاني [1] العفاةُ كأنّما ... أهابوا بمنهلّ من الغيث ساكب

ولا أمتري أخلافَ كلِّ مشيئةٍ [2] ... بأيدي صبا من عزمتي وجنائب

أعاتبُ إدلالاً وأعتبُ طاعةً ... وحسبك بي من مُعْتِبٍ أو معاتب

أبوءُ بذنبي ليس شعري بمقتضٍ ... علاك ولو قَفَّيْتُهُ بالكواكب

ولكنه ما أستطيعُ وعوذةٌ ... لفضلك إلاّ تَمْحُ ذنبي تقارب

ويجحدك الحسّادُ أنك سُدْتَهُم ... على شاهدٍ مما انتحيتَ وغائب

وقد وقفوا دون المدى غيرَ خلوةٍ ... بأنفسهم أو بالظنون الكواذب

غضاباً على من ناكر الدهرَ بينهم ... وقد عرفوه بين راضٍ وغاضب

سراعاً إلى الدينار حيث بدا لهم ... ولو أنّه بين الظبا والضوارب

إذا المرءُ لم يكسب سوى المالِ وحده ... فألأمُ مكسوبٍ لألأمِ كاسب

عجبتُ لمن لم يقدر التربَ قدره ... وقد تاهَ في نقد النجوم الثواقب

ومن لم يوطّنْ للنوائبِ نفسَهُ ... وقد لجّ في تعريضها للنوائب

أعِدْ نظرةً فيهم وفي حُرُماتهم ... وإن لم يعيدوا نظرةً في العواقب

وكُنْ بهمُ أدنى إلى الرشدِ منهمُ ... تكنْ هذه إحدى عُلاكَ العجائب

لعلّهمُ والدهرُ شتّى صروفُهُ ... ومجدك أَوْلَى بارتقاء المراتب

قد انصرفتْ تلك الهمومُ لواغباً ... إلى المقصد الأدنى وغيرَ لواغب

---

١ الديوان : ولا تتلقاني .

٢ الديوان : مرنة .

وثابتْ حلومٌ ربما زال يذبلٌ ... وزال سُهَيْلٌ وهي غير ثوائب

وأيقن قومٌ أنها هي ترتمي ... بهم بين مجنوبٍ إليك وجانب

وألقوا بأيدٍ صاغرين وأخلصوا ... ضمائرَ مكذوبي المنى والتجارب

وأهونُ مغلوبٍ على أمرِ نفسه ... من الناس من لا يتّقي بأس غالب

إليك ابنَ حمدينٍ نصيحةَ مشفقٍ ... تنخّلها أثناء تلك الغرائب[1]

برغمي ورغم المكرمات تقضّبَتْ ... حبالٌ بأيدي الحادثاتِ القواضب

ورغمَ رجالٍ علّمتهم ذنوبُهُمْ ... حِذارَ الأعادي واحتقارَ المصائب

قضوا نحبهم إلا أسىً غيرَ نافعٍ ... على ذاهبٍ من أمرهم غيرِ ذاهب

يلوذون منه بالخضوعِ مُردَّداً ... إذا عزّهم فيضٌ الدموع السواكب

فإن تنتصفْ منهمْ فأعذرُ آخذٍ ... وإن تتداركهمْ فأكرمُ صاحب

ومن شعره ، في التأبين . قصيد له يعزّي ابن مرتين ، أوله[2] :

على مثله فلتبكِ إن كنت باكيا ... فقد عهد الأحبابُ ألاّ تلاقيا

وقد أجمعوها آخرَ الدهرِ رحلةً ... يذمُّ إليها العيسَ من كان ثاويا

سفار تداعوا من نواهم بطيّةٍ ... تساقَوْا بكأسيها الفراقَ تساقيا

أفي كلِّ يومٍ أودع الأرضَ صاحباً ... أريقُ به في التربِ ماءَ شبابيا

وأحسبُ أنّي لو غدوتُ مكانَهُ ... لعزَّ عليه أنَّ أكونَ مكانيا

ولو أنّني أحببتُهُ الحبَّ كلَّهُ ... لأتْبَعْتُهُ نفسي وأهلي وماليا

وقلَّ غناءً عنه إسبالُ عبرةٍ ... إذا ابتدرت كفكفتها بردائيا

وعدِّي له الأيام لا أنا واهمٌ ... ولا أنا ثانٍ من عنان رجائيا[3]

---

[1] الديوان : النوائب .

[2] لم ترد هذه القصيدة في الديوان .

[3] قراءة تقديرية غير دقيقة للبيت كله .

وحفظي له بالغيب حتّى كأنّه | بحيثُ أزاه أو بحيث يرانيا
وقوليَ لا تبعدْ وقد حال دونه | كثيبٌ تهاداه الرياحُ تهاديا
خليليَّ قد أفنيتُ سهدي وأدمعي | وعيني فما لي لا أرى الوجدَ فانيا
خليليّ مَنْ يطمعْ بشيء فإنني | نفضتُ به لا بل نقضتُ فؤاديا
وليست حياتي غير شجو مردَّد | عهدتُ له ألاَّ ألذَّ حياتيا
صلاةٌ ورضوانٌ ورَوْحٌ ورحمةٌ | وكلُّ سحابٍ لا أخصُّ الغواديا
على الجدث المحبوب خالط تربه | سنا البدر تماً أو شذا المسكِ ذاكيا
على جدث ما ضرَّ إنسانَ مقلتي | وقد بان عنها لو غدا فيه ثاويا
طوى الحسنَ والإحسانَ والدينَ والحجى | وبيضَ الأيادي يكتنفن الأياديا
وشخصاً لو آن الفضل أعطيَ حكمَهُ | لكان له مما هنالك واقيا
من الحفرات البيض ما انفكَّ دونها | مرامٌ تحاماه الخطوب تحاميا
أتت دونها الآمالُ مختومةً فما | تَحدَّثُ عنها الشهب الا تناجيا
تخطّى إلينا يومُها كلَّ شائحٍ | يكفلُكُ غضباناً ويكفيك راضيا
على كلِّ طاوٍ طالما جشم الورى | كفيلاً بأن لا يصبحَ الموتُ طاويا
من اللائي يدعون الردى أو لحينه | عوادي يحملن الأسود عواديا
إذا أقبلوها الروعَ خلت رقابها | عوالي مما يتّبعنَ العواليا
حصونٌ لو آن الرزقَ معتصمٌ بها | لأعياكَ إلا أن تَمَنَّى الأمانيا
أمصغية حيٍّ تبثك شجوها | حوائم لم تعهد كواديه واديا
إذا استشعرتْ ذكراك أنهبت الأسى | عيوناً رواءً أو قلوباً صواديا
وملآن من عطفٍ عليك ورقَّةٍ | غدا منك مأهولاً وإن كان خاليا
يراك بعَيْنَيْ شوقِه وادّكاره | فيا دانياً هلا كما كنت دانيا
تَهيجُ له ذكراكِ أنّةَ ضائعٍ | فتضنيه مدعواً وتعنيه داعيا

عزاءً بني مرتين ما أحسب الأسى ... لذي اللبّ إلا آسياً أو مؤاسيا

أبتْ هذه الأيامُ إلاّ طباعها ... وإن هي دارتكمْ هوىً أو تداهيا

وقد أمكنتكمْ وهي خُونٌ غوادرٌ ... فإن شئتمُ لم تتركوها كما هيا

إليك عبيدَ الله والبعدُ بيننا ... هوىً بات يرمي بي إليكَ المراميا

ولبيك قد أسمعتني وإنِ التوَتْ ... بعزمي همومٌ لا تجيب المناديا

ولا بدّ من أن أنتحيك بهذه ... خليلاً صفياً أو عدوّاً مداجيا

أبثُّكَ حالي لا لأنَّك جاهلٌ ... بحالي ولكنْ ربما كنتَ ناسيا

وأدْلي بعذري ثم رأيَكَ بعدها ... أميراً ومأموراً وخصماً وقاضيا

صَدَقْتُكَ عن نفسي على القرب والنوى ... وقلتُ لعلّي أو لعلّ اللياليا

وكنتُ قديماً [قد] أعرّض بالهوى ... لتدنو فما تزدادُ إلا تنائيا

وإني لأستحييكَ من حيثُ بعتني ... رخيصاً على أنّي اشتريتكَ غاليا

وما كنتُ أخشى أن أبيتَ بليلةٍ ... من الدهر لا أهدي إليك القوافيا

ولكنَّها لما استُخِفَّتْ مدائحاً ... حذرت عليها أن تضيع مراثيا

وكنت أراني ربما اسودّ موضعي ... يسيراً فما ظني به اليوم قانيا

فان يَرُعِ الأحبابَ طولُ تململي ... فاني سليمٌ لم أجدْ ليَ راقيا

وان يطْمعِ الأعداءَ فرطُ تذللي ... فحاشاك معزولاً وعتباك واليا

ووالله ما بي أن تضيع مودّتي ... لديك ولكن أن يضيعَ وفائيا

وما لَوّتِ الأيام دَيْني لعلّةٍ ... ولكن لعلّي قد أسأتُ التقاضيا

عزاءك قد أبلغتُ نفسيَ عذرها ... ودهرك غدّار فما لك واقيا

أرى هذه تفنى ويفنى متاعُها ... ويأبى عليها الناسُ إلا تفانيا

ويأبى معز الشيء إلا ارتجاعَهُ   فيا أدعياء السَّرْوِ ردّوا العواريا
تساوى الورى قبلَ الحياةِ وبعدها   فما بالُ قومٍ ينكرون التساويا
وقال الفتى أهلي ومالي ضَلَّةً   وأين به عن نسبتيّ[1] وماليا

الوزير الكاتب أبو بكر عبد العزيز بن سعيد البطليوسي[2]

أحد فرسانِ الكلوم والكلام ، وحملةِ السيوفِ والأقلام ، من أسرةِ أصالة ، وبيت جلالة ، أخذوا العلم أوّلاً عن آخر ، ورووه كابراً عن كابر ، ولله درّه فانه ، وأخويه أبا محمد طلحة وأبا الحسن محمداً ، منتهى قولِ

....

١ س : منشي .

١ هو أحد ثلاثة أخوة يعرفون ببني القبطرنة (أو القبطورنة أو القبطورنية) والأرجح أن هذه التسمية مركبة من كلمتين هما caput وتعني رأس و torno بمعنى مستدير ، فيكون معناها : « ذو الرأس المستدير » (انظر وثائق تاريخية جديدة للدكتور محمود مكي ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ٧ : ١١٧ الحاشية رقم: ٣) . وهؤلاء الاخوة الثلاثة هم أبو بكر عبد العزيز وأبو محمد طلحة وأبو الحسن محمد .

أما أبو بكر عبد العزيز بن سعيد فقد كان من جلة الأدباء ورؤسائهم، كاتباً مترسلا، كتب للمتوكل ابن الأفطس ثم لابن تاشفين من بعده وتوفي بعد ٥٢٠ وذكر مؤلف إحكام صنعة الكلام (١٣٧) أن أبا بكر كان من رؤساء العصر في صنعة النظم والنثر ، وأنه كانت بينهما مراسلة سنة ٥٠٧ أورد ذكرها في كتابه « ثمرة الأدب » . (وانظر التكملة رقم : ١٧٤٣ ورسالة له في الريحان ١ : ٩٢ب) .

وأما أبو محمد طلحة بن سعيد فقد أخذ عن مشيخة بلده ، وكان أحد الأدباء الأذكياء وكان صديقاً لأبي بكر بن العربي وتوفي في حياة أخيه أبي بكر (التكملة: ٢٣٧) وكان لأخيهما محمد بن سعيد مكانة مشابهة ، إذ كتب أيضاً للمتوكل ابن الأفطس ، ولكن المصادر لا تعين شيئاً واضحاً عنه . (انظر تراجم الثلاثة في المغرب ١ : ٣٦٤ والإحاطة ١ : ٥٢٨ (وفيه نقل عن الذخيرة) والقلائد : ١٤٨ والخريدة ٣ : ٤٢٢ والمطرب : ١٨٦

القائل ، وأعجوبةُ الأواخرِ والأوائل ، ثلاثةٌ كهقعةِ الجوزاء ، وان أربوا على الشمس في السَّنا والسناء ، امتروا أخلافَ الفخر فأمطرتْهُمْ شبعاً وريّاً ، وهزُّوا بجذوع النظم والنثر فاسّاقطت عليهم رطباً جنيّا ، ولم يحضرني من أشعارهم ومستظرف أخبارهم حين إخراجي هذه النسخة من هذا المجموع إلاّ ما أثبتُّه لأبي بكر منهم خاصة ، وهو علَمُ بُرْدِهِمْ ، وواسطة عقدهم .

فمن ذلك رقعة خاطب بها الوزير أبا الحسين ابن سراج قال فيها [1] :

لولا أنَّ عوائق الزمان — أدام الله عزَّك — تعوقُ ، وبنائقَ مساعدتهِ على الأحرارِ — بعلمك — تضيق ، لساعدت إليكَ نزاعي ، وانقدْتُ في حبل تشوُّقي [2] واطِّلاعي ، ولطرت بجناحٍ ، وامتطيت أعناقَ الرياح ، ولاستبطأت السلاهيب ، واستهجنت الجردَ اليعابيب ، ولم أرضَ بالّتي تنفخُ في البُرى ، واستقصرتُ بريدَ السُّرى ، بالليلِ من خيل بربرا [3] ، ولارتحلتُ الكوكبَ ، وحملتُ إليكَ قلباً كقلب العقرب ، ولاتّخذت المجرَّةَ سبيلاً ، وسهيلاً دليلاً ، ولقُدْتُ البدرَ المنير ، [١٣٨ أ]وركبتُ الشّعرى العَبور ، وامتطيتُ الأفلاك ، وترَّسْتُ بالثريّا وطعنت بالسِّماك ؛ هذا لو أردت البَرَّ ، ومقاساةَ السَّهلِ منه والوعر ، وإلاَّ اتخذتُ السمكةَ سفينةً ، وأقمتُ لها النعائم ألواحاً ، وعطارداً مَلاحاً ، وقيَّرتُ بالغيوم ، وسمّرت بالنجوم ،

---

١ ورد بعض هذه الرسالة في إحكام صنعة الكلام : ١٣٦ وقد اعتمد ابن عبد الغفور فيها الحذف والإيجاز ، كما جاءت قطعة منها في تمام المتون : ٢١٨ .

٢ س والاحكام: شوقي .

٣ من قول امرىء القيس (ديوانه : ٦٦) :

على كل مقصوص الذنابى معاود بريد السرى بالليل من خيل بربرا

وجدَّفْتُ بالفرقدين ، وحملتُ من آمالي فيها من كلٍّ زوجين[1] اثنين ، واعتصمتُ بالقوَّةِ والحَوْل ، وتخلَّفْتُ[2] كلَّ مَنْ سبق عليه القول ، واستعذتُ من شيطانِ الكسلِ وهو رجيم ، وقلت ﴿ باسم الله مجراها ومرساها إنَّ ربي لغفورٌ رحيم ﴾ (هود : ٤١) حتى أحُطَّ في واديك ، وأعرض نُسْخَةَ مذاهبي في ناديك ، فأرتسمَ في الجملة ، وأصلّي إلى تلك القبلة ، وأسعدَ بتلك الغُرَّة ، وأقضي من لقائه الحجَّ والعمرة ، وأطوفَ بذلك المقام ، وأذكرَ الله عند المشعر الحرام ، وعسى ذلك الحينُ يحين ، وجوانبُ الأيَّامِ أن تلينَ ، فقد تأسو إثْر ما تجرح ، والصعبُ ينقادُ[3] بعدما يجمح ، والشوك بالمنِّ يسمح .

وفي فصل منها : ومؤدّيه حمَّلته من عقوق زماني ما ليس بِنُكر ، ومن عَثَراتِ أيَّامي ما لم يكنْ ببكر ، وعوَّدتني — دام عزّك — الأخْذَ بيدي عند العثار ، والنهوضَ بي على رغم أنْفِ الليل والنهار ، فلك الفضلُ الذي عوَّدْتَ ، والطَّوْلُ الذي أسلفت ، في التهمُّم بردّ[4] لحظةِ العناية إلى ما يُعينُ على صلاحي ، ويُعيدُ بعضَ الريش لجناحي ، جارياً على عادتِك ، وعاملاً على شاكلتك ، والله يبقيك للمنن تتقلَّدها[5] ، والمكارمِ تشيِّدها ، وأقرأتُكَ[6] من أثناء تلك الدولة والاشتياق ، سلامَ حبيبٍ على

١ ط : من كل زوج .

٢ تمام المتون : وخالفت .

٣ س : يمكن ، وهو أقرب إلى قول بشار :

عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعد ما جمحا

٤ ط د : بود .

٥ س د : تقلدها .

٦ س : وأقربك .

الحسن بن وهب والعراق[1] ، وإن بكيتَ عني مع إخواني فطالما كنتُ أعير الدموعَ للعشاق[2] .

وله من أخرى : لا معنى — دام عزك[3] — لذكرِ ما أنا عليه من التعظيم والتأميل ، ولا لتجميل وجهِ حالي معك وهو الحسنُ الجميل ، فضعيفُ هوًى يُبْغى عليه دليل[4] ، واعتزائي تدريه إليك ، وتعويلي تعلمُهُ عليك ، وأني لك أنتسب في ودادي ، وبك أتحلى في النادي ، ان لمحتْ عيني نَظَرْتُك ، أو خدرتْ رِجْلي ذكرتك ، لا أفخرُ إلاّ بولائك ، ولا أقِرُّ إلاّ لنعمائك ، ولا أتمنّى إلاّ كان المنى في لقائك . وهذا الباب لو أفنيتُ فيه الأيامَ ، والقراطيسَ والأقلامَ ، لم أبلغْ فيه بعضاً ، ولا أدّيْتُ فرضاً ، فأنا أقتصرُ منه على ما في ضميرك ، وأقنعُ منه بتذكيرك ، والله تعالى يُبْقيك لي ويُعليك ، ويعين[5] على شكر أياديك .

وموصلُهُ ناصحٌ — مملوككَ — حرّكه ما حركه[6] ، وتوجّهَ لأمرٍ أرجو بعزّتك دَرَكه ، وذلك أن أختاً لي ، أمَتَكَ ، لا باكيَةَ لي سواها ، كان

---

١ إشارة إلى قول أبي تمام (ديوانه ٢ : ٤٢٥) :

سلام ترجف الأحشاء منه على الحسن بن وهب والعراق
على البلد الحبيب إلي غوراً ونجداً والفتى الحلو المذاق

٢ من قول الشريف الرضي (ديوانه ٢ : ٧٩) :

وابك عني فطالما كنت من قبل أعير الدموع للعشاق

٣ س : ادام الله عزك .

٤ من قول المتنبي : ضعيف هوى يبغي عليه ثواب .

٥ ط د : ويعينك ؛ س : ويعينني .

٦ ما حركه : سقط من ط .

لها ابنٌ من ابن فلان ، فعرض له[1] فاختلسه ، وقرّبَهُ إلى الحضرةِ المزدانةِ بك ، فتمثّلْ ما شئتَ من كمدها ، واحتراق كبدها ، وتذكَّرْ قوله عليه السلام : « لا تُوَلَّهُ والدةٌ على ولدها » ، وانظر سوءَ فِعل هذا المعاند ، وتدري وَجْدَ ثكلى أصيبت بواحد ، وهو وإن كان غير واضح فهو عندها عرار[2] ، وفي عينها دينار[3] ، وإن كان كما سترى ، فكلُّ شيء يحبُّ ولده حتّى الحبارى[4] ، والولد — كما في علمك — فتنة ، والخنفساء في عينِ أمها رامُشْنة ، وستراه — إن شاء الله — وترى أباه ، فتعلم الإقرافَ[5] من حيث أتاه ، وترى تلك المخايل ، وتعرفُ فيه من أبيه شمائلَ[6] ، وتتحقق به المَشَابِهَ والمناسِبَ ، وتنشد :

وانّا نرى أقدامهم في نعالهم   وآنفهم بين اللّحى والحواجبِ

وترى فيه من علامات الكرام ، لأنّه شبيهٌ لأمير المؤمنين هشام ، وانه متخازر ، وأنَّ اسمَهُ عبدُ الله بن طاهر ، وهذا هزلٌ كلُّهُ جِدٌّ ، ومزحٌ تحقيقُهُ عَمْدٌ ، فهو على كلِّ حالٍ ولد ، وقطعةٌ من كبد ، وأنتَ [١٣٨ب]

---

١ ط د س : ابن من ابن فلان يعرض عليه .

٢ من قول عمرو بن شأس (الحماسية رقم : ٨٤) :

وإن عراراً إن يكن غير واضح   فإني أحب الجون ذا المنكب العمم

٣ إشارة إلى قصة أعرابي كان ينشد ابناً له ضل فلما سئل أن يصفه قال : كأنه دنينير ، وكانت الصفة بعيدة عن الواقع .

٤ انظر الميداني ٢ : ٦٢ .

٥ الاقراف من قبل الفحل أي حين يكون الأب هجيناً غير عربي .

٦ من قول امرىء القيس (ديوانه : ١١٣) :

وتعرف فيه من أبيه شمائلا   ومن خاله ومن يزيد ومن حجر

وليُّ النعمةِ في جبره عليها ، وردِّ نومها به إليها [1] ، والتطول في تأنيسي بأحرفٍ كريمة تتضمَّنُ حالك ومجاريها ، ومصانعَ الله الجميلة عندك فيها ، والله يُطلعني منكَ المبهجَ ، ويُسْمعني عنكَ الطيِّب الأرِج ، وأقرئك سلاماً كودِّي كريماً ، وكندي [2] المسك شميماً ، وإن مننتَ بإبلاغه إخواني بإخائك ، وكواكبي في سمائك ، أو وَسِعْتَ فيه نفسَكَ وإيَّاهم ، وخصصتَ به الوزراء مفردهم ومثنَّاهم ، وأخبرتهم أني عبدُ ودِّهم ، وشاكرُ عهدهم ، والباكي دماً من بَعْدِهم ، أنعمتَ وتطوَّلْتَ .

وعُرضتْ عليه بعض تلك الرسائل التي تقدمت في صفة الزرزور فكتب في ذلك رقعة : أمَّلَكَ أبا الحسن [3] الأحرارُ ، وأمَّلَكَ الكبار ، وانتجعت قَطْرك الأقطارُ ، وشكرتْك حتى بترجيعها الأطيارُ . ويصلُ به — وصل الله سعودك [4] — من الطير نطَّاق ، من غير ذوات الأطواق ، يميسُ من المسك في حبرة أو طاق ، صغَّروه على جهة التعجب والإشفاق ، كما صُغِّر سُهيل ، وذُؤيب وهُذيل ، وقيل العُذيق والجُذيل ، وكما صغَّروا العُذيب ، وقال عمر — رضي الله عنه — أخافُ على هذا العُريب ، وكقولهم يا سُمَيراء ، وكقوله عليه السلام لعائشة : يا حُمَيراء ، مَهَّدتْهُ العذارى الحجور ، وألحفَتْهُ الشعور ، وربَّتْهُ بين الترائب والنحور ، وعلَّلَتْهُ بالرُّضاب ، وسقته بأفواهها العِذاب ، فما خلع الشَّكير ، حتى رفض الصفير ، وهجر

---

١ ط د : عليها .

٢ ط : وتندى ؛ س : وبندى .

٣ أعتقد أن صوابه « أبا الحسين » أي ابن سراج ، لأنه هو الذي أثار هذه الرسائل الكثيرة حول الزرزير .

٤ س : سعادتك .

الراء الدائمة التكرير ، وتحلّى في المنطق بحلية الإنسان ، ودخل في من علّم البيان ، وزايل عميّة البلبل والورشان ، وأفصح تسبيحاً وتكبيراً ، وخرج من جملة من قال تعالى فيه ﴿ ولكنْ لا تفقهون تسبيحَهُمْ إنّه كان حليماً غفوراً ﴾ (الإسراء : ٤٤) فإن طلبت — أعزّك الله — اسمهُ مكبّراً ، وجدْتَهُ لفظاً من الزيادة مكرّراً ؛ أقام عندنا زماناً ، لا يتألّفُ إلاّ رنداً أو باناً ، ولا يلتقطُ إلا عنّاباً أو سيسباناً [1] ، يتدرّج في البساتين ، يتطلّبُ العنب المنتقى والتين ، فذكرتُ له يوماً والحديثُ ذو شجون ، مُنْتبتة الزيتون ، وأرضك الميثاء ذات الشجر والعيون ، وأطيار محامدك فيها السُنَّح الميامين ، فصفّق جناحاً ، واهتزّ ارتياحاً ، وحنّ إلى ذلك القُطْر ، وانتفض كما [2] بلّله القَطْر [3] ، ورجّع اطراباً ، وسألني إلى مجدك كتاباً ، فأنبأتُهُ ما ابتغى ، وقلتُ : سلمت أخا الببغا ، من المنسرِ الأشغى ، وبُلّغْتَ المدى ، وجُنِّبْتَ من حزّةِ [4] المُدى [5] ، وعوفيت من كلِّ حيّةٍ صفراء ، ترنو إلى الطائر في السماء ، بمقلةٍ سريعة الاقذاء ، ولقّيت الوفاء ، غير اللّفاء ، وخوّلْتَ حتى من التبن والحلفاء [6] ، فانه يسبّدُ [7] ريشك ، ويبرّدُ عشوشك ،

---

١ ط د س : سبستانا .
٢ س : كأنما .
٣ من قول مجنون ليلى (ديوانه : ١٣٠) :

وإني لتعروني لذكراك هزة ... كما انتفض العصفور بلله القطر

٤ ط : حدة .
٥ انظر الذخيرة ٣ : ٥٧٤ حيث ورد :

نوقيت دقرابط الطبور تطيراً ... إذا عالج البرسام أو أبرأ الهرس
من المنسر الأشعى ومن حزة المدى ... ومن بندق الرامي ومن قصة المقص

٦ س : وحوشيت حتى من الدق وحلفاء .
٧ سبد الفرخ : إذا بدا ريشه وشوك .

فانهضْ فقد لقيت مَعْمَراً[1] ، وما شئت مَنْقَراً ومَصْفراً[2] ، ورعَيْت ريفاً ، ونزلت بحراً وريفاً[3] ، فأخذ الكتاب بمنقار ، وصفّق من ريش الجناحين سروراً وطار ؛ ومن ركب – أعزّك الله – الجناح ، وامتطى الرياح ، طوى البراح ، وهو آتيك كالبرق في لَمْعَته ، تصفيقةَ الطائرِ المستحرِ[4] سُرعَته ، فإن حلّ البساط فابنُ سُرَيْجٍ والغَرِيض ، وإن احتفل السماط[5] فأبو جلدة وابنُ بيض[6] . وأنت بسيادتك تبسطُ له في بساتينك ، وتفرشُ له من وردك وياسمينك ، حتّى تلبس من أغاريده الحلل المنشّرة ، وينشر على منابر أدواحِك شبيباً وابن لسانِ الحُمَّرة[7] ، وتنبت أرضُك مندلاً ، وجوُّك صندلاً ، وثراك خزامى وقرنفلاً ، وتهبّ له ريحُك جنوباً ، ويحق

. . . .

١ المعمر : المنزل الواسع .

٢ اشارة إلى رجز ينسب لطرفة أو لكليب (الخزانة ١ : ٤١٧ وفصل المقال : ٣٦٤) :

يا لك من قبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري

٣ ط : ورقا . . . وريقا .

٤ استحر الطائر : غرد بسحر .

٥ ط د : السماك .

٦ ط د : فابن جلدة ؛ وأبو جلدة البشكري شاعر من شعراء الدولة الأموية من ساكني الكوفة خرج مع ابن الأشعث فقتله الحجاج ، وكان معاقراً للخمر (انظر أخباره في الأغاني ١١ : ٢٩١ – ٣١٢) وأما ابن بيض فهو حمزة بن بيض الحنفي ، وهو أيضاً شاعر أموي كوفي سائر القول في المجون ، توفي سنة ١٢٠ (انظر معجم الأدباء ١٠ : ٢٨٠ والأغاني ١٦ : ١٤٣ والفوات ١ : ٣٩٥) .

٧ شبيب بن شيبة من خطباء تميم، يتردد ذكره في البيان والتبيين أما ابن لسان الحمرة فاسمه عبيد الله بن حصين أو ورقاء بن الأشقر (الفهرست : ٩٩) وهو أعرابي نسابة أدرك الدولة الأموية .

لشأسِ أملِهِ من نداك ذنوباً[1] ، حتى يرجّع بتطريب ، وينشد في الخفيف الأول لحبيب[2] :

وما يلحظُ العافي جداك مؤمّلاً ... سوى لحظةٍ حتى يعود مؤمّلا

وأهديك وداداً مُزِج باشتياق ، وأقرئك سلاماً يُنْسي سلام حبيبٍ على الحسن بن وهب والعراق[3]

وله فصل من رقعة خاطب بها أبا بكر بن قزمان[4] : [١٣٩] المجدُ – أعزّك الله – سِباقٌ ، وللفضائلِ استحقاق ، وأنا أردٌّ قولهم فيها بالجدود ، وأقول :

* لأمر ما يُسَوَّدُ مَنْ يسودُ *

وأعتقدُ أنه ما رُفِعَتْ رايةٌ لمجدٍ إلا كنت عَرابة[5] ، ولا أخِذ حَمْدٌ بثمنٍ بها ربيحٍ إلاّ كنت ابن الاطنابة[6] .

---

١ إشارة إلى قول علقمة بن عبدة يشفع في أخيه شأس وكان أسيراً عند الغساسنة (ديوانه : ٤٨) :

وفي كل حي قد خبطت بنعمة ... فحق لشأس من نداك ذنوب

٢ ديوان أبي تمام ٣ : ٩٩

٣ قد مرت الإشارة إلى ذلك ص : ٧٥٦ .

٤ ترد ترجمته في ما يلي من هذا القسم : ٧٧٤ .

٥ إشارة إلى قول الشماخ (ديوانه : ٣٣٦) :

إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين

٦ يشير إلى قول ابن الاطنابة (الكامل ٤ : ٦٨) :

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح

وله من أخرى على لسان من استعفى من ابنه إلى السلطان: معلوم — أيّد الله الأمير الأجلّ — أنّ العقوق ثُكْلُ مَنْ لم يُثْكَلْ ، وأنّ العاقّ إن عاش نغّص ، وإن مات نقص ، وأنّ الناس بأزمانهم ، أشبهُ منهم بآبائهم ، ولا يشفع في ابنٍ أبٌ ، وإنّ المرءَ لا يَهْدي من أحَبَّ ، ولو كان في يد الإنسان من ابنه شيءٌ أو إليه ، لكان أوْلى الأمة نوحٌ صلىّ الله عليه ، ولما أضَلَّ ابنَهُ المراشدَ والمصالحَ ، حتى[1] قال الله تعالى ﴿ إنه ليس من أهْلِكَ إنهُ عَمَلٌ غيرُ صالح ﴾ (هود: ٤٦) ولوليك ابنٌ سَلَكَ هذه السبيل ، واتبع هذا الدليل[2] ، ولما أريته طُرُقَ التبصير والتسديد ، وقلت له : يا بني مَنْ وُعِظَ بغيره فهو السّعيد[3] ، ولم يُغْنِ الوعدُ ولا الوعيد ، تبرأتُ منه إليك ، وقلت له : لا تجنِ يا بنيّ عليّ ولا أجني عليك ، وإنه للفلذةُ من كبدي ، وآخرُ ولدي ، ولكن لم أجِدْ فيه صنيعاً . و ﴿ لو يشاءُ الله لهدى الناسَ جميعاً ﴾ (الرعد : ٣١) وفي الخبر أنّ الإمام العادلَ إذا دعا أجيبتْ دعوته ، ووليُّكَ يرغبُ في دعوةٍ تنفعهُ ، أو زجرةٍ تَرْدَعُهُ .

وله من أخرى : والفقيه الأجل الحافظ — زاده الله من التوفيق — بيني وبينه العهدُ المصون ، وليال قطعناها « عند أصلِ القناة من جَيْرونِ » هو يسأل[4] ثراها ، ولا ينساها ، ويستنقذني من أنيابٍ[5] قد قَتَلَتْني بعضّها ، وعساهُ

---

١ حتى : سقطت من ط د .
٢ واتبع هذا الدليل : سقط من ط د .
٣ من المثل : السعيد من وعظ بغيره ، فصل المقال : ٣٢٧ والميداني ١ : ٢٣٢
٤ ط : يسل ؛ س : يقل .
٥ ط : أينات ؛ س : أبيات .

يذبحُ لي بقرةً من علمه فيضربُ نفسي ببعضها[1] ، ويردُّها[2] وقد بلغت التراقي ، ويُحييها بياسر[3] من ذلك العلم الرقيقِ العراقي ، فجرِّد لي من سيفه القاطع ، واغرفْ لي من بحرِهِ الواسع .

وله من أخرى على لسان مَنْ فرَّ من موضع اعتقال: الأمير — أيّده الله — حُرِّك إلى ظلمي فسكن ، وجاءه عنّي فاسق بنبأ فأخذ بأدب الله تعالى وتبيّن ، وأنا رِعْتُ فارتعتُ ، وقرأتُ قوله تعالى ﴿ ففررتُ منكم لما خفتكم ﴾ (الشعراء : ٢١) فاتبعت ، وبحقّ نُفّرت فَنَفَرْتُ ، وأوعدني أبو قابوس ففررت :

* ولا قرارَ على زأر من الأسد[4] *

وقد قيل : لا تقرب البحرَ إذ ماج ، ولا السلطانَ إذا هاج ، وقديماً اتبعت السلطانَ فوعيت[5] ، ورأيتُ من الديكة في السفافيد ما رأيت ، ولم يكنْ فراري نفاقاً ولا إباقاً ، إنما أردتُ إظهارَ برآءتي ، وتطهيرَ ساحتي ، فأنزلتُ قِدْري بجعالها[6] ، وأطفأتُ ناري في موضع إشعالها ، وطلبتُ طالبتي ، وقرعتُ بابَ ظالمتي ، ودعوتُها إلى الخصام ، وأبرزتُها إلى الحكّام ، ورفعتها إلى القاضي

---

١ اشارة إلى ما جاء في سورة البقرة : ٧٣ (قلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى) .

٢ ويردها : سقطت من س .

٣ س د : بياس .

٤ صدر البيت : نبئت أن أبا قابوس أوعدني (ديوان النابغة : ٢٥) .

٥ ط : فرعيت .

٦ الجعال : ما تنزل به القدر من خرقة أو غيرها .

محمد بن حمدين[1] ، وإلى محمد بن شبرين[2] ، ولو وجدتُ على القافية غيرهما لدعوتها إليه ولو كان محمدَ بن سيرين ، فأحقّ الله حقّي تحقيقاً ، وأزهقَ باطلها ﴿ إنّ الباطلَ كان زَهُوقاً ﴾ (الإسراء : ٨١) وها أنا معها في بساطٍ واحد ، وبين يدي مَلك راشد ، أرفُلُ في الأمان ، وقديماً استُعيذَ من شرّ النسوان ، ومن لم يُبَيّتْنَ قبلي على أسَفٍ ، وَهُنّ عوادي يوسف[3] ، وقد قال عليه السلام فيهن ما قال وأنذر وأعذر ؛ ولولا أن للنساء أبناء[4] ، ويطولُ استقصاءُ الأحاديثِ والأنباء ، لذكرتُ ما أحدثْن من بلوى ، وجلَبْنَ من شكوى ، وسقتُ من بين دنيا — وهي ظالمتي هذه — إلى عَصرِ أمّنا حوّا ، رضي الله عنها ، ولكنْ تركُ ذلك أولى ، وأنا أكفّرُ فيه يميني وأصيرُ مع مولاي إلى فصيلتي التي تؤويني ، وأعرضُ عليه أمري في معرضِهِ ، وأتحققُ أسودَهُ من أبيضِهِ .

وله من أخرى[5] : لا غرو — أعزّك الله — وقد غطّاني من إنعامِكَ الرّغْدِ ما غطّى ، وتوطّأ بي من كنفك الممهّد ما توطّأ — أنْ أسألَ شَطَطاً ، وأذهبَ فُرُطاً ، وأتكلّمَ مُنْبسطاً ، وأبيّنَ غرضي كلّه ومذهبي ، وأتحكّم

---

١ قد مر التعريف به .

٢ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن شبرين ، استقضي باشبيلية وحمدت سيرته ، وكانت وفاته سنة ٥٠٣ (الصلة : ٥٣٨) .

٣ من قول أبي تمام (ديوانه ١ : ٢٢٣) :

هن عوادي يوسف وصواحبه فعزماً فقدماً أدرك السؤل طالبه

٤ ط : أنباء .

٥ وردت عبارات قليلة منها في تمام المتون : ٣٢٧ .

على مكارمك تحكُّمَ الصبي[1] ، وأبلغَ بك إلى كلّ أمَلٍ [١٣٩ب] وأرَب ، وأملأ دلوي في جاهك إلى عَقْدِ الكَرَب ، فإنك سبَّبْتَ لي ذلك ، وأرعيتني الروضَ الأُنُفَ من جاهك ومالك ، وحرَّرتني ولا حرَّ بوادي عوف[2] ، وأنعستَ عليَّ نعمةَ الله على قريش وأطعمتني من جوع وآمنتني من خوف[3] ، إلا أنه يلزمُ مَنْ ألْجَمَ أنْ يُسْرِجَ ، ومن اعتمر أن يتمَّ الحجّ ، ووَعْدُ الكريمِ مطلوبٌ ، وانتزاعُ العادةِ ذَنْبٌ محسوب ، فجرِّدْني صارماً في ساعدك ، وارمِ بي سهماً مسموماً في كبدِ حاسدك ، وهو الوُسْع المجهود ،

* والجودُ بالنَّفسِ أقصى غايةِ الجود[4] *

وهذه أيضاً قطعة من شعره

كتب إليهم الوزير أبو محمد بن عبدون بأبيات منها[5] :

سيُوفي بني عبدِ العزيز وما أنا ... بنابٍ إذا التفَّتْ عِداً ونوائب

لعاً لسرورٍ لم يقمْ منكمُ به ... مُحَيٍّ على طولِ المدى أو مخاطب

ولم تكتبوا حرفاً إليَّ وأنتمُ ... ثلاثةُ كُتَّابٍ وما أنا كاتب

---

١ انظر تفسير قولهم « أعطي حكم الصبي على أهله » في ثمار المتون : ٣٢٥ – ٣٢٨ وثمار القلوب : ٦٧٠ .

٢ هذا مثل ، انظر فصل المقال : ١٢٩ ، ٣٣٦ والميداني ٢ : ١٢٤ والعسكري ٢ : ٢٧٥ والفاخر : ١٧٨ .

٣ انظر السورة : ١٠٦ (وهي سورة قريش) .

٤ صدر البيت : «يجود بالنفس إذ ضن البخيل بها » وهو لمسلم بن الوليد في ديوانه : ١٦٤ وجمهرة العسكري ١ : ٩٥ (تحقيق أبو الفضل) وانظر التمثيل والمحاضرة : ٣٠٧ .

٥ س : بأبيات قال فيها .

وكان أبو محمدٍ قد خرج من وطنه يابرة مستوحشاً وقت حلول الفاقرة بالرؤساء ، فأجابه أبو بكر منهم بأبيات ، منها :

تباعدُ في طولِ المدى وتُقاربُ — وتذنبُ في باب الجفا وتعاتبُ
بمجدك[1] أرْشَدْنَا إليكَ ودلَّنا — عليكَ من الدنيا وخذنا نكاتب
ومن خرَقَ الآفاقَ يبغي بنفسه — مساحةَ وجهِ الأرضِ أين يُخاطَبُ
دُعَيْمصُ رَمْلٍ حين يمشي وحارثٌ — ضحىً وعديٌّ في الزِّماعِ وحاجب
ترى لم تُصَبْ في آلِ بدرٍ فتتقي — تِرَى ثائرٍ أو يلتقي بكَ طالب
وإن تَنْتَسِبْ يوماً تُردْكَ طفاوةٌ — لتطفو على الدنيا وتأباكَ راسب
لك الخير ملَّتْ رحلَكَ العيسُ ، حُطَّهُ — قليلاً ، وعرِّسْ قد شَكَتْكَ السباسب
على أنَّ للأيامِ فينا وقائعاً — نبا شاعرٌ فيها وأفْحِمَ[2] كاتب
وأمَّا امرؤ القيسِ السَّواريْ فإنه — رأى الدربَ حقّاً فابكِهِ أنت صاحب
يغنّيه غرّيدُ الدجى[3] فإذا وَنَى — يغنّيه ساقٍ من دمِ الساقِ شارب

قوله : « امرؤ القيس السواري » يعني أبا بكر بن سوار الأشبوني[4]، وكان أسيرَ في طريق قورية ، وبقي بها إلى أنْ منَّ الله باطلاقِهِ ، من وثاقه ، وأشار بذكر الدرب إلى قول امرىء القيس[5] :

* بكى صاحبي لمَّا رأى الدربَ دونَهُ *

---

١ ط : لمجدك .
٢ س : وأنجح .
٣ ط د : الوحى .
٤ تأتي ترجمته ص : ٨١١ .
٥ عجز البيت : وأيقن أنا لاحقان بقيصرا .

وقال الوزير أبو بكر يخاطبُ جماعةً من إخوانه بحضرة قرطبة[1]:

يا سيدي وأبي هدىً وجلالةً ورسولَ ودّي إنْ طلبتُ رسولا
عرِّجْ بقرطبةٍ إذا بلّغتها بأبي الحسين ونادِهِ تمويلا
فإذا سعدتَ بنظرةٍ من وجهه فاهدِ السلام لكفّه تقبيلا
واذكرْ له شوقي ووجدي[2] مُجْملاً ولو استطعتُ شَرَحْتُهُ تفصيلا
بتحيةٍ تُهْدَى إليه كأنَّما جرَّتْ على زَهْرِ الرياضِ ذيولا
وأشِمَّ منها المُصْحَفِيَّ على النوى نَفَساً يُنَسّي السوسنَ المبلولا[140أ]
وإلى أبي مروانَ منها نفحة تجني[3] له روضَ الربى مطلولا
وإذا لقيتَ الأخطليَّ[4] فَسَقّه من صفو ودّي قَرْقَفاً وشمولا
وأبو عليّ بُلَّ منه رَبْعَهُ مِسْكاً بماءِ غمامةٍ محلولا
واذكر لهم زمناً يهبُّ نسيمُهُ أصُلاً كَنَفْثِ الراقياتِ عليلا
بالحَيْرِ[5] لا عبستْ عليه غمامةٌ إلاَّ تضاحك إذخراً وجليلا
يوماً وليلاً كان ذلك كلّه سَحَراً وهذا بكرةً وأصيلا
مولى ومولي نعمةٍ وموالياً[6] وأخا إخاءٍ خالصاً وخليلا

---

١ انظر القلائد والنفح ١ : ٦٣٤ : ١٥٦ ، وفي القلائد أنه يخاطب أبا الحسين ابن سراج ، وذلك واضح في البيت الثاني من القصيدة ، ثم ذكر أسماء عدد من أصدقائه .

٢ القلائد : وشكري .

٣ القلائد : تهدي .

٤ القلائد : الأخطبي

٥ س : بالخير ؛ د : بالحي ؛ والحير : هو حير الزجالي خارج باب اليهود بقرطبة (انظر التعريف به في القلائد والنفح) .

٦ القلائد : وكرامة .

لا أدركتْ تلك الأهلّةُ دهرَها [1] نقصاً ولا تلك النجومُ أفولا

وله يخاطب بعض إخوانه وهو عليل :

كباري وساداتي إليكم تحيّةً تفتِّحُ سوساناً وتجني رياحينا
ومعذرةً منّي إليكم بعلّةٍ بَرَتْني ولا لدناً من الخطِّ مسنونا
كأنّيَ فيما اشتكي ابنُ محلّمٍ سقاماً ولكن لستُ أشكو الثمانينا [2]

وقال :

إليك وإنْ كنتَ قُطْبَ الوفا أبا عامرٍ والأريبَ الأديبا
تكونُ بحمصٍ ثلاثينَ يوماً وأصبحُ منك القصيَّ الجنيبا
نسيتَ ودادي وَحُرَّ اعتقادي وجمعي بأفقي عليك القلوبا
وَهَبْكَ تناسيتَ حُرَّ الوفاء ولم تَرَ لي في ودادٍ نصيبا
فهلاَّ رعيتَ جزيلَ الثّواب وعدتَ العليلَ وزرت الغريبا [3]
وتدري الحديثَ وماذا عليه عائدُ ذي السقم حتّى يؤوبا
ولكنها شيمةٌ للزمان أنْ لا صديقَ وأن لا حبيبا

وله يصفُ بقرةً أخذها الريق [4] الطاغية صاحب قلمرية [5] :

---

١ ط د : دهرنا .
٢ إشارة إلى قول عوف بن محلم : « إن الثمانين وبلغتها . . . البيت » .
٣ س : القريبا .
٤ الريق أو الرنق هو الفونسو هنريكز (Alphonso Henrices) صاحب قلمرية (Coimbra) وكانت حينئذ عاصمة البرتغال .
٥ انظر الإحاطة ١ : ٥٣٠ وهي هناك شديدة التصحيف والتحريف .

وأفقدنيها الريق أماً حفيّةً إذا هي ضُفّتْ ألّفتْ بين رَفدينِ[1]
تعنّفني أمّي على أنْ رَثيتُها بشعري وأن أتبعتُها الدمَ من عيني
لها الفضلُ عندي أرضعتنيَ أربعاً وبالرغم ما بلّغتِني رأسَ عامين[2]

وله فيها :

وفجّعني ذا الريق لا درَّ درُّهُ بأمِّ عيالٍ ما عرفنا بها الجدبا
ترى فخذيها يحملانِ خزانةً إذا فتحتَها إصبعاً ملأتْ وطبا

وقال يستهدي المنصور بازياً[3] :

يا أيّها الملك الذي آباؤهُ شمُّ الأنوفِ من الطّراز الأوّلِ
حلّيْتَ بالنّعمِ الجسامِ[4] سماحةً عُنُقي فحلِّ يدي كذاك بأجدل
وامننْ به ضافي الجناحِ كأنّما حُذِيتْ قوادمه بريح شمأل
أغدو به عُجُباً أصرّف في يدي ريماً وآخذ مُطْلقاً بمكبّل[١٤٠ب]

وله في دنٍّ خمرٍ تخلّلتْ له :

أبا حسنٍ إني فجعتُ بصاحبٍ أنيسٍ يُنَسّي الهمَّ عند احتلالهِ
غدَتْ بنتَ بسطام بن قيسٍ بدنّها وأمستْ كجسمِ الشّنْفرى بعد خاله

---

١ ضفت : حلبت باليد كلها لفخامة الضرع (ط د س: صفت) والرفد: القدح الضخم .
٢ س والإحاطة : حولين .
٣ النفح ٤ : ٣١٣ .
٤ د : الحسان .

أشار إلى قول الشنفرى[1] :

* إنّ جسمي بعد خالي لخل *

وكنى ببنتِ بسطام عن الخمر لأن بسطاماً كان يكنى أبا الصهباء .

وقال في مثله وعرّض بأبي سلمة الخلاّل :

فإذا الوزيرُ وزيرُ آلِ محمّدٍ ‏ ‏ شانيكمُ ، لا كان ، فيها طافي

وهذا كقول الآخر[2] :

ختمتها بنتَ بسطامٍ لها أرجٌ ‏ ‏ ثم افتضضتُ ختاماًعن أبي سلَمَه

وبعث إلى بعض إخوانه بخرشف وكتب معها :

بعثتُ بها عشراً بناتَ شياهمٍ ‏ ‏ مكلّلَةً هاماتُها بمباضعِ
تراها بها الأعداءُ فوق جفونهم ‏ ‏ نهاراً ، وليلاً تحتهم في المضاجع
وإنْ مدَّ مولانا لها يدَ قابلٍ ‏ ‏ فإنّيَ فيها باسطٌ خدَّ ضارع

وكان ابن رشيق قد أنزل على أمواهم[3] وقت حلول الحوالة ، فكتب إليه أبو بكر ، وأخذتها عنه :

---

١ وقيل هو لابن أخت تأبط شرا يرثي خاله ، وصدر البيت : « فاسقنيها يا سواد بن عمرو » انظر الحماسية رقم : ٢٧٣
٢ ورد البيت في الشريشي ٢ : ٢٩٢ (بولاق) .
٣ ط د : أحوالهم ؛ س : أخوالهم .

بني رشيقٍ أما لي عندكم سعةٌ … في منزلي ولقاكمْ كان مُقْترحي
أما يشقُّ عليكم شربُ صافيتي … في مجلسي وأنا منه بمطَّرح
أرعى الخزامى وأنتم في بلنسيةٍ [1] … ما بين مُغْتَبِقٍ فيها ومصطبح
هلاَّ استحيتمْ وقلتم إنَّ ذا كَدَرٌ … وإنَّ هذا لتنغيصٌ على الفرح
فَتُحْضِروني ولو مَلْقَى نعالكمُ … وتصبحوني ولو من فضلةِ القدح
وتظفرون بما تهوون من أدَبٍ … وما تشاؤون من ظَرْفٍ ومن مُلَح

وأنشدني أيضاً له :

وأحورَ حيَّا بنارنجةٍ … تضرَّمَ نصفُ اسمها في البدنْ
مخمَّشَةَ الوجهِ مرشومة … كما عُصْفِرَتْ كُرَةٌ من سَفَنْ [2]

وأنشدني له قوله :

قريبٌ على عزمي بعيدُ [3] المطالب … وسهلٌ على مجدي لحاقُ الكواكب
وما الشعرُ من همّي ولكنْ خواطري … تغالِبُني فيه وهنَّ غوالبي
أقَلِّلُ منه مازحاً غيرَ طالبٍ … وأكثِرُ فيه فاخراً غير كاذب

وأنشدني أيضاً لنفسه من قصيدة ، أوّلها :

لعينك [4] وعدٌ من فؤاديَ مكذوبُ … مضى عَزْمُهُ [5] إلاَّ سهادٌ [6] وتعذيبُ [7]

....

١ س : بلهنية .
٢ س : موشومة ؛ ط : موشامة ، والمرشومة : التي فيها برش ؛ السفن : جلد خشن غليظ .
٣ س : قريب .
٤ ط : بعينك .
٥ س : عهده .
٦ د : سناد ؛ ط : سعاد . ٧ س : وتكذيب .

ومنها :

ومن شقّ هُدْب الليل عن شهلَةِ الضحى ببرقٍ على ثوب الدجى[1] منه تكتيب

ومنها[2] :

كأنّ أهازيجَ الذّبابِ أساقفٌ لها من أزاهيرِ الرياضِ محاريبُ

وأنشدني لأخيه أبي الحسن وقد رمد ، يستهدي المتوكلَ كحلاً : [١٤١ أ]

يا ملكاً آمَنُ ما يُخْشَى ونيّراً أوضحَ ما أعْشَى
شاعركم كان زهيراً وقد أصبح ممّا ناله الأعشى
يقرأ والشمسُ على رأسِهِ تنيرُ ﴿ والليلِ إذا يغشى ﴾

ولأخيه أبي محمّد :

يا سائلي عن عَلْوَةٍ وجمالها أغنتْ محاسنها عن التبيينِ
هيَ درهمُ البخلاء يُلْقى[3] دونها قُفْلٌ وفوقَ القفلِ طابعُ طين
هي روضةُ الآمال إلاّ أنّها لم تخلُ من أفعى[4] ومن تنّين

وله يرثي الفضل بن المتوكل ، ويشير إلى أنه قتل ولم يدفن ، من جملة قصيدة :

---

١ ط : الرجا .
٢ مر هذا البيت ص : ٧٠١ من هذا الجزء .
٣ ط د : تلقى .
٤ ط د : يفع

وواعجبا للأرض حين ملكتَها ومِتَّ ولم يَستُرْكَ من عرضها[1] شبرُ
فليتك من قلبي وعيني[2] صيانةً تؤوبُ إلى قبرٍ إذا لم يكنْ قبر
فيرعاك مني مشفقٌ ذو حفيظةٍ عليكَ إذا لم يَرْعَكَ الذئبُ والنسر

وباتوا[3] ثلاثتهم ببعض المواضع ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، ويتعاطون أدباً كالراح ممزوجةً بماء الوقائع ، والمدامُ لهم نقل ، والزمانُ لولاهم غُفُلٌ إلى أن غازلت السِّنَةُ أجفانَهم ، وأجمَّت قليلاً أذهانهم ؛ فانتبه أبو محمد منهم والصبح قد ومض ، والعصفور قد انتفض ؛ فقال :

يا شقيقي وافى الصباح بوجهٍ سَتَرَ الليلَ نورُهُ وبهاؤه
فاصطبحْ واغتنمْ مسرَّةَ يومٍ لستَ تدري بما يجيء مساؤه

ثم استيقظ أبو بكر فقال :

يا أخي قم ترَ النسيمَ عليلا باكر الروض والمدام شمولا
لا تنمْ واغتنم مسرَّةَ يومٍ إن تحت الترابِ نوماً طويلا

ثم هبَّ أبو الحسن من مرقده ، بأذكى ذهن وأوقده ، فقال :

يا صاحبيَّ ذرا لومي ومعتبتي ولنصطبح خمرة من خير ما ذخروا
وبادرا غفلةَ الأيامِ واغتنما فاليوم خمرٌ ويبدو في غد خبر[4]

---

١ س : بعضها . ٢ س : عيني وقلبي .

٣ من هنا حتى آخر الترجمة تنفرد به س ؛ وانظر القلائد : ١٥١ والمغرب ١ : ٣٦٧ والإحاطة ١ : ٥٣٠ .

٤ رغم أنه متصل بقول امرىء القيس « اليوم خمراً وغداً أمر » فإنه من صياغة بشار بن برد إذ يقول :

اليوم خمر ويبدو في غد خبر والدهر ما بين إنعام وإبآس

في ذكر الوزير الكاتب أبي بكر بن قزمان[1]
وسياقه جملة من نظمه ونثره[2]

وأبو بكر أيضاً من كتاب الوقت والأوان ، ومن أهل البلاغة والبيان[3] ، والمتوكل أول من اتخذه كاتباً ، واقتدح زنده فأورى شهاباً ثاقباً ، وله محتدٌ كريم ، ولسلفه تقدُّمٌ معلوم ، ورسائله جلائل ، إلاَّ أنه لم يحضرني منها عند نقلي هذه النسخة إلاَّ فصول قلائل ، لا تفي بقدره ، وفيما كتبت منها أنموذج يُعْرِبُ عمَّا أجريتُ من ذكره .

فصول له من رقعة عتاب ، خاطب بها بعض الوزراء الكتاب ، قال فيها : ما أكثر الأشياءَ الجامعةَ لنا : أدبٌ كروض الحَزْنِ ، وودّ كصَوْبِ المزنِ ، وأوليَّةٌ كَرُم تاريخها واتصلتْ أسانيدها ، لا يُنْكَرُ فضلها ولا تُذَمُّ عهودها ، وأسلافٌ سَلَفَتْ بينهم صحبةٌ حميدة ، وأذِمَّةٌ وكيدة ، مِثْلُها نَهَجَ إخاء ، وأورثَ صفاء ، ونظم أهواء وآراء[4] . ومازلتُ على تراخي المزار ، وتنازح الأقطار ، أودُّكَ كلَّ الوداد ، وأعتقدك أصحَّ

---

١ ترجمته في القلائد : ١٨٧ والخريدة ٣ : ٤٦٥ والمغرب ١ : ٩٩ والصلة : ٥٤٠ وهذا هو محمد بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان (عم ابن قزمان الزجال) ، وكانت وفاته سنة ٥٠٨ ودفن بمقبرة أم سلمة ، وقد وهم المقري حين نقل ترجمة الوزير وترجمة الزجال ظناً منه أنهما شخص واحد ، في نفح الطيب ٤ : ٢٤ .

٢ س : نثره ونظمه .

٣ والبيان : سقطت من ط د .

٤ وآراء : سقطت من ط د .

الاعتقاد ، وألحظُكَ بعينِ الإعظامِ ، وأقترحُ لقاءَكَ على الأيام ، معرفةً بسبقك ، وتوفيةً لحقك ، وتَوْقاً إلى مطالعةِ تلك الطباع الرقيقة ، ومباشرةِ تلك الآداب الأنيقة ، إلى أنْ وَقَعَ ما وقع ، وأتيحَ من التداني ما لم يُتوقَّع ، وهي الأقدارُ ، وليس عليها الخيار .

وقد كنتُ أُعلمتُ بسؤالك — بفضلك — عنّي ، ونزاعك نحوي ، وغرضك إلى لقائي ، واعتذارك بخفاء مكانِ نزولي ، وغموضِ موضعِ حلولي ، ولقيتُ فلاناً فعرض عليَّ من قصدك ما فُتَّ[1] إليه حدَّ المسابق ، لو[2] أفرَجَتْ لي عنه العوائق ، فأريتُهُ من اختلالِ الحالِ الباعثِ على الانقباض ، وتجنُّبِ الاسترسالِ المخوف من الإعراض ، ووقوع الإخلال ما رآه ، فأحْسَبَهُ وكفاه ، وتلقّاه عذراً واضحاً يلقّيكَهُ فتتلقاه ، ثم ما زال يفتلُ في الذّروةِ والغارب ، حتى أجبته التزاماً لما لم يَلْزَمْني إلاّ بحكم جلالتك ، وشرطِ المتعيّنِ من استمالتك ، فوافَيْنَا منزلكَ ذاتَ يوم بُعَيْد العصرِ ، وعلى بابهِ غلامٌ ، سألناه عنك فقال : هو ينامُ ، فطوينا آثارنا ؛ وأعلمني بعدُ باجتماعكما من الغدِ ، وأنه[3] عَرَّفَكَ بذلك المقصد ، فساءك أنْ لم تعلمْ ، وعَزَّ عليك الالتقاءُ أنْ لم يتمّ ، ودعاني إلى المعاودة.[١٤١ ب] فلم يَسَعْني ولم يَسُغْ لي ، وَمَضَتْ على ذلك أيّامٌ إلى أن دخلتُ على فلان ومعه فلان ، وأنت حاضرهما ، فحين لمحتُكَ عرفتك ، بما كان ثبتَ عندي من صفتِك ، وتقرّر لديَّ من سِمَتِك ، وعند أخذي لمقعدي رأيتُكَ قد وَحَيْتَ إلى من كان

---

[1] ط د س : كنت .
[2] ط د : ولو .
[3] س : وأعلمني بعيد اجتماعكما من الغد أنه .

يليك وَوَحى إليك ، فانثنيتَ وقد زَوَيْتَ ما بين عينيك ، وشمّرْتَ[1] أنفك ، وَمَعّرْتَ وجهك ، وضممتَ إليكَ من ثيابك ، وقاربتَ بين آجزائك ، فقلتُ : أراهُ ازدرى طَلْعَتي ، وتقذَّر هيأتي ، وخشيَ أنْ أعْدِيَهُ بسوء حالتي ، وقد قال عليه السلام : « لا عَدْوَى » ، وقال : « فمن أعدى الأول » ، وإن اعترض علينا بحديثه الآخر : « لا يُورَدَنَّ مُجْرِبٌ على مُصِحّ » ، ودفعنا من صحيحِ التأويل ، وأوضحِ الأقاويل ، بما لا مَدْفَع فيه ، مما أنت أعلمُ به وأذْكَرُ له . وأمّا الازدراء والانتخاء ، والتقذّر والتعذّر ، مع علمك بالحال وأوّلها ، وتمكنها وتأثّلها ، وبحال الأيام وتقلّبها ، وتعاوُرِ أقطارها وتناوبها ، ومع ذكرك قولهم : « ليست العزّة في حُسْنِ البزّة » وقول من قال : « ليست العباءةُ تكلّمكَ إنما يكلمك من فيها » ، وقول بعضهم[2] :

ليس الجمالُ بمئزرٍ فاعلم وان رُدّيتَ بردا
إن الجمالَ مآثرٌ ومناقبٌ أورثْنَ حمدا

وقول غيره :

وفضل الناس في الأنفسِ ليس الفضلُ في المالِ

فشيءٌ خرَقْتَ به عادةَ أمثالك ، وخالفتَ فيهسيرةَ نظرائك وأشكالك ، وكفى بالمثل المضروب بفرحةِ الأديب بالأديب ، وقولهم : « الأدبُ بين أهله نسب » ، وقول الطائي الأكبر[3] :

---

١ شمر : قلص ؛ ولعل الصواب : وأشممت أنفك ، وذلك كناية عن الكبر .
٢ هو عمرو بن معد يكرب ، انظر الحماسية : ٣٤ .
٣ ديوان أبي تمام ١ : ٤٠٧ .

إن نفترق نسباً يؤلّفْ بيننا أدبٌ أقمناه مقامَ الوالدِ

وقول الأصغر[1] :

ان كنتَ من فارسٍ في بيت سؤددها وكنتُ في بحترٍ في البيتِ والحسبِ[2]
فلم يَضِرْنا تنائي المنصبين وقد رُحْنا نسيبين في علمٍ وفي أدب

وإن كنتُ أكثر الاعتزاءَ إلى النسبِ الكريم ، وأعتدُّ من أهْلِهِ في الصميم ، وأزاحمهم بمنكبٍ واهنٍ ضعيف ، وأمتُّ إليهم بسببٍ سَحيلٍ سخيف ، ثم أرجعُ عند الامتحان ، وإلّي منكم كإلّ السَّقْبِ من ولد الأتان ،[3] فقد قال عليه السلام : « من كثّر سواد قومٍ فهو منهم » ، وعسى أن يبدوَ لي ما يستنكر ويستكثر لمثلي ، فأكونَ عباسَ بنَ الأحنف ويكونَ كبشّار ، إذ يقول[4] : « ما زال غلامٌ من بني حنيفة يُدْخِلُ نفسه فينا ويخرجها حتى قال :

---

١ ديوان البحتري : ٢٥٤ .

٢ الديوان : ان كان من فارس . . . طيء . . . ذي الحسب .

٣ خلط هنا بين بيتين أحدهما لحسان (ديوانه : ٣٩٤ والحيوان ٤ : ٣٦٠) وهو :

لعمرك إن إلك من قريش كإل السقب من رأل النعام

والثاني هو قول الشاعر :

وأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان

وهذا البيت الثاني يروى لعبد الرحمن بن الحكم (الحيوان ١ : ١٤٦ ، ٧ : ٧٣ والخزانة ٢ : ٥١٨) كما ينسب لابن مفرغ (الشعر والشعراء : ٢٧٩ ووفيات الأعيان ٦ : ٣٥٠)

٤ انظر الأغاني ٥ : ١٩٣ .

نزف البكاءُ دموعَ عينك فاستعرْ عيناً لغيرك دَمْعُها مِدْرارُ
من ذا يُعيركَ عينَهُ تبكي بها أرأيتَ عيناً للبكاء تُعار

فتتصلَ حينئذ رَحِمٌ لا تَخْفَى ، وتحصلَ قرابةٌ لا تُجْفَى ؛ وإن كنتَ نكرتَ ما نكرتَهُ ، ونظرتَ ما نظرته ، من ابتدائك بالتسآل والتكليم ، وترفعي إياك ما لا أدَّعيه فضلاً عن أن أقتضيه من الترفيع والتقديم ، بخمولي ونباهتك ، وذلّي وعزّتك ، وبُعْدي عن بلدي وعددي ، وكوني في طينتك ومدينتك ، وبين قبيلتك وفصيلتك ، وجيرتك وعشيرتك ، وحاشيتك وغاشيتك ، وصنائعك وتوابعك ، فقد قال ابن عباس ، رضي الله عنه : « إن لكلّ داخلٍ دهشةً فابدأه بالتحية » ، وإذا أطلق الحكم بهذا للبعيد والقريب ، فما ظنُّكَ بالغريب مثلي[1] المنكوب ؟ !

ونتركُ ما استمرّ إلى هلمّ جرّا ، وأطْوِلْ به دهراً ، فربما تلاقينا ، وكأنا ما تراءينا ، لا كلامَ ببنت شفة ، ولا إيماءَ بطرفِ أنمُلَة ، واللومُ في هذا كلّه يسقطُ عني ، كما يضيقُ العذرُ عنك ، بقضيَّةِ سُنَّة الإسلام في السلام ، في أني ألقاك راكباً وأنا ماشٍ ، وأنت بحمد الله طائر ، وأنا — ولا كفران بالله — واقع [١٤٢ أ] وعلى الطائر أن يغْشى أخاه . وإن طمح بك ، وحطّ من قدري عندك ، إدبارُ الأمر عني وإقبالُه عليك ، ففيها ما فيها ، وما أرضاها لكَ طريقةً ، فالكريم يُجلّ الكرام ، وان قلتَ : إني أدعو إلى مباعدتي ، وأبعثُ على مقاطعتي ، باستبهام خُلُقي ، وإظلام أفُقي ، وثقل حواسي ، وقلَّة استئناسي ، فهذا من لم تغره رقة الحضر اللطيف[2] ، وقد

---

[1] ط د : مثل .
[2] ط : تقده رقة اللطيف .

قال عليه السلام: « من بدا جفا » . على أنّي أتكبر على المتكبرين ، ولا أَلينُ لمن لا يبتغي لينِ[1] ، ولولا أن يدال القربُ بالبعاد، دونَ أن يقعَ عتبٌ ويشرعَ وداد ، ويكشفَ يوماً على هذا التهاجر الغريب . والتنافر العجيب . ولا يعرف مَن الظالمُ منّا منَ المظلوم ؛ ولا مَن المحكومُ عليه من المحكوم له ؛ لأضربتُ عنها صفحاً ، وطويتُ دونها كشحاً ؛ ولسددتُ عليها أذني ، وسايرتها ساحباً رَسَني ، ولقد لقيتُ بعدُ فلاناً فذكّر بصفاتك ، وأثنى باتّساع آدابك وكثرة أدواتك . وسألني عن الخلة ، وأشار إلى هذه السمة بيننا والوصلة . فقلت : لا خلة ولاخلال، ولا وصلة ولا اتصال . فكأنه أنكر ذلك ؛ وهذا هو الذي أثار من هذا الكتاب ، ما لم يكنْ في الحساب ؛ ودونكه هراءً غَثّاً ، وهباءً منبثاً . وهاك إليه[2] ما يوازيه[3] عن الموازنة والمقاربة لؤماً ودقة ، وركاكةً لا رقة :

أبا أيوبَ والأيامُ لا تبقى على حالِ
وأصبحتُ مقلاً رَهْنَ إذلالٍ وإقلال
لئن رحتَ رخيَّ البال ذا جاهٍ وذا مال
ومركوبٍ وغاشيةٍ وأكمامٍ وأذيال
فإنكَ حدُّ أشكالي وأشباهي وأمثالي
بحكم الأدب العالي الـ منيف المونق الحالي
ولكني أنا التالي وأنت السابقُ العالي

---

١ من قول ذي الأصبع العدواني (شرح ابن الأنباري : ٣٢٥ ، المفضلية : ٣١) :
لا يُخرج الكره مني غير مأبية ولا ألين لمن لا يبتغي ليني

٢ وهاك إليه : سقطت من ط .

٣ ط : يوازنه ؛ د : يوارثه .

فكم خيّمْتَ من قلبي بدارٍ منك محلال
وقد كان التلاقي من أمانيَّ وآمالي
فلما أنْ تلاقينا على ما قد تصدّى لي
فلم تبدأ بتسليمٍ ولم تنشطْ لتسآلي
كما يلزمُ أمثالكَ تأنيساً لأمثالي
تفَاصَلْنَا على الحين وكلٌّ ذاهلٌ سالي
ولولا طيبُ نفسٍ قلتُ كلٌّ شانىءٌ قالي
وقد كنّا كما أنتم ولا بأسَ على حال
وقدْ يُعْقَبُ وادي القوم خِصباً بعد إمحال

وكأني بك قد قلتَ عند تصفح هذه الرقعة : هذان حمارا العبادي كُسَيْرٌ وَعُوَيْرٌ ، وكلٌّ غير خير [1] ، ثم ثنيت بقولهم : « مَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ » [2] ، وثلّثت بقول من يسمع :

سبكناه ونحسبُهُ لجيناً فأبدى الكيرُ عن خَبَثِ الحديد [3]

فمهلاً : فمن أنبأكَ أني أتَشَبَّعُ بما لا أملك ، فأقول : مَنْ عبدُ الحميد وابن العميد ، ومن الوليد وابن الوليد ، لاها الله ! ! إني لأربعُ على ظلعي وأعلمُ قصرَ باعي ، ولا أجهل سقوطَ بضاعتي ، وهل غيرُ ألفاظٍ لفّقتها

---

١ انظر المثل في جمهرة العسكري ٢ : ١٥١ (تحقيق أبو الفضل) والفاخر : ١٧٨ واللسان (دور) ، وسئل العبادي عن حمارين له أيهما أردأ فقال : هذا ثم هذا .
٢ المثل في فصل المقال : ٤١٢ والميداني ٢ : ١٦٩ والعسكري ٢ : ٢٦٣ (تحقيق أبو الفضل) .
٣ التمثيل والمحاضرة : ٢٨٨ (دون نسبة) .

بمبلغ علمي ، عبّرتُ بها عن ذات نفسي ؛ وأمّا إنْ سُمْتَني في هذا الباب مَدَاكَ ، ورمتَ مني ما لا يتعاطاه سواك ، فمن للسُّها بتمام القَمَر ، ومن للدآدي بأنوار العُشَر[1] وأوضاح الغُرَر ؟ ! فأرْشِدْنا ، أكرمَكَ الله ، وسدّدنا ، يرحمك الله .

وانفح علينا من كلامك نفحةً إنْ كانت الأخلاقُ مما توهبُ

وبعد فاني :

أناقشكمْ ووراءَ النقاش أنفُ العَلوق ورئمانهُ[2]
وأهجركمْ هَجْرَ مُستعتبٍ وكم وامقٍ طالَ هجرانُهُ

وكُلِّفَ مخاطبةَ عروسٍ فكتب رقعةً قال فيها[3]: الكلفةُ بيننا — أعزّك الله — جدٌّ ساقطة ، والحال الجامعةُ لنا في أقصى حدٍّ المؤانسة والمباسطة ، فلا نُكْبِرَ أن نتباثَّ السر[4] المحجَّبَ ، ولا غَرْوَ[5] أن نتكاشف المغيَّب ، واتصل بي دخولُكَ بعقيلة أترابها ، وبيضة خدْرِهَا وربَّة محرابها ، تشاطرُكَ نَسْلَكَ ،

---

1 الدآدي : ليالي أواخر الشهر ، والعشر : ثلاث من ليالي الشهر بعد التسع ، وفي ط د س : ومن الوادي

2 أراه أخذه من قول الشاعر (اللسان : رئم ، والخزانة ٤ : ٤٥٥) :

أم كيف ينفع ما تعطي العلوق به رئمان أنف إذا ما ضن باللبن

والعلوق التي لا ترأم ولدها ولا تدر عليه ، والرئمان : عطفها ومحبتها ، وهذا البيت مثل يضرب لكل من يعد بلسانه كل جميل ولا يفعله لأن قلبه منطو على ضده .

3 وردت الرسالة في العطاء الجزيل : ١١٢ .

4 ط د : السحر .

5 من والعطاء : ولا عجب .

كما شاطرتك أصلَكَ ، التي [١٤٢ ب] لم تكن تصلحُ إلا لَها ولم [1] تكن تصلحُ إلا لك ، فَخَدَمتكَ بالنيَّة ، وَحَضَرتكَ على بعد المشقّة وتقاذف الطيَّة ، وسألتُ الله أن يباركَ لكَ ويباركَ عليك ، ويجمعَ بينكما في خير وعافية ، على أسعد الجدِّ وأيمنِ الطير إلى آخر القافية ؛ ثم ترقَّبْتُ كتابَكَ مُوْدعاً من وصفِ حالك، ما ينبىءُ فحواه عن اجتماعِ شَمْلكَ ونعمةِ بالك، فرابني التواؤه ، وَقَدَحَ في نشاطي توقفُه وإبطاؤه ، وتسلَّطَتْ عليَّ الظنون، وخفتُ ما عسى أن لا يكون، وساءني أن أستمطرَ من الأملِ جَهاماً، وأستنصر [2] لدى ذلك العملِ كهاماً ، ويحيدَ صاحبُكَ مُعَرِّداً [3] عن المناجزة ، [لائذاً بالمحاجزة] [4] منقطعاً في موضع الحجج [5]، مُبْدعاً به [6] عند مُسْتَقْبَلِ [7] مَفْرِقِ الطريقِ ولَقَم المنهج :

تريدُ جوّاً ويريدُ بَرّا كأنما أسْعِطَ شيئاً مُرّا

ثم قلت : لعلَّه قد حَظِيَ بما جُنِيَ له ، فافتتح الحصنَ الذي نازله قسراً ، وتخلَّله كيف شاء مجالاً ومكرّاً [8]، وأفضى به انصداعُ ما صدعه إلى

---

١ ط د : ولا .
٢ ط : ويستنصر .
٣ العطاء : مفرداً .
٤ زيادة من العطاء الجزيل .
٥ ط د : الحج .
٦ مبدع به : مخذول منقطع .
٧ العطاء : عندما استقبل .
٨ ط : وأكدا ؛ د : وكدا ، وأثبت ما في س والعطاء .

التئام ، وانشعابُ ما شَعَبَهُ إلى انتظامٍ والتحام ، وَلُهِيَ[1] بتوابع هذه الحال التي هي أخت[2] الامرة ، وجامعةُ أفانينِ المسرَّة ، عن صديقٍ يصله بكتاب إليه يعلمه ، وإن يكن ذلك فَهناك ، وظَفِرَتْ يداك، وإنْ يكنْ ما عداه ، ويكفي الله ، فمعَ اليومِ غدٌ ، وفي اللَّمَمِ خلالَ ذلك متعلَّل[3] ، ثم لا يشغل عن الكتابِ جَذَلٌ ، ولا يحولُ دونه خَجَلٌ .

جوابها من إنشائه أيضاً[4] : الكلامُ مأثورٌ، والإفراطُ في الانبساطِ حِجْرٌ محجورٌ ، وقديماً جَرَّ على أهليه ، وأثار عليهم التقاطعَ من مجاثمه وأبرزه من مطاويه ، فسبيل ما وردني الآن كتابك المقتحِمُ هذا الباب المتحامى ، إلاَّ أنَّ ما عوَّلتَ عليه ، وأسندتَ إليه ، من تمكُّنِ الألفة ، وارتفاعِ الكُلْفةِ ، سوَّغَ بعضَ المغزى . وقد وقفتُ على مَقْطَعه ، وعجبتُ من التفرغ لمودَّعه ، فلئن[5] كنتَ مندِّراً فليخفَّ وَقْعُكَ[6]، أو حَذِراً على الحقيقة فليُفْرِخْ رَوْعُكَ ، فالحدُّ بحمدِ الله ماضٍ ، وكلا الفريقين راضٍ ، على عُنْفِ التقاضي ، ثم لا بأسَ ولا إبلاس لو عَرَتْ نبوة ، وعَرَضَتْ[7] دونَ المرام كبوة، فربما خان الثِّقاتُ ، في بعضِ الأوقات :

....

١ س : والتهى .
٢ أخت : سقطت من س .
٣ ط د : متقلد .
٤ وردت في العطاء الجزيل : ١١٣ .
٥ العطاء : فان .
٦ ط : فلخف رقعك .
٧ العطاء : وعدت .

وسيف بني عبسٍ وقد كان صارماً نبا بيديْ ورقاءَ عن رأسِ خالدِ [1]

وأرجع [2] فأقول بحكمِ الحالِ ، وعلى شَرْطِ الاستنامةِ والاسترسال : لله أخوك ، الذي لا فرق عندكما بين ما يعروه ويعروك ، فلقد افترَّ عن بازل ، وجَرَّدَ عن قاصل [3] ، ورمى بلا أفْوَقَ ناصل ، ولو لقيتَ أعداءَكَ بمثلِ صاحبه مَضاءً وإقداماً ، وتسرّعاً واستقداماً :

طَعَنْتَهُمْ سُلْكَى وَمَخْلُوجَةً لَفْتَكَ لامينِ على نَابلِ [4]

قال ابن بسّام : وينظر من معنى هذا الخطاب والجواب أبياتٌ خاطب بها بعض أهلِ عصرنا أحدَ إخوانه وقد ابتنى بزوجة ، قال فيها ، وضمَّن بيتَ ابنِ حجَّاج :

أبا بكر اسمعْها وراجعْ مؤنّساً ولو بقسيمٍ أو بمصراعٍ قافيهْ
فإنا دخلنا بالفتاةِ ولم يكنْ هنالك واشٍ غير مسْكٍ وغاليه
وكنَّا رَجَوْنَا وَصْلَ الاسبوعِ كلَّه لننعمَ فيه فابتلينا بداهيه
بحيضٍ تمادى فامتنعت لحرمتي فدمعة أيري فوقَ خصييه جاريه
« إذا لم يكن للأير بختٌ تعذَّرَتْ عليه وجوه النيك من كلٍّ ناحيه »

---

١ البيت للفرزدق يقوله معتذراً عن نبو ضربته حين أمره سليمان بن عبد الملك بقتل أحد الأسرى (انظر شرح النقائض : ٣٨٣ — ٣٨٤) وورقاء هو ابن زهير بن جذيمة العبسي ، ضرب خالد بن جعفر ، وخالد مكب على أبيه زهير ، فلم يصنع سيف ورقاء شيئاً ، وانظر ثمار القلوب : ٢٢٠ — ٢٢٢ .

٢ س : وأنا أرجع .

٣ ط : فاصل .

٤ البيت لامرىء القيس (ديوانه : ١٢٠) وروايته : نطعنهم .

قال فأجابه الآخر بهذه الأبيات : [١٤٣ أ]

لك الخير لا تعجلْ فإنك مُقْمِرٌ ... وفي الليل ما تسريه إنْ كنت ساريه
طعنتَ الفتاةَ البكر طعنةَ ثائرٍ ... بمثلِ ذراعِ البَكْرِ شُدَّ بآخيه
حسبتَ النجيعَ القانئَ اللونِ حيضةً ... وما كان إلا العَوْدَ في الحينِ ثانيه
غدوتَ على شكلٍ تدانت طبوقه[١] ... فباعدتَ من أقطارِهِ المتدانيه
ولو كنتَ من أهلِ المساحةِ لم تدعْ ... مكسَّرَةً أضلاعَه المتساويه
ولكنْ له قُطْرٌ يقوم مقامه ... هو الشكل إلا أنّه منه زاويه
وإن لم يكن إلا الذي كان فاتّئدْ ... فإنّك باقٍ عندها وهي باقيه

ومن شعر أبي بكر بن قزمان مما أنشدنيه لنفسه ، قوله[٢] .

ركبوا السيولَ من الخيول وركّبوا ... فوق العوالي السّمْرِ زرْقَ نطافِ
واستودعوا الخلَلَ الجداولَ واصطفوا ... بَيضَ الرؤوس من الحباب الطافي
وتجلّلوا الغُدْرانَ من ماذيِّهم ... مرتجّةً إلا على الأكتاف

وأنشدني أيضاً لنفسه :

قلت للعينِ حين أذْرَتْ على الخدِّ دموعاً لا تستفيق[٣] انهمالا
جزَعاً من صدودِ أحورَ كمْ حيَّر بالاً وكمْ جنَى بَلْبالا
لا ترومي مثالَ ما لن تنالي[٤] والمحيهِ كما رأيتِ الهلالا

---

١ س : شخوصه .
٢ منها بيتان في القلائد والخريدة ٣ : ٤٦٦ والمغرب والنفح .
٣ س : ما تستبين .
٤ ط : ان تنالا .

فأجابتْ لقد أحلتَ مثالاً هو أنأى من الهلالِ منالا
إن بدرَ السّماءِ يطلع للأبصارِ مُمْسىً ومُصْبحاً وزوالا
وإذا ما استسرَّ آبَ وقد ذابَ اكتئاباً من أن يُغبَّ وصالا
وَهُوَ البدر قد أجدَّ ملالاً واجتناباً كما أجدَّ كمالا
يتوارى من العيون نهاراً ومع الليل لا يزور خيالا

وأنشدني له أيضاً :

لا تطمئنَّ إلى أحَدْ وأحذر وشمّرْ واستعدّ
فالكلّ كلبٌ مُؤْسَدٌ إلاَّ إذا وجدوا أسَدْ

في ذكر الأديب أبي زيد عبد الرحمن بن مقّانا الأشبوني [1]

من شعراءِ غربنا المشاهير ، وله شعرٌ يُعْرِب عن أدبٍ غزير ، تصرّفَ فيه تصرّفَ المطبوعين المجيدين ، في عنفوان شبابه وابتداء حاله ، ثم تراجع طَبْعُهُ عند اكتهاله .

أخبرني الوزير الفقيه أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الفهري [2] المقتول بالأشبونة

---

١ له ترجمة في الجذوة : ٢٦٠ (بغية الملتمس رقم: ١٠٤٤) والمغرب ١: ٤١٣ والرايات: ٦٢ (٣٣ غ) وأشار في النفح ١ : ٢١٤ إلى مدحه إدريس بن يحيى الحمودي صاحب مالقة ، وأورد قصيدته النونيةفي مدح ادريس ١ : ٤٣٣ وذكر في ٣ : ٢٦٤ اجتماعه مع ابن الشقاق عند ابن دري بجيان (وانظر أيضاً مسالك الأبصار ١١ : ٤٣٨ وبدائع البدائه: ٣٦٥ – ٣٦٦) وابن الشقاق هذا هو المنفتل،وقد مرت ترجمته في القسم الأول ص: ٧٥٤.
٢ قد مرت الإشارة إلى قتله في هذا القسم ص : ٣٧٨ والقسم الثالث ص : ٧٥٤ .

— رفع الله منزلته ، وقتل قَتَلَتَه — قال : كان أبو زيد بن مقانا قد انصرف شيخاً إلى وطنه عندنا ، بعد أن جال أقطارَ الأندلس على رؤساء الجزيرة ، قال : فمررت به يوماً بقريته التي تدعى بالقبذاق [1] من ساحل شِنْتَرَة [2] ، وبيده مزبرة [3] ، فلما رأيتُه ملت إليه ومال إليَّ ، وأخذ بيدي [١٤٣ ب] وجلسنا ننظر في حَرَّاثٍ يحرثُ بين يديه ، فاستنشدته فأنشدني ارتجالاً لوقته :

أيا عامرَ القبذاقِ لا تخلُ من زرعٍ ... ومن بَصَلٍ نزرٍ وشيءٍ من القَرْعِ
وإن كنتَ ذا عزمٍ فلا بدَّ من رحىً ... سحابيةٍ لا تستمدُّ من النبع
فما أرضُ قبذاقٍ وإن جادَ عامها ... بموفية عشرين من حزَمِ الزرع
وإنْ أنجبتْ شيئاً وزادتْ تواترتْ ... إليها خنازيرُ المفاوزِ في جمع
بها قلّة [4] من كلِّ خيرٍ ونَفْعَةٍ ... كقلّةِ ما تدري لديَّ من السمع
تركتُ الملوك الخالعين بُرُودَهُمْ ... عليَّ وسيري في المواكبِ والنقع
وأصبحتُ في قبذاقَ أحْصُدُ شوكَها ... بمزَبرَةٍ رعشاءَ نابيةِ القطع
فإن قيل تهجوها وأنت تحبّها ... فقلْ إنَّ حُبَّ الخلِّ من شرفِ الطبع
وحُبّ أبي بكر المظفّر قادني ... وإحسانُهُ حتى انصرفتُ إلى ربعي

وهذا من الشعر النازل البارد ، عند ما له من القصائد القلائد . ووصف

---

١ في د : الفيذاق ، وفي ط : القيداق ، الفنداق ، وفي س : القيزان ؛ العيران ، القيدان ، وقد أثبتها محقق المغرب (١ : ٤١٣) « القبذاق » .
٢ شنترة (Cintra) من مدن البرتغال (الروض المعطار رقم : ١٠٢) .
٣ المزبرة : المنجل ، أو المنجل الصغير (ملحق دوزي) .
٤ ط : قلت .

نفسه بقلّة السمع ، لأنه كان كما زعموا كذلك . وهو القائل من جملة أبيات :

سمعتُ الكَنْكَ[1] يصرُخُ في الربيع   على ما بي من الصَّمم الطبيعي

جملة من شعره في أوصاف شتى

من ذلك من قصيدة في منذر بن يحيي صاحب سرقسطة :

لمن طَلَلٌ دارسٌ باللوى   كحاشية البردِ أو كالرّدا
رمادٌ ونؤيٌ كَكُحْلِ العروسِ   ورسمٌ كجسمٍ براهُ الهوى
غدا موسماً لوفود البلى   وراح مراحاً لسرْبِ المها
عجبتُ لطيفِ خيالٍ سرى   من السِّدْرِ أنّى إليَّ اهتدى
وكيف تجاوَزَ جَوْزَ الحجازِ   وَجَوْزَ[2] الخميسِ وَسدْرَ المنى
ولم يَثْنه حَرُّ نارِ الضلوعِ   وبحرُ الدموعِ وريحُ النّوى
فذكَّرَ أيامَنَا بالعقيقِ   وليلتنا بهضابِ الحمى
وقولي وصَيفيَ بالمَنْصَفَيْن   وقد نقش[3] الصبحُ ثوبَ الدّجى
أسِرْبُ العذارى بسقطِ اللوى   مشى الخيزلى أم نجومُ السما
برزنَ لنا عاطراتِ الجيوبِ   ينازِعْنَ في الحُسْنِ شمسَ الضحى

---

١ لعله يريد الكنكلة وهي آلة موسيقية (ملحق دوزي) ، أو الجنك (وجيمه وكافه عجميتان) ويطلق على الدف الذي يضرب به ، ثم عرب بالجيم والكاف العربيتين ، وفي س : الكد .

٢ س : حوز البحار وحوز .

٣ ط : نفش ؛ س : نفس .

خماصَ البطون مراضَ الجفون ... أقمنَ الشعورَ مقام الرِّدا
لدانَ القدود حسانَ الخدود ... صغارَ النهود طوالَ الطُّلى
عذابَ الثغور لطافَ الخصور ... خفافَ الصدور ثقال الخطى
مشينَ الهوينا ووادي الخزامى ... يودُّ من البشرِ أنْ لو مشى
فما زلنَ يرفُلْنَ حتى إذا ... عقدن لواءَ الهوى باللوى

وفيها يقول :

وقد أغتدي في سبيل العلا ... بذي مَيْعَةٍ من نِتاج الصّبا [١٤٤أ]
يهيم بذي همة نازحٍ ... براه السرى مثلَ بري الظّبا [١]
كأنَّ فؤادي بوادي الغضا ... وقلبَ الدليل جناحُ القطا
كأن عقائلَ برقٍ [٢] الدّجى ... خلالَ الحبيِّ بريقُ الظُّبا
ويهدأ طوراً كغمزِ العيونِ ... فيلتاعُ من لوعتي ما هدا
إذا قلقلَ الرعدُ من فوقه [٣] ... تقلقل قلبي له والحشا
كأنَّ السحائبَ في سَيْرِها ... بنودُ المظفَّرِ يَوْمَ الوَغى
نجيبُ نجيبَ إذا استُصرِخَتْ ... وفارسُهَا البَطَلُ المنتقى
فتىً يقرعُ النبعَ بالنبعِ لا ... جبانَ الجنانِ ولا مزدهى
لو الفَلَكُ انخرّ من فوقه ... عليه بأقطاره ما شكا
حَمولٌ لأعباءِ هذا الزمانِ ... ولا يرهبُ الموتَ عند اللقا

---

١ سقط البيت من ط د .
٢ د : بدر .
٣ س : في برقه .

إذا سار يحيى إلى غارة فويلٌ لأعدائه أينما [1]
بجيشين : جيشٍ يهدُّ الرُّبى وجيشٍ يظلّله في الهوا
مطاعمها من شغافِ القلوب ومشربُها من نجيعِ الدّما
إليكَ ابنَ منذرٍ المنتقَى قرعتُ يدَ الخطب قَرْعَ العصا
فقال مناديك لي مرحباً وقالت أياديك لي حبَّذا
دعوتَ فأسْمَعْتَ بالمرهفاتِ صُمَّ الأعادي وصُمَّ الصفا
وَشِمْتَ سيوفَكَ في جِلَّقٍ فشامت خراسانُ منها الحيا

قال ابن بسّام : جلّق وادٍ بشرق الأندلس ، فكذبةُ أبي زيدٍ في هذا البيت أشنعُ من كذبة مهلهل في قوله [2] :

فلولا الريحُ أُسْمِعَ أهلُ حجرٍ صليلَ البَيْضِ تُقْرَعُ بالذكورِ

وخرج أبو زيد يوماً من بلنسية إلى طرطوشة ليلقى صاحبها مقاتلاً [3] الفتى ، فلما ورد عليها ، مُنِعَ الجوازَ ، فكتب إلى مقاتل :

إن كان واديك نيلاً لا يُجازُ به فما لنا قد حُرِمْنا النَّيْلَ والنيلا
إن كان ذنبي خروجي من بلنسيةٍ فما كفرتُ ولا بَدَّلْتُ تبديلا
« هي المقاديرُ تجري في أعنتها » ليقضيَ الله أمراً كان مفعولا

---

١ ط : وابنما .
٢ الأغاني ٥ : ٣٥ .
٣ ط د : مقاتل، ومقاتل خلف لبيباً الفتى في رياسة طرطوشة وتسمى بسيف الملة، وكان عنده من العمال والكتاب ما لم يكن عند غيره ؛ ولما توفي ولي طرطوشة الفتى نبيل ، وفي سنة ٤٥٢ خرج عنها وأسلمها للمقتدر بن هود (البيان المغرب ٣ : ٢٢٤ . ٢٥٠) .

وله القصيدة المشهورة في ابن حمود يتداول القوّالون أكثر أبياتها ، لعذوبة ألفاظها وسلاستها وهي التي أولها [1] :

أَلِبَرْقٍ لائحٍ من أندرينْ ... ذَرَفَتْ عيناك بالماءِ [2] المعين
لعبتْ أسْيَافُهُ عَارِيَةً ... كمخاريقَ بأيدي اللاعبين
ولصوتِ الرعدِ زَجْرٌ وحنين ... ولقلبي زَفَرَاتٌ وأنِينْ
وأنادي [3] في الدُّجى عاذلتي ... ويك لا أسْمَعُ قَوْلَ العاذلين
عيَّرتني بسقامٍ وضنىً ... إنَّ هذين لَزَيْنُ العاشقين

ومنها : [١٤٤ ب]

قد بدا لي وضَحُ الصبح المبين ... فاسقنيها قبل تكبيرِ الأذين
سقّنيها مزَّةً صافيةً ... عُتّقَتْ [4] في دنّها بضعَ سنينْ [5]
نثر المزجُ على مفرقها ... دُرَراً عامتْ فعادت كالبُرِين
مَعَ فتيانٍ كرامٍ نُجُبٍ ... يتهادَوْنَ رياحينَ المجون
وعليهم زاجرٌ من حِلْمهم ... ولديهم قاصراتُ الطّرْفِ عِين
شربوا الراحَ على خدِّ فتىً [6] ... نوَّرَ الوردُ به والياسمين

---

١ انظر أبياتاً منها في النفح ١ : ٤٣٣ والمغرب والمسالك والرايات ومنها بيتان في الوافي للرندي : ١١٠ .
٢ المغرب : بالدمع .
٣ النفح : وأناجي .
٤ النفح والمغرب : مشمولة لبثت .
٥ سقط هذا البيت من س .
٦ المغرب والنفح والرايات : رشا .

رجّلَتْ دايتَهُ[1] عامدةً سَبَجَ الشعرِ على عاجِ الجبين
لوتِ الصُّدغَ على حاجبه ضمةَ اللام على عَطْفَةِ نون
فترى غصناً على دِعْصٍ نقاً وترى ليلاً[2] على صُبْحٍ مبين
ويُسقَوْنَ إذا ما شربوا بأباريقَ وكأسٍ من معين
ومصابيحُ الدّجى قد أطفئت في بقايا من سوادِ الليلِ جُون
وكأنّ الطلَّ مسكٌ في الثرى وكأنّ النَّوْرَ[3] دُرٌّ في الغصون
والندى يقطرُ من نرجسِهِ كدموعٍ أسبلتهنّ الجفون
والثريّا قد علَتْ في أفقها[4] كقضيبٍ زاهرٍ من ياسمين
وانبرى جُنْحُ الدجى عن أفقه[5] كغرابٍ طار عن بَيْضٍ كنين
وكأنّ الشمسَ لمّا أشرقت فانثنت عنها عيونُ الناظرين
وجْهُ إدريسَ بنُ يحيى بن علي بن حمّودٍ أميرِ المؤمنين
خطّ بالمسْكِ على أبوابِهِ ادخلوها بسلام آمنين
وينادي الجودُ في آفاقه يمّموا قصرَ أمير المسلمين
ملكٌ ذو هيبة لكنّه خاشعٌ لله ربِّ العالمين
وإذا ما رُفعتْ رايتُهُ خفقَتْ بين جناحَيْ جبرئين
وإذا أشكَلَ خَطْبٌ مُعْضِلٌ صَدَعَ الشكَّ بمصباح اليقين
وإذا راهنَ في السَّبْقِ أتى وبيُمْناهُ لواءُ السابقين

---

١. المغرب: دايابته ، الرايات : وجلت آياته (وهو خطأ) .
٢. الرايات : فانثنى ... وبدا ليل .
٣. النفح : الطل .
٤. الرايات : هوت من أفقها .
٥. الرايات : صبحه

يا بني أحمدَ يا خيرَ الورى لأبيكمْ كان رفدُ[1] المسلمين
نزل الوحيُ عليه فاحتبى في الدُّجى فوقهمُ الرُّوحُ الأمين
خلقوا من ماءِ عدلٍ وتقىً وجميعُ الناسِ من ماءٍ وطين
انظرونا نقتبسْ من نوركم إنَّه من نورِ ربِّ العالمين

قوله : « والندى يقطر من نرجسه » . . . البيت ، أخذه من قول ابن الرومي ، ونقص منه وقصَّر عنه حيث يقول[2] :

كأنَّ تلك الدموعَ قَطْرُ ندىً يقطرُ من نرجسٍ على ورد

وقوله : « وانبرى جنح الدُّجى » . . . البيت ، مأخوذ من قول يزيد ابن الطثْرية[3] حين حلق أخوه لمَّته فقال[4] : [١٤٥ أ]

وغُودِرَ رأسي كالصُخَيْرَةِ أشرفَتْ عليها عُقابٌ ثم طارتْ عُقابُها

وقوله : « وإذا ما رفعت رايته » . . البيت ، حسد ابنَ هانيء في هذيانه ، وتقيَّلَهُ حيث يقول في خذلانه[5] :

---

١ النفح : وفد .
٢ ديوان ابن الرومي ٢ : ٧٦٧ والمختار : ٢٤٥ وزهر الآداب : ٥٣٠ .
٣ هو يزيد بن سلمة بن سمرة من عامر بن صعصعة يعرف بابن الطثرية ، كان شاعراً مطبوعاً من شعراء العصر الأموي ، وقد جمع شعره أبو الفرج الأصفهاني والطوسي ، وقتل مع الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ (ابن خلكان ٦ : ٣٦٧ والشعر والشعراء ٣٤٠ والأغاني ٨ : ١٥٧ والسمط : ١٠٣) .
٤ الأغاني ٨ : ١٨١ .
٥ ديوان ابن هانىء : ١١٩

أمديرَهَا من حيثُ دارَ لطالما   زاحمتَ تحت ركابِهِ جبريلا

وقوله في صفة الثريا : « كقضيبٍ زاهرٍ من ياسمين » من أحسن ما سمعته في تشبيه الثريّا مجرّداً ، وإن كان قد تقدّم في تقسيم التشبيه وأحسن ما شاء فيه حيث يقول :

في الغرب كأسٌ وفي مطالعها   قُرْطٌ وفي أوسطِ السَّما قَدَمُ

وقد قال الناس في الثريا فأكثروا ، وأول مَنْ سُمِعَ له في ذلك الملكُ الضلّيل ، حيث يقول[1] :

إذا ما الثريّا في السماءِ تَعَرَّضَتْ   تعرُّضَ أثناءِ الوشاح المفصَّلِ

وقد قيل : إن الثريّا لا تتعرض ، وإنما تتعرَّض الجوزاء ، ولم تَتَّزِنْ له ، أو وَهِمَ ، وقال ذو الرمّة[2] :

قطعتُ اعتسافاً والثريّا كأنّها   على قمَّةِ الرأسِ ابنُ ماءٍ محلِّقُ

وقال أيضاً[3] :

أقامتْ به حتى ذوىالعودُ في الثرى   وساق الثريا في مُلاءَتِهِ الفجرُ

١ ديوانه : ١٤ ومعاني العسكري ١ : ٣٣٤ وتشبيهات ابن أبي عون : ٤ والأزمنة والأمكنة ٢ : ٢٣٤ .

٢ ديوانه ١ : ٤٩٠ والأنواء : ٤٠ والأزمنة والأمكنة ٢ : ٢٣٤ واللسان (عسف – حلق) وتشبيهات ابن أبي عون : ٥ .

٣ ديوان ذي الرمة ١ : ٥٦١ وزهر الآداب : ٩٧٨ والأنواء : ٣٠ .

وقال التهامي[1] :

وللثريّا ركودٌ فوق أرْحُلِنَا كأنَّها قطعةٌ من فروةِ النَّمِرِ

وقال محمد بن هانىء[2] :

وولَّتْ نجومٌ للثريّا كأنّها خواتمُ تبدو في بنان يدٍ تَخْفَى

وكرر هذا التشبيه في موضع آخر فقال[3] :

وحتى أرى الجوزاءَ تنثرُ عقدها وتسقطُ من كفِّ الثريّا الخواتمُ

وقال آخر :

إلى أن تولَّتْ والثريَّا كأنَّها على حُلَّةٍ زرقاء جيبٌ مُدَنَّرُ

وقال ابن المعتز[4] :

وكأنَّ البدر لمّا لاح من تحتِ الثريّا
ملكٌ أقبلَ في تا جٍ يفدَّى ويحيَّا

وقال المعرّي[5] :

---

١ ديوان التهامي : ٤٢ .
٢ ديوان ابن هانيء : ٢٣٩ .
٣ ديوان ابن هانيء : ٢٨٨ .
٤ ديوان ابن المعتز ٣ : ١٢٣ والأوراق : ٢٠٦ – ٢٠٧ .
٥ شروح السقط : ٢١٤ – ٢١٥ .

وقد بسطتْ إلى الأرض[1] الثريّا   يداً غَلِقَتْ بأنْملها الرهانُ
كأنَّ يمينَها[2] سرقتك شيئاً   ومقطوعٌ على السَّرَقِ البنان

ومما قيل في ذكر الثريّا ، وإن لم يكنْ فيه صفة تشبيه ، قول الآخر[3] :

خليليَّ إني للثريّا لحاسدُ   وإني على ريب الزمانِ لواجدُ
أيُجْمَعُ منها شَملها وهي سبعةٌ   وأفقدُ من أحببتُهُ وهو واحد

وقال المعرّي[4] :

والثريّا رهينةٌ بافتراق[5] الشَّملِ حتى تُعَدَّ في الأفرادِ

ولأبي زيد بن مقانا ، مما يتعلق بذكر الثريا من جملة قصيدة في مجاهد العامري ، قال فيها[6] :

ولما سَقَتْنا من آبريقها[7]   لثمنا يَدَيْها وخلخالَها
وبتنا وباتتْ على ساقها   تصفّق للشَّرْبِ جريالها
كأنَّ نجومَ الدجى روضةٌ   تجرُّ بها السّحْبُ أذيالها
كأنَّ الثريّا بها رايةٌ   يقودُ الموفّقُ أبطالها

---

١ شروح السقط : الغرب .
٢ شروح السقط : يداً لها .
٣ هو لابن طباطبا في اليتيمة ١ : ٤٢٩ وانظر سرور النفس : ١٣٩ وشروح السقط: ١٠٠١
٤ شروح السقط : ١٠٠١ .
٥ شروح السقط : باجتماع .
٦ المسالك ١١ : ٤٤٠ .
٧ س و المسالك : بابريقها .

في ذكر الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل القرشي الأشبوني[1]

قال ابن بسّام : وكان يعرف عندنا بالطيطل ، ممّنْ نظم الدرَّ المفصَّل ، لا سيما في الزهد ، فإن أهلَ أوانِهِ ، كانوا يشبهونه بأبي العتاهية في زمانه .

أنشدني الوزير الفقيه أبو عبد الله بن ابراهيم [١٤٥ ب] قال : أنشدني أبو الحسن الطيطل لنفسه يصف نملة[2] :

وذاتِ كشحٍ أهيفٍ شَخْتِ ... كأنّما بولغَ في النحتِ
زنجيّة تحملُ أقواتَها ... في مثل حَدَّي طَرَفِ الجفت[3]
كأنما آخرها قطرةٌ ... صغيرةٌ من قاطرِ الزفت
أو نقطةٌ جامدة خلفها ... قد سَقَطَتْ من قلم المفتي
تسري اعتسافاً ولقد تهتدي ... في ظُلْمةِ الليلِ إلى الخرْتِ[4]
تشتدُّ في الأرضِ على أرجلٍ ... كشعرة المخْدَجِ في النبت
تشهدُ أنَّ الله خلاّقُها ... رازقُها في ذلك السّمت

---

١ أشبوني شقباني الأصل ، قرأ العلم بقرطبة وأخذ عنطائفة منعلمائها وأكثر من حفظ الآداب والأشعار حتى ليقال إنه حفظ شعر عشرين امرأة ، وكان مشاركاً في الحديث والفقه ، ثم مال إلى النسك والتقشف ونظم أشعاراً في الزهد ، واتخذ لنفسه رابطة في رقعة من جنة على بحيرة شقبان عرفت برابطة الطيطل ولزم بها العبادة إلى أن توفي (انظر الذيل والتكملة ٥ : ١٩٥ والجذوة : ٢٩٤ وفيها « الطيطن » والبغية رقم : ١٢١٢ والمسالك ١١: ٤٤٠) .

٢ الجذوة والبغية والذيل والتكملة ٥ : ١٩٦ والمسالك .

٣ الجفت : قشرة رقيقة تكون بين اللب والقشر في البلوط (تحفة الأحباب : ١٣ وأمثال الزجالي رقم : ٢١٣٠) .

٤ الخرت : ثقب الابرة .

سبحانَ مَنْ يعلمُ تسبيحَها ووزنها من زِنَةِ البُخْتِ
فنسبتي منها لفرطِ الضنى نسبتُها منه بلا كتٍّ[1]
كلاّ ولو حاولتُ من رقّةٍ لحلتُ بين الثوب والتخت
أرقّ من هذا وأضنى ضنىً رقةُ ذهني وضنى بختي
لكنَّ نفسي واعتلا همتي نجم لبيذختِ كبيذخت

وهذا من قول المتنبي[2] :

وعزمةٌ بعثتها همـّةٌ زُحَلٌ من تحتها بمحلٍّ[3] التربِ من زُحَلِ

وأنشدني أيضاً له في الزهد :

يا غافلاً شأنُهُ الرقادُ كأنّما غيرك المرادُ
والموتُ يرعاك كلَّ حينٍ فكيف لم يَجْفُكَ المهاد
فهيِّ زاداً وزد مزاداً فقد طوى عمرَكَ النَّفاد
إذ سَفَرُ الموتِ فيه شَحْطٌ والقربُ منه هو البعاد
ما حالُ سَفْرٍ بغير زادِ والأرضُ قفرٌ ولا مزاد
ضمِّرْ جواداً ليومِ سَبْقٍ لمثله يُرْفَعُ الجواد
أين فلانٌ وكم فلانٍ قد غُيِّبوا في الثرى فبادوا
لا تبغِ دنيا فإن عنها ألمؤمنُ المتّقي يذاد
فابنِ لها بالتقى بروجاً تأمنْ إذا رُوِّعَ العباد

---

١ الكت : الإحصاء ؛ ط د س : كفت .

٢ ديوان المتنبي : ٢٦٥ .

٣ الديوان : بمكان .

واعتبر الأرضَ كيف مُدَّتْ فهي لهذا الورى مهاد
ثم السّماء التي أظلّت قد رُفِعَتْ ما لها عماد
كما بناها يبني سواها كما بدانا كذا نُعاد

في ذكر الأديب أبي عبد الله محمد بن البين[1]

أحد الشعراء المجيدين — كان — بحضرة بطليوس ، مستظرف الألفاظ والمعاني ، وكان يميل إلى طريقة محمد بن هاني ، على أن أكثر أهلِ وقتنا وجمهور شعراء عصرنا ، إليها يذهبون ، وعلى قالبه وجدتهم يضربون ؛ ومن أحسن شعر أبي عبدالله قصائده التي على حروف المعجم ، في أبي الأصبغ بن المنخر أيّامَ استوزره المنصور يحي بن المظفر ، [١٤٦ أ] ووصله عليها بمائة مثقال .

فصل له من نثر جعله مقدم[2] تصنيفه ، وصدر تأليفه

قال فيه: وما اختصصته بالثناء تشيّعاً للاخاء ، ولكن لما قلتُ فيه :
تشيّعتُ فيه للحقائقِ والعلا وما أنا فيه للنّهى متشيّعُ

ولقولي فيه[3] :

---

١ له ترجمة في المغرب ١ : ٣٧٠ ورايات المبرزين : ٦٠ (٣١ غ)وذكر في النفح ٣ : ٤٥٣ وانظر المسالك ١١ : ٤٤٠
٢ نثر . . . مقدم : سقط من ط د .
٣ المسالك ١١ : ٤٤١ .

لم أرْضَ إلا فيه نظمَ بدائعٍ حَسَدَتْهُ في منظومها الأمراءُ
مالت إليه بها حقائقُ سُؤددٍ لا كالذي مالتْ به الأهواءِ
أهلُ المدائح سالكٌ في منهجٍ سلكتْ به من قبله[1] الآباء

ولما قال أبو الطيب[2] :

أحبُّكَ يا شمسَ الزمانِ وبدرَهُ وإن لامني فيك السُّها والفراقدُ
وذاك لأن الفضلَ عندك باهرٌ وليس لأن العيشَ عندك بارد

فإيهٍ أبا الأصبغ ، وفدتُ عليك ، وصرْتُ إليك ، وإن كنتُ قد أهديتُ التمرَ إلى هَجَر ، وحاسَنْتُ بقباحتي القمر . فقد تُمْطَرالدأماء[3] ، وللشاكرين على الله ثناء .

ومن تلك القصائدِ قصيدة مهموزة أوَّلها[4] :

هل في الغمامِ الغادة الحسناءُ أسْرَتْ عليها الكلَّةُ الخضراءُ

يقول فيها :

أسرى بها الخَيْزرانُ في أفقِ الدّجى فتضوَّعَتْ عن عَرْفها الأنواءُ
هل كان يطمعُ بالسُّرى في خفيةٍ ما للبدور إذا سَرَيْن خفَاء
كيف الخفاءُ[5] وللشروقِ مجامرٌ في جانبيكِ وللنسيمِ كباء

---

١ ط د : قوله .
٢ ديوان المتنبي : ٣١٤ .
٣ الدأماء : البحر ؛ ط د : الدماء .
٤ منها أبيات في المسالك .
٥ المسالك : النجاء .

يا ربّةَ الخدْرِ التي أضْلَلْتُها ... يومَ النوى ومحلُّها الأحشاء

لم كان والدُكِ الطويلُ نجادُهُ ... ليثاً وأنتِ الظبية العفراء

أشبهته في فتْكِهِ يومَ الوغى ... والسمهريّةُ عَيْنُكِ النجلاء

وكما حكيتِ البأسَ فاحكيه الندى ... فيُرى لديكِ كما لديه حباء

أخفى السُّرى وأذاعه إشراقُهُ ... فالأرضُ منه منيرةٌ زهراء

وكأنّه عيسى يكتّمُ جودَهُ ... فيشيعه منّاً عليه ثناء

نشرت محاسنَهُ قصائد جمةٌ ... مُلِئَتْ بها الخضراءُ والغبراء

أقصائدي جوبي البلاد بذكره ... وعليك من نور الفخارِ رداء

أمّي النجومَ فخبّري عن مَجْده ... فله هنالك في العلا نظراء

وله فيه من أخرى أولها :

أفي كِلَلِ الأظعانِ غزلانُ رملةٍ ... أم احتملتْ فيها جآذر وَجْرَةِ

ولمّا تولّتْ بالجمالِ جِمالُهُمْ ... تولّى جميلُ الصبرِ يومَ تَوَلّتِ

بوادي الكرى لاقيتُها وهي عاطلٌ ... فأرسلتُ دَرَّ العين حين تجلّتِ [١٤٦ب]

إذا نَسَمَتْ ريحُ الصبا في جَنَابها ... ستعرفُ في أنفاسها حَرَّ لوعتي

وإنْ وردتْ ماءَ الفراتِ فإنها ... ستُنْكِرُ في سلسالها طعمَ عبرتي

وهذا كقول أبي الطيب[1] :

أوَمَا وجدتم في الشرابِ[2] ملوحةً ... ممّا أرقرقُ في الفراتِ دموعي

---

١ ديوان المتنبي : ٣٤ .

٢ الديوان : الصراة .

وقال مهيار الديلمي[1] :

بكيتُ على الوادي فحرَّمتُ ماءَهُ ... وكيف يحلُّ الماءُ أكثرُهُ دَمُ

وقال ابن البين من أخرى[2] :

غَصَبُوا الصباحَ فقسَّموه خدودا ... واستَرهفوا[3] قُضُبَ الأراكِ قدودا
ورأوا حَصَى الياقوتِ دون محلِّهم ... فاستبدلوا منه النجومَ عقودا
واستودعوا حَدَقَ المها أجفانَهُمْ ... فسبوا بهنَّ ضراغماً وأسودا
لم يكفِ أن خلفوا[4] الأسنَّةَ والظُّبا ... حتى استنابوا[5] أعيناً وخدودا
وتضافروا بضفائرٍ أبدوا لنا ... ضوءَ النهار بليلها معقودا

ومنها :

صاغوا الثغورَ من الأقاحةِ[6] بينها ... ماءُ الحياةِ لو اغتدى مورودا

ومن المدح :

أبني السيوفِ المشرفيَّةِ نجدةً ... وبني[7] السحابِ المستهلَّةِ جودا

---

١ تجيء ترجمة مهيار في القسم الرابع من الذخيرة ، وانظر ديوانه ٣ : ٣٤٤ .
٢ وردت الأبيات في المغرب والنفح والمسالك .
٣ المغرب والمسالك : واستوهبوا ، النفح : واستنهبوا .
٤ المغرب : ان سلبوا ؛ النفح : لم يكفهم حمل ، المسالك : أن جلبوا .
٥ المغرب والمسالك : استعانوا ؛ النفح : استعاروا .
٦ س : الأقاحي .
٧ ط د : أثنى . . . وثنى .

الدهرُ عندكمُ طريفٌ مُحْدَثٌ وفخاركم ما زالَ فيه تليدا
عطّرتمُ نَفَسَ الزمانِ فأصبحت آثاركمْ في الجيدِ[1] منه عقودا

في ذكر ذي الوزارتين أبي محمد بن هود[2]

كانت قد أزاحتْهُ عن حضرة أسرته سرقسطة ، أسبابٌ غابَ عني شرحها ، فتجوَّلَ على رؤساء أفقنا ، واتخذ آخر أمره حَضرَةَ بطليوس وطناً ،فرحّبَ به المتوكلُ فآواه ، وأجزل قراه ، وولاّه مدينة الأشبونة ، ثم صرفه عنها ، وَصَدَرَ محمودَ السيرة منها ، وكان ممّن تندرُ له الأبياتُ، وتستظرف له بعضُ المقطوعات ، كقوله وقد سئل عمّا اكتسبه في ولايته ، فقال[3] :

وسائلٍ ليَ لمَّا صدرتُ عمَّا وليتُ
ما نلتَ ؟ قلت : ثناءً يبقى معي ما بقيت
وإنْ أمتْ كان بعدي مخلَّداً لا يموت
عفتُ الفضول لعلمي أنْ ليس يُعْدمُ قوت
وصنتُ قدريَ منها تجمّلاً فغنيت

....

١ المسالك : للعطف .
٢ الأمير أبو محمد بن هود واسمه عبدالله (وقال ابن الأبار : لم أقف على اسمه ، الحلة : ١٦٥) نفاه ابن عمه المقتدر عن الثغر (سرقسطة) فقصد طليطلة حضرة ابن ذي النون ثم مل الإقامة هنالك ، فجعل يضطرب ما بين ملوك الطوائف إلى أن استقر عند المتوكل ابن الأفطس (المغرب ٢ : ٤٣٩) ثم ولاه المتوكل الأشبونة (المغرب ١ : ٤١١) ثم صرف عنها محمود السيرة (وانظر المسالك ١١ : ٤٤١ ، والحلة ٢ : ١٦٥ – ١٦٦) .
٣ الحلة : ١٦٦ .

وهو القائل وقد خرج عن سرقسطة [1] :

ضللتم جميعاً يالَ هودٍ عن الهدى ... وضيعتمُ الرأيَ الموفَّقَ أجمعا
وشنتمْ يمينَ الملك بي فقطعتُمُ ... بأيديكمُ منها وبالغدرِ إصبعا
وما أنا إلاّ الشمسُ غيرَ [2] غياهبٍ ... دَجَتْ فأبتْ لي أن أنيرَ وأسطعا
وإن طلعتْ تلك البدورُ أهِلَّةً ... فلم يبقَ إلاّ أن أغيبَ وأطلعا
فلا تقطعوا الأسبابَ بيني وبينكم ... فأنفكمُ منكمْ وإن كانَ أجدعا [3]

واحترق له بيت أيام مقامه بطليطلة ، فقال [4] : [١٤٧ أ]

تركتُ محليّ جنَّةً فوجدتها [5] ... على حُكْمِ أيدي الحادثاتِ جهنَّما
لتصطنعِ [6] الأيامُ ما شئن آخراً ... فما صنعتْ بي أوَّلاً كان أعظما

وأنشدت له مما نقش على رئاسِ سيف للمتوكل ، وأخبر عنه [7] :

لاتخشَ ضيماً ولا تُمْسِ [8] أخا فرق ... إذا رئاسيَ في يُمْنَى يديكَ بقي
أصبحتُ أمضى من الحَيْنِ المتاحِ فصلْ ... على الكماةِ وبي عند الوغى فثِقِ
لولا فتورٌ بألحاظِ الظّباء إذن ... لقلتُ إنيَ أمضى من ظُبَا الحدق

---

١ انظر المغرب والمسالك والحلة .
٢ المغرب : عند .
٣ هو من المثل : أنفك منك وإن كان أجدع .
٤ الحلة ٢ : ١٦٦ .
٥ الحلة : فوجدته .
٦ الحلة : لتصنع بي .
٧ هي في الحلة ومنها بيتان في المسالك .
٨ الحلة : تصبح .

ويتطرّفَ هذا المعنى قولَ ابنِ شرف[1] :

لم يبقْ للظلمِ في أيامهمْ أثَرٌ   إلا الذي في عيونِ الغيدِ منْ حورِ

ولابن هود في المتوكل أيام سلطانه بيابرة[2] :

يا خائفَ الدهرِ يمّمْ أرضَ يابرةٍ   تأمنْ وتكفى الذي تَخْشى من الحذرِ
وواصفَ البحرِ في شتى عجائبِهِ   حدّثْ بلا حَرَجٍ عنه وعن عمر
وكم سمعنا قديماً عن مكارمِهِ   حتى رأينا فأزرى الخُبْرُ بالخبر

في ذكر الشيخ الأديب أبي عمر فتح بن بَرْلُوصَةَ البطليوسي[3]

من نبهاء العصر المقلّين في الشعر ، إلاّ أن أبياته نوادر سوائر ، وهو القائل في ابن برد[4] :

إن ابنَ بردٍ لفتىً ماجدٌ   ونفسُهُ بالجودِ مفتونَهْ
مَدَدْتُ كفّي نحو بَلُّوطَةٍ   فقال : دَعْهَا وَخُذِ التينه

وأنشدت له :

وشادنٍ طَلَبَتْهُ مقلتي بدمي   فأطلعتْ ليَ في خدّيْه منه أثَرْ

....

١ قد مر في ما تقدم ص : ١٥٨

٢ منها بيتان في الحلة ٢ : ١٦٦ أكثرهما مطموس .

٣ انظر مسالك الأبصار ١١ : ٤٤٢ .

٤ أوردهما في المسالك .

وقام بين يديه الخالُ يعذرني ... وقد تعمَّمَ بالاظلامِ[1] فوق قمر
كأنما حلَّ جيشُ الحسنِ صَفْحَتَهُ ... وكرَّ للَّيلِ فيه فارسٌ فأسر

وأخبرني غيرُ واحدٍ من أدباء عصرنا ، قال : دخل لمّةٌ من الأدباء دارَ الأديب أبي مروان بن الصيقل اليابري ، فرأوا في بيته سيفاً معلّقاً ، فقالوا له : أيُّ شيءٍ تصنعُ بهذا السيف ؟ فقال : أعددته للمخانيثِ العتاةِ نظرائِكُمْ ، فاهتبل بعضهم غِرَّتَهُ حتى أخذ السيفَ ، ثم قاموا به عليه وقالوا : والله لنقتلنَّك أو تكتبَ لنا كتاباً بخطِّ يدك ، يتضمَّنُ أنا هتكنا حريمك ، وَعَجَمْنَا ميمَك ؛ ولما رأى الجِدَّ ، ولم يجدْ من بُدّ . كتب لهم بذلك خطَّ اليد ، فخاطب أبو عمر هذا بهذه الأبيات بعضَ[2] إخوانه :

زُرْنَا أبا مروانَ شيخَ المجونْ ... ونحن لا ندري سوى الظَّرف دينْ
فقام يدعونا إلى نَفْسِهِ ... بمدمعٍ[3] جارٍ وصوتٍ حنين
قلنا[4] له قد يرفع الدهر من ... آهٍ وندريك رفيقٌ[5] اللذين
وممكنٌ أن تتناسى[6] لنا ... ذلك أو تُلْفى من الجاحدين
اكتبْ لإخوانكَ رفقاً بهم ... صكاً بما عندك يستظهرون [١٤٧ب]
فإذ قضانا صكَّنا وانحنى ... قمنا على منبره منشدين
سبحانَ مَنْ سخَّر هذا لنا ... منه وما كُنَّا له مُقْرِنين

---

١ ط : بالإطلال .

٢ س : أحد .

٣ ط : بدمع .

٤ ط د : فقلنا .

٥ د : رقيق .

٦ ط : تتأسى .

فقال أبو مروان بن الصيقل في ذلك :

يا رُبَّ مفعولين قالوا آعطنا خطَّ يدٍ في أننا فاعلونْ
قلتُ لهم خطّي مباحٌ لكم أكتبُ فيه كلَّ ما ترغبون
فَمَنْ رأى الخطَّ الذي هُمْ به قبلَ اشتهارِ الأمرِ مستظهرون
يشهدْ بأن الخطَّ واللفظَ لي وأنَّهمْ في قولهم يكذبون

وانتهت الأبيات إلى الفقيه أبي عبد الله [1] بن القلاّس فكتب إلى ابن الصيقل بأبيات منها :

قل لأبي مروانَ شيخِ المجونْ شاعر ذا العصرِ العزيزِ القرينْ
قال ابن فتحٍ إنه كان قد ولم يقلْ أكثَرَ للمخبرين
وقد حكى أنَّ له شاهدَيْ عدلٍ على ذاك من الصالحين
فإن يكن حقاً فلا تكتئبْ إبليس جانٍ مثلَ ذا كلَّ حين
فالعزم أن تقصده ضارعاً إليه سِراً فعساه يلين
واسألْه أنْ يسترَ ما جاءه فان أبى فاجحدْ وَزِدْه يمين

فأجابه ابن الصيقل بأبيات منها :

أهكذا يفعلُه الصالحون تقبل أيماناً من الفاسقين؟!
لا تعتقدْ من شاعرٍ لفظَةً ولو غدا من أزهدِ الزاهدين
يريد أن يُخْفيَ صبحاً وهل يخفى سنا الصبحِ على الناظرين
إن كان غَرَّتْكَ يمينٌ له واحدةٌ خُذني بألفي يمين

....

[1] س : أبي عمر .

في ذكر الأديب أبي عمر يوسف بن كوثر الشنتريني[1]

أنشدت له من كلمة أولها :

ألا لا يُفَنِّدْ عاشقاً مَنْ له ذِهْن فوالله لولا العشق ما عُرِفَ الحسنُ

ومنها في أحد تلامذ عصره[2] :

مررت به يوماً يغازل مثلَهُ وهذا على ذا بالملاحة يَمْتَنّ

فقلتُ اجمعا بالوصلِ رأيكما فما لمثلكما كان التغزُّلُ والمجن

عسى الصبُّ يقضي اللهُ بينكما له بخيرٍ فقالا لي اشتهى العَسَلَ السمن

فجاءهما دُبٌّ فأحرزَ ذا وذا وما لامرىءٍ من ريب أيّامِهِ أمْن

وأنشدت له في كلمة أولها :

حِلٌّ لسيوفِ الحبّ دمي ما مثلي منه بمخترمِ[3]

وفؤادي فيه يساعفها[4] ويريها اللّذةَ بالألم [١٤٨ أ]

فمتى لحظتْ بشراً[5] حسناً تلتذّ بصورته تهم[6]

---

١ ذكره في النفح ٣ : ٤٥٨ وأورد له ثلاثة أبيات ، وفي المسالك ١١ : ٤٤٢ وأورد له بيتاً واحداً .

٢ منها ثلاثة أبيات في النفح .

٣ ط د : بمحترم .

٤ د س : يساعدها .

٥ د : شيئاً .

٦ ط د : يلتذ ... يهم .

يا أملحَ معشوق نعتاً واسماً فلنعتك أنت سمي
شَعْشِعْ بوصالِكَ كأسَ دلا لكَ تُطْفِ بذلك منْ ضرَمي

في ذكر الأديب أبي الوليد المعروف بالنحلي[1]

كان باقعة[2] دهره ، ونادرة عصره ، ولم يصدْ دراهمَ ملوكِ عصرنا إلاَّ بحرّ النادرة والتوقيع ، وقد اندرجت له عدّةُ مقطوعات في تضاعيف هذا المجموع ، وكان يُضحِكُ مَنْ حضَر ، ولا يكاد يتبسّم هو إذا نَدَّر ، وهو القائل يصف طلوع الشمس ومقابلة القمر لها :

أمَا ترى الشمسَ وهي طالعةٌ تمنعُ عنها إدامةَ النظرِ
حمراء صفراء في تلوُّنها كأنَّها تشتكي من السهر

---

١ يتفق نفح الطيب (٣: ٢٣٣) وبدائع البدائه (١١٤) وتحفة العروس (١١٣) في إيراد قصة المعتمد مع احدى حظاياه وما كان من شعر النحلي فيها ، ويورد النفح والبدائع قصة في وصف فرس للمتوكل كان في كفله ست نقط (النفح ٣ : ٣٣١ والبدائع : ٢٦٩ وهي عن الذخيرة ٢ : ٤٦٥) . وكذلك يوردان قصة شربه عند ابن طوفان (النفح ٣ : ٣٣١ والبدائع : ٤٠) وينفرد النفح بايراد نادرة ماجنة له (٣: ٢٣٤) وشعر له في مغنية (٣: ٤٤٥) وتدل قصة (٤ : ٩) على أنه كان لدى ابن صمادح ثم سار عنه إلى اشبيلية فمدح المعتمد وغمز من ابن صمادح بقوله :

أباد ابن عباد البربرا وأفنى ابن معن دجاج القرى

ثم نسي ما قاله فلما حل بالمرية ، أحضره ابن صمادح لمنادمته ، وأحضر للعشاء موائد ليس فيها إلا لحم الدجاج ، فلما احتج النحلي على ذلك أفهمه ابن صمادح أنه أراد تكذيبه في ما قال ، فطار سكره وجعل يعتذر ، فعفا عنه ابن صمادح ، ولكنه فر عن المرية وندم بعد ذلك .

٢ س : نابغة .

مثل عروسٍ غداةَ ليلتها تُمْسِكُ مرآتها من القمر
أو صورة المجد وهي ماثلةٌ تنظرُ قُدّامها إلى عمر

ومن أحسن ما سمعت في وصف[1] الشمس قول متوكل بن أبي الحسن[2]:

كأنما الشمسُ مرآةٌ مجرّدَةٌ وقد غدا المغربُ الأقصى لها سَفَطا

ومن نوادرِ[3] الآفاق ، الحلوةِ المساقِ ، الغريبةِ الاتفاق ، خبرُ النحليّ مع المعتمد بن عباد ، وذلك انه مشت بين يديه يوماً بعضُ نسائه ، في غلالة لا تكادُ تفرق بينها وبين جسمها ، ولها ذوائب تخفي إياةَ الشمس في مدلهمها ، فسكب عليها إناءَ ماورد فامتزج الكلُّ ليناً واسترسالاً ، وتشابه طيباً وجمالاً ، فأدركت المعتمد أريحيةُ الطرب ، ومالت بعطفيه راحُ الأدب ، فقال :

وهويتُ سالبةَ النفوسِ عريرةً تختال بينَ أسنّةٍ وبواترِ

ثم تعذّر عليه المقال ، أو شغلته تلك الحال ، فقال لبعض الخدم القائمين على رأسه : سر إلى النحليّ وَخُذْهُ باجازة هذا البيت ، ولا تفارِقْهُ حتى يفرغَ منه ، فأضاف النحليُّ إليه ، لأوّلِ وقوعِ الرقعةِ بين يديه ، هذه الأبيات[4] :

---

١ س : صفة .
٢ س : الحسين .
٣ وردت هذه النادرة في النفح وبدائع البدائه وتحفة العروس والمسلك السهل : ٤٦٣ .
٤ هي في النفح وبدائع البدائه وانظر الإعلام ٢ : ٣٢٦ وفي ط د: « هذين البيتين » في موضع «هذه الأبيات » ولهذا لم يرد منها سوى الأول والثالث ، إلا أن سائرها مثبت بهامش ط بغير خط الأصل .

راقتْ محاسنها ورقَّ أديمها فتكادُ تبصرُ باطناً من ظاهر
وتمايلتْ كالغصنِ في دعص النقا تلتفُّ في ورق الشبابِ الناضر
يندى بماءِ الوردِ مُسْبَلُ شعرها كالطلِّ يسقطُ من جناح الطائر
تزهى برونقها وعزّ جمالها زهو المؤيد بالثناء العاطر
ملك تضاءلت الملوكُ لقدره وعنا له صَرْف الزمان الجائر
وإذا لمحت جبينَه ويمينه أبصرتَ بدراً فوق بحر زاخر

فلما قرأها المعتمد استحضره وقال له : أحسنتَ . أو معنا كنت ؟ فأجابه النحليّ بكلام معناه: يا قاتل المحل. أو ما تلوت ﴿ وأوحى ربّكَ إلى النَّحْلِ ﴾[1] (النحل : ٦٧)

في ذكر الوزير الكاتب أبي بكر محمد بن سوار الأشبوني[2]

[١٤٨ ب] وأبو بكر في وقتنا واحد عصره . وله عدَّةُ قصائدَ في ملوك قطره . قالها تحبّباً لا تكسّباً ، وعمر مجالسهم بها وفاءً لا استجداء . فلما خُلعَ ملوكُ الأندلس حالت به الحال . وتقسَّمَهُ الإدبار والإقبال . ثم أسره العدوّ بعقبِ محنةٍ ، وبين أطباق فتنة . وقيّد بقوريةَ من عمل الطاغية ابن فرذلند . ثم خرج من وَثَاقِهِ . خروجَ البدر من مُحاقه وتردّد في بلاد أفقنا يحمله قربٌ على بعد . ويكله سُعَيْدٌ إلى سعد . حتى

١ زاد في ط بغير خط الأصل : فزاد المعتمد هذا الجواب عجباً ، واهتز له استغراباً وتعجباً ، وقرب النحلي وأدناه ، ووهب له من المال ما أرضاه به وأغناه .

٢ له ترجمة في المغرب ١ : ٤١١ ومسالك الأبصار ١١ : ٤٤٣ والمحمدون من الشعراء : ٣٥٩ والوافي ٣ : ١٤٣ .

ضاقتْ عنه الخطوب، وملّه السُّرى والتأويب، واتفق له أن أسمع الله صوته من وراء البحر المحيط الفقيه الأجل قاضي القضاة بالمغرب ، وسلالة الأطيب فالأطيب ، أبا الحسن علي بن القاسم بن عشرة ، فأجابه وأباه[1] ، وجذب بِضَبْعِهِ واستدناه ، فأعاد هلالَهُ بدراً ، وصيَّر خلّه خمراً ، ولبني القاسم[2] في الجود خيمٌ كريم ، ولهم تقدُّمٌ مشهورٌ معلوم ؛ بلغني أن جدَّهم الأكبر أحمدُ بن المدبر ، حاملُ تلك الفضائل ، وصاحبُ الأعمالِ الجلائل ، إذ كان أحدَ نجومِ تلك الآفاق ، ببلاد الشام والعراق ، واشتهار معرفة قدره ، يمنعُ عن ذكره ، لكني ألم هنا بلمعة من أمره .

قرأت في الكتاب الكبير لليعقوبي في الدولة العباسية قال : كان لأحمد ابن المدبّر منزلةٌ عند المتوكل جعفر ، وكان قد قَلَّد ديوانَ الضياع لابراهيم ابن العبَّاس الصوليّ ، قال وهب بن سليمان بن وهب : وكنت أكتبُ له ، وكان رجلاً بليغاً ، ولم يكنْ له في علم الخراج تقدُّمٌ ، وكان بينه وبين أحمد ابن المدبر تباعد ، وكان أحمد نسيجَ وَحْدِهِ ، فدخل على المتوكل وقال له: قَلَّدْتَ ديوانَ الضياع إبراهيمَ بن العباس فضاع ، فقال له المتوكل جعفر : غداً يحضرُ ، وتتكلَّمُ في أمره بما يظهر ؛ فبلغ ذلك ابراهيم فاغتمَّ لمعرفته أنه لا يفي بابن المدبر، وحضرا من الغد، فقال له المتوكل[3] : تكلم يا أحمد

١ واتفق . . . وأباه : زيادة عن س و المسالك .

٢ بنو القاسم هم بنو عشرة من أعيان سلا ، وقد كانوا مقصد الشعراء في عصرهم ، أو كما يقول ابن الأبار « رباب السماح وأرباب الأمداح » (اعتاب الكتاب: ٢٢٤) وللدكتور محمد بنشريفة بحث عن أسرة بني عشرة (مجلة البحث العلمي، السنة الرابعة ، العدد العاشر ص: ٦٥ –١٠٢؛ ١٩٦٧) .

٣ ط د : المتكلم .

فذكر أشياءَ صَدَقَ فيها ، وابراهيم ساكت ، فقال له المتوكل : يا ابراهيم ألَكَ جوابٌ على كلامه ؛ قال : جوابي يا أمير المؤمنين في بيتي شعر إن أذن لي قلتهما ، قال : قل ، فأنشد[1] :

ردَّ قولي وصدَّقَ الأقوالا   وأطاعَ الوشاةَ والعذّالا
أتراه يكونُ شهرَ صدودٍ   وعلى وجهه رأيتُ الهلالا

فقال المتوكل : زاه زاه ! ! أحسنتَ والله ، إيتوني بمن يلحّنُ هذا ، وأحْضِرُوا الندمان ، ودعونا من أخبار الديوان ، وخلع على ابراهيم .

وخلا المتوكل يَوْمَهُ بلهوهِ ، وبقي ابراهيم مغموماً في منزله ، فقيل له : هذا يومُ سرورٍ بما جُدِّدَ عليك من النعمة ، وَخُصِصْتَ به من الكفاية بدل النقمة ، فقال : الحقُّ بمثلي أولى وأشبه ، وما أدفع أحمد بن المدبر ، ولا كذبَ في شيء مما ذكره ، ولا أنا ممَّن يعشره في الخراج ، كما لا يعشرني في البلاغة ، وإنما ظهرت عليه في يومي هذا بالهَزْلِ ، فما لي لا أبكي فضلاً عن أن أغتم ، من زمان يُدْفَعُ فيه الحقُّ بالباطل ؟ ! وسيكونُ لهذا وَشِبْهِهِ نبأٌ بَعْدُ .

وقال يوماً يحيى بن أكثمَ القاضي لابن المدبّر بحضرةِ المتوكل جعفر : أنت كاتبٌ تتفقهُ وتذكرُ أنَّك لا تُلْزِمُ الناسَ الأموال إلا بحجج فقهية : مَن كَتَبَ للنبيّ عليه السلام ؟ قال أحمد : ليس على الكاتب عِلمُ ذلك ، ولاتعلُّمُهُ أيضاً على الفقيه ، إذ لايحلِّلُ حلالاً ولا يحرِّم حراماً ، وقد روي أنَّ

---

[1] ديوان ابراهيم الصولي (الطرائف الأدبية) : ١٤٩ والأغاني ١٠ : ٥٩ وفيه طرف من حكاية الصولي مع ابن المدبر .

عثمان وعلياً وزيد بن ثابت وحنظلة ومعاوية وغيرهم كتبوا له صلى الله عليه وسلّم ، ولكن من الذي عمل على عهده عملك فأمر بقتله ؟ ! يعرِّضُ له بما كان يُنْسَبُ لابن أكثم من اللواط — فخجل ، واستفرغ ضحكاً المتوكل ، فكان ذلك سببَ العداوة بينهما ؛ وأخباره كثيرة مأثورة .

جملة من شعر أبي بكر بن سوار في أوصاف شتى

[١٣٩ أ] له من قصيدة أوّلها [١] :

إيّاكَ من ظبيةٍ في ذلك الكنسِ ... فإنها أختُ ذاك الضيغمِ الهرِسِ
كم نمّ بي [٢] جَرسُ قُرطيها وساعدني ... ما في الخلاخلِ من صَمْتٍ ومن خرس
ما ظبية المكنس العفراء همتُ بها ... وإنما تيمتني ظبيةُ الأنس [٣]

ومنها [٤] :

ما يُعْرفُ العَرف في المسواك من سببٍ ... إلا من الشّنَبِ المعطارِ واللّعَسِ
يا ربّةَ الخدرِ حيثُ النجر من أسدٍ [٥] ... والموجُ من زَرَدٍ والسيفُ من فرس
رسومُ دارِكِ في يبرينَ دارسةٌ ... وفي الحشا لكِ ربعٌ غيرُ مندرس
قس ما تشاءُ تجد بي مِثْلهُ عوَضاً ... وبالزمان الذي ولّى فلا تَقِس

١ منها أبيات في المحمدون والمسالك .
٢ ط د : لي .
٣ سقط هذا البيت من ط د ، وهو ثابت في س والمحمدون من الشعراء .
٤ منها : سقطت من س .
٥ ط د : البحر (دون اعجام) من أمد ، وأثبت ما في س والمحمدون .

ألستَ تذكر يوماً حين زُرتَهُم والدهرُ يخرجُ من عيدٍ[1] إلى عرس
نزلت في موضعٍ حفَّ الغديرُ به كما يحفُّ اخضرارُ الليل بالغلس
< تريك دائرةَ الدينار صفحتُهُ فإن تَهادى قليلاً صار كالترس >[2]
ترى بها الحوت حول الماء جثته [. . .] ما يرمي من النفس[3]
كأنَّ جودَ عليٍ[4] جاد بلجتِّهُ فليس يخشى[5] عليه آفةُ الدرس
مطهَّرٌ لم يُدنِّس عرضَه بَخَلٌ وجوهرُ الشمسِ معصومٌ من الدَّنس

وكان أسر على ما ذكرته ، وبقي معتقلاً بمدينة قورية ، إلى أن خرج من وثاقه ، وقال في ذلك قصيدةً يصفُ كيفيَّةَ القبضِ عليه ؛ قال فيها[6] :

وليلٍ كهمٍّ العاشقين قميصُهُ ركبتُ دياجيه ومركبها وَعْرُ
سريتُ وأصحابي يُميلُهُمُ الكرى فهمْ منه في سُكْرٍ وما بهمُ سكر
رميتُ بجسمي قَلْبَهُ فنفذتُهُ كما نفذ الإصباحُ إذ فُتِقَ الفجر

---

١ المسالك : حزن .
٢ زيادة من المسالك .
٣ سقط البيت من ط د ، كما سقط البيتان التاليان له من س .
٤ هو علي بن القاسم بن محمد بن موسى بن عيسى ، أبو الحسن ابن عشرة ، كان فقيهاً حافظاً سري أهل بلده ، وجيهاً فيهم نبيه القدر ، رئيساً جواداً ، دخل الأندلس غازياً وامتدحه بها طائفة من أدبائها وشرق حينئذ وحج ثم عاد إلى بلاده ؛ وتوفي بسلا سنة ٥٠٢ وممن امتدحه من جلة الشعراء ابن حمديس وأبو الوليد اسماعيل بن ولاد وله في مدحه ومدح ابنه أبي العباس مجموع سماه «نزهة الأدب» (الذيل والتكملة – قسم الغرباء ، الورقة : ١٠ من مصورة الخزانة العامة بالرباط) ومن مداحه أيضاً الأعمى التطليلي وابن بقي وغيرهما (انظر مقالة الدكتور بنشريفة عن بني عشرة) .
٥ ط : تخفى .
٦ منها أبيات في مسالك الأبصار .

ولما بدا وجهُ الصباح تطلّعَتْ خيولٌ من الوادي محجّلَةٌ غُر
فقلت لهم : خيل النصارى فشمّروا إليها وكرُّوا ها هنا يَحْسُن الكرّ
وكانت حُمَيّا النوم قد صرعتهم فَفُلُّوا وَوَلَّوْا مدبرين وما قرّوا
وأفردْتُ سهماً واحداً في كنانة من الحرب لا يُخْشى على مثله الكسر
وكنت عهدت الحرب مَكْراً وخدعةً ولكنْ مع المقدور ما لامرئٍ مكر
فطاعَنْتُهُمْ حتى تحطّمَتِ القنا وضاربْتُهُمْ حتى تكسّرتِ البُتْر
أضرِّج أثوابي دماً رثيابَهُمْ كأنّ الذي بيني وبينهم عطر
وأحْدِقَ بي والموت يكشر نابَه ومنظرُهُ جَهْمٌ وناظره شَزْرُ
فأعطيتها وهي الدنيّةُ صاغراً وقد كان لي في الموتِ لو يَدّني عذر
فطاروا وصاروا بي إلى مستقَرِّهِمْ يصاحبني ذلٌّ ويصحبهم فخر
فقال العذارى حَرِّقُوه مقارضاً فمن قتله الفتيانَ عُطِّلَتْ البكر

ومنها :

فجاءوا بأنواعِ الكبول ونظّموا سلاسلَ في جيدي كما يُنْظَمُ الدر
وساقوا كلاباً كالفحولةِ أجْسُماً لها أعينٌ خُضرٌ ملاحظها شُزْر
فقالوا أعطنا ألفاً فقلت مضاعفاً [ ][1]
فسبحانَ ربي ما أجلّ جلالَهُ تخلّصني منها له الحمدُ والشكر [١٤٩ب]
فضاقتْ عليّ الأرضُ حتى كأنها بما رَحُبَتْ ما كان في طولها فتر
فناديتُ في حولٍ من الدهر كامل ألا رجلٌ حرٌّ ألا رجلٌ حرّ
وإنّ وراءَ البحر أرْوَعَ ماجداً بغرّته الغرّاء يُسْتَنْزَلُ القطر
ألا خبّراني ابني أبي هل أتاكما وشيكاً عن القاضي أبي حَسَنٍ ذكر

---

[1] زيادة من س ؛ والشطر الثاني بياض . وهذا البيت يرد في القصيدة التالية .

سلا عَنْ سلا هل من عليٍّ حقيقةٌ فانّيَ في أحشاء قورية سرّ
ألا إنما الدنيا عليّ وقربُهُ وإلاّ فانّ الأرضَ عامرها قفر
بعدلِ عليٍّ تُعْمَرُ الأرضُ كُلُّها وتتّسعُ الدنيا ولو أنها قبر
حنيني إليه موثقاً ومسرَّحاً كما حنّ للبرّ الذي يغرقُ البحر

وله من قصيدة في قاضي الجماعة أبي عبد الله بن حمدين :

من معشرٍ حُمدوا فأحمد سعيهم فلذاك ما سُمُّوا بني حمدينِ[1]
مضت القرونُ ومرّتِ الدنيا وَمَنْ فيها وما جاءتْ لهم بقرين
لله درُّكَ أيها القاضي فما حَبْلُ الرجاء لديك غيرُ متين
ولقد ذكرتُكَ والعدوُّ يَعَضّني والعلجُ يلطمُ صفحتي وجبيني
يومَ العذابِ وللكلابِ تضوُّرٌ حولي ونشّابُ الردى ترميني
وتوهّموني بالغنى وأضرَّ بي الـ ـمال الذي أخذوه إذ أخذوني
قالوا : أعطنا ألفاً فقلتُ مضاعفاً لما رأيتُ الموتَ ملءَ جفوني
فبقيتُ عاماً في الإسار مصفّداً بسلاسلٍ ضرباً من التنّين
لما يئستُ ولم تكنْ ليَ حيلةٌ أرسلت في ابن أبي فكان ضميني
وتركتُهُ بيد العدوّ موثّقاً[2] في ذُلّ أغلالٍ وضيقِ سجون
وَرَدَتْ رسائلُهُ عليّ فتارةً يشكو اليَّ وتارةً يشكوني
ولنا أُخيّاتٌ وأمٌّ أثكِلَتْ وأخافُ قبل الجمع وَشْكَ منون
فقلوبهم كالقلب في خفقانه وعيونهم في جَرْيها كعيون
فأتيتُ نحوك والرجاءُ يقودني وجميلُ ذكرك خلْفَهُ يحدوني

---

١ شرح البيت ص : ٢٢٢ .
٢ س : مثقفاً .

وله من أخرى في القاضي أبي الحسن بن القاسم [1] :

ساروا وَحَبْلُ وصالهم مَبْتُوتُ ... فسلوا نجومَ الليل كيف أبيتُ
بانوا وروحي عندهمْ وَحُشَاشتي ... وتظنُّ أنّهمُ مَضَوْا وبقيت
أسفي على وادي الأراكِ وإنّما ... يتأسَّفُ المحزونُ وهو يموت
أنْحي على الأقراطِ ناطقةً ولا ... أنحي على الخلخالِ وهو صموت
لا تأخذوا في اللوم لستُ بسامعٍ ... إنّ الملامةَ في الهوى تعنيت
هذا فؤادي إنْ وجدتمْ غيْرَهَا ... في طَيِّهِ فالنَّارُ والكبريت

ومنها في المدح : [١٥٠ أ]

لو أنَّ رِفْقَكَ في القلوبِ مُرَكَّب ... لم يلتقمْ في البحر يونسَ حوت
ولقد حملتَ من الوقارِ سكينةً ... لم يحتملها قبلك التابوت

وله فيه من أخرى أولها :

من لظى قلبي اقتدحْ لا من زنادِ ... ودموعي استسقِ لا صوبَ الغوادي
اصرفوا نومي ليدني طيفكمْ ... وهنيئاً ما غصبتمْ من فؤادي
أنتمُ الأحبابُ في حُكْمِ الهوى ... فارفقوا لا تفعلوا فعْلَ الأعادي
جسدي أنْحل من سرّكمُ ... في تناجيكم به يومَ البعاد
تكمنُ الشَّحناءُ في أحشائهم ... ككمونِ الجمرِ في جوْفِ الرماد
يحمدُ النجمُ الثريا ألْفَتي ... ولقد يبكي سُهَيْل لانفرادي
ما مرادي أن أرى منفرداً ... ربَّ محمولٍ على غير المراد
لا سقى الروضَ غمامٌ ساكب ... ليس يَسْقي مَعَهُ شوكَ القتاد

---

١ منها أبيات في مسالك الأبصار .

ومن المدح :

إنَّ من بعدِ بني القاسم لا | أحد يملأُ عيناً من جواد
نَسَب مُطَّرِدٌ من شرفٍ | ككعوبِ الرمح ذاتِ الإطّراد
وقبيلٌ كُلُّهُ من عزّةٍ | كظبا الهنديِّ في يوم الجلاد
وبنو عَشْرٍ ذوو العلياءِ لم | يُخْلَقُوا إلاّ لكفّ وذياد
وعفافٍ واعتكافٍ وتقىً | ووفاءٍ وعطاءٍ وأيادي

وله فيه من أخرى[1] :

بَدَتِ الغزالةُ والغزالةُ وجهها | وتكلّمَتْ فسمعتُ ظبياً يبغمُ
خالستُها وتبسمتْ فَظَنَنْتُها | عن مثْلِ ما في نحرها تتبسم
فتشابهتْ منها الثلاثةُ أضْرب | عقْدٌ وثغرٌ طيّبٌ وتكلّم
لو كان مرئيّاً جُمانُ حديثها | لرأيتَ منه أجلَّ شيء يُنْظَم
ومضت تجرُّ وراءَها شَعَراً كما | أعطاك جانبَهُ الغرابُ الأسحم
يمحو مواقعَ إثرها فكأنّهُ | يخفيه عن عينِ الرقيبِ ويكتم
والمسكُ فوق التربِ من أردانها | خطٌّ كما رُقِمَ الرِّداءُ المعلم
ما لي وما لك يا غيورُ[2] تسومني | خططَ الردى وأنا المعنّى المغرم
هلاّ التقينا حيث تنتثرُ[3] الظُّبا | والهامُ تسقطُ والقنا تتحطّم
والجوُّ أدكنُ بالغبار قميصُهُ | والجيشُ أرعنُ والخميسُ عرمرم
وكأنَّ يومَ الحشرِ يومُ[4] جموعنا | وكأنَّ غَلْيَ الحربِ فيه جهنّم

---

١ منها أبيات في الوافي والمسالك .

٢ ط د : عيون ، والتصويب عن المسالك .

٣ ط : ينتثر .

٤ الوافي : فيه .

وكأنّ كلّ كميٍّ حربٍ ماردٌ … تهوي إليه من الأسنّةِ أنجم
ومدرّبين على الطعانِ لقيتُهُم … وكأنهم في الشمس ليلٌ مظلم [١٥١ب]
لبسوا جلودَ الرقم واعتقلوا القنا … فرأيتُ كيف يَجُرُّ أرقمَ أرقم
حتى علوتُهم بكلِّ مهنّدٍ … يبكي فتحسبُهُ لهم يترحّم[1]
ذو خُطْبَةٍ في الهام يُسْمَعُ صوتها … في كلِّ قطرٍ وهو لا يتكلم
ولقد سَلِمْتُ من الصوارم والقنا … لو كنتُ من فتكات رميكِ أسلم[2]
أعليُّ يا ابنَ القاسم بنِ محمد … بيني وبينك عُرْوَةٌ لا تفصم
رُدَّ التحيَّةَ مثلَ ودّي غضّةً … إنّي عليكَ مع النسيم مسلّم
ولقد كتبتُ وأدمعي منهلّةٌ … والقلبُ فيه جَذْوَةٌ تتضرّم
أمِنَ السويّةِ أن أكونَ كما أنا … فيفوز غيري بالنعيم وأحْرَم
والله يرضى عنك من حَكَمٍ فقد … وافيتَ حُكْمَ الله فيما تحكم
إنْ بنتُ عنكَ ولم تُرِدْهُ فإنّه … بعضي لبعضك في فراقك يَخْصُم
ولقد ندمتُ على فراقٍ سلا كما … ضعف[3] الندامةَ حين أهْبِطَ آدم

وهذا كقول الآخر :

كآدمٍ حين عصى ربّهُ … عُوِّض بالدنيا من الآخرَهْ

قوله : « يجر أرقم أرقم » ، كقول ابن اللبانة ، وقد تقدّم[4] :

---

١ وردت لفظة « ومنها » بعد هذا البيت في س .
٢ وقعت لفظة « ومنها » بعد هذا البيت أيضاً في س .
٣ قرأها الأستاذ بنشريفة : « طعم » ، وهي قراءة جيدة .
٤ انظر ما تقدم ص : ٧٨ .

* فقلتُ الصلُّ أتبع ضيغما *

وقوله : « والمسكُ فوق الترب » . . . البيت ، كقول ابن شهيد :

وولَّت وللمسكِ من ذيلها على الأرضِ خطّ كظهر الشجاعِ[1]

وله فيه من قصيدة أوَّلها :

إلى ضوءِ ذاك البارقِ المتعالي حننتُ وحنّتْ[2] أينُقي وجمالي
تألّقَ يزجي عارضاً مثلَ أدمعي ويحكي فؤادي خَفْقُهُ المتوالي
فلولا شمالي في زمامِ شملّةٍ لطارت إليه في صَباً وشمال
إلى مسقطِ الغرس الذي كان غرسها به لا إلى سدرٍ هناك وضال
ولم تُنْسِها الأرطى رياضٌ ترودُها لدى موردٍ عذبِ المياه زلال
وحُبِّبَ للإنسانِ أوّلُ موطنٍ وإن كان في حاشاه ناعمَ بال
همُ بعثوا طيفَ الخيال الذي سرى فعانقَ جسماً مثلَ طيْفِ خيال
وأقبل من تلقائهم فكأنّهُ مغلّفَةٌ أعطافُهُ بغوالي

ومنها :

فيا دارهم بالحزنِ حُزني مُجَدّدٌ[3] عليك ، وقلبي ليس عنك بسالي
أرى أعيناً صُوراً إليَّ كثيرة ومن دون أن ألقاك سورُ عوالي[4]
وأبيضُ هنديٌّ كأنَّ بحدّه مُطّارَ ذبابٍ أو مَدَبَّ نمال

---

١ لم يرد من البيت في ط إلا قوله : « كظهر الشجاع » .
٢ د : وحشت ؛ س : وحمت .
٣ ط د س : مجرد .
٤ سقط البيت من س .

جرى فوقه ماءُ الفرندِ وتحته وجال على متنيه كلّ مَجَالِ
وقد أظهرت فيه المنايا نفوسَها كما خوّضَت لُجّ السرابِ سَعالي

ومن المدح[1] :

ولم يَحْكهم صوبُ الحيا لكن اغتدى بما فيهمُ من شيمة وخلال
وجاءوا على جيد الزمانِ قلائداً وأفعالُهُم فيها ضروبُ لآل[١٥١أ]
أقاموا لواءَ المكرماتِ وخيّموا من المجد والعلياءِ تحتَ ظلال
إذا احتجبوا لم يَسترِ الحجْبُ نورهم وإن طلعوا كانوا بدورَ جَمال
أو انتسبوا في المجدِ كان انتسابُهُم لأعظمِ عمٍّ أو لأكرمِ خال
وان ورثَ العلياءَ عنهم عليُّها فلا بدعَ في حالٍ وراثةُ عال
سكينتُهُ من أعفَرٍ[2] ويلملم وبعضُ رجالٍ في سكون جبال
إليكَ رمتنا العيسُ حتى كأنّها من الوَهْنِ أقواسٌ رَمَت بنبال

وهذا لفظ أبي العرب الصقلي[3] . وهو معنى قد نبّهْتُ عليه في تضاعيف هذا التأليف :

وحطّ بنا عن ناجياتٍ كأنها قسيٌّ رَمَت منّا البلادَ بأسْهُمِ

وكذلك قوله : « جرى فوقه ماء الفرند » لفظ ابن المعتز[4] :

جرى فوق متنيه الفرندُ كأنّما تنفّسَ فيه القَيْنُ وهو صقيلُ

---

١ س : ومن مدح هذه القصيدة .
٢ أعفر : جبل في بلاد الشام (معجم ما استعجم ١ : ١٧١)
٣ ترجمته في القسم الرابع من الذخيرة . الورقة : ١٠٩ ويرد البيت هنالك .
٤ زهر الآداب : ٧٧٦ .

وفي أشعار أبي بكر تلفيقٌ كثير ، على تدفُّقِ نحيزته ، وقوة غريزته ، كقوله في قصيدة ، منها :

وفتيةٍ من أعاريبٍ كأنّهُمُ — أسْدٌ على أعوجيّاتٍ سراحيبِ
لا يلبسون جلودَ الرقم سابغةً — حتّى تُخَاطَ بأحداقِ اليعاسيب
ولا تبيتُ على قُربٍ مَحلّتُهُم — إلا يبيت حماهم غيرَ مقروب
يا كم مضيتُ وغولُ [1] الهول يتبعني — وكم سريتُ وسيلُ الليلِ يرمي بي
مُلابساً ما تراه العين مُلْتبساً — ليلاً مع الليل أو ذئباً مع الذيب
وأطرقُ الفتياتِ البيضَ لابسةً — بيضَ الجلابيب في سودِ الجلابيب
والقرطُ كالقلب من خَوفٍ ومن حذر — كأنّه هُوَ في خوفٍ [2] وتعذيبِ
لم آتِها قطُّ إلا نمَّ بي وبها — واشٍ من الحَلْيِ أو واشٍ من الطيب
ولا انتهيتُ إلى أطناب قُبّتها — إلا على ظهرِ مطعونٍ ومضروب
بأبيضٍ بدمِ الأجسادِ مغتسلٍ — وأسمرٍ بدمِ الأكبادِ مخضوب
والطبعُ أكرمُ في تركيبِ خلقتهِ — من أن أكون محبّاً غيرَ محبوب
إن كنتَ يا دهرُ لم تُحْسِن معاشرتي — فيما مضى فلقد أحسنتَ تأديبي
أجرّبُ الناسَ في ضيقٍ وفي سَعَةٍ — والناسُ صنفان في حدّ التجاريب
وما على العود أن يُهدي نوافِحَهُ — إلاّ على لَهَبٍ بالجمرِ مشبوب
ويُطلبَ الجودُ من قومٍ وجود بني — عَشرٍ يجيئك عفواً دون مطاوب
محاسنٌ ثقفت منها أوائلهم — كما تَثَقّفَ أنبوبٌ بأنبوب

وقال من أخرى ، وذكر حمامة :

....

١ ط د : وحول .
٢ س : خفق .

بكت لم تُسِل دمعاً ولا هيَ أعربت ... ولا أفصحت معنىً بلحنِ كلامِ
ولم أرَ أشجى من بكاءٍ بَعَثْنَهُ ... فزدنَ به في لوعتي وغرامي [١٥١ب]
نوائحُ ما غاضَتْ دموعُ جفونها ... على السَّكْبِ إلا والضلوعُ حوام
وما ذلك المحمرُّ فيهنَّ خلقة ... ولكنها[١] مما بكين دوامي

ومنها :

سقى منزلاً بالغرب مُنْسَكِبُ الحيا ... وجاد عليه كلُّ أسحمَ هامي
بحيثُ بنو عَشْرٍ تنيرُ وجوهُهُمْ ... كما طَلَعَتْ ليلاً بدورُ تمام
فما أكثر المثني عليهم سجيَّةً ... وما أشبَهَ النُّعْمى بطوقِ حمام
رعى الله فيكمْ ذمَّةَ المجد والعلا ... فلا خَلْقَ أرعى منهمُ لذمام

وله فيه من أخرى[٢] :

إذا نزلَ العافون في عُقْرِ دارهِ ... فقد نزلوا في غبطةٍ وأمانِ
بحيث حياضُ الجودِ[٣] زُرقٌ مياهُها ... ومُزْنُ العطايا دائمُ الهطلان
وللغيثِ أوقات يفاجىءُ صَوْبُهُ ... ونائلُهُ ينهلُّ كلَّ أوان
أغرُّ طليقُ الوجهِ يهتزُّ للندى ... كما اهتزَّ مصقولُ الفرندِ يماني
فما لعليٍّ في البريَّةِ مُشْبِه ... وما لعليٍّ في الأنام بثاني
فلو أنني في الوصف لم أذكرِ اسمه ... دَرَوْهُ وقالوا : ذي صفاتُ فلان

١ ط : ولا كنف .
٢ من أخرى : زيادة من س .
٣ س : الموت .

وله فيه من أخرى عند صَدَرِه من حضرة أميرِ المسلمين :

مضيتَ بوجهِ السَّعْدِ وهو طليقُ ... وأبْتَ بثوب النجح وهو يروقُ
لقيتَ أميرَ المسلمين مقرَّباً ... كما يتلاقى شائق ومشوق
رآك وللإسلام نُصْحُكَ كُلُّهُ ... وعهدُكَ في ذاتِ الإله وثيق
تلقَّاكَ بالبشر الذي أنت أهلُهُ ... فقالوا : أب حانٍ عليه شفيق

ومنها :

ولما طغى قوم وَفَرْتَ لحومهم ... فعاجَ فريق واستقامَ فريقُ
وَضَلَّتْ حلومٌ[1] بالجهالةِ مثلما ... أضلَّ سُواع معشراً ويَعُوقُ
وجاءوك بالمكرِ الكريه وإنَّما ... بصاحبه[2] المكر الكريهُ يحيق
أراهمْ مكانَ الفضلِ منك فَرُوِّعوا ... كما انتشقتْ ريحَ الغضنفرِ نوق
وفرُّوا ولولا حُسْنُ رأيكَ فيهمُ ... لما حملتهمْ بعدَ ذلك سوق
فلا عَدِمُوا منكَ الذي عَهدوا فما ... بغيركَ غفرانُ الذنوبِ يليق
توسَّعْتَ فضلاً في وليٍّ وحاسدٍ ... ولم يكُ في باعِ المكارم ضيق
كرمتمْ فروعاً في المعالي حميدةً ... وطابتْ أصول منكمُ وعروق

وله فيه من أخرى ، وكتب إليه[3] بها من تلمسان وأوَّلها[4] :

لعلَّ إيابَ الظاعنين قريب ... فترجعُ أيامُ الحمى وتؤوبُ

....

١ ط : نجوم .
٢ ط : لصاحبه .
٣ إليه : زيادة من س .
٤ وردت أبيات منها في الوافي للصفدي وبيتان في المغرب .

مغاني تلاقينا وعهدُ اجتماعنا ... وليس علينا للزمانِ رقيب
وأيّامُنا بيضُ الليالي ودَهْرُنا ... من الحُسْنِ ما للشمسِ فيه غروب
بها كان يدعوني الهوى فأجيبُهُ ... مطيعاً وأدعو بالهوى فيجيب [١٥٢أ]
وأرمي المها عن ناظري فتصيبها ... سهامي وترميني المها فتصيب
وفي الخدْرِ مكحولُ الجفونِ صفاته ... من السِّحرِ معسولُ الرُّضابِ شنيب
إذا ما أدار[١] الكأسَ من مثل ريقه ... تمايلَ غُصْن وارجَحَنَّ كثيب
فأجفانُهُ سَكْرَى ونحن وقدُّهُ ... وكلٌّ بما استولى عليه مريب
ويهتزُّ نوّارُ الملاحةِ حوله ... فيعبقُ من أنفاسهِ ويطيب
على مثلِ أيام الزمان الذي مضى ... تُشَقُّ قلوب لا تُشَقُّ جيوب

ومنها :

أمثلَ عليٍّ تطلبُ العينُ أن ترى ... ومثلُ عليٍّ في الملوك غريب
فتىً يهبُ الدنيا ويرتاحُ للندى ... كما اهتزَّ غصنُ البانِ وهو رطيب
وتأتي عطاياه اطّرادَ خصالهِ ... كما اطّردتْ للسمهريِّ كعوب
وإن كنتُ قد أضربتُ عن مدح غيره ... فليس له في العالمين ضريب[٢]
أحبُّ سَلاَ من أجْلِ كونك في[٣] سلا ... فكلّ سلاويّ إليَّ حبيب
لصيّرتَها مصراً فَنَيْلُكَ نيلها ... وكفّاكَ بطحاها وأنت خصيب

١ ط د : أراد .
٢ وقعت لفظة « ومنها » بعد هذا البيت في س .
٣ المغرب : من .

وقد كرر هذا المعنى فيه أبو بكر ، في مواضع من شعره ، منها قوله من قصيدة[1] :

يقولُ رجال غيرَ ما يفعلونَهُ وإنَّ علياً قائل وفعولُ
فلا تطلبوا في ساحةِ الأرض مثلَهُ فمثلُ عليٍّ في الملوكِ قليل
ولولاك ما كانت سلا دارَ هجرتي ولا كان لي عمَّنْ أحبُّ رحيل
فألفيتُها مصراً وأنت خصيبُها وكفَّاك بطحاها ونَيْلُكَ نيل

ولما توفي سنة اثنتين وخمسمائة قال فيه يرثيه :

العيشُ بعدك يا عليُّ نكالُ لا شيءَ منه سوى العناءِ يُنالُ
يا عثرةً عثر الزمانُ بأهلهِ ليتَ الزمانَ من الزمانِ يقال
يا عصمَةَ الفقراءِ بل يا مالَهُمْ هيهات ما للناسِ بعدك مال
أبكيك بالدَّمِ لا بدمعي إنَّه يبكي سواي به وذاك محال
دنيا ظفرتِ وما متاعُكِ كُلُّهُ إلاَّ سَراب يضمحلُّ وآل
قد كنتُ مشغولاً به متوقعاً ولذي الوفاءِ بغيره أشغال
فالآن ها أنا لا أبالي عن أسىً وقع التوقُّعُ فاستراح البال
قد كنتَ آمالي التي أنا طالبٌ جهدي ومتَّ فماتت الآمال
لا الظلُّ ظلٌّ بعدَ فقدك يا أبا حَسَنٍ ولا الماءُ الزلالُ زلال

ومنها :

كنتَ[2] الصَّفوحَ عن المسيء ولم يكنْ إلا الجميلُ لديك والإجمالُ
حُطُّوا عن الأكوارِ قد مات الذي يتحمَّلُ الأعباءَ وهي ثقال

[1] زاد في س : « تقدمت » .
[2] ط د : كيف .

مذْ ودّعَ القوّالُ والفعّالُ ما في الأرضِ قوّالٌ ولا فعّال[1] [١٥٢ب]
وتهدّم الجبلُ المنيفُ فزلزلت رُتَبُ العلا ومن الرجال رجال
فلأجعلنْ حجّي لقبركَ إنه للخيرِ فيه وللتُّقَى أوصال
كلا عيالك لكن [. . .] فجميعنا لك يا عليّ عيال[2]
أين العزاءُ فقد أديلَ بأحمدٍ دُوَلُ الأفاضلِ بالبنين تدال

ومنها :

طوّقْتني النعمى فصرتُ حمامةً تشدو وغُصْنُكَ ناضرٌ ميّالُ
وإذا الأيادي لم تكنْ مشكورةً للمنعمين فإنها أغلال

ومن مدائحه في الفقيه القاضي أبي العباس ابنه[3] ، له من قصيدة أوّلها[4] :

بَعَثَتْ إليكَ من البراقِ خيالَها فأراك شكلك حاملاً أشكالها
هل ينكرُ الغَيْرانُ مني وَقْفَةً وقفتْ أمانيَّ النفوس حيالها
في ليلةٍ عبث المحاقُ ببدرها غصْباً فقصرّ عُمْرَهُ وأطالها
سوداءُ أشرقَ نجمها فلو آنني أجري على فَلَكِ لكنتُ هلالها
ولقد فتكتُ بقُرطها وبمرطها حتّى هتكتُ حجولها وحجالها

---

١ وقعت لفظة « ومنها » بعد هذا البيت في س .
٢ زيادة من س .
٣ أبو العباس أحمد بن علي بن القاسم ، ولي قضاء سلا بعد أبيه ، ويصفه الفتح بأنه « فخر بني القاسم » وفي مدح التطيلي له يلقبه « قاضي قضاة الغرب »، وعنده نزل ابن تومرت، وكانت وفاته بعد سنة ٥١٥ (انظر بحث بنشريفة : ٧١ — ٧٤ ، ٨٧)
٤ وردت ثلاثة أبيات منها في الوافي ومثلها في المسالك .

ومن المدح :

ما الخطّةُ العلياءُ زانته ، بلى[1] هو زانها حتّى أتمَّ كمالها
ويشقُّ ماءُ العتق صفحةَ خدّه شقَّ النرندِ من السيوف صقالها
وبأحمدِ بن عليّ بن القاسمِ بْنِ محمد دَرَتِ المكارمُ حالها
هو لفظةٌ من منطقِ الدنيا بها فخرَ الزمانُ على بنيه فقالها
من كلِّ مكتهلِ الوقارِ وأزهرٍ لبسوا الشبيبةَ فاكتسوا سربالها
يمشون فوق الأرضِ تحت حلومهم فتخالهم أوتادَها وجبالها
لولاهمُ لتحرَّكتْ جنباتها من رَجْفَةٍ ولزلزلت زلزالها

وله من أخرى[2] :

أمعاهدَ المدح[3] الذي غادرتُهُ مغدًى لبارقة المها ورواحا
وادٍ إذا ضرب الهجيرُ رواقَهُ أهدى إلى مُهَجِ القلوب رواحا[4]
إن كانت الأرواحُ من ماءٍ فمن ذاك المجاج تكوَّنَتْ أرواحا
فأتتْ تقبّلني فقلت لها أمسكي عنّي فإنّي لا أقاربُ راحا
فمضتْ وقد أخجلتُها فتبسَّمَتْ فرأيتُ في أرض العقيق أقاحا
حتّى إذا ما الروضُ نبَّهه الندى فتحتْ عيوناً كالعيونِ ملاحا

ومن المدح :

---

١ ط د : بل .
٢ منها أربعة أبيات في المسالك .
٣ كذا ولعل صوابها : المرح .
٤ سقط هذا البيت والذي يليه من س ؛ وجاء في موضعهما « ومنها » .

طالبتها أدباً فسال توقّداً وطلبته كرماً فذاب سماحا

وله فيه من قصيدة كتب بها إليه من تلمسان ، أوّلها :

على طول ما أبكي تعاتبني عَتْبا فياليتَ شعري هل يكونُ لها عتبى
سرى جانبٌ من جانبِ الغرب خافقٌ خفوقَ فؤادِ الصبِّ قد فارق الحبّا
فما قنعتْ في الحربِ بيضٌ صوارمٌ بأيدي كماة يكثرون بها الضّربا

ومنها :

تكلّفني نظمَ النجوم قلائداً لعمري لقد كلّفتني مرتقىً صعبا [١٥٣أ]
وهبك ملكتِ الشمسَ والبدرَ في يدي وسقت إلى جنبيهما الأنجمَ الشهبا
إذا لم أعلّقها على جيدِ أحمد فلا جيدَ في الدنيا يكون لها حسبا
صَبا بالغواني مَنْ صَبا وهو لم يزلْ بينتِ المعالي هائماً كَلِفاً صبا
فتىً يهبُ البيضَ الكواعبَ كالدمى وبيضَ الظبا والسُّمْرَ والضُمَّرَ القبّا
لقد وهب اللهُ الجمالَ لأحمدٍ وشرّف منه الخلق والخُلُقَ العذبا
موفّقُ آراءِ القضاءِ كأنّما بصيرتُهُ في الغيبِ تخترقُ الحجبا
إذا اكتسب الناسُ الدنانيرَ عدّةً فأحمدُ لا يرضى بغير العلا كسبا
كذاك مضَتْ في السالفات جدودُهُ كما مرَّ كعبُ الرمحِ مطّرداً كعبا

وله فيه :

يا راقدَ الليلِ التمام جفونُهُ إنّي بحبّكَ ساهرٌ ما أرقدُ
إني لأرحم خَصْرَهُ من رقّةٍ وأرِقُّ للغُصْنِ الذي يتأوّد
وغدا يطمّعني الوصالَ تمنيّاً إني سأهلكُ قبل أنْ يدنو غد
ولبستَ أثوابَ الملاحةِ مثلما لبس السماحةَ والرجاحةَ أحمد

لو كان خلّدَ فاضلٌ لفضيلةٍ فيه لكان على الزمانِ يُخلّد
المجدُ والشّرفُ المؤثّلُ والندى والجودُ والعَليا له والسؤدد
وبلاغةٌ لم أدرِ حين سمعتها أفصاحةٌ أم لؤلؤ متبدّد
لا ناطقٌ عَجِلُ الكلام بها ولا متوقّفٌ فيها ولا متردّد
من معشرٍ طابوا مناصبَ في العلا وإذا يطيبُ الأصْلُ طاب المولد

جملة من مراثيه

له من قصيدة في تأبين أمير المسلمين ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين رحمه الله ، قال فيها ، وأنشدها على قبره :

ملكَ الملوكِ وما تركتَ لعاملٍ عملاً من التقوى يشاركُ فيهِ
يا يوسفٌ ما أنت إلا يوسفٌ والكلُّ يعقوبٌ بما يطويه
اسمعْ أميرَ المسلمين وناصرَ الـ ـدين الذي بنفوسنا نفديه
جُوزيتَ خيراً عن رعيّتكَ التي لم ترضَ فيها غيرَ ما يُرضيه
أمّا مساعيك الكرامُ فإنّها خرَجَتْ عن التحديد والتشبيه
في كلِّ عامٍ غزوةٌ مبرورةٌ تُرْدي عديدَ الروم أو تُفْنيه
تصلُ الجهادَ إلى الجهاد موفّقاً حتّمَ القضاء بكلِّ ما تقضيه
ونجيّ ما دبّرتَهُ كنجيّه فكأنَّ كلَّ مغيّبٍ تدريه
متواضعاً لله مُظْهِرَ دينه في كلِّ ما تخفيه أو تبديه [١٥٣ب]
ولقد ملكتَ بحقّكَ الدنيا وكم ملَكَ الملوكُ الأمرَ بالتمويه

لو رامتِ الأيامُ أن تُحْصي الذي[1] فَعَلَتْ سيوفُكَ لم تكنْ تحصيه
إنا لمفجوعون منك بواحدٍ جُمِعَتْ خصالُ الخلق أجمعَ فيه
وإذا سمعتَ حمامةً في أيكة تبكي الهديلَ فإنما[2] ترثيه
ومضى قد استرعى رعيَّتَهُ ابنُهُ فأقام فيهم حقَّ مسترعيه
وإذا هزبرُ الغاب ضرَّى شبلَهُ في الغاب كان الشبلُ مثلَ أبيه
وإذا عليٌّ كان وارثَ ملكه فالسهمُ ملقىً في يدي باريه

وله من مرثية :

وناعٍ نعى والقَلْبُ كالقُلْبِ خافق مَرُوع ومماّ رابني لم أصدّقِ
بكتْ رحمةً لي عينُ كلِّ غمامةٍ وساعدني نوحُ الحمام المطوّق
فيا مزن لا [تؤذن][3] بتسكاب أدمعي فلي مدمع من لجة الحزن يستقي
فلولا التهابُ النار ما بين أضلعي لأصبحتُ في بحرٍ من الدمع مغرقِ
دعونيَ أشكو الدهرَ للدهر معتباً[4] على أنني أشكو إلى غير مُشْفق
فما فوقَ هذا الرزء رزء وإنَّما رمى كبدَ العليا بسهمٍ مفوّق
مضى بابن عشرٍ كابن عشرٍ وأربع فهلاَّ هلال مثلُ نونٍ مُعَرَّق
مضى بفتىً تُزْري أسرَّةُ وجهه بضوءٍ الصباح المشرق المتألق

وله فيه :

....

١ ط د : التي .
٢ س : فإنها .
٣ زيادة من س .
٤ ط : معنياً .

ما كنتُ أعلمُ علّةَ الزّهر[1] النّدي حتى ثوى في القبر جسمُ محمدِ
خطْبٌ ثنى وَجْهَ الصباحِ كأنّه بالحزنِ من قِطَعِ الظلام الأربد
ورزيّة نزلتْ بآلِ محمّدٍ خصّتْ وعمّتْ آلَ دينِ محمّد

وله فيه[2] :

الصبرُ أجملُ عند كلّ مُلِمّةٍ لكن على فقديهما لم يجملِ
قمران غُيِّبَ بالكسوفِ سناهما لا تُخْسَفُ الأقمارُ إنْ لم[3] تكمل
من قاضيين موفّقين كأنّما هذا شُرَيْح في القضاءِ وذا علي
لم يَعْدُوَا نهجَ السبيل وإنّما [. . . . .][4]
بنقيبةٍ من صحّةٍ ، وسجيّةٍ من روضةٍ ، وسكينةٍ من يذبل
ورويّة من حكمة ، وقضيّةٍ من فطنةٍ ، وبديهة من منصل

---

١ ط د : الدهر .
٢ منها بيتان في المسالك .
٣ س : ما لم .
٤ زيادة من س : والشطر الثاني فيها بياض .

الأديب أبو محمد عبد الله بن صارة الشنتريني[1]

ناثر وشاعر مُفْلِق ، وشهاب متألق ، نَثَرَ فسحر ، ونظم فنمنم ، وأولع بالقصار فأرسلها أمثالاً ، ورشق بها نبالاً ، لا سيما قوارعُ كَدرَها على مَرَدَة عصره ، وسم بها أنوف أحسابهم ، وتركها[2] مثلاً في أعقابهم ، وأوصاف أبدع فيها ، واخترع كثيراً من معانيها ، ومُلَح في شكوى زمانه ، دلَّ بها على علوّ شانه ، حتى لو أنّ أبا منصور الثعالبي رآه ، أو سمع شيئاً مما نحاه ، لأضربَ عن ذكر كثير ممن به أغرب ، كابن سُكّرةَ وابن لنكك ، ومن سلك ذلك المسلك .

وكان أبو محمد على جودة شعره ، وشفوفه على [١٥٤ أ] أهل قطره ، ضيّقَ المجال ، زُحَليَّ الانتقال ، لم يسعه مكان ، ولا اشتمل عليه سلطان ،

١ عبد الله بن محمد بن صارة (أو سارة) البكري الشنتريني الأصل ، نزل اشبيلية وسكنها وتعيش فيها بالوراقة ، وتجول في بلاد الأندلس شرقاً وغرباً للتعليم بالعربية ، وسكن المرية وغرناطة وامتدح الولاة والرؤساء ، وكان حسن الخط جيد النقل قائماً على جمهرة من اللغة والنحو ، وكانت وفاته سنة ٥١٧ (انظر التكملة : ٨١٦ والسلفي : ١٥ والقلائد : ٢٦٠ والخريدة ٢ : ٣١٥ وبغية الملتمس رقم : ٨٩٦ والمغرب ١ : ٤١٩ والرايات : ٣٥ (غ) والمطرب ٧٨ ، ١٣٨ والإحاطة : ٢٤٠ (النسخة الكتانية) والمسالك ١١ : ٣٨٣ وبغية الوعاة ٢ : ٥٧ (نقلا عن الوافي للصفدي) والشذرات ٤ : ٥٥ وزاد المسافر : ٦٦ ووفيات الأعيان ٣ : ٩٣ وانظر ٦ : ٢٥٢ وصفحات متفرقة من نفح الطيب ، وبدائع البدائه : ٣٧٦ وشرح المقامات للشريشي ، وقد مر ذكره في مواطن من القسم الأول ، انظر مثلا ١ : ٧٩ ، ١٤٧ ، ٣٧٩ .

٢ المسالك : وخلدها .

وكانت قصاراه تتبع المحقّرات ، وبعدَ لأيٍ ما ارتقى إلى كتابةِ بعضِ الولاة ، فلما كان من خلع الملوكِ ما كان ، أوى إلى إشبيلية أوحشَ حالاً من الليل ، وأكثر انفراداً من سُهَيل ، وتبلّغ بالوراقةِ وله منها جانب ، وبها بَصَر ثاقب ، فانتحلها على كساد سوقها ، وخلوّ طريقها ، وفيها يقول[1] :

أما الوراقة فهي أيكةُ حرفةٍ أوراقها[2] وثمارها الحرمانُ
شبّهتُ صاحبَها بصاحبِ إبرة تكسو العُراةَ وجسمها عريان

ولقد رأيت له عدّةَ مقطوعاتٍ في الهجاء ، تُرْبي على حَصَى الدهناء ، وهو فيه صائبُ السهم ، نافذُ الحكم ، طويتُ عليه كشحاً ، وأضربتُ عن ذكره صفحاً ، وربّما ألمعتُ منه بالأقلّ ، لترى فتَسْتدِلّ ، ولو استجزتُ أن أثبتَ في هذا الكتابِ ، بعضَ ما له في هذا الباب ، لتحققتَ أنه بالجملة بائقةُ محاجاة ، وصاعقةُ مهاجاة ، وقد كتبتُ من ذلك في كتابي المترجم بـ « ذخيرة الذخيرة » جملةً موفورة ، له ولطوائف كثيرة . وفيما أوردت مع ذلك هنا من شعره ، لما أجريت من ذكره ، حجة فصل ، وشاهد عدل .

---

١ البيتان في القلائد والمسالك وبغية الوعاة وابن خلكان والإحاطة والشذرات والثاني في طراز المجالس : ١٤١ .

٢ س : أغصانها .

جملة من شعره في النسيب وما يناسبه

قال في غلامٍ أزرق[1] :

ومهفهفٍ أبصرتُ في أطواقِـهِ قمراً بآفاق المحاسنِ يُشرقُ
تقضي على المُهَجاتِ منه صَعْدَةٌ متألّقٌ فيها سنان أزرق

وهذا كقول السلامي ، من أناشيد الثعالبي ، حيث يقول[2] :

أعانقُ من قدّه صَعْدةً ترى اللحظَ منها مكانَ السّنانِ

وأبو محمد يتسلّقُ على أشعار اليتيمة ، تسلُّقَ القاضي الغشوم ، على مال اليتيم . وفي ذلك يقول عبد الجليل :

قَدُّهُ مهما تثنّى صَعْدَةٌ والسّنانُ الذّلْقُ فيها طَرْفُهُ

ولابن رباح في غلام أزرق :

عيني رأتْ أغربَ شيءٍ يُرَى منزّهاً عن كلّ تشبيهِ
غصن من البلّور أعطافُهُ تريك ليناً في تثنّيه
يسفرُ للياقوت في حمرةٍ وإنْ رنا عن زرقةٍ فيه

[1] انظر القلائد والخريدة وابن خلكان والمسالك والشذرات .
[2] اليتيمة ٢ : ٤٠٣ .

وقال أبو محمد أيضاً[1] :

أعندكَ أن البدرَ كان ضجيعي فقضيّتُ أوطاري بغير شفيعِ
جعلتُ ابنةَ العنقود بيني وبينه فكانتْ لنا أمّاً وكان رضيعي

وقال[2] :

ومعذّرٍ رقّتْ حواشي حُسْنِه فقلوبنا وجداً عليه رقاقُ
لم يكسُ عارضَهُ السوادُ وإنّما نَشَرَتْ عليه صباغَها الأحداق

وقال[3] :

قاسيتُ حبّكَ منذ حول كاملٍ وطيورُ آمالي عليك تحومُ
فحرمتُ منكَ بلوغَ ما أمّلْتُهُ أشقى البريّةِ عاشقٌ محروم

وقال[4] :

يا من تَعَرَّضَ دونه شَحْطُ النّوى فاستشرفتْ لحديثهِ أسماعي
إني لمن يحظى بقربكَ حاسد ونواظري يَحْسُدْنَ فيك رقاعي
لم تطوكَ الأيامُ عنّي إنّمَا نَقَلَتْكَ من عيني إلى أضلاعي

---

١ انظر المطرب والمسالك والنفح ٣ : ٤٥٨ .
٢ البيتان في القلائد والمطرب والمسالك والرايات وابن خلكان وشذرات الذهب والقسم الأول من الذخيرة : ١٤٧ .
٣ انظر المسالك .
٤ الأبيات في القلائد والنفح ٤ : ٣٠١ .

وهذا المعنى كثير ومنه قول المعتمد[1] :

أغائبة عني وحاضرة معي كأنك من عيني نُقِلْتِ إلى كبدي[2]

وقال العباس بن الأحنف[3] :

تالله ما شطّتْ نوى ظاعنٍ صار من العينِ إلى القلبِ

وقوله : « إني لمن يحظي بقربك حاسد » ، كقول محمد بن أبي أميّة[4] :

قد رآها الرسولُ حين[5] رآها ليت عيني مكانَ عينِ الرسول

وقال[6] :

ومهفهفٍ يختالُ في أبراده مَرَحَ القضيب اللدنِ تحتَ البارحِ
عاينتُ في مرآةِ وهمي خدَّهُ فحكيتُ فِعْلَ جفونِهِ بجوانحي
لا غَرْوَ إن جرحَ التوهُّمُ خدَّهُ فالسّحرُ يفعلُ في البعيد النازح

وبيته الثاني من هذه كقول القائل ، إلا أن أبا محمد زاد فيه ، وهو :

فقتلتني وجرحْتُ خدَّكِ ظالماً ما كان أغناني وما أغناكِ

---

١ ديوان المعتمد : ٦

٢ الديوان : لئن غبت عن عيني فإنك في كبدي .

٣ لم يرد في ديوان العباس .

٤ كان محمد بن أبي أمية (أو ابن أمية) كاتباً شاعراً ظريفاً من ندماء إبراهيم بن المهدي وهو ممن كان يصاحب مسلم بن الوليد وأبا العتاهية (انظر الأغاني ١٢ : ١٣٩ – ١٥٠)والبيت الوارد هنا في الأغاني ١٢ : ١٤١ .

٥ الأغاني : وإذا جاءها الرسول .

٦ الأبيات في القلائد والخريدة والمسالك .

وقال [1] :

أيُّ امرىءٍ يُعْصَمُ من فتنةٍ بشادنٍ إبليسُ من جُنْدِهِ
جبينُهُ المشرقُ من وَصْلِهِ وَفَرعُهُ الحالكُ من صدّه
مَلَكْتُهُ رقّي ولا رقّةٌ يحظى بها قلبيَ من عنده
وسطوةُ الهنديّ في لحظه وعطفةُ [2] الخطّيّ في قدّه

وقال [3] :

ماءُ الجمالِ بخدّهِ مترقرقٌ والشمسُ منه تعومُ في ضحضاحِ
ما خدُّه جَرَحَتْهُ عيني إنما صَبَغَتْ غلالَتَهُ دماءُ جراح
رشأٌ له خدُّ البريء ولحظُهُ أبداً شريكُ الموتِ في الأرواح
ذو طرّةٍ سَبَجيّةٍ ذو غُرّةٍ عاجيّةٍ كالليلِ كالإصباح
لله راءُ زبرجدٍ في عَسْجَدٍ في جوهرٍ في كوثرٍ في راح
أتراه يعلمُ أنّ قلبي عنده رَهْنُ الهوى يهفو بغير جناح
مازَحْتُهُ ولم آدر ما حَدُّ الهوى حتى قدحتُ زنادَهُ بمزاح
لولا العيونُ لكان من دون الهوى وقلوبنا قُفْلٌ بلا مفتاح
قامتْ عليَّ شواهدٌ من حُبّهِ فأرى الكنايةَ فيه كالإفصاح

---

١ في هامش ط هنا تعليقات بخط غير خط الأصل ، وأكثرها شعر منقول عن القلائد .
٢ س : وسطوة .
٣ منها في المسالك أربعة أبيات .

ومن شعره في الأوصاف

قال في النارنج[1] :

أجمر على الأغصان زادت [2] غضارةً ... به أم خدودٌ أبرزَتْها الهوادجُ

وقضب تَثَنَّتْ أم قدودٌ نواعم ... أعالجُ من وجدي بها ما أعالج

أرى شجرَ النارنج أبدى لنا جنىً ... كَقَطْرِ دموعٍ ضرَّجتها اللواعج

جوامدُ لو ذابتْ لكانت مُدامةً ... تَصوغُ البُرَى فيها الأكفُّ الموازج

كراتُ عقيقٍ في غصونِ زبرجد ... بكفٍّ نسيمِ الريح منها صوالج

نقبّلها طوراً وطوراً نشمّها ... فهن خدودٌ بيننا ونوافج

وقال :

رخَمٌ من النارنج خُمْسَيْهِ وقلْ ... نار على الإطلاقِ ليس تُكَذَّبُ

عجباً لدوحتهِ ترفُّ غضارةً ... والجمرُ في أغصانها يتلهّب

كالغيد لا تشقى بنارِ خدودها ... وقلوبنا في حَرِّهِ تتقلّب

وهذا كقول بعض أهل عصرنا [3] :

---

١ انظر القلائد والخريدة والمغرب والرايات ، ومنها أربعة أبيات في المسالك واثنان في النفح ٣ : ٤١٤

٢ القلائد : أبدى .

٣ هو عمر بن الشهيد كما في الذخيرة ١ : ٦٩١ .

وتحت البراقع مقلوبُها تدبُّ على ورد خد ندي
تسالمُ من وطئتْ خدَّهُ وتلدغُ قلبَ الشجي الأبعد

وقال أبو محمد[1] :

أهدِ الثناءَ إلى زمانٍ مشرقٍ أهدى إليك شقائقَ النُّعمانِ
قامتْ فُرادى فوق سُوقِ زبرجدٍ صيغتْ عليه جماجمُ العقيان
يهفو بها مَرُّ النسيم كأنّها حُمْرُ البنودِ نُشِرْنَ في الميدان

وقال[2] :

وحديقةٍ في نرجسٍ وبهارِ رَفَعَتْ لواءَ الحُسْنِ للنظّارِ
فكأنّما هذا ضحىً متهلّل وكأنّما هذا أصيلُ نهار
أخوانِ أمُّهما معاً شمسُ الضحى وأبوهما قمرُ السماءِ السّاري
شربا سُلافَ القطرِ حتى عربدا وتراجما بكواكبِ الأزهار
واستودعا خبريهما نَفَسَ الصَّبا فأذاع ما كتما من الأسرار
فبكى الندى لهما ضُحيّاً ، والندى مذ كان للأزهارِ أكرمُ جار

ومنها :

نمتْ زجاجتُها بها فحسبتُها ماءً يحيطُ بجذوةٍ من نار
رام المديرُ بأن يسكّنَ فَوْرَها فتقاذفَتْ جنَبَاتُها بشرار

---

١ ورد في المسالك بيتان منها .
٢ منها أربعة أبيات في المسالك .

حتى إذا ما ابنُ الغمامةِ شجّها ثار الحبابُ مطالباً بالثار
في درعِ نضناض كأنّ أديمَهُ يرنو بأحداقٍ بلا أشفار

ألمّ في هذا بقول المعرّي وقصّر عنه[1] :

كأثوابِ الأراقمِ مزّقَتْها فخاطتها بأعينها الجرادُ

وكذلك قوله : « أخوانِ أمهما معاً شمس الضحى » ، من قول ابن الرومي[2] :

هذي النجومُ هيَ التي ربّتهما بحيا السحابِ كما يربّي الوالدُ

وقال[3] :

وبستانِ وردٍ في مطارفِ سندسٍ يرفُّ على غيدِ السّوالفِ ميّدِ
نظرتُ إليه في الكمام فَخِلْتُهُ ذوائبَ تبرٍ عُمِّمَتْ بزبرجد

وله يستدعي إلى مجالسِ الأنْسِ :

أيا تاجاً بهامِ المعلُوَاتِ وياوُسْطَى نظامِ المكرماتِ [١٥٥ب]
ومن طَلَعَتْ مآثِرُهُ نجوماً بأفلاكِ السعادةِ نيّرات
أرى ديماً تحثُّ إلى مدام يشيّعها النديم بِخُذْ[4] وهات

١ شروح السقط : ٣٠٥ ، يصف الدرع ويشبهها بجلد الحية ، وقد شبه المسامير فيها بعيون الجراد .
٢ ديوان ابن الرومي ٢ : ٦٤٤ والمختار : ٢٣٧ وأمالي القالي ١ : ٢٧٠ .
٣ البيتان في المسالك .
٤ ط : فخذ .

وعندي من بنات الكرم بكر يخفّرها ملاحظةُ السّقاة
يطوفُ بكأسها ساقٍ نبيلٌ مليحُ الوصف مقبولُ الصفات
يكرُّ إليكَ ألحاظاً مراضاً كأنَّ بها بقايا من سنات

وقال :

أيا من جارت العلياءُ فيه فما تدري له العلياءُ كُنْهَا
بجيد النُّبْلِ منّا عِقْدُ أُنْس أقام بغير واسطةٍ فكنها

وقال يصف سحابة :

أعاذَكَ الله من ليلٍ بُليتُ به كأنّه بغتةُ المقدورِ إذ طرقا
وافانيَ السّحر الأعلى بساريةٍ كادتْ تُعيدُ صعيداً منزلي زلقا
هلّلْتُ منها وقد هبّتْ صواعقها كراكبِ البحرِ لما شارف الغرقا
لله من عارضٍ ضاقَ الفضاءُ به طولاً وعرضاً فخلتُ البرَّ قد غرقا
تلألأ الجوُّ من نيرانِ بارقِهِ حتى حسبنا أديمَ الأرض محترقا
وقلتُ إذ قصفتْ للرعدِ قاصفةٌ تضعضعَ الفَلَكُ الأعلى أو انطبقا

ومن ملح شعره في ذكر الزمان وبنيه ، وتعذر آماله فيه[1] :

أرى الدينار للدنيا نسيباً يحيدُ عن الكرام[2] كما تحيدُ
هما سيّانِ إن صحّفْتَ حرفاً وجدتَ الراء تنقصُ أو تزيد
رأيتُ هواهما استولى علينا فنحن بحكمِهِ أبداً عبيد

---

١ ورد في النفح ٣ : ٥٦٧ خمسة أبيات منها .
٢ ط : المكارم .

يؤمّلُ أن يصيدهما فؤادي فيرجعُ عنهما وهو المصيد
فكم أصغي إلى زورِ الأماني ويُغْريني بها الحرصُ الشديد
وألمحُ من سنا الدينار برقاً غمامتُهُ على غيري تجود
يفوزُ به الخليُّ فيحتويه ويُحْرَمُ وصْلَهُ الصبُّ العميد
بجَدٍّ فاسعَ لا تحفلْ بِجِدٍّ أبتْ لك صحبةً فيها الجدود
فما حُسْنُ التناولِ فات سمعي ولكن فاته الجدُّ السعيد
إلى كم ينفرُ الدينارُ منّي ويطلبُ كفَّ مَنْ عنه يحيد
ألم أنْشِدْهُ في وادي هيامي به لو كان يَعْطِفُهُ النشيد
« حبيبي أنت تعلمُ ما أريدُ ولكنْ لا ترقُّ ولا تجود »
وكم غَنّيْتُ حين تنكّبتني منىً شيطانُها أبداً مَرِيد
« يريد المرءُ أن يُعْطَى مناه ويأبى اللهُ إلاَّ ما يريد »

وقال وقد طلّق امرأته : [١٥٦ أ]

أمّا الزمانُ فرقَّ لي من طَلّةٍ[1] كانت تَطُلُّ دمي بسيفِ نفاقها
الذئبةُ الطّلساء عند نفاقها والحيّةُ الرقشاءُ عند عناقها

وقال في هرٍّ له كان يسمّى رشيقاً :

تبنّيتُ الهزبرَ فبات شبلي وأقْصَيْتُ الغلامةَ والغلاما
أوسِّدُ ساعدي خدَّيْ رشيقٍ وأوسِعُهُ اعتناقاً والتزاما
وأطوي طولَ ليلي ذِكْرَ ليلى ولا أقرا على سلمى سلاما

١ الطلة : الزوجة .

وقال في أحد الكتّاب :

وأغرَّ ينتحلُ الكتابةَ خطّةً متوقّدٍ كالحيّةِ النضناضِ
عشق السّوادَ فأصبحتْ أسنانُهُ تشري السواد ببيع كلِّ بياض
فإذا شحا فاه رأيتَ خنافساً يأوين من فيه إلى مرحاض

وقال :

وأبخرَ قصَّ حديثاً له فقال الحضورُ فسا ذا الحدَثْ
فقلت لهم بادروا بالقيامِ فإن الفُساءَ نذيرُ الحدثْ

وهذا كقول عبد المحسن الصوري[1] :

حديثه كالحدثِ يرفثُ كلَّ الرفثِ

ومن غريب ما قيل في البخر قول الحصري :

أبخرٌ لا يحيكُ فيه البخورُ حسَدَ الغائبين فيه الحضورُ
قلت لمّا فسا بفيه علينا ما له آستٌ فكذّبتنا الأيور

وقال آخر :

أهدى مغيثٌ هِرَّهُ لقمةً أرسلها من فمه الأبخرِ
فبادر القطُّ إلى دفنها يحسبها من بعضِ ما قد خري

وقال أبو محمد أيضاً :

---

[1] اليتيمة ۱ : ۳۱۸ .

أما الثنايا فإني لست منثنياً ... عن الثناءِ عليها آخرَ الأبَدِ
يبدو لطرفك منها حين تُبصرها ... سنٌ كمثلِ مِسَنّ الصَّيْقَلِ الفرد
كأن جنَّ سليمانٍ بنوا فمه ... بنيانَ تَدْمُرَ بالصفّاح والعمد
يهدي إلى السّمْعِ من ألفاظه نغماً ... كأنّها نَفَثَاتُ السحر في العقد
له فمٌ كحرٍ في شكلِ صورته ... « ترمي غواربُهُ العبرين بالزبد »[1]

واستجزت إثبات[2] هذا إذ لم يصرِّحْ بأحد ، وقد قلت في غير موضع من كتابي هذا إني نزهته عن الهجاء ، ولم أجعله ميداناً للسفهاء .

وقال من قصيدة :

أرى السيادةَ مذ صافحت هاجِسَها ... في كلّ وادٍ من التقوى تهيم بكا
فما تُلاقيك إلاّ وهي قائلةٌ ... قولَ التي شغفّها الصدّيقُ هيتَ لكا
إنّي خطوت إليكَ الناسَ كلّهم ... ولم أزرْ سوقةً منهم ولا ملكا [١٥٦ب]
أشكو إليكَ ولا عارٌ بذي وَصَبٍ ... ألقى التداويَ من أوصابه فشكا
الخَرْجُ[3] أخرجَ رأسي من شبيبته ... فكلما افترَّ ثغرُ الشيب فيه بكى
وفي الشهور إذا وافين لي شَهَرٌ ... يظلُّ عنّيَ فيه السترُ منهتكا
وما الهلالُ بمبيضٍ لدى مُقَلي ... كأنّه من قتيرِ الشّيْب قد سبكا
أو من دراهمَ مذ باتتْ منجّمةً ... عليَّ كدتُ أسبُّ النجم والفلكا

---

١ علق ناسخ ط هنا بقوله : انظر هذا الخنا البشيع . فسبحان من قدر علي بكتبه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .
٢ ط د : أبيات .
٣ ط : الحرج .

وقال أيضاً في مثله [1] :

لولا الخراجُ خرجتُ عنه ولم تكنْ ... نُوَبُ الزمانِ خواطراً بخواطري
قالوا الخَراجُ فقلتُ ضُمُّوا خاءَهُ ... فهو الخُراج على سوادِ الناظر

وقال من قصيدة [2] :

سافرْ فإنَّ الفتى من باتَ مفتتحاً ... قُفْلَ النجاح بمفتاحٍ من السَّفَرِ
ولا يذودَنْكَ عن وجهٍ تصعُّبُهُ ... قد ينبعُ الكوثرُ السَّلْسَالُ من حجر
تنمَّرَ الدهرُ لي حتى مرقتُ له [3] ... من قسوريِّ الدّجى في فروة النمر
لا بدَّ أن يقعَ المطلوبُ في شركي ... ولو بنى وَكْرَهُ [4] في دارة القمر
قاضي الجماعة في دار الإمارة لي ... قاضٍ على الدهر إن لم يقضِ لي وطري
فلستُ أنشد والقاضي بقرطبةٍ ... يُسَرُّ بالعدل والأحكام والسير
« جار الزمانُ علينا في تصرُّفِه ... وأي دهرٍ على الأحرار لم يجر »
ولا أقولُ وعندي من تهمّمه ... ما يطردُ الهمَّ عن نفسي وعن فكري
« عندي من الدهر ما لو أنَّ أيسره ... يُلْقَى على الفَلَكِ الدوَّار لم يدر »
أصغرتُ من زمني ما كنت أكْبُرُهُ ... لما نظرتُ إلى آياتِه الكبر

وفيها :

وهاكَ بكراً تريكَ الحسنَ في قحةٍ ... إذا تجلّتْ وَحُسْنُ البكر في الخفر

....

١ لم يرد البيتان في س .
٢ منها أربعة أبيات في كل من القلائد والخريدة .
٣ الخريدة والقلائد : الدهر حتى ما فرقت له .
٤ الخريدة والقلائد : داره .

لها بذكرك أنفاسٌ مُعَطّرةٌ كما تنفست الأزهارُ في السحر
طالعْ بغرتك الميمون طائرُها نواظراً بلك في أمْنٍ من الطِّيَر
ولا تَدَعْنيَ في كفِّ الزمان سدىً كالقوس عَطّلها الرامي من الوتر
وقد تلينُ الليالي بعد قسوتها ويسمحُ الوَرْدُ بعد الشوك بالزهر
لم ألقَ في الوِرْد إلا ما أنسيتُ به وأنت لي وَزَرٌ من وَحْشَة الصَّدَر

قوله : « واو بنى وكره في دارة القمر » من قول المعرّي[1] :

ولو أنني في هالة البدر قاعدٌ لما هاب يومي رفعتي وجلالي

وأظنّ أبا ذؤيب افتتحه بقوله[2] :

ولو أنني استودعته الشمسَ لارتقتْ إليه[3] المنايا عَيْنُها أو رسولُها

وقال : [١٥٧ أ]

جزى الله إخواني جميلاً[4] فإنني وجدتهمُ لي عُدَّةً في الشدائدِ
همُ وصلوا كفي فكانوا سواعداً ولا خيرَ في أيدٍ بغير سواعد
أقلّدُهُمُ حُرَّ الثناء فإنّهم بجيد المعالي واسطاتُ القلائد
أبا بكرٍ الأوْلى بحمدي وبالمنى نثرتُ على الأحرار دُرَّ المحامد
أهزُّ حساماً من لسانِكَ إن سَطَتْ مضاربُهُ ذلّتْ رقابُ الشدائد

---

١ شروح السقط : ١٢١٠ .
٢ ديوان الهذليين ١ : ١٧٤ .
٣ ط د : استودعتها . . . إليها .
٤ س : جميعاً

عسى أملي يحظى بإدراكِ سُؤلِهِ		فتثمرَ بالإنجاز أيْكُ المواعد

وله :

لم أكسهمْ مِدَحي إلاّ لأكسُوَهُم		من سروِهم سُنّةَ الأحجالِ والغررِ
ولم أزِدْهُمْ بها فضلاً وهل أحدٌ		في وُسْعِهِ رفعُ قَدْرِ الشمسِ والقمرِ
مِنْ كلّ مَنْ يدُهُ يمضي بها قدماً		باعٌ طويلٌ وباعُ السيفِ ذو قصرِ
بحرٌ وصارمُهُ الدامي براحته		نهرٌ على ضفتيه يانعُ الثمرِ

ومعنى هذا البيت كثير ، ومنه قول المعرّي[1] :

روضُ المنايا على أنّ الدماءَ به		وإن تخالَفْنَ أبدالٌ من الزّهَرِ[2]

وقوله : « ولم أزدهم بها فضلاً » ، من السرق الواضح ، والاهتدام الفاضح ، وهو قول أبي الطيب[3] :

مَنْ كان فوقَ محلّ الشمسِ موضعه		فليس يرفعُهُ شيءٌ ولا يَضَعُ

وقال أبو محمد من قصيدة :

شاورتُ في سيري إليه عزيمةً		قُرِنَتْ بسعيٍ لا يخيبُ نجيحِ
لم أدرِ حين علوتُ مَتْنَ بُراقِهِ		أعلى البراق نزوت[4] أم في اللّوح[5]

---

١ شروح السقط : ١٥٨ .
٢ وصف السيف بأنه روض المنايا ، والدماء المختلفة فيه أنواع من الزهر .
٣ ديوان المتنبي : ٣٠٦ .
٤ ط د : تروت .
٥ سقط البيت من س .

ومنها :

يجتابُ أرديةَ العجاجِ وتحته أشلاءُ ذِمْرٍ أو صفيحُ ضريح

شَيْحان لم يعرفْ دريسُ قميصِه عَرْفَ الكباءِ سوى دخانِ الشيح

وأنا الذي أخفيتُ جهدَ خصاصتي من بعد ما ارتَشَفَتْ بُلالةَ روحي

حتى بدا ماءُ الندى مترقرقاً في صفحتيْ طَلْقِ اليدين صفوح

وأجلْتُ منه نواظري في غُرَّةٍ تستنطقُ الأفواهَ بالتسبيح

قاضي القضاةِ المجتبى من مَعْشرٍ كُسِيَ المديحُ بهم حُلِيَّ مديح

ممّنْ ترفُّ له عليك جوانحٌ فيها صحيحُ مودَّةٍ وجنوح

كم قلتُ إذ قالوا زمانٌ قابضٌ منه الكريمُ على عِنانِ جَموح

إن طاف من حدثانه الطوفانُ بي فمكارمُ القاضي سفينةُ نوح

وله فيه من أخرى[1] :

الله أكبر قد وافيتُ قرطبةً دارَ العلوم وكرسيَّ السلاطينِ[2] [١٥٧ب]

وقد تهلّلَ بي وجهُ النجاح بها طَلْقَ الأسرَّةِ من وجه ابن حمدين

تزهو العلا بمساعيه إذا ذُكِرَتْ زَهْوَ الأنوفِ بأنفاسِ الرياحين

لم يُرْضِهِ عَرَضُ الدنيا فجاد به وضنَّ بالأكرمَيْنِ : العرضِ والدين

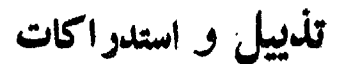
---

١ فيه من أخرى : سقطت من ط د .

٢ ورد هذا البيت في النفح ٣ : ٢٦ .

انتهى السفر الثاني من الذخيرة والحمد لله حق حمده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد المصطفى الكريم ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

وكان الفراغ منه عام خمسة بعد ألف في زوال
يوم الأربعاء الرابع والعشرون [كذا]
من ذي القعدة ، عرفنا الله خيره ،
ووقانا ضيره ، بمنه ويمنه



تذییل و استدراکات

تذييل

حين كان هذا القسم يكاد يشارف النهاية في المطبعة ، وصلتني صورتان عن نسختين منه [1] وإليك وصفاً موجزاً لكلّ منهما :

(١) نسخة الخزانة الملكية بالرباط (رقم : ٧٧٥٣) ورمزها (ك) ، وهي تشمل القسم الثاني كلّه ، وتضمّ ٢١٥ ورقة ، وفي كل صفحة من صفحاتها ٢٣ سطراً ، ومعدّل الكلمات ١٣ كلمة في السطر الواحد ؛ مكتوبة بخط مغربي حديث ، وفي بعض سطورها تحشيات بخط أحدث ، وفي أوراقها اضطراب ، وفيها خرم ضاعت بسببه بضع صفحات .

ويمكن أن تعدّ هذه النسخة دون تردد من فئة (ط) ولهذا نجدها تطابق(ط د)بوجه عام وربما انفردت بزيادات قليلة (وخاصة في إحدى قصائد ابن عمار وفي بعض أبيات للمعتمد) ، وهي لا تشذ عن(ط د)في القراءات حيث تكون هاتان متطابقتين . وتنفرد بعد ذلك بقراءات بعضها مرجح على ما عداه . ولهذا أثبته في الاستدراكات التالية . وبعضها مرجوح ولذلك أرجأته إلى جزء أخصصه للتعليقات العامة على جميع أقسام الذخيرة (وهو فيما أقدر سيكون جزءاً تاسعاً ، إذا وفقني الله إلى انجازه) ، وهذا القسم المرجوح هو الذي تنفرد به (ك) عن أختيها (ط د) ، فأما ما تتفق فيه معهما فلا أرى داعياً لاثباته .

(٢) نسخة المكتبة البودليانية باكسفورد (I : 749) ورمزها (ل) ، وهي أصل

---

[1] تلطف الصديق الدكتور عدنان البخيت ، الأستاذ بالجامعة الأردنية ، فأرسل إلي ميكرو فيلم عن نسخة الخزانة الملكية رقم 7753 كما تلطف الابن العزيز الأستاذ رمزي بعلبكي فأرسل إلي ميكرو فيلم عن نسخة المكتبة البودليانية باكسفورد . فالى الصديقين ، جزيل الشكر وأوفاه .

النسخة (س — الباريسية) ولذلك تقع في فئة النسختين (م س)، إلاّ أنها أكمل من (م) لأن هذه الأخيرة تقف عند جانب من ترجمة ابن عبدون، وأصحّ كثيراً من (س) التي تشاركها في الأخطاء الأصلية وتضيف كثيراً من الأخطاء الجديدة . ولما كانت كذلك فانها تتمتع بما في النسختين من زيادات أشرت إليها في الحواشي ؛ وربما كان خطها المغربي الدقيق الجميل يشير إلى أنها من أقدم ما لدينا من نسخ الذخيرة . إلاّ أنها لا تحمل تاريخاً للنسخ . وتقع في ۲۳۰ ورقة وفي الصفحة الواحدة من صفحاتها ۲٥ سطراً ، ومعدل الكلمات في السطر الواحد ۱۲ كلمة . وتحفل بعنوانات للفصول والفقرات مكتوبة بخط كبير .

وقد اعتمدت بعض قراءاتها الضرورية لقارىء هذا القسم وأدرجتها في الاستدراكات التالية محتفظاً بالمقارنة الشاملة للجزء الخاصّ بالتعليقات العامة .

ممّا تقدم يتضح أن هاتين النسختين لوقوعهما في فئتي المخطوطات التي اعتمدتها منذ البداية لم ينتشلا هذا القسم من الذخيرة مما يشكوه من نقص متصل بترجمة البكري وترجمة ابن حجاج (التي لا وجود لها في المخطوطات المتوفرة لديّ) — كما وضحت في مقدمة هذا القسم — ولكنهما قدّمتا بعض الفائدة في ترجيح بعض القراءات على البعض الآخر .

استدراكات [1]

٧٤ حاشية رقم : ١ — البيتان المشار إليهما لا يردان في هذا القسم ، فالقول بورودهما وهم .

٢٧٤ : ٨ — ٩ — أن غماءهم لا تنفرج ، وظلماءهم لا تنجلي ولا تتبلّج (كما قدرتُ في الحاشية رقم : ٤)

---

١ ميزت ما اعتمدت فيه على النسخة (ل) باثبات هذا الحرف إلى جانب القراءة المرجحة ، ومعنى ذلك أن كل ما لم يرفق به رمز فانه مستمد من (ك) . والرقم الأول يشير إلى الصفحة والثاني إلى السطر .

٢٨٦ : ١١ وجلي دياجير الظُّلَمِ والظُّلَمِ

٢٩٠ : ٣ وتعطلت أجيادُ الأنوار

٣٠١ : ١٥ من مختتم الكتاب

٣٢٩ : ٤ فكيف تزلُ (لعلها : تنزل) لي عن صهوة الابتداء

٣٣٩ : ٩ أن يشدّ على علق مضنّة منه يده

٣٤٨ : زاد في (ك) بعد السطر : ١٣ :

كلام لو ان البقل أدلى بمثله رمى البقل واخضرّ العضاه المصيف

٣٥٠ : ١٢ وابذل لها (احذف كلمة : بها)

٣٥٤ : ٩ وأعرب عن نحيزته وانتسب .

٣٧١ : ١٠ — ١١ وبعد انتباذه من منازلة شلب

٣٧٧ : ٢ أما معاني أول هذه القصيدة (كما في النسخة : د)

٤٠٩ : زاد في (ك) بعد السطر : ٦ « وقد رأيت البيت الأول منهما على قافية أخرى :

أسأت إليّ فاستوحشت مني ولو أحسنت أنسك الجميلُ

٤٥٧ : ٥ من حَفَّ أظآر العلا في معشر

٤٨٤ : ١٧ يا تربة استبقي سناه ويا بلى

٤٨٩ : ٨ وألفاظ التأبين مبنية على كثرة التفجع .

٦٨٢ : ٢٠ — ٢١ الشمائل الواعدة الصادقة .

٧٣٢ : ١٩ إذا شهدوا القتال (ل = كما في الديوان)

٧٣٣ : ٣ إذا التقت الرياح (ل = كما في الديوان)

٧٤٥ : ٣ أحال بالدين والدنيا على الخبر (ل)

٧٤٦ : زاد في (ل) بعد السطر : ١٩ البيت التالي :

أجللتها فاستبانت نصف دائرة لو كلفت شأوها الأفلاك لم تسرِ

٧٤٨ : ٤ غير نفس حرة زاحمت به (ل) .

٧٤٩ : ٥ أهلّوا بمنهل من الغيث (ل) .

٧٥٥ : ١٤ ويعيد بعض الريش إلى جناحي .

٧٥٨ : ٩ أمثِّلكَ أبا الحسين (كما قدرت في الحاشية رقم : ٣)

٨٧٣ : ٨ فسبيل ما وردني به الآن .

٧٩٤ : ٣ اقرأ : « وإن كان [ابن المعتز]قد تقدم في تقسيم التشبيه . . . »
والبيت التالي في غرائب التشبيهات : ٣٦ لابن المعتز ، وينسب
أيضاً للصنوبري : انظر ديوانه : ٤٨٧ .

فهارس الكتاب

١ ـ فهرس الأعلام

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ز

س

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

ك

ل

م

ن

هـ

٢ ـ فهرس الاماكن

٣ – فهرس الأمم والطوائف والقبائل

٤ – فهرس الكتب المذكورة في المتن

٥ ــ فهرس القوافي

قافية الهمزة

قافية الباء

قافية التاء

قافية الثاء

قافية الجيم

قافية الحاء

قافية الدال

قافية الذال

قافية الراء

قافية الزاي

قافية السين

قافية الشين

قافية الصاد

قافية الضاد

قافية الطاء

قافية العين

قافية الفاء

قافية القاف

قافية الكاف

قافية اللام

قافية الميم

قافية النون

قافية الهاء

قافية الواو

قافية الياء

مصادر التحقيق[1]

ابن شهيد لشارل بلاّ . منشورات الجامعة الأردنية ، ١٩٦٥ .

ابن عمار لصلاح خالص . بغداد ، ١٩٤٧ .

الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب (الجزء الأول) . تحقيق محمد عبد الله عنان . دار المعارف بمصر ؛ (ج ١ — ٢) . مصر ، ١٣١٩ ؛ مخطوطة المكتبة الكتانية بالرباط ، رقم : ٢٧٠٤ .

إحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعي . تحقيق رضوان الداية . دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٦ .

أخبار أبي تمام لأبي بكر الصولي . القاهرة ، ١٩٣٧ .

أدباء مالقة لابن عسكر .صورة عن نسخة خطية خاصة بمكتبة الأستاذ محمد المنوني .

الأزمنة والأمكنة للمرزوقي (١ — ٢) . حيدر أباد الدكن ، الهند ، ١٣٣٢

أساس البلاغة للزمخشري . دار صادر ، بيروت .

---

[1] قد أثبتنا في هذا الفهرست ما اعتمدناه من مصادر في تحقيق القسمين الأول والثاني ؛ وهي المصادر التي لم يرد ذكرها في تحقيق القسم الثالث من الذخيرة .

الأشباه والنظائر للخالديين (١ – ٢) . تحقيق السيد محمد يوسف . مصر . ١٩٥٨ – ١٩٦٥ .

الاشتقاق لابن دريد . تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، ١٩٥٨ .

الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (ج ٦) . مصر ، ١٣٢٣ .

إعجاز القرآن للباقلاني . تحقيق السيد أحمد صقر . دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٤ .

الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام للعباس بن ابراهيم (١ – ٥) . فاس ، ١٩٣٦ .

أعمال الأعلام للسان الدين ابن الخطيب (القسم الثالث) تحقيق الأستاذين العبادي والكتاني . الدار البيضاء ، ١٩٦٤ ؛ واعمال الإعلام تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦ .

الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن السيد البطليوسي ، القاهرة .

الاكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والانساب لابن ماكولا (١ – ٥) ، بعناية عبد الرحمن اليماني . حيدر أباد الدكن ، ١٩٦٢ – ١٩٦٦ .

الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (١ – ٣) . تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين . القاهرة ، ١٩٣٩ – ١٩٤٤ .

أمالي الزجاجي . تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، ١٣٨٢ .

أنساب الأشراف للبلاذري (ج ٥) . تحقيق جويتاين . القدس ، ١٩٣٦ .

الأوراق الصولي . تحقيق هيورث دن . مصر ، ١٩٣٦ .

كتاب البديع لابن المعتزّ . تحقيق كراتشقوفسكي . لندن ، ١٩٣٨ .

البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ . تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد . القاهرة ، ١٩٦٠ .

البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي (١ — ٤) . تحقيق ابراهيم الكيلاني دمشق ١٩٦٤ — ١٩٦٩ .

بلاغات النساء لابن أبي طاهر طيفور . مصر ، ١٩٠٨ .

بهجة المجالس لابن عبد ربه النمري (١ — ٢) . تحقيق محمد مرسي الخولي . مصر ، ١٩٦٢ .

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ج ١ — ١٤) . طبعة مصورة عن الطبعة الأولى . دار الكتاب العربي ، بيروت

تاريخ الحكماء للقفطي . تحقيق جوليوس ليبرت . ليبسك ، ١٩٠٣ .

تاريخ الطبري (ج ٢) . نسخة مصورة عن الطبعة الأوروبية . مكتبة خياط ، بيروت .

تبيين كذب المفتري لابن عساكر أبي القاسم . ط . القدسي ، القاهرة .

تحفة العروس للتجاني . القاهرة ١٣٠١ .

تذكرة الحفاظ للذهبي (١ — ٤) . الطبعة الثالثة ، حيدر أباد الدكن ، ١٩٥٥ .

ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (١ — ٤) . تحقيق أحمد بكير محمود دار مكتبة الحياة ببيروت ، دار مكتبة الفكر بطرابلس — ليبيا .

كتاب التشبيهات لابن أبي عون . تحقيق عبد المعيد خان . كمبردج ، ١٩٥٠ .

التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار القضاعي (١—٢) . ط . مصر ؛ والتكملة (ط . مدريد — يذكر موضحاً بالرقم) .

التلخيص للعسكري (١ — ٢) . تحقيق عزت حسن . دمشق ، ١٩٦٩

تمام المتون في شرح الرسالة الجدية لابن زيدون للصلاح الصفدي تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم القاهرة ، ١٩٦٩ .

تهذيب تاريخ ابن عساكر للشيخ عبد القادر بدران (١ — ٧) . دمشق ، ١٣٢٩ — ١٣٤٩ .

تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (ج ٢) . حيدر أباد الدكن ، ١٣٢٥ .

ثلاث رسائل في الحسبة . تحقيق ليفي بروفنسال . القاهرة ، ١٩٥٥ .

الجغرافية والجغرافيون في الأندلس لحسين مؤنس . مدريد ، ١٩٦٧ .

جمع الجواهر للحصري . تحقيق علي محمد البجاوي . القاهرة ، ١٩٥٣ .

جمهرة أنساب العرب لابن حزم الظاهري . تحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢ .

جمهرة نسب قريش للزبير بن بكار (الجزء الأول) . تحقيق محمود شاكر . القاهرة ، ١٣٨١ .

جوامع السيرة لابن حزم الظاهري . تحقيق ناصر الدين الأسد وإحسان عباس . دار المعارف بمصر .

الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية لابن أبي الوفا القرشي (١ ــ ٢) . حيدر أباد الدكن ، ١٣٣٢ .

حسن المحاضرة في تاريخ مصر ، والقاهرة للسيوطي (ج ١) . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . القاهرة ، ١٩٦٧ .

حلبة الكميت لشمس الدين النواجي : القاهرة ، ١٢٧٦ .

حلية الأولياء لأبي نعيم الاصفهاني (ج ٢) . القاهرة ، ١٩٣٨ .

الحماسة لابن الشجري . حيدر أباد الدكن ، ١٣٤٥ .

خاص الخاص للثعالبي . القاهرة ، ١٩٠٨ .

الدرة الفاخرة في الأمثال لحمزة الأصفهاني (١ ــ ٢) . تحقيق عبد المجيد قطامش . دار المعارف بمصر ، ١٩٧٢ .

دمية القصر وعصرة أهل العصر لأبي الحسن الباخرزي (ج ١ ــ ٢) . تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، القاهرة ١٩٦٨ ــ ١٩٧١ .

الديارات للشابشتي . تحقيق كوركيس عواد . بغداد ، ١٩٥١ .

ديوان ابن حمديس . تحقيق إحسان عباس . دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ .

ديوان ابن رشيق . جمع عبد الرحمن ياغي . دار الثقافة ، بيروت .

ديوان ابن زيدون . تحقيق علي عبدالعظيم . مصر ، ١٩٥٧ .

ديوان ابن مقبل . تحقيق عزت حسن . دمشق ، ١٩٦٢ .

ديوان ابن وكيع التنيسي . تحقيق حسين نصار . القاهرة .

ديوان أبي حية النميري . مجلة المورد (بغداد) العدد الأول من المجلد الرابع (١٩٧٥) ص : ١٣١ — ١٥٢ .

ديوان أبي الحسن التهامي . الطبعة الثانية ، دمشق ، ١٩٦٤ .

ديوان أبي سعد المخزومي . جمع رزوق فرج رزوق . بغداد ، ١٩٧١ .

ديوان أبي الشيص . جمع عبد الله الجبوري . بغداد ، ١٩٦٧ .

ديوان أبي نواس . طبعة اسكندر آصاف ، مصر ، ١٨٩٨ ؛ وديوان أبي نواس (١ — ٢) تحقيق ڤاجنر .

ديوان الأعمى التطيلي . تحقيق إحسان عباس . دار الثقافة ، بير ، ، ١٩٦٣ .

ديوان بكر بن النطاح . جمع حاتم الضامن . بغداد ، ١٩٧٥ .

ديوان الخليع الحسين بن الضحاك . جمع عبد الستار فراج . بيروت . ١٩٦٠ .

ديوان دعبل بن علي الخزاعي . جمع محمد يوسف نجم . بيروت ، ١٩٦٢.

ديوان ديك الجنّ الحمصي . تحقيق أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري . بيروت . ١٩٦٤ .

ديوان سحيم عبد بني الحسحاس . تحقيق عبد العزيز الميمني . القاهرة ، ١٩٥٠ .

ديوان الشريف الرضي (١ — ٢) . بيروت ، ١٩٦١ .

ديوان الشماخ . تحقيق صلاح الدين الهادي . دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٨ .

ديوان صريع الغواني . انظر : ديوان مسلم بن الوليد .

ديوان الصنوبري . تحقيق إحسان عباس . بيروت ، ١٩٧٠ .

ديوان طرفة بن العبد . باريس ، ١٩٠١ .

ديوان عدي بن زيد العبادي . جمع محمد جابر المعيبد . بغداد ، ١٩٦٥ .

ديوان علي بن الجهم . تحقيق خليل مردم بك . دمشق ، ١٩٤٩ .

ديوان القتّال الكلابي . تحقيق إحسان عباس . دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦١ .

ديوان مسلم بن الوليد (شرح ديوان صريع الغواني) . تحقيق سامي الدهان دار المعارف بمصر . ١٩٥٧ .

ديوان المعمد بن عباد . تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد . القاهرة ، ١٩٥١ .

ديوان مهيار الديلمي (ج ٣) . دار الكتب المصرية ، ١٩٣٠ .

ديوان النابغة الجعدي . طبعة المكتب الإسلامي . دمشق — بيروت ، ١٩٦٤ .

ديوان النامي . جمع صبيح رديف . بغداد ١٩٧٠ .

ديوان الوأواء الدمشقي . تحقيق سامي الدهان . دمشق ، ١٩٥٠ .

ديوان الوليد بن يزيد . جمع غابريلي . بيروت . ١٩٦٧ .

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (ج ٤ قسم ١) ، مصر ١٩٤٥ (ج ٢ قسم ١) . تحقيق لطفي عبد البديع مصر ، ١٩٧٥ ؛ (ج ١ قسم ١ — ٢) و (ج ٣ قسم ١ — ٢) . تحقيق إحسان عباس . بيروت ، ١٩٧٥ .

الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي . (ج ١ قسم ١ — ٢) ، تحقيق محمد بنشريفة ، بيروت ؛ (ج ٤ و ٥ و ٦) . تحقيق إحسان عباس بيروت . ١٩٦٤ — ١٩٧٣ ؛ (ج ٨) مصورة عن مخطوطة العباس بن ابراهيم (قسم الغرباء) .

رايات المبرزين لابن سعيد الأندلسي . تحقيق غرسية غومس . مدريد، (ورمزه غ) ؛ ورايات المبرزين (ط . مصر) .

ربيع الأبرار للزمخشري ، مخطوطة جامعة برنستون ، مجموعة يهودا رقم : ٤٢٧٢

الردّ على ابن النغريلة ورسائل أخرى لابن حزم . تحقيق إحسان عباس . القاهرة ١٩٦٠ .

رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة للغرناطي (١ — ٢) . مطبعة السعادة القاهرة . ١٣٤٤ .

روض القرطاس لابن أبي زرع . فاس . ١٣٠٣ .

الروض المعطار في خبر الاقطار لأبي عبد الله الحميري . تحقيق إحسان عباس . بيروت ، ١٩٧٥ .

الريحان والريعان لابن خيرة المواعيني (ج ١) . مخطوطة الفاتح رقم : ٣٩٠٩ .

كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني (ج ١) . تحقيق لويس نيكل وابراهيم طوقان . بيروت ، ١٩٣٢ .

سرقات المتنبي المنسوب لابن بسّام ، تحقيق ابن عاشور ، ط تونس ١٩٧٠ .

سرور النفس بمدارك الحواس الخمس للتيفاشي . نسخة عن مخطوطة أحمد الثالث رقم : ٢٥٥٧ .

كتاب السنن الكبير للنسائي .

سيرة رسول الله لابن هشام (١ — ٤) . تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الإبياري وشلبي . الطبعة الثانية . القاهرة . ١٩٥٥ .

سيف الدولة لكانار . الجزائر ، ١٩٣٤ .

شرح المفضليات لابن الأنباري . تحقيق كارلوس يعقوب لايل . بيروت ١٩٢٠ .

شرح مقامات الحريري للشريشي (١ — ٢) . القاهرة ، ١٣٠٠ ، وشرح المقامات (١ — ٤) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

شرح نقائض جرير والفرزدق (١ — ٢) . تحقيق بيفن . ليدن ، ١٩٠٥ — ١٩٠٨ .

شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج ٢) . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . القاهرة ١٩٥٩ .

شعر الخوارج . جمع إحسان عباس . الطبعة الثانية ، دار الثقافة ، ١٩٧٤ .

شعر اليزيديين . جمع محسن غياض . النجف ، ١٩٧٣ .

صحيح مسلم (١ — ٢) . القاهرة ، ١٢٩٠ .

صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد (ج ٧) : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين لمحمود مكي ص : ١٠٩ — ١٩٨ .

طراز المجالس للخفاجي . القاهرة ، ١٢٨٤ .

طبقات ابن سعد (ج ٣) . دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٧ .

طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (ج ٢) . القاهرة ، ١٣٢٤ .

طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي . تحقيق محمود محمد شاكر . الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٢ ؛ والطبعة الثانية (١ — ٢) ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي . تحقيق إحسان عباس . بيروت ١٩٧٠ .

كتاب الطبيخ لمؤلف مجهول . تحقيق إ . ميراندا . مدريد ، ١٩٦٥ .

الطرائف الأدبية . تحرير عبد العزيز الميمني . القاهرة ، ١٩٣٧ .

العبر في خبر من غبر للذهبي (١ — ٥) . تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد . الكويت ، ١٩٦٠ — ١٩٦٦ .

العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل لمحمد بن أحمد البلوي . نسخة الخزانة الملكية بالرباط ، رقم : ٦١٤٨ .

عقود الجمان للزركشي . مخطوطة الفاتح رقم : ٤٤٣٤ .

عنوان الأريب للنيفر (١ — ٢) . تونس ، ١٣٥١ .

عنوان المرقصات والمطربات لابن سعيد الأندلسي . تحقيق عبد القادر محداد . الجزائر ، ١٩٤٩ .

عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس (١ — ٢) القاهرة ، ١٣٥٢ .

الغيث المسجم في شرح لامية العجم للصلاح الصفدي (١ — ٢) . المطبعة الازهرية المصرية . القاهرة . ١٣٠٥ .

فجر الأندلس لحسين مؤنس . القاهرة . ١٩٥٩ .

الفهرست لابن النديم . تحقيق رضا تجدّد . طهران . ١٩٧١ .

قراضة الذهب لابن رشيق القيرواني . تحقيق الشاذلي بويحيى . تونس . ١٩٧٢ .

كليلة ودمنة . تصحيح عبد الوهاب عزام . مطبعة المعارف . القاهرة . ١٩٤١ .

كنايات الأدباء للجرجاني . مصر . ١٩٠٨ .

اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير (١ — ٣) . القاهرة . ١٣٥٦ — ١٣٦٩ .

اللزوميات لأبي العلاء المعري (١ — ٢) . طبعة هندية . القاهرة . ١٩١٥ ؛ ونسخة ليدن رقم : ٩٠٦ .

مجلة البحث العلمي المغربية (العدد ١٠) . مقالة « عائلة بني عشرة » لمحمد بنشريفة (١٩٦٧) ص : ٦٥ — ١٠٢ .

المحمدون من الشعراء وأشعارهم للقفطي . تحقيق حسن معمري . الرياض . ١٩٧٠ .

المختار في كشف الأسرار للجوبري . دمشق . ١٣٠٢ .

المختار من شعر بشّار للتجيبي بعناية محمد بدر الدين العلوي . القاهرة ، ١٩٣٤ .

مختارات ابن الصيرفي . تحقيق هلال ناجي . مجلة المورد العراقية ، المجلد الرابع (١٩٧٥) ص : ١٠٥ — ١٣٨ .

المخصص لابن سيده (١ — ١٦) . صورة عن الطبعة الأولى . المكتب التجاري ، بيروت .

مخطوطة الرباط ، انظر : مفاخر البربر .

المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا للنباهي . نشر ليفي بروفنسال . القاهرة . ١٩٤٨ .

المستقصى في الأمثال للزمخشري (١ — ٢) حيدر أباد الدكن .

المسلك السهل للافراني مخطوطة الخزانة العامة بالرباط .

مشاهير علماء الأمصار لابن حبان تحقيق م . فلا يشهمر . القاهرة ، ١٩٥٩ .

معالم الإيمان للدباغ (ج ٣) . تونس ، ١٣٢٠ .

المعاني الكبير لابن قتيبة (١ — ٣) . حيدر أباد الدكن ، ١٩٤٩

معاهد التنصيص لعبد الرحيم العباسي (١ — ٤) . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ، ١٩٤٧ .

معجم ما استعجم لأبي عبيد البكري (١ — ٤) . تحقيق مصطفى السقا . القاهرة ، ١٩٤٥ — ١٩٤٩ .

المغرب، لابن سعيد الأندلسي (قسم مصر ، ج ١) . تحقيق زكي محمد حسن وشوقي ضيف وسيدة كاشف . مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة، ١٩٥٣ .

مفاخر البربر . تحقيق ليڤي بروفنسال . الرباط ١٩٣٤ ؛ ومخطوطة الخزانة العامة بالرباط ، رقم : ١٢٧٥ .

المفضليات ، انظر : شرح المفضليات .

المقاصد النحوية للعيني ، على هامش خزانة الأدب ، بولاق .

المقتضب من تحفة القادم لابن الأبار القضاعي . تحقيق ابراهيم الابياري . القاهرة ، ١٩٥٧ .

المقتطف في أزاهر الطرف لابن سعيد . نسخة مكتبة سوهاج .

المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزي (٥ — ١٠) . حيدرأباد الدكن ، ١٣٥٧ .

الموازنة بين الطائيين للآمدي (١ — ٢) . تحقيق السيد أحمد صقر . دار المعارف بمصر ، القاهرة . ١٩٦١ — ١٩٦٥ .

الميسر والقداح لابن قتيبة . بعناية محب الدين الخطيب . القاهرة ، ١٣٤٢.

نزهة الجلساء في أشعار النساء للسيوطي . تحقيق صلاح الدين المنجد . بيروت . ١٩٥٨ .

نزهة المشتاق للادريسي (قسم الأندلس والمغرب) . تحقيق دوزي ودي خوية.امستردام ١٩٦٩ .

نسب قريش للمصعب الزبيري . تحقيق ليڤي بروڤنسال . دار المعارف بمصر . القاهرة ، ١٩٥٣ .

نقائض جرير والفرزدق ، انظر : شرح نقائض جرير والفرزدق .

نهاية الخلافة الأموية للصوفي الطبعة الأولى ، حلب ، ١٩٦٣ .

نور القبس المختصر من المقتبس للمرزباني من اختصار الحافظ أبي المحاسن اليغموري . تحقيق رودلف زلهايم . بيروت ، ١٩٦٤ .

الوافي في نظم القوافي . مخطوطة الخزانة العامة بالرباط ، رقم : ١٧٣٠ .

الوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبد العزيز الجرجاني . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي . الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٥١ .

Caskel, w, *Gamharat An-nasab de Ibn Al-Kalbi* (Bl. 1-2) Leiden, 1966.

Dozy, Reinhart. *Spanish Islam*. London, 1913

Encyclopaedia of Islam (New Edition).

Hesperis Thamuda: Ibn Darraj, by Blachère (1933) pp. 99 — 121.

Lévi-Provençal, E· *Histoire de L'Espagne Musulmanne* (I-III), Paris — Leiden, 1951 — 1963.

فهرس المحتويات